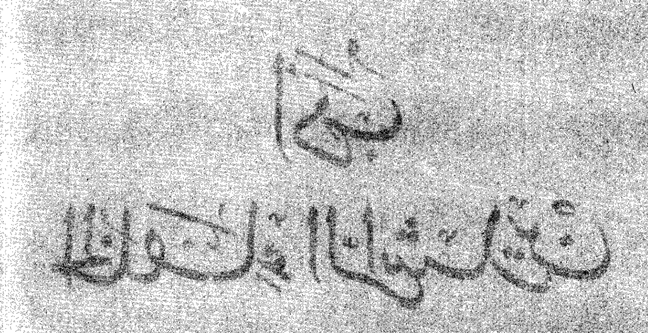
أدب
الخلفاء الراشدين

أدب
الخلفاء الراشدين

دكتور جابر قميحة
كلية الألسن
جامعة عين شمس

دار الكتب الإسلامية
دار الكتاب المصري   دار الكتاب اللبناني



دار الكتاب المصرى

القاهرة ج.م.ع

٣٣ شارع قصر النيل - ص.ب ١٥٦

ت ٧٤٢١٦٨ / ٧٥٤٣٠١ - برقيا (كتامصر)

TELEX: 21581

A.T.T 134 K.T.M.

دار الكتاب اللبنانى

بيروت - لبنان

ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)

تليفون. ٣٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٣٧٠

TELEX No 22865 K.T.L

LE BEIRUT

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهــــداء

إلى سـيدى ...

نور بصرى وبصـيرتى

وعبير ضميرى وسـريرتى ...

إلى أسـتاذ الحيـاة

محمّد بن عبد الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ

إليه أهـدى أدب خلفـائـه

الـراشـدين المـهـديين

إيمانا... وتحية ... وحبـًا .

مدخل وتمهيد

الخلفاء الراشدون :

روافد
الثقافة
وعوامل
التأثير

المقدمة

درج مؤرخو الأدب على تقسيم العصور الأدبية إلى أقسامها الزمنية المعروفة ارتباطا بالواقع السياسى ، ابتداء من العصر الجاهلى ومرورا بعصر صدر الإسلام ، ثم العصر الأموى ثم العصر العباسى الأول والثانى ، يليه العصر التركى أوالعثمانى .

ومازال هذا التقسيم هو أوضح التقسيمات ، وأوفاها بالغرض ، واقربها إلى التعبير بصدق عن طوابع العصر على الرغم من اعتراض بعض الكتاب عليه فى حدة وشدة[1]

نقول هذا ونحن على إيمان بأن الفواصل بين هذه العصور الأدبية ليست من الصلابة والحدة بحيث تمنع بعض ظواهر عصر من التسلل إلى أدب عصر آخر ، وليس من همنا أن نفصل هذه الحقيقة ، وأن ندلل عليها ، فذلك خارج عن نطاق بحثنا .

كان العصر الأول من عصور العربية : هو العصر الجاهلى ، وكان أدب هذا العصر فى كلمات قلائل هو أدب « الصدق والعفوية الفطرية » بعيدا عن

---

(١) من هؤلاء طه حسن فى كتابيه : (تجديد ذكرى أبى العلاء) ٣٧ ، ٣٨ و(فى الأدب الجاهلى)٤٦ .

التكلف والتصنع والافتعال ، وكان مرآة حقيقية عكست طوابع العصر وملامحه فى أخلاقه وعاداته وتقاليده ومعاشه ، وطعامه وشرابه ، وآلامه وآماله . (٢)

• • •

ثم جاء عصر صدر الإسلام الذى يبدأ بالرسالة المحمدية ، و ينتهى سنة ٤٠ هـ ليضيف إلى المنابع الأدبية منبعا غنيا ثرارا هو القرآن الكريم .. ووقف الجميع أمام هذا المنبع الجديد مبهورين :

١ــ فهو يمثل قمة البلاغة العربية التى لم يعهد العرب مثلها من قبل ، مع أن لغته هى لغتهم ، وحروف كلماته هى حروف كلماتهم.

٢ــ وهو موضوعيا يحمل من القيم والمبادىء ما أحدث أكبر تحول اجتماعى وسياسى وخلقى فى تاريخ البشرية .

٣ــ وأهم دواعى الانبهار والدهشة أن الذى أتى بهذا الكتاب رجل أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وهذا فى ذاته أقطع الأدلة على أن القرآن من عند الله ، وأنه ليس بقول بشر .

وكانت البلاغة القرآنية بسحرها البيانى تتسلل إلى القلوب فتعطفها إلى الإيمان ، وتخرجها من الظلمات والشك إلى النور والحق واليقين (٣) .

• • •

ومن الطبعى أن يكون أول المتأثرين بالبيان القرآنى هو حامل الرسالة محمد ابن عبد الله ــ عليه السلام ــ فاستقى من هذا المعين الكريم ، وجرت الكلمات القرآنية على لسانه ، وجاءت البلاغة النبوية فى المرتبة الثانية من البلاغة القرآنية ، ولكن أغرب الأشياء ــ كما يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعى :
إنك إذا قرنت كلمة من البلاغة النبوية إلى مثلها مما فى القرآن الكريم . رأيت

---

(٢) يرجع فى ذلك إلى كتب أحمد الحوفى: الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، والغزل فى العصر الجاهلى ، والمرأة فى الشعر الجاهلى .

(٣) اقرأ فى ذلك روايتين مختلفتين عن إسلام عمر بن الخطاب ، وكلتاهما تلتقيان فى أن العامل الأساسى فى جذبه إلى الإسلام هو قراءته بعض آيات من القرآن الكريم أو استماعه له . [السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٣٢ــ٣٣٧] .

الفرق بينها فى ظاهره كالفرق بين المعجز وغير المعجز سواء ، ورأيت كلامه ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى تلك الحال خاصة مما يُطمع فى مثله ، وأحسست أن بين نفسك و بينه صلة تطوع لك القدرة عليه ، وتمدلك أسباب المطمعة فيه . بخلاف القرآن ؛ فإنك تستيئس من جملته ، ولا ترى لنفسك إليه طر يقا ألبتة ، إذ لاتحسب منه نفسا إنسانية ، ولا أثرا من آثار هذه النفس ، فما هو إلا أن تقرأ الآية منه حتى تراها قد خرجت من حد المألوف ، وانسلت منه ، وفاتت سمْت ما قدرت لها من مطلع ومقطع ، فهما وجدت لاتجد سبيلا إلى حدها ، ومهما استطعت لا تستطيع أن تقرن بها كلاما تعرف حده فى البلاغة إن لم يكن بالصنعة فبالحس[٤]

وكانت السنة النبو ية فى خطبها ورسائلها وأحاديثها وحِكَمِها وأحكامها منبعا ثانيا من منابع البلاغة العربية من هذا العصر ، ولكن يبقى الفرق بينهما ــ كما ألمحنا ــ واضحا للعيان :

فالقرآن هو « القمة البيانية » ؛ لأنه كلام الله الذى ينبع من قدرة بلاحدود ، لذلك تحدى البشر بإعجازه ، فما كان منهم إلا العجز ، وجاء ذلك فى أكثر من آية ؛ مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[٥]

---

(٤) الرافعى : إعجاز القرآن والبلاغة النبو ية ٣٦٧ .

(٥) البقرة الآيات : ٢٣ ــ ٢٤ .

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾(٦)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾(٧)

وإذا كان القرآن يمثل « القمة البيانية » بإطلاق ، فإن السنة النبو ية تمثل قمة البيان البشرى على الرغم من أمية صاحبها . و يرجع هذا التفوق البيانى إلى سببين أومصدر ين :

الأول : فصاحة النبى الفطر ية ، وقدرته على استبعاب الرائع من كلام العرب .

الثانى : البلاغة القرآنية : فهو ـ عليه السلام ـ أول المتلقين لها ، المقبلين عليها ، فلاعجب ـ إذن ـ أن يكون أول المتأثر ين بها ، المطبوعين عليها ، وهو الذى صنعه الله على عينه ، واختاره لأكرم رسالاته .

ولاعجب أيضا أن يكون الأدب عامة من الأمور التى حظيت باعتناء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فِعْلاً له ، وأمْرابه ، وتشجيعا عليه ، وإقرارا على النبوغ فيه ، وحسبك أنه اتخذ من الخطابة والوصايا أداتين لتبليغ رسالته لمن يتيسر له أن يلقاه ، واتخذ من الكتابة أداة لتبليغ هذه الرسالة لمن نأى عنه ، وانه زاد فى ذلك فجعل من الخطابة واجبا دينيا يلزم أن يؤدى لتتم به ، أوتصح به فر يضة الصلاة فى يوم الجمعة ، و بلغت النصيحة فى شرعته ـ وهى لون من الوصايا أومن الخطابة ـ درجة الفرض الكفائى ، أوالعينى على المسلمين فى ضرورة التزامهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر(٨) .

---

(٦) الإسراء الآية : ٨٨ .

(٧) هود الآية : ١٣ .

(٨) عبد السلام عبد الحفيظ : الشعر الإسلامى فى ظلال النبوة ، والخلافة الراشدة ١٩ .

ولكن تبقى البلاغة النبوية ــ كما قلنا ــ « بلاغة إنسانية » و يبقى البيان القرآنى « بلاغة ربانية » ، لهذا جاء التحدى بالقرآن ، ولم يرد عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه تحدى العرب بسنته .

• • •

نزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين ، على نبى عربى كريم ، فى أمة عربية أشربت قلوبها الفصاحة ، فكان فيها الخطباء والسفراء والشعراء . وكان للشعر فيها القدح المعلى فى شتى المجالات : به حمّسوا وأثاروا وهيجوا ، وبه حاربوا ، وبه افتخروا ، وبه مدحوا ، وبه أيضا بكوا وانتحبوا ــ وقامت الأسواق ، وتبارى الشعراء فى الإجادة ، ويقال : إن النابغة كانت تنصب له فى عكاظ قبة من أدم ، ويقصده الشعراء ليحكم بينهم (٩)

فما موقف القرآن الكريم من الأدب العربى فى هذا العصر ؟

ليس فى القرآن مايفهم منه ــ بظاهره ــ معاداة للنثر ، كالخطابة والوصايا ، بل على العكس : نقرأ فيه الأمر بالقراءة والحث على التعلم وتقدير الكتابة والإبانة . .

ولكن جاء فى القرآن ماقديُفهم منه معاداة القرآن للشعر ، وقد عرض القرآن لقضية الشعر فى تسع آيات ، كان أولها نزولا قوله تعالى :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١٠)

ومن النظر فى الآيات القرآنية التى عرضت لهذه القضية يجدر بنا أن نلاحظ مايأتى :

١ ــ أن الآية السابقة تقطع بأن القرآن الكريم لون جديد من البيان يختلف اختلافا بينا عن مثلهم الأعلى فى البلاغة وهو الشعر ، فهو « ذكر وقرآن مبين » ، وليس شعرا ؛ لأن من نزل عليه القرآن ليس شاعرا بالفطرة ، ولا شاعرا بالاكتساب .

---

(٩) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١/١٧٢ ، ٣٥١ .

(١٠) يس الآية : ٦٩ .

٢ ــ وليس فى هذه الآية مايدل على إزراء القرآن على الشعر .

٣ ــ كان نفى الشاعرية عن النبى ــ عليه السلام ــ لالأن الشاعرية صفة خبيثة ، وخلة خسيسة ، ولكن جاء هذا النفى ردا على اتهام الكفار له بأنه شاعر كما نرى فى الآيات التالية : (١١)

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ (١٢)

﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ (١٣)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ (١٤)

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ (١٥)

٤ ــ واتهام الكفار للنبى « بالشعر » شهادة بعظمة هذا الفن القولى من جهة ، وشهادة ضمنية بعظمة القرآن ، وقوة تأثيره من ناحية أخرى ، حيث قاسوه ــ من وجهة نظرهم ــ على أرقى فنونهم القولية . مع ملاحظة أن كل الآيات التى سقناها مكية ، ومن ثم كان نزولها آنذاك لبيان طبيعة البيان القرآنى من ناحية ، وطبيعة النبى المرسل من ناحية أخرى .

---

(١١) ونحن نوردها هنا باعتبار نزولها .

(١٢) الصافات الآية : ٣٦ .

(١٣) الأنبياء الآية : ٥ .

(١٤) الطور الآية : ٣٠ .

(١٥) الحاقة الآية : ٤١ .

٥ ــ وكان آخر ما نزل من قرآن فى هذه القضية هو: الآيات الأربع الأخيرة من سورة الشعراء وهى :

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ (١٦)

وقد نزلت الآيات الثلاث الأولى « والشعراء .. يفعلون » ابتداء ، وفيها حكم عام صارم على الشعراء ، فبكى الشاعر المسلم عبدالله بن رواحة ، فنزلت الآية الأخيرة(٢٢٧) تستثنى من هذا الحكم « الذين آمنوا وعملوا الصالحات »

والنظرة الفاحصة فى هذه الآيات تقودنا إلى حقيقة مؤداها أن القول : بأنها تحمل عداء مطلقا للشعر فيه إسراف ؛ لأنها صنفت الشعراء صنفين :

الأول : شعراء الغواية والضلال والانطلاق بلاقيود أواعتبارات إنسانية .

والثانى : الشعراء الملتزمون بالقيم الإنسانية ، الصادقين مع ربهم وأنفسهم والناس .. الشعراء الأسوياء الذين لاتناقض أفعالهم أقوالهم .

وهذا الصنف الأخير يباركه الإسلام ، و يبارك مايقول . وهذا المفهوم الصحيح هو ما أبرزه الإمام الغزالى بقوله:« أما الشعر فكلام حسنُه حسن ، وقبيحُه قبيح .. وإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره »(١٧)

---

(١٦) الشعراء ٢٢٤ ــ ٢٢٧ . وسورة الشعراء مكية عدا هذه الآيات الأربع فهى مدنية .

(١٧) إحياء علوم الدين ٩/١٥٦٩ .

فدار التحليل والتحريم — إذن — هو المضمون الفكرى للشعر لا فن الشعر ذاته : فإذا تضمن معنى خبيثا يسىء إلى الدين أو الناس فهو حرام ، وإلا فهو من قبيل المباح الذى لا حرمة فيه .

وقد ورد عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قوله : « **إن من الشعر لحكمة** » و« **إن من البيان لسحرا** » ، وكان يحب الاستماع لشعر أمية بن أبى الصلت وشعر الخنساء ، وكان يتمثل فى بعض المواقف بأبيات من الرجز والشعر . كما طلب من حسان بن ثابت أن يكون لسان المسلمين الناطق ، وأن يقوم بهجو الكفار ردًا على أهاجيهم ، وكان يشجعه و يثنى عليه ، كما كان يشجع الشاعر عبدالله بن رواحة ، و يدعو له ، و يقول عنه للمسلمين : « إنَّ أخاً لكم لا يقولُ الرَّفَثَ : هو عبدُ الله بن رواحة »

وإلى هذا المفهوم الإنسانى الجديد للشعر تحول الشاعر الهجّاء المفحش عبدالله ابن الزبعْرى بعد إسلامه ، وصار لسان حق وصدق من ألسنة الإسلام (١٨) .

وانطلاقا من هذا « الطابع الدينى الأخلاقى » كان موقف المسلمين من الأدب والشعر الجاهلى ، ففتحوا قلوبهم وعقولهم لما اتفق ، أو لم يتعارض مع القيم الجديدة ، ومن ثم نستطيع أن نقول : إن البلاغة العربية الجاهلية فى نثرها وشعرها مثلت منبعا ثالثا استقى منه المسلمون فى صدر الإسلام ، ونظروا إليها نظرة توقير وتبجيل ، واحتذوا الشعر فى الشكل و بعض المضامين ، مع استبعاد ما سف وفحش وتعارض مع روح الإسلام .

والخلاصة أن منابع الأدب فى صدر الإسلام والمؤثرات التى وجهت هذا الأدب وأكسبته طوابعه هى :

١ — القرآن الكريم .
٢ — السنة النبوية .
٣ — البيان العربى من شعر وحكم وأمثال وقوالب لفظية .

---

(١٨) انظر بتفصيل أكثر كتابنا « المدخل إلى القيم الإسلامية » ٣٠ — ٣٣ وانظر كذلك الفصل القيم الذى كتبه الإمام عبدالقاهر فى كتابه « دلائل الإعجاز » ٩ — ٢٣ .

كل أولئك كان له انعكاسات قوية ، وبصمات واضحة على أدب صدر الإسلام بعامة ، وأدب الخلفاء الراشدين بخاصة ، وقبل أن نعرض لمفهوم هذا الأدب وأبعاده . نرى من اللازم فى هذا التمهيد أن نلقى الضوء — فى إيجاز — على الخطابة والكتابة وهما الفنّان اللذان استغرقا كل أدبهم : فهو إما مقول منطوق ، وإما مسجل مكتوب .

• • •

يقول الجاحظ : « وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولامكابدة ، ولا إجالة فكرة ، ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أوحين يمتح على رأس بئر ، أويحدو ببعير أوعند المقارعة والمناقلة ، أوعند صراع أوفى حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا » (١٩) .

واعتمادا على البديهة والارتجال جاءت الخطابة فى أهميتها عند العرب كالشعر ، أوكانت على الأقل فى المرتبة الثانية منه ، ولكن جاء الإسلام فجعلها فى المرتبة الأولى من الفنون النثرية ، بل كانت من الناحية العملية مقدمة على الشعر أيضا ، وكان بزوغ الإسلام نفسه هو أكبر الأحداث التى أثرت فى الخطابة وطورتها ، وأكثرت من أنواعها . فالخطابة : هى خير مايستعين به الدعاة إلى العقائد والمذاهب الجديدة ، واتخذها الرسول — عليه السلام — أداة لنشر دعوته ، وإقناع المشركين بصدق رسالته ، ثم اتخذها بعد الهجرة أداة لإيضاح تعاليم الإسلام ووعظ المسلمين ، فظهرت خطب المنابر فى الجمع والعيدين ، فنشأ بذلك مايمكن أن نسميه « الخطب التعبدية » (٢٠) .

---

(١٩) البيان والتبيين ٣/١٣٠.

(٢٠) درج الكُتاب على تسميتها بالخطب الدينية ، وهى تسمية غير مانعة ، فخطب الجهاد دينية أيضا . وهذا النوع الأخير (خطب الجهاد) قد تكون تسميته « بالخطب العسكرية » أدق وأوْفَى .

ودعا الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لنشر الدعوة الإسلامية فى الأمم المجاورة للعرب ، فوجد ضرب آخر من الخطابة الغرض منه الحث على الجهاد فى سبيل الله . (٢١) .

وازدهر هذا اللون باتساع الفتوح ، وتقدم الجيوش الإسلامية . وفى عصر الخلفاء الراشدين رأينا خطب الجهاد تدور على محاور موضوعية متعددة أهمها :

١ــ استنفار الناس فى المدن والأمصار إلى الجهاد (٢٢) .

٢ــ توصية الجيوش الخارجة للجهاد بما يجب عليها اتباعه من مبادىء إنسانية وقواعد حربية . (٢٣)

٣ــ قيام القادة والخطباء بتحميس الجيوش فى ميادين القتال .

ثم كان هناك لون جديد من الخطب نشأ فى عهد الخلفاء الراشدين ، وهو أشبه مايكون بما يسمى فى وقتنا الحاضر بخطبة العرش ، وهى : الخطبة أوالخطب الأولى التى يشرح فيها الخليفة سياسته الداخلية والخارجية (٢٤)

وهناك عامل مهم جدا كان له أثر كبير فى نهضة الخطابة وتوجيهها ، وفتح أبواب واسعة ، وتفجير منابع أرفدتها بمعان وصور جديدة ، وأعنى به عامل الأحداث الداخلية . وأهم هذه الأحداث ثلاثة هى :

١ــ ردة العرب فى عهد أبى بكر .

٢ــ فتنة التآمر فى عهد عثمان .

٣ــ الصراع بين على وجبهة الخارجين عليه . وتتمثل هذه الجبهة فى قوتين : قوة الخوارج ، وقوة الأمويين ، وأهل الشام .

---

(٢١) انظر : إحسان النص : الخطابة فى عصرها الذهبى ٣٠ .

(٢٢) انظر خطب أبى بكر ١٠ ، ١١ وخطب عمر ٢ .

(٢٣) انظر خطب عمر ٢٤ وخطب عمر ٧ .

(٢٤) انظر خطب أبى بكر ١ ، ٢ وانظر د . ضيف : العصر الإسلامى ١٠٨ .

وكان عهد عمر ــ رضى الله عنه ــ هو أكثر هذه العهود استقرارا ، فمضى العهد بلا قلاقل تذكر ، لذلك كانت خطبه وكتبه ــ فى أغلبها ــ تنظيمية تشريعية .

وبدأت الفتنة تطل برأسها فى عهد عثمان ، وكان أظهر الألوان الأدبية فى عهده مايمكن أن نسميه بأدب الاستغاثة والاستنجاد ، والذى يتمثل فيما أطلقه عثمان من رسائل ودعاة إلى الأمصار والموسم مستغيثا بأهلها أن ينقذوه من الحصار الذى ضرب به حوله الثوار ورجال الفتنة ، ومنعوه الصلاة والطعام والماء ، وانتهى الأمر بقتله أبشع قتلة ، وبعدها لم يتوقف خيط الدم ، بل تحول هذا الخط إلى تيار دافق .

• • •

وعاش على بن أبى طالب سنى حياته مأساة متصلة الحلقات ، فقد تولى أمر الخلافة فى ظروف دامية قاسية بعد مقتل عثمان ، وكانت هذه الحادثة الدامية « بلاء لايدفع ، وقضاء لاحيلة لأحد فى اتقائه ؛ لأن المسئولين عنه كثيرون متفرقون فى كل جانب يناصره أويعاديه » [٢٥] .

وتضافرت كل الظروف لتواجه الإمام على فى قساوة وقوة : معاوية وأهل الشام ... الخوارج بعد التحكيم .. الروح الانهزامية لأصحابه الذين خذلوه بالتقاعد والتثاقل ، وكثيرا ماحمل عليهم فى خطبه [٢٦] .

بل إن نكبته الحقيقية بدأت فى عهد عثمان : كان الناس يقصدونه ليكلم عثمان فى تعديل سياسته بعامة وفى الأمصار بخاصة ، وكثيرا ماقام بمثل هذا

---

(٢٥) العقاد : عبقرية الإمام ٤٥ .

(٢٦) انظر خطب على ٦ .

الدور ، واتخذت مواقفه هذه ذريعة لمعاوية وصحبه للادعاء بأنه كان متواطئا مع قتلة عثمان على نحو من الأنحاء . وصور عليٌّ — رضى الله عنه — تصويرا دقيقا حرج موقفه فى قوله : « ياللمسلمين ! ! إنى إن قعدت فى بيتى قال لى (عثمان) : تركتنى وقرابتى وحقى ، وإنى إن تكلمت جاء من يريد أن يلعب به ... مروان » (٢٧) .

• • •

كل هذه الظروف أرفدت الخطابة بما لم يكن موجودا فى عهد النبى — صلى الله عليه وسلم — إلا أنه من المحقق أن النظام الديمقراطى الذى كان سائدا فى صدر الإسلام قد أعان على ازدهار الخطابة فى هذا العصر ، وأتاح لمن يشاء أن يعتلى منصة الخطابة ، وأن يجهر برأيه مؤيدا أومعارضا ، محبذا أولائما ، وكان يباح لمن يشاء من الرعية فى ذلك العصر أن يناقش الخليفة أوالوالى فى شئون الحكم والسياسة والدين ، وكثيرا ما كان الخليفة يتخلى عن رأيه ، ويأخذ برأى مخالفيه ، إذارأى الحق فى جانبهم ، وكان الخلفاء الراشدون يطالبون بمؤاخذتهم ومحاسبتهم ، إذا حادوا عن جادة الحق والعدالة (٢٨) .

ويظهر أثر هذا العامل بصفة خاصة فى « أدب الحوار والجدل » الذى يمثل جزءا مهما جدا من أدب الخلفاء الراشدين ، فى مجال السياسة والأدب والقتال وشئون الناس ، وهو أقرب الألوان كلها إلى الصدق والعفوية ؛ لأنه ابن ظرفه وساعته ، بل لحظته ، فلا تكلف ولا افتعال . والذى يقرأ نماذجه ، وخصوصا حوار يوم السقيفة (٢٩) يؤمن بصدق هذه المقولة .

---

(٢٧) حوار عثمان ١٥ .

(٢٨) الحص : الخطابة العربية ٣٠ . وانظر خطب أبى بكر .

(٢٩) حوار أبى بكر .

هذا عن الخطابة فماذا عن الكتابة ؟ :

كان أول مانزل من القرآن الكريم هوقوله تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾ (٣٠)

وكانت هذه الآيات تكليفا للمسلمين بتعلم القراءة والكتابة ؛ لأن مالايتم الواجب إلا به فهو واجب ، والقراءة لا تكون إلا من مكتوب ، كما أن كتابة العلم أدعى إلى ثباته وحفظه من الضياع ، وقد أشارت الآيات إلى الوسيلة المثلى لحفظ العلم وهى : القلم .

لقد نزلت هذه الآيات فى أمة أمية ، وحينما جاء الإسلام لم يكن هناك من يعرف الكتابة إلا سبعة عشر نَفَراً هُمْ : على بن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيد الله ، وعثمانُ وأبوعبيدة بن الجراح ، وأبان بن سعيد بن العاص وخالد أخوه ، وأبوحذيفة بن عتبة ، و يز يد بن أبى سفيان ، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس ، والعلاء بن الحضرمى ، وأبوسلمة بن عبد الأسد ، وعبد الله بن سعد ابن أبى سرح ، وحويطب بن عبد العزى ، وأبوسفيان بن حرب ، ومعاو ية ولده ، وجهيم بن الصلت بن مخرمة . (٣١)

و بدأ ــ عليه السلام ــ يهتم اهتماما عمليا بتخر يج مسلمين يتقنون الكتابة ، حتى أنه جعل فداء الأسير المشرك بعد بدر أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة (٣٢) .

بل حث النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعض أصحابه أن يتعلموا لغة غير اللغة العربية ، لمّا دعت الحاجة إلى ذلك ، بعد انتشار الإسلام . فقد روى عن ز يد بن ثابت . قال : « أتى بى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ مقدَمُ المدينة ، فقيل : هذا من بنى النجار ، وقد قرأ سبع عشرة سورة . فقرأت عليه ، فأعجبه

---

(٣٠) سورة العلق الآيات : ١ ــ ٤ .

(٣١) العقد الفر يد ١٥٧/٤ .

(٣٢) المقر يزى : إمتاع الأسماع ١٠١ .

ذلك . فقال: تعلم كتاب يهود (٣٣) ، فإني ما آمنهم على كتاب ، ففعلت ، فما مضى لي نصف شهر حتى حذقته ، فكنت أكتب له إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأت له » .

وفي حديث آخر عن زيد قال : قال لي النبي — صلى الله عليه وسلم — إني أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا عليّ أو ينقصوا ، فتعلّم السريانية ، فتعلمتها في سبعة عشر يوما (٣٤) .

وكان النبي — عليه السلام — يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة — رضوان الله عليهم — و يكاتبونه ، وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ، و بعث إليهم رسله بكتبه : فبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة ، وعبد الله بن حذافة إلى كسرى أبرويز ملك الفرس ، ودحية الكلبي إلى هرقل ملك الروم ، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب مصر ، وسليط بن عمرو إلى هوذة بن علي ملك اليمامة ، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين إلى غير ذلك من المكاتبات .

وكتب لعمرو بن حزم عهدا حين وجهه إلى اليمن ، وكتب لتميم الداري وإخوته بإقطاع الشام ، وكتب كتاب القضية بعقد الهدنة بينه و بين قريش عام الحديبية ، وكتب الأمانات أحيانا (٣٥) .

و يقال : إنه كان للنبي — صلى الله عليه وسلم — ثلاثون كاتبا ، منهم : أبوبكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب (٣٦) .

وكتب لأبي بكر : عثمان بن عفان ، وزيد بن ثابت ، وعثمان هو الذي كتب عهد عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — بالخلافة عن أبي بكر — رضوان الله عليه — .

---

(٣٣) كتاب يهود : أي : لغتهم .

(٣٤) أحمد أمين : فجر الإسلام ١٤٢ .

(٣٥) صبح الأعشى : ١/ ٩١ .

(٣٦) انظر المصدر السابق ١/ ٩٢ .

وكتب لعمر — رضى الله عنه — ز يد بن ثابت وعبد الله بن خلف .

وكتب لعثمان — رضى الله عنه — مروان بن الحكم .

وكتب لعلى : عبد الله بن أبى رافع مولى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وسعيد بن نجران الهمدانى (٣٧)

ودواعى الكتابة ومجالاتها التى كانت محصورة فى عهد النبى — صلى الله عليه وسلم — ازدادت وتعددت فى عهد الخلفاء الراشدين ، وتمت فى عهد أبى بكر — رضى الله عنه — أكبر عملية تدو ين وهى جمع القرآن وكتابته فى مصحف واحد ، بعد أن كان مفرقا فى صدور الرجال ، ومتناثرا آيات أوزاعا مكتوبة بخط بدائى على العظام وسعف النخل .

وفى عهد عثمان — رضى الله عنه — كانت عملية جمع جديد للقرآن بكتابة نسخ متعددة منه اعتمادا على قراءة واحدة تعتمد لغة قر يش ، و بعث بالنسخ إلى الأمصار بعد أن اختلف الناس فى القراءة .

وفى عهد الخلفاء الراشدين عقدت الألو ية ، وسيرت الجيوش ، وانطلقت مواكب المسلمين ، تطرق بسيوفها ومبادئها أبواب فارس والروم ، وتحت سنابك خيولهم سقطت رايات الشرك ، واستسلمت أعتى القوى أمام إصرار المسلمين على الفتح ، وانطلق الإسلام شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، وفتحت مصر وأفر يقيا . (٣٨) .

وكانت الكتابة : هى الوسيلة الوحيدة لتحقيق المبادىء ، وتوجيه القوى ، وضمان الحقوق :

١ — فبها وجه الخلفاء قادتهم وعمالهم ، ورسموا لهم الطر يق فى مجال الحرب والسياسة ، والمنهج الاقتصادى الذى عليهم أن يتبعوه فى البلاد المفتوحة .

---

(٣٧) السابق : نفس الصفحة .

(٣٨) انظر د . ضيف : العصر الإسلامى ١٣٢ .

٢ــ وكانت هى وسيلة اتصال القادة بالخلفاء ، يستفتونهم فى المسائل الجُلّى ، و يبشرونهم بالنصر ، و يستمدونهم .

٣ــ وبها سجلت العهود التى حفظت حقوق الأمم المغلوبة وحددت ما عليها من واجبات .

وكل هذه الدواعى كان لها وجودها فى عهد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولكنها ــ ولكنها ــ كما قلت : كثرت وازدادت فى عهد الخلفاء الراشدين باتساع الفتوح وتشابك المصالح وتعقد العلاقات .

• • •

وحمل لنا التاريخ عطاء جليلا هو: « أدب الخلفاء الراشدين ، و يتمثل فيما نسب إليهم من خطب ورسائل وحكم وتوقيعات ومحاورات ومناظرات ، وكذلك بعض ماينسب إليهم من شعر ، والصحيح منه قليل » كما سنرى .

وكل أولئك جاءنا منثورا فى بطون الكتب التاريخية والأدبية الأمهات مثل تاريخ الطبرى ، وتاريخ ابن الأثير ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد وغيرها . وقد جمعتُ كل هذا الأدب أوجُلّه من مظانه المختلفة فى كتابى هذا الذى أضعه بين يدى القارىء العربى ، والقارىء المسلم .

وقبل أن أعرض للمنهج الذى سلكته فى كتابى هذا ، أرى من مقتضيات الأمانة أن أنوّه بثلاثة أعمال رائدة سبقنى بها أستاذان عالمان جليلان :

الأول : هو « جمهرة خطب العرب فى عصور العربية الزاهرة » للأستاذ أحمد زكى صفوت . وصدر فى طبعته الأولى سنة ١٩٣٣ فى ثلاثة أجزاء .

والثانى : له أيضا ، وهو: « جمهرة رسائل العرب فى عصور العربية الزاهرة » وجاء فى ثلاثة أجزاء ، وصدر فى طبعته الأولى سنة ١٩٣٧ .

والعملان يعرضان الخطب والرسائل من العصر الجاهلى ، إلى نهاية العصر العباسى تقريبا .

أما العمل الثالث : فللدكتور محمد حميد الله ، وهو « مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة » .

وقد اشتمل هذا السفر الذى أربى على خمسمائة صفحة ، على الرسائل والعهود ، والمكاتبات من صكوك وإقطاعات وغير ذلك ، فى عهد النبى — صلى الله عليه وسلم — والخلفاء الراشدين والصحابة من قادة وولاة وعمال وقضاة وغيرهم .

وللحق : جاء الكتاب حجة ناصعة فى التمحيص والتوثيق ، فلم ينقل من الكتب القديمة خبط عشواء ، بل كان له منهجه العلمى فى القبول والرفض ، فهو على سبيل التمثيل يرى أن كتب الأمان التى كتبها النبى — صلى الله عليه وسلم — للقبائل المسلمة ، أوالخاضعة له ، والتى لم تتضمن إلا مطالبتهم بأداء الفرائض الدينية صحيحة ؛ لأنه لايوجد فيها ماعسى أن يكون موضوعا ، إذ لاحاجة لأحد إلى وضعها .

أما الوثائق التى لا تشتمل إلا على الحقوق دون الواجبات ، أوالتى تذكر أشياء لم توجد فى عصر النبى — صلى الله عليه وسلم — فهى موضوعة ، كبعض العهود التى زعموا أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كتبها للنصارى واليهود والمجوس . .

وربما اختلق المؤرخون غير المحتاطين بعض الوثائق على أساس ماذكر عنها فى التاريخ ، كالذى ورد فى الكتب القديمة من أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كاتب النجاشى لتزويجه بأم حبيبة ، ورد المسلمين المهاجرين إلى المدينة ، ولا وجود لنص هذين الكتابين إلا فى تأليف متأخر ، مما يرجح أنهما موضوعان .

وفوق هذا نجد أن الوثائق الطويلة أكثر تعرضا للتحريف ، إذ كان المعتمد فى الرواية على السماع ، ولذلك نجد أن أطول النصوص أكثرها اختلافا (٣٩) .

و يصدّر حميدُ الله كل وثيقة يوردها بأسماء كل المصادر القديمة التى نقلها عنها مهما كان عددها ، و بعضها قد يزيد على العشرة بالنسبة للوثيقة الواحدة .

وهو يعارض هذه الروايات بعضها على بعضها الآخر ، مبينا مابينها من خلاف فى الصياغة ، أواختلاف بالزيادة والنقص . وكل ذلك جعل الكتاب أدق الكتب وأوثقها فى موضوعه .

• • •

---

(٣٩) انظر ص ١٨ من تقديم حميد الله لكتابه مجموعة الوثائق السياسية .

ولم ينهج المرحوم أحمد زكى صفوت هذا المنهج ، بل قدم النصوص كما هى فى بطون الكتب القديمة ، واعتمد غالبا على « المصدر الواحد » .. يأخذ منه النص ، و يفسر ما استغلق من ألفاظه فى هامش الكتاب . فالكتاب تجميع للنصوص مصحوب بشرح مبسط للألفاظ والعبارات ، مع الإشارة إلى مناسبة النص أو الدافع إلى إنشائه .

• • •

ولم يعرض حميد الله إلا « للمكتوبات » فى عهد النبى والخلفاء الراشدين ، ولم يعرض لما رُوى من خطب وأقوال ، وأحيانا يعرض المؤلف بعض هذه المكتوبات بتنسيق حديث (٤٠)

ومع أن عنوان الكتاب « مجموعة الوثائق السياسية » فإنه احتوى على كثير من الوثائق التى لاعلاقة لها بالسياسة (٤١) . إلا إذا فسرنا السياسة تفسيرا موسعا بحيث تشمل كل مايكون لولى الأمر علاقة به بصرف النظر عن طبيعة الموضوع .

و بلغ من دقة الكتاب أنه يشير إلى الوثيقة وأطرافها ومناسبتها ، ولو لم تذكر المصادر نصها (٤٢) .

• • •

كان لابدّ من هذا الإقرار وفاء للأمانة العلمية ، واعترافا بقيمة هذه الأعمال الرائدة السباقة ، وقد حرصت على ألا أطلع على الكتابين إلا بعد أن انتهيت تماما من مرحلة جمع نصوص كتابى هذا فى « أدب الخلفاء الراشدين » و بعد تصنيفها وتبو يبها ، وذلك حرصا منى على ألا أقع أسيراً لواحدٍ من المنهجين . وتتلخص محتو يات الكتاب ومابذلته فيه من جهد فيما يأتى :

---

(٤٠) انظر مثلا كتاب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء ، فقد عرضه حميد الله بصورة التقنينات الحديثة ، حيث قسمه إلى اثنتى عشرة مادة كما نرى فى الدساتير والقوانين الوضعية ، مع ملاحظة أنه حافظ على حرفية النص . (الوثائق السياسية ٣٤٦) .

(٤١) انظر مثلا الوثيقة رقم ١٢٦ ص ١٩٩ ، وموضوعها هروب امرأة ناشز من زوجها .

(٤٢) انظر مثلا وثائق رقم ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ص ٢٥٣ ــ ٢٥٥ .

١ــ جمع النصوص من مصادرها الأصيلة ، وكثير منها رجع إليه الأستاذان الفاضلان ، وبعضها الآخر لم يرجعا إليه ، كبعض المخطوطات التى لم تطبع إلا بعد صدور الكتب الثلاثة ، وأهمها مصدر فى غاية الأهمية هو « الأخبار الموفقيات » للزبير بن بكار (ـــت ٢٥٦هـ) .

٢ــ شرح الألفاظ والعبارات التى قد يجد القارىء صعوبة فى فهمها .

٣ــ تقسيم هذا الأدب إلى ألوان أربعة هى :

أ ــ الخطب والوصايا .

ب ــ الكتب والعهود .

جـ ــ الحكم والتوقيعات .

د ــ الحوار والجدل .

٤ ــ النظر إلى هذا الأدب ــ بعد عرضه ــ نظرة تقيمية ، باستخلاص سماته الفكرية والفنية وخصائصه الأسلوبية فى التصوير والتعبير .

فالعمل الذى أقدمه بين يدى القارىء يختلف عما قدمه الأستاذان الجليلان فيما يأتى :

١ ــ أنه يزيد عما قدمه صاحب الجمهرتين فى أدب الحوار والجدل ، وهو يمثل قدرا كبيرا ومهما جدا من أدب الخلفاء ، وغالبا ما يتسم هذا الأدب بالصدق والعفوية ؛ لأنه الأدب الذى لا يعد الإنسان نفسه له ، ولا يهيىء له عدته ، ومن ثم كانت قدرته التصويرية أوضح وأوفى وأصدق .

وما قدمته فى هذا الباب يزيد أيضا على ما قدمه حميد الله فى وثائقه .

٢ــ ويزيد ما قدمته كذلك على ما قدمه حميد الله فى الخطب والوصايا الشفوية .

٣ــ أن كتابى اكتفى بأدب الخلفاء الراشدين قولا وكتابة ، ولم أعرض لأدب غيرهم من القادة والناس فى عصرهم إلا على سبيل الإلماع ، والإشارة فى حالة الضرورة القصوى ، حتى يتكون للقارىء تصور متكامل عن الطبيعة الأدبية والنفسية لهؤلاء الخلفاء الذين غيروا وجه الأرض والتاريخ دون أن أقطع خط

التتابع بإيراد أدب غيرهم بين ما أوردته من أدبهم ، بينا اتسعت الكتب الثلاثة لأدب الخلفاء وغيرهم لذا جاءت هذه الكتب ـــ من ناحية المادة ـــ أشمل وأوفى وأدل على طبيعة العصر أو العصور التى عرض أدبها . بينا جاء عملى أكثر تحديدا فهو محصور فى أدب الشخصيات الأربعة .. أى : الخلفاء الراشدين .

٤ ـــ خلت الكتب الثلاثة من تقييم النصوص التى عرضتها بينا جعلت القسم الثانى من الكتاب وهو بعنوان « وقفات ونظرات » ليكون تقييا أمينا لهذا الأدب ، بعد أن عايشت نصوصه كتابة وفهما وتذوقا وشرحا ، وعايشت الظروف التاريخية التى أنشئت فيها هذه النصوص .

وأخيرا هناك أمور أنبه إليها فى هذا المقام وهى :

١ ـــ أن الوصايا فى حياة الخلفاء الراشدين نوعان :

نوع مباشر يوجهه الخليفة شفاهة مباشرة إلى بعض عماله أو قواده ، وهذا النوع أدرجته فى باب الخطب .

أما الثانى فمكتوب ، لذا أدرجته فى باب الكتب والعهود .

٢ ـــ يمثل أدب الحوار والجدل جزءا كبيرا من هذا الكتاب على أننى لم أسجل من هذا اللون إلا ما كان جانب القول فيه أكثر وأظهر من جانب الحدث ، وإلا اقتضانى الأمر تسجيل تاريخ الخلفاء الراشدين كله ، فليس هناك حادثة إلا وفيها حديث وقع وحوار دار .

٣ ـــ ما اخترته من أدب الإمام على ـــ رضى الله عنه ـــ لا يمثل إلا قرابة الخمس إن لم يقل عن ذلك ، وذلك لسبب لا يخفى على القارىء ، وهو أن أدب على ـــ رضى الله عنه ـــ مجموع كله فى (نهج البلاغة) .

٤ ـــ آثرت بعد التمهيد الموجز أن يواجه القارىء النصوص مباشرة مع شرحها المبسط ، حتى يفهمها و يعايشها ، و يكون له انطباعه الخاص بعد القراءة والفهم والتذوق دون حجْر على تقديره الخاص ، وحرصا منى على « حرية التلقى والتذوق والتقدير » جعلت قسم التقييم بعد الانتهاء من عرض النصوص ، وهذا أمر طبعى : فالحكم على الشىء فرع على تصوره .

• • •

وأخيرا آمل أن يكون فيما قدمت نفع للقارىء والدارس ، وآمل كذلك أن يعذرني قارئي إذا ما اعترضه ــ في عملي هذا ــ خطأ أونقص أوقصور فالكمال لله .. لله وحده والحمد لله رب العالمين ،

د . جابر قميحة

القاهرة . الدقي : ٣٣ شارع هارون .

غرة ذي الحجة ١٤٠٤ هـ .

٢٨ من أغسطس ١٩٨٤ م .



القسم الأول

بين يدى النصوص



الفصل الأول

أدب أبي بكر

الشريحة الأولى

الخطب والوصايا

(١) بعد أن بويع بالخلافة *

حمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله ، ثم قال : أما بعد أيها الناس ، فإنى قد وليت عليكم ولستُ بخيركم ، فإنْ أحسنتُ فأعينونى ، وإن أسأتُ فقومونى (١) ، الصدقُ أمانة ، والكذبُ خيانة ، والضعيفُ فيكم قوىٌّ عندى حتى أريحَ عليه حقه إن شاء الله ؛ والقوىُّ فيكم ضعيفٌ عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لا يدع قومٌ الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلّ ، ولا تشيع (٢) الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم (٣) الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعتُ الله ورسوله ، فإذا عصيتُ الله ورسولَه فلا طاعة لى عليكم . قومُوا إلى صلاتِكم يرحمكم الله .

---

* سيرة ابن هشام ٤/٢٤٢ . وانظر كذلك ــ مع اختلاف ــ العقد الفريد ٤/٥٩ . وقيل إنها أول خطبة لأبى بكر .
(١) قومونى : أصلحونى وأرشدونى إلى ما فيه الخير .
(٢) تشيع : تنتشر .
(٣) غشيهم وشملهم .

(٢) متبع وليس بمبتدع *

يـأيهـا الـنـاسُ ، إنمـا أنـا مثلُكم ؛ وإنى لاأدرى لعلكم ستكلفوننى ماكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُطيقُ ؛ إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمَه من الآفاتِ ؛ وإنمـا أنـا مـتبعٌ وَلست بمبتدع ؛ فإن استقمتُ فتابعونى ، وإن زغتُ (٤) فقومونى ؛ وإنّ رسـولَ الله صـلـى الله عـليه وسلم قُبضَ وليس أحدٌ من هذه الأمةِ يطلبه بمظلمةٍ ضربة سوط فما دونها : ألاَ وإنّ لى شيطاناً يعتريني (٥) ؛ فإذا أتانى فاجتنبونى (٦) ؛ لاأؤثّر فى أشعـاركـم وأبشاركم (٧) ؛ وأنتم تَغْدون وتَرُوحون فى أجَلٍ قد غيِّبَ عنكم علمُه ؛ فـإن استـطـعتم ألا يمـضـى هذا الأجل إلاّ وأنتم فى عملٍ صالحٍ فافعلوا ؛ ولن تستطيعُوا ذلـك إلا بـالله ، فـسـابقـوا فى مَـهلٍ آجالكم من قبل أنْ تُسْلِمَكم آجالُكُم إلى انقطاع الأعـمـال (٨) ؛ فـإن قـومـاً نـسـوُا آجالهم ، وجعلُوا أعمالهم لغيرهم (٩) ؛ فإيّاكم أن تـكونوا أمثالَهم . الجدَ الجدَ ! والوحا الوحا (١٠) والنّجاءَ النّجاء ! فإن وراءكم طالبا حـثيثا (١١) ، أجلاً مَرُّه سريعٌ . احذروا الموت . واعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان ، ولاتغبطوا الأحياء إلا ما تغبطون به الأموات .

(٣) مصائر الطغاة والجبارين *

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنّ الله عزّ وجل لايقبلُ من الأعمال إلا ما أُريدَ به وجهُه ؛ فأريدُوا الله بأعمالِكم ، واعلموا أنّ ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعةٌ

---

* الطبرى ٣/ ٢٢٤ (سنة ١١ هـ).

وكان ذلك من بعد الغد من وفاة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد أن نادى منادى أبى بكر فى الناس «لِيُتَمّ بعث أسامة ألا لايبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجُرْف .

(٤) زغت : بعدت عن الحق .

(٥) يقصد:أنه سريع الغضب فى الحق .

(٦) اجتنبونى : ابتعدوا عنى .

(٧) أى:لاأضر بكم وأهينكم .

(٨) انقطاع الأعمال : كناية عن الموت .

(٩) أى:لم يقصدوا بأعمالهم وجه الله .

(١٠) الوحا الوحا وكذلك الوحاك الوحاك : عبارة تقال فى الاستعجال .

(١١) حثيثا : سريعا .

* الطبرى ٣/ ٢٢٤ (سنة ١١ هـ) .

أتيتموها ، وخطأ ظفرتُم به ، وضرائبُ أدّيتموها ، وسلَفٌ قدّمتموه من أيام فانيةٍ لأخرى باقية ؛ لحين ، فقركم وحاجتِكم . اعتبروا عبادَ الله بمَنْ مات منكم ، وتفكّروا فيمن كان قبلَكم . أين كانوا أمس ، وأين هم اليوم ! أين الجبّارُون ! وأينَ الذين كان لهم ذِكْر القتال والغلبَةُ فى مواطِن الحروب ! قد تضعضَعَ بهم الدّهرُ ، وصاروا رميماً ؛ قد تُركتْ عليهم القالاتُ ؛ الخبيثاتُ للخبيثين . والخبيثون للخبيثات . وأينَ الملوكُ الذين أثاروا الأرض وعمرُوها ؛ قد بَعدوا ونُسِيَ ذكرهُم ، وصاروا كَلاَشىء . ألا إنّ الله قد أبقى عليهم التبِعات (١٢) ، وقطع عنهم الشهوات (١٣) . ومَضوْا والأعمالُ أعمالُهم ، والدنيا دنيا غيرهم ، و بقينا خلفاً بعدهم ؛ فإن نحنُ اعتبرنا بهم نجوْنا ؛ وإن اغترنا كنّا مثلهم ! أين الوُضّاء (١٤) الحسنةُ وجوهُهم ، المعجبون بشبابهم ! صاروا تراباً ، وصارَ مافرطوا فيه حَسْرَةً عليهم ! أين الذين بنوا المدائنَ وحصنّوها بالحوائط ، وجعلوا فيها الأعاجيب ! قد تركوها لمن خَلفَهم (١٥) ؛ فتلك مساكنهم خاوية ، وهم فى ظلماتِ القبور ، هل تحس منهم من أحدٍ أو تسمعُ لهم رِكْزاً (١٦) ! أين مَنْ تعرفون من أبنائِكم وإخوانِكم ؛ قد انتهتْ بهم آجالهم ، فوردوا على ماقدموا فحلُّوا عليه وأقاموا للشّقْوة والسعادةِ فيما بعد الموت . ألاَ إنّ اللهَ لاشريكَ له ، ليس بينَه و بين أحد مِنْ خَلْقه سببٌ يعطيه به خيراً ، ولا يصرفُ عنه به سوءاً ، إلاّ بطاعتِه واتباع أمره ، واعلموا أنكم عبيدٌ مَدِينُونَ ، وإن ماعندهُ لايُدْركُ إلاّ بطاعته ؛ أما أنه لاخير بخيرٍ بَعْدَه النارُ ، ولا شر بشر بعده الجنة .

(٤) مسئولية الملوك *

لما حمد الله بما هو أهله ، وصلى على نبيّه عليه الصلاةُ والسلام ، قال : إنَّ أشقَى الناس فى الدنيا والآخرةِ الملوكُ . فرفع الناسُ رءوسهم ، فقال : مالكم أيها الناسُ ،

---

(١٢) مسئولياتهم عن أعمالهم .

(١٣) أى حرمهم ملاذ الدنيا.

(١٤) الوضّاء : جمع وضىء وهو الحسن الوجه والخلقة .

(١٥) خلفهم : أتى بعدهم.

(١٦) الركز: الهمس والصوت الضعيف . يقول تعالى : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أوتسمع لهم ركْزا » آية ٩٨ سورة مريم .

* العقد الفريد ٤/٥٩ والبيان والتبيين ٢/٢١ .

إنكم لطَعَّانون[١٧] عَجِلون. إن من الملوك مَن إذا مَلك زَهّده الله فيما بيده، ورغّبه فيما بيدِ غيره، وانتقصَه شطرَ أجلِه [١٨]، وأشرب قلبَه الإشفاقَ [١٩]، فهو يَحسد على القليل، ويتسخّط [٢٠] الكثير، ويَسأمُ الرّخاءَ، وتَنقطعُ عنده لذّة البقاء [٢١]، لا يستعمل العِبْرة، ولا يسكُنُ إلى الثقة، فهو كالدرهم القَسِيّ [٢٢]، والسَّراب الخادع، جَذِل الظاهر، حَزين الباطن؛ فإذا وَجبتْ نفسُه، ونَضبَ عمرُه، وضحا ظله [٢٣]، حاسبَه فأشدَّ حسابَه، وأقلَّ عَفْوه. ألاَ إن الفقراء هم المَرحومون، وخيرُ الملوك [٢٤] مَن آمنَ بالله وحَكم بكتابه وسُنّةِ نبيّه صلى الله عليه وسلم، وإنكم اليومَ على خِلافةِ نبوة، ومَفْرقِ محجّة [٢٥]، وستَروْنَ بعدى مُلْكا عَضُوضا [٢٦]، ومَلِكا عَنُودا، وأمةً شَعاعا، ودمَا مُفاحا [٢٧]، فإن كانت للباطل نَزْوَة، ولأهل الحق جَوْلة، يعفو بها الأثرُ، ويموتُ لها الخبرُ، فالزموا المساجدَ، واستشيروا القرآنَ، واعتصموا بالطاعة. وليكن الإبرامُ بعد التَّشاور، والصَّفقةُ بعد طول التناظر. أيّ بلاد خَرْشَنة [٢٨]؟ إنّ الله سيَفْتح لكم أقصاها، كما فتح عليكم أدناها.

(٥) فضل الإسلام على الناس

الحمد لله أحمده وأستعينُه، وأستغفره وأومن به وأتوكّلُ عليه، وأستهدى الله بالهُدى، وأعوذُ به من الضَّلالِ والرَّدى، ومن الشكّ والعَمى. مَن يَهْدِ الله فهو المُهتدى ومن يُضللْ فلن تَجد له وليا مُرْشداً. وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه

---

(١٧) طاعنون: عيابون.

(١٨) انتقصه الله شطر أجله: أى يعيش منغصا لايهنأ بحياته كلها بسبب حمّى الطمع التى تأخذ بخناقه.

(١٩) الإشفاق: يقصد الجزع وعدم الطمأنينة.

(٢٠) يتسخط الكثير: أى لا يرضى بالكثير الذى يتملكه فهو دائما يطمع فيما بيد غيره.

(٢١) أى التمتع بما فى يده.

(٢٢) الزائف.

(٢٣) «وجبت .. ظله» كناية عن الموت.

(٢٤) يقصد بالملوك هنا مطلق الحكام.

(٢٥) محجة: طريق.

(٢٦) عضوضا: ظالما جبارا.

(٢٧) مفاحا: مراقا.

(٢٨) خرشنة: بلدة من بلاد الروم. و يقصد بلاد الروم كلها. و يعنى أبوبكر أن بلاد الروم لن يعسر عليكم فتحها إذا التزمتم بالقرآن واعتصمتم بالطاعة .. الخ.

* العقد الفريد ٤/ ٦٠.

لاشريكَ له ، له المُلكُ وله الحَمْدُ يُحيي و يُميت ، وهو حَيٌّ لايَموت ، يُعزُّ مَن يشاء ، و يُذِلُّ من يشاء ، بيده الخَيرُ وهو عَلَى كلِّ شيءٍ قدير. وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ، أرسلَه بالهُدى ودينِ الحقِ ليُظهرَهُ على الدينِ كلّه ولو كَره المشركون ، إلى الناس كافَّةً رحمةً لهم وحُجةً عليهم ، والناسُ حينئذ على شَرِّ حال ، فى ظُلماتِ الجاهليّة ، دينُهم بدْعة ، ودَعْوتُهم فِرْية . فأعزّ الله الدينَ بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وألّفَ بين قلوبكم أيها المُؤمنون فأصبحتُمْ بنعمَتِه إخوانا ، وكنتمْ على شَفا حُفْرةٍ مِنَ النارِ فأنقذكُم منها ، كذلك يُبيّن الله لكم آياتِه لعلكم تَهتدون . فأطيعُوا الله ورسولَه ، فإنه قال عزّ وجَلّ .

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾(٢٩)

أما بعد ، أيها الناس ، إنى أوصيكم بتقوى الله العظيم فى كلِّ أمرٍ وعلى كلِّ حال ، ولُزوم الحقّ فيما أَحببتُم وكَرهتُم ، فإنه ليس فيما دون الصِّدقِ من الحديثِ خَير . مَن يَكْذبْ يَفْجرْ ، ومن يَفْجر يَهْلِك . وإيّاكم والفَخْرَ ، ومافَخْرُ مَن خُلقَ من تراب وإلى التراب يَعود ؟ هو اليوم حي وغداً مَيّت . فاعمَلوا وعُدُّوا أنفسَكم فى الموتى (٣٠) ، وما أَشكل (٣١) عليكم فردُّوا عِلْمه إلى الله ، وقدّموا لأنفسكم خيراً تَجدوه مُحْضَراً ، فإنه قال عزَّ وجلّ :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾(٣٢)

فاتّقوا الله عبادَ الله ، وراقبوه واعتبروا بمن مَضى قبلَكُمْ ، واعلموا أنه لابُدّ من لقاء ربكم والجزاء بأعمالِكم صَغيرها وكَبيرها ، إلاّ ماغَفرَ الله إنه غَفور رحيم . فأَنْفُسَكم أنفسكم والمُستعانُ الله ، ولاحولَ ولاقوّة إلا بالله . إنَّ الله وملائكتَه يصلّونَ على

---

(٢٩) النساء ٨٠ .

(٣٠) عدوا أنفسكم فى الموتى : أى اجعلوا الدنيا معبراً للآخرة واعملوا لها كأنكم تموتون غدا .

(٣١) أشكل عليكم : اختلط وصعب عليكم فهمه .

(٣٢) آل عمران ٣٠ .

النبى ، يأيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسْليما . اللّهم صَلِّ على محمدٍ عَبْدِك ورسولك أفضلَ ماصلّيت على أحدٍ من خلْقك ، وزَكِّنا [٣٣] بالصلاة عليه ، وألحقْنا به ، واحشُرْنا فى زُمْرته[٣٤] ، وأوْرِدْنا حوضَه . اللهم أعِنَّا عَلَى طاعتك ، وانصُرنا عَلَى عدوّك .

(٦) عن الأعمال والآجال *

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أوصيكم بتقوى الله ، وأن تُثْنُوا عليه بما هو أهلُه ، وأن تَخْلِطوا الرَّغبة بالرَّهبة ، وتجمعوا الإلحافَ بالمَسألة[٣٥] ، فإنَّ الله أثنى عَلَى زكريّا وعَلَى أهلِ بيته ، فقال :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [٣٦]

ثم اعلَموا عبادَ الله أن الله قد أرتَهَنَ بحقِّه أنفسَكم ، وأخذ عَلى ذلك مواثيقَكم ، وعَوَّضكم بالقليلِ الفانى الكثيرَ الباقى ، وهذا كتابُ الله فيكم لاتَفْنى عجائبُه ، ولا يُطْفأ نُورُه . فثقوا بقوله ، وانتصحوا كتابَه ، واستبصروا به[٣٧] ليوم الظُّلمة ، فإنه خَلقكم لعبادته ، ووَكَّلَ بكم الكرامَ الكاتبين ، يَعلمونَ ماتَفعلون . ثم اعلمُوا عبادَ الله بكم تَغْدون وتَرُوحون فى أجلٍ قد غُيِّب عنكم عِلْمُه ، فإن استطعتم ان تنقضى الآجالُ وأنتم فى عَمل الله ، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله ، فسابقوا فى مَهل بأعمالكم

---

(٣٣) زكنا : طهرنا .
(٣٤) الزمرة : الجماعة .

* العقد الفريد ٤/٦١ .
(٣٥) أى اجعلوا رغبتكم إلى الله مصحوبة بالخشوع له ، وألحوا على الله فى السؤال حتى يكون ذكره معلقا بقلوبكم وألسنتكم .
(٣٦) الأنبياء ٩٠ .
(٣٧) استبصروا به : اهتدوا به .

قبل أن تنقضي آجالكم فتردكم إلى سُوء أعمالِكم ، فإنَّ أقواماً جعلوا آجالَهم لغيرهم (٣٨) ، فأنهاكُم أن تكونوا أمثالَهم . فالوَحى الوَحى (٣٩) ، والنجاء النجاء ، فإنَّ وراءكم طالباً حَثيثاً مَرُّه (٤٠) ، سريعاً سَيْرُه .

(٧) وصيته لبعث أسامة *

يأيها الناس ، قفُوا أوصِكُمْ بعشر فاحفظوها عنِّى : لاتَخُونُوا ولا تَغِلّوا (٤١) ، ولا تَغْدِروا ولا تمثلوا (٤٢) ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولاشيخاً كبيراً ولاامرأة ، ولاتعقِروا (٤٣) نخلا ولا تحرقوه ، ولاتقطعوا شجرة مثمرة ، ولاتذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكلة ؛ وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغُوا أنفُسَهُم فى الصوامع (٤٤) فَدَعُوهُم ومافرَّغوا أنفسَهُم له ، وسوفَ تُقدمون على قومٍ يأتونكم بآنيةٍ فيها ألوانُ الطعام ؛ فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه . وتلقَوْن أقواما قد (٤٥) فحصُوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ؛ فاخفقوهم بالسيف خفقا (٤٦) . اندفعوا باسم الله . أفناكم الله بالطعن والطاعون (٤٧) .

---

(٣٨) أى اتبعوا الشيطان وعملوا على مرضاة العباد من دون الله .

(٣٩) الوحى الوحى : عبارة تقال فى الاستعجال والاستنهاض .

(٤٠) طالبا حثيثا مرّه : قدومه عاجل سريع : وهو كناية عن الموت .

* الطبرى ٣/٢٢٧

(٤١) الغل والغلول : السرقة والأكل بالباطل .

(٤٢) التمثيل : تشويه جسد القتيل بعد قتله .

(٤٣) تعقروا : تقطعوا

(٤٤) الصوامع : جمع صومعة وهى مكان العبادة لرهبان أهل الذمة .

(٤٥) يقصد بهؤلاء المقاتلين من أعداء المسلمين .

(٤٦) أى:اقتلوهم بالسيوف ولاتتهاونواً فى أمرهم .

(٤٧) حديث : فناء أمتى بالطعن ... إلخ
أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد فى كتاب « الجنائز » باب : فى الطاعون ، وماتحصل به الشهادة ج ٢ ص ٣١١ . منشورات دار الكتاب العربى ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م بلفظ : وعن أبى موسى الأشعر قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « فناء أمتى بالطعن والطاعون قيل يارسول الله : هذا الطعن قد عرفناه ، فالطاعون؟ قال : « وخز أعدائكم من الجن ، وفى كل شهادة » . قال الهيثمى : رواه أحمد بأسانيد ، ورجال بعضها رجال الصحيح . ورواه أبويعلى ، والبزار ، والطبرانى فى المعجم الكبير والأوسط والصغير . ١هـ مجمع

(٨) وصيته لكل من عمرو بن العاص والوليد بن عقبة *

« اتق الله فى السر والعلانية ، فإنه من يتق الله يجعلْ لهُ مخرجاً ، و يرزقْه من حيثُ لا يحتسبُ ، ومن يتق الله يكفِّر عنه سيئآته ، و يُعْظِمْ له أجراً ، فإن تقوى الله خَيْرُ ماتواصى به عِبادُ الله ، إنك فى سبيلٍ من سبل الله ، لايسعُك فيهِ الإدْهَانُ (٤٨) والتفريطُ والغفلةُ عما فيهِ قوامُ دينكم ، وعصمةُ أمرِكم فَلاتَنِ (٤٩) ، ولاتَفْتُر» .

(٩) دعاء وتضرع ... *

« اللهمَّ إنك خلقتَنا ولم نكُ شيئا ، ثم بعثتَ إلينا رسولا ، رحمةً منكَ لنا ، وفضلاً منكَ علينا ، فهديتَنا وكنَّا ضُلاَّلا ، وحبَّبْتَ إلينا الإيمانَ وكنا كفارا ، وكثَّرتَنا وكنَّا قليلا وجمعتَنا وكنا أشتاتاً ، وقوّيتَنا وكنا ضعافاً ، ثم فرضتَ علينا الجهادَ ، وأمرتنا بقتالِ المشركين حتى يقولُوا لا إله إلا الله أو يعطُوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، اللهم لأصبحْنَا أن نطلبَ رضاكَ ، ونجاهدَ اعداءك ، مَنْ عدلَ بك (٥٠) ، وعبدَ معك إلهاً غيرك ، تعاليتَ عما يقولون عُلُوًّا كبيراً . اللهم فانصر عبادَك المسلمين على عدوِّك من المشركين ، اللهم افتحْ لهم فتحا يسيرا ، وانْصرهم نصراً عزيزا ، واجعلْ لهم من

---

* الطبرى ٤/٢٩.
أوصى أبو بكر كلا منهما بهذه الوصية الواحدة ، وقد بعثهما على الصدقة .

(٤٨) الإدهان : الغش والمداهنة .

(٤٩) ونى : ضعف وفتر .

---

* فتوح الشام ١٣ .
وكان أبو بكر يدعو كل يوم بهذا الدعاء فى الغداة والعشى .

(٥٠) عدل عن الطريق : مال عنه وانحرف . وعدل به : أى ساوى به غيره

لدنْكَ سلطاناً نصيراً ، اللهم شجِّع جُبْنَهم (٥١) وثبّت أقدامهم ، وزلزل بعدوهم ، وادخل الرعبَ قلوبهم ، واستأصلْ شأفتهم (٥٢) ، واقطعْ دابرَهم (٥٣) ، وأبِدْ خضراءهم ، وأورثْنا أرضَهم وديارَهم وأموالَهم ، وكنْ لنا وليًّا ، وبنا حفيًّا (٥٤) ، وأصلحْ لنا شأنَنَا كلَّه ونياتِنا وقضاءنَا وتبعاتِنا ، واجعلنْا لأنْعمِك من الشاكرين ، واغفرْ لنا والمؤمنين والمؤمناتِ ، والمسلمينَ والمسلماتِ ، الأحياءِ منهم والأموات ، ثبَّتَنَا الله وَإياكم بالقولِ الثابتِ فى الحياةِ الدنيا وفى الآخرةِ ، إنه بالمؤمنين رءوف رحيم » .

(١٠) استنفار الناس لقتال الروم *

أيها الناسُ ، إن الله قد أنعمَ عليكم بالإسلام ، وأعزّكم بالجهاد ، وفضَّلكم بهذا الدين على أهلِ كلِّ دين فتجهزُوا عبادَ الله إلى غزو الروم بالشام ، فإنى مُؤمِّر عليكم أمراء ، وعاقدٌ لهم ألويةً ، فأطيعُوا ربّكم ، ولاتخالفُوا أمراءكم ، ولتَحْسُنْ نيتُكم وسيرتُكم وطُعْمتِكم (٥٥) ، فإنَّ اللهَ مع الذين اتقوْا والذين هُمْ مُحسنُون .

---

(٥١) شجع جبنهم : أى بدلهم بجبنهم شجاعة .

(٥٢) الشأفة : قرحة تخرج فى أسفل القدم ، فتكوى فتذهب . و يقال فى المثل : استأصل الله شأفته أى أذهبه الله كما أذهب تلك القرحة بالكّى .

(٥٣) قطع الله دابرهم : أى آخر منْ بقى منهم .

(٥٤) حفى به بالكسر حَفاوة فهو حفىّ : أى بالغ فى إكرامه والطافه والعناية بأمره .

* فتوح الشام ١٠ .

(٥٥) الطُعمة : المأكلة . والطعمة كذلك : وجه المكسب . فيقال فلان عفيف الطعمة ، وخبيث الطعمة إذا كان ردىء المكسب .

(١١) استنفار الناس لقتال الروم *

إنَّ الله تبارَكَ وتعالَى لا تُحصَى نِعَمُه ، ولا تبلغُ جزاءها الأعمالُ ، فله الحمدُ كثيراً على ما اصطنَعَ عندكم ، فقد جمَعَ كلمتَكم ، وأصلحَ ذاتَ بينِكم ، وهداكم إلى الإسلامِ ، ونفَى عنكم الشيطانَ ، فليس يطمعُ أن تشركُوا بالله ، ولا أن تتخذوا إلهاً غيره ، فالعربُ اليومَ أمٌّ وأب ، وقد أردتُ أنْ استنفِرهم إلى جهادِ الروم بالشامِ ليؤيدَ اللهُ المسلمين ، ويجعلَ الله كلمتَه العليا ، مع أن للمسلمين فى ذلك الحظَّ الأوفرَ . فمن هلك منهم هلَكَ شهيدا ، وما عند الله خيرٌ للأبرار ، ومنْ عاش منهم عاشَ مدافِعا عن الدين ، مستوجبا على الله عزوجل ثواب المجاهدين .

(١٢) فى ثواب الجهاد *

« ألا إنَّ لكل أمرٍ جوامعَ ، فمن بَلَغَها فهى حَسْبهُ ، ومن عملَ لله كفاهُ الله ، عليكم بالجِدِّ وَالْقَصْدِ (٥٦) ، فإن القصدَ أبلغُ ، ألا إنه لا دين لأحدٍ لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حِسْبَةَ له ، ولا عملَ لمن لا نية له ، ألا وإنَّ فى كتابِ الله منَ الثواب عَلى الجهادِ فى سبيل الله ، كما ينبغى للمسلم أن يحبَّ أن يُخَصَّ به ، هى التجارة التى دل الله عليها ، ونجَّى بها من الخزى ، وألحقَ بها الكرامةَ فى الدنيا والآخرة » (٥٧) .

* فتوح الشام ٢ .

* الطبرى ٣/ ٣٩٠ .

(٥٦) القصد : الاعتدال .

(٥٧) يشير أبوبكر إلى قوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » الصف ١٠ ــ ١١ .

(١٣) بشائر النصر *

حمدَ الله وَأَثْنَى عليه ثم قال : « أما بعدُ فإنَّ إخوانَكم المسلمينَ معافَوْن مكلَّئون (٥٨) ، مدفوعٌ عنهم ، مصنوعٌ لهم ، وقد ألقَى الله الرعبَ في قلوبِ عدوِّهم منْهُم ، وقد اعتصمُوا بحصونهم ، وأغلقُوا أبوابَها دونَهم عليهم ، وقد جاءتْني رسُلهم يخبرونَني بهربِ هرقَل ملكِ الروم من بين أيديهم ، حتى نزلَ قريةً من قرى الشامِ في أقصى الشامِ ، وقد بعثُوا إليّ يخبرونني أنَّه وجَّهَ إليهم هرقلُ جنداً من مكانِه ذلك ، فرأيتُ أن أمدَّ إخوانكم المسلمين بجندٍ منكم يشدد الله بكم ظهورَهم ، و يكبتْ بهم عدوَّهُم ، و يُلقِ بهم الرعبَ في قلوبِهم . فانتدِبوَا رحمكم اللهُ مع هاشمِ بن عتبةَ بن أبي وقاص . واحتسِبُوا في ذلك الأجرِ والخيرِ فإنكم إن نُصرتُم فهو الفتحُ والغنيمة . وإن تهلِكُوا فهي الشهادة والكرامة » .

(١٤) وصيته لخالد بن سعيد *

إنَّك قد أوصَيْتَني برشْدي وقد وَعَيْتُه ، وأنَا مُوصيكَ فاستَمع وصيتي وَعيها ، إنَّك امرؤٌ قد جعل الله لك سابقة في الإسلام ، وفضيلةً عظيمة ، والناسُ ناظرون إليك ، ومستَمعُون منك ، وقد خرجتَ في هذا الوجهِ العظيمِ الأجر ، وأنا أرجُو أن يكونَ خروجُك فيه لحِسْبةٍ ونيةٍ صادقة إن شاء الله . فثَّبتِ العالِم ، وعلِّم الجاهِل ، وعاتبِ السفيه المترَفَ ، وانصحْ لعامةِ المسلمين ، واخصُصِ الوالي على الجندِ من نصيحتك ومشورتك مايُحقُّ اللهُ وللمسلمين عليك .

---

* فتوح الشام ٣٤.

خطبها في الناس حينما كتب إليه أبوعبيدة من الشام يبلغه أن هرقل مسلك الروم قد جمع لهم جموعا كثيفة .

(٥٨) محروسون برعاية الله . وكلأه : حفظه .

* فتوح الشام ٢٣.

وكان خالد بن سعيد أول من استجاب لدعوة أبي بكر في الخروج لقتال الروم فكان أول من تجهز للقتال هو وإخوته وغلمانه ومن تبعه من أهل بيته . وجاءت وصية أبي بكر هذه بعد أن سمع أبوبكر من خالد وصية قيمة .

واعملْ لله كأنكَ تراه ، واعدُدْ نفسَكَ فى الموتى . واعلَمْ أنَّا عما قليل مَيِّتُون ثم مبعوثون ثم مساءلُون ومحاسَبون .

جعلنا الله وإياك لأنعُمِه من الشاكرينَ ، ولنقَمه من الخائِفين .

(١٥) وصيته لخالد بن الوليد *

« سر على بركةِ الله ، فإذا دخلْتَ أرضَ العدوِّ ، فكنْ بعيداً من الحملة ، فإنى لاآمن عليكَ الجَوْلةَ ، واستظهرْ بالزادِ(٥٩) ، وسر بالأَدِلاَّء(٦٠) ، ولا تقاتلْ بمجروحٍ ، فإن بعضه ليس منه(٦١) ، واحترسْ من الْبَياتِ(٦٢) ، فإن فى العرب غِرة(٦٣) ، وأَقللْ من الكلامِ ، فإن مالَكَ ماوُعِىَ عنك ، واقبلْ من الناسِ علانيتَهم ، وكِلْهُم إلى الله فى سريرتهم ، واستودِعُكَ الله الذى لا تضيعُ ودائعُه » .

(١٦) وصيته لعمرو بن العاص *

« ياعمرو إنَّك ذَو رأى وتجربةٍ بالامور وتبصرةٍ بالحربِ . وقد خرجتَ مع أشراف قومك ، ورجالٍ من صلحاء المسلمين ، وأنت قادمٌ عَلَى إخوانِك فلا تألهُم نصيحةً ، ولا تدخر عنهم صالحَ مشورة ، فربَّ رأيٍ لك محمودٌ فى الحرب ، مباركٍ فى عواقبِ الأمور »

---

* العقد الفريد ١/ ١٥٢.

(٥٩) أى:فليكن معك دائما مايحتاج إليه الجيش من ماء وطعام .

(٦٠) الأدلاء : جمع دليل وهو الخبير بطبيعة الأرض ودروبها .

(٦١) أى:أن عضوه المجروح يكون عبئا عليه ومعيقا له عن القتال .

(٦٢) البيات : الهجوم المفاجئ ليلا .

(٦٣) الغِرة : بكسر الأول ، الغفله . يقال : أخذه على غرة . أى أوقع به وهو غافل منصرف الذهن عن توقع ماوقع .

* فتوح الشام ٤٧.
شيع أبوبكر بهذه الوصية عمرو بن العاص وهو يشخصُه بجيش أمدّ به أبا عبيدة بن الجراح .

(٦٤) لاتقصر فى تقديم النصح لهم .

(١٧) وصيته ليزيد بن أبي سفيان *

« يا يزيد ، إنى أوصيك بتقوى الله وطاعته ، والإيثار له (٦٥) ، والخوف منه ، وإذا لقيت العدوّ فأظفركم الله بهم ، فلا تغلل ولا تمثّل ، ولا تغدر ولا تجبن ، ولا تقتلوا وليدا ، ولا شيخا كبيراً ولا امرأة ، ولا تحرقوا نخلاً ولا تَقْعَرُه (٦٦) ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تعقروا بهيمةً إلا لمأكلة ، وستمرون بقوم فى الصوامع ، يزعمون أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، وستجدون آخرين قد فحص الشيطان عن أوساط رءوسهم ، حتى كأن أوساط رءوسهم أفاحيص (٦٧) القطا ، فاضربوا ما فحصوا من رءوسهم بالسيوف حتى يُنيبوا إلى الإسلام (٦٨) ، أو يؤدوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، ولينصرنّ الله من ينصره ورسله بالغيب » ثم أخذ يده فقال : « إنى استودعك الله وعليك سلام الله ورحمته » ثم ودّعه وقال : « إنك أول أمرائى ، وقد وليتك على رجال من المسلمين أشراف غير أوزاع (٦٩) فى الناس ، فأحسن صحبتهم ، ولتكن لهم كنفا (٧٠) واخفض لهم جناحك وشاورهم فى الأمر ، أحسن الله لك الصحابة وعلينا الخلافة » .

(١٨) وصية أخرى ليزيد بن أبي سفيان *

« إنى قد وليتك لأبلوك وأجرّبك وأخرّجك (٧١) ، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك ، وإن أسأت عزلتك ، فعليك بتقوى الله ، فإنه يَرَى من باطنك مثل الذى يَرَى من ظاهرك ، وإنّ أولى الناس بالله أشدّهم توليا له (٧٢) ، وأقرب الناس

---

* فتوح الشام ١١.

(٦٥) الإيثار لله يعنى حبه وتقديم دينه على ماسواه .

(٦٦) قعر النخلة : قطعها من أصلها .

(٦٧) أفاحيص : جمع أفحوص ، وهو مجثم القطا فى الأرض .

(٦٨) أناب : تاب وأقبل .

(٦٩) أوزاع : (جمع لامفرد له) : متفرقون

(٧٠) الكنف : الجانب . و يقصد به الحماية والصيانة لهم والحرص على سلامتهم .

* الكامل لابن الأثير ٢/ ٤٠٤.
وقد وصاه بها أبوبكر حين وجهه لفتح الشام .

(٧١) أخرجك : أدربك وأعلمك .

(٧٢) حبّاله وإقبالا عليه .

من الله أشدُّهم تقرُّباً إليه بعمَلِه ، وقد ولّيتك عمل خالد (٧٣) ، فإيَّاكَ وَعُبِّيَّةَ (٧٤) الجاهلية ، فإنَّ الله يُبْغِضُها وَيُبغِضُ أهلَها ، وإذا قَدِمْتَ عَلَى جندِك فأحْسِنْ صُحْبَتَهُمْ وابدأهم بالخير ، وَعِدْهم إياه ، وإذا وعظتهُم فأوجِزْ ، فإنّ كثيرَ الكلام يُنْسِي بَعْضُهُ بعضاً ، وأَصْلِحْ نفسكَ يَصْلُحْ لك الناسُ ، وَصَلِّ الصَّلَوَاتِ لأوقاتِها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشُّع فيها ، وإذا قَدِمَ عليك رُسُلُ عدوِّك فأكرِمْهم وأقلِلْ لُبْثَهم (٧٥) حتى يخرجُوا من عسكرك وهم جاهلون به ، ولا تُرَيِّثهم (٧٦) فيَرَوْا خَلَلَكَ ، وَ يعلموا عِلْمَكَ ، وأنزِلْهُم فى ثروَةِ عسكَرِك (٧٧) ، وامنعْ مَنْ قِبَلَكَ من محادَثتِهِمْ ، وكن أنتَ المتولِّيَ لكلامهم ، ولا تجعلْ سرك لعلانيتِك ، فيختلط أمرك ، وإذا استشرتَ فاصدُق الحديثَ تُصْدَق المشورةَ ، ولا تَخْزُن (٧٨) عن المُشِير خبَرك ، فَتُؤْتَى من قِبَلِ نفسِكَ ، واسمُرْ (٧٩) بالليلِ فى أصحابك تأتِكَ الأخبارُ ، وتنكشِف عندك الأستار ، وأكْثِرْ حَرَسَكَ وَبَدِّدْهم (٨٠) فى عسكَرِك ، وأكثِرْ مفاجأتهم فى محارِسِهم (٨١) بغير علم منهم بك ، فمن وجدتَهُ غَفَلَ عن مَحْرَسِه ، فأحْسِنْ أدَبَهُ وَعاقِبْهُ فى غير إفراط ، وعَقِّب (٨٢) بينهم بالليل ، واجعل النَّوْبَةَ الأولى أطول من الأخيرة ، فإنها أيسرُهما لقربها من النهار ، ولا تخَفْ من عقوبةِ المستحق ، ولا تَلِجَّنَّ فيها (٨٣) ، ولا تُسْرِعْ إليها ، ولا تَخْذَ (٨٤) لها مُدْقِعا (٨٥) ، ولا تَغْفُلْ عن أهل عسكرِكَ فَتُفسِدَهُ ، ولا تجَسَّسْ عليهم فَتَفْضَحَهُمْ ، ولا يكشف الناسُ عن أسرارهم ، واكتف بعلانيتِهمْ ، ولا تجالس العَبَّاثين ، وجالس أهلَ الصدقِ والوفاء ، واصْدُقِ اللّقاء ، ولا تَجْبُنْ فيجبنَ الناس ،

---

(٧٣) خالد بن سعيد .
(٧٤) فخرها وكبرياءها .
(٧٥) اللبث : البقاء والمكوث .
(٧٦) ريثه : أبقاه طويلا .
(٧٧) أي أنزلهم فى الكثرة ذات العدة من عسكرك حتى تروعهم قوتك .
(٧٨) تخزن : تكتم .
(٧٩) السمر : الحديث بالليل .
(٨٠) بددهم : انشرهم .
(٨١) المحارس : مواقع الحراسة .
(٨٢) أي اجعل بينهم نوبات : كل واحدة عقب الأخرى .
(٨٣) لج : تمادى وأسرف .
(٨٤) خذى : ضعف واسترخى .
(٨٥) المدقع : الهزيل الضعيف : ينهاه أن يضعف أو يأخذه الاسترخاء أمام تنفيذ عقوبة فى الحق .

واجتنب الغُلُول (٨٦) فإنه يقرِّبُ الفقرَ ، و يدفع النصْرَ ، وستجدون أقواما حبسوا أنفسَهم فى الصوامِع ، فدعْهم وما حَبسُوا أنفسَهم له » .

(١٩) وصيته لشرحبيل بن حسنة *

قالَ أبوبكر — رضى الله عنه — لشُرَحْبيل بنِ حَسَنَة .
ياشرحِبيلُ : أَلَمْ تسمعْ وصيتى ليز يدِ بن أبى سفيان ؟ قال : بلى .
قال فإنِّى أوصيك بمِثْلها ، وأوصيكَ بخصالٍ أغفلت ذكرَهُنَّ ليز يد :

أوصيكَ بالصلاةِ فى وقتِها ، و بالصبرِ يومَ البأسِ حتى تظفَر أو تُقْتَلَ ، و بعيادةِ المرضى ، وبحضورِ الجنائِز ، وذكرِ الله كثيرا على كل حال .

(٢٠) وصيته لأبى عبيدة بن الجراح *

« اسمعْ سماعَ من ير يدُ أن يفهمَ ماقِيلَ له ، ثم يعملُ بما أُمِربه ، إنك تخرج فى أشرافِ الناسِ ، و بيوتاتِ العرب ، وصُلحاء المسلمين ، وفرسانِ الجاهلية ، كانو يقاتلون إذْ ذاك على الحْمِيَّة ، وهم اليوم يقاتلون على الحِسْبةِ والنيةِ الحسنة ، أحسِنْ صحبةَ من صَحِبكَ ، وليكنِ الناسُ عندك فى الحق سواء ، واستعنْ بالله وكفَى باللهِ مُعينا ، وتوكل على الله وكفى باللهِ وكيلا ، اخرجْ من غد إن شاء الله » .

(٢١) وصية أخرى لأبى عبيدة *

« يا أبا عبيدةَ ، اعملْ صالحا . وعشْ مجاهدًا ، وتوفَ شهيدا ، يعطِكَ اللهُ كتابَكَ بيمينِك ، ولْتقرَّ عينُك فى دنياكَ وآخرتك ، فو الله إنى لأرجُو أن تكونَ من التوابين

---

(٨٦) الغلول : الغدر والخيانة .

* فتوح الشام ١٥

* فتوح الشام.١٦
وجه إليه أبو بكر هذه الوصية وهو يودعه .

* فتوح الشام ١٨.
قبل أن يترك أبو بكر أبا عبيدة وجيشه المتجه لقتال الروم فى الشام أوصاه هذه الوصاة عند ثنية الوداع .

الأوَّابين المُختبين (٨٧) الزاهدين فى الدنيا ، الراغبينَ فى الآخرة ، إن الله قد صنَعَ بكِ خيرا وساقَه إليك ، إذ جعلَكَ تسيرُ فى جيشٍ من المسلمين إلى عدوِّه من المشركين ، فقاتلْ مَنْ كفَر بالله وأشركَ به ، وعَبَدَ معه غيرَهُ » .

(٢٢) وصيته لهاشم بن عتبة *

« يا هاشمُ إنّا إنما كنّا ننتفعُ من الشيخ الكبيرِ برأيه ومشورته وحسنِ تدبيره ، وكنّا ننتفعُ من الشابِّ بصبره وبأسه ونجدتِه ، وإن الله عز وجل قد جمعَ لك تلكَ الخصالَ كلها ، وأنتَ حديثُ السنِّ مستقبَل الخير ، فإذا لقيتَ عدوك فاصبرْ وصابر ، واعلم أنك لا تخطُو خطوةً ، ولا تنفقُ نفقةً ، ولا يصيُبك ظمأ ولا نصب ولا مخمصة (٨٨) فى سبيل الله إلا كتب الله لك به عملا صالحا ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

---

(٨٧) الخاشعين المتواضعين :

* فتوح الشام ٣٤.
أوصاه بها أبو بكر وهو يوجهه لقتال الروم .

(٨٨) المخمصة : الجوع .
يقول تعالى : « .... ذلك بأنهم لايصيبهم ظلمأ ولانصب ولامخمصة فى سبيل الله ولايطئون موطئا يغيظ الكفار ولاينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لايضيع أجر المحسنين » التوبة ١٢٠ .

الشريحة الثانية

الكتب والعهود

(١) إلى القبائل المرتدة *

بسم الله الرحمن الرحيم . من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى من بَلَغَه كتابى هذا من عامّة وخاصّة ؛ أقام على إسلامه أو رجعَ عنه . سلامٌ علَى مَن اتبعَ الهدى ، ولم يرجعْ بعد الهدى إلى الضلالة والعمى ؛ فإنّى أحمدُ إليكم الله الذى لا إله إلا هو، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لاشريكَ له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، نُقِرُّ بما جاء به ، ونكفِّرُ مَن أبى ونُجاهدُه . أمّا بعدُ ؛ فإن الله تعالى أرسلَ محمداً بالحقّ من عنده إلى خلقه بشيراً ونَذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، لينذِرمَن كان حيًّا

---

* الطبرى ٣/ ٢٥٠ (وهوعلى صيغة واحدة لكل القبائل)

بعد عودة بعث أسامة منتصرا قطع أبوبكر البعوثَ وعقد الألوية . فعقد أحد عشر لواء : عقد لخالد بن الوليد وأمَره بطليحة بن خويلد ؛ فإذا فرغ سار إلى مالك بن نُويرة بالبُطاح إن أقام له ، ولعكْرمة بن أبى جهل وأمره بمسيْلمة ، وللمهاجر بن أبى أميّة وأمَره بجنود العنْسىّ ومعونة الأبناء على قيس بن المكشوح ومَنْ أعانه من أهل اليمن عليهم ، ثم يمضى إلى كِنْدة بحضرموت . ولخالد ابن سعيد بن العاص ـــ وكان قدم على تفيئة (٣) ذلك من اليمن وترك عمله ـــ وبعثه إلى الحَمْقَتَين من مشارف الشأم ، ولعمرو ابن العاص إلى جماع قُضاعة ووديعة والحارث ، ولحذيفة بن مِحْصَن الغلفانّى وأمَره بأهل دَبا ولعرفجة بن هرثمة وأمره بمهرة ؛ وأمرهما أن يجتمعا وكلّ واحد منهما فى عمله على صاحبه ، وبعث شُرحبْيل بن حَسنَة فى أثرعكرمة بن أبى جهل ، وقال : إذا فرغ من اليمامة فالحق بقُضاعة ، وأنت على خيلك تقاتلُ أهل الرّدّة . ولطُرَيفَة بن حاجز وأمره ببنى سُليم ومَن معهم من هَوازن ، ولسُويد بن مقرّن وأمَره بتهامة اليمن ، وللعَلاء بن الحضرمىّ وأمرَه بالبَحْرين .

و يُحقَّ القولَ على الكافرين . فهدى الله بالحقّ مَن أجاب إليه ، وضربَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بإذنه مَنْ أدبَرَعنه ؛ حتى صارَ إلى الإسلام طَوْعاً وكَرْهاً . ثمّ تَوَفَّى اللهُ رسولَه صلى الله عليه وسلم وقد نفذ لأمر الله ، ونصحَ لأمّته ؛ وقضى الذى عليه ، وكان الله قد بيّن له ذلك ولأهل الإسلام فى الكتاب الذى أنزل ؛ فقال

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (١)

وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾(٢)

وقال للمؤمنين : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(٣)

فمن كان إنما يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات، ومَن كان إنما يعبدُ الله وحده لاشريك له فإن الله له بالمرصاد؛ حَيٌّ قَيُّومٌ لايموت؛ ولا تأخذُهُ سِنَة ولانَومٌ، حافظ لأمره، منتقمٌ من عدوّه، يجزيه. وإنّى أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله ، وماجاءكم به نبيّكم صلّى الله عليه وسلّم ، وأن تهتدوا بهُداه ، وأن تعتصموا بدين الله ، فإنّ كلّ مَن لم يهده الله ضالٌّ ، وكلّ مَنْ لم يُعافِه مبتلى، وكلّ مَنْ لم يُعِنْه الله مخذول ، فمن هداه الله كان مُهتَدياً ، ومَنْ أضلّه كان ضالاً؛ قال الله تعالى :

﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾(٤)

---

(١) الزمر ٣٠ .
(٢) الأنبياء ٣٤.
(٣) آل عمران ١٤٤.
(٤) الكهف ١٧.

ولم يُقْبَل منه فى الدنيا عَمَلٌ حَتى يقرّ به ؛ ولم يُقْبَلْ منه فى الآخرة صَرْف ولا عَدْلٌ .

وقد بلغني رجوعُ مَنْ رجع منكم عن دينه بعد أن أقرّ بالإسلام وعمل به ؛ اغتراراً بالله ، وجهالةً بأمره ، وإجابة للشيطان ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾(٥)

وقال ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾(٦)

وإنّى بعثتُ إليكم فلاناً فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرتُه ألاّ يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوَه إلى داعية الله ؛ فمن استجاب له وأقرّ وكفّ وعمِل صالحاً قَبِلَ منه وأعانه عليه ؛ ومَنْ أبى أمَرتُ أن يقاتلَه على ذلك ؛ ثم لا يبقِى على أحد منهم قَدرَ عليه ، وأن يُحرقهم بالنار ، و يقتلهم كلّ قِتْلة ، وأن يَسبىَ النساء والذرارىّ ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ؛ فمَن اتّبعه فهو خير له ، ومَنْ تركه فلن يعجز الله . وقد أمرتُ رسولى أن يقرأ كتابى فى كلّ مجمع لكم ؛ والداعية الأذان ؛ فإذا أذّن المسلمون فأذَّنوا كُفّوا عنهم ؛ وإن لم يؤذّنوا عاجلوهم ؛ وإن أذَّنوا اسألوهم ما عليهم ؛ فإن أبوْا عاجلوهم ، وأن أقرّوا قبِل منهم ؛ وحملهم على ما ينبغى لهم .

(٢) عهده لقادة الجيوش المتجهة لقتال المرتدين *

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا عهدٌ من أبى بكر خليفةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّمَ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتالِ مَنْ رَجَع عن الإسلامِ ، وعهِد إليه أن يتّقىَ

(٥) الكهف ٥٠.

(٦) فاطر ٦ .

* الطبرى ٣/ ٢٥١ والاكتفاء للكلاعى الأندلسى ١/ ٣٣ مع اختلاف يسير .

الله مـا استطاع فى أمره كلّه سرّه وعلانيته ، وأمره بالجد فى أمر الله ، ومجاهدةِ مَنْ تولّى عنه ، ورجع عن الإسلام إلى أمانىّ الشيطان (٧) بعد أن يُعذر إليهم فيدعوّهم بداعية الإسلام ؛ فـإن أجـابـوه أمـسـك عنهـم ، وإن لم يجيـبـوه شـنّ غـارتـه عـليـهـم حـتـى يُـقِـرُّوا لـه ؛ ثم يُـنـبـئـهُـم بالذى عليهم والّذى لهم ، فيأخذ ما عليهم ، و يعطيهم الذى لهم ؛ لا يُنظرهم (٨) ، ولا يـردّ المسلمين عن قتال عدوّهم ؛ فمن أجاب إلى أمرِ الله عزّ وجلّ وأقرّ له قَبل ذلـك منه واعانه عليه بالمعروف ؛ وإنما يقاتل مَن كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله ؛ فـإذا أجـاب الدعوة لم يكن عليه سبيلٌ ؛ وكان الله حسيبَه (٩) بعد فيما استسر به (١٠) ، ومَـن لم يجـب داعـيـةَ الله قُـتِـل وقوتل حيث كان ؛ وحيث بلغ مُراغَمه (١١) ، لا يقبل مـن أحـد شـيـئًا أعطاه إلا الإسلام ؛ فَمن أجابه وأقرّ قبِل منه وعلمه ، ومَنْ ابى قاتله ؛ فـإن أظـهـره الله عليه قتل منهم كلّ قتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسّم ما أفاء الله عليه ، إلا الـخُـمـس فـإنه يبلّغناه ، وأن يمنع أصحابَه العجلةَ والفساد ، وألاّ يُدخل فيهم حَشْوًا

حـتـى يـعـرفـهم و يعلم ماهم ؛ لايكونوا عيونا (١٢) ، ولئلا يُؤتى المسلمون مِنْ قبَلهم ، وأن يـقـتـصدَ بالمسلمين و يرفقَ بهم فى السير والمنزل و يتفقّدهم ، ولا يُعجِلَ بعضَهم عن بعض ، و يستوصى بالمسلمين فى حُسْن الصحبة ولين القول .

(٣) إلى عمال الردة *

« أمـا بـعـدُ : فإنّ أحبَّ من أدخلتم فى أموركم إلىّ مَن لم يرتدّ ، ومن كان ممن لم يرتـد ، فـأجـمِعـوا على ذلـك ، فـاتخـذوا منها صنائعَ ، وأْذَنُوا لمن شاء فى الانصراف ، ولا تستعينوا بمرتَدٍّ فى جهاد عدو »

---

(٧) أمانى الشيطان : أهوائه وطرائقه .

(٨) ينظرهم : يمهلهم .

(٩) حسيبه : كافيه ومراقبه

(١٠) استسر به : أخفاه وأضمره

(١١) المراغم بضم الميم وفتح الغين : المهرب والمذهب والمهجر وحيث بلغ مراغمه : أى فى أين مكان هرب إليه .

(١٢) أى: لا يسمح بأن يختلط بالمسلمين — ممن عاد إلى الاسلام بعد رده — إلا من تيقن من حسن دينه حتى لا يكون عينا على المسلمين .

* الطبرى ٣/ ٢٤٩

(٤) إلى أهل مكة يستنفرهم للجهاد *

بسم الله الرحمن الرحيم : من أبى بكر إلى أهلِ مكةَ وسائرِ المؤمنين ، فإنى أحمدُ اللهَ الذىَ لا إله إلا هو، وأصلى على نبيِّه محمد — صلى الله عليه وسلم — ، أما بعدُ فإنى قد استنفرت المسلمين إلى الجهادِ وفتح بلاد الشام ، وقد كتبت إليكم وإلى المسلمين أن تسرعُوا إلى ما أمركم به ربُّكُمْ تبارَكَ وتعالى إذ يقول الله عز وجلّ « انفروا خفافاً وثقالا ، وجاهدوا بأموالِكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكُمْ خَيرٌ لكم إن كنتم تعلمون » .

وهذه الآية فيكم ، وأنتم أحقُّ بها وأهلُها ، وأولُ من صدق وقام بحكمها . من ينصر دينَ الله فالله ناصرُهُ ، ومن بخلَ استغنى اللهُ عنه ، والله غنيٌّ حميد . فسارعُوا إلى جنةٍ عاليةٍ ، قطوفُها دانيةٌ ، أعدَّها اللهُ للمهاجرين والأنصارِ ، فمَنَ اتبعَ سبيلهم كُتِبَ من الأولياء الأخيارِ وحسبُنا الله ونعم الوكيل .

(٥) إلى وجوه اليمن *

« من أبى بكرٍ خليفة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى عُمَيْر بن أَفْلحَ ذى مَرَّان ، وسَعِيد بن العاقب ذى زُود ، وسَميْفَع بن ناكُوردى الكَلاَع ، وحَوْشَب ذى ظُلَيْم ، وشَهرْ ذى يناف :

أما بعدُ : فأعِينُوا الأبناء [١٣] على من ناوَأهم ، وحُوطُوهم [١٤] . واسَمعُوا مِن فَيْرُوزَ ، وجِدُّوا معه فإنى قد ولَّيْته » .

---

* الواقدى فتوح الشام ١/٧٠

* الطبرى ٣/٣٢٠

(١٣) الأبناء : هم قوم من الفرس استوطنوا اليمن ، وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن لما جاء يستنجدهم على الحبشة ، فنصروه وملكوا اليمن ، وتزوجوا من العرب ، فقيل لأولادهم : الأبناء . (انظر جمهرة رسائل العرب ١/١٢٥)

(١٤) حوطوهم : احفظوهم وصونوهم

(٦) إلى أهل اليمن يستنفرهم للجهاد *

« بسم الله الرحمن الرحيم . من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مَن قُرِئَ عليه كتابى هذا من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن ، سلام عليكم ، فإنى أحمَد إليكم الله ــ الذى لا إلهَ إلا هو. أما بعدُ : فإن الله كتبَ على المؤمنين الجهَادَ ، وأمرَهم أن يَنْفِروا خِفَافاً وثِقَالاً ، وقال .

﴿ وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (١٥)

فالجهادُ فريضةٌ مفروضة ، وثوابُه عند الله عظيم . وقد استنفَرْنا مَنْ قِبَلَنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ، وقد سارعوا إلى ذَلك وعَسْكَروا وخَرجُوا ، وحَسُنَت فى ذلك نيَّتُهم ، وعظُمَتْ فى الخير حسْبَتهم (١٦) ، فسارعوا عبادَ الله إلى ماسارعوا إليه ، ولْتَحْسُنْ نيَّتُكم فيه ، فإنكم إلى إحدى الُحسْنَيَيْنِ : إما الشَّهادة ، وإما الفتحُ والغنيمة ، فإنَّ الله تبارك وتعالى لم يرضَ من عبادِهِ بالقولِ دون العمل ، ولايتركُ أهلَ عداوته حتى يدينوا بدينِ الحقِّ ، و يُقِرُّوا بحكم الكتاب ، أو يُؤدّوا الْجِزْيَة عن يَدٍ وهم صاغِرون ، حفِظ الله لكم دينَكم ، وهدَى قلوبَكم ، وزَكَّى أعمالَكم ، ورزقكمُ أجَر المجاهدين الصابرين ، والسلام عليكم » .

(٧) إلى عكرمة بن أبى جهل *

« يابن أم عِكْرِمة ، لاأرَيَنَّكَ وَلاَ تَرانى على حالها (١٧) ، لاترجِعْ فَتُوهِّنَ (١٨) الناسَ ، امضِ على وجهِكَ حتى تسانِدَ حُذَيْفَة وعَرْفَجَة (١٩) ، فقاتِلْ معهما أهلَ عُمَانَ ومَهْرة ، وإنَّ شغلا فامضِ أنت ، ثم تسيرُ وتسيرُ جندُك تَسْتبرِئون مَن مررْتُم به ، حتى تلتقُوا أنتم والمهاجرُون أبى أمَيَّةَ باليمن وحَضْرَمَوْت » .

---

* فتوح الشام ٨ .
كتب أبو بكر هذا الكتاب إلى أهل اليمن حينما عزم على فتح الشام .

(١٥) التوبة ٤١ .

(١٦) أجرهم .

* الطبرى ٣/ ٢٨١ .
بعث أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ عكرمة بن أبى جهل إلى مسيلمة و بنى حنيفة باليمامة ، وأتبعه شرحبيل بن حسنة ، فعجل ونازل القوم حتى يحرز نصرا ينسب إليه قبل وصول شرحبيل فهزموه . وكتب عكرمة إلى أبى بكر بما حدث فجاءه هذا الرد من أبى بكر .

(١٧) أى : لا أراك ولا ترانى وأنت على هذه الحال من الهزيمة النكراء .

(١٨) تضعف .

(١٩) حذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة .

(٨) إلى العلاء بن الحضرمي *

أما بعد : فإن بَلَغكَ عن بني شيبانَ بن ثعلبة تمامٌ (٢٠) على ما بلغَكَ ، وخاضَ فيه المرْجِفُونَ (٢١) ، فابعثْ إليهم جُنْداً فأوطِئْهم وشرِّدْ بهم مَنْ خَلْفَهم .

(٩) إلى الطاهر بن أبى هالة .. *

بلغَنِي كتابُك تخبرني فيه مَسيرَكَ ، واستنفارَكَ مَسروقًا وقومهُ إلى الأخابث (٢٢) بالأعلاب ، فقد أصبتَ ، فعاجِلُوا هذا الضربَ ، ولا ترفِّهوا (٢٣) عنهم ، وأقيموا بالأعلاب حتى يأمَنَ طريقُ الأخابث ، و يأتِيَكُمْ أمْرى .

(١٠) إلى المثنى بن حارثة الشيباني *

« أما بعدُ ، فإنِّي بعثتُ إليك خالدَ بن الوليد إلى أرضِ العراق ، فاستقْبلْه بمن معَكَ من قومك ، ثم ساعِدْه ووَازِرْه وكانِفْه (٢٤) ، ولا تعصِيَنَّ له أمراً ، ولا تخالِفَنَّ له رأْياً ، فإنه من الذين وَصَفَ الله تبارك وتعالى في كتابه فقال :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ (٢٥)

---

* الطبرى ٣/٣٠١ .

وكان العلاء آنذاك بالبحرين يقاتل المرتدين ، وكان قد كتب إلى أبي بكر يخبره بنصر أحرزه وقتل قائد المرتدين الحُطَم بن ضبيعة .

(٢٠) إصرار واستمرار .

(٢١) أرجفوا في الشيء : خاضوا فيه .

* الطبرى ٣/٣١٠

انتقض بتهامة — عك والأشعرون — حين بلغهم موت النبي — صلى الله عليه وسلم — وانضم اليهم جماعات من الناس وأقاموا على الأعلاب وهي أرض لعك بين مكة والساحل ، فسار إليهم الطاهر بن أبي هالة ومعه مسروق العكي وكتب إلى أبي بكر بمسيره إليهم . فكان هذا الكتاب ردا من أبي بكر عليه .

(٢٢) الأخابث جمع الأخبث ، وقد سمى بالأخابث جموع المرتدين من عك ومن انضم إليهم ، كما سمى ذلك الطريق الأخابث .

(٢٣) رفّه عن غيره : نفّس عنه . و يقصد أبو بكر : شددوا عليهم ، ولا ترفعوا أيديكم عنهم .

* فتوح الشام ٥٧ .

(٢٤) وازره وآزره وكانفه : سانده وساعده .

(٢٥) الفتح ٢٩

(١١) إلى عياض بن غَنْم *

سر حتى تأتىَ المُصَيّخ (٢٦) فابدأ بها ، ثم ادخل العراق مِنْ أعلاها ، وعارقْ (٢٧) حتى تلقّى خالداً ، وأْذَنَا لمنْ شاء بالرجوع ، ولا تستفِتحا بمتَكاره (٢٨) .

(١٢) إلى عمرو بن العاص *

إنّى قد كنتُ رددتُك على العملِ الذى كانَ رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وَلاّكَهُ مرة ، وسماهُ لك أخرى مبْعَثَكَ إلى عُمان ، إنجازاً لمواعيد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد وُلِّيتَه ثم وُليتَه (٢٩) ، وقد أحببتُ أباعبدالله أن أفرِّغَكَ لما هُوخيرٌ لكَ فى حياتِك ومَعَادِك منه ، إلا أن يكونَ الذى أنت فيه أحبَّ إليك (٣٠) .

(١٣) إلى خالد بن سعيد بن العاص *

أقِمْ مكانَكَ فلعمرى إنكَ مقدامٌ مِحْجَامٌ (٣١) ، نجّاء من الغمراتِ (٣٢) ، لاتخوضُها إلى حقٍّ ، ولا تصبرُ عليه .

---

* الطبرى ٣/ ٣٧٠

(٢٦) المصيخ : فى بادية الشام بين حوران والفرات .

(٢٧) عارق : ادخل العراق .

(٢٨) أى لاتحاربا بمن تشعرا أنه كاره للقتال .

* الطبرى ٣/ ٣٨٩

كان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ قد ردّ عمرو بن العاص على عمالة كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولاها إياه من صدقات سعد هديم وعدرة قبل ذهابه إلى عمان ، وهو على عدة من عمله إذا رجع ، فأنجز له ذلك أبو بكر . فلما اهتاج أبوبكر لفتح الشام كتب هذا الكتاب إلى عمرو (انظر كذلك جمهرة رسائل العرب ١/ ١٤٣)

(٢٩) أى وليه مرتين : مرة فى عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومرة فى عهد أبى بكر الصديق .

(٣٠) استجاب عمرو لكتاب أبى بكر وأرسل إليه يقول : « إنى سهم من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامى بها ، والجامع لما ، فانظر أشدها ، وأخشاها وأفضلها ، فارم به شيئا إن جاءك من ناحية من النواحى » .

* الطبرى ٣/ ٣٩٢ .

لما عقد أبو بكر الألوية لقتال المرتدين وجه خالد بن سعيد إلى مشارف الشام وأمره أن ينزل تيماء لايبرحها وسجل عدة انتصارات على الروم ومن والاهم من العرب ، وكان أمر أبى بكر إليه بعد ذلك « أقدم ولاتقتحمن حتى لاتؤتى من خلفك » ولكنه خالف عن أمر أبى بكر ، فزق الزوم جيشه ، وهرب إلى ذى المروة ، وهى قرية بوادى القرى ، فلما علم أبوبكر بذلك كتب إليه هذا الكتاب .

(٣١) كثير الهجوم كثير الفرار على غير حكمة أو بصر بالحرب .

(٣٢) لاتجابه الشدائد ، فهمك الأول أن تنجو بنفسك من مواجهتها .

(١٤) رده على كتاب لأبى عبيدة *

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ ، فقد بلغَنى كتابُك ، وفهمتُ ماذكرتَ فيه من أمر هرقلَ ملِكِ الروم ، فأما منزلهُ « بأنطاكيةَ » فهزيمةٌ له ولأصحابه ، وفتحٌ من الله عليك وعلى المسلمين . وأما ماذكرت من حشْرِه لكم أهل مملكتِه ، وجمعه لكم الجموعَ ، فإن ذلك ماقد كنا وكنتُم تعلمون أنه سيكونُ منهم ، وما كان قوم ليَدَعُوا سلطانَهم ، ولا يخرجوا من مُلكِهِمُ بغير قتال ، وقد علمتُ — والحمدلله — أن قد غزاهُم رجالٌ كثير من المسلمين يحبونَ الموتَ حبَّ عدوِّهم الحياة ، و يُجْزَوْن من اللهِ فى قتالِهم الأجرَ العظيم ، ويحبونَ الجهادَ فى سبيل اللهِ أشدَّ من حبِّهم أبكارَ نسائِهم ، وعقائلَ اموالِهم (٣٣) . الرجلُ منهم عند الفتح خيرٌ من ألْف رجلٍ من المشركين ، فالْقَهم بجندى ولا تستوحِشْ لمن غاب عنك من المسلمين ، فإنّ اللهَ معك ، وأنا مع ذلك ممدُّكَ بالرجالِ حتى تكتفىَ ، ولا نريد أن تزداد (٣٤) إن شاء الله والسلام عليك ورحمةُ الله .

(١٥) رده على كتاب آخر لأبى عبيدة *

« بسم الله الرحمنِ الرحيم . أما بعدُ . فقد جاءنى كتابُك تذكرُ فيه تسييرٌ عدوِّكم لمواقعتكم ، وما كتَبَ به مَلِكُهم إليهم من عِدَتِه (٣٥) إياهم أن يُمِدَّهم من الجنودِ ماتضِيقُ به الأرضُ الفضاء ، ولعَمْرُ الله لقد أصبحتِ الأرضُ ضيقةً عليه وعليهم برُحْبها (٣٦) بمكانِكم فيهم ، وايْمُ الله ما أنا بآيسٍ (٣٧) أن تُزيلوه من مكانِه الذى هو به عاجلا إن شاء الله ، فَبُثَّ خيلَك (٣٨) فى القرى والسَّواد ، وضيِّقْ عليهم بقطع

---

* فتوح الشام ٣٠

وهو رد على كتاب يخبره فيه ابو عبيدة خبر هرقل وجموعه .

(٣٣) أى:أحسن المال وأطيبه.

(٣٤) أى:ولا يحوجك الأمر إلى مدد جديد .

* فتوح الشام ٥٠

وهو رد على كتاب كتبه أبو عبيدة إلى أبى بكر يخبره فيه بخبر ملك الروم واستعداده وأمداده وتحريضه المدن على المسلمين .

(٣٥) العدة : الوعد .

(٣٦) الرحب : الاتساع .

(٣٧) آيس : يائس .

(٣٨) بث : نشر .

الميرَة(٣٩) والمادة ، ولاتحاصِرَنَّ المدائنَ حتى يأتيَك أمرى ، فإن ناهَضوك فانْهَدْ(٤٠) إليهم واستعِنْ بالله عليهم ، فإنه ليس يأتيهم مدَد إلا أمددناك بمثليهم أوضِعْفهم(٤١) ، وليس بكم — والحمد لله — قِلَّةٌ ولا ذِلّة ، فلا أعْرِفَنّ ماجَبُنْتم عنهم ، ولا ماخِفْتم منهم ، فإن الله فاتحٌ لكم ومُظْهِركم(٤٢) على عدوِّكمُ بالنصر ، وملتمسٌ منكم الشكر لينظر كيف تعملُون ، وعمرو فأوصيكَ به خيراً ، وقد أوصيتُه أن لايضيع حقًّا يراه و يعرِفه ، فإنه ذو رأى وتجربة ، والسلام عليك ورحمة الله » .

(١٦) إلى أبى عبيدة بن الجراح *

بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ . فإنّى قد وَلّيتُ خالدًا قتال الروم بالشامِ ، فلا تخالفْهُ ، واسمَعْ له ، وأطِعْ أمْرَه ، فإنّى ولّيتهُ عليكَ ، وأنا أعلمُ أنّكَ خيرٌ منه ، ولكنْ ظننتُ أنَّ له فِطنةً فى الحرب ليستْ لك .

أرادَ الله بنا و بكَ سُبَلَ الرشادِ . والسلامُ عليكم ورحمة الله .

(١٧) إلى يزيد بن أبى سفيان *

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد :

فقد بلغنى كتابُك تذكرُ فيه تحمُّلَ (٤٣) مِلِك الروم إلى أنطاكيةَ ، وإلقاء اللهِ الرعبَ فى قلبِه من جموعِ المسلمين ، فإنَّ اللهَ — وله الحمدُ — قد نصَرنَا ونحنُ معَ رسولِ الله — صلى الله عليه وسلم — بالرُّعْبِ ، وأمدَّنا بملائكته الكرامِ(٤٤) ، وإنَّ ذلك الدينَ

---

(٣٩) الميرة : الطعام .

(٤٠) نهد : نهض .

(٤١) الضعف : هو المثل أو المثلان .

(٤٢) أى : يجعل لكم الغلبة عليهم . اهـ مصباح .

* فتوح الشام ٨١ .

* فتوح الشام ٣١ .

وهو رد على كتاب بعث به يزيد إلى أبى بكر يسأله فيه الرأى بعد أن انطلق هرقل إلى انطاكية واستنفاره أهل مملكته على المسلمين .

(٤٣) التحمل : الانتقال والارتحال .

(٤٤) يشير أبو بكر بذلك إلى نزول الملائكة فى بدر ومناصرتهم للمسلمين ، وقد قطع القرآن بذلك فى قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » الأنفال ٩ . وقوله : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » الأنفال ١٢ .

وانظر سيرة ابن هشام ١/٢٠٢ .

الذى نصرنا اللهُ به بالرعب ، هوَ هذا الدين الذى ندعُو الناس إليه اليوم ، فوربّكَ لايجعلُ الله المسلمين كالمجرمين ، ولامَنْ يشهدُ أن لا إله إلا الله كمن يعبدُ معه آلهة أخرى ، و يدينُ بعبادةِ آلهةٍ شتّى ، فإذا لقيتُموهم فانْهَدْ إليهم (٤٥) بمن معَكَ وقاتلهم ، فإن الله لن يخذُلَكَ ، وقد نبَّأنَا اللهُ ـ تبارَكَ وتعالى ـ أن الفئةَ القليلةَ تغلبُ الفئةَ الكثيرةَ بإذن الله ، وأنا مع ذلك مُمدُّك بالرجالِ فى إثْرِ الرجالِ ، حتى تكتفُوا ولاتحتاجُوا إلى زيادةِ إنسانٍ إن شاء الله ، والسلامُ عليك ورحمةَ الله .

(١٨) إلى مذعور بن عدىّ *

« أما بعدُ : فقد أتانى كتابك ، وفهِمْتُ ماذكرتَ ، وأنت كما وَصَفْتَ به نفسَك ، وعَشيرتُك نِعْمَ العشيرة ، وقد رأيتُ لَكَ أن تنضمَّ إلى خالدِ بن الوليد فتكونَ معه ، وتُقيمَ معه ما أقامَ بالعراق . وتَشْخَصَ معه إذا شَخَص منها » .

(١٩) رده على كتاب للمثنى بن حارثة الشيبانى *

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ ، فإن صاحبَك العِجْلِيَّ كتبَ إلىَّ يسألنى أموراً ، فكتبتُ إليه آمُرُه بلزوم خالدٍ حتى أرىَ رأيى ، وهذا كتابى إليك آمُرُك ألاَّ تَبْرَحَ العراق حتى يخرجَ منه خالدُ بن الوليد ، فإذا خرج خالدٌ منه فالزَمْ مكانَكَ الذى كنتَ به ، فأنتَ أهلٌ لكلِّ زيادة ، وجديرٌ بكلِّ فضل ، والسلامُ عليك ورحمةُ الله » .

---

(٤٥) انهض وتقدم إليهم

* فتوح الشام ٦٣ .
وكان مذعور بن عدى العجلى قد كتب إليه يقول : إنى امرؤ من بنى عجل أحلاس الخيل ، وفرسان الصباح ، ومعى رجال من عشيرتى : الرجل منهم خير من مائة رجل ، ولى علم بالبلد ، وجرأة على الحرب ، و بصر بالأرض ، فولنى أمر السواد أكفكه إن شاء الله ، والسلام عليك .

* فتوح الشام ٦٣.
وهو رد على كتاب المثنى الذى يقول فيه:« إن امرأ من قومنا يقال له:مذعور بن عدى فى عدد يسير أقبل ينازعنى ويخالفنى فأحببت إعلامك ذلك ، لترى رأيك لترى رأيك فيما هنالك والسلام » .

(٢٠) إلى المهاجر بن أبى أمية *

« إذا جاء كم كتابى هذا ولم تظفَروا ، فإن ظَفِرتُم بالقوم فاقتلُوا الْمقاتلَة ، واسْبُوا الذُّرِّ ية إن أخذتوهم عَنْوةً أو ينزلُوا على حُكمى ، فإنْ جرَى بينكم صلحٌ قبل ذلك ، فعلى أن تُخْرجوهم من ديارِهم ، فإنى أكرَهُ أن أقرَّ أقواماً فَعَلوا فِعْلهم فى منازِلهم ، ليعلموا أنْ أَساءوا ، وليذوقوا وبَالَ (٤٦) بعضِ الذى أَتَوْا » .

(٢١) وإلى المهاجر بن أبى أمية *

« بلغنى الذى سِرْتَ به فى المرأةِ التى تغنَّت وزمَّرَتْ بشتيمةِ رسولِ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلولا ماقد سبقْتَنِى فيها لأمرتُك بقتلِها ، لأنَّ حَدَّ الأنبياء ليسَ يُشْبهُ الحدودَ ، فمن تعاطَى ذلك من مسلم فهوَ مُرتَدٌ ، أو مُعَاهَدٍ فهو محارِبٌ غادِرٌ » .

(٢٢) رده على كتاب خالد بن الوليد *

« لِيَزِدْكَ ما أنعمَ الله به عليك خَيْراً ، واتَّقِ الله فى أمرك » .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨ ﴾ (٤٧)

جُدَّ فى أمر الله ، ولاتَنِيَنَّ (٤٨) . ولاتظفَرَنَّ بأحدٍ قَتَل المسلمين إلا قتلْتَه ، ونكَّلت به غيرَه (٤٩) ، ومن أَصَبْتَ مِمَّن حادّ الله أو ضادّه ، ممن تَرَى أن فى ذلك صلاحاً فاقتله » .

---

* الطبرى ٣ / ٣٣٧.
وكان المهاجر على قتال كندة بحضرموت حين ارتدت .
(٤٦) الوبال : الثقل والشدة والوخامة والمكروه والعذاب .

* الطبرى ٣ / ٣٤١.
بعث أبو بكر إلى المهاجر بن أبى أمية لأن امرأة غنت بشتم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقطع يدها ونزع ثنيتها .

* الطبرى ٣ / ٢٦٣
وهو رد على كتاب بعث به خالد بعد أن هزمت أسد وغطفان وفرطليحه . واستسلم بنو عامر فنكل خالد بمن وثب على المسلمين منهم .
(٤٧) النحل ١٢٨.
(٤٨) وَنَى فى الأمر ينى ونى و وَنْيا : ضعف وفتر وكلّ .
(٤٩) أى:اشتددت وعنفت عليه فى العقاب حتى يرعوى غيره .

(٢٣) إلى خالد بن الوليد *

لعمرى يابنَ أمّ خالد إنّك لفارغ تنكِحُ النساء ، و بفناء بيتك دمُ ألفٍ ومائتى رجلٍ من المسلمين لم يَجْفِفْ بعدُ

(٢٤) إلى خالد بن الوليد باليمامة *

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله أبى بكرٍ خليفةِ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى خالدِ بن الوليدِ ومنْ مَعهُ من المهاجرينَ والأنصار والتابعين بإحسان ، سلامٌ عليكم ، فإنى أَحْمَدُ إليكم الله الذى لا إلهَ إلا هوَ ، أما بعدُ ، فالحمدُ لله الذى أنجزَ وَعْدَه ، ونَصَر دينَهُ ، وأعزّ وَليَّه ، وأذلّ عدوَّه ، وغَلَب الأحزابَ فَرْداً ، فإن الله الذى لا إله إلا هو ، وَعَدَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَماَ اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُم الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَيُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِك فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ، وَعْداً لاَخُلْفَ له ، ومقالاً لاَرَيْبَ فيه ، وَفَرَضَ عَلَى المؤمنين الجهاد ، فقال وَعْداً لاَخُلْفَ له ، ومقالاً لاَرَيْبَ فيه ، وَفَرَضَ على المؤمنين الجهاد ، فقال عزّ مِنْ قائل :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٥٠)

فاستتمُّوا مَوْعِدَ الله إياكم ، وأطيعوه فيما فَرَض عليكم ، وإن عَظُمت فيه المؤنة ، واشتدتْ فيه الرزية ، وبعدت فيه الشُّقَّة (٥١) ، وَفُجِعْتم فى ذلك بالأموالِ والأنفس ،

* الطبرى ٣/ ٣٠٠.
وكان خالد قد تزوج بنت فجاعة بن مَرارة أحد زعماء بنى حنيفة بعد أن عقد صلحا معه .

* فتوح الشام ٥٤ .
وكان أبو بكر — رضى الله عنه — قد بعث المثنى بن حارثة الشيبانى على جيش إلى العراق ، فقدم العراق فقاتل وأغار على أهل فارس ونواحى السواد ، فقاتل حولا أو نحوه ، ثم بعث أخاه مسعود بن حارثة إلى أبى بكر يستمده ، فكتب أبو بكر هذا الكتاب إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة .

(٥٠) البقرة ٢١٦ .

(٥١) الشقة : الناحية والسفر البعيد والمشقة .

فإن ذلك يسير فى عظيم ثواب الله ، ولقد ذكر لنا الصادقُ المصْدُوق ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن الله يبعث الشهَدَاء يوم القيام شاهر ين سيوفَهم لا يتمنَّوْن على الله شيئًا إلا آتاهُـموه ، حتى أعْطُوا أمانِيَّهم ، وما لم يَخْطُر على قلوبهم ، فما شىءٌ يتمناه الشهيدُ بعد دخوله الجنةَ ! إلا أن يردَّهُم الله إلى الدنيا ، فَيُقْرَضُون بالمقار يض (٥٢) فى الله لعظيم ثواب الله ، انْفِرُوا ــ رحمكم الله فى سبيل الله ــ خِفافاً وثقالاً ، وَجَاهِدُوا بأموالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فى سَبِيل الله ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعلَمُونَ ، فقد أمرتُ خالدَ بن الوليد بالمسير إلى العراق لَا يَبْرَحُه حتى يأتيه أمرى ، فسِيروا معه . ولا تَثَّاقَلُوا عنه ، فإنه سبيلٌ يُعْظِمُ الله فيه الأجرَ لمَنْ حَسُنَت فيه نيَّتُه . وعظُمَتْ فى الخير رغبتُهُ ، فإذا قَدِمْتُم العراقَ فكونُوا بها حتى يأتِيَكم أمْرى . كفانا الله وإياكم مُهمَّ أمورِ الدنيا والآخرة ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

(٢٥) وإلى خالد بن الوليد *

سر إلى العراقِ حتى تدْخُلَها ، وابدأْ بفرجِ الهند وهى الأُبُلَّة (٥٣) ، وتألفْ أهلَ فارس ، ومن كانَ فى ملكِهم من الأُمم .

(٢٦) إلى خالد بن الوليد وعياض بن غنْم *

«إذا اجتمعتما بالحيرة وقد فَضَضْتُما مَسَالِحَ (٥٤) فارس ، وأمِنْتُما أن يُؤْتى المسلمون مِنْ خَلْفهم ، فليكنْ أحدكما رِدْءاً (٥٥) للمسلمين ولصاحبه بالحيرة ، وليَقْتَحِمِ الآخَرُ على عدوِّ الله وعدوِّكم من أهل فارس دارَهم ، ومُسْتقرَّ عِزِّهم « اَلمدَائنَ » (٥٦) .

---

(٥٢) فيقرضون بالمقار يض فسرها المرحوم زكى صفوت : يجزون بما فعلوا فى سبيل الله ، والمقار يض هنا تعنى القروض (جمهرة رسائل العرب ١٢٧/١) . والمعنى لايستقيم على هذا التفسير. والصحيح أن المقار يض هنا جمع مقراض وهو الآلة يقطع بها و يقص : فالشهداء ــ لعظيم ثواب الشهادة عند الله يتمنون أن يعودوا إلى الدنيا و يستشهدون مرة ومرات ، وقد جاء فى الأثر أحاديث متعددة تدور حول هذه الفكرة .

* الطبرى ٣/ ٣٦٠
كتب إليه أبو بكر هذا الكتاب فى مطلع سنه ١٢ هـ بعد أن فرغ من أمر المرتدين باليمامة .

(٥٣) الأبلة : ثغر على الخليج الفارسى عند مصب نهر دجلة .

* الطبرى ٣/ ٣٦١ .

(٥٤) المسالح : جمع مسلحة وهى الثغر أو الجماعة ذات السلاح .

(٥٥) الردء : العون والقوة والحماية .

(٥٦) المدائن : عاصمة فارس .

(٢٧) إلى خالد بن الوليد *

« سِرْ حتى تأتِيَ جموعَ المسلمين باليَرْمُوك ، فإنهم قد شَجُوا وأشْجَو (٥٧) وإياكَ أن تعودَ لمثلِ مافعلتَ ، فإنه لم يُشْجِ الجموعُ من الناس بعون الله شَجَاك (٥٨) ، ولم يُنْزَع الشَّجَى (٥٩) من الناس نَزْعَك ، فَلْيَهْنِئك أبا سليمان النيةُ والحِظْوَة (٦٠) ، فأَتْمِمْ يُتْمِمِ الله لك ، ولايَدْخُلْكَ عُجْب (٦١) فَتَخسَرَ وتَذِلَّ ، وإياك أن تُدِلَّ بعملٍ (٦٢) فإنَ الله له الَمنُّ ، وهو وَلِّيُ الَجزاء .

(٢٨) وإلى خالد بن الوليد *

« أما بعدُ : فإذا جاءك كتابى هذا فَدع العراقَ وخلِّفْ فيه أهلَه الذين قَدِمْتَ عليهم وهم فيه ، وامضِ متخفّفاً فى أهلِ القوة من أصحابك الذين قَدِموا العِراق معك من اليمامة ، وصَحِبوك من الطريق ، وقَدِموا عليك من الحجاز ، حتى تأتى الشام ؛ فَتَلْقَى أبا عبيدة بن الجراح ، ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة ، والسلام عليك »

---

* الطبرى ٣/ ٣٨٤.
بعد أن انتصر خالد بن الوليد فى وقعة « الفراض » أمر جيشه بالرجوع إلى الحيرة ، وتخلف هو مظهرا أنه فى ساقة الجيش ، وخرج حاجا لخمس بقين من ذى القعدة سنة ١٢ هـ هو وعدة من أصحابه دون أن يعلم أحدا إلا بعض من يثق به فى الساقة ، ولم يعلم أبوبكر بذلك إلا فيما بعد ، فعتب عليه ، ووافاه كتاب أبى بكر بالحيرة منصرفة من حجه .
(٥٧) شجاه وأشجاه : أحزنه وأشجاه : قهره وغلبه والمعنى أنهم زرعوا الهم والحزن فى قلوب أعدائهم وقهروهم وتغلبوا عليهم .
(٥٨) أى لم ينزل بالجموع قهر كالذى أنزلته بها .
(٥٩) الشجى : ما اعترض فى الحلق من عظم وغيره : أى أنك أقدر الناس على تذليل المصاعب وتخطى العقبات .
(٦٠) المكانة
(٦١) العجب : الغرور والخيلاء .
(٦٢) تمنّ به على غيرك .
* فتوح الشام ٦٥ .
وكان أبو عبيدة بالشام قد كتب إلى أبى بكر يصور له حرج موقف المسلمين بعد أن « اجتمع الروم وأهل البلد ، ومن كان على دينهم من العرب على حرب المسلمين » .

(٢٩) عهده لأهل نجران *

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب عبد الله أبى بكر خليفة محمد النبى — صلى الله عليه وسلم — لأهل نجرانَ ، أجارهم بجوار الله وذمة محمد النبى — صلى الله عليه وسلم — على أنفسِهم وأرضِيهم [وَثلتهم] (٦٣) وأموالهم وحاشيتهم وعبادتهم ، وغائبهم وشاهدهم ، وأساقفتهم ورهبانهم و بيَعهم (٦٤) وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، ولا يُحشرون (٦٥) ولا يعشرون (٦٦) ، ولا يغير أسقف من سِقِّيفاه (٦٧) ، ولا راهب من رهبانيته ووفّى لهم بكلّ ما كتب محمد النبى — صلى الله عليه وسلم — وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد — صلى الله عليه وسلم — أبدا . وعليهم النصح والإخلاص فيما عليهم من الحق »

شهد المسور بن عمرو — أحد بنى القين — وعمرو مولى أبى بكر ، وراشد بن حذيفة ، والمغيرة ، وكتب ..

(٣٠) عهده لعمر بن الخطاب عند موته *

بسم الله الرحمنِ الرحيم . هذا ما يعهدَ به أبو بكر بن أبى قحافة خليفةُ محمدٍ رسولِ الله — صلى الله عليه وسلم — عندَ آخرِ عهدِه بالدنيا نازحاً عنها . وأولِ عهدِه بالآخرة داخلا فيها ، فى الحال التى يُؤمنُ فيها الكافرُ ، و يتقى فيها الفاجرُ ، و يصدقُ الكاذبُ : إنى استخلفتُ عليكم عمرَ بن الخطاب ، فإنه برٌّ وعَدْلٌ ، فذلك علمى به ورأيى فيه ، وإن جارَ و بدّل فلا علمَ لى بالغيب والخَير أردتُ ، ولكلّ امرىءٍ ما اكتسب ، وسيعلمُ الذين ظلمُوا أىَّ مُنْقَلَب ينقلبون .

---

* الخراج ١٦٠.
وهذا هو العهد الثانى لهم أما العهد الأول فكان من النبى — صلى الله عليه وسلم — فى العام العاشر من الهجرة (انظر الخراج ١٥٧ وتاريخ الطبرى ٣/١٢٨).

(٦٣) الثلة: بضم الثاء : جماعة الناس ، و بفتح الثاء : جماعة الغنم .

(٦٤) البيع : جمع بيعه وهى مكان العبادة .

(٦٥) لا يحشرون : لا يجندون للقتال .

(٦٦) لا يعشرون : لا يؤخذ عشر أموالهم .

(٦٧) أى : لا يفتن أسقف فى دينه ، أو يصرف و ينهى عن مباشرة أموره — كرئيس دينى . و يلاحظ أن أبا بكر قد أحال إلى عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فهو الأصل وهو أكثر تفصيلا من عهد أبى بكر .

* الكامل للمبرد ١/٦ والإمامة والسياسة ١/١٩ والعقد الفريد ٢/٢٠٥ وإعجاز القرآن للباقلانى ٤٣ وقد أملاه أبو بكر على عثمان فى مرض موته .

الشريحة الثالثة

الحكم والتوقيعات

(١) إن الله قرن وعده بوعيده ليكون العبد راغبا راهبا .

* * *

(٢) ليست مع العزاء مصيبة .

* * *

(٣) الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله .

* * *

(٤) ثلاثة من كن فيه كن عليه :البغى والنكث والمكر .

* * *

(٥) ذل قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة

* * *

(٦) لا يكونن قولك لغوا فى عفو ولاعقوبة ، ولاتجعل وعدك ضجاجا فى كل شىء .

* * *

(٧) إذا فاتك خير فأدركه ، وإن أدكك شر فاسبقه

* * *

(٨) إن عليك من الله عيونا تراك

* * *

(٩) احرص على الموت توهب لك الحياة

* * *

(١٠) رحم الله امرأ أعان أخاه بنفسه .

* * *

(١١) أطوع الناس لله أشدهم بغضا لمعصيته .

* * *

(١٢) إن الله يرى من باطنك ما يرى من ظاهرك .

* * *

(١٣) إن أولى الناس بالله أشدهم توليا له .

* * *

(١٤) كثير القول ينسى بعضه بعضا ، وإنما لك ما وعى عنك .

* * *

(١٥) أصلح نفسك يصلح لك الناس .

* * *

(١٦) خير الخصلتين لك أبغضهما إليك .

* * *

(١٧) إن لكل نفس شهوة إذا أعطيتها تمادت فيها .

* * *

(١٨) إن أكيس الكيس التقى ، وإن أعجز العجز الفجور.

* * *

(١٩) إن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة .

* * *

(٢٠) أربع من كن فيه كان من خيار عباد الله : من فرح بالتائب، واستغفر للمذنب ، ودعا المدبر ، وأعان المحسن .

* * *

(٢١) حق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلا ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفا . [1]

(١) الميداني : مجمع الأمثال ٢/٤١٨.

الشريعة الرابعة

الجـدل والحـوار

(١) فى سقيفة بنى ساعدة *

بعد موت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصيب الناس بالفزع وعلا النشيج وكثر اللغط فخطبهم أبوبكر قائلا :

أيها الناس : ألاَ منْ كان يعبدُ محمداً فانّ محمداً قد مات ، ومنْ كان يعبدُ الله فإنّ الله حيٌ لايموت ، وقال ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (١) ، وقال ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (٢)

* الطبرى ٣/٢٠٣ وطبقات ابن سعد ٣/١٨١ . وسيرة ابن هشام ٤/٢٣٧ والبخارى (باب فضل أبى بكر) . والصديق أبو بكر للدكتور هيكل ٥٥ .

(١) الزمر ٣٠.
(٢) آل عمران ١٤٤.

وفى سقيفة بنى ساعدة كان الأنصار مجتمعين لمبايعة سعد بن عبادة وخطبهم سعد قائلا : (٣) .

يا معشر الأنصار إن لكم لسابقةً فى الدين ، وفضيلةً فى الإسلام ليست لقبيلةٍ من العرب . إن محمدا – عليه السلام – لبثَ بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلْع الأندادِ والأوثانِ ، فما آمنَ بِه من قومه إلا رجالٌ قليل ، وما كانوا يقدرون على أن يمنعُوا رسولَ الله ، ولا أن يعزُّوا دينه ، ولا أن يدفعُوا عن أنفسِهم ضيماً عُمّوا به (٤) . فلما أرادَ لكم ربّكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ، وخَصَّكم بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله ، والمنعَ له ولأصحابه ، والإعزازَ له ولدينه ، والجهادَ لاعدائه ، فكنتم أشدَّ الناس على عدوه منكم ، وأثقلَه على عدّوه من غيركم ، حتى استقامتِ العربُ لأمر اللهِ طوعاً وكرهاً ، وأعطى البعيدُ المقادة صاغرا داخرا (٥) ، وحتى أثخنَ الله – عزوجل – لرسوله بكم الأرض (٦) ، ودانتْ بأسيافِكم له العرب ، وتوفاه اللهُ وهو عنكم راضٍ ، وبكم قريرعين ؛ فاستبدُّوا بهذا الأمرِ دون الناس ، فإنه لكم دون الناس »

قال بعض الحاضرين :

« وُفِّقتَ فى الرأى ، وأصبتَ فى القول ، ولن نعدُوَ ما رأيتَ نوليكَ هذا الأمر ، فإنك فينا مَقْنَع (٧) ، ولصالح المؤمنين رضا »

قال قائل منهم :

فإن أبتْ مهاجرةُ قريش فقالوا : نحن المهاجرون ، وصحابةُ رسولِ الله الأولون ، ونحنُ عشيرتُه وأولياؤه ، فعلامَ تنازعُوننا هذا الأمر بعدَه ؟ »

فجاء الجواب من بعضهم :

---

(٣) كان سعيد يوم السقيفة مريضا قعدا وحمله الأنصار إليها على محفة وقال لابنه أوبعض بنى عمه « إنى لا أقدر لشكواى أن أسمع القوم كلهم كلامى ، ولكن تلقّ منى قولى فأسمعهموه » .

(٤) الضيم : الخسف والظلم وعموا : أى أصيبوا به على وجه الشمول .

(٥) المقادة والقياد : الزمام : وأعطى المقادة : كناية عن الخضوع . والصاغر : الذليل . والداخر : الذليل . والدَّخَر : الذلة والتحير .

(٦) أثخنته الجراحة : أوهنته . وأثخن الله الأرض : أذلها وأخضعها .

(٧) المقنع : الرضا

« فإنا نقولُ إذن منا أميرٌ ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدا »

قال سعد بن عبادة :

« هذا أول الوهن » (٨) .

* * *

بينما كان أبو بكر وعلى بن أبى طالب وآل بيت النبى مشغولين بتجهيز جثمان النبى للدفن . أتى عمرُ أباعبيدة بن الجراح وقال له :

ـــ ابسُطْ يدكَ فلأبايعْك ، فإنكَ أمينُ هذه الأمة على لسانِ رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ .

فقال له أبوعبيدة :

ـــ ما رأيتُ لك فهَّة (٩) قبلَها منذ أسلمتَ ، أتبايُعنى وفيكم الصدّيق وثانى اثنين ؟

* * *

ثم علم عمر بأمرِ اجتماع السقيفة ، فأسرعَ إلى أبى بكر وهو فى بيت عائشة فناداه ليخرج إليه .

قال أبو بكر :

ـــ أنى مُشتغل .

قال عمر :

ـــ إنه قد حدثَ أمر لا بدَّ لكَ من حضورِه . فلما خرج أبو بكر قال عمر :

ـــ أما علمتَ أن الأنصارَ قد اجتمعت فى سقيفةِ بنى ساعدة ير يدون أن يولُّوا هذا الأمر سعدَ بن عبادة ، وأحسنُهم مقالةً من يقول : منا أمير« ومن قر يش أمير»

---

(٨) الوهن : الضعف

(وكل هذه الأحاديث جرت قبل أن يفاجأ القوم بأبى بكر وصاحبيه عمر وأبى عبيدة) .

(٩) الفهة : السقطة والجهلة .

و بينا كان الثلاثة : أبو بكر وعمر وأبوعبيدة فى طر يقهم إلى السقيفة حتى لقيهم رجلان صالحان من الأنصار (١٠) ، وقصا عليهم مادار فى السقيفة وسألا :

ــ أين تر يدون يامعشر المهاجر ين ؟

ــ نر يدُ إخواننا هؤلاء من الأنصار .

ــ فلا عليكم ألا تقر بوهم يامعشر المهاجر ين . اقضوا أمركم (١١)

ــ بل والله لناتينهم .

وفى السقيفة قال أبو بكر بعد أن حمد الله وأثنى عليه : عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص اللهُ المهاجر ين الأوَّلين من قومه بتصديقه والإيمان به ، والمؤاساةِ له ، والصبر معه ، على شدةِ أذى قومهم لهم ، وتكذيبهم إيَّاهم ، وكلُّ الناس مخالفٌ لهم زارٍ عليهم (١٢) ، فلم يستوحشوا (١٣) لقلة عددهم ، وشَنَف (١٤) الناس لهم ، وإجماعِ قومهم عليهم . فهم أولُ من عبدَ الله فى الأرض ، وآمن بالله و بالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرتُه ، وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعُهم ذلك إلا ظالم .

وأنتم يامعشر الأنصار ، من لا يُنْكَرُ فَضْلُهم فى الدين ، ولاسابقَتهم العظيمة فى الإسلام ، رضيكم الله أنصارًا لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرتَه ، وفيكم جلةُ أزواجه وأصحابه . فليس بعد المهاجر ين الأولين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تُفْتَاتون بمشورة ، ولا تقضَى دونكم الأمور .

قال أحد الأنصار :

ــ أما بعد فنحن أنصارُ الله ، وكتيبةُ الإسلام ، وأنتم يامعشر المهاجر ين رهطٌ منّا وقد دفت دافَّةٌ من قومكم (١٥) ، وإذا هم ير يدون أن يجتزلونا (١٦) من أصلنا ، و يغصبونا الأمر .

فهب أبو بكر يقول :

---

(١٠) الرجلان هما : عويم بن ساعدة ، ومعن بن عدى .

(١١) كأنما ير بان أن الانصار مجمعون على سعد بن عبادة لامحالة ، وأنه لا فائدة من ذهاب الثلاثة إلى السقيفة .

(١٢) الزارى على الإنسان الذى لا يعُدُّه شيئا ، و ينكر عليه فعله وزرى وتزرى عليه فعله عابه

(١٣) لم يشعروا بوحشة .

(١٤) الشنف : البغض

(١٥) دفت دافة : جاءت جماعة

(١٦) يقتطعونا

ـ أيها الناس ! نحن المهاجرين أولُ الناس إسلاما ، وأكرمُهم أحسابا ، وأوسُطهم دارا ، وأحسَنُهم وُجُوها ، وأكثرهم ولادةً في العرب ، وأمسَّهم رَحِماً برسولِ الله ، أسلمْنا قبلكم ، وقُدّمْنا في القرآنِ عليكم ، فقال تبارك وتعالى

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ (١٧)

فنحن المهاجرون ، وأنتم الأنصار ، إخوانُنا في الدينِ ، وشركاؤنا في الفَيء ، وأنصارنا على العدو . أما ماذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجدرُ بالثَّناء من أهلِ الأرض جميعا ؛ فأما العربُ فلن تعرِفَ هذا الأمر (١٨) إلا لهذا الحيِّ من قريش ، فمنا الأمراء ومنكم الوزراء »

فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال :

ـ يامعشر الأنصار املكُوا عليكم أمركم فإن الناسَ في فيئكم (١٩) ، ولن يجترئَ مجترئٌ على خلافِكم ، ولن يَصدر الناس إلا عن رأيكم ، أنتم أهلُ العزِّ والثروة ، وأولُو العدد والمَنَعَة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ؛ وإنما ينظر الناسُ إلى ماتصنعون ، فلا تختلفُوا فيفْسدَ عليكم رأيكم ، و ينتقض أمرُكم . أبى هؤلاء إلا ماسمعتم . فمنا أميرٌ ومنهم أمير » .

فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ :

ـ هيهات لايجتمع اثنان في قَرَن (٢٠) ، والله لاترضى العرب أن يؤمّروكم ونبيُّها في غيركم ، ولكن العربَ لاتمتنعُ أن تولّى أمرَها من كانتِ النبوةُ فيهم ، وولىُّ أمورهم منهم ، ولنَا بذلك على من أبى مِن العرب الحجةُ الظاهرة والسلطانُ المبين . من ذا ينازعنا سلطان محمدٍ وإمارته ونحن أولياؤُه وعشيرتُه ، إلا مدْلٍ بباطل ، أو متجانفٌ لإثم (٢١) ، أو متورطٌ في هلكة .

فرد الحباب بن المنذر.

---

(١٧) التوبة ١٠٠ .

(١٨) أى:الحكم والخلافة .

(١٩) الفىء : الظل .. والعبارة كناية عن عزتهم وميل الناس لهم .

(٢٠) القَرَن : الحبل . و يقال « لايجتمع اثنان أو بعيران في قرن » أى:أن الإمارة لا تكون إلا لواحد .

(٢١) الجنف : الميل . ومتجانف لإثم : مائل إليه

ــ يامعشر الأنصار : املكوا على أيديكم ، ولا تسمعُوا مقالةَ هذا وأصحابه . فيذهبُوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإنْ أبَوْا عليكم ماسألتموه فأجْلُوهم عن هذه البلاد ، وتولَّوا عليهم هذه الأمور ، فانتمْ والله أحقُّ بهذا الأمر منهم ، فإن أبَوْا عليكم ماسألتموه فأجْلُوهم عن هذه البلاد ، وتولَّوا عليهم هذه الأمور ، فأنتمْ والله أحقُّ بهذا الأمر منهم ، فإنَّه بأسيافكم وإن لهذا الدين من دان (٢٢) ممن لم يكن يدين . أنا جذيلها المحكك (٢٣) ، وعذيقها المرجب (٢٤) ! أما والله إن شئتم لنعيدنَّها جَذَعَة » (٢٥) .

قال عمر غاضبا :

ــ إذنْ يقتُلَك اللهُ

وأجاب الحباب :

ــ بل إياكَ يقْتل

وهنا تكلم أبوعبيدة بن الجراح لأول مرة فقال :

ــ يامعشَرَ الأنصار ! كنتُم أولَ من نصر وآزرَ ، فلا تكونوا أولَ من بدَّلَ وغيَّر » .

فقام بشيرُ بن سعد أحدُ زعماء الخزرج فقال :

ــ إنا واللهِ وإن كنَّا أُولى فضيلةٍ فى جهادِ المشركين وسابقة فى هذا الدين ، ما أردْنَا بهذا الا رضَا ربّنا ، وطاعةَ نبينا ، والكدحَ (٢٦) لأنفسنا . فما ينبغى لنا أن نستطيلَ على الناسِ بذلك ، ولا نبتغى من الدنيا عَرَضا ؛ فإن اللهَ ولىُّ النعمة علينا بذلك .

ألا إن محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ من قريش ، وقومَه أحقُّ به وأوْلى . وايمُ الله لايرانى اللهُ أنازِعُهم فى هذا الأمرِ أبدا . فاتقُوا الله ، ولاتخالِفُوهم ، ولا تنازعُوهم » .

---

(٢٢) دان : خضع .

(٢٣) جاء فى اللسان : عَنَى بالجذيل هاهنا : الأصل من الشجرة تحتك به الإبل فتشتفى به . أى قد جربتنى الأمور ولى رأى وعلم يُشتفى بهما كما تشتفى هذه الإبل الجربى بهذا الجِذْل . وصغره على جهة المدح .

(٢٤) العَذْق : النخلة أوالنخلة بحملها . والمرجَّب : المعظم من الترحيب أى التعظيم . والمرجب : أى القوى المؤزر . من الرّجْبة ماتعمد به النخلة الكريمة إذا خيف عليها أن تقع لطولها وكثرة حملها . [لسان العرب مادة عذق ومادة رجب]

(٢٥) الجذع : الصغير السن والجديد . و يعنى أن شئتم أعدنا الحرب فتية قو ية لاتهدأ .

(٢٦) الكدح : السعى . و يقصد به السعى فى الخير.

بعد هذه المقالة أخذ أبوبكر بيد عمر و يد أبي عبيدة وقال :

ــ لقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ، فبايعُوا أيهما شئتم [٢٧]

قال عمر :

ــ بل نبايُعك أنتَ فأنتَ سيدُنا وخيرُنا وأحبُّنا إلى رسولِ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ » .

وأخذ عمرُ بيده فبايعه و بايعه أبوعبيدة و بشيرُ بن سعد ثم تزاحم عليه الناسُ يبايعونه حتى كادوا يطئون سعد بن عبادة .

(٢) جدل حول محاربة المرتدين

لما تمت البيعة لأبي بكر واستقام له الأمر ، اشرأبّ النفاق بالمدينة ، وارتدت العرب ، فنصب لهم أبوبكر الحرب ، وأراد قتالهم ، فقالوا نصلى ولانؤدى الزكاة ، فقال الناس : اقبل منهم ياخليفة رسول الله ، فإن العهد حديث والعرب كثير ، ونحن شرذمة قليلون ، لا طاقة لنا بالعرب ، مع أنّا قد سمعنا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله . فقال أبوبكر : هذا حقها ، لابّد من القتال ، فقال الناس لعمر : اخْلُ به فكلمه لعله يرجع عن رأيه هذا ، فيقبل منهم الصلاة ، و يعفيهم من الزكاة ، فخلا به عمر نهاره أجمع ، فقال : والله لومنعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه ، ولولم أجد أحدا أقاتلهم به لقاتلتهم وحدى ، حتى يحكم الله بينى و بينهم ، وهوخير الحاكمين . وقد سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : « أمرت أن أقاتل الناس على ثلاث : شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة » فوالله الذى لا إله إلا هو لاأقصر دونهن » [٢٨] .

---

(٢٧) قال عمر . . ــ رضى الله عنه ــ ولم أكره شيئا مما قاله (أبوبكر) غيرها ، كان والله أن أقدم فتضرب عنقى لايقربنى ذلك إلى إثم ، أحب إلىّ أن أتأمّر على قوم فيهم أبوبكر [سيرة ابن هشام ٤/٢٤١]

(٢٨) الإمامة والسياسة ١/١٧ .

وروى فى ذلك أيضا عن عمر أنه قال : لما قبض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ارتد من ارتد من العرب ، وقالوا : نصلى ولا نزكى ، فأتيت أبا بكر فقلت ياخليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم فإنهم بمنزلة الوحش . فقال : رجوت نصرتك ، وجئتنى بخذلانك ، جبارا فى الجاهلية ، خوارا فى الإسلام ، بماذا عسيت أن أتألفهم ؟ بشعر مفتعل ؟ أم بسحر مفترى ؟ هيهات هيهات ، مضى النبى — صلى الله عليه وسلم — ، وانقطع الوحى ، والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف فى يدى ، وإن منعونى عقالاً » (٢٩) .

(٣) جدل حول بعث أسامة *

لما بويع أبوبكر — رضى الله عنه — وجمع الأنصار فى الأمر الذى افترقوا فيه ، قال : ليُتَمّ بعثُ أسامة ؛ وقد ارتدت العرب ؛ إمّا عامة وإمّا خاصّة فى كل قبيلة ؛ ونجم النفاق (٣٠) . واشرأبّت اليهود والنصارى (٣١) ، والمسلمون كالغَنَم فى الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيّهم — صلى الله عليه وسلم — وقلّتهم ، وكثرة عدوّهم . فقالَ له الناس : إن هؤلاء جُل (٣٢) المسلمين والعرب — على ما ترى — قد انتقضت بك (٣٣) ؛ فليس ينبغى لك أن تفرّق عنك جماعةَ المسلمين . فقال أبوبكر : والذى نفس أبى بكر بيده ، لو ظننت أن السِّباعَ تخطفنى لأنفذتُ بعثَ أسامة كما أمَر به رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — ولو لم يبقَ فى القرى غيرى لأنفذته (٣٤) .

---

(٢٩) القضايا الكبرى فى الإسلام ٧٤ .

* الطبرى ٣/٢٢٥ .

(٣٠) نجم : ظهر .

(٣١) أى تطلعوا إلى الفتنة وهزيمة المسلمين .

(٣٢) جلهم : أغلبهم .

(٣٣) نقضت عهدك وخرجت عليك .

(٣٤) أنفذته : بعثت به للقتال .

(٤) جدل حول تأمير أسامة *

عن الحسن بن أبي الحسن البصريّ ، قال : ضربَ (٣٥) رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — قبل وفاته بعثاً على أهل المدينة ومَنْ حولهم ؛ وفيهم عمر بن الخطاب ، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد . فلم يجاوز آخرهم الخندقَ ، حتى قُبض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فوقف أسامة بالناس ثم قال لعمر : ارجع إلى خليفة رسول الله فأستأذنه ؛ يأذن لي أن أرجع بالناس ؛ فإنّ معي وجوه الناس وحدَّهم (٣٦) ؛ ولا آمن على خليفة رسول الله وثَقَلِ (٣٧) رسول الله وأثقال المسلمين أن يتخطّفهم المشركون . وقالت الأنصارُ : فإن أبَى إلاّ أن نمضيَ فأبلغْه عنا ، واطلب إليه أن يولِّي أمرَنا رجلاً أقدمَ سنًّا من أسامة . فخرج عمرُ بأمر أسامة ، وأتى أبا بكر فأخبره بما قال أسامة ، فقال أبوبكر ، لوخَطفتْني الكلاب والذئاب لم أردّ قضاءً قَضَى به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ! قال : فإنّ الأنصار أمروني أن أبلغَكَ ، وإنهم يطلبون إليك أن تُولِّي أمرَهم رجلا أقدمَ سنّا من أسامة ؛ فوثب أبوبكر — وكان جالساً — فأخذ بلحية عمر ، فقال له : ثكلتك أمُّك وعدمَتْك يابن الخطاب ! استعملَه رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — وتأمرني أن أنزعَه ! فخرج عمر إلى الناس فقالوا له ، ماصنعت ؟ فقال : امضوا ، ثكلَتْكم أمّهاتُكم ! مالقيتُ في سببكم من خليفة رسول الله !

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم . فأشخصهم (٣٨) وشيَّعهم وهو ماش وأسامة راكبٌ . وعبد الرحمن بن عوف يقودُ دابة أبي بكر ، فقال له أسامة : ياخليفةَ رسول الله ، والله لتركبنّ أو لانزلنّ ! فقال : والله لاتنزل ووالله لا أركب ! وما على أن أغبّرَ قدمَيَ في سبيل الله ساعةً ؛ فإن للغازي بكلّ خطوة يخطوها سبعمائة حسنةٍ تكتبُ له . وسبعمائة درجة ترتفع له ، وترفع عنه سبعمائة خطيئة ! حتى إذا انتهى قال : إن رأيتَ أن تعينَني بعمر فافعل ! فأذن له .

* الطبري ٣/٢٢٦ .

(٣٥) ضرب : فرض وأعدّ .

(٣٦) حدّ الناس : أغلبهم أو قوتهم .

(٣٧) الثقل : متاع المسافر وحشمه وكل شيء نفيس مصون ، ومنه قول النبي — عليه الصلاة والسلام — « إني تارك فيكم الثقلين » : كتاب الله وعترتي .

(٣٨) أشخصهم : أرسلهم .

(٥) بين أبى بكر والأنصار *

ووصل إليه مال من البحرين ، فساوى فيه بين الناس ، فغضبت الأنصار ، وقالوا لهُ فَضِّلْنا ، فقال أبو بكر : صدقتم إن أردتم أن أُفَضِّلكم صار ماعَمِلتموه للدنيا ، وإن صَبَرتم كان ذلك لله — عزَّ وجل — فقالوا : والله ماعملنا إلا لله تعالى وانصرفوا ، فرَقِىَ أبوبكر المنبر ، فحمد الله وأثنى عليهِ وصلى عَلَى النبى — صلى الله عليه وسلم — ، ثم قال :

« يامعشر الأنصار : إن شئتم أن تقولوا إنا آوَيناكم فى ظِلالنا ، وشاطرناكم فى أموالنا ، ونصرناكم بأنفسنا ، قلتم : وإن لكم من الفضل مالايُحْصِيه العدد وإن طال به الأَمَدُ . فنحن وأنتم كما قال طُفَيْلٌ الْغَنَوِىُّ :

جزى الله عنا جعفراً حين أُزْلِقَتْ ... بنا نعْلُنا فى الواطئين فَزَلَّتِ

أبَوْا أن يَمَلُّونَا ، ولو أن أُمَّنا ... تُلاقى الذى يَلْقَوْنَ منا لَمَلَّتِ

هُمُ أسكنونا فى ظِلاَل بيوتهم ... ظلال بيوتٍ أدفأت وأظَلَّتِ

(٦) بين أبى بكر وعبد الرحمن بن عوف *

روى عن عبد الرحمن بن عوف أنه دخل على أبى بكر — رضى الله عنه — فى مَرضه الذى تُوفى فيه فأصابه مُفيقا (٣٩) ، فقال : أصبحت بحمد الله بارئاً . قال أبوبكر : أتراه ؟ قال : نعم . قال : أما إنى على ذلك لشديدُ الوَجع ، ولما لقيتُ منكم يامعشَرَ المُهاجرين أشدُّ علىَّ من وَجعى . إنى وَلَّيت أمرَكم خَيركم فى نفسى فكلّكم وَرِم من ذلك أنفُهُ (٤٠) ، يريد أن يكون له الأمر [من دونه] ، ورأيتم الدنيا مُقبلة ، ولنْ تُقْبِلَ — وهى مُقبلة — حتى تتخذوا سُتورَ الحرير ونضائد الدِّيباج ، وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذربىّ (٤١) كما يألم أحدُكم الاضطجاع على شَوك

* زهر الآداب ١/٧٠.
* العقد الفريد ٤/٢٦٧ .

(٣٩) أى وجده واعيا حاضر العقل على مرضه ووجعه .
(٤٠) ورم أنفه . كناية عن شدة الضجر والغضب .
(٤١) نسبة إلى أذربيجان .

السّعدان . والله لأن يُقدَّم أحدُكم فتُضرب عُنقه فى غير حدّ خير له من أن يخَوض فى غَمْرة الدنيا . ألا وإنكم أولُ ضالّ بالناس غدا فتصدّوهم عن الطريق يمينا وشمالا . ياهاديَ الطريق إنما هو الفَجر أو البَجْر (٤٢) . قال : فقلتُ له : خَفِّض عليك يَرحمك الله ، فإن هذا يَهيضك على مابك ، إنما الناس فى أمرك بين رجلين : إما رجل رأى ما رأيتَ فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو يسير عليك برأيه ، وصاحبك كما تحب ، ولانَعلمك أردتَ إلا الخير، ولم تزل صالحا مُصلحا ، مع أنك لا تأْسَى على شىء من الدنيا . فقال : أجل ، إنى لا آسَى على شىء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن وودتُ أنى تركتُهن ، وثلاثٍ تركتهن وودتُ أنى فعلتُهن ، وثلاثٍ وددتُ أنى سألت رسول الله — صلّى الله عليه وسلم — عنهن : فأما الثلاث التى فعلتهن ووددتُ أنى تركتُهن : فوددتُ أنى لم أكشف بيتَ فاطمة عن شىء ، وإن كانوا أغلقوه على الحرب ؛ وودتُ انى لم أكن حرّقت الفُجَاءة (٤٣) السُّلمىّ ، وأنى قتلته سريحاً أو خلّيته نجيحا (٤٤) ؛ ووددتُ أنى يوم سقيفة بنى ساعدة قد رميتُ الأمر فى عُنق أحد الرجلين ، فكان أحدُهما أميراً وكنتُ له وزيراً — يعنى بالرجلين عمرَ بن الخطاب وأبى عُبيدة بن الجراح — وأما الثلاث التى تركتُهن وودتُ أنى فعلتُهن : فوددتُ أنى يوم أُتيت بالأشعث بن قيس أسيراً ضربتُ عنقه ؛ فإنه يُخيل إلى أنه لا يرى شراً إلا أعان عليه ؛ ووددت أنى يوم سيّرتُ خالدَ بن الوليد الى أهل الردّة أقمت بذى القَصّة (٤٥) فإن ظفر المسلمون ظَفروا وإن انهزموا كنتُ بصدد لقاء أو مَدد ؛ وودت أنى وجهت خالد بن الوليد إلى الشام ووجهتُ عمر بن الخطاب إلى العِراق ، فأكون قد بسطت يدَىّ كلتيهما فى سبيل الله . وأما الثلاث التى وددتُ أني أسأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عنهن : فإنى وددتُ أنى سألته : لمن هذا الأمر من بعده فلا يُنازعه أحد ، وأنى سألته هل للأنصار فى هذا الأمر نصيب فلا يُظلموا نصيبَهم منه ، ووددتُ أنى سألته عن بنت الأخ والعَمة ، فإنَّ فى نفسى منهما شيئا .

---

(٤٢) البُجر (بفتح الباء وضمها) الداهية والأمر العظيم : أى إن انتظرت حتى يضىء الفجر بصرت الطريق ، وإن خبطت فى الظلماء أفضت بك إلى المكروه .
و يروى : البحر (بالحاء المهملة) يريد غمرات الدنيا .

(٤٣) الفجاءة السلمى (إياس بن عبد ياليل) أتى أبا بكر وادعى الإسلام وأخذ منه سلاحا قاتل به المسلمين فقتله أبو بكر حرقا .

(٤٤) سريحا : سريعا . نجيحا : وشيكا .

(٤٥) ذو القصة : موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلا ، وبه نزل أبوبكر فى خلافته لما وجه خالد بن الوليد لقتال أهل الردة .

(٧) بين أبي بكر وعائشة في احتضاره *

قال أبو بكر بن حفص بن عمر : لما حضرت أبا بكر الوفاة حضرته عائشة وهو يعالج الموت فتمثّلت :

لعمرك ما يغني الثَّرَاء عَنِ الفتى   إذا حشرَجتْ يوْمًا وضَاق بها الصّدرُ (٤٦)

فنظر إليها كالغضبان ثمّ قال : ليس كذلك ولكن

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (٤٧)

إنّي قد كنتُ نحلتُكِ حائطَ كذا (٤٨) وفي نفسي منه شيء فردّيه على الميراث ، فردتّه ، فقال : إنّما هما أخواكِ وأختاكِ . قالت : مَنِ الثانية ؟ إنّما هي أسماء . قال : ذاتُ بطنِ بنتِ خارجة ــ يعني زوجته ــ وكانت حاملاً فولدت أمّ كلثوم بعد موته . وقال لها : أما إنّا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً ولكنّا قد أكلنا من جريش طعامهم (٤٩) ولبسنا من خشن ثيابهم وليس عندنا من فيء المسلمين إلاّ هذا العبدُ وهذا البعيرُ وهذه القطيفة ، فإذا متُّ فابعثي بالجميع إلى عمر . فلمّا مات بعَثتْهُ إلى عمر ، فلمّا رآه بكى حتى سالت دموعه إلى الأرض وجعلَ يقول : رحمَ اللهُ أبا بكر ! لقد أتعبَ مَنْ بعده ، و يكرّر ذلك ، وأمر برفعه . فقال عبدالرحمن بن عوف : سبحان الله ! تسلب عيالَ أبي بكر عبداً وناضحاً (٥٠) وسحق قطيفة ثمنها خمسة دراهم ، فلو أمرتَ بردّها عليهم . فقال : لا والذي بعث محمّداً ، صلّى الله ــ عليه وسلّم ــ ، لا يكون هذا في ولايتي ولا خرج أبو بكر منه وأتقلّده أنا . وأمر أبو بكر أن يُردّ جميعُ ما أخذ من بيتِ المال لنفقته بعد وفاته .

---

* الكامل في التاريخ ٢/٤٢٢ .

(٤٦) يعني:الروح ساعة الاحتضار .

(٤٧) ق ١٩ .

(٤٨) الحائط : البستان .

(٤٩) جريش طعامهم : خشنُه .

(٥٠) الناضح من الإبل : البعير يسقى عليه والأنثى ناضحة .

(٨) مشاورات فى استخلاف عمر *

لما نزل بأبي بكر ــ رضي الله عنه ــ الموتُ دعا عبدَ الرحمن بن عوف فقال : أخبرني عن عمرَ. فقال : إنّه أفضلُ من رأيك إلاّ أنّه فيه غِلْظة . فقال أبو بكر : ذلك لأنّه يراني رقيقاً ، ولو أفضَى الأمرُ إليه لتركَ كثيراً ممّا هوَ عليه ، وقد رمَقتُهُ فكنتُ إذا غضبتُ على رجلٍ أراني الرضاء عنه ، وإذا لِنْتُ له أراني الشدةَ عليه . ودعا عثمانَ ابن عفّان وقال له : أخبرْني عن عمر. فقال : سر يرتُهُ خيرُ علانيتِهِ ، وليس فينا مثلُه . فقال أبوبكر لهما : لاتَذْكرا ممّا قلتُ لكما شيئاً ، ولو تركته ماعدوتُ عثمان ، والخيَرةُ له أن لا يلي من أمورِكُمْ شيئاً ، ولودِدْتُ أنّي كنتُ من أمورِكُمْ خِلْواً وكنتُ فيمن مضى من سلفكم .

ودخل طلحة بن عبيد الله على أبي بكر فقال : استخلفتَ على النّاس عمرَ وقد رأيتَ مايلقى النّاسُ منه وأنتَ معه ، وكيفَ به إذا خلا بهم وأنت لاقٍ ربّك فسائلُك عن رعيّتِكَ ! فقال أبوبكر : أجلسوني ، فأجلسوه ، فقال : أباللّه تخوّفني ! إذا لقيتُ ربّي فسألني قلتُ : استخلفتُ على أهلك خير أهْلِك .

ثمّ إنّ أبا بكر أحضر عثمان بن عفّان خالياً ليكتب عهد عمر ، فقال له : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماعهد أبوبكر بن أبي قُحافة إلى المسلمين ، أمّا بعد ثمّ أغمي عليه ، فكتب عثمان أمّا بعد : فإنّي قد استخلفتُ عليكم عمرَ بن الخطّاب ولم آلُكم خيراً (٥١) . ثمّ أفاق أبوبكر فقال : اقرأ عليّ . فقرأ عليه ، فكبّر أبوبكر وقال : أراك خِفْتَ أن يختلف النّاس إن مُتُّ فى غشيتي (٥٢) . قال : نعم . قال : جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله .

فلمّا كتب العهد أمر به أن يُقْرأ على النّاس ، فجمعهم وأرسل الكتاب مع مولى له ومعه عمر ، فكان عمر يقول للنّاس : انصتُوا واسمعوا لخليفة رسولِ الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فإنّه لم يألكم نُصْحاً . فسكن النّاسُ ، فلمّا قُرِئ عليهم الكتاب سَمِعوا

* الكامل فى التاريخ ٢/٢٥،

(٥١) لم آلكم خيرا : لم أقصر فى ابتغاء الخير لكم .

(٥٢) غشيتى : إغماءتى .

وأطاعوا ، وكان أبو بكر أشْرفَ على النّاسِ وقال : أترضَوْن بمن استخلفتُ عليكم ؟ فإنّي ما استخلفتُ عليكم ذا قرابة ، وإنّي قد استخلفتُ عليكم عمرَ فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنّي والله ما ألوتُ من جهد الرأي . فقالوا : سمعنا وأطعنا . ثمّ أحضر أبوبكر عمرَ فقال له : إنّي قد استخلفْتُك على أصحاب رسولِ الله ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ وأوصاه بتقوى الله ثمّ قال :

ياعمرُ إنّ لله حقّاً بالّليل لايقبله في النهار، وحقّاً في النهار لايقبله باللّيل (٥٣) ، وإنّه لايقبل نافلة حتى تؤدّى الفريضة (٥٤) ، ألم ترَ ياعمر أنّما ثقلتْ موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحقّ وثِقْله عليهم ، وَحُقّ لميزان لايوضع فيه غداً إلاّ حقٌّ أن يكونَ ثقيلاً . ألم تَرَ ياعمرَ أنّما خفّت موازين مَنْ خفّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحقّ لميزان لايوضع فيه غداً إلاّ باطلٌ أن يكونَ خفيّفاً . ألم ترَ ياعمر أنّما نزلت آية الرخاء مع آية الشدّةِ وآية الشدة مع آية الرّخاء ليكون المؤمنُ راغباً راهباً ، لايرغبُ رغبة يتمنّى فيها على الله ماليس له ، ولايرهبُ رهبةً يُلقي فيها بيديه . أوَ لم ترَ ياعمرُ أنّما ذكرَ الله أهلَ النّارِ بأسوإ أعمالهم فإذا ذكرتُهم قلتُ : إنّي لأرجُو أن لاأكونَ منهم ، وأنّهُ إنّما ذكر أهلَ الجَنّةِ بأحسنِ أعمالهم لأنّه يجاوزُ لهم ما كان من سيء فإذا ذكرتُهم قلتُ : أين عملي من أعمالهم ؟ فإن حفظتَ وصيّتي فلايكوننّ غائبٌ أحبَّ إليك من حاضر من الموت ، ولست بمعجزه .

---

(٥٣) يعنى الصديق بذلك حث عمر على الحرص على أداء الواجبات فى أوقاتها دون تأخير أو مماطلة وتسويف.
(٥٤) فى ذلك توجيه لعمر أن يجعل الأصول وجواهر الأمور فى المقام الأول أفعالا كانت أو أقوالا .



الفصل الثانى

أدب عمر بن الخطاب

الشريحة الأولى

الخطب والوصايا

(١) عزل خالد .. *

يا معاشر الناس إنى أمرت أبا عبيدة الرجلَ الأمين ، وقد رأيتُه لذلك أهلا ، وقد عزلت خالدا عن إمارته .

فقام رجل من بنى مخزوم وقال : أتعزل رجلا قد أشْهر الله بيده سيفا قاطعا ، ونصر به دينه ، وإن الله لايعذرك فى ذلك ولا المسلمون إن أنت أغمدت سيفا ، وعزلت أميرا أمّره الله ، لقد قطعت الرحم .

ثم سكت الرجل ، فنظر عمر ــ رضى الله عنه ــ إلى الرجل المخزومى فرآه غلاما حدث السن ، فقال : شابّ حَدَثُ السن غضب لابن عمه ...

وفى الغد صلى صلاة الفجر ، وقام فرقى المنبر خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فصلى عليه ، وترحم على أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ ثم قال : أيها الناس : إنى حملت أمانة عظيمة ، وإنى راع وكل راع مسئول

* الواقدى : فتوح الشام ٦١.

عن رعيته ، وقد جئت لإصلاحكم ، والنظر فى معايشكم ، ومايقربكم إلى ربكم أنتم ومن حضر فى هذا البلد ، فإنى سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « من صبر على أذاها وشرها كنت له شفيعا يوم القيامة » . و بلادكم لازرع فيها ولاضرع ولاماء ، وقد وعدنا الله مغانم كثيرة ، وإنى أريدها للخاصة والعامة لأؤدى الأمانة والتوقير للمسلمين ، ولست أنى كرهت ولاية خالد على المسلمين إلا لأن خالدا فيه تبذير المال ، يعطى الشاعر إذا مدحه ، و يعطى للمجد والفارس بين يديه فوق مايستحقه من حقه ، ولايبقى لفقراء المسلمين ولا لضعفائهم شيئا وإنى أريد عزله وولاية أبى عبيدة مكانه ، والله يعلم أنى ماوليتُه إلا أمينا ، فلايقول قائلكم عزل الرجل الشديد وولى الأمين اللين للمسلمين ، فإن الله معه يسدده و يعينه .

(٢) استنفار الناس لقتال الفرس *

إن الحجازَ ليسَ لكم بدارٍ إلا على النُّجْعَةِ (١) ، ولا يقْوى عليهِ أهلُه إلا بذلك ، أين الطُّرَّاءُ (٢) المهاجرون عن موعودِ الله ، سيروا فى الأرضِ التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكُموها ، فإنه قال « ليظهرَه على الدين كلِّه (٣) . واللهُ مظهرٌ دينَه ، ومعزٌّ ناصرَه ، ومُولى أهلِه مواريث الأممِ ، أين عبادُ اللهِ الصالحون ؟ .

---

* الطبرى ٣/ ٤٤٥ .
قالها عمر بن الخطاب بُعيد وفاة أبى بكر نادبا الناس لقتال الفرس مع المثنى بن حارثة الشيبانى ، وكان أول مستجيب أبوعبيد بن مسعود الثقفى فأمّره عمر على أول جيش يغادر المدينة لقتال الفرس (انظر الطبرى السابق . وانظر كذلك جمهرة خطب العرب ١/ ٢٢٢) .

(١) النجعة : طلب الكلأ فى موضعه .

(٢) جاء فى لسان العرب : طرأ على القوم أتاهم من مكان ، أو طلع عليهم من بلد آخر أو خرج عليهم من مكان بعيد فجاءة ، أوأتاهم من غير أن يعلموا . و يقال للغرباء الطراء والطرآء .

(٣) « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون » التوبة ٣٣ والصف ٩ . و يقول تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » الفتح ٢٨ .

(٣) مَنْ الأميرُ بعد أبي عبيد ؟ *

إنَّ الله ــ عزَّ وجلَّ ــ قد جمعَ على الإسلام أهلَهَ ، فألَّفَ بين القلوب ، وجعلهم فيه إخوانا ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلُو منه شيء مِنْ شيءٍ أصابَ غيرَه . وكذلك يحقُّ على المسلمين أن يكونوا « وأمرهم شورى بينهم » بين ذوى الرأْي منهم ، فالناسُ تبعٌ لمن قام بهذا الأمر ، ما اجتمعوا عليه ورضُوا به لزِمَ الناسَ ، وكانوا فيه تبعا لهم ، ومَنْ قامَ بهذا الأمر تبعٌ لأولى رأْيهم ماراَواهمْ ورضُوا به لهم من مكيدةٍ فى حرب كانوا فيه تبعًا لهم .

يـأيها النـاسُ إنـى إنمـا كـنتُ كرجلٍ منكم حتى صرفَنى ذوُو الراى منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيمَ وأبعثَ رجلا ، وقد أحضرتُ هذا الأمرَ من قدمتُ ومن خلَّفْتُ .

(٤) من بشائر النصر *

إنَّ تبـارك وتعـالى ذكـرَ رسـولَ اللهِ ــ صلى الله عليه وسلم ــ وما بعثَه به من الهدُىَ ، ووعَدَ على اتِّباعِه من عاجلِ الثوابِ وآجله خيرَ الدنيا والآخرة فقال

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (٤)

فـالحـمـدُ للهِ الذى أنجزَ وعدَه ، ونصرَ جندَهُ ، ألا إنَّ اللهَ قد أهلَكَ مُلْكَ المجوسيةِ ، وفـرَّق شـمـلَـهم ، فليسُوا يملكُون مِنْ بلادهم شبراً يضُر بمسلم ، ألا وإن الله قد أورثكُم أرضَهم وديارهم وأموالَهم وأبناءَهُم لينظرَ كيفَ تعمَلُون .

---

* الطبرى ٣/٤٥٨.

استشهد أبو عبيد بن مسعود الثقفى فى وقعة الجسر فحزن عليه عمر حزنا شديدا وجمع الناس وخرج إلى «صرار». وهم بالخروج إلى فارس بنفسه ولكن الناس أشاروا عليه بالبقاء وتأمير أحد المسلمين فخطب فيهم هذه الخطبة .

* الطبرى ٤/١٧٣ وانظر جمهرة خطب العرب ١/٢٤٤

وهى خطبة القاها عمر فى الناس بعد ان وصله كتاب من الأحنف بن قيس (سنة ٢٢) من أرض فارس يخبره فيه أنه غزا خراسان وحارب يزدجرد ، وأن أهل فارس قد أقبلوا عليه فصالحوه وعاقدوه ، ودفعوا إليه خزائن يزدجرد ، وتراجعوا إلى بلدانهم

(٤) التوبة ٣٣ والصف ٩ .

ألا وإن المِصْرَيْنِ منْ مَسالِحها (٥) اليومَ كأنتمْ والمصرين فيا مضَى من البُعْد، وقد وَغَلُوا فى البلاد ، واللهُ بالغٌ أمرَه ، ومنجزٌ وعدَه ، ومتبعٌ آخرَ ذلك أولَهُ ، فقومُوا فى أمره على رجل يُوفِّ لكم بعهدِه ، و يُؤْتِكم وعْدَه ، ولا تبدّلوا ولا تغيّروا فيستبدل اللهُ بكمْ غيرَكمُ ، فإنى لا أخافُ على هذه الأمةِ أن تُؤْتى إلا مِنْ قِبَلِكم (٦) .

(٥) فى جابية الشام *

الحمدُ للهِ الحميد المستَحْمَدِ المجيد ، الرفاع الغفورِ الودُود ، الذى مَنْ أرادَ أن يهديَهُ من عبادِه اهتدى ، ومَنْ يضللْ فلنْ تجدَ لهُ وليًّا مُرْشِدًا .

أما بعدُ : فإنّى سمعتُ رسولَ اللهِ — صلى الله عليه وسلمَ — يقولُ : إن خيارَ أمّتى الذينَ يَلُونكم ثم الذين يلونَهم ، ثم يَفْشو (٧) الكذبُ ، حتى يشْهَدَ الرجلُ على الشهادةِ ولم يُسْتَشْهَدْ عليها ، وحتى يَحلفَ على اليمين ، ولم يُسْأَلْها .

فمن أرادَ بحبُوحَةَ (٨) الجنةِ فلْيلْزَم الجماعةَ ، ولا يبالى اللهُ شذوذَ من شذَّ ، ألاَ لا يَخْلُوَنَّ رجلٌ منكم بامرأةٍ إلا أن يكونَ لها مَحْرَمًا ، فإن ثالِثَهما الشيطان .

(٦) الطاعة والتوبة مفتاح النصر *

يا أهلَ الإسلامِ ، إن اللهَ قدْ صدقَكُم الوعدَ ، ونصركُمْ على الأعداءِ ، وورّثكم البلادَ ، ومكّنَ لكم فى الأرض ، فلا يَكنْ جزاء ربكم إلا الشكر ، وإياكم والعملَ بالمعاصى ، فإنَّ العملَ بالمعاصى كفرٌ للنعم ، وقلما كفَرَ قومٌ بما أنعمَ الله عليهم ثم لم يفزَعُوا إلى التوبة ، إلا سُلِبُوا عِزّهم ، وسَلّط عليهم عدُوَّهم .

---

(٥) المصران : الكومة والبصرة . والمسالح : الثغور .

(٦) أى : أننى لا أخاف على هذه الأمة أعداءها ولكن أخاف عليها أبناءها إذا ما عصوا الله وفتنتهم الدنيا .

* فتوح الشام ٢٢٦.
حصر أبو عبيدة أهل إيلياء وشدد عليهم الحصار ، فسألوه الصلح على أن يكون عمر هو الذى يعطيهم العهد ، و يكتب لهم الأمان ، فحضر عمر إلى الشام فلما انتهى إلى الجابية قام فى الناس فألقى هذه الخطبة .

(٧) يفشو: ينتشر .

(٨) بحبوحة الدار وسطها . و يقال تبحبح فى المجد أى أنه فى مجد واسع (أنظر لسان العرب . مادة بوح) .

* فتوح الشام ٢٣١.
وهى إحدى الخطب التى قالها عمر وهو بالشام .

(٧) سياسة الحاكم العادل *

حمد الله وأثنى عليه ، ثم صلّى على النبي — صلى الله عليه وسلم — وذكرَ أبا بكر — رضي الله عنه — فاستغفر له ، ثم قال : أيها الناس ، إنه لم يبلغْ ذو حقٍّ في حقِّه أن يطاعَ في معصيةِ الله تعالى ، وإني أجدُ هذا المالَ لم يصلحْه إلا خلالٌ ثلاث : أن يُؤخذَ في الحقِّ ، و يُعطى في الحق ، و يُمنعَ من الباطل . وإنما أنا ومالُكم كوالي اليتيم ، إن استغنيتُ استغففتُ ، وإن افتقرتُ أكلتُ بالمعروفِ ، ولستُ أدعَ أحداً يظلمُ أحداً ولا يعتدى عليه حتى أضعَ خدَّه بالأرض ، وأضع قدمي على الخدِّ الآخر حتى يذعنَ للحق(٩). ولكم عليَّ — أيها الناس — خصال(١٠) أذكرُها لكم فخذوني بها : لكم عليّ أن لا أجتبي شيئاً من خَراجِكم ولاما أفاءَ الله عليكم إلا من وجهه (١١) ، ولكم عَلَيّ إذا وقَع في يدي أن لا يخرَج مني إلا في حقِّه ، ولكم عليَّ أن أزيدَ أعطياتِكم وأرزاقَكم إن شاء الله وحده ، وأسدَّ ثُلَم ثغوركم (١٢) ، ولكم على أن لا ألقيكم في المهالك ، ولا أجمِّرَكم(١٣) في ثغوركم . وقد اقترب منكم زمان قليلُ الأمنا ، كثيرِ القراءِ ، قليلُ الفقهاءِ ، كثيرُ الأملِ ، يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضةً تأكلُ دِينَ صاحبها ، كما تأكل النارُ الحطب ! ألا فمن أدرك ذلك منكم فليتَّقِ الله وليصبر .

أيها الناس ، إن الله عَظَّم حقَّه فوقَ حقِّ خلقِه ، قال فيما عظم من حقه : (ولا يَأمُرَكم أن تَتَّخِذوا الملائكةَ والنبيِّين أرباباً ، أيأمُرُكم بالكفر بعدَ إذ أنتم مُسلمونَ) (١٤) ؟ ! ألا وإني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ولكن بعثتكم أئمة الهدى ، يُهتدى بكم ، فَأَدِرُّوا (١٥) على المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلُّوهم ،

---

* الخراج ٢٤٥ .

(٩) يذعن : يخضع .

(١٠) خصال : جمع خصلة وهي الصفة .

(١١) أي بالطريقة المشروعة .

(١٢) الثلم : جمع ثلمة وهي موضع المخافة . والثغور : المواقع التي للمسلمين على حدود الأعداء .

(١٣) تجمير الجيش : حبسه في الثغور دون رجوع أفراده إلى أهلِهم .

(١٤) آل عمران ٨٠ .

(١٥) امنحوهم حقوقهم .

ولا تجمّروهم فتفتنوهم ، ولا تغلقوا الأبواب دونهم (١٦) فيأكل قويُّهم ضعيفَهم ، ولا تستأثروا (١٧) عليهم فتظلموهم ، ولا تجهلوا عليهم ، وقاتلوا بهم الكفارَ طاقَتَهم ، فإذا رأيتم بهم كلالةً (١٨) فكفُّوا عن ذلك ، فإن ذلك أبلغ فى جهاد عدوهم (١٩) .

أيها الناس ، إنى أُشهدُكُمْ على أمراءِ الأمصار أنى لم أبعثْهُم إلا ليفقِّهوا الناسَ فى دينهم ، و يُقسمُوا عليهم فيئهم ، ويحكموا بينهم ، فإن أشكلَ شيء رَفَعوه إلىّ .

(٨) من إنجازات أمير المؤمنين *

ألا إنّى قد وُليتُ عليكم ، وقَضيتُ الذى علىَّ فى الذى ولأنى اللهُ من أمركم إن شاء َالله . قسَطنا (٢٠) بينكم فيئَكم ومنازلَكُمْ ومعاز يكم ، وأبلغْنا ماالديكم فجنَّدْنا لكم الجنودَ ، وهيَّأنا لكم الفروجَ (٢١) ، و بوّأناكم (٢٢) ووسَّعْنا عليكم مابَلَغَ فيئُكم ، وماقاتلْتم عليه من شأنكم ، وسمَّينا لكم أطماعكم ، وامرْنا لكم بإعطائِكم أرزاقكم ومَعَاونكُمْ ، فمَنْ عَلمَ عِلم شىء ينبغى العمل به فبلّغَنَا نعملُ به إن شاء َاللهُ ، ولاقوة إلا بالله .

(٩) لماذا قبل الحكم ؟! *

خطب فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ذكّر الناس بالله ــ عزّ وجلّ ــ واليوم الآخر ، ثم قال : يأيها الناسُ ؛ إنّى قد وُلِّيت عليكم ، ولولا رجاء أن أكونَ خيرَكم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكّم استضلاعا (٢٣) بما ينوب (٢٤) من مُهِمّ

---

(١٦) أى اسمعوا لشكاتهم وأنصفوهم .
(١٧) لا تفضلوا أنفسكم عليهم باحتجان الحق والخير دونهم .
(١٨) تعبا وإعياء ونصبا .
(١٩) أى امنحوهم فترة راحة واستجمام حتى يستعيدوا قوتهم ونشاطهم فينالوا من اعدائهم نيلا شديدا .
* الطبرى ٤ / ٦٥ .
قالها وهو يهم بالعودة من الشام إلى المدينة ، وكانت هذه العودة فى ذى الحجة سنة ١٧ هـ .
(٢٠) قسطنا : وزعنا وفرقنا .. والقسط (بكسر القاف) الحصة والنصيب .
(٢١) الفروج : الثغور .
(٢٢) بوّأله المنزل و بوّأه المنزل : هيأه ومكّن له فيه .
* الطبرى ٤ / ٢١٤ (سنة ٢٣ هـ)
(٢٣) استضلاعا : قياما .
(٢٤) ينوب : ينزل .

أموركم ، ماتولّيت ذلك منكم ؛ ولكفى عمر مُهمًّا محزناً انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ، ووضعها أين أضعُها ؛ وبالسير فيكم كيف أسير(٢٥) ! فربّى المستعان ؛ فإنّ عمرَ أصبح لايثق بقوّةٍ ولاحيلة إن لم يتداركْه الله — عزّ وجلّ — برحمته وعَوْنه وتأييده .

(١٠) أخلاق الحاكم .. *

إن الله — عزّ وجلّ — قد ولاّنى أمرَكم ، وقد علمت أنفع مابحضرتكم لكم ؛ وإنّى أسأل الله أن يعينني عليه ، وأن يحرُسنى عنده ، كما حرسنى عند غيره ، وأن يلهمنى العدل فى قَسْمكم كالذى أمر به ؛ وإنّى امرؤ مسلم وعبدٌ ضعيف ، إلا ماأعانَ اللهُ — عزّ وجلّ ، ولن يغيِّر الذى وليتُ من خلافَتِكم من خُلُقى شيئاً إن شاء الله ؛ إنما العظمةُ لله — عزَّوجلّ — وليس للعباد منها شىءٌ ، فلا يقولن أحدٌ منكم : إنّ عمرَ تغيّرَ منذ وُلّى . أعقِلُ الحقّ(٢٦) من نفسى وأتقدم ؛ وأبيّنَ لكم أمرى ؛ فأيما رجل كانت له حاجةٌ أوظُلِم مظلمة ، أوعتبَ فى خُلُق ؛ فليؤذنّى(٢٧) ، فإنّما أنا رجلٌ منكم ؛ فعليكم بتقوى الله فى سرِّكم وعلانيتكم ، وحُرماتِكم وأعراضِكم ؛ وأعطوا الحقّ من أنفسكُم ؛ ولايحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلىّ ؛ فإنّه ليس بينى وبين أحد من الناس هَوادة ؛ وأنا حبيبٌ إلىّ صِلاحكم (٢٨) ، عز يز علىّ عَتَبُكم (٢٩) . وأنتم أناس عامّتكم حضر فى بلاد الله ؛ وأهل بلد لازرع فيه ولاضَرْع إلاّ ماجاء الله به إليه . وإنّ الله — عزّ وجلّ — قد وعدكمْ كرامة كثيرة ، وأنا مسئول عن أمانتى وما أنا فيه ؛ ومطّلع على مايحضرنى بنفسى إن شاء الله ؛ لاأكله (٣٠) إلى أحد ، ولاأستطيع مابعُد منه إلاّ بالأمناء وأهل النصح منكم للعامّة (٣١) ، ولست أجعل أمانتى إلى أحد سواهم إن شاء الله .

---

(٢٥) أى يكفينى حزنا طيلة حياتى خشيتى أن تأتى سيرتى فيكم مخالفة لما حرصت عليه من الحق وطاعة الرب .

* الطبرى ٤/٢١٥ .

(٢٦) العَقْل : الدية . و يقصد عمر أنه ينصف المظلوم من ظالمه ولو كان الظالم هوعمر نفسه .

(٢٧) فليؤذنى: فليعلمنى حتى أنصفه .

(٢٨) الصلاح (بكسر الصاد) مصدر المصالحة .

(٢٩) العتب : (بفتح التاء) الوجد والبغضاء .

(٣٠) أكله : أسنده .

(٣١) أى أنه يباشر الأمور الحاضرة بنفسه ، أما مابعد عنه فيسند أمر الحكم فيه إلى أناس عرفوا بالدين والأمانة .

(١١) فى مسجد الرسول بعد العودة من الشام *

أيها الناسُ إنَّ الله قد اصْطنَعَ عندَ هذه الأمّةِ أن يحمدُوه و يشكُروه ، وقد أعزَّ دعْوتها ، وجَمَعَ كلمتَها ، وأظهرَ فَلْجها (٣٢) ، ونصرها على الأعداءِ ، وشرَّفَها ومكَّنَ لها فى الأرْضِ ، وأورثَها بلادَ المشركين وديارَهُم وأموالَهم ، فأحدِثُوا الله شُكْرا يزدْكُم ، واحمَدُوه على نعمِهِ عليكم يُدمْها لكم ، جعلنا اللهُ وإياكُم منَ الشاكرين .

(١٢) الظاهر والباطن *

قال بعد ماحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبى — صلى الله عليه وسلم — :

أيها الناس ، إنّ بعض الطمع فقر ، وإن بعض اليأس غنىً (٣٣) ، وإنكم تجمعون مالا تأكلون (٣٤) ، وتأملون مالا تدركون ، وأنتم مؤجّلون فى دار غرور (٣٥) . كنتم على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تؤخذون بالوحى ، فمن أسرّ شيئاً أُخِذَ بسره ، ومن أعلنَ شيئاً أُخِذَ بعلانيته ؛ فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم ؛ والله أعلمُ بالسرائر ؛ فإنه مَن أظهر شيئاً وزعم أن سريرته حسنة لم نصدّقه ، ومَنْ أظهر لنا علانية حسنة ظننّا به حسناً . واعلموا أنّ بعض الشحّ (٣٦) شعبة من النفاق ، فأنفقوا خيراً لأنفسِكم ، ومنْ يُوقَ شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون .

أيّها الناس ، أطيبوا مثواكم ، وأصلحوا أمورَكم ؛ واتّقوا الله ربكم ، ولا تُلبسوا نساءكم القَبَاطِىّ (٣٧) ؛ فإنه إن لم يَشفَّ (٣٨) فإنه يصف .

---

* فتوح الشام ٢٢٩ وانظر جمهرة خطب العرب ١/٢٥٦

عاد عمر من الشام ودخل مسجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالمدينة ، فصلى ركعتين عند المنبر . ثم صعد المنبر وقال هذه الخطبة .

(٣٢) الفلج : الظفر والغلبة .

* الطبرى ٤/٢١٥

(٣٣) بعض الطمع فقر : لأنه يشعر الطامع — حتى لو كان غنيا — بالحاجة والحزن لعدم نيله مايتمناه شأنه فى ذلك شأن الفقير . اليأس من الشيء قطع الأمل والطمع فيه وذلك يؤدى الى القناعة والرضى وذلك من غنى النفس .

(٣٤) لأنه ذلك مدخر للورثة .

(٣٥) دار غرور : كناية عن الدنيا .

(٣٦) الشح : البخل .

(٣٧) القباطى : ثياب كتان كانت تعمل فى مصر . والمفرد : قبطية .

(٣٨) شف الثوب : رق وأظهر ما تحته .

أيها الناس ؛ إنى لوددت أن أنجوَ كَفافاً لالى ولا علىَّ ، وإنى لأرجو إن عُمّرتُ فيكم يسيراً أو كثيراً أن أعملَ بالحقّ فيكم إن شاء الله ، وألاّ يبقى أحدٌ من المسلمين وإن كان فى بيته إلاّ أتاهُ حقُّه ونصيبُه من مالِ الله ، ولا يُعمِل إليه نفْسَه ؛ ولم ينْصُب إليه يوماً . وأصلحُوا أموالَكمُ التى رزقكم الله ؛ ولقَليلٌ فى رفق خير من كثير فى عنْف ، والقتلُ حَتْف من الحتوف ، يصيب البرّ والفاجر ، والشهيدُ مَن احتسبَ نفسه . وإذا أراد أحدكم بعيراً فليعمَدْ إلى الطويلِ العظيمِ فليضرْ بهُ بعصاه ؛ فإن وَجَدَهُ حديدَ الفؤاد فليشتره .

(١٣) وعلى الله السرائر.. *

أيها الناس ، إنه قد أتى عَلَىَّ زمان وأنا أرى أن قوما يقرءون القرآن يُريدونَ به الله — عزَّوجلَّ — وماعندَه ، فخُيِّلَ إلىَّ أن قوماً قرَءوه يُريدون به النَّاسَ والدنيا . ألا فأريدوا الله بأعمالِكُم . ألا إنَّما كُنَّا نعرفُكُم إذ يتنزَّلُ الوَحْىُ وإذْ رسولُ الله بين أظهُرِنا يُنبئنا من أخباركم ، فقد انقطعَ الوَحْىُ ، وذَهبَ النبى ، فإنما نَعرفُكُم بالقَولِ . ألا مَن رأينا منه خيراً ظنَنَّا به خيراً وأحببناه عليه ، ومَن رأينا منه شرًّا ظنَنَّا به شرًّا وأبغضناهُ عليه . سرائرُكم بيَنكم و بين ربِّكم . ألا وإنى إنما أبعثُ عُمّالى ليُعلِّموكم دينَكُم وسُنَنَكُم ، ولا أبعثُهم ليَضربُوا ظُهورَكم و يأخذُوا أموالَكُم . ألا مَنْ رابه شىء مَن ذلك فَلْيرْفعه إلىّ ، فوالذى نفسى بيده لأُقُصَّنَّكم منه .

فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، أرأيتَ إن بعثتَ عاملاً من عُمّالك فأدَّبَ رجلاً من رعيَّتِكَ فَضرَ به ، أتقصُّه منه ؟ قال : نعم ، والذى نَفْسُ عُمرَ بيده ، لأقصَّنه منه ، فقد رأيتُ رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — يقُصّ من نفسه .

(١٤) من نعم الله على عباده *

إنَّ الله سبحانه وبحمده قد استوجبَ عليكم الشكرَ ، واتّخذَ عليكم الحُجَجَ فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا ؛ عن غير مسألةٍ منكم له ، ولا رغبةٍ منكم فيه إليه ، فخَلَقَكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئاً لنفسه وعبادته ، وكان قادراً أن يجعلكم لأهونِ

* العقد الفريد ٤/٦٣ . وانظر كذلك : الخراج ٢٤٢ (مع اختلاف يسير) .
* الطبرى ٤/٢١٦ .

خلقِه عليه ، فجعلَ لكم عامّةَ خلقِه ، ولم يجعلْكُم لشيء غيره ، وسخَّر لكم مافى السّمواتِ وما فى الأرضِ ، وأسبغَ عليكُمْ نعمهُ ظاهرة و باطنة ، وحمَلكم فى البرِّ والبحرِ ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون .

ثم جعلَ لكُمْ سمعاً و بصراً . ومِن نعَم الله عليكُمْ نعمٌ عم بها بنى آدم ؛ ومنها نِعَمٌ اختصّ بها أهل دينكم ؛ ثم صارتْ تلك النعم خواصُها وعوامُّها فى دولتِكم وزمانِكم وطبقتِكم ؛ وليس من تلك النعمِ نعمةٌ وصلتْ إلى امرىء خاصة إلاّ لوقسمَ ماوصلَ إليهِ منها بين الناس كلِّهم أتعبَهُمْ شكرُها ، وفدحَهُم حقُّها ، إلاّ بعونِ الله مع الإيمانِ بالله ورسوله ؛ فأنتم مستخلَفُون فى الأرض ، قاهرونَ لأهلِها ، قد نصر اللهُ دينَكم ، فلم تصبحْ أمةٌ مخالفةٌ لدينِكم إلاّأمّتانَ : أمّة مستعْبَدة للإسلام وأهله ، يجزون لكم ، يُستصفَوْن (٣٩) معايشهم وكدائحهم ورَشْحَ جباههم ؛ عليهم المؤونة ولكم المنفعة ، وأمّة تنتظرُ وقائعَ الله وسطواتِه فى كلِّ يوم وليلة ، قد ملأ الله قلوبَهم رُعْباً ؛ فليسَ لهم معقلٌ يلجئونَ إليه ، ولامهربٌ يتّقونَ به ، قد دهمتهم جنودُ الله عزَّ وجلَّ ونزلتْ بساحتِهم ، مع رفاغة العيش (٤٠) واستفاضة المال ، وتتابع البعوث ، وسدّ الثغور بإذن الله ، مع العافيةِ الجليلةِ العامةِ التى لَم تكُن هذه الأمة على أحسنِ منها مذ كانَ الإسلامُ ؛ والله المحمود ، مع الفتوح العظام فى كلّ بلد . فما عسى أن يبلغ مع هذا شكر الشاكرين وذكرُ الذاكرين واجتهادُ المجتهدين ؛ مع هذه النعمِ التى لايُحْصَى عددُها ، ولايقَدَّر قدرها ، ولايستطاع أداء حقِّها إلا بعون الله ورحمتِه ولطفِه ! فنسألُ الله الذى لا إله إلا هو الذى أبْلانا (٤١) هذا ، أن يرزقنا العملَ بطاعته ؛ والمسارعةَ إلى مرضاتِه .

واذكروا عباد الله بلاءَ الله عندكم ، واستتِمّوا نعمةَ اللهِ عليكُمْ فى مجالسِكُمْ مثنى وفَرادى ، فإنَ الله ـــ عزَّ وجَلَّ ـــ قال لموسى :

---

(٣٩) استصفى الشيء : أخذ صفوه . ويجزون لكم : أى يدفعون لكم الجزية .

(٤٠) رفاغة العيش : سعته . والأمتان المخالفتان للإسلام اللتان أشار إليهما عمر : أمة استسلمت وتدفع الجزية ، وأمة لما يفتح المسلمون بلادها فهى تعيش فى رعب منهم .

(٤١) البلاء : الاختبار ، وهو يكون فى الخير والشر .

﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ (٤٢)

وقال لمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (٤٣)

فلو كنتم إذ كنتم مستضعفين محرومين خيرَ الدنيا على شعبةٍ من الحق، تؤمنونَ بها، وتستريحون إليها؛ مع المعرفة بالله ودينه، وترجَونَ بها الخير فيما بعد الموت؛ لكان ذلك؛ ولكنكم كنتُمْ أشدَّ الناسِ معيشةً وأثبتَهُ بالله جَهَالَةً. فلو كان هذا الذى استشلاكم به لم يكن معه حظ فى دنياكم؛ غير أنه ثقةً لكم فى آخرتكم التى إليها المَعَادُ والمنقلَبُ؛ وأنتم من جهدِ المعيشةِ على ما كنتم عليه أحرياء أن تشحُّوا على نصيبكم منه، وأن تظهرُوه على غيره؛ فبلْهَ ما إنه قد جمع لكم فضيلة الدنيا وكرامة الآخرة، ومن شاء أنْ يجمع له ذلك منكم؛ فأذكَركُمْ الله الحائلَ بين قلوبكُم إلا ما عرَفتُم حقَّ الله فعملتم له، وقَسَرْتم (٤٤) أنفُسَكُمْ على طاعتِهِ، وجمعتُمْ مع السرورِ بالنعَم خوفاً لها ولانتقالها، ووجَلاً منها ومن تحويلها، فإنه لاشيء أسلبُ للنعمةِ من كُفرانِها، وإنَّ الشكرَ أمْنٌ للغيَر، ونماءٌ للنعمة؛ واستيجابٌ للزيادة؛ هذا لله عليّ من أمرِكم ونهيِكُم واجب.

(١٥) اسألوا أهل الذكْر.. *

أيها الناس! من أراد أن يسأل عن القرآن فليأتِ أبيَّ بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض (٤٥) فليأتِ زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأتِ مُعاذَ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله جعلني عليه له خازناً وقاسماً، إني بادىء بأزواج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فمعطيهن، ثم المهاجرين الأوّلين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم: أنا وأصحابي، ثم بالأنصار

(٤٢) إبراهيم ٥ .
(٤٣) الأنفال ٢٦
(٤٤) قسرتم : حملتم وأجبرتم .
* ابن الجوزى ٧٨ . والعقد الفريد ٤/ ٦٣ .
(٤٥) الفرائض : علم قسمة المواريث .

الذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم (٤٦) ، ثم من أسرع إلى الهجرة أسْرَعَ إليه العطاء ، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء ، فلا يلومنّ رجلٌ إلا مُناخَ راحلته ، (٤٧) إني قد بقيت فيكم بعد صاحبيّ ، فابتليتُ بكم وابتليتم بي (٤٨) ، وإني لن يحضرني من أموركم شيء فأكِلَه إلى غير أهل الجزاء والأمانة ، فلئن أحسنوا لأحسنن إليهم ، ولئن أساءوا لأُنكلنّ بهم (٤٩) .

(١٦) إكرام الأمة بالإسلام *

الحمد لله الذي أعزّنا بالإسلام ، وأكرَمَنا بالإيمانِ ، ورحِمَنا بنبيه — صلى الله عليه وسلم — فهدانَا به من الضَّلالةِ ، وجمعنا به من الشَّتاتِ ، وألّفَ بين قلوبنا ، ونصَرنَا على عدوِّنا ، ومكنَ لنا في البلاد ، وجعلنا به إخواناً متحابّين ، فاحمدوا الله على هذه النعمةِ ، واسألوه المزيدَ فيها والشكرَ عليها ، فإنَّ الله قد صَدَقَكم الوعدَ بالنصر عَلى من خالفكم ، وإياكُمْ والعملَ بالمعاصي ، وكفْرَ النعمةِ ، فقلما كَفَرَ قومٌ بنعمةٍ ولم ينزِعُوا إلى التوْبة إلا سُلبوا عزَّهم ، وسُلّطَ عليهم عدوُّهُمْ .

أيها الناس ! إن الله قد أعزَّ دعوةَ هذه الأمةِ ، وجَمَعَ كلمتَها ، وأظهر فَلْجَها (٥٠) ، ونصرها وشرفَّها ، فاحمدوه عبادَ الله على نِعَمِه ، واشكروُه على آلائه ، جَعَلَنا اللّهُ وإياكم من الشاكرين .

(١٧) ... في رمضان *

أما بعد فإن هذا الشهرَ شهرٌ كتب الله عليكُمْ صيامَهُ ، ولم يكتبْ عليكمْ قيامَه ، من استطاع منكم أن يقومَ فإنها من نَوافِلِ الخيرِ التى قال الله عز وجل ، ومن لم يستطعْ

---

(٤٦) إشارة إلى قوله تعالى «والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ... » الحشر ٩ .
و« وتبوّؤا الدار والإيمان » أى سكنوا المدينة وألفوا الإيمان واستقر فى قلوبهم .

(٤٧) مناخ الراحلة : المكان الذى تناخ فيه الناقة أى تبرك و يعنى عمر بذلك البطء فى الهجرة والبطء فى السعى الى الخير.

(٤٨) الابتلاء : الأختبار.

(٤٩) الشدة فى العقاب .
* ابن الجوزى ٨٢ ، والعقد الفريد ٤/ ٦٣ .

(٥٠) الفلج : هو الظفر والنصر.
* ابن الجوزى ٥٥ .
(وهى خطبة خفيفة اعتاد عمر أن يقولها بعد صلاة المغرب فى رمضان) .

منكم أن يقومَ فلينَمْ على فِراشِه ، وليتّق إنسانٌ منكُمْ أن يقولَ أصومُ إن صامَ فلان ، وأقومُ إن قامُ فلانٌ ، من صامَ منكم أو قام فليجعل ذلك لله عزَّ وجلّ ، وأقِلُّوا اللغْو (٥١) في بيوت الله ، واعلموا أن أحدكم في صلاة ما انتظرَ الصلاة (٥٢) ، ألا - لايتقدم الشهرَ منكم أحد ، (ثلاثَ مرات) ألا لا تصومُوا حتى تَروْه ، ثم صومُوا حتى تروه . ألا وإن غُمّ عليكم فلن يغمَّ عليكم العدد ، فعدوا ثلاثين ثم أفطروا ، ألا ولا تفطروا حتى تروا الغَسَق على الظِّراب(٥٣) .

(١٨) المسئولية الاجتماعية *

أيها النّاس ، اتقوا الله فى سرّ يَرتكُم وعَلانيتِكُم ، وَأْمَروا بالمعروفِ وانهوا عن المُنكرِ ، ولاتكونوا مثلَ قوم كانوا فى سَفينةٍ فأقبل أحدُهم على مَوضعه يَخْرقه ، فنَظر إليه أصحابه فمَنعوه ، فقال : هو مَوْضعى ولى أن أحْكُمَ فيه . فإن أخذوا عَلَى يده سَلِم وسَلِموا ، وإنْ تركوه هَلك وهَلكوا معه . وهذا مَثل ضربتُه لكم ، رحمنا الله وإياكم (٥٤) .

(١٩) فى عام الرمادة *

حمد الله وأثنى عليه وصلى الله عَلَى نبيّه ، ثم قال : أيها الناس ، استغفروا ربكم إنه كان غفّارا ، اللهم إنى استغفرك وأتوب إليك . اللهم إنا نتقرَّب إليك بعمّ نبيّك (٥٥) وبقيّة آبائه وكِبار رجاله ، فإنك تقول وقولُك الحق : (وأمّا الْجِدَارُ فكانَ لِغُلامَين

---

(٥١) اللغو واللاغية : القول الباطل ، وفعله لغا .
(٥٢) أى:أن المسلم الصحيح العقيدة يفيض قلبه دائما بذكر الله حتى لولم يكن فى صلاة . وكأنه فى صلاة دائمة .
(٥٣) الظِّراب : الجبال والهضاب مفردها : ظَرِب (بكسر الراء) .
* العقد الفريد ٤/ ٦٤ .

(٥٤) فى الخطبة تضمين لحديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ... الخ . اهـ صحيح البخارى ج٣ ص١٨٢ طبعة الشعب .
* العقد الفريد ٤/ ٦٥ .
فى سنة ١٨هـ أصيب المسلمون بمجاعة شديدة بسبب انقطاع المطر وسمى هذا العام بعام الرمادة لأن الريح الشديدة كانت تسفى رمادا يلسع الجلود أو لأن رمل الأرض صار فى لون الرماد أو لان وجوه الناس كلحت من الضعف والمرض فصارت فى لون الرماد أو لأن الرمادة فى اللغة بمعنى الهلاك (انظر لسان العرب) وانظر كذلك سيرة عمر بن الخطاب لعلى وناجى الطنطاوى من ص ١٧٦ إلى ص ١٩٠ و بخاصة ص ١٧٧ .
(٥٥) هو العباس ــ رضى الله عنه .

يَـتِـيمين فى المدينة وكانَ تَحْته كَنْزٌ لهما وكان أبوهما صالحًا) [٥٦] . فحفظتهما لصلاح أبيهما ، فـاحـفـظ اللـهـم نـبـيَّـك فى عَمّه . اللهم اغفر لنا إنك كنت غفاراً . اللهم أنت الرّاعـى ، لاتُـهمل الضالّة ، ولاتَدع الكَسيرة بمَضْيعة . اللهم قد ضَرع الصغير ، وَرَقَّ الـكـبير ؛ وارتـفعت الشكوى ، وأنت تعلم السر وأَخْفى . اللهم أَغِثْهم بغِياثك قبل أن يَقْـنطوا [٥٧] فيَهْلِكوا ، فإنه لاييأس من رَوْح الله إلاّ القومُ الكافرون . فما برحوا حتى علّـقـوا الـحِـذاء ، وقلّصِوا المآزر [٥٨] ، وطَفِـق الناسُ بالعبَّاس يقولون : هنيئاً لك ياساقى الحَرْمين .

(٢٠) فى عام الرمادة *

أيها الناس ! اتقُوا الله فى أنفسكم ، وفيما غابَ عن الناس من أمركم ، فقد ابتليتُ بـكـم وابـتـلـيتم بـى ، فـما أدْرى أَلسخطةِ عَلَيّ دونكم أوعليكم دونى ، أوقد عَمّمتْنى وعمّتْكم ، فهلموا فلندعُ الله يصلح قلوبنا ، وأن يرحَمَنا ، وأن يرفعَ عنا المَحل [٥٩]

أيهـا الـنـاس ! إنـى أخـشـى أن تـكـون سَخْطة عمتنا جميعا فأعْتبوا ربكم [٦٠] ، وانزعُوا وتوبوا إليه وأحْدِثوا خيراً . .

وقال فى آخر كلامه : اللهم إنى قد عَجزْتُ ، وما عندك أوسعُ لهم .

ثم أخذ بيد العباس — رضى الله عنه — فقال :

اللـهـم هـذا عـمُ نـبـيِّـك — صلى الله عليه وسلم — نتوجُه إليك به و ببقية آبائِه وكبيرِ رجالِه ، فإنكَ قلت — وقولك الحق ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [٦١]

فحفظتهما لصلاح أبيهما ، فاحفظ اللهم نبيك فى عمه .

---

(٥٦) الكهف ٨٢ .

(٥٧) يقنطوا : يصيبهم القنوط أى اليأس .

(٥٨) أى : أنه لما عم المطر ، وسالت به الأرض خلع الناس نعالهم فعلقوها وشمروا مآزرهم .

* الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٣٢٠ .

(٥٩) المحْل : الجدب والقحط .

(٦٠) أعتبه : سره وأرضاه .

(٦١) الكهف ٨٢ .

(٢١) دعاء وتضرع إلى الله *

صَعد المِنْبَر فحَمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يأيها الناس ، إنى داعٍ فأمِّنوا . اللهم إنى غَليظ فَلَيِّنّى لأهل طاعتِك بموافقةِ الحقّ ، ابتغاء وَجهك والدار الآخرة ، وأرزقْنى الغِلْظة والشدّةَ على أعدائِك وأهلِ الدّعارة والنّفاق ، من غير ظُلم منّى لهم ولا اعتداء عليهم . اللهم إنى شحيحٌ فسَخِّنى فى نوائب المعروف (٦٢) ، قَصْداً (٦٣) من غير سَرَف ولا تَبْذيرٍ ولا رياء ولا سُمعة ، واجعلنى أبتغى بذلك وَجْهَك والدارَ الآخرة . اللّهم ارزقنى خَفْضَ الْجَناح (٦٤) وَلِينَ الجانب للمُؤمنين . اللّهم إنى كثيرُ الغَفْلةِ والنّسيانِ فألْهمنى ذِكْرك على كلّ حال ، وذِكْرَ الموتِ فى كلّ حين . اللهم إنى ضعيفٌ عند العملِ بطاعتِك فارزقْنى النّشاط فيها والْقوّةَ عليها بالنيّةِ الحسنةِ التى لاتكونُ إلا بعزّتِكَ وتَوْفيقِك . اللهم ثَبّتنى باليقين والبرِّ والتّقوى ، وذِكْرِ المَقام بين يديك ، والْحَياء منك ، وارزقنى الْخُشوعَ فيما يُرْضيكَ عنى ، والمُحاسَبةَ لنفسى ، وصلاح النّيّات ، والحذرَ من الشبهات . اللهم ارزقنى التفكر والتدبّر لما يتلوهِ لِسانى من كتابِكَ ، والفَهْمَ له ، والمعرفَةَ بمَعانيه ، والنّظر فى عجائبه ، والعملَ بذلك ما بقيتُ ، إنك على كلّ شىء قدير .

(٢٢) أوامر الله ونواهيه *

خطب عمرُ الناسَ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد : فإنى أوصيكمْ بتقوى الله الذى يبقى ويهلك مَنْ سِواه ، الذى بطاعته يَنفعُ أولياءه ، وبمعصيته يضُر أعداءه ؛ فإنه ليس لهالك هَلَكَ مَعْذِرَة فى تَعمُّد ضلالةٍ حَسِبها هُدى ، ولا فى ترك حق حسبَهُ ضلالةً ، وإن أحقَّ ما تعاهد الراعى من رعتيه تعاهُدهم بالذى لله عليهم فى وظائِف دينِهم ، الذى هداهم الله له ، وإنما علينا أن نأمرَكم بما أمركم الله به من

---

* العقد الفريد ٤/ ٦٥ .

(٦٢) سخنى فى نوائب المعروف : أى اجعلنى كريما سخيا وخاصة حينما تنزل بالناس النوازل .

(٦٣) قصدا : اعتدالا .

(٦٤) خفض الجناح : التواضع .

* الخراج ٤٨ .

طاعته ، وأن ننهاكم عما نهاكم الله عنه من معصيته ، وأن نقيمَ أمرَ الله فى قريب الناسِ وبعيدِهم ، ثم لانبالى على من مال الحق . ألا وإن الله فرض الصلاة وجعل لها شروطاً ، فمن شروطها : الوضوء ، والخشوعُ ، والركوعُ ، والسجودُ . واعلموا — أيها الناس — أن الطمعَ فقرٌ ، وأن اليأسَ غنى (٦٥) ، وفى العزلةِ راحةٌ من خلطاء السوء . واعلموا أنه من لم يرضَ عن الله فيما كَرِهَ من قضائه ، لم يؤدِّ إليه فيما يُحِب كنة شكره (٦٦) . واعلموا أن لله عباداً يميتون الباطل بهجره ، و يُحْيونَ الحقَّ بذكره ، رُغِّبُوا فَرَغِبُوا ، وَرُهِّبوا فَرَهِبُوا . ان خافُوا فلا يأمنوا ، وأبصرُوا من اليقينِ مالم يعاينوا (٦٧) . فتخلصوا بما لم يزايلوا (٦٨) ؛ أخلصهم الخوفُ فهجرُوا ما ينقطع عنهم لما يبقى عليهم (٦٩) ، الحياةُ عليهم نقمة (٧٠) ، والموتُ لهم كرامة (٧١) .

(٢٣) حقيقة الهجرة والجهاد *

أما بعد : فإنى أوصيكم بتقوى اللهِ الذى يبقى و يفنى ماسواه ، والذى بطاعتِه ينفع أولياءه ، و يضُرّ بمعصيته أعداءه ، فإنه ليس لهالِك هلك عذرٌ فى بعض ضلالة حسبَها هدى ، ولاترك حق حسبَه ضلالة . قد ثبتت الحجة ، وانقطع العذْر ، ولا حجةَ لأحد على الله — عز وجل —

ألا إن أحقَّ ماتعاهد الراعى رعيته أن يتعاهدهم بالذى لله — عزَّ وجل — عليهم من وظائف دينهم الذى هداهم به ، وإنما علينا أن نأمركم بالذى أمركم الله من طاعته ، وأن ننهاكم عما نهاكم الله عنه من معصيته ، وأن نقيم أمر الله فى قريب الناس وبعيدهم ، لانبالى على من مال الحقُّ ، ليتعلمَ الجاهل ، و يتعظ المفرط ،

---

(٦٥) يقصد باليأس هنا عدم التطلع إلى مافى أيدى الناس ، أوإلى ماكان فى تملكه حرمه . ففى اليأس فى مثل هذه الحال قناعة ورضى وغناء وراحة للنفس . وهو لايتاقض الطموح والسعى للأحسن .

(٦٦) أى : لم يشكر الله كما يجب .

(٦٧) أى : آمنوا ايمانا ثابتا بما لم يره رأى العين كالإيمان بالغيبيات مثلا .

(٦٨) يزايلوا : يتركوا . أى تخلصوا من الباطل بماثبتوا عليه من الحق .

(٦٩) أى : أن الخوف من الله دفعهم إلى هجر ملاذ الدنيا — وهى فانية — والعمل للآخرة فهى الأبقى .

(٧٠) لما فيها من مغريات قد توقع فى الحرام .

(٧١) لأنه ينزل بهم وهم متدرعون بالعمل الصالح الذى يؤدى بهم إلى الجنة .

* ابن الجوزى ١٦٠ .

وليقتدىَ المقتدى ، وقد علمتُ أن أقواما منهم من يقول بما أمِرّبه ، وفعلُه متولٍ عن ذلك ، وأن أقواما يتمنون فى أنفسهم ، و يقولون نحن نصلى مع المصلين ، ونجاهدُ مع المجاهدين ، وننتحلُ (٧٢) الهجرة ، ونقاتلُ العدو ، وكل ذلك يفعلهُ أقوامٌ لا يحتملونه بحقِّه ، فإنَّ الإيمانَ ليس بالتمنى ، ولكنه بالحقائق ، فمن قامَ على الفرائض ، وسدّدَ نيته وخشيته فذالكم الناجِى ، ومن ازدادَ اجتهادا وجدَ عند الله مز يدا ، وإن الجهاد سَنامُ(٧٣) العمل .

وإنما المهاجرون الذين يهجرون السئياتِ ، ومن يأتى بها . و يقول : أقوام جاهدوا ، وإنما الجهادُ فى سبيل الله اجتنابُ المحارم مع مجاهدةِ العدو ، وإن الأمر جدٌّ فجدوا .

وقد تقاتَلَ أقوامٌ لا ير يدون غيرَ الأجر (٧٤) ، وآخرون لا ير يدون غيرَ الذكْر (٧٥) ، وإن الله ــ عزّ وجلّ ــ رضى منكم باليسير ، وأثابَكم على اليسير الكثير . الوظائفَ الوظائفَ (٧٦) . أدُوها تؤدكم إلى الجنة ، السنَّةَ السنَّةَ أكرمُوها تنجكم من البدعة تعلّموا ولا تعجزوا ، فإنه من عجز تكلف ، وإن شرار الأمور محدثاتها ، وإن الاقتصادَ فى السنّة خير من الاجتهاد فى الضلالة ، فافهموا ما توعظون به ، فإن الحر يبَ من حُرِب دينُه(٧٧) ، وإن السعيدَ من وُعظ بغيره ، وإن الشقىَّ من شقى فى بطنِ أمّه . وعليكم بالسمع والطاعة فإن الله قضى لهما بالعز ، وإياكمْ والمعصيةَ والتفرقَ ، فإن الله قضى لهما بالذل ، وإن للناسِ نفرةً عن (٧٨) سلطانِهم فعائذ بالله أن تدركنى .

---

(٧٢) انتحل فلان كذا : أى انتسب إليه وألزم نفسه به .

(٧٣) السّنام: للإبل . و يطلق ء ّة الشىء وأعلاه وخير مافيه .

(٧٤) يقصد بالاجر: مثوبة الله فى خرة .

(٧٥) أى الشهرة وانتشار اسمهم بين ناس .

(٧٦) يقصد بالوظائف : فروض الدين تكاليفه .

(٧٧) جاء فى اللسان: حربه يحرُبه : ِ ا أخذ ماله فهو محروب وحر يب و يقصد عمر ــ رضى الله عنه ــ أن الخاسر المفلس هو الذى يتهاون فى دينه .

(٧٨) يقصد تمردا وخروجا .

(٢٤) بعد توديع جيش سعد *

إنّ الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال ، وصرّف (٧٩) لكم الأقوال ، ليحييَ بها القلوبَ ، فإنَّ القلوبَ ميتةٌ في صدورها حتى يحييَها الله ، من عَلِم شيئاً فلينتفعْ به ، وإن للعدل أمارات وتباشير، فأما الأمارات فالحياءُ والسخاءُ والهيْنُ (٨٠) واللين ، وأما التباشير فالرحمة .. وقد جعل الله لكل أمرٍ باباً ، و يسّر لكل باب مفتاحاً ، فباب العدل الاعتبار (٨١) ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات ، والاستعدادُ له بتقديم الأعمال ، والزهدُ أخذُ الحقِّ من كلِّ أحد قِبَلَهُ حقّ ، وتأديةُ الحقِّ إلى كلِّ أحدٍ له حقّ ، ولا تصانعْ في ذلك أحداً ، واكتفِ بما يكفيه من الكفاف ، فإنَّ من لم يكفِهِ الكفافُ لم يغنه شيء ، إني بينكم و بين الله ، وليس بيني و بينه أحد ، وإن الله قد ألزمني دفعَ الدعاء عنه (٨٢) فأنهوا شكاتكم إلينا (٨٣) ، فمن لم يستطع فإلى من يبلّغناها ، نأخذ له الحق غير متعتَع (٨٤) .

(٢٥) بعد فتح القادسية *

إني حريص على ألا أدعَ حاجةً إلا سددْتُها ما اتَّسَعَ بعضُنا لبعض ، فإذا عجزَ ذلكَ عنَّا تآسيْنَا (٨٥) في عيشتنا حتى نَسْتَوِيَ في الكفاف (٨٦) ، ولوددتم أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقَعَ فيها لكم ، ولستُ معلّمَكم إلا بالعمل : إني والله ما أنا بملك

---

* الطبري ٣/٤٨٥ .
وكانت هذه الخطبة بعد أن شيع عمر جيش سعد من ضرار إلى الأعوص ، و بعد أنْ أوصى سعدا وهو يشيعه .

(٧٩) ساق .

(٨٠) الهين:لين الجانب وحسن الخلق .

(٨١) الاعتبار : التفكير والا تعاظ .

(٨٢) دفع الدعاء عن الله : أي منعه وذلك لا يكون إلا بإنصاف الناس ورفع الظلم عنهم .

(٨٣) بلغونا ماتشكون منه .

(٨٤) غير متعتع : من غير أن يصيبه أذى أوقلق أو إزعاج .

* الطبري ٣/ ٥٨٤
كان ذلك سنة١٤هـ حينما أتاه البشير في المدينة بانتصار المسلمين في القادسية . وساق عمر هذه الخطبة بعد أن قرأ على الناس كتابَ الفتح .

(٨٥) أي،واسى بعضنا بعضا بما يملك من فضل مال .

(٨٦) الكفاف : القوت . وفي الحديث الشر يف : « اللهم اجعَلْ رزق آل محمد كفافا » .

فاستعبدكم ، وإنما أنا عبدُ الله عُرِضَ عَلَىّ الأمانةُ (٨٧) ، فإن أبيتُها ورددتها عليكم واتبعتُكم حتى تشبعوا فى بيوتكم ، وترووْا سعدتُ ، وإنْ أنا حملتُها واستتبعتكم إلى بيتى شقيتُ ، ففرحت قليلا ، وحزنتُ طويلاً ، و بقيتُ لا أُقالُ ، ولا أُردُّ فأَسْتَعتب (٨٨) .

(٢٦) بعد آخر حجّة له *

أما بعد : فإنى قائل لكم اليوم مقالة قد قدّر لى أن أقولَها ، ولا أدرى لعلها بين يدىْ أجلى ، فمن عقلها وَوَعاها فليأْخذْ بها حيث انتهتْ به راحلته ، ومن خشى أن لا يعيها فلا يحلّ لأحد أن يكذبَ على ؛ إن الله بعث محمدا ، وأنزل عليه الكتابَ ، فكان مما أنزل عليه آيةُ الرجم ، فقرأناها وعلمناها ووعيناها (٨٩) ، ورجم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ورجمنا بعده ، فأخشى إن طال بالناس زمان يقول قائل : والله ما نجد الرجم فى كتاب الله ، فيضلوا بتركِ فريضة أنزلها الله ، وإن الرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء ، وإذا قامت البينة ، أو كان الحبلُ أو الاعتراف ، ثم إنا قد كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله : « لا ترغبُوا عن آبائكم فإنه كفرٌ بكم أن ترغبوا عن آبائكم » إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تُطْرونى كما أطرى عيسى بن مريم ، وقولوا : عبدُ الله ورسولهُ » ؛ ثم إنه قد بلغنى أن فلانا قال : والله لو قد مات عمر بن الخطاب لقد بايعتُ فلانا ، فلا

---

(٨٧) الأمانة : خلافة المسلمين وقيادة أمرهم .

(٨٨) يعبر عمر فى العبارة السابقة عن زهده فى الحكم حتى أنه ليتمنى أن يخلع نفسه منه و يرد الأمر للمسلمين و يكون كواحد منهم يسعده هناءتهم وغناؤهم ويحزنه عجزه عن إسعادهم . لاأقال : لاأعفى عن الخلافة . لاأرد : لاأردها على المسلمين . استعتب : أرضى وأستريح .

* سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٩ .

فى آخر حجة حجها عمر كان عمر قد أزمع أن يلقى خطبة فى الموسم ولكن ابن عباس طلب منه أن يرجىء ذلك إلى أن يصل إلى المدينة « لأن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم » وقد لايعون مقالة عمر، أما المدينة فهى « دار أهل السنة وأهل الثقة وأشراف الناس وأهل الفقه الذين يعون مقالة عمرو يضعونها على مواضعها . فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة .

وهذه الخطبة من أواخر خطبه قبل استشهاده .

(٨٩) يقصد بآية الرجم قوله تعالى « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » وهذا مما نسخ لفظه و بقى حكمه [انظر صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الحدود باب حد الزنا] .

يغرن امرءاً أن يقول : إن بيعة أبى بكر كانت فلتة فتمَّتْ ، وإنها قد كانت كذلك إلا أن الله قد وقى شرها ، وليس فيكم من تنقطع الأعناقُ إليه مثل أبى بكر ، فمن بايع رجلا عن غير مشورة من المسلمين ، فإنه لا بيعة له هو ولا الذى بايعه .... » (٩٠) .

(٢٧) وصيته لقائده سلمة بن قيس *

سر باسم الله ، تقاتلُ فى سبيلِ الله ، من كفرَ بالله . فإذا لقيتُم عدوَّكم من المشركين فادعُوهم إلى ثلاثِ خصال : ادعوهُم إلى الإسلام ، فإن أسلموا فاختارُوا دارَهم فعليهم فى أموالهم الزكاة ، وليسَ لهم فى فىء الإسلام نصيب . وإن اختارَوا أن يكونوا مَعَكم فلهم مثل الذى لكم (٩١) ، وعليهم مثل الذى عليكم . فإن أبَوا فادعوهم إلى إعطاء الجزية ، فإن أقروا بالجزيةِ فقاتلوا عدوَّهم من ورائهم ، وفرغوهم لخراجهم ، ولا تكلفُوهم فوق طاقتِهم . فإن أبَوا فقاتلوهم ، فإن الله ناصرُكم عليهم . فإن تَحَصَّنوا منكم بحصن فسألوكم أن ينزلوا على حكم اللهِ وحكم رسوله ، فلا تنزلوهم على حكمِ الله ولا حكمِ رسوله ، فإنكم لا تدرون ما حكمُ الله وحكمُ رسولِهِ فيهم . وإن سألوكم أن تُنزِلُوهم على ذمّة الله وذمّة رسوله ، فلا تعطُوهم ذمة الله وذمة رسوله وأعطوهم ذِممَ أنفسكم فإن قاتلوكم فلا تغلُّوا ولا تغدروا ولا تُمَثِّلُوا ، ولا تقتلوا وليداً (٩٢) .

(٢٨) وصيته للخليفة من بعده *

أوصى الخليفةَ من بَعدى بتقوى الله . وأوصيه بالمهاجرين الأولين أن يَعْرِف لهم حقَّهم وكرامَتَهم . وأوصيه بالأنصار الذين تبوءُوا الدار والإيمان ، أن يقبل من

---

(٩٠) يتحدث عمر بعد ذلك عن أحداث يوم السقيفة ، وقد سجلنا ذلك فى محاورات أبى بكر فى الجزء الخاص بأدبه فلا داعى للتكرار .

* الخراج ٣٧٦ .

قال سليمان بن بريدة : كان عمر بن الخطاب إذا اجتمع إليه جيش بعث عليه رجلا من أهل الفقه والعلم ، فاجتمع إليه جيش فبعث عليهم سلمة بن قيس فأوصاه بهذه الوصاة .

(٩١) أى: ليس فى غنائم الحرب نصيب إلا إذا اشتركوا فى القتال .

(٩٢) قال سلمة : فسرنا حتى لقينا عدونا من المشركين ، فدعوناهم إلى ما أمر به أمير المؤمنين ، فأبوا أن يسلموا ، فدعوناهم إلى إعطاء الجزية فأبوا أن يقروا بها ، فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم . فقتلنا المقاتلة ، وسبينا الذرية .

* الخراج ٤٩ .

محسنهم ، و يتجاوز (٩٣) عن مسيئهم وأوصيه بأهل الأمصار فإنهم ردء(٩٤) الإسلام ، وغيظ العدو ، وجُبَاة المال ، أن لايُؤخَذ منهم إلا فضلُهم(٩٥) عن رضىً منهم . وأوصيه بالأعراب فإنهم أصلُ العرب ، ومادّة الإسلام أن يُؤخَذ من حواشي(٩٦) أموالهم فيردّ على فقرائهم وأوصيه بذمةِ الله ، وذمة رسولِ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يوفّى لهم بعهدهم ، وأن يُقاتَل من ورائهم ، وأن لايُكَلّفوا فوق طاقتهم .

(٢٩) وصيته للخليفة من بعده *

أوصيكَ بتقوى الله لا شريكَ له ، وأوصيكَ بالمهاجرين الأوّلين خيراً ، أن تعرف لهم سابقتهم ، وأوصيك بالأنصار خيراً ، فاقبل من محسنهم ، وتجاوزْ عن مسيئهم ، وأوصيك بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم ردْء الإسلام وغيظ العدو ، وجبُاة الفَيء ، لا تحمل فيئهم إلا عن فضل منهم ، وأوصيك بأهل الباديةِ خيراً ، فإنهم أصل العرب ، ومادّة الإسلام ، أن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم ، فتردَّ على فقرائِهم ، وأوصيكَ بأهلِ الذمةِ خيراً ، أن تُقاتِلَ من ورائهم ، ولا تكلفَهم فوق طاقتهم ، إذا أدَّوا ما عليهم للمؤمنين طَوْعاً ، أو عن يدٍ وهم صاغرون (٩٧) وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ومخافة مقْتِه ، أن يطلع منك على ريبة ، وأوصيك أن تخشى الله في الناس ، ولا تخشى الناس فى الله ، وأوصيك بالعدل في الرعية ، والتفرغ لحوائجهم وثغورهم ، ولا تؤثر (٩٨) غنيَّهم على فقيرهم ، فإن ذلك بإذن الله سلامةٌ لقلبك ، وحطٌّ لوزرك (٩٩) ، وخيرٌ في عاقبةِ أمرك ، حتى تُفضى من ذلك إلى من يعرف سريرتك ، ويحول بينك وبين قلبك ، وآمركَ أن تشتدَّ في أمر الله وفي حدودِه ومعاصيه ، على قريبِ الناسِ وبعيدِهم ، ثم لا تأخذْك في أحد رأفَة حتى تنتهك منه مثل ما انتهك من حرمة الله ، واجعل الناس عندك سواء ، لا تبالي على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك في الله لومة

(٩٣) يتجاوز: يصفح .

(٩٤) الردء : هو العون والنصير .

(٩٥) الفضل فى الشيء : هو الزيادة فيه .

(٩٦) الحواشى : جمع حاشية وهى الزيادة .

* البيان والتبين ٢ / ٢٢ ، وابن الجوزى ١٩٦ .

(٩٧) ارشارة إلى قوله تعالى « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » التوبة ٢٩ . والصاغر: المستسلم الراضى بالضيم .

(٩٨) تؤثر: تفضّل وتقدم .

(٩٩) الوزر: الذنب .

لاثم ، وإياك والأثَرَةَ والمحاباة. فما ولاك الله مما أفاء الله على المؤمنين فتجور وتظلم ، وتحرم نفسكَ من ذلك ماقدْ وسَّعه الله عليك ، وقد أصبحتَ بمنزلةٍ من منازل الدنيا والآخرة ، فإن اقترفت لدنياك عَدْلاً وعفةً عما بسط الله لك اقترفت به إيماناً ورضواناً (١٠٠) ، وإن غَلَبك الهوى اقترفت به سخط الله ، وأوصيك ألا ترخّص (١٠١) لنفسِكَ ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة ، وقد أوصيتك وحَضَضْتُك ونصحتُك ، فابتغ بذلك وجه الله والدارَ الآخرة ، واخترتُ من دلالتك ما كنتَ دالاً عليه نفسي وولدي (١٠٢) ، فإن عملت بالذي وعظتُك ، وانتهيتَ إلى الذي أمرتُك ، أخذت به نصيباً وافراً ، وحظاً وافياً (١٠٣) ، وإن لم تقبلْ ذلك ولم يهمك ، ولم تُنْزِل معاظم الأمور عند الذي يرضى الله به عنك ، يكن ذلك بك انتقاصاً ، ورأيك فيه مَدْخُولاً (١٠٤) ، لأن الأهواء مشتركة ، ورأس كلّ خطيئة إبليس ، وهو داع إلى كل هَلَكة ، وقد أضلّ القرونَ السالفةَ قبلَكَ فأوردَهُم النار ، ولبئس الثمنُ أن يكون حظُّ امرىء موالاة (١٠٥) عدو الله الداعي إلى معاصيه ، ثم اركب الحق وخُضْ إليه الغمرات (١٠٦) ، وكن واعظاً لنفسك ، أنشدك الله لما ترحمت على جماعة المسلمين فأجلْلتَ كبيرَهم ، ورحمتَ صغيرَهم ، ووقَّرتَ عالمهم ، ولا تضربهم فيذلوا ، ولا تستأثر عليهم بالفيء فتبغِّضَهم (١٠٧) ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتعقرهم (١٠٨) ، ولا تجمّرهم في البعوث فتقطع نسلهم ، ولا تجعل المال دُولةً بين الأغنياء منهم (١٠٩) ولا تغلق بابك دونهم ، فيأكل قويُهم ضعيفَهم . هذه وصيتي إليك ، وأشهد الله عليك ، والسلام .

---

(١٠٠) أي: اذا صرت عادلا وعفت نفسك عن أعراض الدنيا صرت من أهل الإيمان ونلت رضاء الله .

(١٠١) ترخص : تسمح وتسهّل .

(١٠٢) أى أنا أوجهك إلى خير مايوجه الإنسان إليه ولده ونفسه .

(١٠٣) الوافُر والوافى : الكثير .

(١٠٤) المدخول : الفاسد الضار .

(١٠٥) الموالاة : المصاحبة والمناصرة .

(١٠٦) خض إليه الغمرات : تجشم فى سبيله كل صعب .

(١٠٧) تبغضهم : بفتح الباء وتشديد الغين : أى تجعلهم يكرهونك و يبغضونك .

(١٠٨) تضرّبهم .

(١٠٩) أى بتداولوه : فيكون مرة لهذا ومرة لذاك .

(٣٠) وصيته لابنه عبد الله *

يابنيّ ! إذا حضرتني الوفاةُ فاحرفْني واجعلْ ركبتيكَ في صُلبْي ، وضع يدك اليمنى على جَنبي ، و يدَكَ اليسرى على ذقني ، فإذا قُبضْتُ فأغمضْني واقصدُوا في كفني (١١٠) ، فإنه إن يكنْ لي عند الله خيرٌ أبدلَني خيراً منه ، وإنْ كنتُ على غير ذلك سَلَبَني فأسرَعَ سَلْبي ، واقصدوا في حُفرتي فإنه إن يَكُنْ لي عند الله خيرٌ وسّعَ لي فيها مَدّ بصري (١١١) ، وإن كنت على غير ذلك ضيقها عليّ حتى تختلفَ أضلاعي (١١٢) ، ولا تخرجنَّ معي امرأة ، ولا تُزَكُّوني (١١٣) بما ليس فيّ ، فإن الله هو أعلم بي ، وإذا خرجتم بي فأسرعوا في المشي ، فإنه إن يكن لي عند الله خير قدمتموني إلى ماهو خير لي ، وإلاّ فَشر تضعونه عن أعناقكم (١١٤) .

وقال عثمان : أنا آخركم عهداً بعمر ، دخلت عليه ورأسه في حجر ابنه عبد الله ، فقال له : ضع رأسي على الأرض . قال : فهل فخذي والأرضُ إلا سواء ؟ قال : ضع خدي بالأرض لاأمَّ لك ، في الثانية أو الثالثة ، ثم شبك بين رجليه ، فسمعته يقول : و يلي وو يل أمي إن لم يغفر الله لي .

---

* ابن الجوزى ١٩٩ (وهى آخر وصاياه) .

(١١٠) أى ليكن متواضعا غير مكلف .

(١١١) كناية عن شدة السعة .

(١١٢) كناية عن شدة الضيق .

(١١٣) تمدحونى وتثنوا علىّ .

(١١٤) واضح أن عمر فى ساعات احتضاره ظل واعى العقل حاضر المنطق قادر التعبير فى نظام ودقة وترتيب واتزان يتأتى لمن كان فى مثل حاله بعد طعنه غدرا وخيانة .

الشريحة الثانية

الكتب والعهود

(١) كتب الاستغاثة فى عام الرمادة
كتب إلى عمرو بن العاص والى مصر(١)

بسم الله الرحمن الرحيم: من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى بن العاصى، سلام عليك، أما بعد: أَفَتَرانى هالكاً ومن قِبلَى، وتعيشُ أنتَ ومن قِبَلَك فياغَوْثَاهُ، ياغوثاه ياغوثاه.

* * * * *

وكتب إلى معاوية والى الشام (٢)

.. إذا جاءك كتابى هذا فابعث إلينا من الطعام بما يصلح مَنْ قِبَلَنا فإنهم قد هلكوا إلاّ أن يرحمهَم الله.

---

(١) ابن سعد ٣/ ٣١٠. وخطط المقريزى ٢/١٤١ (مع اختلاف) استجاب عمرو بن العاص لكتاب عمر فبعث إليه فى البر بألف بعير تحمل الدقيق، و بعث فى البحر بعشرين سفينة تحمل الدقيق والودك (دسم اللحم والشحم) و بعث إليه بخمسة آلاف كساء.

(٢) السابق ٣١١

(٢) وصيته للقادة عند عقد الألوية لهم *

بسم الله ، وعلى عون الله ، وامضُوا بتأييد الله بالنصر

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (٣)

و بلزوم الحق والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفرَ بالله ،

﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (٤)

ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تُمَثّلوا عند القدرة ، ولا تُسرفوا عند الظهور (٥) ، ولا تقتلوا هَرِماً ولا امرأةً ولا وليداً ، وتوقّوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند حُمة النهضات ، وفي شنّ الغارات (٦) ولا تَغُلّوا عند الغنائم (٧) ، ونزّهوا (٨) الجهاد عن عَرَض الدنيا ، وأبشروا بالرّباح بالبيع الذي بايعتم به ، (وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ الْعَظِيمُ) (٩)

(٣) من عمر إلى عماله *

لا تَدَعُوا أحدًا له سلاحٌ أو فرسٌ أو نجدة أو رأيٌ إلا انتخبتُموه ، ثم وجهتموه إليَّ . والعَجَلَ العَجَلَ .

---

* ابن الجوزى ٦٥

(٣) « وماالنصر الا من عند الله العزيز الحكيم » آل عمران ١٢٦ « وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » الأنفال ١٠ .

(٤) البقرة : ١٩٠ . والمائدة : ٨٧ .

(٥) أى لاتبالغوا فى الانتقام وتتبع العدو إذا ما انتصرتم عليه .

(٦) أى احذروا أن تقتلوا العجائز والنساء والولدان حتى لو اشتد القتال وقوى سعاره . حُمة العقرب (بضم الأول وفتح الثانى) الأداة التى تلسع بها فريستها . و يقصد بحمة النهضات اشتداد القتال وتسعره .

(٧) الغل والغلول : السرقة .

(٨) نزهوا : طهروا وارفعوا .

(٩) الأنعام : ١١١ .

* الطبرى ٣/ ٤٧٠

حينما علم عمر أن الفرس قد ملكوا يزدجرد كتب إلى عماله على الكور والقبائل هذا ، الكتاب ، وكان ذلك فى ذى الحجة سنة ثلاث عشرة . وأمر عمر — فى هذا الكتاب — يشبه مانسميه فى العصر الحاضر بإعلان التعبئة العامة .

(٤) إلى ملك الروم *

« إنه بلغنى أن حَيًّا من أحياء العرب تَرَك دارَنا وأَتَى دارك ، فوالله لتُخْرِجَنَّه ، أو لَنَنْبِذَنّ (١٠) إلى النصارى ، ثم لَنُخْرِجَنَّهُمْ إليك » .

فأخرجهم ملك الروم .

(٥) إلى عبد الله بن عمر *

« أمّـا بعدُ : فإنه من اتقى اللهَ وَقَاه ، ومن توكَّل عليه كَفَاه ، ومن شَكَر له زادَه ، ومـن أَقْرَضَه (١) جَزَاه ، فاجعل التقوى عِمَادَ قلبكَ ، وجلاء بصرك ، فإنه لا عَمَلَ لمن لا نـيَّـة لـه ، ولا أجْـرَ لمـن لا حَسَنة له ، ولا مال لمن لا رفقَ له ، ولا جَدِيدَ لمن لا خُلَق له » .

(٦) وصيته لسعد بن أبى وقاص *

إنـى قـد ولـيتُك حربَ العراقِ فاحفظْ وصيَّتى ، فإنَّكَ تُقدِمُ على أمر شديدٍ كريه لا يخلِّصُ إلا الحـقّ ، فـعـوِّد نفسك ومَنْ معك الخير ، واستفتحْ به واعلَمْ أنَّ لكل عادة عَتَـادا ، فعتادُ الحربِ الصبرُ ، فالصبرَ على ما أصابَك أو نابَك ؛ يجتمعْ لك خشيةُ الله . واعلـم أن خشيةَ الله تجتمع فى أمرين : فى طاعتِه واجتنابِ معصيتِه ؛ وإنما أطاعهُ من أطاعـهُ ببغضِ الدنيا وحبِّ الآخرة ، وعصاهُ من عصاهُ بحب الدنيا وبغْضِ الآخرة ؛ وللقـلـوبِ حقَـائـقُ ينـشِئها الله إنشاء ؛ منها السِّرُّ ، ومنها العلانية ؛ فأما العلانية فأن يـكـونَ حـامـدُه وذامُّـه فى الحـقِّ سـواء ، وأمـا السر فيعرف بظهور الحكمةِ مِنْ قلبه على

* الطبرى ٤ / ١٠٢ .
فى أثناء فتح الجزيرة ارتحلت إياد بن نزار ، واقتحموا أرض الروم ، فكتب بذلك الوليد بن عقبة إلى عمر ، فكتب عمر هذا الكتاب إلى ملك الروم .

(١٠) المنابذة : أن يكون بينى فريقين متقاتلين عهد وهدنة ، ونبذ العهد معناه نقضه وفسخه وعودة الحال إلى ما كانت عليه من قتال وشجار .

* زهر الآداب ١ / ٧٢ .

* الطبرى ٣ / ٤٨٣ (أوصاه بها وهو يشيعه لقتال الفرس سنة ١٣)

لسانه ، وبمحبة الناس ؛ فلا تزهدْ فى التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتهم ، وإن الله إذا أحبَّ عبدا حبَّبهُ ؛ وإذا أبغض عبدا بغَّضه (١١) فاعتبر منزلَتَكَ عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ، ممن يشْرع معك فى أمرك (١٢) .

(٧) إلى سعد بن أبى وقاص وهو بشراف فى فارس *

« أما بعد : فسِرْ من شَرَاف نحو فارس بمن معك من المسلمين ، وتوكَّلْ على الله ، واستعِنْ به على أمرك كُلّه ، واعلم فيما لديك أنك تَقْدَمُ على أمّةٍ عَدَدُهم كثير ، وعُدَّتهم فاضِلة (١٣) ، و بأسُهم شديد ، وعلى بلد مَنيع ــ وإن كَان سهلا ــ كُئُودٍ (١٤) ، لبُحُوره وفُيُوضه ودَآدِئِه (١٥) إلا أن تُوافِقوا غَيْضاً من فَيْض (١٦) .

وإذا لِقيتم القومَ ، أو أحداً منهم فأبدءوهم الشدَّ والضربَ ، وإياكم والمناظرةَ لجموعهم ، ولا يخدَعُنّكم فإنهم خَدَعةٌ مَكَرة ، أمْرُهم غير أمركم ، إلا أن تجادُّوهم ، وإذا انتهيتَ إلى القادِسِيَّة ــ والقادسيةُ باب فارس فى الجاهلية ، وهى أجمع تلك الأبواب لمَادَّتهم ، ولما يريدونه من تلك الآصُل (١٧) ، وهو منزل رَغِيبٌ (١٨) ، خَصِيبٌ حَصِين ، دونه قناطِرُ ، وأنهارٌ ممتنعة ــ فتكون مَسَالِحُك (١٩) على أنْقابها (٢٠) ، و يكون الناس بين الحَجَر والمَدَر (٢١) ، على حَافَاتِ الحَجَر ، وحَافَاتِ المَدَر ، والجِرَاعُ (٢٢) بينهما ، ثم الزَمْ مكانَك فلا تَبْرَحْه ، فإنهم إذا أحَسُّوك أنْغَضْتَهم (٢٣) رَموك بجَمْعهم الذى يأتى على خَيْلهم ورَجْلهم ، وحَدِّهم وجدِّهم ، فإن أنتم

---

(١١) أى : أذا أحبَ الله عبدا فتح قلوب الناس له فأحبوه ، وإذا كره عبدا هيأ نفوس الناس لكراهيته .
(١٢) أى : أنك تستطيع أن تعرف مكانك عند الله ومدى حبه لك بمدى حب الناس لك واعتزازهم بك .

* الطبرى ٣/٤٩٠ .
(١٣) زائدة . والفضل هو الزيادة .
(١٤) صعب .
(١٥) الدآدئ : جمع دأداء وهو الفضاء المتسع الشاسع .
(١٦) الغيض : القليل . والفيض : الكثير . . و يقصد : إلا إذا لقيتم من هذه العقبات القليل .
(١٧) الآصل : جمع أصل .
(١٨) رغيب : مطلوب محبوب .
(١٩) المسالح : جمع مسلحة وهى الجماعة المسلحة .
(٢٠) الأنقاب : جمع نقب وهو الطريق بين الجبلين .
(٢١) المدر : المدن والحاضرة .
(٢٢) الجراع : جمع جَرعة وهى الرملة الطيبة المنبت .
(٢٣) أنغضتهم : حركتهم وأثرتهم .

صَبَرْتم لعدوكم ، واحتسبتم ، لقتاله ، ونو يتم الأمانة ، رجوتُ أن تُنصروا عليهم ، ثم لايَجتمع لكم مثلهم أبداً ، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبُهم ، وإن تكن الأخرى كان الحجَر فى أدباركم ، فانصرفتم من أدنى مَدَرةٍ من أرضهم ، إلى أدْنَى حَجَر من أرضكم ، ثم كنتم عليها أجْرأ ، وبها أعْلَمَ ، وكانوا عنها أجْبَنَ ، وبها أجْهَلَ ، حتى يأتى الله بالفتح عليهم ، ويردَّ لكم الكَرَّة » .

وكتب إليه أيضاً باليوم الذى يرتحل فيه من شَرَاف .

« فإذا كان يوم كذا وكذا ، فارتحل بالناس حتى تنزلَ فيا بين عُذَيْب الهِجَانات ، وعُذَيب القَوادِس ، وشَرِّق بالناس ، وغرِّب بهم » .

(٨) إلى سعد بن أبى وقاص *

أمَّا بعد : فإنى آمرُكَ وَمَنْ مَعَك من الأجناد بتقوى الله عَلَى كلّ حال ، فإن تقوى الله أفضل العُدّة على العدوّ ، وأقوى المكيدةِ في الحرب ، وآمُرُك ومن مَعَكَ أن تكونُوا أشدَّ احتراساً من المعاصِي منكم من عدُوِّكم ، فإن ذنوبَ الجيش أخوفُ عليهم من عدوّهم ، وإنما يُنصر المسلمون بمعصيةِ عدوِّهم لله ؛ ولولا ذلك لم تكنْ لنا بهم قوة ، لأن عدَدَنا ليس كعددهم ، ولا عُدّتنا كعُدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوّة ، وإلاّ ننْصَر عليهم بفضلنا ، لم نغلبهم بقوتنا ، واعلَمُوا أن عليكم في سَيْرِكُم حَفَظَةً من اللهِ يعلمون ما تفعلون ، فاستحْيوُا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدوَّنا شر منا فلن يُسَلَّط علينا وإن أسأنا ، فرُبَّ قومٍ سُلّط عليهم شر منهم ، كما سُلّطِ على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرةُ المجوس (فَجَاسُوا خلاَلَ الديّار وَكاَنَ وعْداً مَفْعُولاً) (٢٤) واسألوا الله العونَ على أنفسِكُم ، كَما تسألونَه النصَر على عدوِّكم ، أسألُ الله ذلك لنا ولكم .

وترفَّقْ بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تجشِّمهم (٢٥) مسيراً يتعبهم ، ولا تُقصر بهم (٢٦) عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوَّهم والسفَرُ لم ينقص قوّتهم فإنهم سائرون

---

* العقد الفريد ١/١٥٣ . ونهاية الأرب ٦/١٦٨ .

(٢٤) الأسراء الآية ٥ .

(٢٥) تكلفهم .

(٢٦) تحرمهم .

إلى عدوّ مقيم جامّ (٢٧) الأنفس والكُراع (٢٨) ، وأقم بمن معك في كلّ جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة يُجمّون (٢٩) فيها أنفسهم و يَرُمُّون (٣٠) أسلحتهم وأمتعتهم ، وَنَحّ (٣١) منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلاّ من تثق بدينه ، ولا ترزأ أحداً من أهلها شيئا (٣٢) ، فإن لهم حرمة وذمةً ابتُليتم (٣٣) بالوفاء بها كما ابتُلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لكم فَفُوا لهم ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح (٣٤) .

وإذا وَطِئْتَ أدنى أرضِ العدوّ فأذْكِ (٣٥) العيون بينك و بينهم ولا يخفَ عليك أمْرُهم . وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفُعك خبرُه وإن صَدَقَ في بعضه ، والغاشّ عينٌ عليك وليس عيناً لك . وليكنْ منك عند دنوّك (٣٦) من أرض العدوّ أن تكثر الطلائع وتبثّ السّرايا بينك و بينهم ، فتقطَع السرايا أمدادَهم ومرافِقَهم ، وتتبع الطلائع عَوْراتِهم ، وانتقِ للطلائع أهل الرأي والبأس (٣٧) من أصحابك ، وتخيّر لهم سوابقَ الخيل ، فإن لَقُوا عدوًّا كان أول ما تلقاهم القوّة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهلِ الجهاد ، والصبرِ على الجِلاد ، ولا تخصَّ بها أحداً بهوى ، فيضيعَ من رأيك وأمرك أكثر مما حابيتَ به أهلَ خاصّتك ، ولا تبعثْ طليعة ولا سر يةَ في وجهٍ تتخوّفُ فيه ضيعةً ونكاية . فإذا عاينْتَ العدوَّ فاضمُمْ إليك أقاصيَك وطلائعَكَ وسراياك ، واجمع إليك مكيدتَك وقوّتَك ، ثم لا تعاجِلْهم المناجزةَ مالم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوّك ومقاتله (٣٨) ، وتعرفَ الأرضَ كلَّها كمعرفة أهلها فتصنعَ بعدوِّك كصنيعهِ بك ، ثم

---

(٢٧) مستريح .
(٢٨) الخيل .
(٢٩) يريحون .
(٣٠) يصلحون .
(٣١) أبعد .
(٣٢) أي لاتصبهم فى أموالهم ولاتأخذ شيئا مما يملكون .
(٣٣) اختبرتم .
(٣٤) أي لاتظلموا أهل القرى ممن وضع عنكم السلاح اعتقادا منكم أن ذلك خطوة الى النصر .
(٣٥) انشرو بثّ .
(٣٦) اقترابك .
(٣٧) القوة .
(٣٨) نقاط ضعفه التى يمكن أن يؤتى منها .

أذكِ أحراسَكَ على عسكرك ، وتحفَّظ من البيّات [٣٩] جهدك ، ولا تُؤْتى بأسير ليس له عهدٌ إلا ضربتَ عنقهُ لتُرهبَ بذلك عدوَّكَ وعدوَّ الله .

والله ولى أمرّكَ ومَنْ مَعَك ، وولى النصر لكم على عدوِّكم . والله المستعان .

(٩) إلى سعد بن أبى وقاص *

أما بعدُ : فتعاهدْ قلبَكَ ، وحادثْ جنْدَك بالموعظةِ والنيةِ والحسْبة [٤٠] ، ومن غفل فليحْدِثْهمُا ، والصبرَ الصبرَ ، فإن المعونةَ تأتى من الله على قدرِ النيّة ، والأجرَ على قدر الحسْبَةِ .

والحذرَ الحذَرَ على مَنْ أنتَ عليه ، وماأنتَ بسبيله ، واسألُوا الله العافيةَ ، وأكثِرُوا من قول « **لا حولَ ولا قوة إلا بالله** » .

واكتبْ إلىّ : أينَ بلغَكَ جمعُهُمْ ؟ ومَنْ رأسُهمُ الذى يَلى مُصادَمتكم [٤١] ؟ فإنّه قدْ مَنَعَنى مِنْ بعضِ ماأردتُ الكتابَ به قلةُ علمى بماهجُمتُم عليه [٤٢] ، والذى استقرَّ عليه أمرُ عدوِّكم ، فصفْ لنا منازلَ المسلمين ، والبلدَ الذى بينكم و بينَ المدائن صفة كأنى أنظرُ إليها ، واجعلنى من أمركم على الجَلِيَّةِ [٤٣] ، وخَف اللهَ وارْجُه ، ولاتُدِلَّ بشْىء [٤٤] .

واعلمْ أنَّ الله قد وَعَدَكُم ، وتوكَّل لهذا الأمربما لا خُلْفَ له ، فاحذَرْ أن تصْرِفَه عنك [٤٥] ، و يستَبْدِلَ بكَم غيرَكم [٤٦] .

---

(٣٩) البيات : الهجوم الغادر المفاجىء .

* الطبرى ٣/٤٩١.

(٤٠) الحسبة : أى اعتبار العمل مقصودا به وجه الله تعالى .

(٤١) أى : من قائد الأعداء الذى سيتولى حربكم ؟ .

(٢.) يعنى أنه لم يستطع ان يكتب إليه بكل مايريد من توجيهات لقلة علمه بالأرض التى نزلها سعد والجيوش التى يواجهها .

(٤٣) على البينة والقطع الذى لا يحتمل الشك .

(٤٤) أدلّ بفلان و بالشىء أى وثق به . و يقصد عمر بهذا النهى أن يكون سعد يقظا حذرا دائما .

(٤٥) أى أن الله قد تعهد بنصركم فى مثل قوله « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » وهو لا يخلف وعده ، ولكن احذر أن يتخلف عنكم النصر بمعصيتكم لله ..

(٤٦) يقول تعالى « **وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** » محمد ٣٨ .

(١٠) رد على كتاب لسعد *

قد جاءنى كتابُكَ وفهمتُه ، فأَقِمْ بمكانِك حتى يُنْفِضَ (٤٧) اللهُ لكَ عدوَّك ، واعلمْ أنّ لها مابعدَها ، فإن منَحَكَ الله أدبارهم (٤٨) فلا تَنْزع عنهم (٤٩) حتى تقتحِم عليهم المدائن ، فإنَّه خرابُها إنْ شاءَ الله .

(١١) إلى سعد بن أبى وقاص *

إنى قد أُلْقِى فى رُوعى (٥٠) أنكم إذا لقيتم العدوَّ هزتُموهم ، فاطّرِحَوا الشكَّ ، وآثروا التقيةَ(٥١) عليه ، فإنْ لاعب أحدٌ منك أحداً من العجم بأمان ، أوقرفَه (٥٢) بإشارة ، أوبلسان كان لايدرى الأعجمىُّ ماكلمه به ، وكانَ عندهمْ أماناً ، فأجرُوا ذلك له مَجْرَى الأمان .

وإياكم والضَّحكَ ، والوفاء الوفاء ، فإن الخطأ بالوفاء بقية ، وإن الخطأ بالغَدْر الهلكة(٥٣) ، وفيها وهْنُكم(٥٤) ، وقوة عدوكم ، وذهاب ريحكم (٥٥) ، وإقبالُ ريحهم واعلموا أنى أحذِّركم أن تكونُوا شيْناً(٥٦) على المسلمين ، وسبَباً لتوهينِهم .

---

* الطبرى ٣/٤٩٢ .
أرسله إليه بعد أن كتب إليه سعد يصف القادسية والأرض وماعليه العدو بقيادة رستم .
(٤٧) نفض وأنفض : حرّك . أى لاتبدأ العدو بقتال حتى يحركه الله لحربك .
(٤٨) أى نصرك الله عليهم
(٤٩) لاتتوقف ولاتكف .

* الطبرى ٣/٤٩٢ .
(٥٠) الروع : بضم الراء : القلب .
(٥١) التقية : الحذر.
(٥٢) قرفه : داناه وقاربه .
(٥٣) الخطأ بالوفاء : أخذ النفس بما وعد المسلم غيره من الأعداء بكلمة أو إشارة يفهم منها الأمان وان لم يقصده المسلم ، وفى ذلك حياة واستقرار بعكس الغدر.
(٥٤) الوهن : الضعف .
(٥٥) ذهاب الريح : كناية عن الضعف وهلاك القوة ، وعكس ذلك إقبال الريح .
(٥٦) الشين : ضد الزين ، وهو كل مايعيب و يسىء .

(١٢) رد على كتاب لسعد *

لا يكرُبَنَّك (٥٧) ما يأتيكَ عنْهُم ، ولا ما يأتُونَك به واستعنْ بالله ، وتوكلْ عليه ، وابعثْ إليه رجالاً من أهل المَنْظَرَةِ (٥٨) والرأي والجَلَد (٥٩) يَدْعُونَه ، فإنَّ الله جاعلٌ دعاءهم توْهيناً لهم (٦٠) ، وفلجًا (٦١) عليهم ، واكتبْ إليّ في كلِّ يوم .

(١٣) رد على كتاب لسعد *

تعمِدُ إلى مثل مثل زُهْرَةَ ، وقد صَلِيَ بمثلِ ما صَلِيَ (٦٢) به ، وقد بقيَ عليكَ مِنْ حَرْبكِ ما بقِيَ ، تكسِرُ قَرْنَه ، وتفْسِدُ قلْبَه (٦٣) !! امضِ لهُ سَلَبَه وفضِّلْه على أصحابِه عند العطاء بخمسمائة .

(١٤) رد على كتاب لسعد *

وكتب إلى سعد حين افتتح العراق أما بعد : فقد بلغنى كتابُك تذكرُ أن الناسَ سألوك أن تقسمَ بينهم مغانمهم ، وما أفاء الله عليهم . فإذا أتاكَ كتابى هذا فانظرْ ما أجلبَ الناسُ عليكَ به إلى العسكر من كُرَاعٍ (٦٤) ومال ، فاقسمه بين من حضر

---

* الطبرى ٣/ ٤٩٤ .

وهو رد على كتاب من سعد يخبره فيه أن الملك قد ولى رستم قيادة جيوش الفرس لمحاربة المسلمين .

(٥٧) الكرب والكُربة : الغم الذى يأخذ بالنفس . وكربه الأمر: اشتد عليه .

(٥٨) أى:ذوى الفخامة والهيبة التى تعجب الآخرين وتروعهم .

(٥٩) الجلد والجلادة : القوة والصلابة .

(٦٠) إضعافالهم .

(٦١) نصرا وظفرا للمسلمين عليهم .

* الطبرى ٣/ ٥٣٠ .

وكان أحد جنود المسلمين واسمه زُهرة بن الحَويَّة قد قتل فى القادسية الجالينوس ـ أحد رءوس الفرس ـ وجاء بسلبه إلى سعد فنفّله إياه . وكأنما قد تحرج مما فعل مستكثرا هذا النفل فكتب إلى عمر بذلك . فجاءه هذا الرد من عمر .

(٦٢) صَلِى بالنار وَصَلِيها واصطلى بها وتصلاها : قاسى حرها . و يقصد عمر أن زهرة جدير بما نفل بعد أن قاسى من شدة الحرب ماقاسى .

(٦٣) كسر القرن وإفساد القلب : كناية عن إحزانه وكبته .

* الخراج ٦٨

كراع : خيل

(٦٤) أى:تظل ملكية الأرض لأصحابها من أهل الأرض المفتوحة ولاتقسم على الفاتحين من المسلمين ليكون مايضرب عليها جزءا من دخل الدولة الإسلامية .

مـن المسـلـمين واتـرك الأرضين والأنهار لعمالها ، ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين ؛ فإنَّـك إن قسمتها بين من حضَرَ لم يكنْ لمن بعدهم شىء ، فقد كنتُ أمرتُك أن تدعُو مـن لقيت إلى الإسلامِ قبل القتال ، فمن أجاب إلى ذلك فهو من المسلمين لهم مالهم ، وعـليهـم مـاعـليهـم ، ولهـم سهمٌ فى الإسلام ، ومن أجاب بعد القتال و بعد الهزيمة فهو رجلٌ مـن المسلمين ، ومالُه لأهل الإسلام ، لأنهم أحرزوه قبل الإسلام . فهذا أمرى وعهدى إليك .

(١٥) إلى سعد فى أمر السواد وأهله *

أمـا بـعـد : فإن اللهَ جلَّ وعَلاَ أنزلَ فى كلِّ شىءٍ رخصة فى بعض الحالات إلا فى أمـريـن : الـعـدلِ فى الـسـيـرة والذّكر ، فأما الذكرُ فلا رخصةَ فيه فى حالة (٦٥) ، ولم يرضَ منه إلا بالكثير (٦٦) ، وأما العدلُ فلا رخصة فيه فى قريب ولا بعيد ، ولا فى شدة ولا رخـاء . والـعـدلُ ــ وإن رؤى لـيِّـنـا ــ فـهـو أقوى وأطفأُ للجور ، وأقمعُ للباطل منَ الجـور ، وإن رُئـى شـديدا فهو أنكشُ (٦٧) للكفر ، فمن تمَّ على عهدِه من أهل السواد ، ولم يُـعِـنْ عليكم بشىء ، فلهم الذمة ، وعليهم الجزية ، وأما من ادعى أنه استكْرِه ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهبُ فى الأرض ، فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاءوا وإن لم تشاءوا فانبذْ إليهم (٦٨) ، وأبلغُوهُم مَأمنَهم .

(١٦) إلى سعد فى شأن السواد *

أمَّـا مـن أقـامَ ولم يَـجْـلُ (٦٩) ، ولـيـس له عهد فلهم مالأهلِ العهد بمقامهم لكـم وكفِّهم عنكم إجابة ، وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك ، وكلٌ من ادعى ذلك فصُدِّق

---

* الطبرى ٣/ ٥٨٥ (سنة ١٤ هـ)

(٦٥) فالمسلم مطالب بذكر الله فى كل حال استجابة لقوله تعالى : « **فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم** » النساء ١٠٣ .

(٦٦) إشارة إلى قوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا** » الأحزاب ٤١ .

(٦٧) نكش الشىء نكشا : فرغ منه : ونكش البئر : نزفها . والعدل أنكش للكفر ؛ أى أنسب الوسائل للقضاء عليه .

(٦٨) انبذ إليهم : اطرح عهدهم عملا بقوله تعالى « وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » الأنفال : ٥٨ .

* الطبرى ٣/ ٥٨٦ (سنة ١٤ هـ)

(٦٩) لم يجلُ : لم يخرج .

فلهم الذمّة ، وإنْ كذّبوا نُبذَ إليهم (٧٠) ، وأما من أعانَ وجَلاَ ؛ فذلك أمر جعله اللهُ لكم ؛ فإن شئتم فادعُوهم إلى أن يُقيموا لكم فى أرضهم ، ولهم الذمَّة ، وعليهم الجزية ؛ وإن كرهوا ذلك ، فاقسِمُوا ما آفاء الله عليكم منهم .

(١٧) إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء *

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدِ الله أميرِ المؤمنين إلى عبد الله بن قيس . سلامٌ عليك ، أما بعد : فإنّ القضاء فَريضةٌ محكمةٌ ، وسنةٌ متَّبَعة ، فافهم إذا أُدْلي إليك (٧١) ، وأنفذْ إذا تبيّن لك (٧٢) ، فإنه لا ينفع تكَلّمٌ بحق لانفاذَ له . آسِ (٧٣) بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمعَ شريفٌ في حَيْفِك (٧٤) ، ولا ييْأس ضَعيف من عدلك ، البيّنةُ على من ادّعى (٧٥) ، واليمينُ على من أنكر ، والصلحُ جائزٌ بين الناسِ إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حرّمَ حلالاً ، ولا يمنعنّك قضاء قضيتَه بالأمسِ فراجعتَ فيه نفسَكَ وهدُيتَ لرشدِك (٧٦) أن ترجعَ إلى الحقّ ، فإن الحقَّ قديمٌ لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خيرٌ من التمادي في الباطل ، الفهمَ الفهم فيما تلجْلَج (٧٧) في صدرك مما ليس في كتاب ولا في سنة ، واعرفِ الأشباهَ والأمثالَ ثم قِسِ الأمورَ عند ذلك ، واعمدْ إلى أحبِّها إلى اللهِ وأشبهها بالحقّ فيما ترى ، واجعلْ لمن ادّعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه ، فإنْ أحضر بينةً أخذْتَ له بحقه ، وإلا استحللتَ عليه القضاء (٧٨) ، فإن ذلك أنفى للشك ، وأجلى للعَمَى ، وأبلغُ في العُذْر ، والمسلمون عدول في

---

(٧٠) نُبذ إليهم : طرح عهدهم .

* البيان والتبين ٢/ ٢٣ .

(٧١) إذا رفع إليك أمر.

(٧٢) احكم فى المسألة الحكم النافذ .

(٧٣) آس : سوِّ.

(٧٤) الحيف : الظلم .

(٧٥) البينة على من أدعى : أى أن عبء الإثبات يقع على من يدعى حقا قبل غيره .

(٧٦) هديت لرشدك : أى إذا تبين لك وجه الصواب .

(٧٧) تلجلج : تردد .

(٧٨)« واجعل لمن .. » أى امنح مهلة لمن يدعى حقا غير حاضر أو دليلا لا يملكه وقت نظر دعواه . امنحه مهلة محددة يثبت فيها حقه أو يقدم دليله .

الشهادةِ بعضُهم على بعض ، إلاّ مجلوداً في حد ، أو مجرَّباً عليه شهادة زُور ، أو ظَنيناً (٧٩) في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودَرَأَ (٨٠) عنكم الشبهات ، وإياكَ والقلقَ والضجرَ والتأذيَ بالناس والتنكرَ للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجرَ ويحسنُ الذخر ، فإنه من يُخلص نيتَهُ فيما بينه و بين الله ــ تباركَ وتعالى ــ ولو على نفسه يكفِهِ الله ما بينه و بين الناس ، ومن تز ين للناس بما يعلم الله خلافه منه شانَه الله (٨١) وهَتَكَ سِترَهَ (٨٢) وأبدى فِعله ، فما ظنّك بثواب غير الله ــ عزوجل ــ فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام .

(١٨) وإلى أبى موسى الأشعرى أيضا *

أما بعد : فإن للناسِ نفرةً عن سلطانِهم (٨٣) ، فأعوذُ باللهِ أن تدركَني وإياك عمياء مجهولة (٨٤) ، وضغائنُ محمولة ، وأهواء مُتَّبَعة ، ودنيا مؤْثَرة (٨٥) ، فأقم الحدودَ ولو ساعة من نهار ، وإذا عرضَ لك أمران أحدهما للهِ والآخرُ للدنيا فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا ، فإن الدنيا تَنْفَد والآخرة تبقى ، وكن من خشية الله على وجَلَ (٨٦) ، وأخِف الفساق واجعلهم يداً يداً ورجلاً رجلاً ، (٨٧) ، وإذا كانت بين القبائل نائرة (٨٨) وتداعوا : يال فلان (٨٩) فإنما تلك نجوى الشيطان فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا (٩٠) إلى أمر الله وتكونَ دعواهم إلى الله وإلى الإمام ، وقد بلغ

---

(٧٩) الظنين : المتهم . والظنّة : التهمة .

(٨٠) درأ : دفع .

(٨١) شانه : عابه .

(٨٢) هتك ستره : فضحه .

* البيان والتبين ٢/١٥٥ .

(٨٣) أى : أن السلطان لايدوم .

(٨٤) العمياء المجهولة : أى الضلالة التى تصرف عن الحق أوالقضية المحيرة التى يعجز القاضى أمامها .

(٨٥) من حديث طو يل للنبى ــ عليه السلام ــ « حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك » .

(٨٦) الخوف .

(٨٧) أى : فرقهم .

(٨٨) فتنة هائجة .

(٨٩) وهو ماسماه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بدعوى الجاهلية .

(٩٠) يفيئوا : يعودوا .

أميـرَ المؤمنين أن ضبة تدعو: يال ضبة ، وإني والله ما أعلم أن ضبةَ ساق الله بها خيرا قـطّ ولا منـع بهـا مـن سوء قط ، فإذا جاءك كتابي هذا فانْهكهم عقوبة حتى يَفْرَقوا (٩١) إن لم يـفقهوا ، وألصق بغَيلان بن خَرَشَةَ من بينهم ، وعُدْ مرضى المسلمين واشهد جنائزهم ، وافتح بابك و باشر أمرهم بنفسك ، فإنما أنت رجلٌ منهم غير أن الله جعلك أثـقلَـهـم حـملاً ، وقـد بلغني أنه فشالك (٩٢) ولأهل بيتك هيئةٌ في لباسِك ومطعمِك ومـركـبـك لـيس للمسلمين مثلها ، فإيّاك ياعبدالله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرّت بـواد خـصـيـب فـلـم يـكن لها همٌّ إلا السّمَن وإنما حتفها (٩٣) في السمن . واعلم أن للعـامـل مَرَدّاً إلى الله ، فإذا زاغ (٩٤) زاغت رعيته ، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته ، والسلام .

(١٩) وإلى أبي موسى الأشعري بالبصرة *

« بـلـغـنـي أنـك تأذَنُ للناس الجَمّاء الغَفِيرَ (٩٥) ، فإذا جاءك كتابي هذا فأْذَن لأهـل الـشَّـرَف ، وأهـل القرآن والتقوى والدين ، فإذا أخذوا مجالِسَهم فأْذَنْ للعامة ، ولا تـؤخِّـرْ عمل اليوم لغد ، فَتَتَدَاكُّ (٩٦) عليك لأعمالُ فتَضِيعَ ، وإياك واتباعَ الْهَوَى ، فـإن لـلـنـاس أهـواء مُـتَّـبَـعـة ، ودُنْيا مُؤْثَرة (٩٧) ، وضغائن محمولة وحاسب نفسك فى الرّخاء قبل حساب الشدة ، فإنه من حاسب نفسَه فى الرّخاء قبل حساب الشدةِ كان مَـرْجـعُـه إلى الرضا والغِبْطة ، ومن ألْهَتْهُ حياتُه ، وشَغَلَتْهُ أهواؤه ، عاد أمره إلى الندامة

(٩١) يخافوا .
(٩٢) فشا : ظهر.
(٩٣) موتها .
(٩٤) زاغ : ضل .

* شرح ابن أبي الحديد ٤/٥١٢ .
(٩٥) أى الكثيرين المتراحمين .
(٩٦) تتزاحم .
(٩٧) يفضلونها على غيرها من العمل الصالح .

والحسْرة ، إنه لايقيمُ أمْرَ الله فى الناس إلا حَصِيفُ العُقْدَة (٩٨) ، بعيدُ القَرارة (٩٩) ، لا يَخْنِقُ على جِرَّة (١٠٠) ، ولا يطَّلِعُ الناسُ منه على عَوْرة ، ولا يخافُ فى الحقِّ لَوْمَةَ لائم .

الزَم أربع خِصال (١٠١) يسْلمْ لك دينُك ، وتَحْظَ بأفضل حظّك : إذا حضر الخَصْمان فعليك بالبينات العُدُول ، أو الأيمانِ القاطِعة ، ثم أَدْنْ للضعيف حتى ينبسط لسانُهُ ويجترىء قلبه ، وتعاهَدِ الغريبَ فإنَّه إذا طالَ حبسُه تَرَكَ حاجتَه وانصرفَ إلى أهله ، واحرِصْ على الصلح مالم يَبِنْ لك القضاء » .

(٢٠) وإلى أبى موسى الأشعرى *

« إنه لم يزل للناس وُجُوهٌ (١٠٢) يرفعون حوائجهم ، فأكرِمْ مَن قِبَلَك من وجوه الناس ، وبِحَسْبِ المسلم الضعيفِ من العدل أنْ يُنْصَف فى الحُكْم وفى القَسْم » (١٠٣) .

(٢١) إلى أبى موسى الأشعرى *

أما بعد : فإن أسعدَ الرعاة عند الله من سَعِدتْ به رعيتُه ، وإن أشقَى الرعاة عندَ اللهِ من شَقِيتْ به رعيتُه . وإياكَ أن تَزيغَ (١٠٤) فتزيغَ عمالُك ، فيكون مَثَلُك عند الله مثلَ البهيمة نَظَرَتْ إلى خُضْرَة من الأرض فرتَعَت (١٠٥) فيها تبتغى بذلك السِّمَن ، وإنما حتفُها (١٠٦) فى سِمَنِها ، والسلام .

---

(٩٨) أى حكيم العقل .
(٩٩) يعنى بعيد التفكير .
(١٠٠) أى:لايضمر الحقد على أحد .
(١٠١) الخصال : جمع خصلة وهى الصفة والخليقة .

* الطبرى ٤/١٤٦
(١٠٢) وجوه الناس : عظماؤهم وكبراؤهم .
(١٠٣) القسم : القسمة ، و يقصد به تقسيم العطاء وماشابهه .

* الخراج ٥٠ .
(١٠٤) تزيغ : تنحرف عن الحق والدين .
(١٠٥) رتعت : أكلت كما تشاء .
(١٠٦) الحتف : الموت .

(٢٢) إلى حرقوص بن زهير *

« بلغني أنك نزلت منزلا كَئُوداً ، لا تُؤْتَى فيه إلا على مشَقَّة ، فأَسْهِلْ (١٠٧) ، ولا تشُقَّ على مُسْلِم ، ولا معُاهَد ، وقُمْ في أمرك على رِجْل (١٠٨) تُدرِكِ الآخرة ، وتَصْفُ لك الدنيا ، ولا تُدرِكَنَّك فَتْرة (١٠٩) ، ولا عَجَلَة ، فتُكَدِّرَ دنياك ، وتُذْهِبَ آخِرتك .

(٢٣) إلى النعمان بن مُقرّن *

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العنمان بن مقرن ، سلام عليك ، فإنى أَحَمدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنه قد بلغنى أن جموعا من الأعاجم كثيرة قد جَمَعوا لكم بمدينةِ نَهاوند ، فإذا أتاكَ كتابى هذا ، فسِرْ بأمر الله ، و بعَوْنِ الله ، و بنصر الله بمن معك من المسلمين ، ولا تُوطِئْهم وَعْراً فَتُؤْذيَهم (١١٠) ، ولا تَمْنَعْهم حقَّهم فتُكفرهُم ، ولا تُدْخِلَنَّهم غَيْضَةً (١١١) ، فإن رجلا من المسلمين أحبُّ إلىَّ من مائة ألف دينار ، والسلام عليك » .

---

* الطبرى ٤ / ٧٨

كان حرقوص بن زهير السَّعدى قد افتتح سوق الأهواز ، وانهزم الهرمزان وتوجه إلى رامَهرْمز ، ثم طلب الصلح فأجيب اليه . و بلغ عمر أن حرقوصا نزل جبل الأهواز والناس يقصدونه ويختلفون إليه ، والجبل وعر كئود يشق على من أراده ، فكتب عمر إليه هذا الكتاب .

(١٠٧) أسهل : انزل السهل .

(١٠٨) قم فى أمرك على رجْل : أى كن حذرا على خوف من فوت ماتحرص عليه والرجل هى الخوف والفزع من فوت الشيء (لسان العرب) .

(١٠٩) أى ضعف ووهن .

* الطبرى ٤ / ١٤ .

(١١٠) أى لاتنزلهم الوعر المعقد من الأرض فيؤدى ذلك إلى إيذائهم .

(١١١) جاء فى لسان العرب : « وفى حديث عمر : لا تنزلوا المسلمين الغياض » الغياض جمع غيضة وهى الشجر الملتف ؛ لأنهم إذا نزلوها تفرقوا فيها فتمكن منهم العدو.

(٢٤) وإلى النعمان بن مقرن *

« إنى قَدْ وَلَّيتك حَرْبَهم ، فسِرْ من وجهك ذلك ، حتى تأتِىَ « ماةَ » فإنى قد كتبتُ إلى أهل الكوفة أن يؤافُوك بها ، فإذا اجتمع لك جنودُك فسِرْ إلى الفَيْرُزان ، ومن تجمَّع إليه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم ، واستنصِرُوا الله ، وأكْثِروا من قول : لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله » .

(٢٥) وإلى النعمان بن مقرن *

« إن معك حَدَّ العرب ورجالهم فى الجاهلية فأدْخِلْهم دون من هم دونَهُم فى العلم بالحرب ، واستعِنْ بهم ، وَاشْرَبْ (١١٢) برأيهم ، وسَلْ طُلَيْحة وعَمراً وعَمراً (١١٣) ، ولا تولِّهم شيئاً » .

(٢٦) إلى عبد الله بن عبدالله بن عتبان *

« أنِ اسْتنْفِرْ من أهلِ الكوفةِ مع النعمانِ كذا وكذا ، فإنى قد كتبتُ إليه بالتوجُّهِ من الأهوازِ إلى « ماه » فلْيُوافُوه بها ، ولْيَسِرْ بهم إلى نهاوند ، وقد أمرّتُ عليهم حُذَيْفَة بن اليمان ، حتى ينتهِىَ إلى النعمانِ بن مقرِّن ، وقد كتبتُ إلى النعمان إنْ حَدَثَ بك حَدَث فعلى الناس حُذيفةُ بن اليمان ، فإن حَدَث بحذيفة حَدَث فعلى الناس نُعَيْم بن مُقَرِّن » .

---

* الطبرى ٤ / ١١٤ .

* الطبرى ٤ / ١٠٣ .
جاءه هذا الكتاب حينما قدم عليه أهل الكوفة بالطرز.

(١١٢) أى: استشرهم وتقوَّ برأيهم .

(١١٣) هم طليحة بن خويلد الأسدى ، وعمرو بن أبى سلمى العنزى ، وعمرو بن معديكرب الزبيدى ، وقد بعث بهم النعمان طليعة من الطَّرز ليكشفوا له الطريق إلى نهاوند ، ونجح منهم فى ذلك طليحة ، فأتى النعمان وأعلمه أن ليس بينه و بين نهاوند شىء يكرهه . [وانظر جمهرة رسائل العرب ١ / ٢٦٩] .

* الطبرى ٤ / ١١٦ .

(٢٧) إلى أبى عبيدة بن الجراح *

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة بن الجراح ، سلامٌ عليك ، فإنى أحمدُ إليكَ الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد : فإنَّ أبا بكر الصديق خليفة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد توفى ، فإنا للهِ وإنا إليه راجعون ، ورحمة الله و بركاته على أبى بكر الصديق القائل بالحقِّ ، والآمرِ بالقسْط (١١٤) ، والآخذ بالعرف ، والبرِّ الشيم (١١٥) ، السط القريب الحكيم ، نحتسبُ مصيبتنا فيه ومصيبة المسلمين عامة عند الله تعالى ، وإنا نرغب إلى الله فى العصمة برحمته من كلِ معصية ، ونسألُه العمَلَ بطاعته ما أحيانا ، والحلولَ فى جنتِه إذا توفَّانا ، إنَّه على كلِّ شيء قدير .

وقد بلغَنَا حصارَكم لأهل دمشق ، وقد وليتُك جماعةَ المسلمين ، فبث سراياك فى نواحى أهل حمص ودمشق وماسواها من أرض الشام ، وانظرْ فى ذلك برأيك ، ومن حضرَكَ من المسلمين ، ولا يحملنَّكَ قولى هذا على أنِ تغرىَ عسكَركَ فيطمعَ فيك عدوّكَ ، ولكنْ مَن استغنيتَّ عنه فسّيرْه ، ومن احتجت إليه فى حصارك فاحتبسه ، وليكنْ فيمن يحبسُ خالد بن الوليد ، فإنه لاغنَى بك عنه ، والسلام عليك ورحمة الله .

(٢٨) إلى أبى عبيدة بن الجراح بعد عزل خالد *

أوصيكَ بتقوى اللهِ الذى يبقى و يفنَى ماسواه ، الذى هدانا من الضَّلالةِ ، وأخرجنا من الظلماتِ إلى النور .

وقد استعملتُك على جندِ خالد بن الوليد ، فقمْ بأمرهم الذى يحقُّ عليك ، لاتقدّمْ المسلمين إلى هَلكَة رجاء غنيمة ، ولا تنزلْهم منزلاً قبلَ أن تستريده لهم (١١٦) ، وتعلمَ

* فتوح الشام ٩٨ وانظر جمهرة رسائل العرب ١٥٧ .

(١١٤) القسط : العدل .

(١١٥) الشيم : جمع شيمة وهى الخلق .

* تاريخ الطبرى ٣/ ٤٤٠.

(١١٦) تستريده لهم يقصد تختبره لتعرف مدى صلاحه لنزولهم .

كيف مأتاه ، ولاتبعث سرية إلا فى كَثْف (١١٧) من الناس وإياكَ وإلقاء المسلمين فى الهَلكَة ، وقد أبلاكَ اللهُ بى ، وأبلانى بك (١١٨) فغمِّضْ بصَرك عن الدنيا ، وألْهِ قلبك عنها ، وإياكَ أن تهلِكَكَ كما أهلكتْ منْ كان قبلكَ ، فقد رأيتَ مصارعَهم .

(٢٩) إلى أبى عبيدة بن الجراح *

كتب عمر إلى أبى عبيدة يطلب منه :

« أن يقيم خالداً و يَعْقِله بعمامته ، و ينزِعَ عنه قَلَنْسُوته ، حتى يُعْلِمَهم من أين إجازة الأشعث : أمِنْ مالِهِ أم من إصابةٍ أصابها ؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها ، فقد أقرَّ بخيانة ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف ، واعزله على كل حال ، وأضْمم إليك عَملَه » .

فكتب أبو عبيدة إلى خالد ، فقدم عليه ثم جمع الناس ، فقام البريد فقال : يا خالد ، أمِن مالك أجزْتَ بعشرة آلاف أم من إصابة ؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه ، وأبو عبيدة ساكت لايقول شيئاً ، فقام بلال إليه ، فقال : إن أمير المؤمنين أمَرَ فيك بكذا وكذا ، ثم تناول قلنسوته فَعَقَلَه بعمامته ، وقال ماتقول : أمِنْ مالك أم من إصابة ؟ قال : لا ، بل من مالى ، فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عمَّمه بيده ، ثم قال : نسمع ونطيع لوُلاتنا ، ونفخِّم ، ونخدُمُ مواليَنا »

(١١٧) الكثف : الجماعة .

(١١٨) الإبلاء والابتلاء : الامتحان والاختبار .

* الطبرى ٤ / ٦٧ .

وسبب هذا الكتاب أن خالد بن الوليد زادت ثروته من الغنائم بعد فتح قنسرين (سنة ١٧ هـ) فقصده كثير من الناس فأجاز الأشعث بن قيس بعشرة آلاف فبلغ ذلك عمر .

(٣٠) رد على كتاب لأبى عبيدة بن الجراح *

أما بعدُ : فقد بلغنى كتابُك تأمرنى فيه بحمدِ الله على ما أفاء علينا من الأرضِ ، وفتح علينا من القِلاع ، ومكّن لنا فى البلادِ ، وصنعَ لنا ولكم ، وأبلانا وإياكم من حسنِ البَلاء ، فالحمد لله حمدا كثيرا ليس له نفاد ، ولا يُحصى له تَعْداد ، وذكرت أنك وجهت الخيول نحو البلاد التى فيها ملكُ الروم وجموعُهم ، فلا تفعلْ ، وابعثْ إلى خيلِكَ فاضمُمها إليك ، وأَقِمْ حتى يمضىَ هذا الحولُ ، وترى من رأينا ، ونستعين بالله ذى الجلالِ والإكرامِ على جميع أمورنا . والسلام .

(٣١) ورد على كتاب لأبى عبيدة بن الجراح *

من عبدِ اللهِ عمرَ أميرِ المؤمنين إلى أبى عبيدةَ بنِ الجرّاح ، سلامٌ عليك ، فإنى أحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلهَ إلا هو ، أما بعدُ : فإنّه أتانى كتابُك ، وفهمتُ ما ذكرت فيه من إهلاكِ اللهِ المشركين ، ونصرةِ المؤمنين ، وماصنعَ اللهُ لأوليائه ، وأهلِ طاعتِه ، فأحمدُ اللهَ على حسنِ صنيعهِ إلينا ، وأستتِمُّ اللهَ ذلكَ بشكرِه .

ثم اعلمُوا أنكمُ لم تظهرُوا على عدوِّكم بعدد ، ولا عُدَّة ، ولا حول ولا قوة ، ولكنّهُ بعونِ اللهِ ونصرِه ، ومنّه وفضلِه ، فلله الطولُ والمنُّ والفضلُ العظيم ، فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقين ، والحمدُ اللهِ ربِّ العالمين ، والسلام .

* فتوح الشام ١٤٧ .

وهذا الكتاب رد من عمر على كتاب بعث به إليه أبوعبيدة بعد أن دخل حمص ، وطلب أهلها الصلح فصالحهم المسلمون ، وكتبوا لهم كتاب الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم .

* فتوح الشام ٢٤٤ .

وهو رد على كتاب أرسله إلى عمر بعد أن أظهره الله على أهل اليرموك وخروجه فى طلبهم .

(٣٢) إلى أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل *

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدِ الله عمرَ أميرِ المؤمنين إلى أبى عبيدة بن الجراح ومعاذِ بن جبل ، سلامٌ عليكما ، فإنى أحمدُ إليكما اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أمّا بعد : فإنى أوصيكُما بتقوى الله ، فإنهُ رضا ربِّكما ، وحظٌّ أنفسكما وغنيمة الأكياس(١١٩) لأنفسهم عند تفريط العجزة ، وقد بلغنى كتابكما تذكران أنكما عهدتمانى وأمرُ نفسى لى مهمٌّ ، فما يدريكما ؟ وهذه تزكيةٌ منكما لى ، وتذكرانِ أنّى وَليتُ أمرَ هذه الأمةِ يقعد بين يدىّ الصديقُ والعدو ، والشريفُ والوضيعُ ، والقوىُ والضعيفُ ، ولكُلّ حصته من العدلِ .

وكتبتما أنِ انظرْ كيفَ أنتَ ياعمر عند ذلك ، وإنَّه لاحولَ ولاقوةَ لعمرَ عند ذلك إلا بالله .

وكتبتما تخوفاننى يومًا هو آت ، وذلك باختلافِ الليل والنهار ، فإنهما يُبْلِيانِ كلَّ جديد ، و يقربان كلَّ بعيد ، و يأتيان بكلِّ موعود ، حتى يأتيا بيومِ القيامة : يومَ تُبْلى فيه السرائر(١٢٠) ، وتُكشَفَ العوْرات ، وتعنُو(١٢١) فيه الوجوه لعزةِ ملك قهرهم بجبروته ، فالناسُ له داخِرون(١٢٢) يخافون عقابَه ، و ينتظرون قضاءهُ ، و يرجَون رحمته .

وذكرتُمَا أنَّه بلغكما أنَّهُ يكونُ فى هذه الأمةِ رجال يكونُون إخوانَ العلانيةِ أعداء السريرة ، فليْسَ هذا بزمانِ ذلك ، إنما ذلك فى آخر الزمان إذا كانت الرغبةُ والرهبةُ فتكون رغبة بعضِ الناسِ إلى بعضٍ إصلاحُ دينهم ، ورهبةُ بعضِ الناسِ إصلاحُ دنياهم . لولا أنك علمتهُ من غيرى .

---

* فتوح الشام ١٠١ وإعجاز القرآن ١١٧ مع اختلاف يسير .

(١١٩) الاكياس : جمع كيّس وهو الخفيف الذكى المتوقد .
(١٢٠) تُبلى : تختبر وتكشف والسرائر : الضمائر والخفايا .
(١٢١) تعنو : تخضع .
(١٢٢) داخرون : خاضعون .

وما سلطانُ الدنيا وإمارتها ؟ ! فإن كل ماترى يصيرُ إلى زوال ، وإنما نحنُ إخوان ، فأينا أمَّ أخاهُ أوكان أميراً عليه لم يضرَّه ذلك فى دينِهِ ولادنياه ، بل لعل الوالى يكونُ أقربهما إلى الفتنةِ ، وأوقعهما بالخطيئةِ لأنه بعَرض هَلكة (١٢٣) إلا من عَصَم اللهُ عزوجل ، وقليلٌ ماهم .

وكتبتما تعوِّذانِنى بالله أن أنْزل كتابَكما منى سوى المنزلِ الذى نزل من قلوبكما ، وإنما كتبتما نصيحةً لى ، وقد صدقتما ، فتعهداني منكما بكتابٍ ، ولاغِنَى بى عنكما .

(٣٣) رده على كتاب لأبى عبيدة *

بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمرَ أميرِ المؤمنين إلى أبى عبيدة بنِ الجراح ، سلامٌ عليك ، فإنى أحمدُ إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد :

فإن كتابك جاءنى بنفير الروم إليك ، ومنزلِهم الذى نزلُوا به ، ورسالتَهم التى أرسلوا ، و بالذى رجعت إليهم فيما سألوك ، وقد سدَدْتَ بحجتك ، وأوتيتَ رشدَك ، فإنْ أتاكَ كتابى هذا وأنتم الغالبون ، فكثيرا ماندكرُ منْ ربِّنا الإحسانَ إلينا وإليكمْ ، وانْ اتاكم وقد أصابَكم نكب (١٢٤) أوقرح (١٢٥) فلا تهنوا (١٢٦) ولاتحزنوا ولا تستكينوا ، فإنكم الأعْلَوْن ، وإنها دارُ الله ، وهوفاتِحُها عليكم تصديقاً منا لقولِ نبينا (١٢٧) — صلى الله عليه وسلم — **فاصبرُوا إنّ الله مع الصابرين .**

---

(١٢٣) فهو أكثر الناس تعرضا للخطأ والزلل وذلك لمباشرته أمور الناس وسياسة الحكم والفصل فى الأمور .

* فتوح الشام ١٢٣

وهو ردّ على كتاب بعث به أبوعبيدة إلى عمر يخبره فيه أن الروم قد نزلوا « بفحل » من أرض الشام وأنهم أرسلوا إليه متوعدين يطلبون خروج المسلمين من بلادهم ، وأنه رد عليهم بأن المسلمين لن يتركوا هذه الأرض أبدا .

(١٢٤) النكب : المصيبة .
(١٢٥) القرح : الجرح .
(١٢٦) لا تضعفوا .
(١٢٧) وكان النبى عليه السلام قد تنبأ بفتح الشام وغيرها فى حصار الخندق [انظر سيرة ابن هشام ١٤٦/٣ . وإمتاع الأسماع ٢٢٣] .

واعلمْ أنك متى مالقَيتَ عدوَّك ، فاستعَنْتَ بالله عليهم ، وعَلِمَ منك الصدق ، نصَركَ عليهم ، فقلْ إذا أنت لقيتَهم : اللهم إنك الناصر لدينك ، والمعزُّ لأوليائك قديما وحديثا ، اللهم فتولَّ نصرهم ، وأظهرْ فلْجَهمُ (١٢٨) ، ولاتكلْهم إلى أنفُسِهم فيعجزُوا عنها ، وكنِ الصانعَ لهم ، والدافعَ عنهم برحمتِكَ ، إنَّك الوليُّ الحميد .

(٣٤) إلى أبى عبيدة بن الجراح *

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة بن الجراح ، وإلى الذين معه من المهاجرين والأنصار ، والتابعين بإحسان والمجاهدين فى سبيل الله ، سلام عليكم ، فإنى أحْمَدُ إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإنه بلغَنى توجُّهكم من أرض حِمْص إلى أرض دمشق وترككم بلاداً قد فتحها الله عليكم ، وخَلَّيْتموها لعدوكم وخرجتم منها طائعين فكرِهْتُ هذا من رأيكم وفِعْلكم ، وسألت رسولكم : أعَنْ رَأْى من جميعكم كان ذلك ؟ فزَعم أن ذلك كانَ من رَأْى خِيارِكم وأولِى النُّــهَى منكم وجماعتكم ، فعلمتُ أن الله عز وجل لم يكن ليجمع رأيَكم إلا على توفيق وصواب ورشد فى العاجلة والعاقبة ، فهوَّنَ ذلك علىَّ ما كان دَخَلَنى من الكراهية قبل ذلك لتحوُّلكم وقد سألنى رسولكم المَدَدَ لكم ، وأنا مُمدُّكم قبل أن يُقْرأ عليكم كتابى هذا ، وأُشْخِصُ إليكم المدد من قِبَلِى إن شاء الله ، واعلموا أنه ليس بالجمع الكثير كنا نَهْزِم الجمع الكثير ، ولا بالجمع الكثير كان الله يُنْزِلُ النصر عليهم ، ولربما خَذَلَ الله الجموعَ الكثيرة ، فوهَنت وفُلَّت وفشِلَتْ ، ولم تُغْنِ عنهم فئتهم شيئاً ، ولربما نَصَر الله العِصابة القليلَ عَدَدُها على الكثير عَدَوُها من أعداء الله ، فأنزل الله عليكم نصره ، وعلى المشركين من أعداء الله وأعداء المسلمين بأسَه ورِجْزَه ، والسلام عليكم » .

---

(١٢٨) الفلج : النصر والفوز .
* فتوح الشام ١٥٩ .

(٣٥) إلى أبى عبيدة بن الجراح *

« أما بعدُ : فقد قَدِم عَلَىّ أخو ثُمَالة بكتابك يخبرنى فيه بنفير الروم إلى المسلمين برًّا وبحراً ، وبما جاشوا عليكم من أساقفتهم وقسّيسهم ورهبانهم ، وإن ربنا المحمود عندنا ، والصانع لنا ، والعظيم ذا المنّ والنعمة الدائمة علينا ، قد رأى مكان هؤلاء الأساقفة والرهبان حيثُ بعث محمداً — صلى الله عليه وسلم — بالحقّ ، وأعزه بالنُّصرة ، ونصره بالرعب على عدوه ، وقال — وهو لا يخلف الميعاد — :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ التوبة : آية ٣٣ .

فلا تَهُولَنّك كثرةُ ماجاءك منهم ، فإن الله منهم برىء ، ومن برئ الله منه كان قَمِناً أنْ لا تنفَعَه كثرة ، وأن يكِلَه الله إلى نفسه ويخذُله ، ولا تُوحِشْك قلةُ المسلمين فى المشركين فإن الله معك ، وليس قليلاً مَن كان الله معه ، فأَقمْ بمكانك الذى أنت به حتى تَلْقى عدوك وتُناجزَهم ، وتستظهِرَ بالله عليهم ، وكفى به ظَهيراً ووَليًّا ونصيراً ، وقد فهمت مقالتك : « احتسب أنفس المسلمين إن هم أقاموا ، ودينَهم إن هم تفرقوا ، فقد جاءهم مالا قِبَلَ لهم به ، إلا أن يُمدَّهم الله بملائكته ، و يأتيهم بغِيَاث من قِبله » وايمُ اللّهِ لولا استثناؤك بهذا لقد كنتَ أسأتَ ، ولعمرى إن أقام لهم المسلمون وصَبَرُوا فأُصِيبُوا ، لَمَا عند الله خيرٌ للأبرار . ولقد قال الله عزوجل :

﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾
الأحزاب : آية ٢٣

فطُوبى للشهداء ، وإنّ لَمِنْ عَقَل عن الله ممن معَك من المسلمين لأُسْوَةً بالمُصرَّعين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواطنه ، فما عَجَز الذين قاتلوا فى سبيل الله ، ولا هابُوا الموت فى جَنْب الله ، ولا وَهَن الذين بقُوا من بعده ، ولا استكانوا

* فتوح الشام ١٨٢ .

لمصيبتهم ، ولكنهم تأسَّوْا بهم ، وجاهدوا فى الله مَنْ خالفهم منهم ، وفارق دينهم ، ولقد أثنى الله على قوم بصبرهم فقال :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ آل عمران : ١٤٦ ــ ١٤٨ .

فأما ثواب الدنيا فالغنيمة والفتح ، وأما ثواب الآخرة فالمغفرة والجنة .

واقرأ كتابى هذا على الناس ، ومُرْهم فليقاتلوا فى سبيل الله ، ولْيَصْبِروا كيما يؤتِيَهم اللّه ثواب الدنيا ، وحُسْنَ ثواب الآخرة .

فأما قولك : إنهم قد جاءهم مالاقِبَلَ لهم به ، فإن لايكن لكم بهم قبل ، فإن لِلّه بهم قِبَلا ، ولم يزل ربنا عليهم مقتدِراً ، ولوكنا والله إنما نقاتل الناس بحَوْلنا وقوّتنا وكثرتنا ، لهيهاتَ ماقد أبادونا وأهلكونا ، ولكن نتوكل على الله ربنا ، ونَبْرأ إليه من الحَوْل والقوة ، ونسأله النصر والرحمة ، وإنكم منصورون إن شاء الله على كل حال ، فأَخْلِصوا لله نيتكم ، وارفعوا إليه رَغْبَتكم ، واصبروا وَصابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

ه الطبرى ٤/٨٨ .

(٣٦) إلى أبى عبيدة بن الجراح

وكتب أبوعبيدة إلى عمر:

« إن نفراً من المسلمين أصابوا الشراب ، منهم ضِرارٌ وأبوجَنْدل ، فسألناهم فتأوَّلوا ، وقالوا : خُيِّرنا فاخترنا ، قال : « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » ولم يعزم علينا » .

فكتب إليه عمر :

« فذلك بيننا و بينهم ، « فهل أنتم منتهون » يعنى فانتهوا » .

* * *

وجمع الناس ، فاجتمعوا على أن يُضْرَبوا فيها ثمانين جلدةً ، و يُضَمَّنوا الفسق ، ومن تأوَّل عليها بمثل هذا ، فإن أبَى قُتِل ، فكتب عمر إلى أبى عبيدة :

« أن ادْعُهم على رُءوس الناس واسألهم : أحرامٌ الخمرُ أم حلال ؟ فإن قالوا : حرام ، فاجلدهم ثمانين جلدة واستَتِبْهم ، وإن قالوا : حلال فاضرب أعناقهم » .

فدعا بهم فسألهم ، فقالوا : بل حرام ، فجلدهم ، وحُدَّ القوم ونَدِموا على لَجَاجتهم ، واستحيَوْا فلزِمُوا البيوت ، ووَسْوَس أبوجندل ، فكتب أبوعبيدة إلى عمر :

« إن أبا جندل قد وسوس ، إلا أن يأتِيَه الله على يديك بفَرَج ، فاكتب إليه وذكِّره » .

* * *

فكتب إليه عمر وذكَّرَه :

« من عمر إلى أبى جندل :

« إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاء » . فتُبْ وارفع رأسك ، وابْرُز ولا تَقْنَط . فإن الله ــ عز وجل ــ يقول : « يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لاَتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

* * *

فلما قرأه عليه أبوعبيدة ، تطلَّقَ وأسفر وجهه ، وكتب إلى الآخرين بمثل ذلك فبرزوا ، وكتب إلى الناس :

« عليكم أنفسَكم ، ومن استوجب التغيير فَغَيِّروا عليه ، ولا تعيِّروا أحدا فيفْشوَ فيكم البَلاءُ » .

---

* الطبرى ٤٤/٨٨ .

(٣٧) إلى أبى عبيدة بن الجراح بالشام *

« إنـى نـظـرتُ فيما ذكـرتَ مما أفاء الله عليك ، والصلح الذى صالحتَ عليه أهلَ المـدنِ والأمـصـار ، وشاورتُ فيه أصحابَ رسولِ الله — صلى الله عليه وسلم — فكلٌّ قد قال فى ذلك برأيه ، وإنَّ رأيى تَبَعٌ لكتاب الله ، فإن الله تعالى قال فى كتابه :

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (١٢٩) : هم المهاجرون الأولون ،

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (١٣٠) فإنهم الأنصار ،

---

* الخراج ٢٨٤ .

وكان أبوعبيدة قد كتب إلى عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — بهزيمة الله المشركين ، وبما أفاء الله على المسلمين ، وما أعطى أهل الذمة من الصلح ، وماسأله المسلمون من أن يقسم بينهم المدن وأهلها ، والأرض وما فيها من شجر أوزرع ، وأنه أبى ذلك عليهم ، حتى كتب إليه فيه ليكتب إليه برأيه فيه . فكتب إليه عمر بن الخطاب هذا الكتاب .

(١٢٩) الحشر ٦ — ٨ .

(١٣٠) الحشر ٩ .

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ (١٣١)

ولد آدم الأحمر والأسود ؛ فقد أشرك الله الذين من بعدهم فى هذا الفىء إلى يوم القيامة ؛ فأقِرَّ ما أفاء الله عليك فى أيدى أهله ، واجعل الجزيةَ عليهم بقدرِ طاقتِهم تقسمُها بين المسلمين ، و يكونون عمارَ الأرض ، فهم أعلم بها وأقوى عليها ، ولا سبيل لك عليهم ولا للمسلمين معك أن تُصيِّرهم فيئا وتقسمهم للصلح الذى جرى بينك و بينهم ، ولأخذك الجزية منهم ، وقد بين الله لنا ولكم فقال فى كتابه :

﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (١٣٢)

فإذا أخذتَ منهم الجزيةَ فلا شىءَلَكَ عليهم ولا سبيلَ ؛ أرأيتَ لوأخذنا أهلها فاقتسمناهم ماكان يكون لمن يأتى بعدنا من المسلمين ؟ والله ماكانوا يجدون إنساناً يكلمونه ولا ينتفعونَ بشىء من ذاتِ يده ، وإن هؤلاء يأكلهم المسلمون ماداموا أحياء ، فإذا هلكوا وهلكنا أكَل أبناؤنا أبناءهم أبداً مابقوا ، فهم عبيد لأهل دين الإسلام مادام دين الإسلام ظاهراً .

---

(١٣١) الحشر ١٠ .
(١٣٢) التوبة ٢٩ .

فاضربْ عليهم الجزية ، وكفَّ عنهم السبى ، وامنعْ المسلمين من ظلمِهِمْ والإضرارِ بهم وأكلِ أموالهم إلا بحقِّها ، وَفِ لهم بشرطِهِم الذى شرطتَ لهم فى جميع ما أعطيتهم .

وأما إخراج الصلبان فى يوم عيدِهم فلا تمنعهم من ذلك خارجَ المدينة بلا رايات ولا بنود ، على ما طلبُوا منك يوماً فى السنة ، فأما داخل بيوت المسلمين ومساجدهم فلا تظهر الصلبان » .

(٣٨) من عمر إلى عمرو بن العاص وهو فى طريقه إلى مصر *

من عمرَ بن الخطاب إلى عمرو بنِ العاص ، أما بعدُ : فإنَّك سرتَ إلى مصر وَمَنْ معك ، وبها جموعُ الرومِ ، وإنما معَك نفرٌ يسيرٌ ، ولعمرى لونُكِّل بك ماسرْتَ بهم ، فإن لم تكن بلغتَ مصر فارجعْ » .

* * *

وتوغل عمرو فى مصر وأرسل إلى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف وكتب إليه :

إنى قد أمددتُك بأربعةِ آلافِ رجل ، منهم رجال مقامُ الألف : الزبيرُ بن العوام ، والمقدادُ بن الأسود ، وعبادةُ بن الصامت ، ومَسْلَمَةُ بن مَخْلَد ، واعلمْ أنَّ معك اثنى عشر ألفا ، ولا يُغْلَبُ اثنا عشر ألفا من قلة .

(٣٩) إلى عمرو بن العاص *

أما بعدُ فقد عجبتُ لإبطائِكم عن فتح مصر ، إنكُمْ تقاتلُونَهم منذُ سنتين ، وماذاك الا لما أحدثتم وأحببْتم من الدنيا ماأحبَّ عدوُّكم . وإنَّ اللهَ تباركَ وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدقِ نياتهم ، وقد كنتُ وجهتُ إليك أربعة نفر ، وأعلمتُك أن الرجلَ منهم مَقامَ ألف رجل على ماكنت أعرف ، إلا أن يكون غيرهم ماغَيَّرهم ، فإذا أتاكَ

* خطط المقريزى ١/٢٨٨ ، ٢٨٩.
* خطط المقريزى ١/١٦٥.
وكتب عمر هذا الخطاب لما أبطأ عليه فتح الإسكندرية .

كتابى فاخطب الناسَ ، وحضَّهُم على قتالِ عدوِّهم ، ورغِّبْهم فى الصبر والنيةِ ، وقدّم أولئك الأربعةَ فى صدورِ الناسِ ، وَمُر الناسَ جميعا أن يكونَ لهم صدمةٌ كصدمةِ رجلٍ واحدٍ ، وليكنْ ذلك عند الزوال يوم الجمعة ، فإنها ساعة تنزلُ الرحمة فيها ، ووقتُ الإجابة ، وليعِجَّ (١٣٣) الناسُ إلى الله ، و يسألوه النصر على عدوهم (١٣٤)

(٤٠) رده على كتاب لعمرو بن العاص *

أما بعدُ : فإنَه جاءنى كتابُك تذكرُ أن صاحب الإسكندرية عرضَ أن يُعطيكَ الجزية ، على أن تردَّ عليه ما أصيبَ مِن سبايا أرضِهِ ، ولعمرى لجزيةٌ قائمةٌ تكون لنا ولمنْ بعدنا من المسلمين أحبُّ إلىّ من فىء نُقْسم ، ثم كأنّه لم يكنْ ، فاعرِضْ على صاحب الاسكندرية أن يعطيَك الجزية ، على أن تخيرّوا منْ فى أيديكم من سَبيهم بين الإسلام و بينَ دينِ قومِهِ ، فمنِ اختارَ منهم الإسلام فهو من المسلمين له مالهم ، وعليه ماعليهم ، ومن اختارَ دينَ قومِه وُضِعَ عليه من الجزيةِ مايوضعُ على أهلِ دينهِ ، فأما من تفرَّقَ من سبيهم بأرضِ العرب فبلغَ مكةَ والمدينةَ واليمنَ ، فإنا لانقدِرُ على ردِّهم ، ولا نحبُّ أن نصالحِهَ على أمرٍ لانفِى له به .

(٤١) إلى عمرو بن العاص *

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص : سلام الله عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لاإله إلا هو . أما بعد : فإني فكرتُ في أمرِك والذي أنت عليه ، فإذا أرضُك أرض واسعةٌ عريضةٌ رفيعة ، وقد أعطى اللّهُ أهلها عدداً وجَلَداً وقوةً في برّ وبحرْ ، وإنها قد عالجتْها (١٣٥) الفراعنةُ وعملوا فيها عملا مُحْكماً (١٣٦) ، مع شدّة عتوِّهم (١٣٧) وكفرِهم ، فعجبتُ من ذلك ، وأعجبُ

---

(١٣٣) عجّ . رفع صوته .

(١٣٤) استجاب عمرو والناس لما أمر عمر فأحرزوا النصر المؤزر المبين وفتحوا الاسكندرية يوم الجمعة غرة المحرم سنة عشرين من الهجرة بعد حصار دام أربعة عشر شهرا .

* الطبرى ٤/١٠٥ .

* خطط المقريزى ١/٧٨ .

وكان هذا الكتاب لأن عمر استبطأ خراج مصر .

(١٣٥) عالجتها : أصلحتها واستعملتها .

(١٣٦) أى : عملا دقيقا قويا ، وربما قصد به ما أقامه الفراعنة من مبان وشروعات على الأرض والنيل .

(١٣٧) جبروتهم .

مما عجبت أنها لا تُؤدي نصفَ ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غيرِ قُحوط ولا جَدْب ، ولقد أكثرتُ في مكاتبتِك في الذي على أرضِكَ من الخراج ، وظننتُ أن ذلك سيأتينا على غير نَزر[١٣٨] ، ورجوتُ أن تُفيقَ فترفعَ إليَّ ذلك ، فإذا أنت تأتيني بمعاريضَ[١٣٩] تَعبأُ بها[١٤٠] لا توافقُ الذي في نفسي . لستُ قابلاً منكَ دونَ الذي كانت تُؤْخَذُ به من الخراج قبل ذلك ، ولست أدري مع ذلك ما الذي نفَّرك من كتابي وقَبَضَك[١٤١] ، فلئن كنت مجرّبا كافياً صحيحاً إن البرآءة لنافعة ، وإن كنت مضيعاً نَطعاً إن الأمر لعلى غير ما تحدّثُ به نفسك ، وقد تركت أن أبتلي ذلك منك في العام الماضي رجاءَ أن تُفيق فترفع إليَّ ذلك ، وقد علمتُ أنه لم يمنعْكَ من ذلك إلا أن عمالَك عمالُ السوء ، وما تُوالسُ[١٤٢] عليك وتلفّف اتخذوك كهفاً ، وعندي بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه ، فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحقُّ وتُعطاه ، فإن النهر يخرج الدُّرّ ، والحق أبلج[١٤٣] ، ودعني وما عنه تلجلج[١٤٤] ، فإنه قد برِح الخفاء[١٤٥] ، والسلام .

---

(١٣٨) على غير نزر: بكثرة ودون تأخير.

(١٣٩) المعاريض فى الكلام : التورية بالشيء عن الشيء ومنه الحديث « إن فى معاريض الكلام مندوحة » الأدب المفرد للبخارى .. اهـ كشف الخفاء للعجلونى ج١ ص٢٧٠ رقم ٧١٢ .
وانظر صحيح البخارى : باب : المعاريض مندوحة ج٨ ص٥٧ ط الشعب .

(١٤٠) تعبأ بها : تهتم بها .

(١٤١) قبضك : أغضبك .

(١٤٢) المدالسة والموالسة : الخداع .

(١٤٣) أبلج : واضح .

(١٤٤) تلجلج : تردد واضطرب .

(١٤٥) برح الخفاء : ظهر المستور.

(٤٢) وردّه على كتاب لعمرو بن العاص *

من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، سلام إليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإني قد عجبت من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج وكتابك إليّ بثنيات الطرق (١٤٦) ، وقد علمت أني لست أرضى منك إلا بالحق البين (١٤٧) ، ولم أقْدمك مصر أجعَلُها لك طُعْمةً ولا لقومك ، ولكني وجّهْتُكَ لما رجوتُ من توفيرك الخراجَ وحسنِ سياستك ، فإذا أتاك كتابي هذا فاحمل الخراج فإنما هو فَي المسلمين ، وعندي ما قد تعلم قومٌ محصورون ، والسلام .

(٤٣) وإلى عمرو بن العاص *

أما بعدُ : فإني فرضتُ لمن قِبَلي في الديوان (١٤٨) ولمن وردَ علينا في المدينةِ من أهلِ المدينةِ وغيرِهم ممن توجه إليك وإلى البلدان ، فانظر من فرضتُ له ونزل بك فاردد عليه العطاء وعلى ذريته ، ومن نزلَ بك ممن لم أفرضْ له فافرضْ له على نحوِ مما رأيتني فرضت لأشباهه ، وخذ لنفسك مائتي دينار ، فهذه فرائض أهلِ بدر من المهاجرين والأنصار ، ولم أبلغ بهذا أحداً من نظرائك غيرك ، لأنك من عمال المسلمين ، فألحقُتك بأرفع ذلك ، وقد علمت أن مُؤْناً تلزمك فوفرِ الخراجَ وخذه من حقه ثم عفّ عنه بعد جمعه ، فإذا حُصّلَ إليك وجمعته أخرجتَ عطاء المسلمين وما يحتاج إليه مما لابدّ منه ، ثم انظر فيما فَضَلَ بعد ذلك فاحملْه إليَّ ، واعلم أن ما قِبلك

---

* خطط المقريزى ١/٧٨ .
وكان هذا الكتاب بمناسبة رد عمرو على كتاب عمر السابق وفى هذا الرد يقول عمرو: « .. فإن الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا ، ولم تكرم فيه أخا ، والله يا ابن الخطاب لأناحين يراد ذلك منى أشد غضبا لنفسى ، ولها إنزاها وإكراما ، وما عملت من عمل أرى علىّ فيه متعلقا ، ولكنى حفظت مالم تحفظ ، ولو كنت من يهود يثرب مازدت ، يغفر الله لك ولنا » المصدر السابق نفس الصفحة

(١٤٦) ثنيات : جمع ثنية . وثنيات الطرق منعطفاتها و يقصد عمر بثنيات الطرق الأعاريض والتعللات .

(١٤٧) البين : الواضح .

* أشهر مشاهير الإسلام ٦١٤ .

(١٤٨) أى: فرض العطاء .

من أرضٍ مصر ليسَ فيها خمس وإنما هي أرض صُلْح ، ومافيها للمسلمين فيء : تبدأ بمن أغنَى عنهم في ثغورهم وأجزأ عنهم في أعمالهم ، ثم أفض مافضل بعد ذلك على من سمى الله (١٤٩)

واعلم ياعمرو أن الله يراك و يرى عَمَلَك ، فإنه قال تبارك وتعالى في كتابه : ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝ ﴾ (١٥٠)

يرى يد أن يقتدى به ، وإنّ معك أهل ذمة وعهد ، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط فقال : **استوصوا بالقبطِ خيراً فإن لهم ذمّةً ورحماً ، ورحمهم أنّ أم إسماعيل منهم** ، وقد قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ **من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمُهُ يومَ القيامة** ، احذرْ ياعمرو أن يكونَ رسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لك خصماً ، فإنه من خاصمه خصمه (١٥١) ، والله ياعمرو لقد ابتُليتُ (١٥٢) بولاية هذه الأمة ، وآنستُ من نفسي ضعفاً وانتشرتْ (١٥٣) رعيتي ، ورقّ عظمي فأسأل الله أن يقبضني إليه غير مفرَّط ، والله إني لأخشى لومات جمل بأقصى عملك ضياعاً أن أسأل عنه .

(٤٤) وإلى عمرو بن العاص *

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص ، سلام عليك ، أما بعدُ : فقد بلغنى أنه فَشَت لك فاشِية (١٥٤) : من خيل وإبل وغنم و بقر وعبيد ، وعَهْدِي بك قبل ذلك ولامَالَ لك ، فاكتُبْ إلَيَّ : من أينَ أصلُ هذا المال ، ولا تكتُمه ؟ » .

---

(١٤٩) أي في القرآن .
(١٥٠) الفرقان ٧٤ .
(١٥١) تقول العرب : خاصمه فخصمه : أى خاصمه فغلبه فى الخصومة .
(١٥٢) ابتليت : اختبرت .
(١٥٣) انتشرت : زاد عددها وكثرت فى الأمصار المفتوحة .
* العقد الفريد ١/١٦ .
(١٥٤) الفاشية : كل مافشا أى انتشر من المال كالإبل والغنم .

فلما أتاه رد عمرو[١٥٥] كتب إليه عمر:

« أما بعد : فإني وَاللَّهِ ما أنا من أساطيرك التى تسطّر[١٥٦] ، ونَسْقِك الكلامَ فى غيرِ مَرْجِعٍ ، لايُغْنِي عنك أن تُزَكِّيَ نفسك ، وقد بعثتُ إليك محمد بن مَسْلَمَة فشاطِرْه مالك ، فإنكم أيها الرَّهْطُ الأمراء جلستم على عُيون[١٥٧] المال لم يُفزعكم عذر. تجمعون لأبنائكم ، وتمهدون لأنفسكم ، أما إنكم تجمعون العار ، وتورِّثون النار[١٥٨] ، والسلام » .

(٤٥) إلى عتبة بن غزوان *

قد فتَح اللهُ ــ جلَّ وعزَّ ــ على إخوانكم الحَيرةَ وماحولَها ، وقُتِلَ عظيمٌ من عظمائها ، ولست آمنُ أن يُمِدّهم إخوانُهم منْ أهلِ فارس ؛ فإنى أريد أن أوجهَكَ إلى أرض الهند ، لتمنعَ أهلَ تلكَ الجيزة من إمدادِ إخوانِهم على إخوانكم ، وتقاتلهم ؛ لعل اللهَ أن يفتحَ عليكم . فَسِرْ على بركة الله ، واتق الله ما استطعت ، واحكم بالعدل ، وصلِّ الصلاة لوقتها ، وأكثر من ذكر الله .

(٤٦) وصيته لعتبة بن غزوان *

إن أرضَ الهندِ حَومةٌ من حومةِ العدو[١٥٩] ، وأرجو أن يكفيكَ الله ما حولها ، وأن يعينَكَ عليها . وقد كتبتُ إلى العلاء بن الحضرمي أن يُمدّك بعرْفَجة بن هَرْثَمَة ، وهو ذو مجاهدةٍ للعدوّ ومكايدَة ، فإذا قدمَ عليك فاستشرهُ وقرِّبه ، وادعُ إلى الله فمن

---

(١٥٥) ذكر عمرو فى كتابه أن مصدر ماله أنه يحترف التجارة والزراعة فى بلد فيه رواج وسعر رخيص ، والمصدر الثانى هو العطاء الذى فرضه له أمير المؤمنين وهو كثير.

(١٥٦) الأساطير: الأباطيل .

(١٥٧) عيون المال : خياره وأحاسنه .

(١٥٨) تشعلونها وتسعرونها فاحتجان الأمراء المال يزرع فى نفوس الرعية الحقد والبغضاء و يؤدى إلى الفتن .

* الطبرى ٣/ ٥٩٠
وكتبه إليه بعد أن قتل مهران الفارسى فى صفر سنه ١٤ هـ .
* الطبرى ٣/٥٩٣ (سنة ١٤ هـ) .

(١٥٩) أى : ميدان من أهم ميادين قتال العدو.

أجَابَك فاقبلْ منه، ومَنْ أبى فالجزيةُ عن صَغارٍ وذلّة، وإلافالسيفُ في غير هوادة، واتـقِ الله فيما وليتَ، وإياك أن تنازعَكَ نفْسك إلى كِبْر، يفسد عليك إخوتُك(١٦٠)، وقـد صحبـتَ رسـول الله صلى الله عليه وسلم فعززتَ به بعد الذلّة، وقويتَ به بعد الضعف، حتى صرتَ أميراً مسلَّطاً، وملكاً مطاعاً، تقول فيسمع منك، وتأمرُ فيطاع أمرك، فيـالها نعمةً إن لم ترفعْك فوق قدرك، وتبطرك على من دونك(١٦١)، احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصيةِ، ولَهي أخوفهما عندي عليك أن تستدرجَك وتخدعك(١٦٢)، فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم، أعيذك بالله ونفسي من ذلك، إن الناس أسرعوا إلى الله حين رفعت لهم الدنيا فأرادوها، فأَرد الله ولا ترد الدنيا. واتق مصارع الظالمين(١٦٣).

(٤٧) إلى عتبة بن غزوان *

أعْـزب(١٦٤) النـاسَ عـن الظلْم، واتقُوا واحذرُوا أن يُدالَ عليكم(١٦٥) لغدر يكونُ منكم أو بَغْيٍ فإنكم إنما أدركتُم باللهِ ماادركتمْ، على عهدٍ عاهدَكُم عليه، وقد تقدمَ إليكم فيما أخذَ عليكم، فأوفُوا بعهدِ الله، وقومُوا على أمرهِ يكُن لكمْ عونا وناصرا.

---

(١٦٠) أى: لا تتكبر فإن ذلك يجعل أقرب الناس إليك مبغضا لك.

(١٦١) أى: أن صحبتك لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هى التى رفعتك إلى هذه المنزلة. وهى نعمة جليلة إن لم يكن ذلك مصحوبا بكبر و بطر وجحود ووضع لنفسك فوق رقاب العباد وتقديرك نفسك فوق قدرها.

(١٦٢) أى: احذر أن تشدك النعمة إلى مساخط الله فتكون أشد من المعصية الظاهرة قال تعالى: « سنستدرجهم من حيث لايعلمون ».

(١٦٣) أى: احذر أن تكون ظالما فيكون مصيرك مصير الظالمين.

* الطبرى ٤/٧٨.

(١٦٤) أبْعِد.

(١٦٥) يغلبكم غيركم.

(٤٨) إلى يعلى بن أمية *

عن يعلى بن أمية قال: لما بعثنى عمر بن الخطاب على خراج أرض نجرانَ — يعنى نجران التى قرب اليمن — كتب إلى: أن انظر كل أرض جلا أهلُها عنها، فما كان لهم من أرض بيضاء (١٦٦) تسقى فتحاً (١٦٧) أوتسقيها السماء، فما كان فيها من نخل أوشجر فادفعْه إليهم يقومُونَ عليه و يسقونه، فما أخرجَ الله منه من شىءٍ فلعمر وللمسلمين منه الثلثان ولهم الثلث، وما كان منها يُسقى بغَرْب (١٦٨)، فلهم الثلثان ولعمرَ والمسلمين الثلث، وادفعْ إليهم ما كان من أرض بيضاء يزرعونها، فما كان منها يسقى فتحاً أوتسقيه السماء فلهم الثلثُ ولعمر والمسلمين منه الثلثان، وما كان من أرض بيضاء تُسقى بغَرْب فلهم الثلثان ولعُمَر والمسلمين الثلث.

(٤٩) إلى عمار بن ياسر *

« أما بعد: فإنى هبطْتُ أرض الشام، فأتَونى بشراب لهم، فسألتهم كيف تصنعون به؟ فأخبرونى أنهم يطبخونه حتى يذهب ثلثاه، و يبقى ثلثه، وذلك حين يذهب رَبَّه، وريحُ حَنُونه، و يذهب حرامه، و يبقى حلاله والطيِّب منه، فُمر من قِبَلك من المسلمين فليستعينوا به فى شرابهم، والسلام ».

---

* الخراج ١٦٥.

(١٦٦) أى: أرض ذات نخل وشجر.

(١٦٧) الفتح: الماء الذى يجرى فى الأنهار على وجه الأرض.

(١٦٨) الغرْب: الدلو العظيمة. و يقصد بالأرض التى تروى بغرب: الأرض التى تروى بأى آلة من آلات رفع الماء أوإيصاله إلى الأرض بمجهود أصحابها، ومن هنا جاء التفريق فى حكم مايضرب عليها بينها و بين الأرض التى ترتوى بلامجهود كتلك التى تسقى بماء السماء مثلا.

* فتوح الشام ٢٥٣.

كان عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — بالشام فسأله عمرو بن العاص عن حكم عصير يعصره أهل هذه البلاد و يطبخونه قبل أن يغلى، و يأتون به حلوا كأنه الرُّب (أى سلافة الثمرة بعد اعتصارها وطبخها) قد طبخوه حتى ذهب ثلثاه، و بقى الثلث. فقال عمر: لا أظن بهذا بأسا ذهب حرامه و بقى حلاله. [انظر: أحمد زكى صفوت. جمهرة رسائل العرب ١/١٩٤].

(٥٠) إلى خالد بن الوليد *

و بلغ عُمَرَ أن خالد بن الوليد دخل الحَمَّام فتدَلَّك بعد النُّورة(١٦٩) بثَخِين عُصْفُر معجون بخَمْر، فكتب إليه:

« بلغني أنك تدَلّكتَ بخمر، وإن الله قد حَرَّم ظاهِرَ الخمر و باطنه، كما حرَّم ظاهر الإثم و باطنَه، وقد حرَّم مَسَّ الخمر إلا أن تُغْسَل كما حرَّم شُربَها، فلا تُمِسُّوها أجسادَكم فإنها نَجَسٌ، وإن فعلتم فلا تعودوا».

* * *

فكتب إليه خالد:

« إنا قتلناها فعادتْ غَسُولا(١٧٠) غيرَ خَمْر».

* * *

فكتب إليه عمر:

« إني أظن آلَ المُغِيرَة قد ابْتُلُوا بالَجفاء(١٧١)، فلا أماتكم الله عليه».

(٥١) إلى يزيد بن أبي سفيان *

أما بعدُ: فقدْ وليتُك أجنادَ الشامِ كلّه، وكتبتُ إليهم أنْ يسمعَوا لكَ و يطيعُوا، وألا يُخالفُوا لَكَ أمرا، فاخرجْ فعسْكِرْ بالمسلمين، ثم سِرْ إلى قيسَار ية، فانزلْ عليها ثم لا تفارقْها حتى يفتحَها اللهُ عليك، فإنَّه لاينبغي افتتاحُ ما اقتحمْتُمْ منْ أرض الشامِ

* الطبري ٤/٦٦.

(١٦٩) النورة: حجر يحرق و يستخدم في حلق شعر العانة.

(١٧٠) يقصد: أننا مزجناها بالماء حتى لم يعد لها صفة الخمر.

(١٧١) أي: الشدة في الحديث والخشونة في التعامل مع الآخرين.

* فتوح الشام ٢٧٦.

مع مُقامِ أهلِ قيسارية فيها ، وهمْ عدوُّكم وإلى جانبكم ، وإنّه لايزالُ قيصر طامعا فى الشامِ مابقىَ فيها أحدٌ من أهلِ طاعتِه منيعاً ، ولوقد فتحتموها قطع اللهُ رجاءهَ مِنْ جميع الشامِ ، واللهُ عزَّوجلَّ فاعلٌ ذلك وصانعٌ للمسلمين إنْ شاء الله .

(٥٢) إلى معاوية بن أبى سفيان *

إما بعد : فإني كتبت إليك بكتاب فى القضاء لم آلُكَ ونفسي فيه خيراً[١٧٢] ، الزم خمس خصال[١٧٣] يسلم لك دينُك وتأخذُ فيه بأفضلِ حظّك : إذا حضر الخصمان فعليك بالبينات العُدول والأيمان القاطعة ، ثم أدْنِ[١٧٤] الضعيف حتى ينبسط لسانه ويجترىء قلبه ، وتعاهد الغريب فإنه إذا طال حبسه ترك حاجته وانصرف إلى أهله ، وإنما ضيّع حقه من لم يَرْفُق به ، وآس[١٧٥] بينهم في لحظك وطرفك ، واحرص على الصلح مالم يتبيّن لك القضاء ، والسلام عليك .

(٥٣) عهده لأهل نجران *

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما كتبَ عبدالله عمرُ أميرُ المؤمنين لأهلِ نجران : من سار منهم آمنٌ بأمانِ الله ، لايضره أحدٌ من المسلمين ، ووفّى لهم بما كتبَ لهم محمد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبوبكر[١٧٦] .

* البيان والتبيين ٢/٧٥ . وفى الخراج ص ٢٤٤ أن الكتاب موجه إلى أبى عبيدة .
ونحن لانستبعد أن يكون الكتاب مُوجها لكل منهما ، فقد فعل عمر مثل ذلك فى عهده لمدينة « لدّ » بفلسطين إذجعله عهدا لكل الكور.

(١٧٢) أى : لم أقصر فى إرادة الخير وتوخيه .

(١٧٣) خصال : صفات : جمع خصلة .

(١٧٤) أدْنِ : قَرِّب .

(١٧٥) آس : سوِّ.

* الخراج ١٦١ .
وكان عمر قد أجلاهم عن نجران اليمن وأسكنهم بنجران العراق لأنه خافهم على المسلمين فجاءوا إليه فكتب لهم هذا العهد .

(١٧٦) إشارة إلى عهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعهد أبى بكر لهم .

أمـا بعـد : فمن مرُّوا به من أهل الشام والعراق فليوسعهم من حرث الأرض ، فما اعـتـمـلـوا مـن ذلـك لهـم صدقة لوجه الله ، وعُقبة(١٧٧) لهم مكان أرضهم ، لاسبيل عليهم فيه لأحد ولامَغْرم .

أمـا بـعـد : فمـن حَضَرهم من رجل مسلم فلينصرْهُم على من ظلمهم ، فإنهم أقوام لهـم الـذمـة ، وجزيتهم عنهم متروكة أربعةً وعشرين شهراً بعد أن يقدموا ، ولايكلَّفُوا إلا من صُنعِهم البِرَّ، غير مظلومين ولامَعنُوفاً عليهم(١٧٨) .

(٥٤) عهده إلى أهل إيلياء (القدس) *

بسـم الله الـرحمـن الرحيم ، هذا ما أعطى عبدُالله عمرُ أميرُ المؤمنين أهلَ إيلياء من الأمـانِ : أعـطـاهُـم أمـانـاً لأنـفـسِـهـم وأموالِهم ، ولكنائسِهم وصُلبانِهم ، وسقيمِها وبـريـئـهـا وسـائـر ملّتها ، أنه لا تُسكنُ كنائسهُم ولا تُهدَم ، ولايُنتقضُ منها ولامن حَيّـزهـا ، ولامن صليبهم ولامن شيء من أموالِهم ، ولايُكرَهوُن على دينِهم ، ولايُضارُّ أحدٌ منهم ، ولايَسْكنُ بإيلياء معهم أحدٌ من اليهودِ ، وعلى أهلِ إيلياء أن يعطُوا الجزية كما يـعُـطِـي أهلُ المدائن ، وعليهم أن يُخرجوا منها الرومَ واللُّصوت(١٧٩) ، فمن خرجَ منهم فإنه آمنٌ على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمَنَهُم ، ومَن أقامَ منهم فهو آمنٌ وعليه مثل مـاعلى أهـلِ إيـلـيـاء مـن الجزية ، ومن أحَبَّ من أهلِ إيلياء انْ يسيّر بنفسِه ومالِه مَعَ الـرومِ و يُـخـلـيَ بِـيَـعَـهـم وصُلُبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصُلُبهم حتى يبلغُوا مأمَنَهم ، ومن كان بها من أهلِ الأرضِ قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعدَ وعليه مـثـلُ مـاعلى أهـلِ إيـلـيـاء مـن الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجَعَ إلى أهـلِه ، فإنه لايُؤْخَذُ منهم شيء حتى يُحصدَ حَصادُهم ، وعلى مافي هذا الكتاب عهدُ اللّهِ وذمةُ رسوله وذمةُ الخلفاء وذمةُ المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .

---

(١٧٧) العقبة والعقبى : النتيجة والثمرة .

(١٧٨) أي:من غير أن يعاملوا بعنف وشدة .

* الطبرى ٣/٦٠٩ (وكان ذلك سنة ١٥هـ)

(١٧٩) اللصوص .

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبدالرحمن بن عوف ومعاوية ابن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمسة عشر.

(٥٥) عهده إلى أهل لُدّ *

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبدُالله عمرُ أميرُ المؤمنين أهلَ لُدّ ومن دَخَلَ معهم من أهلِ فلسطينَ أجمعين، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصُلُبِهم وسقيمهم وبريئهم وسائر مِلّتهم، أنه لا تُسْكَنُ كنائسُهمْ ولا تهدمُ ولا ينتقصُ منها ولا من حيِّزِها ولا مِلَلِها، ولا مِنْ صُلُبِهم ولا من أموالهم ولا يُكرَهون على دينهم ولا يضارُّ أحد منهم، وعلى أهل لدّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يُعطوا الجزية كما يعطي أهلُ مدائن الشام وعليهم إن خرجوا مثل ذلك الشرط إلى آخره.

---

* الطبرى ٣/٦٠٩.
كتب هذا العهد سنة ١٥ هـ. وقد جعل عمر هذا العهد عاما لكل كور فلسطين، بينما خص إيلياء (بيت المقدس) ـ لأهميتها ـ بعهد مستقل دون غيرها من بلاد فلسطين.

الشريحة الثالثة

الحكم والتوقيعات

(١) تفقهوا قبل أن تسودوا (١)

* * *

(٢) كونوا أوعية الكتاب و ينابيع العلم ، وسلوا الله رزق يوم بيوم ، ولايضيركم أن لايكثر لكم (٢) .

* * *

(٣) تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تعلّمون ، وتواضعُوا لمن تعلمون منه ، ولا تكونوا جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم بجهلكم (٣) .

* * *

(١) البيان والتبيين ٢/٥١ .
(٢) السابق ٢/١٦١ .
(٣) سيرة عمر لابن الجوزى .

(٤) اقرءوا القرآن تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، ولن يبلغ حق ذى حق أن يطاع فى معصية الله، ولن يقرب من أجل، ولن يباعد من رزق أن يقوم رجل بحق أويذكر بعِظَم(٤).

* * *

(٥) تَعلموا العربية فإنها تثبت القلوب، وتزيد فى المروءة(٥)

* * *

(٦) ارووا الأشعار فإنها تدل على الأخلاق(٦)

* * *

(٧) خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدى صاحبه يستميل بها الكريم، و يستعطف بها اللئيم(٧).

* * *

(٨) ويل لديان من فى الأرض من ديان من فى السماء، يوم يلقونه إلا من أمر بالعدل، وقضى بالحق، ولم يقض على هوى ولا قرابة ولا رغب ولا رهب، وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه(٨).

* * *

(٩) أشقى الولاة من شقيت به رعيته(٩).

* * *

---

(٤) البيان والتبيين ٢/٣٤.
(٥) ابن الجوزى ١٧٣.
(٦) سيرة عمر للطنطاوى ٥٦٩.
(٧) البيان والتبيين ٢/٥٠.
(٨) ابن الجوزى ١٥٨.
(٩) الميدانى: مجمع الأمثال ٢/٤١٩.

(١٠) لاحلم أحب إلى الله من حلم إمام ورفقه ، ولا جهل أبغض إلى الله من إمام وخرقه . ومن يعمل بالعفو بين ظهرانيه تأته العافيه من فوقه . ومن ينصف الناس من نفسه يعط الظفر فى أمره . والذل فى الطاعة أقرب إلى البر من التعزز فى المعصية[١٠] .

* * *

(١١) مد من اللحم كمد من الخمر.

* * *

(١٢) إياكم وهذه المجازر، فإن لها ضراوة كضراوة الخمر[١١] .

* * *

(١٣) إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ، مفسدة للجوف ، مؤدية إلى السقم[١٢] .

* * *

(١٤) المروءة الظاهرة فى الثياب الطاهرة[١٣] .

* * *

(١٥) من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن أقرضه جزاه ، ومن شكره زاده[١٤] .

* * *

---

(١٠) ابن الجوزى ١٦١ .
(١١) البخلاء ٢٤٧ .
(١٢) الميدانى : مجمع الأمثال ٢/٤١٩ .
(١٣) سيرة عمر للطنطاوى ٥٦٥ .
(١٤) الميدانى السابق : نفس الصفحة .

(١٦) لا تبغضوا الله إلى عباده[١٥] .

* * *

(١٧) من كتم سره كان الخيار فى يده[١٦] .

* * *

(١٨) من لم يعرف الشر كان جديرا أن يقع فيه[١٧] .

* * *

(١٩) من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن[١٨] .

* * *

(٢٠) من رق وجهه رق علمه[١٩] .

* * *

(٢١) من قال أنا مؤمن فهو كافر، ومن قال هو عالم فهو جاهل ، ومن قال هو فى الجنة فهو فى النار[٢٠] .

* * *

(٢٢) من أحب أن يصل أباه فى قبره فليصل إخوان أبيه من بعده[٢١] .

* * *

(٢٣) من كثر مزاحه كثر سقطه ، ومن قل ورعه قل حياؤه .

* * *

---

(١٥) سيرة عمر للطنطاوى ين : ٥٦٧ .
(١٦) الميدانى : نفس الصفحة .
(١٧) السابق نفس الصفحة .
(١٨) ابن الجوزى : ١٥٤ .
(١٩) السابق ١٧٤ .
(٢٠) السابق ١٧٥ .
(٢١) السابق ١٧٨ .

(٢٤) من كذب فجر، ومن فجر هلك[٢٢] .

* * *

(٢٥) اتقوا من تبغضه قلوبكم .

* * *

(٢٦) مروا ذوى القرابات أن يتزاوروا ولايتجاوروا[٢٣] .

* * *

(٢٧) إياك ومؤاخاة الأحمق فإنه ربما أراد أن ينفعك فضرك[٢٤] .

* * *

(٢٨) لايلهك الناس عن نفسك ، فإن الأمر يصير إليك دونهم ، ولا تقطع النهار سادرا ، فإنه محفوظ عليك ماعملت . وإذا أسأت فأحسن ، فإنى لم أرشيئا أشد طلبا ، ولا أسرع دركا من حسنة حديثة لذنب قديم[٢٥] .

* * *

(٢٩) حاسبوا نفوسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا نفوسكم قبل أن توزنوا[٢٦] .

* * *

(٣٠) جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة[٢٧]

* * *

---

(٢٢) سيرة عمر للطنطاو يىن ٥٦٦ .
(٢٣) الميدانى ٢/٤١٩ .
(٢٤)البيان والتبيين ٢/٢٣٣ .
(٢٥) السابق : ٣/٧٤ .
(٢٦) ابن الجوزى : ١٥٤
(٢٧) السابق : ١٥٧

(٣١) احذر أن تجعل لك كثير حظ فى أمر دنياك ، إذا كنت ذا رغبة فى أمر آخرتك[٢٨] .

* * *

(٣٢) إياكم والمعاذير فإن كثيرا منها كذب[٢٩] .

* * *

(٣٣) لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم شرا وأنت تجد لها فى الخير محملا .

* * *

(٣٤) عليك بإخوان الصدق فكثّر فى اكتسابهم ، فإنهم زين فى الرخاء ، وعدة عند عظيم البلاء[٣٠] .

* * *

(٣٥) إذا رأيتم الرجل يضيع من الصلاة فهو لغيرها من حق الله أشد تضييعا[٣١]

* * *

(٣٦) تعاهدوا الرجال فى الصلاة ، فإن كانوا مرضى فعودوهم ، وإن كانوا غير ذلك فعاتبوهم[٣٢] .

* * *

(٣٧) أقلل من الدين تعش حرا[٣٣] .

* * *

(٣٨) أقلل من الذنوب يهن عليك الموت[٣٤] .

* * *

(٢٨) السابق : ١٥٧ .
(٢٩) السابق : ١٦٩ .
(٣٠) السابق ١٥٤ .
(٣١) السابق ١٥٨ .
(٣٢) السابق ١٦٠ .
(٣٣) سيرة عمر للطنطاوين : ٥٦٤ .
(٣٤) السابق : ٥٦٥ .

(٣٩) لا تتهاونوا بالحلف فيهينكم الله تعالى[٣٥] .

* * *

(٤٠) لا تسأل عما لم يكن ، فإن فيما كان شغلا عما لم يكن [٣٦] .

* * *

(٤١) احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية ، فوالله لهى أخوفهما عندى عليك أن تستدرجك وتخدعك [٣٧] .

* * *

(٤٢) إذا اشتريت بعيرا فاجعله ضخما ، فإن أخطأك خبر لم يخطئك سوق [٣٨] .

* * *

(٤٣) كل عمل كرهت من أجله الموت فاتركه ، ثم لايضرك الموت [٣٩] .

* * *

(٤٤) حرفة يعاش بها خير من مسألة الناس[٤٠] .

* * *

(٤٥) ابتغوا الأرزاق من خبايا الأرض .

* * *

(٤٦) إياكم ولعن الأرض [٤١]

* * *

---

(٣٥) السابق نفس الصفحة .
(٣٦) السابق : ٥٦٦ .
(٣٧) مجمع الأمثال ٢/ ٤١٩ .
(٣٨) البيان والتبيين ٢/ ١٥١ (وفى البخلاء للجاحظ : إذا اشتريت جملا فاجعله ضخما فإن لم يبعه الخبر باعه المنظر) .
(٣٩) سيرة عمر للطنطاوين . ٥٦٦
(٤٠) البيان والتبيين : ٢/ ٤٠ .
(٤١) نسيرة عمر للطنطاوين : ٥٦٤ .

(٤٧) لا تنهكوا وجه الأرض فإن شحمتها فيه [٤٢] .

* * *

(٤٨) لا تنكحوا المرأة الرجل الذميم القبيح ، فإنهن يحببن لأنفسهن ماتحبون لأنفسكم [٤٣] .

* * *

(٤٩) لن يعطى أحد بعد كفر بالله — عزوجل — شيئا شرا من امرأة حديدة اللسان ، سيئة الخلق ، لا ودود ولا ولود [٤٤] .

* * *

(٥٠) قال عمر لرجل همّ بطلاق امرأته : لم تطلقها ؟ قال لا أحبها . قال عمر : أوكلُّ البيوت بنيت على الحب ؟ فأين الرعاية والتذمم ؟ [٤٥] .

* * *

(٥١) يهدم الإسلامَ زلة عالم ، وجدال منافق بالقرآن ، وأئمة مضلون [٤٦] .

* * *

(٥٢) لو أن الشكر والصبر بعيران لما باليت بأيهما ركبت .

* * *

(٥٣) ما الخمر صرفا بأذهب للعقول من الطمع .

* * *

---

(٤٢) البيان والتبين : ٢/١٥١ .
(٤٣) ابن الجوزى : ١٧١ .
(٤٤) السابق نفس الصفحة .
(٤٥) البيان والتبيين : ٢/٤٤ .
(٤٦) ابن الجوزى : ١٥٨ .

(٥٤) ليس لأحد عذر في تعمد ضلالة حسبها هدى ، ولا ترك حق حسبه ضلالة [٤٧] .

* * *

(٥٥) لاينفع تكلم بحق لانفاذ له [٤٨] .

* * *

(٥٦) لكل شيء رأس ، ورأس المعروف تعجيله [٤٩] .

* * *

(٥٧) إن يكن الشغل مجهدة ، فإن الفراغ مفسدة [٥٠]

* * *

(٥٨) التؤدة في كل شيء خير إلا ما كان من أمر الآخرة [٥١] .

* * *

(٥٩) ما جرع عبد جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ [٥٢] .

* * *

(٦٠) الشتاء غنيمة العابدين [٥٣] .

* * *

(٦١) الزاهد إذا رأيتموه يلزم السلطان من غير ضرورة فهو لص .

* * *

---

(٤٧) مجمع الأمثال : ٢/٤١٩ .
(٤٨) السابق نفس الصفحة .
(٤٩) البيان والتبيين : ٣/١٤٤ .
(٥٠) البخلاء : ٣١٨ .
(٥١) ابن الجوزي : ١٥٦ .
(٥٢) السابق : ١٥٧ .
(٥٣) السابق : ١٦٢ .

(٦٢) صاحب الحاجة أبله لايرى الرشد إلا فى قضائها .

* * *

(٦٣) مارفق أحد بأحد إلا رفق به يوم القيامة .

* * *

(٦٤) مراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .

* * *

(٦٥) اقتصاد فى سنة خير من اجتهاد فى بدعة (٥٤) .

* * *

(٦٦) يأتى على الناس زمان يكون صالح الحى من لايأمر بالمعروف ، ولاينهى عن المنكر . إن غضبوا غضبوا لأنفسهم ، وإن رضوا رضوا لأنفسهم ، لايغضبون لله ، ولا يرضون لله عزوجل (٥٥) .

* * *

(٦٧) الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم (٥٦) .

* * *

(٦٨) ثلاث يصفين لك ودأخيك : أن تسلم عليه إذا لقيته ، وتوسع له إذا جلس إليك ، وأن تدعوه بأحب أسمائه إليه . وكفى بالمرء من الغىّ أن يبدو من أخيه مايخفى عليه من نفسه مما يأتى ، وأن يؤذى جليسه بمالايعنيه (٥٧) .

* * *

---

(٥٤) سيرة عمر للطنطاوين : ٥٧٠

(٥٥) ابن الجوزى : ١٦٨ .

(٥٦) السابق : ١٧٥ .

(٥٧) السابق : ١٧٩ .

(٦٩) إن الحكمة ليست من كبر السنّ ، ولكنه عطاء الله يعطيه من يشاء ، فإياك ودناءة الأمور ! (٥٨) .

* * *

(٧٠) رحم الله امرءا أمسك فضل القول وقدم فضل العمل (٥٩) .

* * *

(٧١) الغالب فى الشر مغلوب ، وماظفر من ظفر بالإثم (٦٠) .

* * *

(٧٢) أعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله (٦١) .

* * *

(٧٣) كتب إليه سعد بن أبى وقاص فى بنيان يبنيه ، فوقع عمر فى أسفل كتابه :
ابنِ مايكنُّك من الهواجرِ وأذى المطر (٦٢) .

* * *

(٧٤) ووقع إلى عمرو بن العاص :
كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك (٦٣) .

---

(٥٨) السابق : ١٦١ .
(٥٩) سيرة عمر للطنطاو ين .
(٦٠) السابق : ٥٧٢ .
(٦١) السابق ٥٧٠ .
(٦٢) العقد الفريد ٤/٢٠٥ : كَنَّ الشيء : صانه وحفظه ، والكنّ ؛ السترة وجمعه أكتان . والهاجرة والهجير: نصف النهار عند اشتداد الحر.
(٦٣) السابق نفس الصفحه .

الشريحة الرابعة

الجـــدل و الحــــوار

(١) عمر وجبلة بن الأيهم *

لما أسلم الملك الغساني جبلة بن الأيهم ، وكان من ملوك آل جفنة كتب إلى عمر — رضى الله عنه — يستأذنه فى القدوم عليه فأذن له عمر ، وأحسن عمر استقباله فى المدينة ، ثم أراد عمر الحج فخرج معه جبلة ، فبينا هو يطوف بالبيت — وكان مشهورا بالموسم — إذ وطىء إزاره رجل من بنى فزارة فانحل ، فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزارى ، فاستعدى عليه عمر — رضى الله عنه — ودار بينهما الحوار الآتى :

— ماهذا ؟

— نعم يا أمير المؤمنين ؛ إنه تعمد حل إزارى ، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف .

— قد أقررت ، فإما أن ترضى الرجل ، وإما أن أقيده منك .

— وماذا تصنع بى ؟

---

* انظر الأغانى ١٥/٥٤٦٥ .

وذهب الواقدى إلى أن عمر بعث برسالة إلى أبى عبيدة بالشام سجل فيها كل ماحدث بينه و بين جبله [انظر الواقدى : فتوح الشام ١/٧٠]

ـــ آمر بهشم أنفك كما فعلت .

ـــ وكيف ذاك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ؟

ـــ إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية .

ـــ قد ظننت يا أمير المؤمنين أنى أكون فى الإسلام أعز منى فى الجاهلية .

ـــ دع عنك هذا ، فإنك إن لم ترض الرجل أقدته منك .

ـــ إذن أتنصر .

ـــ إن تنصرت ضربت عنقك ، لأنك أسلمت ، فإن ارتددت قتلتك .

ـــ أنا ناظر فى هذا ليلتى هذه .

وفى سكون الليل وغفلة الناس هرب جبلة ومن معه إلى الشام وعاد الى النصرانية فكان سرور هرقل بذلك عظيما .

(٢) عمر والهرمزان *

كان الهرْمزان من أشهر وأعظم قادة الفرس فلما فتح المسلمون «تُستر» أسره المسلمون وقدمُوا به على عمر فى المدينة فلما رآه عمر قال :

أعوذُ بالله من النار ، وأستعينُ الله ، الحمد لله الذى أذلّ بالإسلام هذا وأشياعه ، يامعشر المسلمين تمسَّكُوا بهذا الدين ، واهتدُوا بهدْى نبيكم ، ولا تبطرنكم الدنيا فإنها غرَّارة . .

هيه ياهرمزان ! ! ؟ كيف رأيت وبالَ الغدر وعاقبة أمرِ الله ؟ تكلم .

ـــ أكلامَ حىّ أم كلامَ ميت ؟

ـــ تكلم فلا بأس .

* فتوح البلدان للبلاذرى ٣٧٤ .

ـــ ياعمر!! إنا وإيَّاكم معشر العرب ماخلّى الله بيننا و بينكم كنا نقتلكم ونقْصيكم[1] ، إذ لم يكن مَعَنا ولامعكم ، فلما كان معكم لم تكن لنا بكم يدان[2] .

ـــ إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعِكم وتفرقنا . ماعذرك وماحجتك فى انتقاضك[3] مرة بعد مرة .

ـــ أخافُ أن تقتلنى قبل أن أخبَرك .

ـــ لاتخفْ ذلك

فلما أتَوه بإناء الماء أخذتْ يدُه ترتجف ، وقال

ـــ إنى أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء

ـــ لابأسَ عليك حتى تشربه .

فأكفأ الهرمزانُ الإناء وأراقَ الماء . فقال عمر ـــ رضى الله عنه ـــ :

ـــ أعيدُوا عليه ، ولاتجمعُوا عليه القتلَ والعطش .

ـــ لاحاجةَ لى فى الماء إنما أردتُ أن استأمنَ به

ـــ إنى قاتلُك .

ـــ قد آمنْتَنى .

ـــ كذبْتَ .

فقال أنس : صدق يا أمير المؤمنين قد آمنْته .

قال عمر .

ـــ ويحك ياأنس أنا أؤَمّنُ قاتلَ مجزأة بن ثور السدوسى والبراء بن مالك ؟ والله لتأتينَّ بمخرج[4] أولأُ عاقبنَّك .

---

(١) نطردكم ونبعدكم ونلجئكم إلى الفرار .

(٢) أى:عجزنا عنكم ولم نطق قتالكم .

(٣) غدرك ونكثك .

(٤) أى:بمايؤ يد قولك .

قال أنس :

ــ قد قلت له : لابأس عليك حتى تخبرنى ، وقلتَ : لابأس عليك حتى تشربه .

وأمّن الحاضرونُ على كلام أنس . فأقبل على الهرمزان وقال :

ــ خدعتنى : والله لا أنخدع الا لمسلم .

فأسلم الهرمزان وفرض له على ألفين وأنزله المدينة .

(٣) عمر وخالد بن عرفطة *

قدم خالد بنُ عُرْفُطة العذرى على عمر من العراق فسأله عما وراءه فقال : ياأمير المؤمنين : تركتُ مَنْ ورائى يسألون اللهَ أن يزيد فى عمرك منْ أعمارهم ، ماوَطىء أحدٌ القادسيةَ إلا عطاؤه ألفان أوخمس عشرة مائة ، وما من مولود يولدَ إلاألحق على مائةٍ وجَريبين (٥) كل شهر : ذكراً كان أوأنثى ، ومايبلغ لنا ذكر إلا أُلحق على خمسمائة أوستمائة ، فإذا خرج هذا لأهل بَيت منهم من يأكلُ الطعام ومنهم من لايأكلُ الطعام (٦) ، فما ظنك به ؟ إنه لينفقه فيما ينبغى وفيما لاينبغى (٧) .

قال عمر : فالله المستعان . إنما هو حقُّهم أعطوه ، وأنا أسعدُ بأدائه إليهم منهم بأخْذه ، فلا تحمدنى عليه ، فإنه لوكان من مالِ الخطاب ما أعطيتموه ، ولكنى قد علمتُ أن فيه فضلاَ (٨) ولاينبغى أن أحبسه عنهم ، فلوأنه إذا خرج عطاء أحِد هؤلاء العُرَيْب (٩) ابتاعَ منه غنما فجعلها بسوادهم ، ثم إذا خرج العطاء الثانية ابتاع

* ابن سعد ٣/٢٩٨ .

(٥) الجريب : قرابة ٣٧٠ رطلا .

(٦) أى:الطفل الرضيع أوالصغير وهو غير مكلّف .

(٧) واضح من كلام خالد أنه يقترح على عمر ــ بطريقة غير مباشرة ــ تقليل العطاء .

(٨) الفضل : الزيادة .

(٩) الأعراب أوالعرب .

الرأس(١٠) فجعله فيها ، فإني ــ ويحك ياخالد بن عرفطة ــ أخافُ عليكم أن يليكم بعدى ولاة لايعد العطاء فى زمانهم مالا ، فإن بقى أحد منهم أوأحدٌ من وَلَده كان لهم شيء قد اعتقدُوه(١١) فيتكئون(١٢) عليه ، فإن نصيحتى لك وأنت عندى جالسٌ كنصيحتى لمن هو بأقصى ثغرٍ من ثغور المسلمين وذلك لما طوقنى الله من أمرهم (١٣)، قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « من مات غاشًا لرعيته لم يَرِح رائحة الجنة » .

(٤) عمر وفرات بن زيد الليثى *

دخل فرات بن زيد الليثى على عمر بن الخطاب ، وكان ذامال كثير ، وكان يبخلُ ، وكان من ألبَّاء(١٤) العرب ، وذوى العلم والرأي فوجد عمر يعطي المهاجرين والأنصار فقال له : فرات ، من الذى يقول :

الفقر يزرى بالفتى في قوْمه والعين يغضيها الكريم على القذى (١٥)
والمال يبسط للئيم لسانه حتى يصير كأنه شيء يرى
والمال جُدْ بفضوله ولتعلمَنْ أن البخيلَ يصيرُ يوما للثرى

قال : لا أدرى يا أمير المؤمنين ، غير أني عرفت أن أخابني ضبيعة أشعر الناس حيث يقول :

واصلاحُ القليل يزيد فيه ولا يبقَى الكثيَرُ مع الفسادِ

---

(١٠) الإبل .
(١١) ادخروه .
(١٢) يعتمدون عليه فى معاشهم .
(١٣) حملنى من تبعاتهم .
* الأخبار الموفقيات ٦٢٨ .
(١٤) ألباء : أذكياء ونجباء . جمع لبيب .
(١٥) يزرى بالفتى : يعيبه ويحط من قيمته . واغضاء العين على القذى كناية عن التجاوز والسماح .

فقال عمر: قول الله عز وجل: « ومَنْ يُوقَ شُحَّ نفسِهِ فأولئك هم المُفْلِحونَ »[16] أفضل.

قال: يا أمير المؤمنين، إن الله — تعالى — يقول:

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴾[17]

قال عمر: فبين ذلك قواما [18]. يافرات اتق اللهَ وانما لك من مالك ما أنفقتَ. يافرات أطعم السائل وكن سريعا الى داعي الله، ان الله جواد يحبُّ الجودَ وأهلَه، وان البخلَ بئسَ شعار المسلم.

يا فرات أتدرى من الذى يقول: ؟.

سأبذل مالي للعُفاةِ فإنني
رأيت الغنى والفقر سيّان في القبرِ
يموتُ أخو الفقرِ القليلُ متاعُه
ولا تترك الايامُ مَنْ كان ذا وفر
وليس الذى جمَّعتُ عندى بنافع
اذا حلّ بى يوما جليلٌ من الأمر

قال: لا أدرى يا أمير المؤمنين.

قال: هذا شعر أخيك قسامة بن زيد. قال: ماعلمته. قال: بلى هو أنشدنيه، وعنه أخذته، وإن لك فيه لعبرة.

قال: يا أمير المؤمنين، وفّقك الله وسدّدك، أمرت بخير وحضضتَ عليه. وترك فرات كثيرا مما كان عليه.

---

(16) الحشر ٩.
(17) الإسراء ٢٧.
(18) إشارة إلى قوله تعالى « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » الفرقان ٦٧.

(٥) عمر وامرؤ القيس *

سأل العباس بن عبد المطلب عمر ــ رضى الله عنهما ــ عن الشعراء فقال : امرؤ القيس سَابِقُهم ، خسف لهم عين الشعر ، فافتقر عنْ معانٍ عورٍ أصح بَصَرٍ [١٩] .

(٦) عمر والنابغة الذبيانى *

قال عمر ــ رضي الله عنه ــ : يا معشر غطفان ! مَن الذي يقول :

إلا سليمان إذ قال الإلهُ له قم في البرية فاحدُدْها عن الفَنَد [٢٠]
وخيِّرّ الجنّ أني قد أذنت لهم يبنون تدْمُر بالصُّفّاح والعمدَ [٢١]

قالوا : النابغة يا أمير المؤمنين ، قال : فمن الذي يقول :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً وليس وراء الله للمرء مذهبُ
لئن كنتَ قد بُلّغتَ عني خيانةً لَمُبْلِغُكَ الواشي أغش وأكذب
ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تَلُمُّه على شعثٍ أي الرجال المهذب؟

قالوا : النابغة يا أمير المؤمنين ، قال : فمن القائل :

خطاطيفُ حُجْنٌ في حبال متينة تمدّ بها أيد إليك نوازع [٢٢]
فإنك كالليل الذي هو مُدْركي وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسع

قالوا : النابغة يا أمير المؤمنين ، قال : فمن القائل :

---

* الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٣٣ .

(١٩) يقصد أن امرىء القيس أنبط لهم عين الشعر، وأغزرها لهم ، و بين لهم الطريق ، و بصرهم بمعانيه وفنن أنواعه وقصيده فاحتذى الشعراء على مثاله .

* الأغانى ١١/٣٧٩٠ ، ١١/٣٨٠٨ وانظر كذلك الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٦٤ .

(٢٠) الفند : الخطل والفساد . والحد : المنع .
والمخاطب بهذه الأبيات هو الملك النعمان بن المنذر وكذلك الأبيات التالية .

(٢١) تدمر : مدينة قديمة مشهورة كانت ببرية الشام يقال إنها كانت مما بنته الجن لسليمان . والصفاح : حجارة دقاقٌ عراض

(٢٢) خطاطيف حجن : خطاطيف معوجة . ونوازع : جواذب يقول : لك خطاطيف قوية أجرّ إليك بها . كناية عن أنه لانفر له منه .

إلى ابـن محـرّق أعـمـلـت نـفـسي   وراحلـتي وقد هـدت (٢٣) العيـونُ
فـألـفـيـت الأمـانـة لم يَـخُـنْـهَا   كـذلـك كـان نـوحٌ لايخـون
أتـيـتـك عـاريـاً خَـلَـقـاً ثيـابـي   على خـوف تُـظَـنّ بـي الـظنـون

قالوا : النابغة يا أمير المؤمنين ، قال : هو أشعر شعرائكم .

(٧) عمر وزهير بن أبي سلمى *

قال عمر بن الخطاب لابن عباس — رضي الله عنهما — هل تروي لشاعر الشعراء ؟ قلت : ومن هو؟ قال : الذي يقول :

ولـو أن حمـداً يخلـد الـنـاس أخلـدوا   ولـكـنّ حمـد الـنـاس لـيـس بمخْلِدِ

قلت : ذاك زهير . قال : فذاك شاعر الشعراء ؟ قلت وبم كان شاعر الشعراء ؟ قال : لأنه كان لايعاظل بين الكلام ، وكان لايتبع حوشي الشعر ، ولايمدح الرجل إلا بمافيه (٢٤) .

* * *

وأنشد عمر شعر زهير ، فلما بلغ قوله :

فـإن الحـق مـقـطـعـه ثـلاثٌ   يمـيـنٌ أو نِـفـارٌ أوجِـلاء

جعل عمر يتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها و يقول : لايخرج الحق من إحدى ثلاث : إما يمين أومحاكمة أوحجة

* * *

ووفدت ابنة هَرِم على عمر فقال لها : ماكان الذي أعطى أبوك زهيراً حتى قابله من المديح بما قد سار فيه ؟ فقالت : قد أعطاه خيلاً تنضى ، وإبلاً تتوى (تهلك) ،

---

(٢٣) هدت : اصله هدأت بالهمزة ثم حذفت لالتقاء الساكنين .

* العمدة ١/٩٨ : وابن قتيبة ١/١٤٤ — وانظره كذلك ١/١٤٩ .

(٢٤) البيان والتبيين ١/١٣٥ . وانظر العمدة ١/١٥٥ .

وثياباً تبلى ، وما لأ يفنى . فقال عمر ــ رضى الله عنه ــ : لكن ما أعطاكم زهير لايبليه الدهر، ولايفنيه العصر

وقال الأصمعي : قال عمر لبعض ولد هَرِم : أنشدني بعض مدح زهير أباك . فأنشده . فقال عمر : إن كان لَيحسن فيكم القول . قال : ونحن والله إن كنا لَنحسن له العطاء ، قال : قد ذهب ما أعطيتموه ، و بقى ما أعطاكم

(٨) عمر والحطيئة *

كان الحطيئة قد جاور الزبرقان بن بدر فلم يحمد جواره ، فتحول عنه إلى آخر من كرام الناس اسمه (بغيض) فأكرم جواره ، فقال يهجو الزبرقان ويمدح بغيضا .

ما كان ذنبُ بغيض أن رأى رجلا ذا حاجة عاش فى مستوعر شاسِ
جارا لقوم أطالوا هَوْنَ منزله وغادروه مقيما بين أرْمَاس
ملوا قراه وهرّتْه كلابُهُم وجرجوه بأنياب وأضْراس
دع المكارم لا ترحلْ لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى(٢٥)

فقدم الزّبرْقان بن بدر على عمر يستعديه على الحُطيئة ، فرفعه عمر إليه وقال للزبرقان : ماقال لك ؟ فقال الزبرقان قال لي :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فقال عمر: ما أسمع هجاء ، ولَكنها معاتبة ، فقال الزِبرقان : أولا تبلغ مروءتي إلا أن آكل وألبَس ! والله يا أمير المؤمنين ماهُجيت ببيت قط أشدّ علي منه ، سل ابن الفُرَيعة ــ يعني حسان بن ثابت ــ فقال عمر : علي بحسان ، فجيء به ، فقال :

---

* ابن الجوزى ٦٧

(٢٥) انظر القصيدة كلها فى الأغانى ٦٠٢ ــ ٦٠٣ مع اختلاف فى الأبيات صياغة وترتيبا .

أتراه هجاه ؟ قال : نعم وسلح عليه ! ــ وعمر يعلم من ذلك مايعلم حسان ولكنه أراد الحجة على الحُطَيئة ــ فألقاه عمر في حفرة اتخذها مَحبِساً . فجعل الحُطيئة يستعطف عمر بالشعر و يرسله إليه فمن ذلك قوله :

تحنن عليَّ هداك المليكُ ... فإن لكل مقام مقالا
فلا تسمعنْ بي مقالَ العدى ... ولا تُوكِلَنِّي هديتَ الرجالا
فإنك خيرٌ من الزبرْقان ... أشدُّ نكالاً وخيرٌ نوالا

فلم يلتفت إليه عمر حتى قال أبياته التالية :

ماذا تقول لأفراخ بذي مَرَخ ... زُغب الحواصل لاماء ولاشجر(٢٦)
ألقيت كاسبَهُم في قَعرِ مُظْلِمَةٍ ... فاغفرْ عليك سلامُ الله ياعمرُ
أنتَ الإمامُ الذي من بعد صاحبِهِ ... ألقَى إليكَ مقاليدَ النُّهى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدّموك لها ... لكن لأنفسهم كانت بك الأُثَر(٢٧)

وشفع له عبد الرحمن بن عوف ، فرقّ له عمرُ وأخرجه وقال له : إياكَ وهجاءَ الناس ، فقال : إذن يموت عيالي جوعاً ، هذا مأكلة عيالي ، ونملةٌ تَدِبَ على لساني ، وهو مكسبي ، ومنه معاشي ، فدعا عمر بكرسيّ فجلس عليه ودعا بالحُطيئة فأجلسه بين يديه ، ودعابإشفى(٢٨) وشفرة يوهمه أنه سيقطع لسانه ، فقال له الزِبرِقانُ : نشدتك الله ياأميرَ المؤمنين أن لا تقطعه ، فإن كنتَ لابدّ فاعلاً فلا تقطعه فيَ بيت الزّبِرقان ، وضجّ الحُطيئة من ذلك فقال لعمر: يا أمير المؤمنين إني والله قد هجوت أبي وأمي ، وهجوت امرأتي ، وهجوت نفسي ، فتبسمَ عمر رحمه الله وقال : فما الذي قلت ؟ قال : قلت لأمي :

ولقدر رأيتكِ في النسآء فسُؤْتني ... وأبا بنيكِ فسآءني في المجلس

وقلت لها :

---

(٢٦) ذومرخ : واد بالحجاز .
(٢٧) الأُثر : جمع أثرة وهي المكرمة .
(٢٨) الإشفى : المِثْقب (آلة الثقب) .

تـنـحـيْ فـاجـلسي مـني بعيداً   أراح اللّـهُ مـنـك الـعـالمـيـنـا

وقلت لامرأتي :

أطــــوّفُ مـا أطــــوّفُ ثم آوي   إلى بـيـتٍ قَـعـيـدتُـهُ لـكـاع

فقال له عمر: فكيف هجوت نفسك؟ فقال : اطلعت في بئر فرأيت وجهي فاستقبحته فقلت :

أبـت شـفـتـاي الـيـوم إلاّ تـكـلّـماً   بسوءٍ فـما أدري لمـن أنـا قـائـلُـهْ
أرى لـي وجـهـاً شـوّه الله خـلـقَـه   فـقُـبِّـح مـن وجـه وقُـبِّـحَ حـامـلُـه

فاشترى منه أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة آلاف درهم ــ كما يروى ــ وأخذ عليه ألاّ يهجوَ أحداً بعدها ، فقال يذكر نهيه إياه عن الهجاء و يتأسف :

واخـذتَ أطرافَ الـكـلام فـلـم تـدع   شـتـمـاً يضر ولا مـديحـاً يـنـفـعُ
ومـنـعـتـنـي عِرض الـبـخيل فلم يخف   شـتـمـي وأصـبـح آمـنـاً لايجـزعُ

وقام بعهده مدة حياة عمر، ثم رجع إلى الهجاء بعد وفاته(٢٩) .

(٩) عمَر والنجاشي الشاعر *

استعدى تميم بن مقبل عمر بن الخطاب على النجاشي فقال : يا أمير المؤمنين ! هجاني فأعْدِني(٣٠) عليه ، قال : يانجاشي ماقلت ؟ قال : يا أمير المؤمنين قلت مالا أرى عليّ فيه إثماً وأنشد :

إذا الله عـادى أهـل لـؤمٍ وذلـةٍ   فـعادى بـني العجلان رهطَ ابن مقبل

---

(٢٩) ابن الجوزى ٦٧ . والكامل للمبرد ١/ ٣٥٢ والعمدة ١/ ٧٦ . وابن قتيبة ١/ ٣٣٣ . والأغانى ٢/ ٥٩٧ ــ ٦٠٣ على اختلاف فى التفاصيل .

* العمدة ١/ ٧٦ . وابن قتيبة ١/ ٣٣٧ . وزهر الآداب ١/ ٥٤ .
(٣٠) أعدنى : انصرنى .

فقال عمر: إن الله لايعادي مسلماً ، فقال :

قبيلته لايغدرون بذمةٍ ولا يظلمون الناسَ حبةَ خردلِ

فقال عمر: ليتني من هؤلاء ، فقال :

نعافُ الكلابُ الضارياتُ لحومَهم وتأكلُ من عوفِ بن كعبِ بن نهشلِ

فقال عمر: كفى ضياعاً بمن تأكلُ الكلابُ لحمه ، فقال :

ولا يَرِدون الماء إلاّ عشيةً إذا صدر الوُرّاد عن كل مَنْهلِ

فقال عمر: ذلك أصفى للماء وأقل للزحام ، فقال :

وما سمي العجلانَ إلاّ لقوله خذ القعبَ وَاحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر: خير القوم أنفعهم لأهله ، فقال تميم : فسله عن قوله :

أولئك أولاد الهجين وأسرة الـ ـلئيم ورهط العاجز المتذلل(٣١)

فقال عمر: أما هذا فلا أعذرك عليه . فحبسه وضربه

(١٠) عمر والزبرقان بن بدر *

لما قدم عبد الله بن أبي ربيعة من البحرين نزل على الزبْرقان بن بدر بمائه ، ـ وهو الماء الذي يقال له تبنان ـ فَخَلأه (أي منعه) ، فنزلَ على بني أنف الناقة بمائهم ـ وهو الذي يقال له وشيع ـ فأكرموه وذبحوا له شاة وقالوا : لو كانت إبلنا منا قريبة لنحرنا لك ، فراح من عندهم يتغنى فيهم بقوله :

وما الزّبرقان يوم يمنع ماءه بمحتسب التقوى ولا متوكل

مقيم على تبنان يمنع ماءه وماء وشيع ماء ظمآنَ مرمل

(٣١) الهجين : غير الشريف .

* الأغاني ٦١١/٢

قال فركب الزبرقان إلى عمر ــ رضي الله عنه ــ فاستعداه على عبدالله فقال: إنه هجاني يا أمير المؤمنين، فسأل عمر عن ذلك عبدالله فقال له: يا أمير المؤمنين! إني نزلت على مائه فَحَلأني عنه، فقال عمر: يازبرقان أتمنع ماءكَ من ابن السبيل؟ قال: يا أميرَ المؤمنين! ألا أمنعُ ماء حفر آبائي مجاريه ومستقرّه، وحفرته أنا بيديّ؟ فقال عمر: والذي نفسي بيده لئن بلغني أنك منعت ماءك من أبناء السبيل لاساكنتني بنجد أبداً.

(١١) عمر وسُحَيْم *

جاء سحيمُ عبدُ بنى الحَسْحاس، وأنشدَه قوله:

عميرةَ ودِّع إن تجهزْتَ غادِيا ... كفى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهِيا(٣٢)

فقال عمر: لوقلتَ شعرك مثل هذا أعطيتُك عليه.

فلما قال سحيم:

فباتَ وسادَانا إلى عَلَجَانَةٍ ... وحِقْفٍ تهاداهُ الرياحُ تَهاديا(٣٣)

وهبَّتْ شمال آخر الليل قَرة ... ولا ثوبَ إلا درعُها ورداؤُها(٣٤)

فمازال بردِي طيباً من ثيابها ... إلى الحولِ حتى أنهج الثوبُ باليا(٣٥)

قال عمر: ويلك إنك مقتول (٣٦)

---

* طبقات فحول الشعراء ١/١٨٨.

(٣٢) غاديا: مبكرا بالرحيل.

(٣٣) العلجانة: شجرة خضراء مظلمة الخضرة ليس لها ورق وتنبت فى الشهول. الحقف: ما استطال واعوج، وأشرف من الرمل. تهاداه: أصلها: تتهاداه.

(٣٤) القرة: الشديدة البرد. درع المرأة ثوب ذو يدين تلبسه العواتق. ومعنى البيت أن شدة البرد ألجأت كل واحد إلى حضن صاحبه إذلاغطاء معهما.

(٣٥) انهج الثوب: بلى ورث وتخرق.

(٣٦) وكأنما كان عمر ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، فقد شبب بإحدى الحرائر، وأفحش القول، فأخذه قومها ثملا وقتلوه.

(١٢) عمر والخنساء..

حكى أن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ نظر إلى الخنساء وفى وجهها ندوبٌ، فقال ماهذا ياخنساء؟ فقالت من طول البكاء على أخوىّ، قال لها: أخواك فى النار. قالت: ذلك أطولُ لحزنى، إنى كنتُ أبكى لهما فى النار، وأنا اليومَ أبكى لهما من النار(٣٧)

* * *

وفى رواية أخرى(٣٨) أنها أقبلت حاجة فمرت بالمدينة مع قومها فأتوا عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ فقالوا: هذه خنساء فلووعظتها، فقد طال بكاؤُها في الجاهلية والإسلام. فقام عمر وأتاها وقال: ياخنساء! فرفعت رأسها فقالت: ماالذي تريد؟ فقال: ماالذي قرّح مآقي عينيك قالت: البكاء على سادات مضر، قال: إنهم هلكوا في الجاهلية وهم أعضاء اللهب وحشوُ جهنم. قالت: ذلك والله أطول لعويلي عليهم قال: فأنشديني ماقلت، قالت: أما إني لا أنشدك ماقلت قبل اليوم، ولكني أنشدك ماقلته الساعة، فقالت:

سقى جَدَثاً أعراق غمرةَ دونه ... وبيشةُ دِيماتُ الربيع ووابِلُهْ
وكنت أعيرُ الدمعَ قبلك مَنْ بكى ... فأنتَ على من مات قبلك شاغلُه
وأرعيهم سمعي إذا ذكروا الأَسَى ... وفى الصدر مني زفرة لا تزايله

فقال عمر: دعوها، فإنها لا تزال حزينة أبداً...

(١٣) عمر ومتمِّم بن نويرة *

دخل متمم على عمر ــ رضى الله عنه ــ فقال له عمر:
ما أرى فى أصحابك مثلك! قال: يا أمير المؤمنين، أما والله إنى مع ذلك لأركب

---

(٣٧) ابن نباته المصرى: سرح العيون ٢٧٠.
(٣٨) الجاحظ: المحاسن والأضداد ١٨٨.
* ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/٣٤٤. وانظر كذلك ابن سلام الجمحى طبقات فحول الشعراء ١/٢٠٨.

الجمل الثَّفَالَ(٣٩) ، وأعتقل الرمح الشَّطُونَ(٤٠) ، وألبس الشملة الفَلُوت(٤١) ، ولقد أسرتني بنو تغلب في الجاهلية ، فبلغ ذلك أخي مالكا فجاء ليفديني ، فلما رآه القوم أعجبهم جماله ، وحدثهم فأعجبهم حديثه ، فأطلقوني بغير فداء .

* * *

ولما استشهد زيد بن الخطاب يوم مسيلمة ودخل متمم على عمر بن الخطاب ، فقال له : أنشدني بعض ماقلت في أخيك ، فأنشده شعره الذى يقول فيه :

وكنّا كندمانَيْ جذيمة حقبةً ... من الدهرِ حتى قيل لن يتصدّعا
فلما تفرقْنا كأني ومالكا ... لطولِ اجتماع لم نَبِتْ ليلة مَعَا(٤٢)

فقال له عمر: يامتمم ، لوكنتُ أقول الشعر لسرني (٤٣) أن أقول في زيد بن الخطاب مثل ماقلت في أخيك ، قال متمم : ياأمير المؤمنين ، لوقتل أخي قتلة أخيك ماقلتُ فيه شعرا أبدا ، فقال عمر : يامتمم ، ماعزاني أحد في أخي بأحسنَ مما عزيتني به (٤٤)

(١٤) عمر وأبو شجرة السلمي *

أتى أبو شجرة السُّلَمى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يستحمله (٤٥) فقال له عمر: ومن أنت ؟ فقال : أنا أبو شجرة السُّلَمي . فقال له عمر: أي عُدَيّ نفسه(٤٦) ؟ ألست القائل حيث ارتددت :

---

(٣٩) الثفال : البطيء .
(٤٠) الشطون : الطويل الأعوج .
(٤١) الشملة الفلوت : التى لاينضم طرفاها لصغرها فهى تفلت من يده إذا اشتمل بها .
(٤٢) نداما جذيمة : هما مالك وعقيل ابنا فارج بن كعب . نادما جذيمة الأبرش أمدا طويلا ثم قتلهما وانظر القصيدة كلها فى المفضليات ص٢٦٥ ـ ٢٧٠ . وهى المفضلة رقم٦٧ .
(٤٣) سرني : أسعدني
(٤٤) لأن زيدا مات على الإسلام شهيدا . أما مالك فمات على الكفر قتيلا بيد خالد بن الوليد ، بعد أن ارتد عن الإسلام ومنع الزكاة .
* الكامل للمبرد ١/ ٢٢٩ وانظر الاكتفا للكلاعى ١٦١ وهامش الأغانى٦/ ٢٢٨٧ .
(٤٥) يستحمله : يطلب منه صدقه .
(٤٦) عُدَيّ : تصغير عدو .

ورَوّيتُ رمحي من كتيبة خالدٍ ... وإني لأرجو بعدها أن أعَمَّرا
وعارضتُها شهباء تَخْطِرُ بالقنا ... ترى البيَض في حافاتها والسَّنَّورا(٤٧)

ثم لخف عليه عمر بالدِرّة (اللخف : الضرب الشديد) ، فسعى إلى ناقته فحلّ عِقالها وأقبلها حَرّة بني سُليم بأحثّ السير هرباً من الدرة ! وهو يقول .

قد ضنّ عنا أبو حفص بنائله ... وكل مختبط يوماً له ورَقُ(٤٨)
مازالَ يضربُني حتى خَذيتُ له ... وحالَ من دونِ بعضِ الرغبة الشفق(٤٩)
ثم التفتُّ إليها وهي حانيةٌ ... مثل الرِّتَاج إذا مالزّه الغلق(٥٠)
أقبلتها الخَلَّ من شُوران مجتهداً ... إني لأزْري عليها وهي تنطلق(٥)

(١٥) عمر وعبدة بن الطبيب *

أنشِدَ عمر قصيدةَ عبْدَة بن الطبيب الطويلة التي على اللام ، فلما بلغ المنشد إلى قوله :

والمرء ساع لأمرٍ ليس يدركُهُ ... والعيش شحٌّ وإشفاقٌ وتأميل

قال عمر متعجباً : والعيش شحٌّ وإشفاقٌ وتأميل ! ماأحسن ماقسّم !

---

(٤٧) الشهباء : الكتيبة الكثيرة السلاح . القنا : جمع قناة وهى عصا الرمح ، و يقصد بالقنا مطلق الرماح . والبيض : (بفتح الباء) جمع بيضة : وهى مايتقى به فى القتال كالدرع وماشابهها والسَّنوَّر: كل سلاح من حديد .

(٤٨) أى كل من يستجدى خيرا قد ينال منه .

(٤٩) خذيت : انكسرت وخضعت .

(٥٠) الغلق والمغلاق : هو مايغلق به الباب .

(٥١) الخَلّ هو الطريق بين كثبان الرمال . وهناك موضع يسمى (رمال الخل) .

* البيان والتبيين ١/١٣٥

(١٦) عمر وأبو قيس بن الأسلت *

وأنشدوه قصيدة أبي قيس بن الأسلت التي على العين وهو ساكت فلما انتهى المنشد إلى قوله :

الكَيْس والقوةُ خيرٌ من الـ إشفاقِ والفَهَّةِ والهَاع(٥٢)

جعل عمر يردد البيت ، و يتعجب منه .

(١٧) عمر وطرفة بن العبد *

وأنشد رجل عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ قول طَرفَة :

فلولا ثلاثٌ هنّ من عيشة الفتى وجدّك لم أحفل متى قام عُوّدي

فقال عمر: لولا أن أسير في سبيل الله ، وأضع جبهتي لله ، وأجالس أقواماً ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب الثمر ، لم أبالِ أن أكون قدمت(٥٣) .

(١٨) عمر وحسان بن ثابت .

نهى عمر بن الخطاب الناسَ أن ينشدُوا شيئا من مناقَضةِ الأنصار ومشركي قريش وقال : فى ذلك شَتْمُ الحي بالميت وتجديدُ الضغائن . وقد هدم الله أمْر الجاهلية بما جاء من الإسلام . فقدم المدينة عبد الله بن الز بَعْرَى السهمى ، وضرار بن الخطاب الفهرى وجلسا إلى حسان لينشداه مما قالا و يسمعا منه مانظم ردّا عليهما ، فأنشداه حتى فارَ فصار كالمِرْجَل غضبا ، ولم يمكّناه من القول لأنهما تركاه وانطلقا نحو مكة . فقص قصتها على عمر فبعث وراءهما من أتى بهما ، وأمام جماعة من أصحاب النبى ــ عليه السلام ــ قال عمر« أنشدْهما مما قلت لهما » ، فأنشدهما حتى فرغ ، فقال له عمر: « أنشدَاك فى الخلاء ، وأنشدتهما فى الملأ » .

---

* البيان والتبيين ١/١٣٦ .

(٥٢) الفهة : العيّ . الهاع : الجبان .

* البيان والتبين ٢/١٠٠ ، ٣/٨٠ .

(٥٣) أى أنه لايتمنى الموت حبًا منه للجهاد والتعبد لله ومجالسة الصفوة الذين يتناقلون أطيب الحديث وأحسنه .

وقال لمن حضره : « إنى كنتُ نهيتُكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئا دفعا للتضاغن عنكم ، و بث القبيح فيما بينكم(٥٤) .

* * *

و يقال أنه مر بحسان وهو ينشد الشعر فى مسجد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأخذ بأذنه وقال :أرُغَاء ً كرُغاء البعير! ؟ فقال حسان : دعناعنك ياعمر، فوالله لتعلمْ أنى كنت أنشدُ فى هذا المسجد مَنْ هو خيرٌ منك، فلا يغير على . فصدقهُ عمر(٥٥) .

(١٩) عمروعمارة بن الوليد *

قال عبد الملك بن عمير: أتى عمر بحلل من اليمن فأتاه محمد بن جعفر بن أبى طالب ، ومحمد بن أبى بكر، ومحمد بن طلحة بن عبيدالله ، ومحمد بن حاطب ، فدخل عليه ز يد بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ فقال : يا أمير المؤمنين ! هؤلاء المحمّدون بالباب يطلبون الكسوة ، فقال : ائذنْ لهم ياغلام ، فدعا بحلل فأخذ ز يد أجودَها وقال : هذه لمحمد بن حاطب ، وكانت أمه عنده وهو من بني لؤيّ ، فقال عمر ــ رضى الله عنه ــ أيهات أيهان(٥٦) ! وتمثل بشعر عمارة بن الوليد :

أَسَرّكِ لما صَرَّعَ القومَ نشوةٌ ... خروجيَ منها سالماً غيرَ غارم
بريئاً كأني قبلُ لم أكُ منهم ... وليس الخداع مرتضىً في التنادم(٥٧)

رُدَّها . ثم قال : ائتني بثوب فألقه على هذه الحلل وقال : أدخل يدك فخذ حلّة وأنت لا تراها فأعطهم . قال عبدالملك : فلم أرقسمة أعدل منها .

---

(٥٤) انظر الخبر بتمامه فى الأغانى ٤ / ١٣٥٤ ــ ١٣٥٥

(٥٥) السابق ١٣٥٨ . فلا يغير على : أى يرضى بما أقول ولا يغضب له .
* دلائل الإعجاز ١٠ .

(٥٦) أيهاتَ وأيهانِ (بكسر النون) هيهات : وهى اسم فعل ماض بمعنى بعد واستحال ، وهو يدل على رفض عمر أن ينتقى ز يد من الثياب أحسنها .

(٥٧) البيتان من أربعة أبيات يخاطب فيها عمارة زوجته ، وخلاصة معنى البيتين : أنه لا يليق بمن يشرب أن يدخر ماله ولا يستهلكه وهو ينادم أصحابه . وفى القصة أن عمارة ذبح ناقته وأطعم منها أصحابه وسقاهم بثمن بردته ، وقال الأبيات ردا على زوجته التى لامته على ذلك [انظر الأغانى ١٩ / ٦٨٩٥] .
واستشهد عمر بالبيتين قاصدا أن الغنم والغرم يجب أن يوزعا على حد سواء دون أثرة أو إيثار .

(٢٠) عمر وعدى بن حاتم *

كـان عـدي بـن حاتم الطائي يكنى أبا طريف ، وكان نصرانياً ، وفَدَ على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأسلم وثبت على إسلامه في الرِّدة ، وأتى بعد ذلك عمر بن الخطاب في خلافته . قال عدي : أتيت عمر في أناس من قومي ، فجعل يفرضُ للرجلِ من طيء فى ألفين و يُعرضُ عنى قال : فاستقبلْته فأعرضَ عني ، ثم أتيتُه من حبال وجهه (٥٨) فأعرض عنى ، قال : فاستقبلته فأعرض عني ، قال قلت : يا أمير المؤمنين أتعرفني ؟ قال : فضحكَ ثم قال : والله إني لأعرفك : آمنتَ إذ كفروا ، وأقبلتَ إذ أدبروا ، ووفيتَ إذ غدروا ، وعرفتَ إذ أنكروا ، وإن أول صدقة بيضت وجه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ووجوه أصحابه صدقة طيء حيث جئتَ بها إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم أخذ يعتذر له ثم قال : إنما فرضت لأقوام أجحفت بهم الفاقة (٥٩) وهم سادات عشائرهم لما ينوب من الحتوف (٦٠) ، قال عديّ : فلا أبالي إذن (٦١)

(٢١) عمر وطاعون عمواس *

عن عبد الله بن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال :

خرج عمر غازيا ، وخرج معه المهاجرون والأنصار . وأوعَبَ (٦٢) الناسُ معه ، حتى إذا نزل بسرْغ (٦٣) ، لقيَه أمراء الأجناد : أبوعبيدة بن الجرّاح ، و يزيد بن أبي سفيان ، وشُرحبيل بن حسَنَة ؛ فأخبروه أنّ الأرض سقيمة (٦٤) ، فقال عمر : اجمعْ إليّ المهاجرين الأولين ، قال : فجمعتُهم له ، فاستشارهم ، فاختلفوا عليه ، فمنهم

---

* ابن الجوزى ٦٤.

(٥٨) الحيال : الناحية والجهة .

(٥٩) أجحفت بهم الفاقة : أشتد عليهم الفقر.

(٦٠) الحتوف : جمع حتف وهو الموت .

(٦١) أى لا أهتم إذا لم تعطنى بعد أن اقتنعت بما قدمت من عذر.

* الطبرى ٤ /٥٧ (وكان ذلك سنة ١٧ هـ) .

(٦٢) أوعب : اجتمع .

(٦٣) سرغ : قرية بوادى تبوك من طريق الشام ـ اهـ نهاية .

(٦٤) سقيمة : رأى بها وباء .

القائل: خرجتَ لوجهٍ تريد فيه الله وماعنده، ولانرى أن يصدّك عنه بلاء عرض لك. ومنهم القائل: إنه لبَلاء وفَناء مانرى أن تُقدمَ عليه؛ فلما اختلفوا عليه قال: قوموا عنى، ثم قال: اجمعْ لى مهاجِرَة الأنصار، فجمعتُهم له، فاستشارَهُم فسلكُوا طريقَ المهاجرين، فكأنما سمعوا ماقالوا فقالوا مثله، فلما اختلفوا عليه قال: قوموا عنى، ثم قال: اجمعْ لِى مهاجِرة الفَتْح من قريش، فجمعتُهم له، فاستشارهم فلم يختلفْ عليه منهم اثنان، وقالوا: ارجعْ بالناس، فإنه بلاء وفناء. قال: فقال لى عمر: ياابنَ عباس، اصرخْ فى الناس فقل: إنّ أمير المؤمنين يقول لكم إنى مُصبِح على ظَهْر(٦٥)، فأصبحُوا عليه قال: فأصبح عمر على ظَهْر، وأصبح الناس عليه، فلما اجتمعوا عليه قال: أيّها الناس؛ إنّى راجع فارجعوا، فقال له أبوعبيدة بن الجراح: أفراراً من قَدرِالله؟! قال: نعم فراراً من قَدَرَالله إلى قَدَرالله؛ أرأيت لوأن رجلاً هبط وادياً له عُدْوتان(٦٦): إحداهما خِصْبَةٌ والأخرى جَدبْة، أليس يرعى مَنْ رعىَ الجدْبة بقَدر الله، و يرعَى مَن رَعى الخِصبة بقَدر الله!؟ ثم قال: لوغيرُك يقول(٦٧) هذا يا أبا عبيدة! ثم خلا به بناحية دونَ الناس؛ فبينا الناس على ذلك إذْ أتى عبدُالرحمن بن عوف ــ وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدْهُم بالأمس ــ فقال: ماشأنُ الناس؟ فأخبرَ الخبر، فقال: عندى من هذا علْم، فقال عمر: فأنت عندنا الأمينُ المصدّق، فماذا عندك؟ قال: سمعتُ رسولَ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول: «**إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدمُوا عليه، وإذا وقَعَ وأنتم به فلا تخرجُوا فِراراً منه**»؛ ولايخرجنكم إلاّ ذلك، فقال عمر: فلله الحمد! انصرفوا أيها الناسُ، فانصرفَ بهم.

---

(٦٥) مصبح على ظَهْر: كناية عن الاستعداد والهم بالسفر.

(٦٦) العدوة: (بضم العين وكسرها) جانب الوادى وحافته وقيل: هى المكان المرتفع.

(٦٧) كأنما ينكر على أبى عبيدة أن يقول هذا وهو المسلم العالم البصير.

(٢٢) عمر وبنو عدى *

عن أسامة بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جدّه، قال: رأيتُ عمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين عُرض عليه الكتاب، و بنوتَيْم على أثر بنى هاشم و بنوعدىّ على أثر بنى تَيْم (٦٨)، فأسمعُه يقول: ضعوا عمر موضعه، وابدءوا بالأقرب فالأقرب من رسول الله، فجاءت بنوعدىّ إلى عمر، فقالوا: أنت خليفة رسول الله، قال: أوخليفةُ أبى بكر، وأبوبكر خليفة رسول الله، قالوا: وذاك، فلو جعلتَ نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم (٦٩)! قال: بخٍ بخٍ (٧٠) بنى عدىّ! أردتم الأكْل على ظهرى (٧١)، وأن أذهب حسناتى لكُم! لا والله حتى تأتيَكم الدعوة (٧٢)، وإن أطبق عليكم الدّفتر (٧٣) ولوأن تُكتَبوا فى آخر الناس؛ إن لى صاحبين سَلَكا طريقاً، فإن خالفتهما خُولفَ بى؛ والله ماأدركْنا الفضلَ فى الدنيا ولانرجُو مانرجو من الآخرة من ثواب الله على ماعملنا إلابمحمّد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو شرفُنا، وقومُه أشرفُ العرب، ثم الأقربُ فالأقرب؛ إن العربَ شَرُفت برسولِ الله، ولعلّ بعضَها يلقاهُ إلى آباء كثيرة، ومابيننا و بين أن نلقاهُ إلى نسبه ثم لانفارقه إلى آدم إلاآباء يسيرة؛ مع ذلك والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل، فهم أَوْلى بمحمدٍ منّا يوم القيامة، فلاينظر رجل إلى قَرابة، وليعمل لماعند الله، فإنّ مَنْ قصَّر به عملُه لم يُسرع به نسبُه.

---

* الطبرى ٤/ ٢١٠.

(٦٨) أى:هكذا كان ترتيبهم فى ديوان العطاء.

(٦٩) أى:كنت فى دفتر العطاء بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبى بكر ـ رضى الله عنه ـ.

(٧٠) بخ: كلمة تقال عنه المدح والرضا بالشيء، وتكرر للمبالغة واستعملت هنا للاستنكار والسخرية.

(٧١) أى:أكون وسيلة لنيل مآربكم.

(٧٢) أى:لن أجعلكم فى غير ترتيبكم الذى وضعتم فيه.

(٧٣) أطبق عليكم الدفتر: أى كنتم فى آخر صفحاته.

(٢٣) بين عمر وقادة الجيش بشأن أرض السواد *

لما قَدِم على عمر بن الخطاب جَيشُ العراق من قِبَل سعد بن أبى وقاص ، شاور أصحابَ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى تدو ين الدواو ين ، وقد كان اتبع رأى أبى بكر فى التسو يةِ بين الناس . فلما جاءَ فتح العراق شاور الناس فى التفضيلِ ، ورَأى أنه الرأى . فأشار عليه بذلك من راءه وشاورهم فى قسمة الأرضين التى أفَاء الله على المسلمين من أرضِ العراق والشام .

فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم ومافتحوا . فقال عمر : فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعُلُوجها(٧٤) قد قسمتْ وورِّثت عن الآباء وحِيزَتْ ؟! ماهذا برأى !

فقال له عبد الرحمن بن عوف : فما الرأىُ ؟ ما الأرضُ وما العلوجُ إلا مما أفاء الله عليهم !

فقال عمر : ماهو إلا كما تقول : ولست أرى ذلك ، والله لايُفْتَح بعدى بلد فيكونَ فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلاًّ(٧٥) على المسلمين . فإذا قسمتْ أرضُ العراق بعلوجها ، وأرضُ الشام بعلوجها ، فما يُسَدّ به الثغور؟ ومايكون للذر يةِ والأراملِ بهذا البلد و بغيره من أهل العراق والشام ؟

فأكثروا على عمر وقالوا : تَقِفُ ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ، ولأبناء قوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا ؟ ؟!

فكان عمر لايزيد على أن يقول : هذا رأيى . قالوا : فاستشِرْ. قال : فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفُوا ؛ فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن يَقْسِم لهم

---

* الخراج ٦٨ .
(٧٤) العلوج كفار العجم وغيرهم
(٧٥) كَلاًّ : ثقلا .

حقوقَهَمْ ، ورأى عثمان وعلى وطلحةُ رأى عمر . فأرسل إلى عشرة من الأنصار ، خمسةٍ من الأوس ، وخمسةٍ من الخزرج ، من كبرائهم وأشرافهم . فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وقال : إنى لم أدعكم إلا لأن تَشْرَكوا فى أمانتى فيما جُعِلْتُ من أمركم ، فإنى واحد كأحدِكم ، وأنتُمْ اليوم تقرّون بالحق ، خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى ، ولستُ أريد أن تتَّبعوا الذى هو هواى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنتُ نطقتُ بأمرٍ أريدَه ما أردت به إلا الحق . قالوا : قُل نَسْمَعْ يا أمير المؤمنين . قال : قد سمعتُمْ كلامَ هؤلاء القوم الذين يزعمون أنى أظلمهم حقوقهم ، وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلماً ؛ لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرَهم لقد شَقِيتُ . ولكن رأيتُ أنه لم يبق شيء يُفتَح بعد أرض كسرى ، ولقد غنَّمنا الله أموالهم وأرضهم وعُلُوجهم ، فَقَسمْتُ ماغنموا من مال أورِثَّة(٧٦) بين أهله ، وأخرجت الخمسَ فوجهتُه على وجهه ، وأنا فى توجيهه . وقد رأيتَ أن أحبسَ الأرضين بعلوجها ، وأن أضَعَ عليهم فيها الخراجَ وفى رقابهم الجزية يؤدونها فيكون فيئاً للمسلمين ، للمقاتلةِ والذرِّية ولمن يأتى بعدهم . أرأيتمَ هذه الثغور؟ بُدّ(٧٧) لها من رجال يلزمونها ، أرأيتم هذه المدنَ العظام ــ الشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ؟ بُدٌّلها من أن تشحنَ بالجيوش ، وإدرار(٧٨) العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قَسمتُ الأرضين والعلوج ؟

فقالوا جميعاً : الرأى رأيُك ، فنعم ماقلتَ ومارأيتَ ، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال ، و يُجرَى عليهم مايَتَقَوَّنَ به . رجع أهل الكفر إلى مدنهم .

فقال : قد بانَ لى الأمر. فمن رجلٌ له جزالةٌ(٧٩) وعقل يضع الأرض مواضعها ، و يضع على العلوج مايحتملون؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حُنَيف(٨٠) . وقالوا :

---

(٧٦) الرِثّة : متاع البيت الدون .

(٧٧) بدّ : ضرورى .

(٧٨) الإدرار: الإعطاء بكثرة .

(٧٩) الجزالة : الوقار والاتزان .

(٨٠) أنصارى أوسى : شهد أحدو المشاهد كلها ، استعمله عمر على السواد ، وعلى البصرة . سكن الكوفة ، و بقى إلى زمان معاو ية .

نبعثه إلى أهمَّ من ذلك ، فإن له بصراً وعقلا وتجربة . فأسرع إليه عمر فولاّه مساحةَ أرض العراق ، فأدت جباية الكوفة قبل أن يموت عمر بعام : مائة ألف ألف ، والدرهم يومئذ درهم ودانقان ونصف ، كانت الدراهم يومئذ ، الدراهم : وزن المثاقيل .

(٢٤) عمر وابن عباس *

قال عبد الله بن العباس : بعث إلىّ عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فأتيتُه ، فقال لى : يا ابن عباس ، إن عامل حمص هلك وكان من أهلِ الخير — والخيرُ قليل — وقد رجوتُ أن تكون منهم ، فدعوتُك لأستعملَكَ عليها ، وفى نفسى منك شىء أخافُه ولم أره منك ، وأنا أخشاه عليك ، فما رأيك فى العمل ؟

قال : قلت : فإنى — لا أرى أن أعملَ لك عملاً حتى تخبرَنى بما فى نفسك . قال : وما تريدُ إلى ذلك ؟ قال : أريد إنْ كنتُ بريًا من مثله عرفتُ أنى لست من أهله ، وإن كنتُ ممن أخشى على نفسى خشيتُ عليها مثلَ الذى خشيتَ علىَّ ، فقلما رأيتُك ظننتَ شيئاً إلا جاء عليه(٨١)

فقال : يا ابن عباس ، إنى أطمحُ همًّا لك وإنك لا تجدنى إلا قريبَ الجد ، وإنى خشيت عليك أن يأتى علىّ الذى هو آت(٨٢) وأنت فى عملك ، فيقال لك : هَلُمّ(٨٣) إلينا — ولا هَلَمَ(٨٤) إليكم دون غيركم — إنى رأيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — استعمل الناسَ وترككم قال : قلتَ : والله لقد رأيتَ الذى رأيت ، فلم تراه فعلَ ذلك ؟ فقال : والله ما أدرى أضن بكم عن العمل وأرفَعكم عنه ، وأنتم

* الخراج ٢٣٨ .
(٨١) أى أن عمر عاش صادق الظن حتى أن الوحى كان ينزل مصدقا لما يرى كرأيه فى أسرى بدر.
(٨٢) كناية عن الموت .
(٨٣) هلمّ إلينا : ضم نفسك الينا
(٨٤) الهلم (محركة) جواب هلم ، وكأن عمر يحكى بهذا جواب ابن عباس من يدعوه إلى الجماعة . فهو يخشى عليه أن يفارقها . (انظر هامش الخراج ٢٣٩) .

أهلُ ذلك، أم خشى أن تتعاوروا(٨٥) لمكانكم منه فيقع العتابُ عليكم، ولابدَّ من عتاب، فقد فرغتَ لى وفرغتُ لك، فما رأيك ؟

قال : قلتُ : لاأرى أن أعملَ لك . قال : ولِمَ ؟ قال : قلت : لأنى لاأعمل لك ـــ وفى نفسك مافى نفسك ـــ لم أبرح قذاة(٨٦) عينك .

قال : فأشر علَّى . قلتُ : أشير عليك أن تستعمل صحيحاً منك صحيحاً عليك .

(٢٥) عمر وابن عباس *

قال عبد الله بن عباس : دخلت على عمر حين طُعِن، فقلت : أبشر بالجنة ياأميرَ المؤمنين ؛ أسلمتَ حين كفرَ الناس، وجاهدتَ مع رسولِ الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ حين خَذَله الناس، وقُبِضَ رسولُ الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وهو عنكَ راض، ولم يختلفْ فى خلافتِكِ اثنان، وقُتِلتَ شهيداً . فقال : أعِدْ علَّى . فأعدتُ عليه . فقال : والله الذى لا إلٰه غيرُه لو أنَّ لى مافى الأرضِ من صفراء و بيضاء لافتديتُ به من هَولِ المُطَّلع .

(٢٦) بين عمر والناس
فى شأن حرب نهاوند *

يقول عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنهَ : أوجزُوا فى القول، ولا تُطيلوا فتفْشغَ بكم الأمور(٨٧)، واعلموا أنّ هذا يومٌ له مابعده من الأيَّام، تكلّموا، فقام طلحة بن عبيد الله ـــ وكان من خُطباء أصحاب رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فتشهّد، ثمّ

---

(٨٥) تتعاوروا : تتبادلوا الخلافة والمناصب وتكون دولة فيكم .

(٨٦) القذى والقذاة : مايقع فى العين والشراب .

* الخراج : ٤٩ .

* الطبرى ٤/١٢٤ .

فى سنة ٢٣هـ عزل عمر سعد بن أبى وقاص عن ولاية العراق وقتال فارس، وولى مكانه عبدالله بن عبدالله بن عثبان . وكانت الفرس قد جمعت جموعا كثيفة فى نهاوند لقتال المسلمين فأرسل عبدالله إلى عمر بالخبر ويستشيره فيما يفعل فجمع عمر الناس فى المسجد و كانت هده المحاورة .

(٨٧) الفشغ والانفشاغ : اتساع الشىء وانتشاره .

قال: أما بعد ياأميرَ المؤمنينَ، فقد أحكمتْك الأمور، وعجمتْك البلايا(٨٨)، واحتنكتْك التجارب(٨٩)، وأنت وشأنك؛ وأنت ورأيك، لانَنْبو فى يديك(٩٠). ولانَكِلُّ عليك(٩١)، إليك هذا الأمر، فرنا نُطِع، وادْعُنا نجب، واحمِلْنا نركب، وفِدْنا نفِد، وقُدْنا نَنقد؛ فإنّك ولىّ هذا الامر، وقد بلوتَ وجرّبت واختبرتَ، فلم ينكشف شىء من عواقب قضاء الله لك إلاّ عن خيار. ثم جلس. فعاد عُمر فقال: إنّ هذا يومٌ له مابعده من الأيام، فتكلّموا. فقام عثمان بن عفّان، فتشهّد، وقال: أرى ياأميرَ المؤمنين أن تكتبَ إلى أهل الشأم فيسيروا من شأمهم، وتكتبَ إلى أهل اليمن فيسيروا من يَمَنهم، ثم تسيرُ أنت بأهل هذين الحرَميْن إلى المصرين: الكوفةِ والبصرة، فتلقَى جمعَ المشركين بجمع المسلمين؛ فإنك إذا سرتَ بمَن معك وعندك قلَّ فى نفسك ماقد تكاثر من عدد القوم، وكنتَ أعزّعزًّا وأكثر؛ ياأمير المؤمنين إنك لاتستبقى من نفسِك بعد العرب باقية، ولاتَمْتَعُ من الدنيا بعز يز، ولاتلوذُ منها بحريز؛ إنّ هذا اليوم له مابعده من الأيام، فاشهده برأيك وأعوانك ولاتغِب عنه. ثم جلس.

فعاد عمر، فقال: إنّ هذا يومٌ له مابعده من الأيام، فتكلمُوا؛ فقام على بن أبى طالب فقال: أمّا بعد ياأميرَ المؤمنين؛ فإنك إن أشخَصْتَ أهل الشأم من شأمهم سارت الرّومُ إلى ذراريّهم(٩٢)، وإن أشخصتَ أهل اليمنِ من يمنِهم سارت الحبشَة إلى ذراريّهم، وإنكَ إن شخصت من هذه الارض انتقضت عليك(٩٣) الأرضُ من اطرافِها وأقطارها، حتى يكون ماتَدَعُ وراءك اهمّ إليك ممابين يديك من العَوْرات والعيالات؛ أقرِرْ هؤلاء فى أمصارهم، واكتبْ إلى أهل البصرة فليتفرّقوا فيها ثلاثَ فِرَق، فلتقمْ فرقةٌ لهم فى حُرَمهم وذراريّهم، ولتقم فرقةٌ فى أهل عهدهم(٩٤)، لئلاّ

---

(٨٨) تَوتك الأحداث والنوازل.
(٨٩) جعلتك التجارب ذاحنكة وخبرة.
(٩٠) ننبو: نبتعد ونتفرق.
(٩١) نكلّ عليك: نتثاقل ونكسل فى الاستجابة لك.
(٩٢) الذرارىّ: جمع ذرية.
(٩٣) انتقضت: تألبت وتمردت.
(٩٤) أى فيمن عاهدوهم من أهل الأمصار.

ينتقضوا عليهم ، ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم ؛ إنّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أميرُ العرب ، وأصلُ العرب ؛ فكان ذلك أشدّ لكلَبهم (٩٥) ، وألّبتهم على نفسك . وأمّا ماذكرت من مسير القوم فإنّ الله هو أكره لمسيرهم منك ، وهو اقدرُ على تغيير ما يكره ؛ وأمّا ما ذكرتَ من عددهم ؛ فإنا لم نكنْ نقاتلُ فيما مضى بالكثرة ؛ ولكنّا كنا نقاتل بالنصر .

فقال عمر: أجلْ والله ، لئن شخصتُ من البلدة لتنتقضَنّ علىّ الأرض من أطرافِها وأكنافِها (٩٦) ، ولئن نظرتْ إلىّ الأعاجم لايفارقُنّ العرْصة (٩٧) وَليُمدنهم مَن لم يُمِدّهم ، وليقولُنّ : هذا أصل العرب ؛ فإذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب ، فأشيروا علىّ برجل أولّه ذلك الثغرَ غداً . قالوا : أنتَ أفضلُ رأياً ، وأحسنُ مقدرة ، قال : أشيروا علىّ به ، واجعلوه عِراقيًّا . قالوا يا أميرَ المؤمنين : أنت أعلمُ بأهل العراق ، وجندُك قد وفدُوا عليك ورأيتَهم وكلّمتهم ، فقال : أما والله لأولّينَ أمرَهم رجلاً ليكونَنّ لأوّل الأسنّة إذا لقيَها غداً ، فقيل : مَن يا أمير المؤمنين ؟ فقال : النعمانُ ابن مقرِّن المُزنىّ . فقالوا : هُوَلها ــ والنعمان يومئذ بالبصرة ــ معه قوّاد من قوّاد أهل الكوفة أمدّهم بهم عمر عند انتقاض الهُرْمُزان ؛ فافتتحوا رامَهُرْمُز وإيذَج ، وأعانوهم على تُسْتَر وجُنْدَيْ سابور والسُّوس . فكَتب إليه عمر مع زرّ بن كُليب والمقترب الأسود ابن رَبيعة بالخبر؛ وأنّى قد وَلّيتك حربَهم ، فسر من وجهك ذلك حتى تأتى ماه فإنى قد كتبتُ إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها ، فإذا اجتمعَ لكَ جنودُك فسر إلى الفَيْرُزان ومَن تجمّع إليه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم ، واستنصروا الله ، وأكثروا من قول : لاحول ولا قوّة إلاّ بالله .

---

(٩٥) الكلب : السعار والشدة .

(٩٦) أكناف : جمع كنف : وهو الجانب والجهة .

(٩٧) العرصة : الميدان وكل مكان واسع ممتد .

(٢٧) قصة الشورى *

لما طعن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — قيل له : يا أميرَ المؤمنين ؛ لواستخلفت! قال : مَنْ استخلف؟ لوكان أبوعبيدة بن الجرّاح حيًّا(٩٨) استخلفتهُ ؛ فإن سألني ربي قلت : سمعت نبيّك يقول : « إنه أمين هذه الأمّة » ، ولوكان سالمٌ مولى أبي حذيفة حيًّا استخلفته ، فإن سألني ربي قلت : سمعت نبيّك يقول : « إنّ سالماً شديد الحبّ لله » . فقال له رجل : أدلُّك عليه ؟ عبدالله بن عمر ، فقال : قاتلك الله ؛ والله ما أردتَ الله بهذا ، ويحك ! كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته ! لاأرَب(٩٩) لنا في أموركم ، ماحمدتُها فأرغبَ فيها لأحد من أهل بيتي ؛ إن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان شرًّا فشرعُنا آلَ عمر ؛ بحسب آل عمر أن يحاسَب منهم رجلٌ واحد ؛ وَ يُسأل عن أمر أمة محمد ؛ أما لقد جهدتُ نفسي ، وحرمتُ أهلي ؛ وإن نجوتُ كَفافاً لاوزْرَ ولا أجرَ إني لسعيد ؛ وانظر فإن استخلفتُ فقد استخلف مَن هو خير منيّ(١٠٠) ، وإن أترك فقد ترك مَنْ هو خير مني(١٠١) ولن يضيّع الله دينه . فخرجوا ثم راحوا ، فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ؛ لوعهدتَ عهداً ! فقال : قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر فأولّي رجلاً أمرَكم ؛ هو أحراكم أن(١٠٢) يحملكم على الحقّ — وأشار إلى عليّ — ورهقتني(١٠٣) غَشية(١٠٤) فرأيت رجلاً دخل جنة قد غرسها ، فجعل يقطف كل غضّة و يانعة فيضمّه إليه و يصيّره تحته ؛ فعلمتُ أنّ الله غالب أمره ، ومتوف عمر ؛ فما أريد أن أتحمّلها حيًّا وميتاً ؛ عليكم هؤلاء الرّهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنهم من أهل الجنة » ؛ سعيد بن زيد ابن عمرو بن نُفَيل منهم ؛ ولست مدخله ؛ ولكن الستّة : عليٌّ وعثمانُ ابنا عبد مناف ، وعبدالرحمن وسعدٌ خالا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والزّبير بن العوّام حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، وطلحةُ الخير بن عبيدالله ؛

* الطبري ٤/٢٢٧ وانظر كذلك العقد الفريد ٤/٢٧٤ (وكان ذلك سنة ٢٣هـ) .

(٩٨) مات أبو عبيدة في طاعون عمواس .

(٩٩) الأرب : الطلب والرغبة .

(١٠٠) يقصد أبا بكر .

(١٠١) يقصد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — .

(١٠٢) أحراكم : اجدركم .

(١٠٣) رهقتني : أصابتني .

(١٠٤) غشية : إغماءة .

فلْيختاروا منهم رجلاً ؛ فإذا ولّوا والياً فأحسِنوا مؤزارته وأعينُوه ، إن ائتمن أحداً منكم فليؤدِّ إليه أمانته . وخرجوا ، فقال العباسُ لعليّ : لا تدخل معهم ، قال : أكره الخلاف ، قال : إذاً ترى ماتكره ! فلما أصبحَ عمرُ دعا عليًّا وعثمان وسعداً وعبدالرحمن بن عوف والزبير بن العوّام ، فقال : إنّى نظرتُ فوجدتُكم رؤساء الناسِ وقادتَهمْ ؛ ولا يكونُ هذا الأمر إلاّ فيكم ؛ وقد قبِضَ رسولُ الله ــ صلى الله تعالى عليه وسلم ــ وهو عنكم راض ؛ إنّى لا أخافُ الناسَ عليكم إن استقمتُم ؛ ولكنّى أخافُ عليكم اختلافكم فيما بينكم ، فيختلف الناسُ ، فانهضوا إلى حُجْرةِ عائشة بإذن منها ، فتشاورُوا واختاروا رجلا منكم . ثم قال : لا تدخلوا حجرة عائشة ؛ ولكن كونوا قريباً ، ووضعَ رأسهُ وقد نَزَفه الدم .

فدخلوا فتناجَوْا ، ثم ارتفعت أصواتُهم ، فقال عبدالله بن عمر : سبحان الله ! إنّ أمير المؤمنين لم يمُتْ بعد ؛ فأسمعته فانتبه فقال : ألا أعرضوا عن هذا أجمعون ؛ فإذا متُّ فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصلّ بالنس صهيب ، ولا يأتينّ اليومُ الرابعُ إلاّ وعليكم أميرٌ منكم ؛ ويحضر عبدُالله بن عمر مشيراً ، ولا شيء له من الأمر : وطلحةُ شريككم فى الأمر ؛ فإن قدمَ فى الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم ؛ وإن مَضَتِ الأيّام الثلاثةُ قبل قدومه فاقضوا أمركم ، ومَنْ لى بطلحة ؟ فقال سعد بن أبى وقاص : أنا لك به ؛ ولا يخالف إن شاء الله . فقال عمرُ : أرجو ألاّ يخالفَ إن شاء الله ؛ وما أظن أن يلىَ إلاّ أحدُ هذين الرجلين : علىّ أوعثمان ؛ فإن ولِىَ عثمانُ فرجلٌ فيه لين ، وإن ولى علىٌّ ففيه دُعابة ، وأحْرِ به أن يحملَهم على طريق الحقّ ؛ وإن تولوا سعداً فأهلها هو ؛ وإلاّ فليستعن به الوالى ، فإنى لم أعزله عن خيانةٍ ولا ضعف ؛ ونِعْم ذوالرأى عبدالرحمن بن عوف ! مسدّد رشيد ، له من الله حافظ ، فاسمعوا منه .

وقال لأبى طلحةَ الأنصارىّ : يا أبا طلحة ، إنّ الله ــ عزّ وجلّ ــ طالما أعزّ الإسلامَ بكم ، فاخترْ خمسين رجلاً من الأنصار ؛ فاستحثّ هؤلاء الرّهط حتى يختارُوا رجلا منهم . وقال للمقداد بن الأسود ؛ إذا وضعتمونى فى حُفْرتى فاجمعْ هؤلاء الرّهطَ فى بيت حتى يختاروا رجلاً منهم ، وقال لصُهيب : صلّ بالناس ثلاثةَ أيام ، وأدخل عليًّا وعثمانَ ، والزبير وسعداً وعبدالرحمن بن عوف وطلحة إن قدم ؛ وأحضِر عبدالله

ابن عمر ولا شيء له من الأمر؛ وقَمْ على رءوسهم ، فإن اجتمع خمسة ورضُوا رجلا وأبى واحدٌ فاشدَخْ رأسه — أواضربْ رأسه بالسيف — وإن اتّفقَ أربعةٌ فرضُوا رجلا منهم وأبى اثنان ، فاضربْ رءوسهما ، فإن رضىَ ثلاثةٌ رجلاً منهم ، وثلاثةٌ رجلاَ منهم ، فحكموا عبدَالله بن عمر؛ فأىّ الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم ؛ فإن لم يرضْوا بحكم عبدالله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين إن رغبوا عمّا اجتمع عليه الناس .



الفصل الثالث

أدب عثمان بن عفان

الشريحة الأولى

الخطب والوصايا

(١) عندما ارتج عليه ..

لما ولى عثمان قام فى الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ارتج عليه ، فقال(١) .

أيها الناسُ : إن أوَّلَ كلِّ مركبٍ صعْب ، وإن أعِشْ فستأتيكم الخطبُ على وجْهِها ، وسيجْعَلُ اللهُ بعدَ عسرٍ يسراً .

وفى رواية أخرى(٢)

أما بعد : فإنَّ أولَ كلِّ مركب صعبٌ ، وما كُنّا خطباءَ ، وسيعلمُ الله ، وإن امرأً ليس بينه و بين آدم إلا أبٌ ميتٌ لموْعَوظ .

* * *

(١) العقد الفريد ٤/٦٦ .
(٢) الأخبار الموفقيات ٢٠٢ .

وقيل بل قال فى هذا الموقف أومثله (٣)

وَلِيتَاكُمْ قريبا ، وعَدْلُنا عليكم خيرٌ من خُطَبِنا فيكم ، وإنْ أعِشْ يأتِكُم الكلامُ على جِهته إن شاء الله .

(٢) بعد مبايعة أهل الشورى له .. *

حمد الله وأثنى عليه ثم صلى على نبيه محمد — صلى الله عليه وسلم — ثم قال : إنكم فى دار قُلْعة (٤) ، وفى بقيّة أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ماتقدرون عليه ؛ فلقد أتيتم ، صبّحتم أومسّيتم ؛ ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تَغرنّكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنّكم بالله الغَرور (٥) . اعتبروا بمن مضى ، ثم جدُّوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُغْفَل عنكم . أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعَمَرُوها ، ومُتِّعوا بها طويلا ؛ ألم تلفِظْهم ! ارموا بالدنيا حيث رمَى الله بها ، واطلبوا الآخرة ؛ فإنّ الله قد ضرب لها مثلا ؛ وللّذِي هو خير ، فقال عزّوجلّ ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (٦)

---

(٣) السابق ٢٠١ .

* الطبري ٤/٢٤٣ .
قالها بعد أن بايعه أهل الشورى بالخلافة ، و بعد أن قدم عليه الناس يبايعونه . وكان عثمان آنذاك أشد الناس كآبة وكربا بعد أن قتل الهرمزان على يد عبيدالله بن عمر .

(٤) يقال هم على قُلْعة : أى على رحلة . والدنيا دار قلعة ؛ أى دار تحول وارتحال لأنه لاخلود فيها ولاخلود لها .

(٥) الغرور (بفتح الغين) الشيطان . وتمام الآية « يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده ولامولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلاتغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور» لقمان٣٣ .

(٦) الكهف ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) واجبات ثلاثة *

أما بعدُ، فإنِّي قد حُمِّلْتُ، وقد قَبلتُ(٧)، الا وإنِّي متَّبعٌ، ولستُ بمبتدع، الا وإن لكم عليَّ بعدَ كتابِ اللهِ — عزَّ وجلَّ — وسنةِ نبيه — صلى الله عليه وسلم — ثلاثا: اتباعَ من كان قبلى فيما اجتمعتُم عليه وسنَنْتُم، وسنَّ سنةِ أهلِ الخيرِ فيما لم تَسُنُّوا عن ملأ، والكفَّ عنكم إلا فيما استوْجبتم(٨).

ألا وإن الدنيا خَضِرَة(٩) قد شُهِّيتْ(١٠) إلى الناسِ، ومالَ إليها كثيرٌ منهم، فلا تركَنُوا إلى الدنْيا، ولاتثِقُوا بها، فإنها ليستْ بثقةٍ، واعلَمُوا أنها غيرُ تاركةٍ إلا منْ تركها.

(٤) بعد أن بنى بالمدينة دارا .. *

أمّا بعدُ: فان النعمة اذا حدثت حدث لها حساد حَسْبُها وأعداء قَدْرها، وان اللّهَ لم يحدِثْ لنا نعماً ليحدث لها حسّاد عليها ومنافسون فيها، ولكنه قد كان من بناء منزلنا هذا، ما كان ارادةُ جمع المال فيه وضمُّ القاصية(١١) إليه، فأتانا عن أُناس منكم أنهم يقولون: أخذ فيئنا وأنفقَ شيئا، واستأثرَ بأموالنا، يمشون خَمَرا(١٢)،

---

* الطبرى ٤/٤٢٢.

(٧) أى كلفت بمهام الخلافة وقد قبلت الاضطلاع بها.

(٨) أى: أكون سمحا عفوّا إلا فيما يوجب عليكم العقوبة ولا أملك فيه العفو.

(٩) فى الحديث الشريف: إن الدنيا حلوةٌ خَضِرة نضِرة» أى ناعمة غضة طرية طيبة [لسان العرب مادة خضر]

(١٠) شهيت: حُببت

* الأخبار الموفقيات ٦٠٢.

ومناسبتها أن عثمان بلغه أن الناس قد تقولوا عليه؛ لأنه بنى فى المدينة دارا جديدة. فخطب فى الناس الجمعة ثم صلى بهم، ثم عاد إلى المنبر فكانت هذه الخطبة وهى مروية عن ابن عباس.

(١١) القاصية: البعيدة.

(١٢) يمشون حمرا: يتناقلون ذلك فى السر.

و ينطقون سِرّاً كأنا غيب عنهم ، وكأنهم يهابون مواجهتنا معرفة منهم بدحوضِ حجتهم (١٣) ، فاذا غابوُا عنا يروحُ بعضهم الى بعض يذكرنا . وقد وجدوا على ذلك أعوانا من نظرائِهم ومؤازرين من شبهائِهم ، فبعداً بعداً ورغماً رغماً ! ثم أنشد بيتين كأنه يوميء فيهما إلى عليّ عليه السلام :

توقد بنار أينما كنت واشتعل
فلستَ ترى مما تعالج شافِيا

تشُط فيقضِي الامرَ دونَك أهلُه
وشيكاً ولا تُدعى اذا كنت نائيا (١٤)

مالي وليفكم واخْذِ مالِكم ! ألستُ من أكثر قريش مالاً ، وأظهرهم من اللّهِ نعمة ! ألم أكنْ على ذلك قبل الإسلام و بعده ! وهبوني بنيتُ منزلا من بيتِ المال ، أليسَ هو لي ولكم ! ؟ ألم اقِمْ أمورَكم وإني من وراء حاجاتكم ؟ فما تفقدون من حقوقكم شيئا ، فلم لا أصنعُ في الفضلِ ما أحببتُ ؟ فلمَ كنتُ إماماً إذاً ؟ ألا وإن من أعجب العجب ، أنه بلغني عنكم أنكم تقولون : لنفعلن به ولنفعلنّ . فبمن تفعلون ؟ للّه اباؤكم ! أبنقد(١٥) البقاع أم بفقع القاع(١٦) ؟ ألستُ أحرَاكم إن دعا أن يُجاب ؟ وأقمَنكم إن أمرَ أنْ يطاع ؟ لهفي على بقائي فيكم بعد أصحابي ، وحياتي فيكم بعد أترابي ، ياليتنى تقدمتُ قبل هذا ، لكنى لاأحب خلافَ ما أحبَّه الله لي عزوجل . إذا شئتم فإن الصادقَ المصدّق محمداً — صلى الله عليه وسلم — قد حدثني بما هو كائنٌ من أمري وأمركم ، وهذا بدء ذلك وأوله ، فكيف الهرب مما حتّم وقدّر ! ؟ أما إنه — عليه السلام — قد بشرني في آخر حديثه بالجنةِ دونكم ، اذا شئتم فلا أفلح من ندم .

---

(١٣) بطلانها .

(١٤) البيت كناية عن عدم الأهمية وضعف المكانة وانخفاض القدر.

(١٥) النقّد (بفتح القاف) والنقاد : صغار الغنم .

(١٦) فقع القاع : الكمأ (وهو نبات رخو ضعيف) فى المكان المستوى المنخفض و يقال فى المثل « إنك أذل من فقع القاع » لضعفه ورخاوته ، أولأن الأرجل تطؤه . وعثمان فى هذا الاستفهام الساخر يقرر أن الذين يهددونه أضعف وأذل من أن ينالوا منه .

(٥) بعد جدل شديد مع علي .. *

أمّا بعدُ : فإن لكلّ شيء آفة ولكلّ أمرٍ عاهة ، وإن آفةَ هذه الأمةِ وعاهةَ هذه النعمة عيّابون طعّانون يُرونكُم ماتحبُّون و يسترون عنكم ماتكرهون ، يقولون لكم و يقولون ، أمثالُ النّعام يتبعون أولَ ناعق ، أحبُّ مواردهم إليهم البعيد ، لايشربون إلاّ نَغَصاً (١٧) ولايَرِدون إلاّ عَكَراً ، لايقوم لهم رائد وقد أعيتهم الأمور ، ألا فقد والله عبتم عليّ ما أقررتم لابن الخطّاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجلهِ ، وضربكم بيده وقمعكم بلسانه فدنتم (١٨) له على ما أحببتم وكرهتم ، ولنتُ لكم وأوطأتكم كتفي وكففتُ يدي ولساني عنكم فاجترأتم عليّ . أمّا والله لأنا أعزّ نفراً وأقرب ناصراً وأكثر عدداً وأحرى إن قلتُ هلمّ أتيَ إليّ ، ولقد عددتُ لكم أقراناً (١٩) ، وأفضلتُ عليكم فضولا (٢٠) ، وكشرتُ لكم عن نابي ، وأخرجتم مني خُلقاً لم أكن أحسنه ومنطقاً لم أنطق به (٢١) ، فكفّوا عني ألسنتكم وعيبَكم وطعنكم على ولاتكم ، فإنّي كففتُ عنكم من لوكان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدونِ منطقي هذا . ألا فما تفقدون من حقكم ؟ والله ماقصرتُ عن بلوغ مابلغ مَن كان قبلي ولم تكونوا تختلفون عليه .

فقام مروان بن الحكم فقال : إن شئتم حكّمنا والله مابيننا و بينكم السيف ، نحن وأنتم والله كما قال الشاعر:

فرَشْنا لكم أعراضَنا فنَبَتْ بكم   معارسكم تبنون في دِمَن الثّرَى (٢٢)

فقال عثمان : اسكت لاسَكَتَّ (٢٣) ، دعني وأصحابي ، مامنطقك في هذا ! ألم أتقدم إليك أنْ لاتنطق ؟ فسكت مروان ونزل عثمان . عن المنبر، فاشتدّ قوله على الناس وعظم وزاد تألّبهم عليه .

---

* الكامل ٣/١٥٢ . وارجع إلى ماكان من حوار ص ١٥١ .

(١٧) أى شرابا مكدرا أو غيرتام .

(١٨) دنتم : خضعتم .

(١٩) الأقران : جمع قرن (بكسر الأول) وهو النظير والشبيه فى الشجاعة بخاصة .

(٢٠) أى منحتكم الكثير مما عندى . أوأزيد عليكم وأفوقكم فى الفضل والكرم

(٢١) أى نسبتم إليّ مالم أقله ولم أفعله . أودفعتمونى بسوء أقوالكم وأفعالكم أن أسلك فى معاملتكم سبيلا ماكنت أرضاه وما كان يتفق وطبعى .

(٢٢) أي : منحناكم أعز وأغلى مانمنح ولكنكم أبيتم إلا ركوب الصعب والرضاء بالدون .

(٢٣) اسلوب دعاء معناه : اسكت أخرسك الله .

(٦) فى أهل المدينة *

يا أهلَ المدينة : أنتمْ أصلُ الإسلام ، وإنما يفسدُ الناسُ بفسادِكم ، و يصلحونَ بصلاحِكم ، واللهِ واللهِ واللهِ لايبلغنى عن أحدٍ منكم حدث أحدثه إلاسيرتُه . ألافلاَ أعرفَنَّ أحدا عرضَ دونَ أولئك بكلام ولا طلب ، فإنَّ من كان قبلكم كانتْ تُقطعَ أعضاؤهم دونَ أن يتكلم أحد منهم بما عليه ولا له .

وايمُ اللهِ لآخذنَّ العفوَ من أخلاقِكم ، ولابْذُلنَّه لكم من خُلقِى ، وقد دنَتْ أمورٌ ، ولا أحبُّ أن تحلَّ بنا و بكم ، وأنا على وَجَل(٢٤) وحذر، فاحذروا ، واعتبروا .

(٧) خطبة التوبة *

أما بعدُ : أيّها الناسُ فو اللهِ ماعابَ منْ عابَ منكم شيئا أجهَلُه ، وما جئتُ شيئا إلا وأنا أعرفُهُ ، ولكنى منَّتْنى نفسى وكذَّبتْنى ، وضلَّ عنى رُشْدى ، ولقد سمعتُ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول: **«من زلَّ فليتبْ ، ولايتمادى فى الهَلَكَةِ(٢٥) ، إنَّ من تمادَى فى الجورِ، كان أبعدَ من الطريق»** .

فأنا أول من اتَّعظ ، استغفرُ الله مما فعلتُ ، وأتوبُ إليه ، فمثلى نَزَعَ وتابَ ، فإذا نزلتُ فليأتنى أشرافُكُم ، فلْيُرُونى رأْيَهمُ ، فوالله لئنْ ردَّنى الحقُّ عبدا لأستَنَّنَّ بسنة العبد ، ولأَذِلَّنَّ ذلَّ العبد ، ولأكونَنّ كالمرقوق(٢٦) ، إن مُلِكَ صبَر . وإن عُتِق شكر ، وما عن الله مَذْهبٌ إلا إليه ، فلايعجزَنَّ عنكم خيارُكم أن يدنُوا إلىّ ، لئن أبتْ يمينى لتتابِعَنّى شمالى .

---

* الطبرى ٤/٤١٢

(٢٤) الوجل : الخوف والخشية

* الطبرى ٤/٤١٥

(٢٥) الهلكة . الهلاك . والمقصود : لايتمادى فى الشر وعمل مايؤدى إلى إتلافه وسوْقه إلى النار.

(٢٦) المرقوق : العبد المملوك .

بل نعفو ونقبل ونبصِّرهم بجهدنا ، ولانحادّ أحدا حتى يركبَ حدّا ، أو يبدىء كفرا[٢٧] . إن هؤلاء ذكرُوا آموراً قد علموا منها مثل الذى علمتم ، إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونيها ليوجبُوها علىّ عند من لايعلم .

وقالوا : أتم الصلاة فى السفر، وكانت لاتُتَمّ ، ألا وإنى قدمتُ بلداً فيه أهلى ، فأتممتُ لهذين الأمرين ؛ أوَكذلك ؟ قالوا اللهم نعم .

وقالوا : وحميتَ حمًى ، وإنى والله ماحميْتُ حُيىَ قبلى ، والله ماحَمَوْا شيئا لأحدٍ ماحَمَوْا إلا غلَبَ عليه أهلُ المدينة ، ثم لم يمنعُوا من رعْيةٍ أحدا ، واقتصرُوا لصدقات المسلمين يحمونها لئلايكونَ بين من يليها و بين أحدٍ تنازع ، ثم مامنعُوا ولانحَّوْا منها أحدا إلا منْ ساق درهما ، ومالى من بعير غيرُ راحلتين ، ومالى ثاغيةٌ ولاراغية[٢٨] وإنىّ قد وُلِّيتُ وإنى أكثر العرب بعيرا وشاء ، فمالى اليوم شاة ولابعير غير بعيرين لحجّى، أكذلك ؟ قالوا اللهم نعم .

وقالوا : كان القرآن كُتباً ، فتركتَها إلا واحدا ، ألا وإن القرآنَ واحد ، جاء من عند واحد ؛ وإنما أنا فى ذلك تابعٌ لهؤلاء ؛ أكذلك ؟ قالوا : نعم ، وسألوه أن يقيلهم .

وقالوا : إنِّى رددتُ الحكَم وقد سيره رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والحكم مكِّى، سيره رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من مكةَ إلى الطائف ، ثم رده رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فرسول الله — صلى الله عليه وسلم — سيره ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — رده ، أكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

---

* الطبرى ٤/٣٤٦ .

قالها سنة ٣٥هـ قبل الحصار حينما طلب منه بعض أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قتل بعض رءوس الفتنة الذين يتآمرون عليه ، فقال « بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا ... » .

(٢٧) أى لانؤثم ولانعاقب إلا من ارتكب جرما ظاهرا لاشك فيه .

(٢٨) الثاغية والراغية : الغنم والإبل . والثغاء : صوت الغنم والرغاء صوت الإبل .

وقالوا : استعملت الأحداثَ . ولم أستعمل إلا مجتمِعاً(٢٩) محتمِلاً(٣٠) مرضياً ، وهؤلاء أهلُ عملهم ، فسلُوهم عنه ، وهؤلاء أهل بلده ، ولقد ولّى من قبلى أحدث منهم ، وقيل فى ذلك لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — أشدُّ مما قيل لى فى استعمالِهِ أسامة ؛ أكذاك ؟ قالوا : اللهم نعم ، يعيبون للناس مالا يفسرون .

وقالوا : إنى أعطيتُ ابن أبى سرْح(٣١) ما أفاء الله عليه . وإنى إنما نفلتُه خُمْسَ ما أفاء الله عليه من الخمس ، فكان مائةَ ألف ، وقد أنفذَ مثلَ ذلك أبوبكر وعمر — رضى الله عنهما — فزعم الجندُ أنهم يكرهونَ ذلك ، فرددتُه عليهم وليس ذاك لهم ، أكذاك ؟ قالوا: نعم .

وقالوا : إنى أحبُّ أهلَ بيتى وأعطيهم ، فأما حبى فإنه لم يَمِلْ معهم على جَور ، بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما إعطاوهم فإنى أعطيهم من مالى ، ولا أستحلُّ أموالَ المسلمين لنفسى ؛ ولا لأحد من الناس ، ولقد كنتُ أعطى العطية الكبيرة الرغيبةَ مِنْ صُلْب مالى أزمانَ رسولِ الله — صلى الله عليه وسلم — وأبى بكر وعمر — رضى الله عنهما — وأنا يومئذ شحيحٌ حريص ، أفحينَ أتيتُ على أسنانِ أهل بيتى ، وفَنِى عمرى ، وودعتُ الذى لى فى أهلى ، قال الملحدون ماقالوا : وإنى والله ماحملتُ على مصر من الأمصار فضْلاً فيجوز ذلك لمنْ قاله ؛ ولقد رددتهُ عليهم ، وما قدم على الا الأخماس ، ولا يحلُّ لى منها شىء ؛ فولىَ المسلمون وضْعها فى أهلها دونى ؛ ولا تَبَلّغْتُ من مال الله بفلْس فما فوقه ؛ وما أتبلّغُ منه ما آكلُ إلاّ مالى .

وقالوا : أعطيتَ الأرضَ رجالاً ؛ وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتُتِحتْ ؛ فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوَةُ اهله ، ومَنْ رجع إلى أهلِه لم يُذْهِبْ ذلك ماحوى الله له ؛ فنظرتَ فى الذى يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعْته لهم بأمرهم من رجال أهل عقارٍ ببلاد العرب فنقلتُ إليهم نصيبهم ، فهو فى أيديهم دونى .

---

(٢٩) المجتمع : الحازم النافذ الرأى .
(٣٠) المحتمل : القوى . .
(٣١) هو عبدالله بن أبى سرح أخو عثمان فى الرضاعة .

(٩) آخر خطبة له فى جماعة .. *

إن اللهَ — عزَّ وجلَّ — أعطاكمْ الدنيا لتطلبُوا بها الآخرةَ ، ولم يعطكمُوهَا لتركنُوا إليها ، إنّ الدنيا تفْنَى ، والآخرةَ تبقى ، فلاتبطرنّكم الفانية ، ولاتشغلنكم عن الباقية ، فآثروا(٣٢) مايبقى على مايفنى ؛ فإن الدنيا منقطعة ، وإن المصيرَ إلى الله . اتقُوا الله — جلّ وعزّ — فإن تقواه جُنّة(٣٣) من بأسِه ، ووسيلةٌ عنده ، واحذرُوا من الله الغِيَرَ(٣٤) والزموا جماعتكم ، لا تصيروا أحزابا ،

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ (٣٥)

---

* الطبرى ٤ / ٣٨٤ .

(٣٢) آثروا : فضّلوا .

(٣٣) جُنة (بضم الأول) حماية ووقاية .

(٣٤) الغير : تسبب الزمان . ذهب الكسائى إلى أنه مفرد مذكر يجمع على أغيار وذهب أبو عمرو الى أنه جمع غيره (بكسر الغين)

(٣٥) ال عمران ١٠٣ .

الشريحة الثانية

الكتب والعهود

(١) إلى عمّاله .. *

إنَّ اللهَ ألَّفَ بين قلوب المسلمين على طاعَتِه ، وقال تعالى

﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾(١)

وهو مفرِّقها على معصيتيه ، ولا تعْجَلُوا على أحدٍ بحدٍّ قبلَ استيجابه(٢) ، فإنَّ الله تعالى قال

﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾(٣)

من كفرَ داوِ يناهُ بدوائِه ، ومنْ تولّى عن الجماعةِ أنصَفْنَاهُ وأعطيناهُ حتى نقطع حُجَّته وعُذْرَه إنْ شاء اللهُ .

* أشهر لمشاهير الإسلام ٤ / ٧٥٣ .
(١) الأنفال ٦٣ .
(٢) أي قبل التأكد من وجوب إقامة الحد عليه .
(٣) الغاشية ٢٢ و٢٣ .

(٢) إلى الوليد بن عقبة .. *

أما بعدُ: فإنَّ معاوية بنَ أبى سفيان كتَبَ إلىّ يُخْبرنى أنَّ الرومَ قد أجْلَبَتْ(٤) على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيتُ أن يُمِدَّهم إخوانُهم من أهلِ الكوفةِ، فإذا أتاكَ كتابى هذا، فابعثْ رجلاً ممَّن ترضَى نجدتَه و بأسَهَ وشجاعتَهُ وإسلامَهُ فى ثمانيةِ آلاف، أوتسعةِ آلاف، أوعشرةِ آلاف إليهم، من المكانِ الذى يأتيكَ فيه رسولى والسلام.

(٣) إلى أهل الكوفة .. *

أما بعدُ: فإنى كنتُ وليتَّكُمْ الوليدَ بنَ عُقبةَ غلاَمًا(٥) حينَ ذهبَ شَرَهُه(٦)، وثابَ حِلْمُه(٧)، وأوصيتُه بكمْ، ولمْ أوصِكُمْ به، فلمَّا أعيتْكُمْ علانيتُه طعنْتَمْ فى سَريرته(٨)، وقد وليتُكم سعيَد بن العاص، وهو خيرُ عشيرته، وأوصيكُم به خيراً، فاستَوْصُوا به خيراً.

---

* الطبرى ٤/٢٤٧.

ولى عثمان ــ رضى الله عنه ــ الوليد بن عقبة الكوفة، وغزا اهل أذربيجان وارمينية وأنزل بهم هزائم نكراء؛ لأنهم منعوا ماكانوا صالحوا المسلمين عليه أيام عمر، وطلبوا من الوليد أن يتم لهم الصلح على ماكان أيام عمر فقبل وكان ذلك سنه ٢٤هـ. ثم وصل إليه هذا الكتاب من عثمان.

(٤) اجلبت: هجمت

* العقد الفريد ٢/٢٢٣.

اتهم الوليد بن عقبة والى الكوفة بشرب الخمر فعزله عثمان سنة ٣٠، وولى مكانه على الكوفة سعيد بن العاص. وكتب إلى أهلها هذا الكتاب.

(٥) الغلام: هو الطارّ الشارب، وتطلق كذلك على كل من يولد إلى أن يشيب [انظر لسان العرب]

وترى أنه حين ولى الكوفة كان فى العقد الرابع من عمره لأنه كان ــ على أرجح الروايات ــ فى سن الرشد حينما فتح النبى مكة (انظر أسد الغابة ٥/٤٥٢).

(٦) الشره: غلبة الحرص والطمع.

(٧) ثاب: رجع. والحِلْم: العقل والأناة.

(٨) أى بدأتم ترمونه فى خلقه لأنه أجهدكم بشدته فى سبيل صلاحكم. والعبارة توحى بتبرئة عثمان للوليد. وهذا يتناقض مع ثبوت الشرب على الوليد. وجاء فى إحدى الروايات أن عثمان أقام عليه الحد.

(٤) رده على كتاب لسعيد بن العاص *

أما بعدُ: ففضِّلْ أهلَ السابقةِ والقُدْمةِ(٩) ممَّنْ فتحَ الله عليه تلكَ البلادَ. وليكنْ من نزلَها بسببِهم تبعاً لهم، إلا أن يكونُوا تثاقَلُوا عن الحقِّ، وتركُوا القيامَ به، وقامَ به هؤلاء(١٠). واحفظْ لكلٍّ منزلته، واعطِهم جميعا بقِسْطِهم(١١) من الحقِّ، فإن المعرفةَ بالناس بها يصابُ العدلُ.

(٥) إلى معاوية بشأن أبى ذر *

إنَّ الفتنةَ قد أخرجتْ خُطُمَها(١٢) وعينيْهَا، فلمْ يَبْقَ إلاأن تَثِبَ، فلا تَنْكَأِ القَرْحَ(١٣)، وجهِّزْ أباذر إلىّ، وابعثْ معه دليلاً وزوِّدْهُ، وارفُقْ به، وكَفْكِفِ الناسَ ونفسَك ما استطعت، فإنما تُمْسِكُ ما استَمْسَكْتَ(١٤).

---

* الطبرى ٤/ ٢٧٩.
وهو رد على كتاب بعث به إليه سعيد يذكر فيه أن الأعراب وعامة الناس قد غلبت على «أهل الشرف والبيوتات والسابقة والقدمة» (انظر جمهرة رسائل العرب ١/ ٢٩٤).

(٩) القُدمة: بضم فسكون: السابقة والأصالة.

(١٠) أى: فليكن الفاتحون فى المرتبة الأولى يليهم من نزل هذه البلاد بعد ذلك، فإذا ماقعد السابقون وتثاقلوا عن الحق والفضل وقام اللاحقون بذلك كانت لهم المكانة الأولى. و بذلك ينتهى عثمان إلى أن معيار التفضيل بين الناس هو العمل.

(١١) القسط: الحظ والنصيب.

* الطبرى ٤/ ٢٨٣.
وهو رد على كتاب أرسله معاوية إلى عثمان سنة ٣٠هـ يقول فيه: «إن أباذر قد أعضل (اشتد) بى، وأنه تجتمع إليه الجموع، ولاآمن أن يفسدهم عليك، فإن كان لك فى القوم حاجة فأحمله إليك.

(١٢) الخُطُم: جمع خطام: وهو الزمام.

(١٣) القرح: هو الجرح. ونكأ القرح: قشره قبل أن يندمل فأضرّبه، وعثمان يوجه معاوية إلى التصرف بتؤدة وحكمة حتى لا تسوء الحال.

(١٤) أى: لن تستطيع أن تسيطر وتقبض على ناصية الأمور إلا إذا كنت ثابتا رابط الجأش.

(٦) إلى عبد الرحمن بن ربيعة *

إنَّ الرعيةَ قد أبطرَ[١٥] كثيرا منهم البِطْنَةُ[١٦] ، فقصِّرْ ولا تقتحمْ بالمسلمين ، فإنى خاشٍ أن يُبْتَلَوا .

(٧) إلى الأشتر النخعى وأصحابه *

أما بعدُ : فإنّى قد سيرتُكم إلى حِمْص ، فإذا أتاكَمْ كتابى هذا فاخرجُوا إليها فإنّكم لسْتُم تَألونَ الإسلامَ وأهلَهِ شرًّا[١٧] ، والسلام .

(٨) إلى أهل الكوفة .. *

بسم اللهِ الرحمنِ الرحيم . أما بعدُ : فقدْ أمَّرْتُ عَليكم مَنْ اخترتُمْ ، وأعفَيْتكُم منْ سعيد ، والله لأفرشَنَّكُم عِرْضى ، ولأبذُلَنَّ لكمْ صَبْرى ، ولأستصْلِحَنَّكم بجُهْدى ، فلا تَدعُوا شيئاً أحبَبْتُموهُ لايُعْصَى اللهُ فيه إلا سَألتُموُه ، ولاشيئا كرهْتُمُوه لايُعصى اللهُ فيه إلا اسعفيتُم منه . أنزل فيه عندما أحببتم حتى لايكون لكم علىَّ حجة .

---

* الطبرى ٤ / ٢٨٠ .

كان هذا سنة ٣٢ هـ . وأصر عبدالرحمن أن يمضى إلى غايته ولم يستجب لأمر عثمان فحاصر « بلنجر » ببلاد الترك فقاتله الترك بشراسة إلى أن أصيب وانهزم جيش المسلمين . ووقع ماتوقعه عثمان ــ رضى الله عنه ــ .

(١٥) البطر : الأشر .

(١٦) البطنة : ضخامة البطن وامتلاؤه بالطعام .

* الطبرى ٤/ ٣٢٦ .

كان ذلك فى سنة ٣٣هـ . وقبل ذلك شكا سعيد بن العاص والى الكوفة الأشتر وأصحابه لعثمان ، فأمر عثمان بإخراجهم إلى معاوية بالشام . فشكاهم معاوية لعثمان ووصفهم بالنفاق والسحر والفجور . فطلب ردهم إلى موطنهم الكوفة فشكاهم سعيد من جديد ، فكتب إليه عثمان أن يسيرهم إلى عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان أميرا على حمص . و بدأت الفتنة تطل برأسها فى الأمصار .

(١٧) أى تحرصون على إنزال الشر بالإسلام وأهله ، ولا تقصرون فى سبيل تحقيق هذه الغاية .

* الطبرى ٤ / ٣٣٦

طلب أهل الكوفة من عثمان أن يعزل واليهم سعيد بن العاص و يولى عليهم أباموسى الأشعرى فاستجاب لما طلبوا ، و بعث إليهم بهذا الكتاب وكان ذلك سنة ٣٤هـ .

(٩) إلى عماله .. *

أمّا بعدُ : فإن الله أمَر الأئمةَ أن يكونوا رُعاة(١٨) ، ولم يتقدّم إليهم أن يكونوا جبُاةً(١٩) ؛ وإنّ صَـدْر هذه الأمة خُلقِوا رُعاة ، لم يُخلَقوا جبُاة ، ولَيوشِكنّ أئمتكم أن يصيـرُوا جُبـاة ولايكـونـوا رعاة ؛ فإذا عادَوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألاَ وإنّ أعدل السِّيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم مالهم ، وتأخذوهم بما عليهم ؛ ثم تُـثَـنُّوا بالذمّة(٢٠) ، فتعطوهم الذى لهم ، وتأخذوهم بالذى عليهم . ثم العدوّ الذى تنتابون(٢١) ؛ فاستفتحوا عليهم بالوفاء .

(١٠)... إلى عماله .. *

أما بـعـدُ : فقومُوا على مافارقْتُمْ عليه عُمَرَ ، ولا تبَدّلُوا ، ومهما أشْكَلَ عليكم فردُّوه إليـنـا نَـجْـمَعْ عليه الأمةَ ثم نردُّهُ عليكم ، وإياكُمْ أنْ تغيِّرُوا ، فإنى لستُ قابلاً منكم إلا ماكانَ عمرُ يَقْبَلُ .

---

* الطبرى ٤/ ٢٤٤

(و يقال إنه أول كتاب وجهه إلى عماله)

(١٨) رعاة : جمع راع : وهو من يرعى أمور الأمة ويهتم بشئونها .

(١٩) جباة : جمع جاب . وهو من يجمع مافرض على الناس من خراج وجزية وما شابه ذلك .

(٢٠) الذمة : أهل الذمة ممن يعيشون فى كنف الدولة الإسلامية .

(٢١) تواجهون .

* الطبرى ٤/ ٢٤٧ .

(١١) إلى أمراء الأجناد فى الفروج *

أمّا بعدُ : فإنكم حُماةُ المسلمين وذادتُهم(٢٢) ؛ وقد وضع لكم عمر مالم يغب عنا ، بل كان عن ملإ منّا(٢٣) . ولا يبلغنّى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغيّرَ الله ما بكم و يستبدل بكم غيركم(٢٤) ؛ فانظروا كيف تكونون ، فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النّظر فيه ، والقيام عليه .

(١٢) إلى عمال الخراج *

أمّا بعد : فإن الله خلَق الخلْق بالحقّ ؛ فلا يقبل إلا الحقّ ، خذوا الحقّ وأعطوا الحقّ به . والأمانةَ الأمانةَ ؛ قوموا عليها ، ولا تكونوا أوّلَ مَن يسلُبهَا ، فتكونُوا شركاء مَن بعدكم إلى ما اكتسبتم والوفاء الوفاء ؛ لا تظلموا اليتيم ولا المعاهِد ؛ فإن اللّه خصمٌ لمن ظلمهم .

(١٣) إلى العامة *

أمّا بعد : فإنكم إنما بلغتُم ما بلغتُم بالاقتداء والاتّباع ؛ فلا تَلْفتنَّكم الدنيا عن أمركُم ؛ فإنّ أمرَ هذه الأمة صائرٌ إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكاملِ النعم ، و بلوغ أولادِكم من السبايا ، وقراءةِ الأعرابِ والاعاجمِ القرآن ؛ فإنّ رسولَ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « **الكفر فى العُجمة** » ؛ فإذا استعجمَ عليهم أمر تكلّفوا وابتدعوا .

---

* الطبري ٤/٢٤٥ .
(و يقال إنه أول كتاب وجهه إلى أمراء الجند فى الثغور)
(٢٢) الذادة : جمع ذائد وهو المدافع والحامى .
(٢٣) أى؛أن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ خط لكم من قبل سياسة نعرفها ولا تغيب عنا .
(٢٤) يقول تعالى « وإن تتولّوا يستبدلْ قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكُمْ » محمد ٣٨ .
* الطبرى ٤/٢٤٥ .
(وهو أول كتاب منه إلى عمال الخراج) .
* الطبرى ٤/٢٤٥ .

(١٤) إلى أهل الأمصار *

[أمَّا بعدُ] : فإنّي آخذ عمالي بموافاتي كلّ موسم ، وقد رفع إليَّ أهلُ المدينة أن أقواماً يُشتَمون و يُضرَبون ، فمن ادّعى شيئاً من ذلك فليوافِ الموسم يأخذ حقّه حيث كان مني أومن عمالي ، أوتصدّقوا فإن الله يجزي المتصدقين .

(١٥) عهده إلى أهل نجران *

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى الوليد بن عقبة ، سلام عليك ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو.

أما بعد : فإن الأسقفَ والعاقبَ وسَرَاة(٢٥) أهل نجران الذين بالعراق ، أتونى فشكوا إلَى وأرونى شرطَ عمر لهم . وقد علمتُ ما أصابهم من المسلمين ، وإنى قد خَفَّفتُ عنهم ثلاثين حُلَّة من جزيتهم ، تركتها لوجه الله . وإنى وفَّيت لهم كل أرضهم التى تصدق عليهم عمر عُقبى مكان أرضهم باليمن(٢٦) . فاستوص بهم خيراً فإنهم أقوامٌ لهم الذمة ، وكانت بينى و بينهم معرفة . فانظر صحيفة كان كتبها عمر لهم فأوفِهم مافيها ، وإذا قرأت صحيفتهم فارددها عليهم ، والسلام » .

---

* الكامل ٣/ ١٥٥ (سنة ٣٥هـ)

وكانت شكاة أهل الأمصار قد بلغت أهل المدينة فأتوا عثمان فقالوا : يأمير المؤمنين : أيأتيك عن الناس الذي يأتينا ؟ فقال : ماجاءني إلاّ السلامة وأنتم شركائي وشهود المؤمنين ، فأشيروا عليّ . قالوا : نشير عليك أن تبعث رجالاً ممّن تثق بهم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم .

فدعا محمدَ بن مَسلمة فأرسله إلى الكوفة ، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة ، وأرسل عمّار بن ياسر إلى مصر ؛ وأرسل عبدالله بن عمر إلى الشام ، وفرّق رجالاً سواهم ، فرجعوا جميعاً قبل عمّار فقالوا : ما أنكرنا شيئاً أيّها الناس ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامُّهم . وتأخر عمّار حتى ظنّوا أنّه قد اغتيل ، فوصل كتاب من عبدالله بن أبي سرح يذكر أن عماراً قد استماله قومٌ وانقطعوا إليه ، منهم : عبدالله بن السوداء ، وخالد بن مُلْجَم ، وسودان بن حُمران ، وكنانة بن بِشر.

* الخراج ١٦٢ .

كتبه عثمان فى النصف من شوال سنة ٢٩ هـ حينما حضر إليه وفد منهم بالمدينة بعد استخلافه ، وكان لهم عهود سابقة كتبها لهم النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وخليفتاه من بعده (انظرها فى الخراج من ص١٧٥ إلى ص١٦٢) .

(٢٥) السَّراة : أشراف الناس وسادتهم . والمفرد : سرى .

(٢٦) وكان عمر قد أخرجهم من اليمن إلى العراق .

(١٦) استنجاد بمعاوية فى الشام *

بسم الله الرحمن الرحيم : أمَّا بعد : فإنَّ أهلَ المدينةِ قد كفرُوا ، وأخْلَفوا الطاعةَ ، ونكَثُوا البيعةَ ، فابعَثْ إلىّ مَنْ قِبَلَكَ من مُقاتِلَةِ أهلِ الشامِ على كلِّ صعبٍ وذَلَول (٢٧) .

(١٧) استنجاد بمعاوية وأهل الشام *

« أما بعدُ : فإنى فى قوم طال فيهم مُقَامِى ، واستعجَلُوا القَدَرَ فىَّ (٢٨) ، وقد خيَّرونى بين أن يَحْمِلُونى على شارف (٢٩) من الإبل الدَّخيل (٣٠) ، وبين أن أنْزِعَ لهم رداء الله الذى كسانى (٣١) ، وبين أن أُقِيدهم (٣٢) ممن قتلتُ ، ومَن كان على سُلطان يخطىء ويصيب (٣٣) ، فياغوثاه ياغوثاه ، ولا أميرَ عليكم دونى ، فالعجَل العَجَل يامعاوية ، وأَدْرِكْ ثم أَدْرِكْ ، وما أراك تُدْرِكُ » .

---

* الطبرى ٤/٣٤٥ .

كثرت كتب الاستغاثة والاستصراخ من عثمان وهو محصور فى داره قرابة أربعين يوما : كتب إلى معاوية وإلى يزيد بن أسد ابن كُرْز وإلى أهل الشام وكتب إلى عبدالله بن عامر أمير البصرة ، كما كتب إلى غيرهم ، ولقى عثمان ربه شهيدا فالذين نهضوا من الأمصار لإنقاذه وصلوا متأخرين بعد أن نفذ فيه قضاء الله .

(٢٧) الذِّلّ (بكسر الأول) اللين . و يقال للدابة ذلول : إذا كانت لينة لا تستعصى على راكبها .

* الإمامة والسياسة ١/٣٦ .

(٢٨) أى: تمنوا موتى والتخلص منى .

(٢٩) الشارف من الإبل : المسن الهرم .

(٣٠) الدخيل : الغريب .

(٣١) يقصد الخلافة وإمارة المسلمين .

(٣٢) أقاد القاتل بالقتيل أى قتله به والقود (بفتح القاف والواو) : القصاص .

(٣٣) أى : أن كل من تولى الخطير من أمور الناس تعرض للصواب والخطأ وهو معنى كرره عثمان فى أكثر من كتاب وأكثر من خطاب . وفى ذلك يقول الشاعر:

من ركب الهائل من أمره   فعذره فى ذلك المركب .

(١٨) استنجاد بأهل الأمصار *

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإن الله — عزّوجلّ — بعثَ محمداً بالحقّ بشيرا ونذيرا ، فبلغ عن الله ما أمرَهُ به ، ثم مَضَى وقد قضى الذى عليه ، وخلّف فينا كتابه ، فيه حلالُه وحرامُه ، و بيانُ الأمور التى قدّرَ، فأمضاها على ما أحبَّ العبادُ وكرهوا ، فكان الخليفة أبوبكر — رضى الله عنه —.وعمر — رضى الله عنه — ، ثم أُدْخلتُ فى الشورى عن غير عِلمٍ ولامسالةٍ عنْ ملأِمن الأمّة ، ثم أجْمَعَ أهلُ الشورى عن ملأمنهمْ ومن الناسِ علىَّ ، على غير طلب منى ولا محبة ؛ فعملتُ فيهم مايعرفون ولاينكرون ، تابعا غيرَ مستتبع ، متبعا غير مبتدع ، مقتديا غير متكلّف .

فلما انتهتِ الأمور، وانتكث الشرُّ بأهله بدت ضغائنُ وأهواء على غير إجرامٍ ولا ترةٍ فيا مضى إلا إمضاء الكتاب ؛ فطلبوا أمرا وأعلنوا غيرَه بغير حجة ولا عذر، فعابوا علىّ أشياء مما كانوا يرضون، وأشياء عن ملأِمن أهل المدينة لايصلح غيرها ، فصبرتُ لهم نفس ، وكففتُها عنهم منذ سنين ، وأنا أرى وأسمع ؛ فازدادوا على الله عزوجلّ جرأة ، حتى أغاروا علينا فى جوار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وحرمه وأرض الهجرة ، وثابت إليهم الأعراب ، فهم كالأحزاب أيام الأحزاب أومن غزانا بأحد إلا مايُظهرون ؛ فمن قدرَ على اللّحاقِ بنا فليلحق .

(١٩) استنجاد بأهل الموسم *

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عثمان أمير المؤمنين إلى المؤمنين والمسلمين : سلامٌ عليكم ، فإنى أحمدُ اللّهَ إليكم الذى لاإلهَ إلا هو، أما بعدُ : فإنى أذكّركم بالله — جل وعزَّ — الذى أنعم عليكم ، وعلّمكم الإسلام ، وهداكم من

---

* الطبرى ٤/ ٣٥١ (وكان ذلك سنة ٣٥هـ) .
* الطبرى ٤/ ٤٠٧ .
طلب عثمان فى أواخر أيامه من ابن عباس أن يحج بالناس وحمله هذه الرسالة فقراها على أهل الموسم فى السابع من ذى الحجة سنه ٣٥هـ ولما قفل إلى المدينه وجد أن عثمان قد قتل .

الضَّلالة، وأنقذكم من الكفر، وأراكم البيِّناتِ، وأوسع عليكم من الرزق، ونصركم على العدو، وأسبَغَ عليكم نِعَمَه، فإن الله عزّوجل يقول، وقولُه الحقُّ:

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (34)

وقال عزّ وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (35)

وقال وقوله الحق

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ (36)

وقال وقوله الحق ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾

---

(٣٤) إبراهيم ٣٤.
(٣٥) آل عمران ١٠٢ ـ ١٠٥..
(٣٦) المائدة ٧.

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾ (٣٧)

وقال عزّ وجل

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ (٣٨)

وقال وقوله الحق ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٣٩)

وقال وقوله الحق ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا

---

(٣٧) الحجرات ٦ ــ ٨ .
(٣٨) آل عمران ٧٧ .
(٣٩) التغابن ١٦ .

تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (٤٠)

وقال وقوله الحق ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (٤١)

وقال وقوله الحق ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ

---

(٤٠) النحل ٩١ ــ ٩٦

(٤١) النساء ٥٩ .

أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (٤٢)

وقال وقوله الحق ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ (٤٣)

« أما بعدُ : فإن الله ــ جلّ وعزّ ــ رضى لكم السَّمْعَ وَالطاعة والجماعة ، وحذَّركم المعصيةَ وَالفُرقةَ والاختلاف ، ونبّأكم ماقد فعله بالذين من قبلكم ، وتَقَدَّمَ إليكم فيه ، ليكون له الحُجّةُ عليكم إن عَصَيْتموه ، فأقبَلُوا نصيحةَ الله جل وعز واحذَرُوا عَذابَه ، فإنكم لن تجدوا أمّةً هلكتْ إلا من بعد أن تختلف ، إلا أن يكون لها رأسٌ يَجْمَعها ، ومتى ما تفعلوا ذلك لاتقيموا الصلاة جميعاً ، وسُلِّط عليكم عدوكم ، و يستحلّ بعضُكم حُرَمَ بعض ، ومتى يُفعل ذلك لايَقُمْ لله سبحانه دين ، وتكونوا شِيَعاً ، وقد قال الله جل وعزّ لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (٤٤)

وإني أُوصيكم بما أوصاكم الله ، وأحذِّركم عذَابَهُ ، فإن شُعَيباً ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال لقومه : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٤٥)

---

(٤٢) النور ٥٥ .
(٤٣) الفتح ١٠ .
(٤٤) الأنعام ١٥٩ .
(٤٥) هود : ٨٩ ــ ٩٠ .

أما بعدُ : فإن أقواما مّمن كان يقول فى هذا الحديث أظْهرُوا للناس أنَّما يَدْعُون إلى كتاب الله عزَّوجل والحقِّ، ولا يريدون الدنيا ولا مُنَازَعَةً فيها ، فلما عُرض عليهم الحقُّ إذا النَّاسُ فى ذلك شَتَّى(٤٦) ، منهم آخِذٌ للحق ونازِعٌ(٤٧) عنه حين يُعْطاه ، ومنهم تاركٌ للحق ونازِلٌ عنه فى الأمر يريد أن يبتَزَّهُ(٤٨) بغير الحق ، طال عليهم عُمْرى ، وَراثَ(٤٩) عليهم أَمَلُهم الإمْرَةَ ، فاستعجَلُوا القَدَرَ ، وقد كتبوا إليكم أنهم قد رَجَعوا بالذى أعطيتُهم ، ولا أعلم أنى تركتُ من الذى عاهَدْتُهم عليه شيئاً ، كانوا زَعَموا أنهم يطلبون الحدودَ فقلتُ : أَقِيمُوها على من عَلِمْتم تَعدّاها فى أَحَد ، أَقيموها على من ظَلَمَكم من قريب أوبعيد ، قالوا : كتابُ الله يُتْلَى ، فقلتُ : فلْيَتْلُه مَن تَلاَه غيرَ غَالٍ(٥٠) فيه بغير ما أنزل الله فى الكتاب ، وقالوا . المحرومُ يُرْزَق ، والمال يُوَفَّى لِيُسْتَنَّ فيه السُّنَّةُ الحسنة ، ولا يُعْتَدَى فى الخُمْس ولا فى الصَّدقة ، و يؤمَّر ذوالقوة والأمانة ، وتُرَدُّ مَظالمُ الناس إلى أهلها ، فَرضِيتُ بذلك واصطَبَرْتُ له ، وجئتُ نِسْوة النَّبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى كلمتهنّ فقلتُ : ما تأمُرْنَنى ؟ فقلن : تُؤَمِّر عمرو بن العاص(٥١) ، وعبدالله بن قيس(٥٢) ، وتَدَعُ معاوية ، فإنما أمَّره أمير قبلك ، فإنه مُصْلِح لأرضه ، راضٍ به جندهُ ، واردُد عَمْرا فإن جُنْدَه راضون به ، وأمّره فلْيُصلِح أرضه ، فكلَّ ذلك فَعلت(٥٣) ، وإنه اعْتُدِى علىَّ بعد ذلك ، وعُدِى عَلَى الحقّ ، كتبت إليكم وأصحابى الذى زَعَموا فى الأمر استعجَلوا الْقَدَر ، ومنعوا متى الصلاة(٥٤) ، وحالوا بينى و بين المسجد ، وابتَزُّوا ما قَدَروا عليه بالمدينة ، كتبت إليكم كتابى هذا وهم يخيِّروننى إحدى ثلاث : إمّا يُقيدُوننى بكل رجل أصَبْتُه خطأ أوصواباً غير مَتروكٍ منه شىء ، وإمَّا أعْتَزل الأمَر فيؤمِّرونَ آخرَ غيرى ، وإمّا يُرْسِلون إلى

---

(٤٦) مختلفون متفرقون : جمع شتيت .
(٤٧) نزع : كف وأبى .
(٤٨) يسلبه و يستغله .
(٤٩) راث : أبطأ .
(٥٠) غال : مسرف مشتط والفعل غلا .
(٥١) كان عثمان قد عزله عن ولاية مصر بعد أن أقره عليها أربع سنين ، ثم ولى مكانه عبدالله بن أبى السرح .
(٥٢) هو أبو موسى الأشعرى .
(٥٣) ربما عبر عثمان بذلك عن عزمه على إعادة عمرو إلى ولاية مصر ولكن الثابت أنه استشهد دون أن يحقق هذا العزم .
(٥٤) كان الذين حاصروه قد حالوا بينه و بين الذهاب إلى المسجد لأداء الصلاة .

من أطاعهم من الأجناد ، وأهل المدينة فيتبرَّءُون من الذى جعل اللّهُ سبحانَه لى عليهم من السمع والطاعة ، فقلت لهم : أمَّا إقادتى من نفسى فقد كان مِنْ قَبلى خلفاء تُخطِىء وتُصيب ، فلم يُسْتَقَدْ(٥٥) من أحدٍ منهم ، وقد علمتُ أنما يريدون نفسى ، وأمَّا أنَّ أتبرأَ من الإمارة فأنْ يَكْلُبونى(٥٦) أحبُّ إلىّ من أتبرَّأ من عملِ الله — عزّوجل — وخلافته ، وأما قولهم : يُرْسِلون إلى الأجناد وأهل المدينة فيتبرَّءون من طاعتى ، فلست عليهم بوكيل ، ولم أكُن استكرَهْتُهم من قبلُ على السَّمْع والطاعة ، ولكن أتَوْها طائعين يبتغون مَرْضاةَ الله عزّوجل وإصلاحَ ذاتِ البَيْن ، ومن يكن منكم إنما يبتغى الدنيا فليس بنائلٍ منها إلا ما كَتَبَ اُللّهُ — عزّوجل — له ، ومن يكن إنما يريد وَجْهَ اَللّهِ والدارَ الآخرة وصلاحَ الأمّة وابتغاء مَرضاةِ الله — عزّوجل — والسُّنَّةَ الحَسَنة التى استَنَّ بها رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — والخليفتان من بعده — رضى الله عنهما — فإنما يَجْزِى بذلكم اللّهُ ، وليس بيَدِى جزاؤكم ، ولوأعطيتكم الدنيا كلَّها ، لم يكن فى ذلك ثمن لدينكم ، ولم يُغْنِ عنكم شيئاً ، فاتقوا اللّهَ واحتَسِبوا ما عنده ، فمن يَرْضَ بالنَّكْث(٥٧) منكم فإنى لا أرضاه له ، ولا يرضى الله سبحانه أن تَنكُثوا عَهْدَه ، وأمّا الذى يخيِّروننى فإنما كله النَّزْعُ والتأمير ، فَمَلَكْتُ نفسى ومن معى ، ونظرتُ حُكْمَ الله وتغيير النعمة من الله سبحانه ، وكرِهتُ سُنَّة السوء وشقاقَ الأمة وسفك الدماء .

فإنى أنشُدُكم(٥٨) بالله والإسلام أن لا تأخذوا إلا الحقَّ وتُعطوه منى ، وتركَ البَغْى(٥٩) على أهله ، وخذوا بيننا بالعدل كما أمركم الله عزّوجل ، فإنى أنشدكم الله سبحانه الذى جعل عليكم العهدَ وَالمؤَازَرَة(٦٠) فى أمر الله ، فإن الله سبحانه قال وقولُه الحق : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾(٦١)

---

(٥٥) لم يستقد : لم يقتص .
(٥٦) يكلبونى : يضربونى بالكلاب (بضم الكاف وتشديد اللام) وهى الحديدة التى على خف رائض الخيل .
(٥٧) النكث : نقض العهد والبيعة .
(٥٨) أسألكم واستحلفكم به .
(٥٩) البغى : الجور والعدوان .
(٦٠) المؤازرة : التأييد والمساندة .
(٦١) الإسراء ٣٤ .

فإن هذه معْذِرَةٌ إلى الله ولعلكم تذَّكَّرون .

« أما بعدُ :

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (٦٢)

وإن عاقبتُ أقواما فما أبتغِي بذلك إلا الخيرَ، وإنِّي أتوب إلى الله عزّوجل من كل عمل عَمِلْته واستغفرُهُ ، إنه لايَغْفِر الذُّنوب إلا هو، إنَّ رحمةَ ربى وَسِعَتْ كلَّ شيء ، إنه لايَقْنَطُ (٦٣) من رحمة الله إلا القَوْمُ الضَّالُّون (٦٤) ، وإنه يَقْبَلُ التَّوْبةَ عَن عِبَاده وَ يَعْفُو عن السَّيِّئات و يعلم مايَفعلون وأنا أسأل الله عزّوجل أن يغفر لى ولكم ، وأن يؤلِّف قلوبَ هذه الأمة على الخير، و يكَرِّه إليها الفسقَ ، والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته أيها المؤمنون والمسلمون » .

(٢٠) واستنجاد آخر بأهل الموسم *

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله عثمان أمير المؤمنين إلى من حضر الحج من المسلمين .

أما بعدُ : فإنى كتبتُ إليكم كتابى هذا ، وأنا محصورٌ، أشْرَب من بئر القصْر، ولاآكلُ من الطعامِ مايكفينى ، خِيفَةَ أن تَنْفَدَ ذخيرتى فأموتَ جوعا أناومن معى ، لاأدْعَى إلى توبة أقبلُها ، ولاتُسْمَع منى حجةٌ أقولها ، فأنشُدُ اللَّهَ رجلا من المسلمين بلغَهَ كتابى إلاَّقَدِمَ علىَّ ، فأخذَ الحق فىَّ ، ومنعنى من الظلم والباطل » .

---

(٦٢) يوسف ٥٣ .

(٦٣) يقنط : ييأسها .

(٦٤) يقول تعالى « قال ومن يقنطُ من رحمةِ ربّه إلا الضالُّون » الحجر٥٦ .

* الإمامة والسياسة ١/٣٦

بعث به عثمان مع نافع بن طريف إلى أهل مكة ومن حضر الموسم سنة ٣٥هـ يستغيثهم ، فوافى به نافع يوم عرفة بمكة ، وابن عباس بخطب ــ وهو يومئذ أمير الناس على الحج ــ و يظهر أن عثمان بعث بهذا الكتاب بعد الكتاب الذى بعث به مع ابن عباس إلى أهل الموسم فى نفس الموضوع ، وهو أكثر تفصيلا وإسهابا من الكتاب الذى حمله نافع ، وكل هذه الكتب تنم على شدة إحساس عثمان بالخطر. و بعدها قتل يوم الجمعة ١٨ من ذى الحجة سنة ٣٥ على رأس ١١ سنة و١١ شهرا و٢٢ يوما من مقتل عمر ــ رضى الله عنه ــ وكانت سنة آنذاك ٨٢ سنة [انظر الطبرى ٤/٤١٦ ، ٤١٧] .

الشريحة الثالثة

الحكم والتوقيعات

(١) الهديةُ من العامل إذا عزل مثلَها منه إذا عَمل .

* * *

(٢) أنتم إلى إمامٍ فعال أحوجُ منكم إلى إمامٍ قوّال .

* * *

(٣) مايزعُ الله بالسلطانِ أكثر مما يزع بالقرآن(١)

* * *

(٤) يكفيك من الحاسدِ أنه يغتَمُّ وقت سرورك .

* * *

(٥) خير العباد من عصمَ واعتصَم بكتاب الله تعالى ، ونظرَ إلى قبرٍ فبكى ، وقال هو أول منازل الآخرة ، وآخر منازل الدنيا .

---

(١) يزع : يزجر و يردع .

(٦) لأن أقتلَ قبل الدماء احبّ إلىّ منْ أنْ أُقتلَ بعد الدماء(٢)

* * *

(٧) سيجعلُ اللهُ بعد عسر يسرا ، و بعد عَىّ بيانا(٣)

* * *

(٨) ألا ينهى عالم جاهلا ، ولاينذرُ حليم سفيها ؟!

* * *

(٩) لم يغلبك كمغلّب(٤) .

* * *

(١٠) جدُّوا ولا تغْفَلوا ، فإنَّهَ لايُغْفَلُ عنكم(٥)

* * *

(١١) إن لكل شيء ، ولكل أمر عاهة ، وإن آفة هذه الأمة ، وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون ، يرونكم ماتحبون ، و يسترون عنكم ماتكرهون(٦) .

* * *

(١٢) آثروا مايبقى على مايفنى ، فإن الدنيا منقطعة ، وإن المصير إلى الله(٧)

* * *

---

(٢) أى لأن أقتل مظلوما دون أن أريق دما أحبّ إلىّ من أن أقتل ظالما بعد قتل من أستطيع قتله ممن حصرونى مجمع الأمثال ٢/٤٢٠ .

(٣) زهر الآداب ١/٧٥ . والعىّ والحصر : العجز عن الإبانة .

(٤) السابق ١/٧٦
أى:أن انتصار المقهور المغلوب يكون أشد مرارة على النفس من انتصار القوى الغالب . ومثله « لو أنّ غير ذات سوار لطمتنى » .

(٥) الطبرى ٤/٢٤٣ .

(٦) الكامل لابن الأثير ٣/١٥٢ .

(٧) الطبرى ٤/٣٨٤

(١٣) وقّع عثمان(٨) فى قصة قوم تظلّموا من مروان بن الحكم ، وذكروا أنه أمر بوجْ أعناقهم : (٩) .

فإنْ عصَوْكَ فَقُلْ إنى برىءٌ مما تَعمْلون .

* * *

(١٤) ووقّع (١٠) فى قصة رجل شكا عَيْلة (١١) :

قد أمَرْنا لكَ بما يُقيمكَ ، وليسَ فى مالِ اللهِ فضلٌ للمسْرِف .

---

(٨) العقد الفريد ٤/٢٠٦ .
(٩) الوج : الكلز . ووجأعنقه أو فى عنقه : ضربه . وهو كناية عن القتل .
(١٠) السابق : نفس الصفحة .
(١١) العيلة والعالة : الفاقة .

الشريعة الرابعة

الجـدل و الحـوار

(١) بين عثمان ومولاه *

عن هانىء مولى عثمانَ بن عفانَ قال : كان عثمانُ بن عفان إذا وقف على قبرٍ بكى حتى يَبُلَّ لحيتَه قال : فقِيلَ له : تذكرُ الجنةَ والنارَ ولا تبكى ، وتبكى من هذا ؟ قال : إنَّ رسولَ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : القبرُ أول منازلِ الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشدُّ منه . وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : مارأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه .

(٢) عندما أتم الصلاة بجمع لأول مرة *

فى سنة ٢٩ هـ حج عثمان بالناس ، وضرب فسطاطه بمنًى ، وكان أوّل فسطاط ضربه عثمان بمنى ، وأتمّ الصلاة بها وبعَرفَة ، فكان أوّل ماتكلّم به الناسُ في عثمان ظاهراً حين أتمَّ الصلاة بمنى ، فعاب ذلك غيرُ واحد من الصحابة ، وقال له عليّ :

* الخراج ٥١ .
* الكامل لأبن الاثير ١٠٣/٣

ماحدثَ أمر ولا قدُم عهد ، ولقد عهدتَ النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم ، وأبا بكر وعمر يصلون ركعتين وأنتَ صدراً من خلافتك ، فما أدري ماترجع إليه . فقال : رأي رأيتُه .
و بلغ الخبرُ عبدَالرحمن بن عوف وكان معه ، فجاءه وقال له : ألم تصلّ في هذا المكان مع رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — وأبي بكر وعمر ركعتين وصليتَها أنت ركعتين ؟ قال : بلى ولكني أخبرتُ أن بعضَ من حجّ من اليمن وجفاةِ الناس قالوا : إنّ الصلاة للمقيم ركعتان ، واحتجّوا بصلاتي ، وقد اتخذتُ بمكّة أهلاً ولي بالطائف مال . فقال عبدالرحمن : مافي هذا عذر ، أمّا قولك : اتخذتَ بها أهلاً ، فإن زوجك بالمدينة تخرج بها إذا شئت وإنّما تسكن بسكناك ، وأمّا مالك بالطائف فبينك و بينه مسيرة ثلاثِ ليال ، وأمّا قولك عن حاجّ اليمن وغيرهم ، فقد كان رسولُ الله — صلّى الله عليه وسلّم — ينزل عليه الوحي والإسلام قليل ، ثمّ أبوبكر وعمر ، فصلّوا ركعتين وقد ضربَ الإسلام بجرّانه(١) . فقال عثمان : هذا رأي رأيتُه .

فخرج عبد الرحمن فلقي ابن مسعود فقال : أبامحمد ، غُيِّرَ ما تعلم . قال : فما أصنع ؟ قال : اعمل بما ترى وتعلم . فقال ابن مسعود : الخلاف شر وقد صلّيت بأصحابي أربعاً . فقال عبدالرحمن : قد صلّيتُ بأصحابي ركعتين وأمّا الآن فسوف أصلّي أربعاً .

(٣) بين عثمان وأبي ذر.. *

لمّا قدم المدينة ورأى المجالس في أصل جبل سلع قال : بشّر أهل المدينة بغارة شعواء(٢) وحرب مِذكار(٣) . ودخل على عثمان فقال له : مالأهل الشام يشكون ذَرَب لسانك(٤) . ؟ فأخبره . فقال : يا أبا ذرّ عليّ أن أقضي ماعليّ وأن أدعوَ الرعية إلى الاجتهاد والاقتصاد وماعليّ أن أجبَرهم على الزهد . فقال أبوذرّ: لا ترضُوا من

---

(١) في أساس البلاغة : ضرب الإسلام بجرانه : أي ثبت واستقر. وهو من المجاز المنقول من الكناية من قولهم : ضرب البعير بجرانه ، وألقى جرانه إذا برك . ويقال : ألقى فلان على هذا الأمر جرانه إذا وطّن عليه نفسه .

* الكامل لابن الأثير ٣/ ١١٥ (سنة ٢٩هـ) .

(٢) شعواء : شديدة .

(٣) مذكار: هائلة مخوفة .

(٤) الذرب : الحدة . يقال : سيف ذرب (بكسر الراء) أي : حاد ، وفيه ذرب (بفتح الراء) أي : حدة .

الأغنياء حتى يبذُلوا المعروفَ ويحسنُوا إلى الجيرانِ والإخوانِ و يَصِلوا القرابات . فقال كعب الأحبار، وكان حاضراً : من أدّى الفريضة فقد قضى ماعليه . فضربه أبوذر فشجَّه ، وقال له : ياابن اليهودية ماأنت وماهما ؟ فاستوهبَ عثمانُ كعباً شجتَّه(٥) ، فوهبه . فقال أبوذرّ لعثمانَ : تأذن لي في الخروج من المدينة ؛ فإنَّ رسولَ الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ أمرني بالخروج منها إذا بلغَ البناء سلعاً . فأذنَ له ، فنزل الرَّبَذة و بنى بها مسجداً ، وأقطعه عثمان صِرمةً(٦) من الإبل وأعطاه مملوكين وأجرى عليه كلَّ يوم عطاء ، وكذلك على رافع بن خديج(٧) ، وكان قد خرج أيضاً عن المدينة لشيء سمعه .

وكان أبو ذرّ يتعاهدُ(٨) المدينة مخافة أن يعود أعرابياً .

(٤) بين عثمان وابن عباس *

خطب عثمان بعد صلاة الجمعة خطبة حمل فيها على الذين تقولوا عليه بعد بناء دار جديدة له بالمدينة .

ثم هم بالنزول فبصر بعلي بن أبي طالب ــ عليه السلام ــ ومعه عمار بن ياسر ــ رضي الله عنه ــ وناسٌ من أهل هواه يتناجوْن فقال : ايهاً إيهاً(٩) ! أسرارا لاجهارا ! أما والذى نفسي بيده ما أحنق على جرَّة(١٠) ولا أوتَي من ضعف مِرَة(١١) ، ولولا

---

(٥) طلب منه العفو

(٦) الصِّرمة من الإبل،مابين العشرة والخمسين

(٧) صحابى جليل شهد أحدا والخندق وأكثر المشاهد ، وشهد صفين مع على . قال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « أنا **أشهد لك يوم القيامة** » ، وكان عريف قومه ، مات سنة أربع وسبعين وهو ابن ست وثمانين سنة [انظر أسد الغابة ١٩٠/٢]

(٨) يتعاهد المدينة : يتردد عليها .

* الأخبار الموفقيات ٦٠٤ .

(٩) إيها (بكسر الأول) اسم فعل أمر بمعنىً : اسكت وكف .

(١٠) الحنق : الغيظ وفعله حنق (بكسر الثانى) والجره (بكسر الجيم) مايفيض به البعير فيأكله ثانية . و يقصد بقوله لايسير صنعنا لأحد .

(١١) المرة : بكرالميم : القوة وشدة العقل . والرجل المرير: القوى . وفى العبارة ينفى عثمان عن نفسه الضعف .

النظر لي ولكم ، والرفقُ بي و بكم لعاجلتكم فقد اغتررتم وأقلتُم[١٢] من أنفسكم . ثم رفع يديه يدعو و يقول : اللهم قد تعلمُ حُبّي للعافية فألبسنيها ، وإيثارى للسلامة فأتينها .

فتفرّق القوم عن علي ــ عليه السلام ــ وقام عديُّ بن الخيار فقال : أتمَّ الله عليك يا أمير المؤمنين النعمةَ ، وزادكَ في الكرامة ، والله لأنْ تُحسَد أفضلُ من أن تَحْسد ، ولان تُنافَس أجلُّ من أن تنافس . أنتَ ــ والله ــ فى حسبنا الصميم ومنصبنا الكريم ، إن دعوت أجبت ، وإن أمرت أطِعت ، فقلْ نفعل وادعُ تُجب ، جعلت الخيَرة والشورى الى أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليختاروا لهم ولغيرهم ، وإنهم ليرونَ مكانك و يعرفون مكان غيرك فاختاروك منيبين طائعين غير مكرهين ولا مجبَرين ، ما غيّرتَ ولا فارقتَ ولا بدّلتَ ولا خالفتَ ، فعلام يقدمون عليك وهذا رأيهم فيكَ ! أنت والله كما قال الأول :

اذهب إليك فما للحسو ... د إلاّ طلابك تحت العثار
حكمت فما جُرتَ في خَلّةٍ ... فحكمك بالحق بادي المنار
فإن يسبَعوك فسِراً وقد ... جهرت بسيفك كل الجهار[١٣]

قال : ونزل عثمان فأتى منزله ، وأتاه الناس وفيهم ابن عباس ، فلما أخذوا مجالسهم ، أقبل على ابن عباس فقال : مالي ولكم يا ابن عباس ! ما أغراكم بي ، وأولعَكم بتعقب أمرى ! أتنقمون عليَّ أمر العامة ؟ أتيتُ من وراء حقوقهم ، أم أمركم ، فقد جعلتهم يتمنون منزلتكم ! لا والله لكن الحسدَ والبغيَ وتثوير الشر[١٤] وإحياء الفتن ، والله لقد ألقى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ إليّ ذلك وأخبرني به عن أهلِه واحدا واحدا ! والله ما كذبتُ ولا أنا بمكذوب .

فقال ابن عباس : على رِسْلِك[١٥] يا أميرَ المؤمنين ، فوالله ما عهدتك جهرا بسرّك ، ولا مُظهرا ما في نفسك[١٦] ، فما الذى هيجك وثورك ؟ إنالم يُولعنا بك أمر ،

---

(١٢) أقال البيع والعقد : فسخه .
(١٣) يسبعوك : يشتموك
(١٤) تثوير الشر : إيقاظه وإثارته
(١٥) مهلا
(١٦) أى:أن عهدى بك الهدوء وكظم الغيظ

ولم نتعقب أمرك بشيء ، أتيتَ بالكذب وتُسُوِّق عليك بالباطل(١٧) . والله مانقمنا عليك لنا ولا للعامة ، قد أوتيت من وراء حقوقنا وحقوقهم ، وقضيتَ مايلزمك لنا ولهم ، فأما الحسد والبغي وتثوير الفتن وإحياء الشر فمتى رضيتْ به عترة النبي(١٨) وأهل بيته ؟ وكيفَ وهُمْ منه وإليه ، على دين الله يثورون الشر ، أم على الله يحيون الفتن ؟ كلا ليس البغيُ ولا الحسدُ من طباعهم .

فاتئدْ ياأميرَ المؤمنين وأبصر أمرَك ، وامسِكْ عليك فإنّ حالتك الأولى خير من حالتك الأخرى(١٩) . لعمرى أن كنتَ لأثيرا عند رسولِ الله ، وان كان ليفضي اليكَ بسره مايطو يه عن غيرك ، ولاكذبت ولا أنتَ بمكذوب ، أخْسَ(٢٠) الشيطان عنك لايركبك ، واغلبْ غضبك ولايغلبك ، فما دعاك إلى هذا الامرِ الذى كان منك ؟

قال : دعاني إليه ابن عمك علي بن أبي طالب . فقال ابن عباس : وعسى أن يكذب مُبلّغُك . قال عثمان : إنه ثِقة . قال ابن عباس : إنه ليس بثقة مَنْ بلّغ وأغرى . قال عثمان : ياابن عباس آللّه إنك ماتعلم من عليّ ماشكوتُ منه ؟ قال : اللهم لا إلا أن يقول كما يقول الناس ، و ينقمُ كما ينقمون ، فمن أغراك به وأولعك بذكره دونهم ؟ فقال عثمان : إنما أفتي من أعظم الداء الذي ينصب نفسه لرأس الأمر وهو على ابن عمك ، وهذا والله كله من نكدِه وشؤْمِه . قال ابن عباس : مهلا استثنِ ياأمير المؤمنين ، قل : إن شاء الله . فقال : إن شاء الله . ثم قال : إني أنشُدُك ياابن عباس الإسلامَ والرحم ، فقد والله غُلبتُ وابتليتُ بكم ، والله لوددتُ أن هذا الأمَر كان صار إليكم دوني فحملتمُوه عني ، وكنتُ أحدَ أعوانِكم عليه إذاً . والله لوجدتُمُوني لكم خيرا مما وجدتُكم لي ، ولقد علمتُ أن الأمرَ لكم ، ولكن قومَكم دفعوكم عنه واختزلُوه دونكم ، فوالله ماأدرى أدفَعوه عنكم أم دفعوكم عنه ؟

---

(١٧) أى ساق إليك الوشاة ماهو زور و باطل من أمرنا

(١٨) عترة الرجل : نسله ورهطه الأدنوْن

(١٩) أى كانت حالتك أيام رسول الله وصاحبيه خير من حالتك وأنت خليفة للمسلمين .

(٢٠) أخس أواخسأ الشيطان : اطرده ولا تستجب له .

قال ابن عباس. مهلاً ياأمير المؤمنين، فإنا ننشُدُك اللّهَ والإسلامَ والرحمَ، مثل ما نشدتنا، أن تُطمع فينا وفيك عدوّاً، وتُشمِتَ بنا وبك حسوداً. إن أمرَكَ إليك ما كان قولاً، فاذا صارَ فعلاً فليس إليك ولافي يديك(٢١)، وإنا والله لنخالفن إن خولفْنا، ولننازعن إن نُوزعنا، وما تمنّيك أن يكون الأمر صار إلينا دونك الاأن يقول قائل منا ما يقوله الناسُ ويعيب كما عابوا! فاما صرفُ قومنا عنّا الأمَر(٢٢) فعن حسد قد والله عرفْتَه، وبغْيٍ قد والله علمتَه، فاللّه بيننا وبين قومنا! وأمّا قولك: إنك لا تدري أدفعوه عنّا أم دفعونا عنه؟ فلعمري إنك لتعرفُ أنه لوصارَ إلينا هذا الأمرُ مازدنا به فضْلا إلى فضلنا ولاقدْراً إلى قدرنا، وإنا الأهلُ الفضلِ وأهلُ القدر، وما فضَل فاضلٌ إلابفضلنا، ولاسبقَ سابق الابسبقِنا، ولولا هدْيُنا(٢٣) ما اهتدى أحد ولا أبصروا من عمى ولاقصدُوا(٢٤) من جور.

فقال عثمان: حتى متى يا ابن عباس يأتيني عنكم ما يأتيني؟ هَبُوني كنتُ بعيداً أما كان لي من الحقّ عليكم أنْ أراقِبَ وأن أناظرِ. بلى. وربّ الكعبة، ولكنّ الفرقَةَ سهّلت لكم القول فيّ وتقدمت بكم إلى الإسراع إلى(٢٥). واللّه المستعان.

قال ابن عباس: مهلاً حتى ألقى عليّاً ثم أحملُ إليك على قدر ما رأى(٢٦). قال عثمان: افعل فقد فعلت، وطالما طلبت فلا أطلَب(٢٧)، ولاأجابُ ولاأعْتَب(٢٨).

قال ابن عباس: فخرجت فلقيتُ عليّاً وإذا به من الغضب والتلظي(٢٩) أضعافُ ما بعثمان، فأردت تسكينَه فامتنع، فأتيتُ منزلي وأغلقت بابي واعتزلتها.

---

(٢١) أي أننا نعفو عن كل مايقال فينا لكن إذا تحول القول إلى فعل يقال منا رددنا عن أنفسنا كل عادية
(٢٢) الأمر: الخلافة
(٢٣) يقصد هدى النبوة
(٢٤) قصدوا: عدلوا ولم يشرقوا
(٢٥) أي:الإسراع بالإساءة إليّ
(٢٦) أي أنقل إليك رأيه كما ذكره بلا تزيد أو نقصان.
(٢٧) أطلب (بضم الأول) أجاب إلى طلبى.
(٢٨) أعتب (بالبناء للمجهول) أعذر و يرضى عنى.
(٢٩) التلظى: شدة الغضب.

فبلغ ذلك عثمان فأرسل إلىّ ، فأتيته وقد هدأ غضبُه ، فنظر إلىّ ثم ضحك وقال : يا ابن عبّاس ، ما أبطأ بكَ عنا ؟ إن تركك العوْدَ إلينا لدليلٌ على ما رأيت عند صاحبك ، وعرفتَ من حاله ، فالله بيننا و بينه ، خذُبنا في غير ذلك(٣٠) .

قال ابن عباس : فكان عثمانُ بعد ذلك اذا أتاه عن علي شيء فاردتُ التكذيبَ عنه يقول : ولا يوم الجمعة حين أبطأتَ عنا ، وتركت العوْد إلينا ؟ فلا أدري كيف أرد عليه .

(٥) بين عثمان وابن عباس وعمار*

وروى عن عبدالله بن عباس أنه قال :
خرجتُ من منزلي سَحَرا أسابقُ الى المسجد أطلبُ الفضيلة ، فسمعت خَلفي حساً وكلاماً ، فتسمّعْته فاذا حسُ عثمان وهو يدعو ، ولا يَرى أن أحداً يسمعُه ، و يقول : اللهم قد تعلم نيتي فأعنّي عليهم ، وتعلم الذين ابتليتُ بهم من ذوي رحمِي وقرابتي ، فأصلحني لهم وأصلحهم لي .

قال : فقصّرت من خطوتي وأسرعَ في مشيته ، فالتقينا فسلم فرددتُ عليه فقال : إني خرجتُ ليلتّنا هذه أطلبُ الفضلَ والمسابقة الى المسجد . فقلت : إنه أخرجني ماأخرجك ، فقال : والله لئن سابقتَ الى الخير، إنك لمن سابقين مباركين ، وإني لأحبّكم وأتقربُ إلى اللهِ بحبكم ، فقلت : يرحمك الله ياأمير المؤمنين ، إنا لنحبّك ونعرف سابقتك وسنّك وقرابتك وصهرك . قال : ياابن عباس ، فما لي ولابن عمكَ وابن خالي ! قلتُ : أيّ بنى عمومتي و بني أخوالك ؟ قال : اللهم اغفر. أتسأل مسألة الجاهل ؟ قلت : ان بني عمومتي من بني خؤولتك كثير، فأيّهم تعني ؟ قال : أعني عليّا لا غيرّه . فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ما أعلمُ منه إلا خيراً ولا أعرف له إلا حسناً . قال : والله بالحريّ أن يستروا دنك مايظهره لغيرك ، و يقبض عنك

(٣٠)أى : فلنغير مجرى الحديث . ويحتمل أن يكون المعنى : لاتبطيء علينا مرة أخرى ، وليكن عملك مستقبلا غير ما سلكت إذ أبطأت علينا فى الرد .
* الأخبار الموفقيات ٦٠٧ .

مايـنـبـسـط بـه الى سـواك(٣١) . قـال : ورُمِـيـنـا بعمار بن ياسر ، فسلّم فرددت عليه سـلامـه ، ثم قـال : مَـنْ مـعـك ؟ قـلـت : أمير المؤمـنين عـثـمـان ، قال : نعم ، وسلّم بـكـنـيته(٣٢) ، ولم يسلّم عليه بالخلافة ، فردّ عليه ، ثم قال عمار: ماالذي كنتم فيه ، فـقـد سـمـت ذَرْواً مـنه ؟(٣٣) قلت : هو ماسمعتَ . فقال عمار: رُبّ مظلوم غافل ، وظـالم مـتجاهل . قال عثمان : أما أنك من شُنَّائنا(٣٤) وأتباعهم ، وايم الله ، إن اليدَ عـليك لمنبسطة وإنْ السبيل إليك لسهلة ، ولولا إيثار العافية ولمّ الشعث لزجرتُك زجرة تكفي مامضى وتمنع مابقي(٣٥) .

فـقـال عـمار: والله ما أعتذرُ من حبّي عليّاً ، وما اليدُ بمنبسطة ولا السبيل بسهلة ، إني لازم حُجّةً ومقيمٌ على سُنة .

وأمـا إيـثـارك الـعـافـية ولمّ الشَّعث ، فلازم ذلك . وأما زجري فأمسِك عنه ، فقد كفاك معلمي تعليمي .

فـقـال عـثـمـان : أمـا والله إنـك مـاعـلـمـتُ من أعوان الشر الحاضّين(٣٦) عليه ، الخـذَلـة(٣٧) عـنـد الخير المثبِّطين(٣٨) عنه . فقال عمار: مهلاً ياعثمان ، فقد سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وآله ــ يصِفني بغير ذلك ، قال عثمان : ومتى ؟ قال : يوم دخـلـتُ عـلـيـه مـنـصـرفَـه عن الجمعة ، وليس عنده غيرك ، وقد ألقى ثيابه ، وقعد في فُضُـلـه(٣٩) ، فَـقَـبّـلْـتُ صـدرَه ونحـرَه وجبهـتَـه فـقـال : «ياعمّار، انك لتحبّنا ، وإنا لـنـحـبّـكَ ، وإنـك لمـن الأعوان على الخير المثـبّطين عن الشرّ» . فقال عثمان : أجلْ

(٣١) أى : أن عليا يبدى رأيا سيئا فى عثمان لايصارح به ابن عباس ولكن يصارح به غيره .
(٣٢) كنية عثمان هى (أبو عبدالله) وقيل (أبو عمرو) انظر اسد الغابة ٣/ ٥٨٤ .
(٣٣) ذروا : طرفا .
(٣٤) شناء : جمع شانىء : وهو المبغض الكاره .
(٣٥) أى:لانزلت بك ما يكون جزاء لما بدر منك فى الماضى ومانخالك أن تأتى مثله فى المستقبل .
(٣٦) الحاضين : من يدعون إليه ويمنون عليه .
(٣٧) الخذلة : جمع خاذل وهو المتخلى عن العون والنصرة .
(٣٨) المعوقين المبطئين .
(٣٩) الفضل : الثوب يلبسه الرجل فى بيته .

ولكنك غيّرت و بدّلت . قال : فرفع عمّار يده يدعو وقال : أمِّن[٤٠] ياابنَ عباس . « اللهمَ مَنْ غيّر فغيِّر به » . ثلاث مرات .

قال : ودخلْنا المسجد ، فأهوى عمار الى مصلاه ، ومضيتُ مع عثمانَ الى القبلة ، فدخل المحراب وقال : تلَبَّثْ عليّ اذا انصرفْنا فلما رآني عمار وحدي أتاني فقال : أما رأيت مابلغ بي آنفاً ! قلت : أما والله لقد أصعبْتَ به وأصعَبَ بك[٤١] ، وإن له لسنه وفضله وقرابته . قال : إن له لذلك ولكن لاحق لمن لاحق عليه . وانصرف .

وصلّى عثمان وانصرفتُ معه يتوكأ عليَّ فقال : هل سمعت ماقال عمّار؟ قلت : نعم فسّرني ذلك وساءني ، أمّا مساءته إياي فما بلغ بك ، وامّا مسرته لي فحلمك واحتمالك . فقال : إن علياً فارقني منذ أيام على المقاربة[٤٢] ، وإنّ عماراً آتيه فقائل له وقائل ، فابدُره[٤٣] إليه ، فإنك أوثق عنده منه ، وأصدق قولاً ، فألق الأمرَ إليه على وجهه[٤٤] . فقلت : نعم .

وانصرفتُ أريدُ علياً ـــ عليه السلام ـــ في المسجد ، فاذا هو خارج منه ، فلما رآني تفجّعَ لى من فَوْت الصلاة وقال : ماأدركتَها ! قلتُ : بلى ولكني خرجت مع أمير المؤمنين ، ثم اقتصصت عليه القصّة ، فقال : أما والله ياابن عبّاس ، إنه ليقْرِف قرحةً ، ليحورنّ عليه ألمها[٤٥] .

فقلت : إنّ له سنّة وسابقته وقرابته وصهرَه . قال : إن ذلك له ، ولكن لاحقّ لمن لاحق عليه . قال : ثم رهِقَنا[٤٦] عمّار فبشّ به عليٌ وتبسّم في وجهه وسأله .

---

(٤٠) قل آمين .

(٤١) يقصد:اشتددت عليه واشتد عليك .

(٤٢) المصافاة والتقارب .

(٤٣) اسبقه .

(٤٤) أى : أنقل إليه ماحدث على وجهه الصحيح و يظهر من ذلك أن عثمان كان حر يصا على حسن العلاقة والمودة بينه و بين على .

(٤٥) يقرف قرحة : يقشر جرحا بعد مايبس واندمل . ويحور: يعود و يقصد عَليٌّ أن عثمان يؤلب و يثير مسائل كانت هدأت ولن يعود ضررها إلاعليه .

(٤٦) غشينا .

فقال عمّار: يا ابن عباس، هل ألقيتَ إليه ما كنا فيه؟ قلت: نعم. قال: أما والله إذاً لقد قلتَ بلسان عثمان، ونطقتَ بهواه. قلت: ما عدوتُ الحقّ جُهدي، ولا ذلك من فِعْلي، وإنكَ لتعلمُ أي الحظين أحبّ إليّ. وأي الحقين أوجب عليّ.

قال: فظنّ عَليٌّ أن عند عمار. غير ما ألقيتُ إليه، فأخذ بيده وترك يدي، فعلمت أنّه يكرهُ مكاني([٤٧])، فتخلّفتُ عنها وانشعب بنا الطريق، فسلكاه، ولم يدْعُني، فانطلقت إلى منزلي، فاذا رسول عثمان يدعوني، فأتيتُه، فأجدُ ببابه مروان وسعيد بن العاص، في رجالٍ من بني أُمية فأذن لي وألطفني، وقرَّبني وأدْنى مجلسي، ثم قال: ماصنعتَ؟ فأخبرته بالخبر على وجهه وماقال الرجل، وقلتُ له: وكتمتُه قوله: — إنه ليقرف قرحةً ليحورنُ عليه ألمها — إبقاء عليه، وإجلالاً له، وذكرتُ مجيىء عمار، و بشَّ عليٌ له، وظنَّ عليٌ أن قِبَله([٤٨]) غير ما ألقيتُ عليه، وسلوكهما حيث سلكا، قال: وفعلا؟.

قلت: نعم، فاستقبل القِبلة، ثم قال: «اللهم ربّ السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، أصلحْ لي عليّا، وأصلحني له»! أمِّن يا ابن عباس، فامّنتُ. ثم تحدثنا طو يلاً، وفارقتُه وأتيت منزلي.

(٦) بين عثمان والعباس بن عبد المطلب *

قال عبدالله بن عباس — رضى الله عنهما —: ما سمعتُ من أبى شيئاً قطّ في أمر عثمانَ يلومُه فيه ولا يعذرُه([٤٩]) ولا سألته عن شيء من ذلك مخافَة أن أهجُم منه على ما لا يوافقه([٥٠]). فإنّا عنده ليلةً ونحن نتعّشى إذ قيل: هذا أمير المؤمنين عثمان بالباب، فقال: ائذنوا له. فدخل فاوسعَ له على فِراشه، وأصابَ من العشاء معه،

(٤٧) وجودى وحضورى.
(٤٨) قبله: بكسر الأول: عنده.

* الأخبار الموفقيات ٦١١.
(٤٩) أى أن العباس ماذكر أمرا مما يأخذه عليه الناس إلا والتمس له عذرا.
(٥٠) أى مخافة أن أقول فى عثمان مايخالف رأى أبى فيه

فلما رُفِع قام مَنْ كان هناك ، وثبتُّ أنا . فحمد عثمان الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد : ياخالُ ، فإني قد جئتُك استعذرك (٥١) من ابن أخيك عليّ ، سَبَّني وشهرَ أمري وقطعَ رحِمي وطعنَ في ديني ، وإني أعوذ بالله منكم يابني عبدالمطلب إن كان لكم حق تزعمون أنّكم غُلِبتُم عليه ، فقد تركتموه في يَدي مَنْ فعلَ ذلك بكم (٥٢) ، وأنا أقربُ إليكم رحما منه ، وما لمتُ منكم أحداً إلا علياً ، ولقد دعيتُ أن أبسط عليه (٥٣) ، فتركته لله والرحِم ، وأنا أخاف أن يتركني فلا أتركه (٥٤) .

قال ابن عباس : فحمد أبي الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد : ياابن أختي (٥٥) ، فإنْ كنتَ لاتحمد عليّا لنفسك فإني لاأحمدُك لعليّ ، وماعليٌّ وحدَه قال فيك ، بل غيرُه ، فلو أنّك اتهمتَ نفسَك للناس ، اتّهم الناسُ أنفسَهم لك ، ولو أنكَ نزلتَ مما رقيتَ وارتقَوا مما نزلوا ، فأخذتَ منهم وأخذُوا منك ما كان بذلك بأس .

قال عثمان : فذلك إليك ياخال ، وأنت بيني و بينهم . قال : أفأذكرُ لهم ذلك عنك ؟ قال : نعم . وانصرف .

فما لبثنا أن قيلَ : هذا أمير المؤمنين قد رَجع بالباب ، قال أبي : ائذنوا له ، فدخَل فقام قائماً ولم يجلِسْ . وقال : لا تعجلْ ياخال حتى أوذِنَك (٥٦) ، فنظرنا فإذا مروان ابن الحكم كان جالساً بالباب ينتظرهُ حتى خَرج ، فهو الذي ثَنَاه عن رأيه الأول (٥٧) ، فأقبل عليَّ أبي وقال : يابني ، ماإلى هذا من أمره شيء (٥٨) ، ثم قال : يابنيّ ، أملك عليكَ لسانَك حتى ترى مالابدّ منه (٥٩) ، ثم رفعَ يديه فقال : اللهم اسبِق بي مالاخير لي في إدراكه (٦٠) . فما مرّت جمعة حتى مات رحمه الله .

---

(٥١) استعذرك : اعذرني إن اشتددت عليه .
(٥٢) يقصد إن كان لكم حق في الخلافة فقد تركتم هذا الحق لمن كان قبلي يعني الخليفتين أبابكر وعمر — رضي الله عنهما —
(٥٣) أنزل به عقاباً .
(٥٤) يقصد أنه يخشى أن يبالغ عليٌّ في الاساءة اليَّ ، و يبلغ درجة لايغفرها له عثمان حتى لو ترك عليٌّ الإساءة إليه بعد ذلك .
(٥٥) أمّ عثمان : هي أروى بنت كريز ، وأمها هي : البيضاء بنت عبدالمطلب عمة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأخت العباس [انظر أسد الغابة ٣/٥٨٥] .
(٥٦) حتى آذن لك .
(٥٧) ثناه : جعله يرجع عنه .
(٥٨) أي:أن أمر عثمان ليس بيده بل بيد غيره من أمثال مروان .
(٥٩) يقصد بذلك : لاتتكلم إلا في حالة الضرورة القصوى .
(٦٠) أي أقبضني إليك قبل أن يدركني شر يصيبني و يصيب الأمة .

(٧) بين عثمان وعلى *

عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال :
أرسلَ إليّ عثمانُ في الهاجرة (٦١)، فتقنعت بثوبي وأتيتُه ، فدخلتُ عليه وهو على سريره ، وفي يده قضيب ، و بين يديه مال دَثْرٌ (٦٢) صبرتان من ورق وذهب (٦٣). فقال : دونك خذْ من هذا حتى تملأ بطنك ، فقد أحرقتني (٦٤) فقلت : وصلتْك رَحِم ! إن كان هذا المالَ ورثته أو أعطاكه معط ، أو اكتسبتَه من تجارة كنتُ أحدَ رجلين : إما آخذُ وأشكر أو أوفر وأجهدَ (٦٥) . وإن كان من مال الله وفيه حق المسلمين واليتيم وابن السبيل ــ فو الله ــ ما لكَ أن تعطينيه ولا لي أن آخذَه . فقال : أبيتَ والله إلا ما أبيت . ثم قام إليّ بالقضيب فضربني ، والله ما أردّ يدّه حتى قضى حاجتَه ، فتقنّعتُ بثوبي ، ورجعتُ الى منزلي ، وقلت : الله بيني و بينك إن كنتُ أمرتُك بمعروف أو نهيت عن منكر !

(٨) بين عثمان وابن عباس *

صليّتُ العصر يوماً ثم خرجت فإذا أنا بعثمان بن عفان في أيام خلافته في بعض أزقّة المدينة وحده ، فأتيته إجلالاً وتوقيراً لمكانه ، فقال لي : هل رأيتَ علياً ؟ قلت : خلفته في المسجد ، فإن لم يكن الآن فيه فهو في منزله . قال : أمّا منزله فليس فيه فابغه (٦٦) لنا في المسجِد . فتوجهنا الى المسجد ، واذا عليٌّ ــ عليه السلام ــ يخرجُ

* الأخبار الموفقيات ٦١٢ .
(٦١) الهاجرة والهجير: نصف النهار عند اشتداد الحر.
(٦٢) المال الدثْر: المال الكثير، و يقال للغنى المتمول : متدثر بالمال .
(٦٣) الصبرة (بضم فسكون) ماجمع من الطعام بلا كيل و وزن . والورِق : الدراهم المضروبة .
(٦٤) يقصد : أسات إليّ كثيرا حتى المتني .
(٦٥) أجهد : أعيش في نصب ومشقة .

* الاخبار المونقيات ٦١٤
(٦٦) اطلبه .

منه . قال ابن عباس : وقد كنت أمس ذلك اليوم عند عليّ فذكر عثمان وتجرُّمَه (٦٧) ، وقال : أما والله يا ابن عباس إن من دوائه لقطع كلامِه ، وترك لقائِه . فقلتُ له : يرحُمك الله كيفَ لك بهذا ! فإن تركته ثم أرسلَ إليك فما أنت صانع ؟ قال : اعتلُّ ، واعتلُّ (٦٨) فمَنْ يَقْسِرني (٦٩) ؟ قال : لا أحد . قال ابن عباس : فلما تراءينا له وهو خارج من المسجد ، ظهر منه التفلّتُ والطلبُ للانصراف ما استبان (٧٠) لعثمان ، فنظر إليَّ عثمان وقال : يا ابن عبّاس ، أما ترى ابنَ خالنا يكره لقاءنَا ؟ فقلت : ولِمَ وحقُّك أَلزم ، وهو بالفضلِ أعلم ؟ فلما تقاربا رماه عثمان بالسلام ، فردّ عليه ، فقال عثمان : إنْ تدخل فإياك أَردنا ، وإنْ تمضِ فإيّاك طلبنا . فقال علي : أي ذلك أحببتَ ؟ قال : تدخل . فدخلا وأخذ عثمان بيده ، فأهوى به الى القبلة ، فقصّر عنها ، وجلس قُبَالتها ، فجلسَ عثمانُ إلى جانبه ، فنكصتُ (٧١) عنها ، فدعوَاني جميعاً ، فأتيتها ، فحمد عثمان الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله ، ثم قال : أمّا بعد : يا ابْنَيْ خالي وابنيْ عمّي ، فإذا جمعتكما في النداء فاستجمعكما في الشكاية عن رضاي على أحدكما ، ووجْدِي (٧٢) على الآخر . إني استعذر كما من أنفسكما ، وأسألكما فيئتكما (٧٣) ، واستوهبكما رَجْعتكما ، فو الله لوغالبني الناس ما انتصرتُ إلا بكما ، ولو تَهضّموني (٧٤) ما تعزَزتُ إلا بعزَكما . ولقد طالَ هذا الأمرُ بيننا حتى تخوّفتُ أن يجوزَ قدرهَ (٧٥) و يعظُمُ الخطرُ فيه ، ولقد هاجني العدوُّ عليكما ، وأغراني بكما فمنعنى الله والرحم مما أراد ، وقد خلونا في مسجد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والى جانب قبره ، وقد أحببتُ أن تُظهرا لي رأيَكما فيّ ، وما تَنْطو يان لي عليه (٧٦) ، وتصدُقا فإنّ الصدق أنجىٰ وأسلم ، واستغفر الله لي ولكما .

---

(٦٧) اشتداده : سوء معاملته .
(٦٨) أقدم العلل والمعاذير تجنبا للقائه .
(٦٩) يجبرني .
(٧٠) ظهر .
(٧١) رجعت واحجمت .
(٧٢) الوجد : هو الغضب والحزن .
(٧٣) فاء : رجع والفيئة : الرجعة : و يقصد أسأ لكما رجوعكما إلىّ وصفاء كما لي .
(٧٤) ظلموني .
(٧٥) يتجاوز ما كان مقدرا له من نتائج .
(٧٦) ما تضمرلمن وتسران لي .

قال ابن عباس : فأطرقَ عليٌّ ــ عليه السلام ــ وأطرقتُ معه طويلاً ، أمّا أنا فأجللتُه أنْ أتكلّمَ قبله ، وأمّا هو فأراد أن أجيبَ عنّي وعنه . ثم قلت له : أتتكلّم أم أتكلّمُ أنا عنك ؟ قال : بل تكلّم عني وعنك . فحمدتُ الله وأثنيت عليه وصلّيتُ على رسوله ، ثم قلت : أما بعد : يا ابن عمنّا وعمّتنا ، فقد سمعنا كلامك لنا ، وخلطَك في الشكاية بيننا على رضاك ــ زعمتَ ــ عن أحدنا ووجْدك على الآخر ، وسنفعلُ في ذلك ، فنذمُّك ونحمَدُك ، اقتداءً منك بفعلك فينا (٧٧) ، فإنّا نذمُّ مثل تهمتك إيانا على ما اتّهمتّنا عليه بلا ثقة إلا ظنًّا ، ونحمدُ منك غير ذلك من مخالفتك عشيرتَك ، ثم نستعذرك من نفسك استعذارَك إيانا من أنفسنا ، ونستوهبك فيئتَك استيهابك إيانا فيئتنا ، ونسألكَ رجعتك مسألتك إيانا رجعتنا ، فإنا معاً أيما حمِدتَ وذممت منا ، كمثلك فى أمر نفسك ليس بيننا فرق واختلاف ، بل كلانا شريك صاحبه فى رأيه وقوله ، فوالله ماتعلمنا غيرمعذرين فيما بيننا وبينك ، ولا تعرفنا غيرقانتين (٧٨) عليك ، ولا تجدنا غير راجعين اليك ، ونحن نسألك من نفسك مثل ماسألتنا من أنفسنا . وأمّا قولك : لوغالبتْني الناسُ ماانتصرتُ إلا بكما أو تَهَضَّمُوني ماتعزَرت إلا بعزّكما فأينَ بنا وبك عن ذلك ، ونحن وأنت كما قال أخو كنانة :

بدَا بُحترٌ ما رامَ نالَ وإنْ يُرَم
نَخُضْ دونه غمْراً من الغزِّ رائمه
لنا ولهم منّا ومنهم على العدى
مراتبُ عِزّ مصعدات سلالمه

وأما قولك في هيْج العدوّ إياك علينا ، وإغرائه لك بنا ، فوالله ماأتاك العدوُّ من ذلك شيئاً إلا وقد أتانا بأعظمَ منه ، فمنعنا مما أرادَ منعك من مراقبة الله والرحِم ، وما أبقيتَ أنت ونحن إلا على أدياننا وأعراضنا ومروءاتنا . ولقد لَعمري طال بنا وبك هذا الأمر حتى تخوفنا منه على أنفسنا ، وراقبنا منه ما راقبت .

---

(٧٧) واضح من كلام عثمان أنه راض عن ابن عباس واجد على علي ، ويقول له ابن عباس : كما جمعت بين الوجد والرضى نجمع لك بين الذم والحمد .

(٧٨) القنوت : الطاعة .

وأما مساءلتُك إيّانا عن رأينا فيك ، وما ننطوي عليه لك فانّا نخبرُك أنّ ذلك إلى ما تحبُّ ، لا يعلمُ واحدٌ منا من صاحبه إلا ذلك ، ولا يقبلُ منه غيره ، وكلانا ضامنٌ على صاحبه ذلك ، وكفيلٌ به . وقد برّأتَ أحدَنا وزكّيته ، وأنطقتَ الآخر وأسكته ، وليس السقيمُ منا ممّا سخطتَ بأظهرَ من السقيم فيما وصفت . فإمّا جمعتنا في الرضا ، وإمّا جمعتنا في السخط لنجازيَك بمثل ما تفعل بنا في ذلك مكايلة الصاع بالصاع (٧٩) ، فقد أعلمناك رأينا ، وأظهرْنا لك ذات أنفسنا ، وصدّقناك ، والصدق كما ذكرت أنجى وأسلم ، فأجب إلى ما دعوتَ إليه ، وأجلِلْ عن النقض والغدر (٨٠) مسجد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وموضع قبره ــ واصدق تنجُ وتسلمُ ، ونستغفرُ الله لنا ولك .

قال ابن عبّاس : فنظر إليَّ عليٌّ ــ عليه السلام ــ نظر هيْبة ، وقال : دعْه حتى يبلغَ رضاه فيما هو فيه ، فوالله لوظهرتْ له قلوبُنا و بدت له سرائرُنا حتى رآها بعينه كما يسمعُ الخبرَ عنه بأذنه ، ما زال متجرّماً منتقماً (٨١) ، والله ما أنا ملقىً على وضَمَة (٨٢) ، وإني لمانعٌ ما وراء ظهر ، وإن هذا الكلام لمخلفةٌ منه وسوءُ عشرة . فقال عثمان : مهلاً أبا حسن ، فوالله إنك لتعلم أنّ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وصفني بغير ذلك يوم يقول وأنت عنده : « إنّ من أصحابي لقوما سالمين (٨٣) لهم ، وإن عثمان لمنهم ، إنه لأحسنهم ظنّاً ، وأنصحُهم لهم حبا » . فقال علي ــ عليه السلام ــ : فصدّق (٨٤) قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بفعلك ، وخالف ما أنتَ الآن عليه ، فقد قيل لك ما سمعتَ وهو كافٍ إن قبلتَ .

---

(٧٩) يقصد ابن عباس أنه وعليّ بن أبى طالب سواء فى الرأى والمعتقد والسريرة ، وأن عثمان عليه أن يوحد نظرته اليهما سخطا أو رضى حتى يعاملاه تبعا لما يرى .

(٨٠) نزه مسجد الرسول ــ عليه السلام ــ وهو مكان اجتماعهم عن أن يشهد اتفاقا ماينكث بعد ذلك و يغدر به .

(٨١) يقصد أن عثمان سيظل غاضبا ناقما علينا حتى لو رأى ضمائرنا وسرائرنا رأى العين ورأى فيها النقاء والصفاء .

(٨٢) الوضمة (محركة) خشبة الجزار التى يقطع عليها اللحم يقال « تركهم لحما على وضم » أى أوقعهم وأذلهم وأضرّبهم .

(٨٣) سالمين : ذوى نوايا طيبة وظن حسن .

(٨٤) أيّد وحقق .

قال عثمان : تثق يا أبا الحسن ؟ قال : نعم أثقُ ولا أظنّك فاعلاً . قال عثمان : قد وثقت وأنت ممن لا يُخفِرُ صاحبَه (٨٥) ولا يُكذِّبُ لقيلة (٨٦) .

قال ابن عباس : فأخذت بأيديها حتى تصافحا وتصالحا وتمازحا ، ونهضتُ عنها ، فتشاورا وتآمرا وتذاكرا ثم افترقا ، فوالله ما مرّت ثالثة حتى لقيني كل واحدٍ منهما يذكر من صاحبه مالا تبركُ عليه الابل (٨٧) . فعلمتُ أن لا سبيل الى صلحهما بعدها .

(٩) بين عثمان وعلي *

مرض عليٌّ — عليه السلام — فعاده عثمانُ ومعه مروانُ بن الحكم ، فجعل عثمانُ يسأل علياً عن حاله ، وعليّ ساكتٌ لا يجيبه ، فقال عثمان : لقد أصبحتَ يا أبا الحسن مني بمنزلة الولدِ العاق (٨٨) لأبيه ، إن عاش عقّه ، وإنْ مات فجعه (٨٩) . فلو جعلت لنا من أمرك فرَجا (٩٠) ، إما عدوّاً أو صديقاً ، ولم تجعلنا بين السماء والماء . أما والله لأنا خيرٌ لك من فلان وفلان ، وإن قُتلتُ لا تجد مثلي . فقال مروان : أما والله لا يُرام ما وراءنا حتى تتواصلَ سيوفُنا وتُقطعَ أرحامُنا (٩١) . فالتفت إليه عثمان وقال : اسكتْ لا سكتّ . وما يُدخلك فيما بيننا !

---

(٨٥) أخفر صاحبه : غدر به ونقض عهده معه .

(٨٦) اى لا نكذبه بسبب كلام يقال عنه .

(٨٧) مالا تبرك عليه الأبل : مالا يكون معه صفاء وحسن صودة ومعروف أن الابل لا تبرك على مايؤذيها كالجمر والشوك وماشابهها .

* الأخبار الموفقيات ٦١٨ .

(٨٨) الولد العاق : العاصي المخالف المسيء لوالديه .

(٨٩) فجعة : آلمه وأوجعه .

(٩٠) فرجا : وضوحا وصراحة .

(٩١) « لا يرام ... » أى لا يستطيع أحد أن ينازعنا سلطاننا وما نحن فيه لأننا ندفعه بسيوفنا بلا هوادة أو مرحمة .

(١٠) بين عثمان والرعية *

عن عبيد بن حارثة قال :

سمعت عثمان وهو يخطب ، فأكب(٩٢) الناس حوله ، فقال : اجلِسوا يا أعدا الله ! فصاح به طلحةُ : إنهم ليسوا بأعداء الله لكنهم عبادُه وقد قرأوا كتابه .

عن الحسن قال :

شهدتُ المسجدَ يومَ جمعة ، فخرجَ عثمانُ ، فقام رجل فقال : أنشُدُ كتاب الله . فقال عثمان : اجلسْ ، أما لكتابِ الله ناشدٌ غيرك ! فجلس ، ثم قام أخرُ فقال مثلَ مقالته ، فقال ؛ اجلس ، فأبى أنْ يجلس ، فبعث الى الشُّرَط ليُجلسوه ، فقام الناس فحالوا بينهم و بينه ، قال : ثم تراقوْا بالبطحاء(٩٣) حتى يقول القائل : ما أكاد أرى أديم السماء من البطحاء(٩٤) . فنزل عثمان ، فدخل داره ولم يصلّ الجمعة .

(١١) بين عثمان وعمرو بن العاص بعد عزله *

عزل عثمان بن عفانُ عمرو بن العاص عن مصر واستعمل عليها عبدالله بن سعد ابن أبي سرَح ، فدخل عمرو المدينةَ ، فدخل على عثمان ، فقال له عثمان : كيفَ تركتَ عبدالله بن سعد ؟ قال : تركتُه أميراً على عمله ، جاهلاً بنفسِه ، وليس ذلك بشرٍّ عُمّالِك . قال : شتمتَنا يا عمرو.

قال : إنّ المعزولَ غضبانُ ، ولا أحسَبنُي فعلتُ . فقال له عثمان : يا أباعبدالله ، انّ الناسَ قد كثروا علي فاخرج حتى تعذرنَي عندهم . فخرجَ عمرو ، فصلّى مع الناس العصرَ ، فلما سلّم الامامُ قام الى المحراب ، فحمدَ الله ، وأثنى عليه ثم قال :

---

* الأخبار الموفقيات ٤٩٥

(٩٢) أكبوا : اجتمعوا وتكاثروا .

(٩٣) صعدوا البطحاء متتابعين.

(٩٤) كناية عن كثْرة الناس وتزاحمهم .

* الأخبار الموفقيات ٤٩٥ .

يا أصحابَ محمدٍ ، يامعاشر المهاجرين والأنصار إن منكم لَمنْ سبقَني فرأى قبلي ، ورأيتُ بعده والله ما رأيتُ خصاصة (٩٥) الا ألصقَها رسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بنفسِه وأهل بيته دونَ المسلمين ، ولا رأيتُ خيراً قطّ إلاّ عمَّ به رسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ المسلمين ، أوَ كذلك ذاك (٩٦) ، وقد رأيتموه ؟ قالوا : اللهمّ نعم ، فجزاه الله عن هذه الامّةِ خيراً .

قال : ثم وليكم أبو بكر ، فسار بسيرته ، وحذا حذْوَه ، وسلك سبيلَه ، وشمَّرَ في أمر الله ، حتى قبضَه الله إليه في خَلَقِ ثويب (٩٧) ، ماله رداءٌ ، أفكذاك ذاك ، وقد أُريْتُموه ؟ قالوا : اللهم نعم ، فرحِمَهُ الله ، وجزاه عن الأُمّة خيراً . قال ثم وليكم من بعده ابنُ حنتمة (٩٨) ، عمر بن الخطاب ــ رحمه الله ــ فبعجَتْ له الأرضُ أمعاءَها ، وفلذَتْ (٩٩) له كبدَها ، ونكتَتْ (١٠٠) له مخَّتها ، وأبرزت له شَحْمَتَها ، وتزينت له بزخرفها ، وأمطرت عليه جُوداً ، وولدت له تماما (١٠١) ، فدرت له غَزْراً (١٠٢) ، فقبض منها قبضاً ، ومص ثديها مصاً ، ومشى في ضحضاحِها (١٠٣) ، وتنكّب (١٠٤) غمرتَها مشمِّراً إزاره حتى خرج منها ، وما ابتلّت قدماه (١٠٥) ، أو كذاك ذاك . وقد رأيتموه ؟ قالوا : اللهمّ نعم ، فرحمه الله ، وجزاه عن هذه الأمّة خيراً . قال : ثم وليكم من بعده عثمانُ ، فعرفتم وأنكرتم ، وقال وقلتم ، تلومونه و يعذرُ نفسَه .

قالوا : فمه (١٠٦) ؟ قال : فارفقوا به ، فانّ الكسيرَ يُجْبَر ، وإنّ الحسيرُ يبلغُ (١٠٧) ، وإنّ الهزيل يسَمن . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم . قال : قيل لعثمان :

---

(٩٥) الخصاصة والخصاص : الفقر والحاجة .
(٩٦) أو كذاك كذاك ؟ : هل ماقلته حق وصدق ؟ .
(٩٧) ثويب : تصغير ثوب . والثوب الخلق : القديم البالي .
(٩٨) أم عمر هى حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية [انظر الإصابة ٧/ ٧٤] .
(٩٩) فلذت : أعطت : والفلْذ (بفتح وسكون) العطاء الكثير بلا عدة ولا تأخير .
(١٠٠) النكت : ضرب الأرض بقضيب ونحوه والتأثير فيها . والمقصود هنا : الإخراج والأبراز.
(١٠١) كل العبارات السابقة تلتقى فى أن الأرض قد أعطت عمر خير مافيها زرعا وضرعا وكنزا ، فكثرت موارد الدولة .
(١٠٢) الغزر والغزير: الكثير .
(١٠٣) الضحضاح الماء اليسير أو مالا غرق فيه من الماء بعكس الغمر. وفى المثل « ما الضحضاح كالغمر» .
(١٠٤) تنكب : مال وابتعد .
(١٠٥) يقصد أن عمر استطاع أن يحقق الخير للأمة ويجنبها كل ضرر وخطر.
(١٠٦) مه : اسم فعل أمر بمعنى اكفف .
(١٠٧) الحسير : ضعيف النظر : والمعنى أن ضعيف البصر قد يبلغ ماقصد على ضعف بصره .

ما بلغَ منك أحدٌ ما بلغ عمرو(١٠٨) . فلما دخلَ عليه قال : ياعمرو قمِلَتْ فروتُك(١٠٩) منذُ عزَلناك عن مصر . قال : إنّك إمامٌ ، ولا يجمُل بي شتمك ، ولقد قلتُ بأحسن ما حضرني ، ولو حضرني غيرُ ذلك لفعلتُ .

(١٢) بين عثمان والشاغبين عليه *

وقال أبو الحسن : أقبل أهلُ مصر عليهم عبدُ الرحمن بن عدُيس البَلوىّ ، وأهلُ البصرة عليهم حَكيم بن جبَلة العَبدى ، وأهل الكوفة عليهم الأشتر ــ واسمه مالك بن الحارث النَّخعى ــ فى أمر عُثمان حتى قدِموا المدينة .

قال أبو الحسن : لما قدم وفدُ أهل مصر دخلوا على عُثمان فقالوا : كتبتَ فينا كذا وكذا(١١٠) ؟ قال : إنما هما اثنتان : أن تُقيموا رجلين من المسلمين ، أو يَمينى بالله الذى لا إله إلا هو ما كتبتُ ولا أمْليت ولا عَلِمت ، وقد يُكتبُ الكتابُ على لسان الرجل ، و يُنقشُ الخاتَم على الخاتم . قالوا : قد أحلّ الله دمَك ، وحصروه فى الدار . فأرسل عثمانُ إلى الأشتر ، فقال له : مايريد الناسُ منى ؟ قال : واحدة من ثلاث ليس عنها بُدّ . قال : ماهى ؟ قال : يُخَيرونك بين أن تَخلع لهم أمَرهم فتقول : هذا أمركم فقلِّدوه من شئتم ؛ وإما أنْ تقتصَّ من نفسك ؛ فإن أبيتَ فالقومُ قاتلوك . قال : أما أن أخلع لهم أمرَهم ، فما كنتُ لأخلع سربالا سَرْبلنيه الله فتكونَ سُنةً مِن بعدى ، كلما كَره القوم إمامهم خَلعوه ؛ وأما أن أقتص من نفسى ، فو الله لقد علمتُ أن

---

(١٠٨) أى أن عمرا ذمك وأسرف فى ذمك والإساءة اليك وان تظاهر بالدفاع عنك واعذارك .

(١٠٩) الفروة : اللبس ، وجلدة الرأس .

* العقد الفريد ٤/٢٩٣

(١١٠) يشيرون بذلك إلى كتاب زعموا أن عثمان بعث به إلى عامله بمصر مع غلام له ونصه « إذا جاءك محمد بن أبى بكر وفلان وفلان ، فاحتل لقتلهم ، وأبطل كتابهم ، وقر على عملك حتى يأتيك رأيى ، واحتبس من جاء يتظلم منك ليأتيك فى ذلك رأيى أن شاء الله » .
وقد حلف عثمان لعلى أنه ماكتب الكتاب ولا أمر به ، ولا وجه الغلام إلى مصر : وإن اعترف أن الغلام غلامه والبعير بعيره والخاتم خاتمه ، و يظهر أن مروان هو الذى فعل هذه الفعلة [انظر العقد الفريد ٤/٢٨٩] .

صاحبّى بين يدى قد كانا يعاقِبان ، ومايقوى بدنى على القصاص ، وأما أن تقتلونى ، فلئن قتلتمونى لاتتحابون بعدى أبدا ، ولاتصلّون بعدى جميعا أبدا .

قال أبو الحسن : فو الله لم يزالوا على النّوى[111] جميعا ، وإن قلوبهم مختلفة .

وقال أبو الحسن : أشرفَ عليهم عثمان وقال : إنه لايحلّ سفك دم امرئ مسلم الا فى إحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، أوزنى بعد إحصان ، أو قتل نفسٍ بغير نفس ، فهل أنا فى واحدة منهم ؟

فما وجد القوم له جواباً . ثم قال : انشُدُكم اللهَ ، هل تعلمون أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان على حراء ، ومعه تسعة من أصحابه أنا أحدهم فتزلزل الجبلُ حتى همّت أحجارُه أن تتساقط ، فقال : اسكنْ حِراء ، فما عليك إلا نبى أوصديق أو شهيد ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : شهدوا لى وربِّ الكعبة .

قال أبو الحسن : أشرفَ عليهم عثمان فقال : السلام عليكم ، فمارد أحد عليه السلام . فقال : أيها الناس ، إن وجدتم فى الحق أن تضعُوا رجلى فى القبر فضعوها فما وجد القوم له جوابا .

ثم قال : استغفر الله إن كنت ظلمتُ ، وقد غفرتُ إن كنت ظُلمت .

قال عبدالله بن عامر بن ربيعة : كنت مع عثمان فى الدار فقال : اعزم على كل من رأى أن لى عليه سمعا وطاعة أن يكفّ يده و يلقى سلاحه . فألقى القوم أسلحتهم .

وقيل إن زيد بن ثابت دخل على عثمان يوم الدار ، فقال : إن هذه الأنصارَ بالباب تقول : إن شئت كنا أنصار الله مرتين . قال : لاحاجة لى فى ذلك ، كُفّوا .

---

(١١١) النوى : التفرق والتشتت والابتعاد .

(١٣) بين عثمان وعلى (*)

اجتمع الناس فكلّموا عليّ بن أبى طالب ، فدخل على عثمان فقال له : الناسُ ورائي وقد كلّمونى فيك ، والله ما أدرى ما أقولُ لك ، ولا أعرف شيئاً تجهله ولا أدلّك على أمر لا تعرفه ، إنّك لتعلم ما أعلم ، ماسبقناك إلي شيء فنخبرك عنه ولا خلوْنا بشيء وما خُصِصْنا بأمر دونك ، وقد رأيت وصحبتَ رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وسمعتَ منه ونلتَ صِهَره ، وما ابن أبي قُحافة بأولى بعمل الحقّ منك ، ولا ابنُ الخطّاب بأولي بشيء من الخير منك ، وأنتَ أقربُ إلي رسول الله ـ صَلّى الله عليه وسلّم ـ رحماً ، ولقد نلتَ من صهر رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ مالم ينالاه (١١٢) وماسبقاك إلى شيء ، فالله الله فى نفسك . فإنّكَ والله ماتبصَّر من عمى ولا تعلّم من جهالة ، وإن الطريق لواضح بيّن ، وإن أعلام الدين لقائمة . اعلم ياعثمان أن أفضل عباد الله إمامٌ عادل هُدِى وهدى فأقام سُنَّة معلومةً وأمات بدعة متروكة ، فوالله إن كُلاً لبيّن ، وإن السنَن لقائمة لها أعلام ، وإن البِدَع لقائمة لها أعلام ، وإن شرّ الناس عند الله إمام جائر ضلّ وأضلّ فأمات سنّة معلومة وأحيا بدعة متروكة ، وإنّى أحذِّرك الله وسطواتِه ونَقِماتِه ، فإن عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون إمامَ هذه الأمة الذى يُقتل فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، و يلبِّس أمورَها (١١٣) عليها و يتركها شِيَعاً لا يبصرون الحق لعلو الباطل ، يموجون فيها مَوْجاً ، ويمرُجون فيها مرجاً (١١٤) .

فقال عثمان : قد علمت والله ليقولُنَّ الذى قلت ، أما والله لو كنتَ مكاني ماعنّفتُك ولا أسلمتُك ولا عِبتُ عليك ، ولا جئتُ مُنْكراً أن وصلتَ رحماً وسددتَ

(*) الكامل لابن الاثير ٣/١٥١ (سنة ٢٤هـ)

(١١٢) جدة عثمان لأمه هى البيضاء بنت عبدالمطلب عمة الرسول ـ عليه السلام ـ ، وزوجه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابنته رقية ، وماتت عنده أيام بدر ، ثم زوجه بعدها اختها أم كلثوم فلذلك كان يلقب ذاالنورين [انظر أسد الغابة ٣/٥٨٥ والإصابة ٦/٣٩١] .

(١١٣) أى : يجعل أمورها مختلطة ، لايعرف حقها من باطلها .

(١١٤) يمرجون : ينطلقون .

خَلّة (١١٥) وآويتَ ضائعاً ووليّتَ شبيهاً بمن كان عمر يولى . أنشدك الله ياعلي هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟ قال : نعم . قال : فتعلم أن عمر ولاّه ؟ قال : نعم . قال : فلِم تَلومني أن وليتُ ابنَ عامر في رحمه وقرابته ؟ قال عليّ : إن عمر كان يطأ على صِماخ مَن ولىّ (١١٦) إن بلغه عنه حرف (١١٧) جلبه (١١٨) ثمّ بلغ به أقصى العقوبة وأنتَ لا تفعل ، ضعفتَ ، ورققتَ على أقربائِك . قال عثمان : وهم أقرباؤُك أيضاً ! قال : أجلْ ، إن رحمَهم مني لقريبة ولكن الفضل فى غيرهم . قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولّى معاوية ؟ فقد وليّتُه . فقال عليّ : أنشدك الله ، هل تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من يرفأ ، غلام عمر له ؟ قال : نعم . قال عليّ : فإن معاوية يقتطع الأمور دونك و يقول للناس هذا أمر عُثمان ، وأنت تعلم ذلك فلا تغيّر عليه .

(١٤) بين عثمان وعمال الأمصار (*)

بعثَ إلى عمالِ الأمصار فقدموا عليه فى الموسم : عبدالله بن عمر، وعبدالله بن سعد ، ومعاوية ، وأدخل معهم سعيد بن العاص وعمراً ، فقال : ويحكم ما هذه الشكاية والإذاعة ؟ إنّي والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم ومايُعصَب (١١٩) هذا إلاّ بى ! فقالوا له : ألم تبعثْ ؟ ألم يرجع إليك الخبرُ عن العوامّ ؟ ألم يرجع رسلك ولم يشافههم أحد بشيء ؟ والله ما صدقوا ولا برُّوا ولا نعلمُ لهذا الأمر أصلاً ولا يحلّ الأخذ بهذه الإذاعة ! فقال : أشيروا عليَّ . فقال سعيد : هذا أمر مصنوع يُلقي في

---

(١١٥) الخلة (بفتح الخاء) : الحاجة والفقر.

(١١٦) الصماخ : خرق الأذن ، وقيل : هو الأذن نفسها ، والعبارة كناية عن الإذلال والشدة فى المعاملة .

(١١٧) إن بلغه عنه حرف : إن بلغه أقل مايشينه .

(١١٨) جلبه : استدعاه وأحضره .

(*) الكامل ٣/١٥٥ (سنة ٣٥هـ)

(١١٩) يحصر و يضبط و يعالج .

السر فيتحدث به الناس ، ودواءُ ذلك طلب هؤلاء ، وقتل الذين يخرج هذا من عندهم (١٢٠) . وقال عبدالله بن سعد : خذْ من الناسِ الذى عليهم إذا أعطيتَهم الذي لهم فإنّه خير من أن تَدَعهم . وقال معاو ية : قد وليتني فوليتُ قوماً لا يأتيك عنهم إلاّ الخير ، والرجلان أعلم بناحيتيها ، والرأي حسنُ الأدب . وقال عمرو : أرى أنّك قد لِنتَ لهم ورخَيْتَ عليهم وزدتهم على ماكان يصنع عمر ، فأرى أن تلزمَ طر يقة صاحبيك فتشتدَّ في موضع الشدة وتلين في موضع اللين .

فقال عثمان : قد سمعتُ كلّ ما أشرتم به عليّ ولكلّ أمر باب يؤتَى منه ، إن هذا الأمر الذى يُخاف على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذي يُغلق عليه ليفتحن فنكفكفه (١٢١) باللين والمؤاتاة إلاّ فى حدود الله ، فإن فتح فلا يكون لأحد عليَّ حُجّة حقٍ ، وقد علم الله أنّي لم آلُ الناس خيراً (١٢٢) ، وإن رحى الفتنة لدائرة ، فطو بَى لعثمان إن مات ولم يحركها . سكّنوا الناس وهَبُوا لهم حقوقهم ، فإذا تعوطيتْ حقوقُ الله فلا تُدْهنوا فيها (١٢٣) . فلمّا نفر عثمان وشخص معاو ية والأمراء معه واستقلّ على الطر يق رجزبه الحادي فقال :

قد علمتْ ضَوامرُ المطيِّ   وضُمَّراتُ عُوَّجِ القسِيِّ (١٢٤)
أنّ الأميرَ بعدَهُ عليُّ   وفي الزّبيرِ خَلَفٌ رضيُّ
وطَلْحَةُ الحامي لها وليُّ

فقال كعب : كذبتَ بل يلي بعده صاحبُ البغلةِ الشهباء (١٢٥) — يعنى — معاو ية ، فطمع فيها من يومئذٍ .

---

(١٢٠) اى : قتل الرءوس الذين يشيعون الفتنة ويؤلبون الناس على عثمان وولاته .

(١٢١) نعالجه ونمنع تفاقمه .

(١٢٢) لم أقصر فى ابتغاء الخير لهم .

(١٢٣) لاتداهنوا : لاتصانعوا ولاتغشوا .

(١٢٤) ضوامر المطى : الإبل الضامرة أى : المهزولة من طول السفر . والقسى : جمع قوس . وعوّج : جمع عوجاء و يكنى بها عن القوس ، وقوس ضامر : أى خفيفة .

(١٢٥) الشُّهبة فى الألوان : البياض الغالب على

فلمّا قدم عثمان المدينة دعا عليّاً وطلحةَ والزبيرَ، وعنده معاوية، فحمد الله معاوية ثمّ قال: أنتم أصحاب رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — وخيرته من خَلْقه وولاة أمر هذه الأمّة، لا يطمعُ فيه أحدٌ غيرُكم، اخترتم صاحَبكم عن غير غلبةٍ ولاطمع، وقد كبرَ وولّي عمرُه ولو انتظرتم به الهرمَ لكان قريباً مع أنّي أرجو أن يكون أكرم على الله أن يبلغه ذلك، وقد فَشَتْ مقالةٌ خفتها عليكم فما عتبتم فيه من شيء، فهذه يدي لكم به، ولا تُطمِعُوا الناس فى أمركم، فوالله إن طمعوا فيه لا رأيتم منها أبداً إلاّ إدباراً.

قال عليّ: مالك ولذلك لاأمَّ لك؟ قال: دَعْ أمّى فإنّها ليست بشر أمهاتكم، قد أسلمَتْ وبايعت النبي(١٢٦) — صلّى الله عليه وسلّم — وأجبني عمّا أقولُ لك. فقال عثمان: صدقَ ابن أخي، أنا أخبركم عني وعمّا وليت، إن صاحبيَّ اللذين كانا قبلي ظَلَما أنفسَها، ومن كان منها بسبيل احتساباً، وإن رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — كان يعطي قرابته وأنا فى رهط أهلِ عَيلة(١٢٧) وقلة معاش، فبسطت يدي في شيء من ذلك لما أقوم به فيه، فإن رأيتم ذلك خطأ فردُّوه فأمري لأمركم تبع. فقالوا: قد أصبتَ وأحسنتَ، قد أعطيتَ عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفاً، وأعطيت مروان خمسة عشر ألفاً فأخذ منهما ذلك، فرضوا وخرجوا راضين.

وقال معاوية لعثمان: اخرج معى إلى الشام فإنّهم على الطاعة قبل أن يهجم عليك من لاقِبَل لك به(١٢٨)، فقال: لاأبيع جوار رسول الله — صى الله عليه وسلّم — بشيء وإن كان فيه خيط عنقي(١٢٩). قال: بعثتُ إليك جنداً منهم يقيم

---

(١٢٦) أسلمت هند بنت عتبة أم معاوية بعد أن دخل النبى مكة، وحضرت بيعة النساء متنكرة لأجل صنيعها بخمرة، ثم عرفها النبى — صلى الله عليه — وسلم فاستغفر لها ولمن جئن من النساء مؤمنات (انظر إمتاع الاسماع للمقريزى ٣٩٢ وأسد الغابة ٧/ ٢٩٢.

(١٢٧) العَيْلة والعالة: الفاقة.

(١٢٨) من لاتقدر على مواجهته وغلبه.

(١٢٩) أى: ولو كلفنى بقائى فى جوار الرسول حياتى. وخيط العنق نخاعه.

معك لنائبة إن نابت([١٣٠]) قال : لاأضيِّقُ على جيران رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ فقال : والله لتُغتالن ولتُغْزين ! فقال : حسبيَ الله ونعم الوكيل !

ثم خرج معاوية فمرّ على نفر من المهاجرين فيهم عليّ ، وطلحةُ ، والزبيرُ ، وعليه ثياب السفر ، فقام عليهم وقال : إنّكم قد علمتم أن هذا الأمرَ كان الناس يتغالبون عليه حتى بعثَ الله نبيّه ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وكانوا يتفاضلون بالسابقة والقُدمِةَ والاجتهاد ، فإن أخذوا بذلك فالأمرُ أمرهم والناس لهم تبع ، وإن طلبوا الدنيا بالتغالب([١٣١]) سُلبوا ذلك وردّه الله إلى غيرهم ، وإن الله على البدل لقادر ، وإنّي قد خلّفت فيكم شيخاً فاستوْصَوا به خيراً وكانِفوه([١٣٢]) تكونوا أسعد منه بذلك . ثمّ ودعهم ومضى . فقال عليٌّ : ماكنتُ أرى فى هذا خيراً . فقال الزبيرُ : والله ماكان قط أعظم فى صدرك وصدورنا منه اليوم([١٣٣]) .

---

(١٣٠) لنازلة تنزل بك .

(١٣١) التغالب : التصارع والقتال .

(١٣٢) كانفوه : أحيطوا به واحموه . والكنف هو الجانب .

(١٣٣) على عكس على يبدى الزبير إعجابه بمعاوية ومنطقه ، و يرى أنه كان أعظم الناس فى يومه هذا .

(١٥) بعد زحف أهل الفتنة إلى المدينة (*)

وصلى عثمان بالناس أول جمعة بعد دخول الشاغبين المدينة ثمّ قام على المنبر فقال: ياهؤلاء، اللهَ اللهَ! فوالله إن أهلَ المدينة ليعلمون أنّكم ملعونون على لسانِ محمد — صلّى الله عليه وآله وسلّم — فامحُوا الخطأ بالصواب. فقام محمدبن مسلمة فقال: أنا أشهدُ بذلك، فأقعده حكيم بن جبَلة، وقام ز يدُ بن ثابت فأقعده محمدبن أبي قُتَيرة، وثارَ القومُ بأجمعهم فحصبُوا الناسَ حتى أخرجوهم من المسجد، وحصبوا عثمانَ حتى صُرع عن المنبر مغشياً عليه، فادخل داره واستقتل نفرٌ من أهل المدينة مع عثمان، منهم: سعد بن أبي وقّاص، والحسين بن عليّ، وز يد بن ثابت وأبوهُر يرة. فأرسلَ إليهم عثمان يعزم عليهم بالانصراف، فانصرفوا، وأقبلَ عليّ وطلحة والز بير فدخلوا على عثمان يعودونه من صرعته و يشكون إليه مايجدون، وكان عند عثمان نفر من بني أمية فيهم مروان بن الحكم، فقالوا كلّهم لعلي: أهلكتَنا وصنعتَ هذا الصنيع، والله لئن بلغتَ الذي تر يد لتمرّنّ عليك الدنيا!! (١٣٤) فقام مغضباً وعاد هو والجماعة إلى منازلهم. وصلّى عثمان بالناس بعدما نزلوا به فى المسجد ثلاثين يوماً، ثمّ منعوه الصلاة، وصلّى بالناس أميرهم الغافقي، وتفرّقَ أهل المدينة فى حيطانهم ولزموا بيوتهم لا يجلس أحد ولا يخرج إلاّ بسيفه ليتمنع به، وكان الحصار أر بعين يوماً ومن تعرّض لهم وضعوا فيه السلاح.

(*) الكامل لابن الاثير ٣/ ١٦٠.
أتعد المنحرفون عن عثمان يوما يخرجون فيه بالأمصار جميعا إذا سارعنها الأمراء، فلم يتهيأ لهم ذلك، ولما رجع الأمراء ولم يتم لهم الوثوب صاروايتكاتبون فى القدوم إلى المدينة؛ لينظروا فيما ير يدون و يسألوا عثمان عن أشياء لتذيع فى الناس، وكان بمصر محمدبن أبى بكر ومحمدبن أبى حذيفة يحرضان على عثمان.
فلما خرج المصريون خرج فيهم عبدالرحمن بن عديس العلوى فى خمسمائه ومعه غيزه من رءوس الناس وعليهم جميعا الفاقفى بن حرب العتكى. وخرج مثل هذا العدد من أهل الكوفة ومثله من أهل البصرة. خرجوا جميعا فى شوال وأظهروا أنهم ير يدون الحج. وفى المدينة تكلموا مع طلحة والز بير وعليّ فى عزل عثمان على أن يقوم بالخلافة واحد منهم. وكان هوى أهل مصر فى عليّ وهوى أهل الكوفة فى الز بير، وهوى أهل البصرة فى طلحة. ولكن الثلاثة رفضوا ونهروهم جميعا واشتدوا عليهم فى القول.
فكتب عثمان الى أهل الأمصار يستنجد بهم فهرع إليه كثيرون منهم [انظر الكامل لأبن الأثير ٣/١٥٨ — ١٦٠].

(١٣٤) أى:تفوتك ولا تعطيك، أو تنقلب عليك وتصبح الحياة فيها مُرة المذاق.

وقد قيل (١٣٥): إنّ محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفه كانا بمصر يحرضان على عثمان، وسار محمد بن أبي بكر مع من سار إلى عثمان، وأقام ابن أبي حُذيفة بمصر وغلب عليها لما سار عنها عبد الله بن سعد، فلما خرج المصر يون إلى قصد عثمان أظهروا أنّهم ير يدون العمرة وخرجوا فى رجب وعليهم عبد الرحمن بن عُديس البَلَوِيُّ، و بعث عبد الله بن سعد رسولاً إلى عثمان يخبره بحالهم وأنّهم قد أظهروا العمرة وقصدهم خلعه أو قتله، فخطب عثمان الناس وأعلمهم حالهم، وقال لهم: إنّهم قد أسرعوا إلى الفتنة واستطالوا عمري، والله لئن فارقتهم ليتمنون أن عمري كان عليهم مكان كلّ يوم سنة ممّا يرون من الدماء المسفوكة والإِحَن (١٣٦) والأَثَرَة الظاهرة والأحكام المغيَّرة.

وكان عبد الله بن سعد قد خرج إلى عثمان فى آثار المصر يين بإذنه له، فلمّا كان بأيْلة بلغه أن المصر يين رجعوا إلى عثمان فحصروه، وأن محمد بن أبى حُذيفة غلب على مصر واستجابوا له، فعاد عبد الله إلى مصر فمُنع عنها، فأتى فلسطين فأقام بها حتي قُتل عثمان.

فلمّا نزل القوم ذا خُشُب ير يدون قتل عثمان إن لم ينزع (١٣٧) عمّا يكرهون، ولما رأى عثمان ذلك جاء إلى عليّ فدخل بيته فقال له: ياابن عم، إنّ قرابتي قر يبة ولى عليك حقّ عظيم، وقد جاء ماترى من هؤلاء القوم وهم مصبِّحيَّ، ولك عند الناس قدر وهم يسمعون منك، وأُحبّ أن تركب إليهم فتردهم عني، فإن في دخولهم عليّ توهيناً (١٣٨) لأمري وجرأة علي! فقال عليّ: على أي شيء أردُّهم عنك؟ قال: على أن أصيرَ إلى ماأشرتَ إليه ورأيته لي. فقال عليّ: إنّي قد كلمتك مرّة بعد أخرى فكلّ ذلك نخرجُ ونقول ثمّ ترجع عنه، وهذا من فعل مروان، وابن عامر، ومعاو ية، وعبد الله بن سعد، فإنّك أطعتهم وعصيتني. قال عثمان: فأنا أعصيهم وأطيعك.

---

(١٣٥) السابق ١٦٣.

(١٣٦) الإحن: جمع إحنة وهى الحقد.

(١٣٧) ينزع عن الشئ: يتركه ويهجره.

(١٣٨) إضعافا وتحقيرا.

فأمر الناسَ فركبَ معه من المهاجرين والأنصار ثلاثون رجلاً فيهم سعيد بن زيد وأبوجهم العدوي، وجُبيربن مُطعم، وحكيم بن حزام ومروان وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد، ومن الأنصار أبوأُسيد الساعدي وأبوحُميد وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت وكعب بن مالك، ومن العرب نياربن مكرز، فأتوا المصريين فكلّموهم، وكان الذي يكلّمهم عليّ ومحمد بن مسلمة، فسمعوا مقالتها ورجعوا إلى مصر. فقال ابن عُديس لمحمد بن مسلمة: أتوصينا بحاجة؟ قال: نعم، تتقي الله وترد مَنْ قِبَلك عن إمامهم فإنّه قد وعَدنَا أن يرجع وينزع. قال ابن عُديس: أفعل إن شاء الله. ورجع عليّ ومن معه إلى المدينة، فدخل على عثمان فأخبره برجوعهم وكلّمه بما في نفسه ثمّ خرج من عنده، فمكثَ عثمان ذلك اليوم، وجاءه مروان بُكرة الغد فقال له: تكلّم وأعلم الناس أن أهلَ مصر قد رجعوا وأن مابلغهم عن إمامهم كان باطلاً قبل أن يجيء الناس إليك من أمصارهم ويأتيك مالا تستطيع دفعه. ففعل عثمان، فلمّا خطب الناسَ قال له عمروبن العاص: اتّقِ الله ياعثمان، فإنّك قد ركبتَ أموراً وركبناها معك، فتُبْ إلى الله نتبْ. فناداه عثمان: وإنّك هنالك يا ابن النابغة! قملت والله جبتُّك منذ عزلتك عن العمل! فنودي من ناحية أخرى: تُبْ إلى الله. فرفع يديه وقال: اللهمّ إنّي أوّل تائب!

وقيل (١٣٩): إن علياً لما رجع من عند المصريين بعد رجوعهم إلى عثمان قال له: تكلّم كلاماً يسمعُه الناس منك ويشهدون عليك ويشهدُ الله على مافي قلبك من النزوع والأمانة، فإن البلاد قد تمخّضت (١٤٠) عليكم، فلا آمن أن يجيء ركبٌ آخر من الكوفة والبصرة فتقول: ياعليّ اركب إليهم، فإن لم أفعل رأيتني قد قطعتُ رحمَك واستخففتُ بحقّك. فخرج عثمان فخطب الخطبة التى نزع (١٤١) فيها وأعطى الناسَ من نفسه التوبة وقال: أنا أوّل من اتّعظ، واستغفرُ اللهَ ممّا فعلتُ وأتوبُ إليه، فمثلي نزع وتاب، فإذا نزلتُ فليأتني أشرافكم فليرَوا فيّ رأيهم، فوالله لئن ردّني الحقّ عبداً لأستنَّنَّ بسنّة العبد ولأذلنّ ذلّ العبد وما عن الله مذهب إلاّ إليه، فوالله لأعطينكم

---

(١٣٩) السابق ٣/١٦٤.

(١٤٠) تحركت وتألبت.

(١٤١) أي: التى أعلن فيها أنه يترك مايكرهون ولا يعود إليه.

الرضا ولأنحينّ (١٤٢) مروان وذو يه ولاأحتجبُ عنكم ! فرقّ الناس و بكوا حتى أخضلوا(١٤٣) لحاهم و بكى هو أيضاً .

فلمّا نزل عثمان وجد مروان وسعيداً ونفراً من بني أميّة في منزله لم يكونوا شهدوا خطبته ، فلمّا جلس قال مروان : يا أميرَ المؤمنين أتكلّم أم اسكت ؟ فقالت نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان : لابل اصمُتْ فإنّهم والله قاتِلوه ومؤثّموه ، (١٤٤) إنّه قد قال مقالةً لا ينبغي له أن ينزع عنها . فقال لها مروان : ما أنتِ وذاك ! فوالله قد مات أبوك ومايحسن يتوضّأ !! فقالت : مهلاً يامروان عن ذكر الآباء !! تخبر عن أبي وهوغائب تكذب عليه وإن أباك لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ؟ أمّا والله لولا أنّه عمّه وأنه يناله غمُّه لأخبرتُك عنه مالن أكذبَ عليه . قالت : فأعرض عنها مروان ، فقال : ياأميرَ المؤمنين أتكلّم أم أسكت ؟ قال : تكلّم . فقال مروان : بأبي أنت وأمّي ، والله لوددتُ أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع فكنتُ أوّلَ من رضى بها وأعانَ عليها ، ولكنك قلتَ ماقلت وقد بلغ الحزامُ الطبيين وخلّف السَيلُ الزُّبَى (١٤٥) وحين أعطى الخطة الذليلةَ الذليلُ ، والله لإقامة على خطيئة يُستغفرُ منها أجملُ من توبة يخوَّف عليها ، وأنت إن شئتَ تقرّبتَ بالتوبة ولم تقرّ بالخطيئة ، وقد اجتمعَ بالباب أمثالُ الجبالِ من الناس . فقال عثمان : فاخرجْ إليهم فكلمهم فإنّي أستحيي أن أكلمهم . فخرجَ مروانُ إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضاً ، فقال : ماشأنكم قد اجتمعتم كأنّكم قد جئتم لنهبٍ ؟ شاهتِ الوجوه ! ألاَ من أر يدَ ؟ (١٤٦) جئتم تر يدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ! اخرجوا عنّا ، واللهِ لئن رُمْتُمونا (١٤٧) ليمرنّ عليكم منّا أمرٌ

---

(١٤٢) أبعدَنَّ .

(١٤٣) بللوا .

(١٤٤) أثمة تأثيا : اتهمه بالأثم أى قال له أثمت .

(١٤٥) مثلان يضربان فى اشتداد الأمر وتفاقم الخطر، والأصل فيهما : (جاوز الحزام الطبيين . و بلغ السيل الزبى) والطبى (بضم الطاء وكسرها وتسكين الباء) حلمات الضرع التى من خف وظلف وحافر وسبع والزّبى جمع زبية (بضم فسكون) وهى الرابية لايعلوها الماء ، أو حفرة تحفر للأسد فى مكان عال لصيده ، [انظر أساس البلاغة ، وانظر مجمع الأمثال للميدانى ١/٩٦] .

(١٤٦) أى : من تريدون باجتماعكم هذا ؟ .

(١٤٧) أى : أردتم مناعتنا الأمر والعقل رام .

لايسركم ولاتحمدوا غِبّ رأيكم (١٤٨) ارجعوا إلى منازلكم فإنّا والله مانحن بمغلوبين على مافى أيدينا . فرجع الناس وأتى بعضهم عليّا فأخبره الخبر .

فأقبل عليّ على عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث فقال : أحضَرْتَ خطبة عثمان ؟ قال : نعم . قال : أفحضرتَ مقالةَ مروان للناس ؟ قال : نعم . فقال عليّ : أي عباد الله ! يا للمسلمين ! إنيّ إن قعدت فى بيتى قال لي : تركتني وقرابتي وحقي ، وإني إن تكلّمتُ جاء من يريد اللعب به ... مروان فصار سَيِّقَةً (١٤٩) له يسوقه حيث يشاء بعد كبر السن وصحبة رسول الله ــ صلىّ الله عليه وسلّم ــ وقام مغضبًا حتى دخل على عثمان فقال له : أما رضيتَ من مروان ولارضي منك إلاّ بتحرّفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يُقاد حيثُ يُسار به ؟ (١٥٠) والله مامروان بذي رأي فى دينه ولانفسه ! وايمُ الله إنّي لأراه يوردك ولايصدرك (١٥١) وما أنا عائدٌ بعدَ مُقامي هذا لمعاتبتك ، أذْهبتَ شرفك وغُلبتَ على رأيك .

فلّما خرج عليّ دخلت عليه امرأته نائلة ابنة الفرّافصة فقالت : قد سمعتُ قولَ عليّ لك وليس يعاودُك وقد أطعتَ مروان يقودك حيث شاء . قال : فما أصنعُ ؟ قالت : تتقي الله وتتبع سنّةَ صاحبيك ، فإنّك متى أطعت مروانَ قتلك ، ومروان ليس له عند الناس قدرَ ولا هيبة ولا محبة ، وإنّما تركك الناس لمكانه ، فأرسلْ إلى عليّ فاستصلِحه فإن له قرابةً وهو لا يُعصى . فأرسل عثمان إلى عليّ فلم يأته وقال : قد أعلمتُه أنيّ غير عائد . فبلغ مروان مقالةُ نائلة فيه فجلس بين يدي عثمان فقال : يا ابنَة الفَرافصة ! فقال عثمان : لا تذكرنها بحرف ، فأسوِّدَ وجهَك ، فهي والله أنصح لي ! فكفّ مروان .

وأتى عثمانُ إلى عليّ بمنزله ليلاً وقال له : إنيّ غير عائد ، وإنّي فاعل . فقال له عليّ : بعدما تكلّمتَ على منبر رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ وأعطيتَ من

---

(١٤٨) غب كل شئ : عاقبته .

(١٤٩) السقة والوسقة : الناقة الطريدة من إبل الحى .

(١٥٠) الظعينة : المرأة . وهى فى الأصل الهودج كانت فيه امرأة ولم تكن .

(١٥١) أى : يوردك الهلاك و يدفع عنك .

نفسك ثمّ دخلتَ بيتك فخرجَ مروانُ إلى الناس يشتمهم على بابك و يؤذيهم ، فخرج عثمان من عنده وهو يقول : خذلتني وجرّأتَ الناسَ علي . فقال عليّ : والله إنيّ لأكثر الناسِ ذبّاً عنك ،(١٥٢) ولكني كلّما جئتُ بشيء أظنّه لك رضا جاء مروان بأخرى فسمعتَ قوله وتركتَ قولي .

ولم يعد عليّ يعمل ماكان يعملُ إلى أن مُنع عثمانُ الماء . فقال عليّ لطلحة : أريد أن تُدخل عليه الروايا(١٥٣) وغضب غضباً شديداً حتى دخلت الروايا على عثمان .

وقيل(١٥٤) إن علياً كان عند حصر عثمان بخيبر، فقدم المدينة والناس مجتمعون عند طلحة ، وكان ممّن له فيه أثر ، فلمّا قدم عليّ أتاه عثمان وقال له : أمّا بعد فإنّ لي حقّ الإسلام وحقّ الإخاء والقرابةِ والصِّهر ، ولولم يكن من ذلك شيء وكنّا في الجاهليّة لكان عاراً على بني عبد مناف أن ينتزعَ أخوبني تيم (يعني طلحة) أمرَهم . فقال له عليّ : سيأتيكَ الخبر ، ثمّ خرج إلى المسجد فرأى أسامةَ فتوكأ على يده حتى دخلَ دارَ طلحة ، وهو في خلوةٍ من الناس ، فقال له : ياطلحة ماهذا الأمرُ الذى وقعت فيه ؟ فقال : يا أبا الحسن بعدما مسَّ الحزامُ الطّبيين . فانصرف عليّ حتى أتي بيتَ المال فقال : افتحوه ، فلم يجدوا المفاتيح ، فكسَر الباب وأعطى الناس ، فانصرفوا من عند طلحة حتى بقي وحده ، وسُرّ بذلك عثمان ، وجاء طلحة فدخل على عثمان وقال له : يا أميرَ المؤمنين أردتُ أمراً فحال الله بيني و بينه ! فقال عثمان : والله ماجئتَ تائباً ، ولكن جئتَ مغلوباً ، الله حسيبك ياطلحة !

---

(١٥٢) ذبّا : دفعا .

(١٥٣) الروايا : جمع راو ية وهي : الدابة التي يستقى عليها ، وقد تطلق على مزادة الماء كالقربة وما شابهها .

(١٥٤) السابق ١٦٦/٣ .

(١٦) بين عثمان وزعماء المصريين (*)

دخل على بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة على عثمان ــ رضى الله عنه ــ فاستأذنا للمصريين عليه وعنده مروان فقال مروان: دعني أكلّمهم. فقال عثمان: اسكت فضّ اللهُ فاك! ما أنت وهذا الأمر؟ اخرجْ عني! فخرج عثمان. وقال عليّ ومحمد: لعثمان ماقال المصريون، فأقسم بالله: ماكتبتهُ ولاعِلْمَ لى به فقال محمد: صدق، هذا من عمل مروان.

ودخل عليه المصريون فلم يسلّموا عليه بالخلافة، فعرفوا الشرّ فيهم، وتكلموا فذكر ابن عُدَيس مافعل عبد الله بن سعد بالمسلمين، وأهل الذمة والاستئثار فى الغنائم، فإذا قيل له فى ذلك قال: هذا كتابُ أمير المؤمنين. وذكروا شيئاً ممّا أحدث بالمدينة، وقالوا له: وخرجنا من مصر ونحن نريدُ قتلَكَ فردنّا عليّ ومحمد بن مسلمة وضَمِنَا لنا النزوعَ عن كلّ ماتكلّمنا فيه، فرجعنا الى بلادنا فرأينا غلاَمَكَ وكتابَكَ وعليه خاتمك تأمرُ عبدَ الله بجلدنا والمُثلة بنا وطول الحبس.

فحلف عثمان أنّه ماكتب ولاأمر ولاعلِم. فقال عليّ ومحمد: صدق عثمان. قال المصريون: فمن كتبه؟ قال: لاأدرى. قالوا: فيُجترأ عليك و يُبعث غلامُك وجملاً من الصدقة و يُنقشُ على خاتمك و يُبعث الى عاملك بهذه الأمور العظيمة وأنت لاتعلم؟ قال: نعم. قالوا: ماأنت إلاّصادقٌ أوكاذب، فإن كنت كاذباً فقد استحققتَ الخلعَ لما أمرتَ به من قتلنا بغيرِ حق، وإن كنتَ صادقاً فقد استحققتَ أن تَخلَعَ نفسك لضعفِك عن هذا الأمر وغفلتِك وخُبثِ بطانتك، ولاينبغى لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تُقطع الأمور دونه لضعفه وغفلته، فاخلع نفسك منه كما خلعك الله! فقال: لاأنزعُ قميصاً ألبسنيه الله، ولكني أتوب وأنزع. قالوا: لوكان هذا أوّل ذنب تبتَ منه قبلْنا، ولكنّا رأيناك تتوب ثم تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك، أونقتلك، أوتُلحق أرواحنا بالله تعالى وإن منعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نَخلُص(١٥٥)

(*) الكامل ٣/١٦٩.
كان ذلك بعد دخولهم المدينة ومعهم الكتاب اتهموا عثمان بأنه بعث به غلام له إلى والى مصر لقتل محمد بن أبي بكر وأخرين.

(١٥٥) خلص إليه: وصل

إليك . فقال : أمّا أن أتبرأ من خلافةِ الله فالقتلُ أحبُّ إليّ من ذلك ، وأمّا قولكم تقاتلون مَن منعني فإنّي لاآمرُ أحداً بقتالكم ، فمن قاتلكم فبغير أمرى قاتل ، ولو أردتُ قتالكم لكتبتُ إلى الأجنادِ فقدموا علىّ أولحقتُ ببعض أطرافي ، وكثرت الأصوات واللغط (١٥٦) .

فقام علىّ فخرج وأخرج المصر يين ومضى علىّ الى منزله ، وحصر المصر يون عثمان ، وكتب الى معاو ية وابن عامر وأمراء الأجناد يستنجدُهم و يأمرهم بالعجل وإرسال الجنود اليه . فتربص به معاو ية ، فقام فى أهل الشام يز يد بن أسد القسرى ، جد خالد بن عبد الله القسرى فتبعهُ خلق كثير ، فسار بهم الى عثمان ، فلمّا كانوا بوادى القُرى بلغهم قتلُ عثمان فرجعوا . وقيل : بل سار من الشام حبيب بن مسلمة الفهرى ، وسار من البصرة مجاشع بن مسعود السُّلَمي ، فمّا وصلوا الرَّبَذة ونزلت مقدمتهم صِراراً بناحية المدينة أتاهم قتل عثمان فرجعوا .

وكان عثمان قد استشار نصحاءهُ فى أمره ، فأشاروا عليه أن يُرسل الى علىّ يطلب اليه أن يردَّهم و يعطيهم ما يرضيهم ليطاولهم حتى يأتيه إمداده . فقال : إنّهم لايقبلون التعلّل ، وقد كان مني فى المرّة الأولى ما كان . فقال مروان : أعطهم ما سألوك وطاولهم ماطاولوك ، فإنّهم قوم بَغَوا عليك ولاعهد لهم . فدعا عليّاً فقال له : قد ترى ما كان من الناس ولستُ آمنهم على دمي ، فارددُهم عني فإنّي أعطيهم ما ير يدون من الحقّ من نفسي وغيرى . فقال علىّ : الناس الى عدلِك أحوجُ منهم الى قتلك ، ولا يرضون إلاّ بالرضا ، وقد كنت أعطيتهم أوّلاً عهداً فلم تَف به فلا تغرّنّي (١٥٧) هذه المرّة فإنّي مُعطيهم عليك الحق . فقال : أعطهم فوالله لأفينّ لهم . فخرج علىّ الى الناس فقال لهم : إنّما طلبتُم الحقّ وقد أعطيتُموه وقد زعم أنّه منصفكم من نفسه . فقال الناس : قبلنا فاستوثقْ منه لنا فإنّا لا نرضى بقول دون فعل . فدخل عليه على فأعلمه فقال : اضرب بيني و بينهم أجَلاً فإنّي لا أقدر على أن

---

(١٥٦) اللغط : الجلبة والضوضاء .

(١٥٧) غرة خدعه .

أرد ما كرهوا فى يوم واحد . فقال علىّ : أمّا ما كان بالمدينة فلا أجل فيه وماغاب فأجله وصولُ أمرك . قال نعم ، فأجّلني فيا فى المدينة ثلاثةَ أيّام . فأجابه الى ذلك، وكتب بينهم كتاباً على ردّ كلّ مظلمة وعزل كلّ عامل كرهوه .

فكف الناس عنه ، فجعل يتأهّب للقتال و يستعد بالسلاح واتخذ جنداً ، فلمّا مضت الأيّامُ الثلاثةُ ولم يغيرْ شيئاً ثار به الناس ، وخرج عمرو بن حزم الأنصارى الى المصر يين فأعلمهم الحال ، وهم بذى خُشُب ، فقدموا المدينة وطلبوا منه عزلَ عماله وردّ مظالمهم . فقال : إن كنتُ مستعملاً من أردتم وعازلاً من كرهتم فلستُ فى شيء والأمرُ أمركم . فقالوا : والله لتفعلن أولتُخلعن أولتُقتلن . فأبَى عليهم وقال : لا أنزعُ سربالاً سربلنيه الله . فحصروه واشتدّ الحصار عليه ، فأرسل الى علىّ وطلحة والزبير فحضروا ، فأشرف عليهم فقال : يا أيّها الناس اجلسوا . فجلسوا المحارب والمسالم . فقال لهم : يا أهل المدينة استودعكم اللهَ وأسأله أن يحسن عليكم الخلافةَ من بعدى ، ثم قال : أنشدكم بالله هل تعلمون أنّكم دعوتم الله عند مصابِ عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم؟ أتقولون إن الله لم يستجبْ لكم وهنتُم عليه وأنتم أهل حقّه ؟ أم تقولون : هان على الله دينه فلم يبال من ولي والدين لم يتفرّق أهله يومئذ ؟ أم تقولون : لم يكن أخذٌ! عن مشورة إنّما كان مكابرة فوكل الله الأمة إذا عصته ولم يشاوروا فى الإمامة ؟ أم تقولون : إن الله لم يعلم عاقبة أمرى ! وأنشدكم بالله أتعلمون لي من سابقة خير وقدم خير قدمه الله لي ما يوجب على كلّ من جاء بعدى أن يعرفوا لي فضلها ! فمهلاً لا تقتلوني فإنّه لا يحل إلاّ قتل ثلاثة : رجل زنَى بعد إحصانِه (١٥٨) ، أو كفرَ بعد إيمانه ، أوقتلَ نفساً بغير حقّ ، فإنّكم إذا قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ثمّ لم يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً .

قالوا : أمّا ماذكرتَ من استخارة الناس بعد عمر ثمّ ولوك فإن كلّ ماصنع الله خيرة ، ولكن الله جعلك بليّة (١٥٩) ابتلى بها عباده ، وأمّا ماذكرت من قدمك وسلفك مع رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فقد كنتَ كذلك وكنتَ أهلاً

---

(١٥٨) أحصن الرجل إذا تزوج فهو محصن (بفتح الصاد) والمرأة محصنة .

(١٥٩) البلية والبلاء والبلوى بمعنى واحد والجمع (البلايا) .

للولاية، ولكن أحدثت ماعلمته ولا نترك إقامة الحقّ عليك مخافة الفتنة عاماً قابلاً، وأمّا قولك: إنّه لا يحل إلاّ قتلُ ثلاثة. فإنّا نجدُ في كتاب الله قتل غير الثلاثة الذين سميتَ، قتل من سعى في الأرض فساداً، وقتل من بغى ثمّ قاتل على بغيه، وقتل من حال دون شيء من الحقّ ومنعه وقاتل دونه، وقد بغيت ومنعتَ وحُلتَ دونه وكابَرت عليه ولم تُقِدْ(١٦٠) من نفسك مَنْ ظلمتَ، وقد تمسكتَ بالإمارة علينا، فإن زعمتَ أنّك لم تكابرنا عليه فإن الذين قاموا دونك ومنعوك منّا إنّما يقاتلون لتمسكِكَ بالإمارة، فلو خلعتَ نفسك لانصرفوا عن القتال معك!

فسكت عثمان ولزم الدار وأمر أهلَ المدينة بالرجوع وأقسم عليهم، فرجعوا إلاّ الحسن بن علي وابن عباس ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وأشباهاً لهم، واجتمع اليه ناس كثير، فكانت مدة الحصار أربعين يوماً، فلمّا مضتْ ثماني عشرةَ ليلة قدم ركبانٌ من الأمصار فأخبروا بخبرِ من تهيأ إليهم من الجنود وشجعوا الناس، فعندها حالوا بين الناس و بين عثمان ومنعوه كلّ شيء حتى الماء. فأرسل عثمان الى عليّ سرّاً والى طلحة والزبير وأزواج النبيّ — صلّى الله عليه وسلّم — إنّهم قد منعوني الماء فإن قدرتم أن ترسلوا الينا ماء فافعلوا. فكان أوّلهم إجابة عليّ، وأم حبيبة زوج النبّي — صلّى الله عليه وسلّم — فجاء عليّ في الغَلَس(١٦١) فقال: يا أيها الناس إن الذى تفعلون لا يشبه أمرَ المؤمنين ولا أمر الكافرين، فلا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادة(١٦٢)، فإن الرومَ وفارسَ لتأسرُ فتطعمُ وتسقي! فقالوا: لا والله ولا نعمة عين(١٦٣)! فرمى بعمامته في الدار بأني قد نهضتُ ورجعتُ، وجاءت أمّ حبيبة على بغلة لها مشتملة على إداوة(١٦٤) فضربوا وجه بغلتها فقالت:

---

(١٦٠) أى: لم تمكن من ظلمته من أن يقص لنفسه منك.

(١٦١) الغلس: ظلمته من أن يقتص لنفسه منك.

(١٦٢) الطعام.

(١٦٣) نعمه العين: قرتها ومعنى العبارة: لن نفعل ذلك حيث لا يهدأ ولا تقر عينه.

(١٦٤) الإداوة: المطهرة أو أى إناء ماء.

إن وصايا بنى أمية عند هذا الرجل ، فأحببتُ أن أسألَه عنها لئلاّ تهلك أموالُ الأيتام والأرامل . فقالوا : كاذبة ؛ وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فنفرت وكادت تسقط عنها ، فتلقّاها الناس فأخذوها وذهبوا بها الى بيتها .

فأشرف عثمان يوماً فسلّم عليهم ثمّ قال : أنشدكم الله هل تعلمون أنّي اشتريت بئرَ رومة بمالي ليُستعذب بها فجعلت رشائي فيها كرجل من المسلمين(١٦٥) ؟ قالوا : نعم . قال : فلِم تمنعوني أن أشرب منها حتى افطرَ على ماء البحر ؟ ثم قال : أنشدكم بالله هل تعلمون أنّي اشتريتُ أرض كذا فزدتها فى المسجد ؟ قيل : نعم . قال : فهل علمتم أن أحداً مُنع أن يصلّى فيه قبلي ؟ ثمّ قال : أنشدُكم بالله أتعلمون أن النبيّ — صلّى الله عليه وسلّم — قال عني كذا وكذا ؟ (أشياء فى شأنه) . ففشا (١٦٦) النهي فى الناس يقولون : مهلاً عن أمير المؤمنين . فقام الأشتر فقال : لعلّه مكر به وبكم . وخرجَتْ عائشة الى الحجّ واستَتْبَعَت أخاها محمّداً فأبَى ، فقالت : والله لئن استطعتُ أن يحرمهم الله مايحاولون لأفعلن(١٦٧) . فقال له حنظلة الكاتب : تستتبعكَ أمّ المؤمنين فلا تتبعها وتتبعَ ذؤ بانَ العرب إلى مالايحل(١٦٨) ؟ وإن هذا الأمر إن صار الى التغالب غلبك عليه بنو عبدمناف(١٦٩) . ثمّ رجع حنظلة إلى الكوفة وهو يقول :

عجبتُ لما يخوضُ النّاسُ فيه ... يرومونَ الخلافةَ أنْ تزُولا
ولوْ زالَتْ لزالَ الخَيرُ عَنهمْ ... ولاقَوْا بَعدَها ذُلاً ذَليلا
وكانوا كاليَهودِ وكالنَّصارَى ... سواء كلّهم ضَلّوا السَّبيلا

---

(١٦٥) اشترى عثمان للمسلمين من ماله الخاص بئر رومة . اشتراها بعشرين ألف درهم (انظر فى ذلك وفى مظاهر كرمه ورحمته كتاب الدكتور هيكل عثمان بن عفان ص٤٥ وما بعدها ، يستعذب بها : يشرب منها المسلمون . الرشاء : الحبل .

(١٦٦) فشا النهى : انتشرت الدعوة إلى رفع اليد عن عثمان .

(١٦٧) استتبعته : طلبت منه أن يتبعها وعائشة تتمنى فى البعارة ألا يقع بثمان مكروه .

(١٦٨) يقصد بذؤبان العرب من تآمروا على عثمان .

(١٦٩) التغالب : التنافس والتصارع .

وبلغ طلحةَ والزبيرَ ما لقي عليّ وأمّ حبيبة فلزموا بيوتهم وبقي عثمانُ يسقيه آل حزم في الغفلات (١٧٠) فأشرف عثمان على الناس فاستدعى ابنَ عبّاس فأمَره أن يحجَّ بالناس، وكان ممّن لزم الباب، فقال: جهاد هؤلاء أحبّ إليّ من الحجّ. فأقسم عليه فانطلق (١٧١).

قال عبد الله بن عبّاس بن أبي ربيعة: دخلتُ على عثمان فأخذ بيدي فأسمعني كلام من على بابه، فمنهم من يقول: ماتنتظرون به؟ ومنهم من يقول: انظروا عسى أن يراجع. قال: فبينا نحن واقفون إذ مرَّ طلحةُ فقال: أين ابن عُدَيس؟ فقام إليه فناجاه (١٧٢) ثمّ رجع ابن عُدَيس فقال لأصحابه: لا تتروا أحداً يدخل على عثمان ولا يخرج من عنده. فقال لي عثمان: هذا ما أمرّ به طلحة، اللهمّ اكفني طلحة فإنّه حملَ عليَّ هؤلاء وألبهم (١٧٣) عليّ! والله إنيّ لأرجو أن يكون منها صفراً وأن يُسفك دمه! (١٧٤) قال: فأردتُ أن أخرج فمنعوني حتي أمرهم محمد بن أبي بكر فتركوني أخرج. وقيل: إن الزبير خرج من المدينة قبل أن يُقتل عثمان، وقيل: أدرك قتلَه.

ولما رأى المصريون أن أهلَ الموسم يريدون قصدهم وأن يجمعوا ذلك إلى حجّهم مع مابلغهم من مسير أهل الأمصار قالوا: لا يخرجنا من هذا الأمر الذي وقعنا فيه إلاّ قتلُ هذا الرجلِ فيشتغلُ الناسُ عنّا بذلك. فراموُا الباب فمنعهم الحسنُ وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان وسعيد بن العاص ومن معهم من أبناء الصحابة واجتلدوا(١٧٥)، فزجرهم عثمان وقال: أنتم في حلّ من نُصرتى، فأبَوْا، ففتح الباب لمنعهم، فلّما خرج ورآه المصريون رجعوا فركبهم هؤلاء وأقسم عثمان على أصحابه ليدخلُنَّ فدخلوا فأغلق الباب دونَ المصريين، فقام رجلٍ من أسلم يقال له

---

(١٧٠) ال حزم: جيران عثمان. والغفلات: الاوقات التى يهجع الناس فيها و يغفلون.

(١٧١) وفى هذه الحجة قرأ بن عباس كتاب عثمان إلى أهل وهو أطول كتب عثمان. وعاد ابن عباس ليجد أن القوم قد قتلوا عثمان.

(١٧٢) ناجاه: سارّه (أى تحدث معه سراً).

(١٧٣) ألبهم: جمعهم.

(١٧٤) قتل طلحة فى وقعة الجمل فى جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ [انظر أسد الغابة ٣/٨٨.].

(١٧٥) تضاربوا.

نيـار بن عياض ، وكان من الصحابة ، فنادى عثمان ، فبينا هو يناشده أن يعتزلهم إذ رماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله .

فقـالـوا لـعثمان عند ذلك : ادفع إلينا قاتلَه لنقتلَه به . قال : لم أكنْ لأقتلَ رجلاً نـصـرنـي وأنتم تـريدون قتلي . فلمّا رأوا ذلك ثاروا إلى الباب ، فلم يمنعهم أحد منه ، والـبـاب مـغلق لا يقدرون على الدخول منه ، فجاؤوا بنار فأحرقوه والسقيفةَ التي على الـبـاب ، وثـار أهـلُ الـدار ، وعـثـمـانُ يصلّي قد افتتح طه فما شغله ماسمع ، مايخطئ وما يتتعتع [١٧٦] حتي أتّي عليها ، فلمّا فرغ جلس إلى المصحف يقرأ فيه . وقرأ :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [١٧٧]

وقـال لمـن عـنـده بالدار : إن رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، قد عهد إليّ عهداً فأنا صابـر عـلـيـه ، ولم يحرقوا الباب إلاّ وهم يطلبون ما هو أعظمُ منه ، فأحرج [١٧٨] على رجـل أن يـسـتـقـتـل أو يـقاتل ، وقال للحسن : إن أباك الآن لفى أمرٍ عظيمٍ من أمرك فـأقـسـمـت عـلـيـك لمـا خرجت إليه . فتقدموا فقاتلوا ولم يسمعوا قوله . فبرز المغيرة بن الأخـنس بن شريق ، وكان قد تعجّل من الحجّ ، في عصابةٍ لينصروا عثمان وهو معه في الدار ، وارتجز يقول :

قـد عـلـمـتْ ذاتُ الـقـرونِ الميلِ والـحَـلْـي والأنـامـل الـطُّـفـولِ
لـتـصـدقـنَّ بَـيْـعَـتـي خـلـيـلـى بـصـارمٍ ذي رونـقٍ مـصـقـول
لا أستقيلُ إذْ أقَلْتُ قيلي [١٧٩]

---

(١٧٦) التتعتع فى الكلام : التردد فيه من حصر أو عيّ .

(١٧٧) آل عمران ١٧٣ .

(١٧٨) حرَّج (.بتشديد الراء) حرَّم .

(١٧٩) ذات القرون الميل : ذات الضفائر المائلة والطفول جمع طفل (بفتح الطاء) والطفل هو البنان الرخص الناعم ـ استقيل : أطلب الإقالة .

وخرج الحسن بن على وهو يقول :

لا دينُهُم ديني ولا أنا منهُمُ حتى أسيرَ إلى طَمارِ شَمامِ (١٨٠)

وخرج محمد بن طلحة وهو يقول :

أنا ابنُ مَن حامَى عليه بأُحُدْ وردَّ أحزاباً على رغم مَعَدْ (١٨١)

وخرج سعيد بن العاص وهو يقول :

صبرنا غداةَ الدّارِ والموتُ واقبُ بأسيافنا دونَ ابنِ أروى نضاربُ (١٨٢)
وكنا غداةَ الرَّوعِ في الدّارِ نُصرَةً نشافههم بالضّرْبِ والموتُ نائبُ (١٨٣)

وكان آخر من خرج عبدالله بن الزبير فكان يحدث عن عثمان بآخر ما كان عليه ، وأقبل أبو هُريرة والناس مُحجمون فقال : هذا يوم طاب فيه الضرب ! ونادى : (يَا قَوْمِ مَا لِى أَدْعُوكُمْ إلى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إلى النَّارِ) (١٨٤) ، و برز مروان وهو يقول :

قد علمتْ ذاتُ القرونِ الميلِ والكفِّ والأناملِ الطُّفولِ
أنّى أروعُ أوّلَ الرّعيلِ بغارَةٍ مثلِ القَطا الشّليلِ (١٨٥)

---

(١٨٠) شمام : جبل بالعالية . والطمار: المكان العالى . وطمار شمام أعلى مكان فى جبل شمام .

(١٨١) أبلى طلحة فى أحد بلاء عظيما و وقى النبى بنفسه ، واتقى عنه النبل بيده حتى شلَت إصبعه وضرب على رأسه وحمل رسول الله على ظهره حتى صعد الصخرة [انظر سيرة ابن هشام ٣/٢٧ ، وأسد الغابة ٣/٨٦ وإمتاع الأسماع للمقريزى ١٤٢] .

(١٨٢) وقب : حل ودخل وابن أروى هو عثمان .

(١٨٣) نائب : نازل . والفعل ناب ومضارعه ينوب .

(١٨٤) غافر: ٤١ .

(١٨٥) أزوع : أخيف وأفزع .

فبرز إليه رجل من بني ليث يدعى البياع ، فضرب به مروانُ وضربَ هو مروانَ على رقبته فأثبته وقطع إحدى عِلباو يه (١٨٦) فعاش مروان بعد ذلك أوقص (١٨٧) ، وقام إليه عبيدبن رِفاعة الزُّرقي ليدفِّف عليه ، (١٨٨) فقامت فاطمة أم إبراهيم بن عدي ، وكانت أرضعت مروان وأرضعت له ، فقالت : إن كنت تريد قتله فقد قُتل ، وإن كنت تريد أن تلعب بلحمه فهذا قبيح ! فتركه وأدخلته بيتها ، فعرف لها بنوه ذلك واستعملوا ابنها إبراهيم بعدُ . ونزل إلى المغيرة بن الأخنس بن شريق رجلٌ فقتل المغيرة ، قال : فلمّا سمع الناس يذكرونه قال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون . فقال له عبد الرحمن بن عُدَيس : مالك ؟ فقال : رأيت فيما يرى النائم هاتفاً يهتف فقال : بشّر قاتل المغيرة بن الأخنس بالنار ، فابتُليت به .

واقتحم الناسُ الدار من الدور التى حولها ودخلوها من دار عمرو بن حزم إلى دار عثمان حتّي ملؤوها ولا يشعرُ من بالباب ، وغلبَ الناس على عثمان وندبوا رجلاً يقتله ، فانتدب له رجل ، فدخل عليه البيت فقال : اخلَعْها (١٨٩) وندعك . فقال : ويحك !! واللهِ ماكشفتُ امرأة في جاهلية ولا إسلام ولا تغنيتُ ولا تمنيتُ ولا وضعتُ يميني على عورتي منذ بايعتُ رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، ولستُ خالعاً قميصاً كسانيه اللهُ تعالى حتي يكرمَ الله أهل السعادة ويهينَ أهلَ الشقاوة ! فخرج عنه ، فقالوا : ماصنعتَ ؟ فقال : والله لا ينجينا من الناس إلاّ قتله ولا يحلُّ لنا قتله . فأدخلوا عليه رجلاً من بني ليث ، فقال له : لست بصاحبى (١٩٠) ؛ لأن النبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ دعا لك أن تُحْفَظ يوم كذا وكذا ولن تضيع ، فرجع عنه وفارقَ القوم ، ودخل عليه رجل من قريش فقال له : إن رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ استغفَر لك يوم كذا وكذا فلن تقارفَ دماً حراماً ، فرجع وفارقَ أصحابه ،

---

(١٨٦) العِلباء : عصبة صفراء فى صفحة العنق . ولكل إنسان علباوان .

(١٨٧) الوقص (بفتح الأول والثانى) قصر العنق . فهو أوقص وهى وقصاء .

(١٨٨) ليجهز عليه .

(١٨٩) اخلعها : يقصد الخلافة .

(١٩٠) لست بصاحبى : يقصد لن تكون نهايتى على يدك .

وجاء عبد الله بن سلام ينهاهُم عن قتله فقال : ياقوم لا تسلُّوا سيفَ الله فيكم ، فوالله إن سللتموه لا تغمدُوه ! و يلكم ! إن سلطانكم اليوم يقوم بالدّرة ، فإن قتلتموه لا يقوم إلاّ بالسيف (١٩١) . و يلكم ! إن مدينتكم محفوفة بالملائكة فإن قتلتموه ليتركُنّها . فقالوا : ياابنَ اليهودية (١٩٢) ما أنت وهذا ! فرجع عنهم . وكان آخر من دخل عليه ممّن رجع محمد بن أبي بكر ، فقال له عثمان : و يلك أعلى اللهِ تغضبُ ؟ هل لي إليك جرمٌ إلاّ حقه أخذته منك ؟ (١٩٣) .

فأخذ محمد لحيتَه وقال : قد أخزاك الله يانَعثَل ! (١٩٤) فقال : لستُ بنعثل ولكني عثمان وأمير المؤمنين ، وكانوا يلقبون به عثمان . فقال محمد : ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان ! فقال عثمان : ياابن أخي فما كان أبوك ليقبضَ عليها . فقال محمد : لو رآك أبي تعملُ هذه الأعمالَ أنكرها عليك ، والذي أريد بك أشد من قبضي عليها ! فقال عثمان : استنصر الله عليك واستعينُ به ! فتركه وخرج .

وقيل : بل طعن جبينه بمشقص (١٩٥) كان في يده . والأوّل أصحّ .
قال : فلمّا خرج محمد وعرفوا انكساره ثار قُتيرةُ ، وسودان بن حمران والغافقي ، فضربه الغافقي بحديدة معه وضربَ المصحفَ برجْله ، فاستدار المصحف واستقرّ بين يديه وسالت عليه الدماء ، وجاء سودان ليضربه ، فأكبّت عليه امرأته واتّقت السيفَ بيدها (١٩٦) فنفح أصابعها (١٩٧) فأطنّ أصابع يدها وولّت ، فغمز أوراكها وقال : إنّها لكبيرة العجز ! وضرب عثمانَ فقتله .

---

(١٩١) أي : أن الأمور ستصير إلى ما هو أسوأ وأشدّ وأنكى .

(١٩٢) كان عبدالله بن سلام أول من أسلم من اليهود وكان ذلك بعد دخول النبى المدينة بيوم أو أيام [انظر إمتاع الأسماع ٤٦] .

(١٩٣) أى : أن جريمتى فى نظرك أننى أخذت حق الله منك .

(١٩٤) نعثل : رجل مصرى طويل اللحية يقال إنه كان يشبه عثمان . والنعثل فى اللغة : الأحمق ، وذكر الضباع .

(١٩٥) المشقص من النصال : ما طال وعرض ، وقيل هو نصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض .

(١٩٦) نفخ : ضرب .

(١٩٧) أطنّ : قطع .

وقيل : الذى قتله كنانة بن بِشر التُّجيبى . وكان عثمان رأى النبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ تلك الليلة يقول له : إنّك تفطرُ الليلة عندنا . فلمّا قُتلَ سقط من دمه على قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (١٩٨)

ودخل غلمةٌ لعثمان مع القوم لينصروه ، وكان عثمان قد أعتقَ من كفّ يده منهم ، فلمّا ضربَه سودان ضرب بعضُ الغلمان رقبة سودان فقتله ، ووثب قُتيرة على الغلام فقتله ، وانتهبوا مافي البيت وخرجوا ثمّ أغلقوه على ثلاثة قتلى ، فلمّا خرجوا وثب غلام لعثمان على قُتيرة فقتله ، وثار القوم فأخذوا ماوجدوا حتى أخذوا ما على النساء ، وأخذ كلثوم التُّجيبي ملاءةً من على نائلة ، فضربه غلام لعثمان فقتله ، وتنادَوا : أدركوا بيتَ المال ولا تُسبقُوا إليه ، فسمَع أصحابُ بيتِ المال كلامهَم وليس فيه إلاّ غرارتان ، فقالوا : النجاءَ فإنّ القوم إنّما يحاولون الدنيا ! فهربوا ، وأتَوا بيت المال فانتهبوه وماج الناس .

وقيل : إنّهم ندموا على قتله . وامّا عمروبن الحَمِق فوثب على صدره و به رمق فطعنه تسع طعنات ، قال : فأمّا ثلاث منها فإنّي طعنتهن إيّاه لله تعالى ، وأمّا ستّ فلما كان فى صدري عليه . وأرادوا قطع رأسه فوقعت نائلة عليه وأمّ البنين فصاحتا وضربتا الوجوه . فقال ابن عُديس : اتركوه . واقبل عمير بن ضابىء فوثب عليه فكسر ضلعاً من أضلاعه وقال : سجنتَ أبى حتى مات فى السجن .

وكان قتله لثماني عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين يوم الجمعة ، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلاّ اثني عشر يوماً ، وقيل : إلاّ ثمانية أيّام ، وقيل : بل كان قتله لثماني عشرة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ، وقيل : بل قُتل أيّام التشريق وكان عمره اثنتين وثمانين سنة . وقيل : ثمانياً وثمانين سنة ، وقيل : تسعين سنة ، وقيل : خمساً وسبعين سنة ، وقيل : ستاً وثمانين سنة .

---

(١٩٨) البقرة ١٣٧ .

الفصل الرابع

أدب على بن أبى طالب

الشريحة الأولى

الخطب والوصايا

أول خطبة فى المدينة (*)

(١) دواء الأمة

حَمِد لله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ ثم قال : أيها الناس ، كتابَ الله وسُنّةَ نبيّكم ـ صلى الله عليه وسلّم ـ أما بعد ، فلا يَدّعين مُدّعٍ إلا على نفسه ، شُغِل مَن الجنّةُ والنارُ أمامَه . ساعٍ نجا وطالبٌ يرجوُ، ومقصر فى النار ثلاثة ، واثنان مَلَك طار بجناحيه ، ونبيّ أخذ الله بيديه ، لا سادس. هلك مَن اقتحم ، وَرَدِى مَن هوى(١) اليمينُ والشِّمال مَضَلَّة ، والوُسْطى الجادّة(٢) . مَنهج عليه أم الكتاب(٣) والسنّة وآثارُ النبوّة . إنّ الله داوَى هذه الأمة بداوءين : السَّوطِ

(*) العقد الفريد ٤/٦٦. وانظر الكامل ٣/١٩٤ حيث أورد خطبة أخرى على أنها أول خطبة قالها بعد مبايعته يوم الخميس لخمس بقين من ذى الحجة سنة ٣٥هـ ، فالناس يحسبون بيعته من يوم قتل عثمان .

(١) أى : ضاع وهلك من سقط فى الرذيلة .

(٢) أى : أن الطريق الصحيح هو طريق الوسط والاعتدال .

(٣) أم الكتاب : أصل الكتاب : أى الأحكام الأساسية فيه . ومن معانى أم الكتاب : الفاتحة ، واللوح المحفوظ ؛ لأنه أصل كل الكتب السماوية .

والسيف ، لا هَوادةَ عند الإمام فيها . استتروا ببيوتكم ، وأصْلِحوا فيا بينكم ، فالموتُ من ورائكم . مَن أبدَى صَفحتَه (٤) للحق هَلَك . قد كانت أمورٌ لم تكونوا فيها مَحمودين . أما إني لو أشاء أنْ أقولَ لقُلتُ . عفا الله عما سَلَف . سَبق الرجلان ونام الثالث كالغُراب هِمَّته بَطنه ، وَيْله ! لو قُص جناحاه وقُطع رأسُه لكان خيراً له . انظروا فإن أنكرتم فأنكروا ، وإن عَرفتم فاعرفوا : حقٌ و باطل ، ولكُلٍّ أهل ، ولئن كَثُر الباطل لقديماً فعل ، ولئن قَلَّ الحق لربَّما ولعلّ ولقلما أدبر شيء فأقبل ، ولئن رَجعَتْ إليكم أمورُكم إنكم لسُعَداء ، وإني لأخشى أن تكونُوا فى فَترة (٥) وماعلينا إلا الاجتهاد .

ورَوى فيها جعفر بن محمد ــ رضوان الله عليه ــ : ألا إن الأبرارَ عِتْرتى (٦) ، وأطايبُ (٧) أرومتى (٨) ، أحلم (٩) الناس صِغارا ، وأعلم الناس كبارا . ألاَ وإنّا أهلَ البيت من عِلْم الله عِلْمُنا و بحُكم الله حُكمنا ، ومِن قَول صادق سمعنا ؛ فإن تَتبعوا آثارَنا تهتدوا ببصَائرنا . ومعنا رايةُ الحقِّ ، من يَتبعها لَحِق ، ومن تأخر عنها غَرِق . ألاَ و بنا تُردّ تِرَة (١٠) كُلّ مؤمن ، و بنا تُخلع رِبْقة (١١) الذلّ من أعناقكم ، و بنا فُتح الأمر و بنا يُختم .

---

(٤) صفحة الرجل : عرض صدره .

(٥) الفترة : الضعف والانكسار .

(٦) عترة الرجل : نسله ورهطه الأدنون .

(٧) الأطايب : الأحاسن والأعاظم .

(٨) الأرومة (بفتح الهمزة وضمها) الأصل .

(٩) أحلم : أعقل . والحلم : العقل .

(١٠) الترة والوتر : نقص الحق . ومنه قوله تعالى «ولن يتركم أعمالكم» سورة محمد من الآية ٣٥ .

(١١) الربق بالكسر : حبل فيه عدة عرا تشد به البهم . والواحدة من هذه العرا (رِبقة)

(٢) الأمم الخوالى (*)

حَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أوصيكُم عبادَ الله ونَفسِى بتقْوى اللهِ ولزُوم طاعته، وتقديمِ العَمَل، وترْكِ الأمَل،[١٢] فإنه من فَرّط فى عمله، لم يَنتفع بشىءٍ من أمله. أين التَّعِب[١٣] بالليل والنهار، والمُقتحم لِلُجج[١٤] البحار، ومَفاوِز[١٥] القِفار؟ يَسير من وراء الجبال، وعالج[١٦] الرمال؛ يَصل الغُدوّ بالرَّواح، والمَساء بالصبّاح، فى طلب مُحقَّراتِ الأرباح[١٧]؛ هَجَمتْ عليه منيته، فعظُمَتْ بنفسِه رَزِيَّته؛ فصار ماجمَع بُورا، وما اكتَسَب غُرورا، ووافَى القيامَة مَحْسورا. أيها اللاهى الغارُّ[١٨] نفسَه كأنّى بك وقد أتاك رسولُ ربِّك[١٩] لا يَقْرعُ لك بابا[٢٠] ولا يَهابُ لك حِجابا؛ ولا يَقْبلُ منك بَدِيلا، ولا يأخذُ منك كَفِيلا؛ ولا يرْحمُ لك صغيرا، ولايُوقِّر فيك كبيراً؛ حتى يُؤدِّيك إلى قَعْر مُظلمة[٢١]، أرجاؤها مُوحِشَةٌ؛ كفِعْله بالأُمم الخالية، والقُرونِ الماضية. أين مَن سعى واجتهد، وجَمع وعدّد، وبَنَى وشَيّد، وزَخرف ونَجّد، وبالقليل لم يَقْنع، وبالكثير لم يُمتَّع؟ أين مَن قادَ الجنودَ، ونَشر البُنودَ؟ أضحَوْا رُفاتا، تحت الثرى أمواتا، وأنتم بكأسِهم شاربون، ولسبيلهم

(*) العقد الفريد ٤/٦٧.

(١٢) أى: ترك الاتكال والاعتمادَ على عفو الله ورحمته دون استقامة وعمل.

(١٣) الكثير: التعب.

(١٤) لجة الماء بالضم معظمه اهـ مصباح.

(١٥) مفاوز: جمع مفازة وهى المهلكة.

(١٦) عالج الرمال: ماتراكم منها ودخل بعضه فى بعض.

(١٧) ماسبق تصوير لحال طالب الدنيا على حقارتها دون أن يستعد للآخرة بالعمل الصالح.

(١٨) الغار: الخادع.

(١٩) ملك الموت.

(٢٠) أى: يقتحم عليك دون استئذان.

(٢١) يوصلك الى القبر.

سالكون. عبادَ الله، فاتّقوا الله وراقبوه، واعملوا لِلْيوم الذى تُسيَّر فيه الجبال، وتَشقّق السماء بالغَمام، وتَطايَرُ الكُتب عن الأيمان والشّمائل. فأىّ رَجُل يومئذ تُراك؟ أقائل: هاؤم أقرءوا كتابيه[٢٢]؛ أم: ياليتنى لم أوت كتابيه[٢٣] نسأل مَن وَعَدَنا بإقامة الشرائع جَنَّته أن يَقينا سُخْطه. إنّ أحسنَ الحديث وأبلغَ الموعظة كتابُ الله الذى لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفه، تَنْزيلٌ من حَكيم حَميد.

(٣) تقوى الله (*)

الحمدُ للهِ الذى اسْتَخْلص الحمدَ لنفسه، واستوجَبَهُ على جَميع خَلْقه، الذى ناصيةُ كُلِّ شئٍ بيده، ومَصيرُ كُلِّ شئٍ إليه، القَوىِّ فى سُلطانهِ، اللّطيف فى جَبَروته، لا مانِعَ لما أعطى، ولا مُعْطِى لما مَنع، خالقِ الخلائق بقُدْرته، ومُسخِّرهم بمَشيئته، وَفِىِّ العهد؛ صادقِ الوَعْد، شديدِ العِقاب، جزيلِ الثَّواب. أحمده وأستعينه على ما أنعم به، مما لا يَعرف كُنْهَه غيرُه، وأتوكّل عليه توكّل المستسلم لقدرته، المُتبرى من الحَوْل والقُوةِ إلاّ إليه، وأشهد شهادةً لا يَشُوبها شك أنه لا إلهَ إلا هو وحدَه لا شريك له، إلهاً واحدًا صَمَدا، لم يَتَّخذ صاحبةً ولا وَلَدا، ولم يكن له شريك فى المُلك، ولم يكن له ولىّ من الذُّل وكَبِّره تكْبيرا، وهو على كل شيء قدير. قَطع ادعاء المُدعى بقوله ـ عزّوجلّ ـ:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٢٤]

وأشهدُ أن محمدًا ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ صفوتُه من خَلْقه، وأمينُه على وَحْيه، أرْسَله بالمَعْروف آمِراً، وعن المُنكر ناهيا، وإلى الحقّ داعيا، على حين فتْرة من

---

(٢٢) إشارة إلى قوله تعالى «فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه» الحاقة: ١٩.

(٢٣) إشارة إلى قوله تعالى «وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه» الحاقة: ٢٥.

(*) العقد الفريد ٤/٦٨.

(٢٤) الذاريات: آية ٥٦.

الرُّسل(٢٥)، وضَلالةٍ من الناس، واختلاف من الأمور، وتنازُعٍ من الألسُن، حتى تَمّم به الوحىَ، وأنذرَ به أهلَ الأرض. أوصيكُم عبادَ الله بتَقْوى الله، فإنها العِصْمةُ من كُلِّ ضَلال، والسَّبيلُ إلى كلِّ نَجاة؛ فكأنكم بالجُثث قد زايَلَتْها أرْواحُها، وتَضمَّنتها أجداثُها (٢٦)، فلن يَسْتقبِلَ معمَّر منكم يومًا من عُمره إلا بانتقاص آخرَ من أجَله، وإنما دُنياكم كفَىء الظِّل، أو زاد الرَّاكب(٢٧). وأحذِّركم دُعاء العَزيز الجبّار عَبْده (٢٨) يوم تُعفَّى آثاره (٢٩) وتوحِشُ منه دِيارُه، و يُوتَم صِغارُه، ثم يصير إلى حَفِير من الأرض، مُتعفِّرا خَدُّه، غير مُوسَّد ولا مُمهّد(٣٠). أسأل الذى وَعدنا على طاعته جَنّته أن يَقينا سُخْطه، و يُجنِّبنا نِقْمته، و يَهَب لنا رَحْمته، إنّ أبلغ الحديثِ كتابُ الله.

(٤) الدنيا والآخرة (*)

أما بعد، فإنّ الدنيا قد أَدْبرتْ وآذنت(٣١) بوَداع، وإن الآخرةَ قد أقبلتْ وأشرفَتْ باطلاع، وإن المِضمارَ(٣٢) اليوم والسِّباق غدا. ألاَ وإنكم فى أيام أمل، ومِن ورائِه أجل، فمَن أَخْلَصَ فى أيام أمله، قبل حُضورِ أجله، نفَعه عملُه، ولم يَضره

---

(٢٥) أى: بعد مدة انقطع فيها بعث الرسل.

(٢٦) أى: يجب أن تذكروا أن الموت قد يفجأكم فإذا بكم فى القبور جثث بلا أرواح.

(٢٧) كناية عن قصر عمر الدنيا وحقارتها.

(٢٨) بانتهاء أجله وقبض روحه.

(٢٩) عفا الأثر: يدرس و ينتهى.

(٣٠) صفة للحقير: أى غير سوى ولا مريح.

(*) العقد الفريد ٤/ ٦٩. منهج البلاغة ٥٤ (مع اختلاف)

(٣١) آذنت: أعلمت: والإيذان منها إنما هو بالحال وذلك لما يرى فيها من تغير وتبدل وعدم ثبات.

(٣٢) المضمار: مدة (أومكان) إعداد الخيل للسباق بتضميرها.

أملـه ؛ ومـن قـصّـر فى أيـامِ أمـلـه ، قـبل حُضور أجله ، فقد خَسِر عملُه ، وضَرّه أملُه . ألاَ فـاعـمـلـوا لله فى الرَّغْبة ، كما تَعملون له فى الرَّهبة (٣٣) . ألاَ وإنى لم أر كالجنَّةِ نامَ طـالـبُـها ، ولم أر كالنَّارِ نامَ هاربُها (٣٤) . ألا وإنكم قد أُمِرْتم بالظَّعْن (٣٥) ، ودُللتم على الزّاد (٣٦) ، وإن أخوفَ ما أخاف عليكم اتباعُ الهوى ، وطولُ الأمل .

(٥) الجهاد باب الجنة (*)

. أمـا بـعـد ، فـإن الجـهـاد بابٌ من أبواب الجَنّة ، فمن تَركه ألبسه الله ثوبَ الذُّل ، ، وأشْـمـلـه الـبَـلاء ، وألـزمـه الـصَّغار ، وسامَه الخَسْف ، ومَنعه النَّصْف (٣٧) ألا وإنى دعوتُكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهارا ، وسرّا وإعلانا ، وقُلت لكم : اغزُوهم قبل أن يَغزوكم ، فوالله ماغُزى قومٌ قطُّ فى عُقر دارهم إلاّ ذلّوا . فتواكلْتُم وتخاذلتم وثَقُل عليكم قَوْلى ، فاتخذتُموه وراءكم ظِهريا ، حتى شُنّت عليكم الغارات . هذا أخوغامِد (٣٨) قد بـلـغـت خـيلُه الأنبار ، وقَتَل حَسان البَكْرى ، وأزال خَيْلَكم عن مَسارحِها ، وقَتَل مـنـكـم رجـالاً صـالحين . وقـد بَـلغنى أنّ الرجلَ منهم كان يَدْخل على المرأة المُسلمة والأخـرى الـمُـعاهَدَة فَينْزع حِجْلها وقُلْبها ورِعاثَها ، ثم انصرفوا وافرين ، ما كُلِم (٣٩)

---

(٣٣) أى : ليكن عملكم لله فى السراء كعملكم له فى الضراء دون أن يصرفكم النعيم عن خشيته والخوف منه .

(٣٤) ينعى على من لايطلبون الجنة و يقون أنفسهم النار بالعمل الصالح .

(٣٥) الظّعن : الرحيل و يقصد به عدم التعلق بالدنيا .

(٣٦) يقول تعالى « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب » البقرة ١٩٧ .

(*) العقد الفريد ٤ / ٧٠ . ونهج البلاغة ٥٢ (مع اختلاف) .
لما أغار سفيان بن عوف الأسدى على الأنبار فى خلافة على ــ رضى الله عنه ــ وعليها حسان البكرى فقتله ، خرج علىّ وجلس على باب السدة فحمد الله وأثنى عليه وقال هذه الخطبة .

(٣٧) النصف : الانتصاف .

(٣٨) القُلب : السوار . الرعاث : القرط .

(٣٩) كلم : جرح .

رجلٌ منهم . فلو أنّ رجلاً مُسْلِما ماتَ من بعدِ هذا أسَفًا ماكان عندى مَلُوما ، بل كان عندى جديرًا(٤٠) فواعجبًا مِن جدّ هؤلاء فى باطلهم ، وفَشَلِكم عن حَقّكم ! فقُبحا لكم وتَرحا ! (٤١) حين صِرْتم غرضًا يُرمى ، يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزَوْن ولا تَغْزُون ، و يُعصى اللهُ وتَرضون ! فإذا أمرتكم بالمَسير إليهم فى أيام الحَرّ قُلتم : حَمارة القَيْظ (٤٢) ، أمْهلنا حتى يَنْسلخ عنّا الحر ، وإذا أمرتُكم بالمسير إليهم ضُحى فى الشّتاء ، قلتم : أمهِلنا حتى يَنْسلخ عنّا هذا القُر(٤٣) . كلّ هذا فِرارًا من الحَر والقُر ، فأنتم والله من السَّيف أفرّ . يا أشباه الرِّجال ولا رجال ! و يا أحلام أطفال ، وعُقول ربّاتِ الحِجَال(٤٤) وَدِدْتُ أن الله أخرجنى من بين أظْهُركم وقبضنى إلى رَحْمته من بينكم ، وأنى لم أرَكُمْ ولم أعْرِفْكُمْ ، معرفةٌ والله جَرّت وَهْنا (٤٥) ووَرَّيتم (٤٦) والله صَدْرى غَيْظا ، وجَرّعتمونى الموتَ أنفاسا ، وأفسدتُم علىّ رأيى بالعِصْيان والخِذْلان ، حتى قالت قُريش : إن ابن أبى طالب شُجاع ، ولكنْ لا عِلْم له بالحَرب ، لله أبوهم ! وهَلْ منهم أحد أشدُّ لها مِرَاسا (٤٧) وأطولُ تجربةً منّى ! لقد مارستها وأنا ابنُ عِشْرين ، فهأنذا الآنَ قد نيّفت على الستين ، ولكنْ لا رأى لمن لا يُطاع .

---

(٤٠) أى لو أن المسلم مات أسفا وحزنا لما حدث ؛ لكان حريا بالتقدير ؛ لأن ما وقع خطب جليل .

(٤١) الترح : الحزن .

(٤٢) شدة الحر .

(٤٣) القر : البرد .

(٤٤) ربات الحجال : النساء .

(٤٥) الوهن : الضعف .

(٤٦) ور يتم : أشعلتم .

(٤٧) مراسا : مزاولة ومعاناة .

(٦) فى عتاب أصحابه وتقريعهم (*)

أيها النـاس المجتمعة أبدانُهم ، المُختلفة أهواؤهم ، كلامُكم يُوهِى[٤٨] الصُّم الصِّلاب[٤٩] وَفِعْلُكم يُطْمِع فيكم عدوَّكم ؛ تقولون فى المَجالس كَيْتَ وكَيْتُ[٥٠] فإذا جاء القِتال قُلتم : حِيدِى حَيَادِ[٥١] ماعَزَّت دعوةُ مَن دعاكم ، ولااستراح قلبُ من قاساكم[٥٢] أعاليلُ بأباطيل[٥٣] وسألتُمونى التأخير، دفاع ذى الدَّين المَطُول[٥٤] هيهات[٥٥] ! لا يدفع الضَّيمَ الذَّليلُ، ولا يُدْرَك الحقُّ إلا بالجِدّ . أىَّ دار بعدَ دارِكم تَمنعون ؟ أم مع أىّ إمامٍ بَعْدى تُقاتلون ؟ المَغْرور والله من غَررتموه ، ومَن فاز بكم فاز بالسَّهم الأخْيَب[٥٦] أصبحتُ والله لا أُصدِّق قولَكم ، ولا أطمع فى نُصْرَتكم ، فرّق الله بينى و بينكم ، وأعْقبنى بكم مَن هو خيرٌ لى منكم . وَدِدْت والله أنَّ لى بكلّ عشرة منكم رجلاً من بنى فِرَاس بن غَنْم[٥٧] صَرْف الدّينار بالدّرهم .

(*) البيان والتبيين ١/٣٩ . والعقد الفريد ٤/٧١ . ونهج البلاغة ٥٥ والإمامة والسياسة ٢/١١١ (مع اختلاف بينها)

(٤٨) يوهى : يضعف .

(٤٩) الصم : جمع أصم . وهو المصمت القوى . والصلاب : جمع صليب وهو الشديد ذو الصلابة .

(٥٠) أى : سنفعل كذا وكذا .

(٥١) أى : « ابعدى عنى أيتها الحرب » وهى عبارة تدل على الجبن والتقاعد والهرب .

(٥٢) أى : أن من يعايشكم و يقاسى منكم مايقاسى لايعرف راحة القلب .

(٥٣) أى : أنكم دائما تتذرعون بالتعلات الباطلة للقعود عن الحرب .

(٥٤) ذى الدين المطول : المدين الكثير المطل والتسويف فى أداء الدين بلاعذر مستاغ (والمطول صيغة مبالغة من مطل) . شبههم فى الاعتذار عن الحرب والتأخير عنها بالمدين المطول .

(٥٥) هيهات : اسم فعل ماض بمعنى بعُد أى من المستحيل أن تتحقق لكم عزة أونصر بقعودكم .

(٥٦) السهم الأخيب : هو من سهام الميسر الذى لاحظ له .

(٥٧) هو فراس بن غنم بن ثعلبة من كنانة جد جاهلى عرف بنوه بالشجاعة منهم ربيعة بن مكدم (انظر الأعلام للزركلى ٥/١٣٩) .

(٧) الخطبة الغراء (*)

الحمد لله الأحد الصَّمد (٥٨) الواحد المُنفرد، الذى لا مِن شىء كان ولاَ مِن شىء خُـلق إلاَّ وهو خاضع له، قُدْرة بان بها من الأشياء، و بَانت الأشياء منه (٥٩)، فليست له صفة تُنال، ولاحَدّ يُضرب له فيه الأمثال، كلَّ دون صِفته تَحْبير اللُّغات (٦٠) وضَلَّت هنالك تَصاريف الصِّفات، وحارت دونَ مَلكوته مذاهبُ التَّفْكير، وانقطعت دونَ عِلْمه جوامعُ التَّفسير، وحالت دونَ غَيْبه حُجبٌ تاهت فى أدنَى دُنوّها طامحات العُقول. فتبارك الله الذى لا يَبْلغه بُعْدُ الهِمَم، ولا يَناله غَوْصُ الفِطن؛ وتَعالى الذى ليس له نَعْت مَوْجود، ولا وَقْتٌ مَحْدود. وسُبحانَ الذى ليس له أوّلُ مُبتدا، ولا غايةُ مُنْتهى، ولا آخِرٌ يَفنى؛ وهو سُبحانه كما وَصف نفسه، والواصفون لا يَبْلغون نَعْته، أحاط بالأشياء كُلِّها عِلْمُه، وأتقنها صُنْعه، وذلّلها أمرُه، وأحصاها حِفْظُه، فلا يَعْزُب (٦١) عنه غُيوب الهَوى، ولا مَكنون ظُلَم الدُّجى (٦٢) ولا ما فى السموات العُلى، إلى الأرض السابعة السُّفلى؛ فهو لكلّ شىء منها حافظ وَرَقيب، أحاط بها. الأحدُ الصَّمد، الذى لم تُغيره صُروف الأزمان، ولم يَتكاءده (٦٣) صُنْع شىءٍ منها كان. قال لما شاء أن يكون: كُن فكان؛ ابتدع ماخَلق، بلا مثال سَبق، ولا تَعب، ولا نَصب؛ وكلُّ عالم من بعد جهْل تَعلَّم، والله لم يَجهل ولم يَتعلَّم: أحاط بالأشياء كلِّها عِلما، ولم يَزْدَدْ بتَجْربتها خُبرا؛ عِلْمُه بها قبل

(*) العقد الفريد ٤/٧٤. وانظر نهج البلاغة حيث جاءت فيه خطبة قال الشريف الرضى عنها أن بعض الناس يطلقون عليها الغراء، وهى تختلف فى كل كلماتها عن هذه الخطبة وإن قاربتها فى الطول. وانظر كذلك ابن أبى الحديد ٢/٤٢٧.

(٥٨) الصمد: المقصود فى الحوائج على الدوام.

(٥٩) يقصد: أن قدرة الله ظاهرة فيا خلق وأن مخلوقاته تدل عليه.

(٦٠) كلّ: أعيا وعجز. أى: أن اللغات عجزت عن تحديد صفته تعالى.

(٦١) يعزب: يغيب.

(٦٢) المكنون: المستور. الدجى: جمع دجية وهى الظلام.

(٦٣) لم يتكاءده: لم يشق عليه.

كُوْنِـهـا كِـعـلْمه بها بعد تكوينها (٦٤) لم يُكَوِّنْها لتَسْديد (٦٥) سُلطان، ولا خَوْف من زوال ولا نُـقْـصـان؛ ولا استعانة على ضد مُناوئ، ولا نِدّ (٦٦) مُكاثر؛ ولكنْ خلائق مَرْبـوبون، وعِباد داخرون (٦٧) فسُبحان الذى لم يؤده (٦٨) خَلْقُ ما ابتدأ، ولا تَدْبير مـابَـرأ، (٦٩) خَـلَـق مـاعَلِم، وعَلِم ما أراد، ولا يتفكر على حادث أصاب، ولا شُبهة دَخـلـت عـلـيـه فيما شـاء؛ لـكـنْ قـضـاء مُتقن، وعِلْم مُحْكم، وأمر مُبْرَم. توحّد فيه بـالـرُّبـوبـيـة، وخَـصَّ نـفسه بالوَحْدانية؛ فلَبِسَ العزَّ والكِبْرياء، واستخلص المَجد والـسَّـنـاء (٧٠) واسـتـكـمـل الحَمْد والثَّناء، فانفرد بالتَّوحيد، وتوحّد بالتَّمجيد؛ فجلّ سبـحـانه وتعالى عن الأبناء، وتَطَـهّر وتقدّس عن مُلامسة النِّساء؛ فليس له فيما خَلق نِـدّ، ولا فيما ملك ضِدّ، هو الله الواحد الصَّمد، الوارثُ للأبد، الذى لا يَبيد ولا يَنْفد؛ مَلَـك الـسـمـواتِ الـعُـلـى، والأرضين الـسُّـفـلـى، ثم دَنَا فَعَلا، وعَلا فَدَنَا (٧١)؛ له المَثَل الأعلى، والأسماء الحُسنى، والحمد لله ربِّ العالمين. ثم إنّ الله تَبارك وتعالى سُبحانه وبحـمـده، خَـلَـقَ الخلق بعِلمه، ثم اختار منهم صَفْوَته لنفسه، واختار من خِيَار صَفْوَته أمـنـاء على وَحْـيـه، وخَـزنـة لـه على أمـره، إليهـم تَنْتهى رسالتُه، وعليهم يَنزل وَحْيه؛ جَعلهم أصفياء، مُصْطَفَين أنبياء، مَهدِّيين نُجباء. استودعهم وأقرّهم فى خير مُستقر، تَـنـاسـختـهـم أكارمُ الأصلاب (٧٢) إلى مطهَّرات الأمّهات؛ كلما مضى منهم سَلف، انـبعث لأمره منهم خَلف؛ حتى انتهت نُبوّة الله وأفضت كرامتُه إلى محمد ـــ صلى الله

---

(٦٤) أى: أن علمه لا يطرأ ولا يتغير ولا يتطور فعلمه بالأشياء قبل أن تخلق كعلمه بها بعد خلقها.

(٦٥) تسديد: تقوية.

(٦٦) الند: المثيل والنظير.

(٦٧) خاضعون لله: يفعلون ما يؤمرون.

(٦٨) يؤده: يتعبه و يعجزه.

(٦٩) برأ: خلق.

(٧٠) السناء: الرفعة.

(٧١) أى: أنه فى كل مكان: قريب من عباده ولكن لا تدركه منهم الأبصار.

(٧٢) أى: تناقلتهم الأصلاب الكريمة فهم كرام الآباء مطهرو الأمهات.

عليه وسلّم ــ فأخرجه من أفضل المَعادن مَحْتِدًا ، (٧٣) وأكرم المَغارس منبتاً ، وامنعها ذِروة (٧٤) وأعزّها أرُومة (٧٥) وأوْصلها مَكْرمة ؛ من الشجرة التى صاغ منها أمناء ، وانتخب منها أنبياء ، شجرة طيِّبة العُود ، مُعتدلة العَمود ، باسقة الفروع ، مُخضرَّة الأصول والغصون ، يانعة الثِّمار ، كريمة المجتبى فى كرم نَبتت ، وفيه بَسقت وأثمرت ، وعزّت فامتنعت ؛ حتى أكرمه الله بالرُّوح الأمين ، والنُّور المبين ، فختم به النّبيين ، وأتمّ به عِدّة المُرسلين ؛ خليفتُه على عباده ، وأمِينُه فى بلاده ؛ زَيّنه بالتّقوى ، وآثار الذِّكرى ؛ وهو إمام من اتقى ، ونَصْرُ من اهتدى ؛ سراجٌ لمع ضَوؤه ، وزَنْد بَرق لَمعه ، وشِهابٌ سطع نُوره ، فاستضاءت به العباد ، وأستنارت بِهِ البلاد ، وطَوى به الأحساب ، وأزجى به السّحاب ، وسَخّر له البُراق ، حتى صافحته الملائكة ، وأذعنت له الأبالسة ، وهدم به أصنام الآلهة . سيرتُه القَصْد (٧٦) وسُنّته الرُّشد ؛ وكلامه فَصْل ، وحُكمه عَدْل . فَصدع ــ صلّى الله عليه وسلم ــ بما أمره به ، حتى أفصح بالتّوحيد دعوتَه ، وأظهر فى خَلْقه : لا إله إلا الله ، حتى أذعن (٧٧) له بالرُّبوبية ، وأقرّله بالعُبودية والوّحدانية . اللهم فخُص محمدًا ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بالذِّكر المحمود ، والحَوْض المَوْرود . اللهم آتِ محمدا الوَسيلة ، والرِّفعة والفضيلة ؛ واجعل فى المُصطفين مَجلّته ، وفى الأعلين درجَته ، وشرِّف بُنيانه ، وعَظِّم بُرهانه ، واسقنا بكأسِه ، وأوْردنا حَوضَه ، واحشُرنا فى زُمرته ، غيرَ خَزايا ولا ناكِثين ، ولا شاكِّين ولا مُرتابين ، ولا ضالّين ولا مفتونين ، ولا مُبدّلين ولا حائدين ولا مضلّين . اللهم أعط محمدًا من كل كرامة أفضلَها ، ومن كُل نعيم أكمله ، ومن كل عَطاء أجزَله ، ومن كل قَسْم أتَمّه ، حتى لا يكون أحد من خلقِك أقربَ منك مَكانا ، ولا أحظى عندك منزلة ، ولا أدنى إليك وسيلة ، ولا أعظم عليك حقا

---

(٧٣) المحتد : الأصل .

(٧٤) الذروة : القمة .

(٧٥) أرومة : أصل .

(٧٦) القصد : الاعتدال .

(٧٧) أذعن : خضع وسلّم .

ولا شَفاعة من محمد ، واجمع بيننا و بينه فى ظِلّ العيش ، و بَرد الرَّوْح (٧٨) وقُرة الأعين ، ونَضْرة السُّرور ، وبهجة النعيم ؛ فإنا نشهد أنه قد بلّغ الرِّسالة ، وأدّى الأمانة والنَّصيحة ، واجتهد للأمّة وجاهد فى سَبيلك ، وأوذِي فى جَنْبك ، ولم يَخف لومة لائم فى دينك ، وعَبدك حتى أتاه اليقين . إمام المُتقين ، وسيّد المُرسلين ، وتَمام النبيين ، وخاتَم المُرسلين ، ورسولُ ربِّ العالمين ، اللهم ربَّ البيت الحرام ، وربَّ البلد الحرام ، وربَّ الركن والمقَام ، وربَّ المَشْعر الحرام ، بَلِّغ محمداً منّا السلام . اللهم صلِّ على ملائكتك المُقرَّبين ، وعلى أنبيائك المُرسلين ، وعلى الحَفظة الكرام الكاتبين ، وصلّى الله على أهل السموات وأهل الأرضين ، من المُؤمنين .

(٨) الخطبة الزهراء (*)

الحمد لله الذى هو أوّل كُلّ شىء و بَدِيّه (٧٩) ، ومُنتهى كل شىء ووليّه ، وكُلُّ شىء خاشعٌ له ، وكلّ شىء قائم به ، وكلّ شىء ضارعٌ إليه ، وكل شىء مُستكين له . خشعتْ له الأصواتُ ، وكَلَّت دونه الصِّفات ، وضَلّت دونَه الأوهام ، وحارتْ دونه الأحلام (٨٠) ، وانحسرت دونَه الأبصار . لايَقْضى فى الأُمور غيرُه ، ولايَتمُّ شىء منها دونَه ، سبحانه ماأجلَّ شأنَه ، وأعظمَ سُلطانه ! تُسّبح له السمواتُ العُلَى ، ومَن فى الأرض السُّفلى ، له التَّسبيحُ والعَظَمة ، والمُلك والقُدْرة ، والحَوْلُ والقُوّة ؛ يَقْضِى بعِلْم ، و يَعْفو بحِلْم ، قُوةُ كل ضَعيف ومَفْزعُ كلِّ مَلهُوف ، وعِزّ كُلِّ ذليل ، ووليُّ كلِّ نِعْمة ، وصاحبُ كلّ حَسَنة ، وكاشفُ كل كُرْبة ، المُطّلعُ على كل خَفِيَّة ، المُحْصِى لكلِّ سَرِيرة ، يَعلمُ ماتُكنُّ الصُّدور ، وماتُرْخَى عليه السُّتور ؛ الرَّحيمُ بخَلْقه ، الرَّءوفُ بعباده من تكلم منهم سمع كلامه ، وَمَنْ سكت منهم علم مافى نفسه ، ومن عاش منهم فعليه رزقُه ، ومَن مات منهم فإليه مَصيره ، أحاطَ بكل

---

(٧٨) من معانى الرَوْح : الراحة والرحمة .

(*) العقد الفريد ٤/ ٧٦ .

(٧٩) البدئ : العجب . و يقصد أن الله عجيب خلقه يأخذ بالأنظار لما فيه من قدرة .

(٨٠) الأحلام : العقول .

شيء عِلْمُه ، وأحْصَى كلَّ شيء حِفْظُه . اللهم لك الحمد عَدَد ماتحيي وتُميت ، وعَدَد أنفاسِ خَلْقِك ولَفْظهم ، ولحظ أبصارهم ، وعَدد ماتَجرى به الريحُ ، وتَحمله السَّحاب ، ويَختلفُ به الليلُ والنهار ، ويَسير به الشمسُ والقمر والنجومُ ، حمداً لايَنْقضى عَدده ، ولايَفنى أمدُه . اللهم أنت قبلَ كُلِ شيء ، واليك مَصيرُ كل شيء ، وتكون بعد هلاك كلّ شيء ، وتَبقى و يَفنى كلُّ شيء ، وأنت وارثُ كلِّ شيء ، أحاط عِلْمُك بكلِّ شيء ، وليس يُعجزك شيء ، ولايَتوارى عنكَ شيء ، ولايَقْدر أحدٌ قُدرتَك ، ولايشْكُرك أحدٌ حقَّ شُكرك ، ولاتَهتدى العقُول لِصفَتك ، ولاتَبْلغُ الأوهامُ حَدَّك . حارتِ الأبصارُ دون النَّظر إليك ، فلم تَرك عينٌ فتُخْبرَ عنك كيف أنت وكيف كُنْت ، لانَعلم اللهم كيفَ عَظمتُك ، غير أنا نعلم أنك حيّ قيّوم ، لاتأخذك سِنة ولانَوْم ، لم يَنْته إليكَ نَظر ، ولم يُدركْك بَصَر ، ولا يقدرُ قُدرتَك مَلَك ولابَشر ، أدركتَ الأبصار ، وكَتبتَ الآجال ، وأحْصَيتَ الأعمال ، وأخذت بالنَّواصي والأقدام ؛ لم تخلُق الخلق لحاجة ولالوَحْشة ، ملأت كل شيء عَظمةً ، فلا يُردُّ ماأردتَ ولايُعطى مامَنعت ، ولايَنْقص سُلطانَك مَن عصاك ، ولايَزيد فى مُلْكك مَن أطاعك ، كل سِرّ عندك علْمهُ ، وكلّ غَيب عندك شاهدُه ، فلم يَسْتتر عنك شيء ، ولم يَشْغلك شيء عن شيء ، وقُدرتُك على ماتَقْضى كقُدرتك على ماقَضيت ، وقُدرتك على القويّ كقُدرتك على الضَّعيف ، وقُدرتك على الأحياء كقُدرتك على الأموات (٨١) . فإليك المُنتهى ، وأنت المَوْعد ، لامَنْجى إلاإليك ، بيدك ناصيةُ كل دابة ، وبإذنك تَسْقط كلُّ ورقة ، لايَعْزُب (٨٢) عنك مثقالُ ذَرّة ، أنت الحيُّ القيومُ . سبحانَك ! ماأعظم مايُرى من خَلقِك ! وماأعظمَ مايُرى من ملكوتك ! وماأقلَّها فِيما غاب عنّا منه ! وماأسبغ نعمتَك فى الدُّنيا وأحقرها فى نَعيم الآخرة (٨٣) ! وماأشد عقوبتَك فى الدُّنيا وماأيسرها فى عُقوبة الآخرة ! وماالذى نَرى من خَلْقك ، ونَعْتبر من قُدرتك ، ونَصِف من سُلطانك ، فيما يَغيب عنّا منه (٨٤) ، مما قَصُرتْ أبصارُنا عنه ، وكَلَّتْ

---

(٨١) يعنى بقوله « وقدرتك على ما.. » أن قدرة الله ثابتة لا يعتورها النقص أو الضعف على أى حال .

(٨٢) يعزب : يغيب .

(٨٣) أى ماأعظم وأكثر نعمتك فى الدنيا ولكن هذه النعمة الدنيوية لاتعد شيئاً إذا ماقيست بنعيم الآخرة .

(٨٤) أى:أنّ مانراه من خلقك لا يعد لايعد شيئاً إذا ماقيس بما غيب عنا ولم تدركه أبصارنا .

عقولَنا دونه ، وحالت الغُيوب بيننا و بينه ! فمن قَرع سنّه (٨٥) ، وأعمل فِكْره : كيف أقمتَ عرْشك ؟ وكيف ذَرأت (٨٦) خلقك ؟ وكيف عَلَّقت فى الهواء سَمواتك ؟ كيف مَددتَ أرضَك ؟ يَرجع طرفُه حاسرا (٨٧) ، وعقْله مَبهورا ، وسَمعُه والها ، وفكره متحيراً. فكيف يطْلب علْم ماقبل ذلك من شأنك إذ أنت وحدك فى الغيوب التى لم يكن فيها غيرُك ، ولم يكن لها سواك ، لا أحدَ شَهدك حين فطرتَ الخلق ، ولا أحدَ حَضَرَك حينَ ذرأت النُفوس ، فكيف لايَعْظم شأنُك عند من عَرفك ، وهو يرى مِن خلقك ماتَرتاعُ به عقولُهم ، ويملأُ قلوبَهم ، من رَعْدٍ تَفزع لهُ القُلوب ، و برْق يَخْطِف الأبصار ، وملائكة خَلقتهم وأسكنتهم سمواتك ، وليست فيهم فَترة (٨٨) ، ولا عندهم غَفْلة ، ولا بهم مَعْصية . هو أعلم خَلقك بك ، وأخوفُهم لك ، وأقومهُم بطاعتك ، ليس يَغشاهم نومُ العُيون ، ولا سَهو العقُول ؛ لم يَسْكنُوا الأصلاب ، ولم تَضمُهم الأرحام ، أنشأتَهم إنشاء ، وأسكنتهم سمواتِك ، وأكرمتهم بجوارك ، وأئتمنتهم على وَحْيك ؛ وجنبتهم الآفات ، وَوَقَيتهم السيآت ، وطَهرتهم من الذنوب ؛ فلولا تقو يتُك لم يَقْوَوا ، ولولا تَثْبيتك لم يَثْبتوا ، ولولا رَهْبتك لم يُطيعوا ولولاك لم يكونوا ، أما إنهم على مكانَتهم منك ، ومنزلتِهم عندك ، وطُولِ طاعتهم إياك ، لو يُعاينُون ما يَخفى عليهم لاختقروا أعمالَهم ، ولعلموا أنهم لم يَعْبدوك حقَّ عبادتك . فسُبحانك خالقاً ومعبوداً ومَحمودا بحُسنِ بلائِك (٨٩) عند خَلقِك ! أنت خلقتَ ما دبَّرته مطعما ومَشربا ، ثم أرسلت داعيا إلينا ، فلا الدّاعى أجبْنا ، ولا فيما رَغّبْتنا فيه رغِبْنا ، ولا إلى ماشوّقتنا إليه اشتقنا. أقبلنا كُلُّنا على جيفة نأكل منها ولانَشبع (٩٠) ، وقد زاد بعضُنا على بعض حرصاً ، لما يرى بعضُنا من بعض ؛ فافتضحنا بأكلها ، واصطلحنا (٩١) على حُبها ، فأعمت أبصارَ صُلاّحِنا وفُقهائِنا ، فهم ينظرون بأعينِ غير

---

(٨٥) قرع سنه : كناية عن التفكير .

(٨٦) ذرأ : خلق .

(٨٧) حاسر : كليل متعب .

(٨٨) فترة : ضعف .

(٨٩) البلاء هنا : بمعنى النعمة .

(٩٠) يقصد بالجيفة هنا : الدنيا ومتاعها .

(٩١) اتفقنا واجتمعنا .

صحيحة ، و يَسْمعون بآذان غيرِ سَميعة ، فحيثما زالتْ زالُوامعها ، وحيثما مالتْ أقبلوا إليها ، وقد عاينوا المأخوذِين على الغِرّة (٩٢) كيف فَجَأَتْهُم الأمورو ونَزَل بهم المحذور، وجاءهم من فراق الأحبةِ ما كانوا يتوقعون ، وقَدموا من الآخرة إلى ما كانوا يُوعدون . فارقُوا الدُّنيا وصارَوا إلى القُبور، وعَرفوا ما كانوا فيه من الغُرور؛ فاجتمعتْ عليهم حَسْرتان : حَسْرة الفَوت (٩٣) ، وحَسْرة الموت (٩٤) ، فاغبرَّت لها وُجوهُهُم ، وتَغيَّرتْ بها ألوانهُم ، وعَرِقت بها جباهُهم ، وشَخصت أبصارُهم ، و بَرِدَت أطرافُهم ، وحيل بينهم و بين المنطق (٩٥) ؛ وإنّ أحدَهم لَبيْن أهله يَنْظر ببصره، و يَسمعُ بأُذنه . ثم زاد الموتُ في جسده حتى خالط بَصَرَه ؛ فذَهبتْ من الدنيا مَعرفته ، وهَلكَتْ عند ذلك حُجتُه ، وعاينَ هولَ أمرٍ كان مُغطّى عليه ، فأحدَّ لذلك بَصرَه ، ثم زاد الموتُ في جَسدِه ، حتى بلغتْ نَفسه الحلقوم ، ثم خرجَ روحه من جسده فصار جسداً ملقى لا يُجيب داعيا ، ولا يَسمع باكيا ، فنزعوا ثيابه وخاتَمه ، ثم وَضّئوه وضوء الصلاة ، ثم غَسّلوه وكَفّنوه أدراجا (٩٦) في أكفانه ، وحَنَّطوه (٩٧) ثم حملوه إلى قبره ، فدلَّوه في حُفرته ، وتركوه مُخلّى بمقطعات من الأمور، وتحت مسألة مُنكر ونكير، مع ظُلمة وضِيق ، ووَحشة قبر؛ فذاك مَثْواه حتى يَبلى جسدُه و يَصيرَ تُرابا . حتى إذا بلغ الأمرُ إلى مِقداره ، والْحق آخرُ الخَلق بأوله ، وجاءه أمرٌ من خالقه ، أراد به تجديدَ خلْقه ، فأمرَ بصوت من سَمواته ، فمارت السمواتُ مَوْراً ، وفَزع مَن فيها ، و بقى ملائكتُها على أرجائها ، ثم وَصل الأمرُ إلى الأرض ــ والخلقُ رُفات لا يَشْعرون ــ فأرجَّ أرضهم وأرجفها وزَلزلها ، وقَلع جبالَها ونَسفَها وسيَّرها ، ورَكِبَ بعضُها بعضاً من هَيبتِه وجلالِه ، وأخرجَ من فيها ، فجدّدهم بعد بلائهم ، وجَمعهم بعد تفرّقهم ، يُريد أن يُحصيهم و يُميّزهم : فريقاً في ثوابه ، وفريقاً في عِقابه ، فَخلد الأمرُ لأبده دائماً ، خيْرُه

---

(٩٢) أي : الذين جاءهم الموت فجأة .

(٩٣) القوت : الحرمان من متاع الدنيا ونعيمها .

(٩٤) و يقصد بحسرة الموت ما يصحبه من آلام وأوجاع وسكرات .

(٩٥) النطق .

(٩٦) أدراج ؛ جمع درج وهوطي الشيء وداخله . وأدرج الميت في الكفن والقبر أدخله .

(٩٧) حنطوه : أي نثروا عليه الحنوط وهوطيبٌ يخلط للميت خاصة .

وشرُّه. ثم لم ينس الطاعةَ من المُطيعين، ولا المَعْصيةَ من العاصين، فأراد — عزَّ وجلّ — أن يُجازى هؤلاء، و يَنتقمَ من هؤلاء، فأثابَ أهل الطاعة بجواره، وحُلول داره، وعَيْش رَغَد، وخُلود أبَد، ومجاورةِ الرّب، ومُرافقة محمد — صلّى الله عليه وسلّم — حيث لاظَعْن(٩٨) ولاتَغيّر، وحيثُ لاتُصيبهُم الأحزان، ولاتَعْتَرِضُهم الأخطار، ولاتُشخِصهم الأسفار(٩٩). وأما أهل المعصية، فَخَلّدهم في النار، وأَوْثَقَ منهم الأقدام، وغُلّت (١٠٠) منهم الأيدى إلى الأعناق، في لَهَب قد أشتدّ حره، ونار مُطْبَقَةٍ على أهلها، لايدخل عليهم بها رَوْح (١٠١)، همّهم شديد، وعَذابهم يَزيد، ولامُدَّة للدار تَنقَضى، ولاأَجَل للقوم ينتهى. اللهم إنى أسألك بأن لك الفضل، والرَّحمةَ بيدك، فأنت وليّها، لايليها أحدٌ غيرُك، وأسألك باسمك المَخْزون المَكْنون، الذى قام به عرْشُك وكرسيّك وسمٰواتُك وأرضُك، و به ابتدعتَ خَلْقك، الصلاةَ على محمد، والنّجاةَ من النار برحمتك آمين، إنك ولىّ كريم.

(٩) الخمس المنجيات (*)

أيها الناس، احفظوا عنّى خمساً، فلو شَددتم إليها المَطايا حتى تُنضوها(١٠٢) لم تَظفروا بمثلها(١٠٣): ألاَلايَرْجُونّ أحدُكم إلاَّ ربَّه، ولايَخافنّ إلا ذَنْبَه، ولايَسْتحى أحدُكم إذا لم يعلمْ أنْ يتعلّم، وإذا سُئِلَ عمّا لايعلمُ أن يقول: لا أعلم؛ ألاَوإن الخامسةَ الصَّبر؛ فإن الصبرَ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجَسَد. مَن لاَصَبْرَ له لا إيمانَ له، ومَن لا رأسَ له لا جَسدَ له. ولاخيْرَ فى قراءة إلاّ بتدبر، ولافى عبادة إلا بتفكُّر،

---

(٩٨) الظعْن: السير والترحال والتنقل.

(٩٩) تشخصهم: تبعدهم وتفرقهم.

(١٠٠) غلت: ربطت ووثقت.

(١٠١) الرَّوْح: الرحمة أوالرزق أوالاستراحة أوالبرد.

(*) العقد الفريد ٤/ ٨٠ونهج البلاغة ٤١٥مع اختلاف.

(١٠٢) تنضوها: تهزلوها وتضمروها من شدة الجهد وطول السفر. ونضا البعيرُ: هزل.

(١٠٣) يقصد: أنكم لن تظفروا بمثل هذه الوصية من غيرى مهما تكبدتم فى سبيل ذلك من مشاق.

ولا في حِلْمٍ إلا بعلم . ألا أنبئكم بالعالِم كُلّ العالِم ، مَنْ لم يُزَيِّن لعبادِ اللهِ مَعاصيَ الله ، ولم يؤمِّنهم مَكْرَه ، ولم يُؤيِسْهم من روْحه (١٠٤) . ولا تُنْزِلُوا المُطِيعين الجَنَّة ، ولا المُذْنِبين المُوَحِّدين النار ، حتى يَقْضِيَ الله فيهم بأمره . لا تأمنوا على خير هذه الأمة عذابَ الله (١٠٥) ، فإنه يقول :

﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (١٠٦)

ولا تُقْنِطوا شَرَّ (١٠٧) هذه الأمة من رحمة الله ،

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١٠٨)

(١٠) شخصية عمرو بن العاص (*)

عَجَبًا لابْنِ النَّابِغَةِ (١٠٩) يَزْعُمُ لأهلِ الشَّامِ أنَّ فِيَّ دُعَابَةً وَأَنِّي امْرُؤٌ تِلْعَابَةٌ (١١٠) أُعَافِسُ وأُمَارِسُ (١١١) لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً ، ونَطَقَ آثِمًا . أَمَا ـ وَشَرُّ القَوْلِ الكَذِبُ ـ إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ ، وَ يَعِدُ فَيُخْلِفُ ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ (١١٢) وَ يُسْأَلُ فَيَبْخَلُ ، وَ يَخُونُ

---

(١٠٤) رحمته .

(١٠٥) أي أن الله قد يعذب من ترونه ـ في الظاهر ـ خيرا فاضلا فالله أعلم بسر يرته وخفاياه .

(١٠٦) الأعراف : ٩٩ .

(١٠٧) أقنطه : جعله قانطا : أي يائساً .

(١٠٨) يوسف: ٨٧ .

(*) نهج البلاغة ٩٥ .

(١٠٩) النابغة: لقب أم عمرو بن العاص واسمها سلمى .

(١١٠) تلعابة : كثير اللعب .

(١١١) المعافسة والممارسة : مداعبة النساء .

(١١٢) الإلحاف : الإلحاح .

العَهد ، وَ يَقْطَعُ الإِلَّ(١١٣) فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَامِرٍ هُوَ(١١٤) ؟؟!! مَالَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَهَا فَإِذَا كَانَ ذِلكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ القَرْمَ سُبَّتَه(١١٥) .

أَمَا وَاللهِ إِنِّى لَيَمْنَعُنِى مِنَ اللَّعِبِ ذِكْرُ الْمَوْتِ ، وَإِنَّهُ لَيَمْنَعُهُ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ نِسْيَانُ الآخِرَةِ ، إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيةً(١١٦) ، و يَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْك الدِّين رَضِيخَةً(١١٧) .

---

(١١٣) الإلّ : القرابة . يصفه بأنه قاطع للرحم .

(١١٤) أى : أنه فى الحرب من أرباب الكلام لاالبطولة .

(١١٥) أى : إذا بدأت الحرب وشعر بالخطر لجأ الى الفرار. والقوم : هو السيد العظيم . والسبّة : العورة . وهو يشير الى مافعله عمرو يوم صفين حين صال عليه علىّ وكاد يضرب عنقه .

(١١٦) الأتية : العطية .

(١١٧) يرضخ له رضيخة : أى يعطيه ولاية مصر .

الشريحة الثانية

الكتب والعهود

(١) إلى أهل الكوفة (*)

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ ، جَبْهَةِ الأَنْصَارِ وَسَنَامِ الْعَرَبِ .
أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّى يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ (١) .

إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ ، فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُكْثِرُ اسْتِعْتَابَهُ (٢) وَأُقِلُّ عِتَابَهُ ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ (٣) ، وَأَرْفَقُ حُدَائِهِمَا الْعَنِيفُ ، وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةُ غَضَبٍ ، فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ ، وَ بَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ .

(*) نهج البلاغة ٢٨٦ . (وبعث بهذا الكتاب عند مسيره من المدينة الى البصرة)

(١) حتى يكون من سمع كمن رأى وذلك يدل على توخي الإمام الصدق فى نقل الخبر .

(٢) الاستعتاب : الاسترضاء .

(٣) الوجيف : ضرب من السير السريع .

وَاعلـمُوا أنَّ دَارَ الْـهـجـرَة(٤) قد قَلَعَتْ بأَهْلِها وَقَلَعُوا بها(٥) ، وَجَاشَتْ جَيْش المِـرْجَـلِ ، وَقَـامَـتِ الْـفِـتْـنة على القُطِبِ(٦) فأسْرِعُوا إلى أَمِيركُمْ ، وَ بَادِرُوا جِهادَ عَدُوِّكُمْ . إنْ شاءَ اللهُ .

(٢) إلى قاضيه شريح بن الحارث (*)

يَا شُرَيْحُ ، أَمَا إنَّهُ سَيَأْتِيك مَنْ لا يَنْظُرُ فى كتابكَ ، وَلا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْـهـا شَاخِصًا(٧) وَ يُسْلِمَكَ إلى قبْرِكَ خَالصًا ، فانْظُرْ يَا شُرَيْحُ لاتَكونُ ابْـتـعْـتَ هـذِهِ الـدَّارَ مِـنْ غـيْـرِ مَالِكَ ، أوْ نَقَدْتَ الثَّمنَ مِنْ غيْرِ حَلالِكَ ! فَإذا أنْتَ قَدْ خسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الآخِرَة !

أَمَا إنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتيْتَنِى عِنْدَ شِرَائِكَ مَا اشْتَريْتَ لكَتَبْتُ لَكَ كِتابًا على هذِهِ النُّسْخةِ ، فَلَمْ ترْغبْ فى شِرَاءِ هذِهِ الدَّارِ بِدِرْهَمٍ فمَافوْق ؛ وَالنُّسْخةُ هذِهِ !

هـذا مَـا اشْـتـرَى عَبْدٌ ذليلٌ ، مِنْ عَبْد قد أُزْعِجَ لِلرَّحيلِ ، اشترى مِنهُ دَارًا مِنْ دَارِ الْـغُـرُورِ ، مِـنْ جَـانب الْفانِين ، وَخطَّة الْهالِكِين(٨) وَتجْمَعُ هذه الدَّارَ حُدُودٌ أرْبَعَةٌ : الْـحَـدُّ الأوَّلُ يَـنتهى إلى دَوَاعِى الآفات ، وَالحَد الثَّانِى يَنْتهى إلى دَوَاعى الْمُصيبَات ، والْـحَـد الـثـالِـث يَـنْـتَـهى إلى الهوى الْمُرْدى(٩) ، وَالحَدُّ الرَّابعُ يَنْتَهِى إلى الشَّيْطان الْمُغْوى(١٠) ، وَفِيهِ يُشْرَعُ(١١) بَابُ هذِهِ الدَّارِ ! .

---

(٤) دار الهجرة : المدينة .

(٥) أى: لم تعد دار استقرار بعد أن خرج أهلها لقتال أهل الفتنة .

(٦) كناية عن اشتداد الفتنة وتسعرها .

(*) نهج البلاغة ٢٨٦ . (وكتبه إليه لأن شريحا اشترى دارا بثمانين دينارا فأشهد على ذلك شهودا) .

(٧) ذاهبا .

(٨) الخطة : الأرض المخططة للبناء أو التعمير .

(٩) القاتل .

(١٠) الذى يقوده الى الغواية والفساد .

(١١) يشرع : يفتح .

اشْتـرَى هَـذَا الْـمُغْتَرُّ بِالأَمَلِ ، مِنْ هذا الْمُزْعَجِ بَالأَجَلِ ، هذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقـناعَةِ ، وَالدُّخُولِ فِى ذُلِّ الطَّلبِ وَالضَّرَاعَةِ فَمَا أَدْرَكَ هَذَا الْمُشْترى فِيمَا اشْتَرَى مِـنـهُ مِـنْ دَرَكٍ(١٢) ، فَعَـلـى مُـبَلْبِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ(١٣)، وَسَالِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ ، وَمُزِيـلِ مُـلْـكِ الـفـرَاعِنَةِ ، مِثْلِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ ، وَتُبَّعٍ وَحِمْيَرَ ، وَمَنْ جَمَعَ الْمَالَ عَلى الْـمَـال فـأَكْـثـرَ ، وَمَـنْ بَـنى وَشَيَّدَ ، وَزَخْرَف وَنجَّدَ(١٤) ، وَادَّخرَ وَاعْتَقدَ(١٥) ونَظَرَ بِـزَعْمِهِ لِلْوَلَد ؛ إِشْخاصُهُمْ جَمِيعاً(١٦) إلى مَوْقِفِ الْعَرْضِ وَالْحِساب ، وَمَوضِعِ الثَّواب والـعـقَـابِ ، إِذَا وَقَـعَ الأَمْرُ بِفصلِ القَضاء ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٧٨ ﴾(١٧) شَهِد عَلى ذَلِكَ العَقل إِذَا خَرجَ مِنْ أَسْر الهوى ، وسلم مِن عَلائِق الدُّنْيا .

(٣) من عهده لمحمد بن أبى بكر حين قلده مصر (*)

فـاخْـفِـضْ لـهُـم جـنَـاحَـكَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانبَك ، وَابْسُطْ لهُمْ وَجْهَك ، وَآسِ(١٨) بَـيْـنَـهُـمْ فِى اللَّـحْـظةِ وَالنَّظْرَةِ ، حَتَّى لاَيَطْمَعَ الْعُظمَاءُ فِى حَيْفِك(١٩) لهُمْ ، وَلاَيَيْأَسَ الـضُّـعَـفـاءُ مِـنْ عَـدْلِك عليْهِمْ ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصغيرَةِ مِن أَعْـمَـالـكـم وَالْكبِيرَةِ ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ ؛ فإنْ يُعَذِّبْ فأَنْتُمْ أَظْلَمُ ؛ وَإنْ يَعْفُ فهُوَ أَكْرَمُ .

---

(١٢) الدرك : التبعة والمراد منه مايضر بملكية المشترى أومنفعته بما اشترى ، و يكون الضمان فيه على البائع .

(١٣) مبلبل الأجسام : مهيج داءاتها المهلكة لها .

(١٤) نجدّ المنزل : ز ينه بستور وفرش .

(١٥) اقتنى .

(١٦) إشخاصهم : مبتدأ مؤخر . والخبر المقدم «على مبلبل ..

(١٧) غافر ٧٨ .

(*) نهج البلاغة ٣٠١ .

(١٨) آس : سوّ .

(١٩) الحيف : الظلم والجور .

وَاعْلَمُوا ، عِبَادَ اللهِ ، أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الآخِرَةِ ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فى دُنْيَاهُمْ ، وَلَمْ يُشَارِكْهُمْ أَهْلُ الدُّنْيَا فى آخِرَتِهِمْ ، سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِىَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ(٢٠) ؛ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ(٢١) ، وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ ؛ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فى دُنْيَاهُمْ ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ غَداً فى آخِرَتِهِمْ ، لاَ تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ ، وَلاَ يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ .

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِى بِأَمْرٍ عَظِيمٍ ، وَخَطْبٍ جَلِيلٍ ؛ بِخَيْرٍ لاَ يَكُونُ مَعَهُ شر أَبَداً ، أَوْشَرٍّ لاَ يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً ! فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا ، وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عاملها ؟

وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ ؛ إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ ، وإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ . الْمَوتُ مَعْقُودٌ بنواصيكُمْ ، وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ .

فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ ، وَحَرُّهَا شديدٌ ، وَعَذابُها جَدِيدٌ(٢٢) ؛ دَارٌ لَيْسَ فيها رَحْمَةٌ ، وَلاَ تُسْمَعُ فِيها دَعْوَةٌ ، وَلاَ تُفَرَّجُ فيها كُرْبَةٌ .

وَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُم مِنَ اللهِ ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ ؛ فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنًّا بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً للهِ .

وَاعْلَمْ يَا مُحَمَّدَ بنَ أَبِى بَكْرٍ ، أَنِّى قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنادِى(٢٣) فى نفسى أَهْلَ مِصْرَ ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخالِفَ عَلَى نَفْسِكَ(٢٤) ، وَأَنْ تُنافِحَ(٢٥) عَنْ دِينِكَ ، وَلَوْ



---

(٢٠) ماسبق من عبارات تفصيل لقوله المجمل « إن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة » أى أن المتقى ينعم من الدنيا بما ينعم به المترفون والجبابرة فى صورته الحلال ثم يفوز بالآخرة أيضا بعمله الصالح .

(٢١) أى : بالتقوى التى تبلغهم الجنة .

(٢٢) أى : مجدد دائما لاينتهى ولايضعف .

(٢٣) الأجناد : جمع جند و يطلق على المدينة والإقليم .

(٢٤) أى : جدير بأن تخالف شهوة نفسك وتنتصر عليها .

(٢٥) تدافع .

لَمْ يَكُنْ لَكَ إلاَّ سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ ، وَلاَ تُسْخِط اللهَ بِرضا أَحَد مِنْ خَلْقِهِ ؛ فإنَّ فى الله خَلَفاً مِنْ غيْرِه ، وَلَيْسَ مِنَ الله خَلَفٌ فى غيْرِهِ(٢٦) .

صَلِّ الصَّلاَةَ لِوَقْتِها الْمُوَقَّتِ لها ، وَلاَ تُعَجِّلْ وَقْتَها لفرَاغ ، وَلاَ تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِها لاشتغال ، وَاعْلمْ أَنَّ كُلَّ شىء مِنْ عَمَلِك تبَعٌ لِصَلاتِك .

ومنه :

فَإِنَّهُ لاَ سَوَاء : إمَامُ الْهُدَى ، وَإِمَامُ الرَّدَى ؛ وَوَلِىُّ النَّبِىِّ ، وَعَدُوُّ النَّبِىِّ . وَلقدْ قالَ لى رَسُولُ الله ــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهِ ــ : **(إِنِّى لاأخاف عَلَى أُمَّتِى مُؤْمناً وَلا مُشْرِكاً ؛ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنعُهُ اللهُ بإيمَانِهِ ، وَأما المُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللهُ بشرْكِه(٢٧) وَلكِنِّى أخاف عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنافق الْجَنان عَالِمِ اللِّسَانِ(٢٨) ؛ يَقُولُ مَاتَعْرِفُونَ ، وَيَفْعَلُ مَاتُنْكِرُونَ) .**

(٤) إلى معاوية بن أبى سفيان (*)

أَمّا بَعْد ، فقدْ أَتانى كتابُكَ تَذْكُرُ فيهِ اصْطِفاء الله مُحَمَّداً ــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ــ لِدِينِهِ ؛ وَتَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَلَقَدْ خبَأَ لنا الدَّهْرُ منْك عَجَباً(٢٩) إذْ طفقْتَ تُخْبِرُنا بِبَلاء(٣٠) الله تعَالَى عِنْدَنا ، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنا فى نبيِّنا ، فكُنْتَ فى ذلِك كناقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ(٣١) أَوْدَاعِى مُسَدِّدِهِ(٣٢) إلَى النِّضال(٣٣) .

---

(٢٦) أى أن رضى الله يغنيك عمن فقدت من عباده بإغضابهم فى الحق وليس هناك من العباد من يغنيك عما فقدت رضى الله .

(٢٧) يقهره ليعلم الناس أنه مشرك فيحذروه.

(٢٨) منافق الجنان : الذى يُسر قلبه ، عالم اللسان : الذى يعرف أحكام الشريعة ، و يسهل عليه أن يقول حقا يعرفه المؤمنون ، و يأتى منكرا ينكرونه .

(*) نهج البلاغة ٣٠٢ . [وهو رد على كتاب من معاوية إلى على]

(٢٩) أى ستر منك أمراً عجيبا ثم اظهره .

(٣٠) البلاء : النعمة والإحسان .

(٣١) هجر: مدينة بالبحرين كثيرة النخيل .

(٣٢) المسدد : معلم رمى السهام .

(٣٣) النضال : التبارى والتسابق فى الرمى .

وَزَعَمْتَ أن أفضلَ الناس في الإسلام فُلان وَفُلانٌ (٣٤)، فَذَكَرْتَ أمراً إن تَمَّ اعتزَلك كُلُّهُ (٣٥) وَانْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْك ثَلْمُهُ (٣٦)، وَمَا أنْتَ وَالْفاضِلَ وَالمفضُولَ، وَالسَّائس والمُسوسَ وَمَا للطلقاء وأبْناء الطلقاء، وَالتَّمْييزَ بيْن المُهاجرينَ الأوَّلينَ، وَترْتيبَ دَرَجاتهمْ، وتعْريفَ طبَقاتهمْ! هَيْهاتَ، لقدْ حَنَّ قِدْحٌ ليْسَ مِنْها (٣٧) وَطفِقَ يَحْكُمُ فيها مَنْ عَليْهِ الْحُكْمُ لها.

ألاَ تَرْبَعُ أيُّها الإنْسانُ عَلى ظَلْعِك (٣٨) وَتعْرفُ قُصُورَ ذَرْعِك (٣٩)، وَتتأخَّرُ حَيْثُ أخَّرَك الْقدَرُ! فَما عَليْك غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ وَلاَ ظَفَرُ الظَّافِرِ، وَإنَّك لَذَهَّابٌ في التِّيهِ (٤٠) رَوَّاغٌ عَن الْقصْدِ (٤١).

ألاَ ترَى — غَيْرَ مُخْبرٍ لَكَ — وَلكنْ بنِعْمَةِ الله أُحَدِّثُ أنَّ قَوْماً اسْتشْهدُوا في سَبيلِ الله مِنَ الْمُهاجرينَ وَالأنْصارِ — وَلكُلٍّ فَضْلٌ — حَتى إذا اسْتُشْهد شهيدُنا قيلَ: سَيِّدُ الشُّهداء (٤٢)، وَخصَّهُ رَسُولُ الله — صَلَّى اللهُ عَليْهِ وَآلِهِ — بسبْعينَ تكبيرة عِنْد صَلاتِهِ عَليْهِ (٤٣)!

أوَ لاَ ترَى أنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أيْديهمْ في سَبيل الله — وَلكلٍّ فَضْلٌ — حَتى إذا فُعِلَ بوَاحدنا مَا فُعِلَ بوَاحدهِم قِيلَ: الطَّيَّارُ في الجَنَّةِ، وَذُو الْجَناحين (٤٤).

---

(٣٤) أبو بكر وعمر.

(٣٥) إن صح ماذكرت لهم من فضل فلانصيب لك فيه.

(٣٦) وإن نقص فلا عار عليك لأنك لست من هذا في شيء.

(٣٧) حنّ: صوت منهم).

(٣٨) لاتحمل على نفسك أكثر مما تطيق. وربع: وقف. والظلع: العرج.

(٣٩) الذرع: القدرة والإمكانة.

(٤٠) التيه: الغرور والضلال.

(٤١) ميال ومبعد عن الاعتدال.

(٤٢) هو: حمزة بن عبد المطلب.

(٤٣) انظر سيرة ابن هشام ٣/١٢.

(٤٤) هو: جعفر بن أبي طالب الذي قطعت يداه واستشهد في غزوة مؤته كما استشهد في هذه الغزوة كذلك زيد بن حارثة وعبد الله ابن رواحة [انظر سيرة ابن هشام ٣/٢٨٠].

وَلـوْلاَ مَانَهَى اللهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نفسَهُ لذَكرَ ذاكرٌ فَضَائلَ جَمَّةً تعْرِفُها قُلُوبُ المُؤمنينَ ، وَلاَ تمُجُّها آذانُ السَّامعين .

فـدَعْ عَـنْك مَنْ مَالتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ(٤٥) ، فَإنَّا صَنائعُ ربِّنا ، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنائعُ لنا ، لـمْ يَـمْنعْنا قديمُ عِزِّنا وَلاَعَادِيُّ طَوْلنا(٤٦) عَلَى قَومك أنْ خَلَطْناكُمْ بأنْفُسِنا ، فَنَكحْنا وَأنْكحْنا ؛ فعْلَ الأكْفاءِ ، وَلسْتُمْ هُناك ! وأنّى يكونُ ذلِك كذلك ، وَمِنَّا النبيُّ ومنكم الـمُـكـذِّبُ(٤٧) ؟ وَمِـنَّـا أسَدُ الله(٤٨) وَمِنْكُم أسَدُ الأحْلاَف(٤٩) ومنَا سَيِّدَا شَبَاب أهلِ الْجَنَّةِ(٥٠) وَمِنْكُمْ صِبْيَة النَّار(٥١) وَمِنَّا خيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمين(٥٢) وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْـحَـطَـب(٥٣) فى كـثـيـرٍ مِـمَّـا لـنـا وعَـلـيْـكُـمْ(٥٤) فإسْلاَمُنا مَاقدْ سُمِعَ وَجَاهليَّتُنا لاَ تُدْفَعُ(٥٥) ، وكتابُ الله يَجْمَعُ لنا مَا شذَّ عَنَّا وَهُوَ قوْلُهُ :

﴿ وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ (٥٦)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (٥٧) فَنَحْنُ مَرَّةً أوْلَى بالقَرابَةِ ، وتَارَة أولى بالطَّاعَةِ .

---

(٤٥) مثل يضرب لمن اعوج غرضه فمال عن الاستقامة لطلبه . والرمية : الصيد يرميه الصائد . مالت به : خالفت قصده فاتبعها .

(٤٦) العاديّ : القديم . والطول : الفضل .

(٤٧) المكذب : أبوسفيان .

(٤٨) حمزة .

(٤٩) أبوسفيان ؛ (لأنه حزب الأحزاب يوم الخندق) .

(٥٠) الحسن والحسين .

(٥١) قيل : هم أولاد مروان بن الحكم .

(٥٢) فاطمة بنت النبى ــ عليه السلام ــ .

(٥٣) زوجة أبى لهب أم جميل بنت حرب . وهى عمة معاوية .

(٥٤) أى:هذه الفضائل المعدودة لنا ، وأضدادها المسرودة لكم قليل فى كثير مما لنا وعليكم .

(٥٥) شرفنا فى الجاهلية لا يستطيع أحد إنكاره .

(٥٦) الأحزاب ٦ .

(٥٧) آل عمران ٦٨ .

وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهاجِرُونَ عَلَى الأنْصارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ برسول الله ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ فَلَجُوا عَلَيْهِم (٥٨) فإن يَكنِ الْفَلَجُ به فالحق لنا دُونكُمْ ، وإنْ يَكنْ بِغيره فالأنصارُ عَلَى دَعواهُمْ (٥٩) .

وَزعَمْتَ أنّى لكُلِّ الْخُلفاءِ حَسَدْتُ ، وَعَلَى كُلِّهِمْ بَغيْتُ ! فإنْ يَكُنْ ذلِك كذلِك فليْسَ الْجِنايَةُ عليك ، فيَكونَ الْعُذْرُ إليك :

* وتلك شَكَاةٌ ظاهِرٌ عَنْك عارُهَا (٦٠) *

وَقُلْتَ : «إنِى كُنْتُ أقادُ كما يُقادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حتى أُبايِعَ (٦١) وَلعَمْرُ الله لقدْ أرَدْتَ أنْ تَذُمَّ فمَدَحْتَ ، وأنْ تَفْضَحَ فافتضحْتَ ! ومَا عَلى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضةٍ فى أنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مالمْ يَكن شاكّاً فى دِينِهِ . وَلاَ مُرْتاباً بِيقينه !

وهذهِ حُجتِّى إلَى غَيْرك قَصْدُهَا (٦٢) وَلكنّى أطلقْتُ لك مِنْها بِقدْرِ ما سَنح (٦٣) مِن ذِكْرِهَا .

ثُمَّ ذكَرْتَ مَا كان مِنْ أمْرِى وَأمْرِ عُثْمَان ، فَلَكَ أنْ تُجَابَ عَنْ هذه لرحمك مِنهُ ، فأيُّنا كان أعدى لهُ (٦٤) وأهْدَى إلى مقاتِلِهِ (٦٥) أمَنْ بَذلَ لهُ نُصْرَتَهُ (٦٦) فاستقعدهُ واستكفَّهُ (٦٧) أمَّن اسْتنْصَرَهُ فَتَراخى عَنْهُ وَبَثَّ الْمَنُونَ إليه (٦٨) حَتَّى أتى قَدَرُهُ

---

(٥٨) الفلج : بفتح الأول وسكون الثانى : الظفر والفوز يقال فلج على خصمه أى انتصر عليه .

(٥٩) يقصد الإمام على أن احتجاج المهاجرين بالنبى ــ عليه السلام ــ يرجح عليا على معاوية وغيره لأنه أدنى الناس قرابة منه . وإن لم يصدق المهاجرون . فدعونى الأنصار ناهضة .

(٦٠) الشكاة : النقيصة . ظاهر : بعيد . يقول له : مالك والخفاء ولست منهم فى شىء .

(٦١) يتهم معاوية عليا بأنه كان يجبر على مبايعة الخفاء الذين تولوا قبله كالبعير المخشوش الذى يوضع فى أنفه خشاش أى عود يشد به الزمام ليكون أسرع لانقياده .

(٦٢) أى أنه يحتج على حقه لغير معاوية لأنه غير جدير بالاحتجاج عليه .

(٦٣) سنح : ظهر وعرض .

(٦٤) أشد عدواناً .

(٦٥) المقاتل : وجوه القتل .

(٦٦) هو الإمام على .

(٦٧) هو عثمان إذ طلب قعود على ورفض نصرته .

(٦٨) استنصر عثمان بمعاوية وعشيرته من بنى أمية ولكنهم لم يسعفوه إلى أن قتل فكأنهم هم الذين قتلوه بتخاذلهم .

عَلَيْهِ ؟ ! كلاّ وَاللهِ لقدْ عَلِمَ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ [٦٩] والقائلين لإخوانِهِمْ هَلُمَّ إليْنا ، وَلاَ يأتُونَ الْبَأسَ إلاّ قليلاً [٧٠] .

وما كُنْتُ لأعْتذِرَ مِنْ أنّى كُنْتُ أنْقِمُ عَلَيْهِ أحْداثاً [٧١] فإنْ كانَ الذّنْبُ إليْهِ إرشادِى وَهِدَايَتِى لهُ ، فرُبَّ مَلُومٍ لاَذَنْبَ لهُ .

* وقَدْ يَسْتفيدُ الظِّنَّةَ الْمُتنصِّح [٧٢] *

وَمَا أرَدْتُ إلاّ الإصْلاَحَ مَا اسْتطَعْتُ ، ومَا توْفيقى إلاّ باللهِ عَلَيْهِ توَكَّلْتُ وإليْهِ أنِيبُ .

وَذكَرْتَ أنّهُ ليسَ لِى وَلأصْحابى عِندَكَ إلاّ السَّيفُ ، فلقدْ أضْحَكْتَ بَعْدَ استعْبَارٍ [٧٣] مَتَى ألفيْتَ بَنى عَبْدِ الْمُطّلبِ عَنِ الأعْدَاءِ ناكلينَ [٧٤] و بالسَّيْفِ مُخوَّفِينَ .

* لبِّثْ قليلاً يَلْحَق الْهَيْجَا حَمَلْ * [٧٥]

فسَيَطْلُبُكَ مَنْ تطْلُبُ ، وَ يَقْرُبُ مِنْكَ مَا تسْتبعِدُ ، وَأنا مُرْقِل [٧٦] نحْوَكَ فى جَحْفلٍ مِنَ الْمُهاجرينَ والأنصَار ، وَالتَّابعينَ لهم بإحسان . شديد زِحَامُهُمْ ، سَاطِعٍ [٧٧] قَتَامُهُمْ [٧٨] مُتسَرْبِلين سَرَابِيلَ الْمَوْتِ ، أحَبُّ اللّقاءِ إليْهِمْ لقاءُ

---

(٦٩) المعوقين : المثبطين المانعين من النصرة .

(٧٠) فى القرآن الكريم « قد يعلمُ اللهُ المعوقين منكم والقائلين لإخوانِهم هلمَّ إلينا ولا يأتون البأسَ إلا قليلا » الأحزاب ١٨ .

(٧١) أحداثا : جمع حدث .

(٧٢) الظنة : التهمة . المتنصح : الناصح .

(٧٣) استعبار: بكاء . وفى العبارة سخرية واستهانة بمعاوية وقوته .

(٧٤) ناكلين : متأخرين .

(٧٥) لبث : تمهل . الهيجا : الحرب . حمل : هو حمل بن بدر: أغير على إبله فى الجاهلية فاستنقذها وقال :
لبث قليلا يلحق الهيجا حمل   لا بأس بالموت إذا الموت نزل
فصار مثلا يضرب للتهديد بالحرب .

(٧٦) مرقل : مسرع .

(٧٧) ساطع : ينتشر .

(٧٨) القتام : الغبار .

رَبِّهِمْ ، قَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ (٧٩) وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِى أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ (٨٠)

﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ (٨١) .

(٥) من وصيته للحسن والحسين (*)

أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللهِ ، وَأَنْ لاَ تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا (٨٢) وَلاَ تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِىَ عَنْكُمَا (٨٣) ، وَقُولاَ بِالْحَقِّ وَاعْمَلاَ لِلأَجْرِ ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا .

أُوصِيكُمَا ، وَجَمِيعَ وَلَدِى وَأَهْلِى وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِى ، بِتَقْوَى الله ، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ ، وَصَلاَحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ ؛ فَإِنِّى سَمِعْتُ جَدَّكُمَا — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ — يَقُولُ : (صَلاَحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلاَةِ ، وَالصِّيَامِ) .

اللهَ اللهَ فِى الأَيْتَامِ ؛ فَلاَ تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ (٨٤) ، وَلاَ يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ .

واللهَ اللهَ فِى جِيرَانِكُمْ ؛ فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ ، مَازَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ (٨٥) .

واللهَ اللهَ فِى الْقُرْآنِ ؛ لاَ يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ .

وَاللهَ اللهَ فِى الصَّلاَةِ ؛ فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ .

---

(٧٩) أبناء أهل بدر.

(٨٠) أخوه : حنظلة ، وخاله : الوليد بن عتبة وجده : عتبة بن ربيعة .

(٨١) هود ٨٣ .

(*) نهج البلاغة ٣٣٠ (وكان ذلك بعد أن ضربه ابن ملجم) .

(٨٢) أى : لا تطلباها وإن طلبتكما .

(٨٣) زوى : قبض و بعد .

(٨٤) أى : اجعلوا إحسانكم إليهم متصلا ولا تقطعوا عنهم الطعام . وقال : أغبّ فلان القوم : أتاهم غبا (بكسر الأول) أى زارهم يوما وترك يوما .

(٨٥) أى : سيجعل لهم نصيبا فى الميراث . ونص الحديث « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

وَاللهَ اللهَ فى بَيْتِ رَبِّكُمْ ؛ لاَتُخَلُوهُ مَابَقِيتُمْ ؛ فَإِنهُ إنْ تُرِكَ لم تُنَاظَرُوا(٨٦) .

وَاللهَ اللهَ فى الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فى سَبِيلِ اللهِ .

وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ(٨٧) ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدابُرَ وَالتَّقَاطُعَ ، لاَتتْرُكُوا الأمْرَ بالْمَعرُوفِ ، وَالنَّهْىَ عَنِ المُنْكَرِ ، فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ ثُمَّ تَدْعُونَ فَلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ .

ثُمَّ قَالَ :

يَا بَنى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُلْفِيَنَّكُم(٨٨) تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوضاً (٨٩) ، تقُولُونَ : قُتِلَ أميرُ الْمُؤمِنينَ ! قُتِلَ أميرُ الْمُؤْمنين ، ألالاَتَقْتُلُنَّ بى إلاَّقَاتِلى .

انْظُرُوا إذَا أنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هٰذِهِ فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ ، وَلايُمَثَّلُ بالرَّجُلِ (٩٠) ، فإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ــ يَقُولُ : « إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ ، وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ(٩١) .

(٦) إلى أمرائه على الجيوش (*)

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِيِّ بْنِ أبى طَالِبٍ ــ أميرِ الْمُؤْمنين ــ إلىَ أَصْحَابِ الْمَسَالِحِ (٩٢) : أمَّابَعْدُ ؛ فَإِنَّ حَقّاً عَلَى الْوَالِى أنْ لايُغَيِّرَهُ عَلى رَعِيَّتِه فَضْلٌ نَالَهُ ، وَلاَطَوْلٌ خُصَّ بِهِ(٩٣) وأنْ يَزِيدَهُ مَاقَسَمَ اللهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوّاً (٩٤) مِنْ عِبَادِهِ ، وَعَطْفاً عَلَى إِخْوانِهِ .

---

(٨٦) أى لا ينظر إليكم بتقدير وتجلة .

(٨٧) مداولة البذل والعطاء .

(٨٨) لا أجدنكم .

(٨٩) تسرفون فى إراقة دمائهم انتقاما لدمى .

(٩٠) التمثيل : تشويه الجسد .

(٩١) الكلب العقور: هو المسعور الكثير العض .

(*) نهج البلاغة ٣٣١ .

(٩٢) المسالح : الثغور: جمع مسلحة .

(٩٣) الطول : الفضل العظيم .

(٩٤) اقترابا .

أَلاَ وإِنَّ لَكُمْ عِنْدِى أَنْ لاَ أَحتجزَ دُونكُمْ سِرًّا إلاَّ فى حَرْبٍ وَلاَ أَطْوِىَ دُونكُمْ أمراً إلاَّ فى حُكْمٍ(٩٥) ، وَلاَ أُوخر لكُمْ حَقًّا عَنْ مَحَلِّهِ ، وَلاَ أَقِفَ بهِ دُونَ مَقْطَعِهِ(٩٦) . وأَنْ تكُونُوا عِنْدِى فى الْحَقِّ سَواء ؛ فَإِذا فَعَلْت ذلِك وَجَبَتْ للهِ عَلَيْكُمْ النِّعْمَةُ ؛ وَلى عَلَيْكُمْ الطَّاعةُ ؛ وَأَنْ لاَتَنْكُصُوا عَنْ دَعْوَة(٩٧) وَلاَتُفَرِّطُوا فى صَلاَحٍ ، وَأَنْ تَخُوضُوا الْغَمَرَات إلى الْحَقِّ(٩٨) ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَم تَسْتَقِيمُوا لِى عَلَى ذلِكَ ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَىَّ مِمَّنِ اعْوجَّ مِنْكُمْ ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ وَلاَيَجدُ عِنْدى فِيهَا رُخْصَةً .

فخذوا هذا من أُمَرَائِكُمْ ، وَأَعْطُوهُم مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللهُ بِهِ أَمْرَكُمْ ، وَالسَّلامُ .

(٧) إلى أمرائه على الخراج (*)

مِنْ عَبْدِ اللهِ عَلِىٍّ — أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ — إِلَى أَصْحَابِ الْخَرَاجِ :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيهِ (٩٩) لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَايُحْرِزُهَا(١٠٠)

وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا كُلِّفْتُمْ يَسِيرٌ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ. وَلَوْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللهُ عنه مِنَ الْبَغْى وَالعُدوَانِ عِقابٌ يُخَافُ ، لكَانَ فى ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ(١٠١) مَالاَ عُذْرَ فى تَرْكِ طَلَبِهِ .

فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَاصْبِرُوا لِحَوائِجِهِمْ ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ(١٠٢) ، وَوُكَلاَءُ الأُمةِ ، وَسُفَراء الأَئِمَّةِ . وَلاَتُحْشِمُوا أَحَدًا عَنْ

---

(٩٥) يقصد الحكم فى مسألة ورد فيها نص صريح لا يحتمل المشورة والمناقشة .

(٩٦) حده .

(٩٧) النكوص : الإحجام والامتناع .

(٩٨) الغمرات : الشدائد .

(*) نهج البلاغة ٣٣٢ .

(٩٩) نتيجة عمله وعاقبته

(١٠٠) يحرزها : يقيها ويحميها .

(١٠١) تركه .

(١٠٢) خزّان الرعيّة : حفظة أموالها . والمفرد : خازن .

حاجتِهِ(١٠٣) وَلاَ تَحْبِسُوهُ عَنْ طَلِبَتِهِ ، وَلاَ تَبِيعُنَّ النَّاسَ فى الْخَرَاجِ كُسْوَةَ شتاء وَلاَ صَيْف ، وَلاَ دَابَّةً يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا وَلاَ عَبْدًا(١٠٤) ، وَلاَ تَضْرِبُنَّ أَحَدًا سَوْطاً لِمَكَانِ دِرْهَمٍ ، وَلاَ تَمَسُّنَّ مَالَ أَحَدٍ مِنَ النَّاس مُصَلٍّ وَلاَ مُعَاهَد ، إلاَّ أَنْ تَجِدُوا فَرَساً أَوْسِلاَحاً يُعْدَى(١٠٥) بِهِ عَلَى أَهْلِ الإسْلاَمِ ، فإنَّهُ لاَ يَنْبَغِى لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدَعَ ذلِكَ فى أَيْدِى أَعْدَاءِ الإسْلاَمِ فَيَكُونَ شَوْكَةً عَلَيْهِ .

وَلاَ تَدَّخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً ، وَلاَ الْجُنْدَ حُسْنَ سِيرَةٍ ، وَلاَ الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً ، وَلاَ دِينَ اللهِ قُوَّةً(١٠٦) .

وَأَبْلُوا(١٠٧) فى سَبِيلِ الله مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ فَإنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ ، قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنَا وعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا(١٠٨) ، وَأَنْ نَنْصُرهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا ، وَلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ الْعَلِىِّ العظيم .

(٨) إلى طلحة والزبير (*)

أَمَّا ؛ بَعْدُ ؛ فَقَدْ عَلِمْتُمَا وَإنْ كَتَمْتُمَا أَنِّى لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّى أَرَادُونِى ، وَلَمْ أُبَايِعْهُمْ حَتَّى بَايَعُونِى ، وَإنَّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِى وَبَايَعَنِى ، وَإنَّ الْعَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِى لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ ، وَلاَ لِعَرَضٍ حَاضِرٍ(١٠٩) ، فَإنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِى طَائِعَيْنِ فَارْجِعَا وَتُوبَا إلَى اللهِ مِنْ قَرِيبٍ ، وَإنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِى كَارِهَيْنِ فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِى عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ(١١٠) باظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ ، وَإسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ .

---

(١٠٣) أحشمه : أغضبه وآذاه : أى لا تغضبوا أحدا وتؤذوه بسبب طلبه حاجته .

(١٠٤) أى لا تدفعوا أحدا لبيع شيء مما ذكر لأداء ما عليه من خراج .

(١٠٥) يتهجم و يعتدى .

(١٠٦) أى ابذلوا أقصى ما فى وسعكم لنصح أنفسكم ومحاسبتها ، ولتكونوا قدوة حسنة لجندكم ومعونة لرعيتكم وقوة لدينكم .

(١٠٧) أبلوا : أدّوا .

(١٠٨) أى أن الله قد طلب منا ومنكم أن نشكره بكل جهدنا .

(*) نهج البلاغة ٣٤٨ .

(١٠٩) أى : طمعا فى مال حاضر عندى .

(١١٠) السبيل : الحجة .

وَلَعَمْرِى مَا كُنْتُمَا بِأَحَقِّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ وَالْكِتْمَانِ ، وَإِنَّ دَفْعَكُمَا هَذَا الأَمْرَ(١١١) قَبْلَ أَنْ تَدْخُلاَ فِيهِ كَانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُمَا مِنْ خُرُوجِكُمَا مِنْهُ بَعْدَ إِقْرَارِكُمَا بِهِ .

وَقَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّى قَتَلْتُ عُثْمَانَ ، فَبَيْنِى وَبَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّى وَعَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ امْرِىءٍ بِقَدْرِ مَا احْتَمَلَ(١١٢)

فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا فَإِنَّ الآنَ أَعْظَمَ أَمْرِكُمَا الْعَارُ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَجَمَّعَ الْعَارُ وَالنَّارُ(١١٣) ، وَالسَّلاَمُ .

(٩) كتابه للأشتر النخعى (*)

بسم اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ ـ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ـ مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الأَشْتَرَ فِى عَهْدِهِ إِلَيْهِ ، حِينَ وَلاَّهُ مِصْرَ ؛ جِبَايَةَ خَرَاجِهَا ، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا ، وَاسْتِصْلاَحَ أَهْلِهَا ، وعِمَارَةَ بِلاَدِهَا .

أَمَرَهُ بِتَقْوَى الله ، وإِيثَارِ طَاعَتِهِ ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِى كِتَابِهِ ؛ مِنْ فَرَائِضِهِ ، وَسُنَنِهِ ، الَّتِى لاَ يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلاَّ بِاتِّبَاعِهَا ، وَلاَ يَشْقَى إِلاَّ مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا ؛ وَأَنْ يَنْصُرَ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ ـ بِقَلْبِهِ وَيَدِهِ وَلِسَانِهِ ؛ فَإِنَّهُ ـ جَلَّ اسْمُهُ ـ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ(١١٤) .

---

(١١١) يقصد خلافته .

(١١٢) أى فليحكم المجاهدين من أهل المدينة الذين اعتزلونى واعتزلوكم ولتقع التبعة ـ نزولا على حكمهم على من أسهم فى قتل عثمان .

(١١٣) أى : أنكما الآن فى عار وخطيئة بخروجكما علىّ ، وإن لم ترجعا صرتم إلى شر من ذلك حين تجمعان يوم القيامة إلى عاركم عذاب النار.

(*) نهج البلاغة ٣٣٣ .
(وقد كتبه إليه لما ولاه على مصر وأعمالها حين اضطراب أمر أميرها محمد بن أبى بكر. وهو أطول عهد له وأجمع كتبه لمحاسن الفكر واللغة والبلاغة .

(١١٤) وذلك فى مثل قوله تعالى « إن تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم » محمد ٧ .

وَأمَرَهُ أنْ يَكْسِرَ مِنْ نَفْسهُ عِنْدَ الشَّهَوَاتِ ، وَيَزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ (١١٥) ؛ فَإنَّ النَّفْسَ أمَّارَةٌ بالسُّوءِ ، إلاَّ مَارحِمَ الله .

ثُمَّ اعْلَمْ يَامَالِكُ : أنّى قَدْ وَجَّهْتُكَ إلَى بلاَد قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ ، وَأنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أمورِكَ فى مِثْلِ ما كنْتَ تَنْظُرُ فيهِ مِنْ أمورِ الوُلاَةِ قَبْلك و يقُولُونَ فيكَ مَا كنت تقولهُ فيهم ، وَإنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالحِينَ بِمَا يُجْرِى اللهُ لهُمْ عَلَى ألْسُنِ عِبَادِهِ ، فَلْيَكُنْ أحَبَّ الذَّخَائِرِ إلَيْكَ ذَخِيرةُ العَمَلِ الصَّالِحِ ، فامِلكْ هَواكَ ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لاَيَحلُّ لَكَ (١١٦) فَإنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الإنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أحَبَّتْ أوْ كَرِهَتْ .

وَأشْعِرْ قلبكَ الرَّحْمَةَ للرَّعيَّةِ ، وَالمَحَبَّةَ لَهُمْ ، وَاللطف بهم ، وَلاَتكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أكْلهُمْ فَإنَّهُمْ صنفَان : إمَّا أخ لَكَ فى الدِّين وَإمَّا نَظيرٌ لَكَ فى الخَلْقِ ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ (١١٧) ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ العِلَلُ ، وَيُؤْتَى عَلَى أيْديهِمْ فى العَمْدِ وَالخَطأ ، فَأعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ ، مِثْلَ الَّذى تُحِبُّ أنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ ، فَإنَّكَ فَوْقَهُمْ ، وَوَالى الأمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ ، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلاَّكَ ، وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أمْرَهُمْ (١١٨) وَابْتَلاَكَ بِهِمْ .

وَلاَ تَنْصِبَنَّ نفسَكَ لِحَرْبِ الله (١١٩) فَإنَّهُ لاَيَدَى لَكَ بنقْمَتِهِ (١٢٠) ، وَلاَغِنى بكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ ولا تندمن على عفو ولا تبجحن (١٢١) بعقوبة ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة (١٢٢) ، وَلاَتقُولَنَّ : مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأطَاعُ فَإنَّ ذَلِكَ إدْغَالٌ (١٢٣) فى القَلْب ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدينِ ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الغير (١٢٤) .

---

(١١٥) يزع : يكف . والجمحات : الاندفاعات إلى المطامع والشهوات .
(١١٦) كن ضنينا بنفسك عن أن تقع فى حرام .
(١١٧) الخطأ .
(١١٨) أى طلب منك أن تقضى حاجتهم وتكفيهم مايريدون .
(١١٩) أى مخالفة بالظلم والجور .
(١٢٠) أى لاقدرة لك على مواجهة انتقام الله وغضبه .
(١٢١) لا تفرح بعقاب أنزلته بمخطىء .
(١٢٢) أى لا تسرع إلى الغضب ماوجدت منه مخرجا .
(١٢٣) إفساد له .
(١٢٤) أى : يسرع بك إلى النوازل .

وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً(١٢٥) فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ(١٢٦)، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ(١٢٧) وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ(١٢٨).

إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللهِ فِي عَظَمَتِهِ(١٢٩) وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ.

أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمْ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ(١٣٠) وَكَانَ للهِ حَرْباً حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ، مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ، فَإِنَّ اللهَ يَسْمَعُ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ وَأَجْمَعُهَا لِرِضَا الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَا الْخَاصَّةِ(١٣١) وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَا الْعَامَّةِ. (١٣٢)

وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ — وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ(١٣٣) وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الْإِعْطَاءِ،

---

(١٢٥) العجب والخيلاء.

(١٢٦) يخفض من جماح نفسك.

(١٢٧) الغرب: الحدة.

(١٢٨) يُرجع إليك ما غاب من عقلك.

(١٢٩) المساماة: المباراة في السمو.

(١٣٠) أدحض حجته: أبطلها.

(١٣١) يجحف به: أي يذهب به فلا يكون له أثر.

(١٣٢) وذلك لأنهم سواد الناس وصوتهم منتشر.

(١٣٣) الإلحاف: الإلحاح والشدة في السؤال.

وَأَبْطأ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ (١٣٤) — مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ ، وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ — وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ وَالْعُدَّةُ لِلأَعْدَاء — الْعَامَّةُ من الأمة ، فليكن صَغْوُكَ (١٣٥) لَهُمْ ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ .

وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ ، وَأَشْنَأُهُمْ (١٣٦) عِنْدَكَ ، أَطْلَبُهُمْ لمعايب النَّاسِ (١٣٧) فَإِنَّ فِى النَّاسِ عُيُوباً الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا ، فَلاَ تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَاظَهَرَ لَكَ ، وَاللهُ يَحْكُمُ عَلى مَاغَابَ عَنْكَ ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَااستَطَعْتَ ، يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَاتُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ .

أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ ، واقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ (١٣٨) ، وَتَغَابَ (١٣٩) عَنْ كُلِّ مالايَضِحُ (١٤٠) لَكَ ، وَلاَتَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ ؛ فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بالنَّاصِحِينَ . ولاَ تُدْخِلَنَّ فى مَشُورَتِكَ بَخِيلاً يَعْدِلُ بِكَ عن الْفَضْلِ ، وَ يَعِدُكَ الْفَقْرَ (١٤١) ، وَلاَ جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الأُمُورِ ، وَلاَ حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ (١٤٢) بِالْجَوْرِ فَإِنَّ الْبُخْلَ والْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى ، يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ .

إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلأَشْرَارِ قَبْلَكَ وزيراً ، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فى الآثامِ فَلاَ يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً (١٤٣) ، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الأَثَمَةِ ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ (١٤٤) خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ

---

(١٣٤) ملمات الدهر: نوازله .

(١٣٥) الصُّغْو والصَّغو: الذل والرضاء بالضيم . و يقصد به هنا لين الجانب .

(١٣٦) أبغضهم .

(١٣٧) ذلك الذى يتعقب عيوب الناس و ينقب عنها .

(١٣٨) الوتر: العداوة .

(١٣٩) تغافل .

(١٤٠) يظهر و يتضح .

(١٤١) يخوفك منه .

(١٤٢) الشره : الطمع والحرص الشديد .

(١٤٣) بطانة الرجل : خاصته .

(١٤٤) بدلا منهم .

وَأَوْزَارِهِمْ (١٤٥) ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِماً عَلَى ظُلْمِهِ وَلاَ آثِماً عَلَى إِثْمِهِ ؛ أُولٰئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً ، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً ، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفاً ، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفاً .

فَاتَّخِذْ أُولٰئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلاَتِكَ ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ (١٤٦) ، وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ ، وَاقِعاً ذٰلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ .

وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدق ، ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَنْ لاَ يُطْرُوكَ (١٤٧) وَلاَ يُبْجِحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ (١٤٨) ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ (١٤٩) .

وَلاَ يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ ؛ فَإِنَّ فى ذلك تَزْهِيداً لأَهْلِ الإِحْسَانِ فى الإحسان وتدريبا لأهل الإِسَاءَةِ عَلَى الإِسَاءَةِ ، وَأَلْزِمْ كُلاًّ مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ (١٥٠) .

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلى حُسْنِ ظَنِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ وَتَخْفِيفِهِ الْمَؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ (١٥١) ، فَلْيَكُنْ مِنْكَ فى ذٰلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً (١٥٢) طَوِيلاً ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلاَؤُكَ عِنْدَهُ ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ (١٥٣) بَلاَؤُكَ عِنْدَهُ .

---

(١٤٥) ذنوبهم وآثامهم .
(١٤٦) ليكن أفضلهم عندك تكثلا قولا ومصارحة بالحق ولو كان مرا .
(١٤٧) الإطراء : الإسراف فى المدح .
(١٤٨) أى يفرحوك بأن ينسبوا اليك عملا لم تفعله .
(١٤٩) يقصد بالعزة : الكبر .
(١٥٠) فالمسيء قد ألزم نفسه استحقاق العقاب ، والمحسن ألزمها استحقاق الكرامة .
(١٥١) قبلهم : عندهم .
(١٥٢) تعبا .
(١٥٣) يقصد بالبلاء : مطلق العمل .

ولاَ تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هٰذِهِ الأُمَّةِ (١٥٤)، وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ؛ وَلاَ تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ فَيَكُونَ الأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، والْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْها.

وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلاَدِكَ، وإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لاَ يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلاَّ بِبَعْضٍ، وَلاَ غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ؛ فَمِنْهَا جُنُودُ اللهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ والْخَاصَّةِ، وِمنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ وَمِنْهَا عُمَّالُ الإِنْصَافِ والرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ، وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللهُ لَهُ سَهْمَهُ (١٥٥). وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْسُنَّةِ نَبِيِّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـ عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً.

فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلاَةِ، وَعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ الأَمْنِ، وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِهِمْ، ثُمَّ لاَ قِوَامَ للجنُودِ إِلاَّ بِمَا يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ، الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ، وَ يَكُونُ مِنْ وَرَاءِ، حَاجَتِهِمْ (١٥٦).

ثُمَّ لاَ قِوَامَ لِهٰذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلاَّ بالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَّالِ وَالْكُتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ (١٥٧) وَ يَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ، و يُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الأُمُورِ وَعَوَامِّهَا، ولاَ قوامَ لَهُمْ جميعا إِلاَّ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ

---

(١٥٤) صدور الأمة أئمتها.
(١٥٥) سهمه: نصيبه من الحق.
(١٥٦) أي يكون محيطا بجميع حاجاتهم دافعا لها.
(١٥٧) المعاقد: العقود.

عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ (١٥٨) و يُقيمُونَهُ مِنْ أسوَاقِهِمْ ، وَ يَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ (١٥٩) بأيْدِيهِمْ مَالاَ يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ (١٦٠) .

ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ والْمَسْكَنَةِ الَّذينَ يَحِقُّ رِفْدُهُم (١٦١) وَمَعُونَتُهُمْ .

وَفِى اللهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِى حقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ .

وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِى مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ ذُلِكَ إلاَّ بالاهْتِمَامِ وَالأسْتِعَانَةِ بِالله ، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أوْثَقُلَ .

فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أنْصَحَهُمْ فِى نَفْسِكَ لِله وَلِرَسُولِهِ وَلإمَامِكَ ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً (١٦٢) وَأفْضَلَهُمْ حِلْماً (١٦٣) ؛ مِمَّنْ يُبْطِىءُ عَنِ الْغَضَبِ ، وَ يَسْتَرِيحُ إلى الْعُذْرِ ، وَ يَرْأفُ بِالضُّعَفَاءِ ، وَيَنْبُو عَلَى الأقْوِيَاءِ (١٦٤) وَمِمَّنْ لاَيُثِيرُهُ الْعُنْفُ ، ولاَيَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ .

ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِى الْمُرُوءاتِ وَالأحْسَابِ وَأَهْلِ البُيُوتَاتِ الصالحة والسَّوابِقِ الحسَنَةِ ثم أهْلِ النَّجْدَةِ والشَّجَاعَةِ ، والسَّخاء والسَّمَاحَةِ فَإنَّهُمْ جماعٌ مِنَ الكرَمِ وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ (١٦٥) .

ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أمورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَان مِنْ وَلَدِهِمَا ، وَلاَ يَتفَاقَمَنَّ فى نفْسِكَ شَىء قَوَّيْتَهُمْ بِهِ (١٦٦) وَلاَ تَحْقِرَنَّ لُطْفاً تعاهدتهم بِهِ وإنْ قَلَّ (١٦٧) ، فانَّهُ دَاعيَةٌ لَهُمْ إلَى بَذْلِ

---

(١٥٨) منافعهم .
(١٥٩) الترفق : التكسب .
(١٦٠) الرفق : الكسب .
(١٦١) رفدهم : مساعدتهم .
(١٦٢) أى أطهرهم قلبا وسريرة .
(١٦٣) عقلا
(١٦٤) ينبوعليهم : يشتد عليهم حتى لا يظلموا الضعفاء .
(١٦٥) شُعب : جمع شعبة . والعرف : المعروف .
(١٦٦) أى : لا تعتبر شيئا قويتهم به متجاوزا ما يستحقون فذلك واجب عليك وهم مستحقون له .
(١٦٧) أى لا تعد شيئا من تلطفك معهم حقيرا فتتركه لحقارته ، فكل تلطف منك لهم — وإن قل — فله موقع فى قلوبهم .

النَّصِيحَةِ لَكَ ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ . وَلاَتَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمورِهِمْ اتِّكَالاً عَلَى جَسِيمِهَا فإنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لاَيَسْتَغْنُونَ عَنْهُ .

وَلْيَكُنْ آثَرُ رُؤوسِ(١٦٨) جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فى مَعُونَتِهِ ؛ وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ(١٦٩) ، بِمَا يَسَعُهُمْ وَ يَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ(١٧٠) ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمًّا وَاحِدًا فى جِهَادِ الْعَدُوِّ ؛ فإنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ(١٧١) يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ ؛ وَإنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلاَةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فى الْبِلاَدِ ؛ وظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ ، وإنَّهُ لاَتَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إلاَّ بِسَلاَمَةِ صُدُورِهِمْ ، وَلاَتَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إلاَّ بِحِيطَتِهِمْ(١٧٢) عَلَى وُلاَةِ أُمورِهِم ، وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَتِهِمْ ؛ فَافْسَحْ فى آمَالِهِمْ وَوَاصِلْ فى حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلاءِ مِنْهُمْ ؛ فإنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ فَعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ ، وتُحَرِّضُ النَّاكِلَ ، إنْ شَاءَ اللهُ .

ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَاأَبْلَى ، وَلاَتُضِيفَنَّ بَلاءَ امْرِىءٍ إلَى غَيْرِهِ(١٧٣) ، وَلاَتُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلاَئِهِ(١٧٤) ، وَلاَيَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِىءٍ إلى أن تعظم من بلائه ماكان صغيرا ولاضعة امرىء الى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلاَئِهِ مَاكَانَ عَظِيماً .

وَارْدُدْ إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ مَايُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ(١٧٥) وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الأُمورِ ؛ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إرْشَادَهُمْ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (١٧٦)

---

(١٦٨) رؤوس : قادة .
(١٦٩) غناه .
(١٧٠) من يتركونه وراءهم من النساء والأطفال والعجزة . والخلوف : جمع خلف .
(١٧١) أى على رءوس الجند .
(١٧٢) حفاظهم .
(١٧٣) لاتنسب عملا عظيما لغير فاعله .
(١٧٤) أى أوفه أقصى درجات الجزاء لهذا العمل .
(١٧٥) ما يشكل عليك فى النوازل .
(١٧٦) النساء ٥٩ .

فَالرَّدُّ إِلَى اللهِ : الأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ ، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ : الأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ(١٧٧) .

ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِى نَفْسِكَ ، مِمَّنْ لاَتَضِيقُ بِهِ الأُمُورُ وَلاَتُمْحِكُهُ(١٧٨) الْخُصُومُ وَلاَيَتَمَادَى فِى الزَّلَّةِ ، وَلاَيَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ(١٧٩) ، وَلاَتُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ(١٨٠) وَلا يكتفى بأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ ، وَأَوْقَفَهُمْ فِى الشُّبُهَاتِ(١٨١) وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تكشُّف الأُمور، وأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتضَاحِ الْحُكْمِ ؛ مِمَّنْ لاَيَزْدَهِيهِ(١٨٢) إِطْرَاءٌ ، وَلاَيَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاء ، وَأُولٰئِكَ قَلِيلٌ ثم أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ(١٨٣) وَافْسَحْ لَهُ فِى الْبَذْلِ مايُزِيلُ عِلَّتَهُ(١٨٤) ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاس ، وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَالاَيَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لهُ عِنْدَكَ(١٨٥) ، فَانْظُرْ فِى ذٰلِكَ نَظَراً بَلِيغاً ، فَإِنَّ هٰذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِى أَيْدِى الأَشْرَار ؛ يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى ، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا .

ثُمَّ انْظُرْ فِى أُمورِ عُمَّالِكَ ، فَاسْتَعْمِلْهُمْ اخْتِبَارًا(١٨٦) وَلاَتُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً(١٨٧) وأَثَرَةً(١٨٨) ؛ فَإِنَّهُمَا(١٨٩) جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ ؛ وَتَوَخَّ(١٩٠)

---

(١٧٧) أى القطعية المجمع عليها .
(١٧٨) تغضبه .
(١٧٩) أى : لايضيق صدره من الرجوع الى الحق .
(١٨٠) أى أكثرهم وقوفا وتأنيا فى حسم القضايا التى لا يتضح فيها نص .
(١٨١) يزدهيه : يستخفه .
(١٨٢) التعاهد : التتبع والتعرف .
(١٨٣) مايذهب همومه ومشاكله .
(١٨٤) أى الوشاية والإيقاع به عندك .
(١٨٥) اجعل اختيارهم بعد امتحانهم .
(١٨٦) مجاملة .
(١٨٧) استبداد بلا مشورة .
(١٨٨) أى : المحاباة والأثرة .
(١٨٩) أى يجمعان الظلم وخيانة الأمانة .
(١٩٠) توخ : اطلب وتحرّ .

مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالْحَيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ ، وَالْقَدَمِ فِى الإِسْلاَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ ؛ فإنهم أَكْرَمُ أَخْلاَقاً ، وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً ؛ وأَقَلُّ فِى الْمَطَامِعِ إِشْرَافاً ، وَأَبْلَغُ فِى عَوَاقِبِ الأُمُورِ نَظَرًا .

ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الأَرْزَاقَ(١٩١) فإنَّ ذلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلاَحِ أَنْفُسِهِمْ ، وَغِنىً لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَاتَحْتَ أَيْدِيهِمْ ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْثَلَمُوا أَمانَتَكَ(١٩٢) .

ثُمَّ تَفَقَّدْ اعْمَالَهُمْ وابْعَثِ الْعُيُونَ(١٩٣) مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ والْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِى السِّرِّ لأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ(١٩٤) عَلَى اسْتِعْمَالِ الأَمَانَةِ وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ .

وتَحَفَّظْ مِنَ الأَعْوَانِ(١٩٥) فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِك(١٩٦) ، اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِدًا ، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِى بَدَنِهِ ، وأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ ، وَوَسَمْتَهُ بِالخِيَانَةِ ، وقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ(١٩٧) .

وتَفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ ؛ فَإِنَّ فِى صَلاَحِهِ وَصَلاَحِهِمْ صَلاَحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ ؛ وَلاَصَلاَحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلاَّ بِهِمْ ؛ لأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ .

وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِى عِمَارَةِ الأَرْضِ(١٩٨) أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِى اسْتِجْلاَبِ الْخَرَاجِ ؛ لأَنَّ ذلِكَ لاَيُدْرَكُ إِلاَّ بِالْعِمَارَةِ ، وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلاَدَ ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلاَّ قَلِيلاً .

---

(١٩١) أى : وسّع لهم فى العطاء .
(١٩٢) ثلموا الأمانة : نقصوها أوخانوها وغدروا بها .
(١٩٣) العيون : الرقباء .
(١٩٤) حدوة : حث واستنهاض .
(١٩٥) كن حذراً متيقظا لهم .
(١٩٦) أى : اتفقت أخبار الرقباء جميعاً على ارتكابه هذه الخيانة .
(١٩٧) أى كن شديدا عليه وأنزل به عقوبة البدن وعقوبة النفس .
(١٩٨) عمارة الأرض : إصلاحها بالزرع والبناء وما شابه ذلك .

فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلاً (١٩٩) أَوْعِلَّةً (٢٠٠) أَوانْقِطاعَ شِرْب (٢٠١) أَوْبَالَّة (٢٠٢) أَوْإِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَق (٢٠٣) أَوْأَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ (٢٠٤)، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ (٢٠٥).

وَلاَيَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيء خَفَّفْتَ بِهِ الْمَؤُونَةَ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ (٢٠٦) يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِى عِمَارَةِ بِلاَدِكَ، وَتَزْيِينِ ولاَيَتِكَ، مَعَ اسْتِجْلاَبِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ، وَتَبَجُّحِكَ (٢٠٧) بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ مُعْتَمِدًا فَضْلَ قُوَّتِهِمْ بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ، وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ فِى رِفْقِكَ بِهِمْ (٢٠٨)، فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الأُمُورِ مَاإِذَا عَوَّلْتَ (٢٠٩) فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ، فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ، وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا (٢١٠)، وَإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلاَةِ عَلَى الْجَمْعِ (٢١١) وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ وقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ.

ثُمَّ انْظُرْ فِى حَالِ كُتَّابِكَ فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ؛ وَاخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِى تُدْخِلُ فِيهَا مَكَايِدَكَ وَأَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُوهِ صَالِحِ الأَخْلاَقِ (٢١٢) مِمَّنْ لاَتُبْطِرُهُ (٢١٣) الْكَرَامَةُ، فَيَجْتَرِىء بِهَا عَلَيْكَ فِى خِلاَفٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلاٍ،

---

(١٩٩) ثقلاً: فداحة ما ضرب عليهم من مال الخراج.
(٢٠٠) علة: آفة تصيب الزرع.
(٢٠١) ماء فيا يسقى بالأنهار.
(٢٠٢) مطروما شابهه: بالنسبة للأرض التى تسقى بالمطر.
(٢٠٣) أى فساد أرض لما أصابها من غرق.
(٢٠٤) أى أفسدها حرمانها من الماء.
(٢٠٥) أى فى الحالات السابقة ومايشابهها خفف عنهم ماتفرضه عليهم.
(٢٠٦) الذجر بالضم الشيء المعد للحاجه. ام مصباح.
(٢٠٧) تبجحك: سرورك وسعادتك.
(٢٠٨) «معتمداً....» أى معتمداً على زيادة قوتهم بعد أن أرحلتهم ووثقوا فى عدلك ورفقك.
(٢٠٩) عوّلت: اعتمدت.
(٢١٠) الإعواز: الفقر والحاجة.
(٢١١) أى لنهم الولاة وتطلعهم لجمع المال.
(٢١٢) أى خصّ أحسن كتابك خلقا لكتابة أخطر رسائلك وأحلمها بالأسرار.
(٢١٣) تبطره: تطغيه.

وَلاَ تُقَصِّرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ ، وإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوَابِ عَنْكَ فِيمَا يَأْخُذُ لَكَ و يُعْطِى مِنْكَ(٢١٤) ، وَلاَ يُضْعِفُ عَقْداً اعْتَقَدَهُ لَكَ ، وَلاَ يَعْجِزُ عن إِطْلاَقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ(٢١٥) ، وَلاَ يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فى الأُمورِ؛ فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ .

ثُمَّ لاَ يَكُن اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِراسَتك واسْتِنَامَتِكَ وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ(٢١٦) ؛ فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّفُونَ لِفَرَاسَاتِ الْوُلاَةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ حَدِيثِهِمْ(٢١٧) ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالأَمَانَةِ شَىءٌ ، وَلكِنِ اخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ ؛ فاعْمِدْ لأَحْسَنِهِمْ كَانَ فى الْعَامَّةِ أَثَرًا ، وَأَعْرَفِهِمْ بِالأَمَانَةِ وَجْهًا ، فَإِنَّ ذلِكَ دَليلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لِلّهِ ولِمَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ .

وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْسًا مِنْهُمْ لاَ يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا ، وَلاَ يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا ، وَمَهْمَا كَانَ فى كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ تَغَابَيْتَ عنْهُ أُلْزِمْتَهُ(٢١٨)

ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِى الصِّنَاعَاتِ وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا؛ الْمُقِيمِ مِنْهُمْ وَالْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ (٢١٩) ، وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ (٢٢٠) ، فَإِنَّهُمْ مَوادُّ الْمَنَافِعِ ، وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ (٢٢١) وَجُلاَّبُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ ، فى بَرِّكَ وَ بَحْرِكَ ، وَسَهْلِكَ وَجبلِكَ ،

---

(٢١٤) أى لا تدفعه غفلته الى التقصير فى إطلاعك على مايرد من عمالك والرد عليها بصورة صائبة وافية .

(٢١٥) أى يكون قديرا على توثيق ما فيه صالحك وحل ما فيه ضرر عليك .

(٢١٦) أى لا يكن اختيارك كتابك مؤسسا على ميلك الخاص.

(٢١٧) أى يحالون أن يصلوا الى قلوب الولاة بتجميل الظاهر.

(٢١٨) أى إذا تغافلت عن عيب من عيوب كتابك نسب ذلك اليك وعاد ضرره عليك .

(٢١٩) المضطرب بماله : المتردد المسافر به بين البلاد .

(٢٢٠) أى المكتسب بعمل يدوى.

(٢٢١) يراد بها ما يتم به الانتفاع كالآنية والأدوات وما يشبه ذلك .

وَحَيْثُ لاَيَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا ولاَيَجْتَرِئُونَ عَلَيْهَا (٢٢٢) ؛ فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لاَتُخَافُ بَائِقَتُهُ وصُلْحٌ لاَتُخْشَى غَائِلَتُهُ (٢٢٣) .

وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ ، وَفِى حَوَاشِى(٢٢٤) بِلاَدِكَ . وَاعْلَمْ — مَعَ ذٰلِكَ — أَنَّ فِى كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقًا (٢٢٥) فَاحِشًا ، وَشُحًّا قَبِيحًا وَاحْتِكَارًا لِلْمَنَافِعِ ، وَتَحَكُّمًا فِى الْبِيَاعَاتِ ، وذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلاَةِ ؛ فَامْنَعْ مِنَ الإحْتِكَارِ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ — مَنَعَ مِنْهُ . وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعًا سَمْحًا ؛ بِمَوَازِينِ عَدْلٍ ، وَأَسْعَارٍ لاَتُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ (٢٢٦) ، فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً(٢٢٧) بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ ؛ وَعَاقِبْهُ فِى غَيْرِ إِسْرَافٍ .

ثُمَّ اللهَ اللهَ فِى الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لاَحِيلَةَ لَهُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسِ وَالزَّمْنَى (٢٢٨) فَإِنَّ فِى هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعًا (٢٢٩) وَمُعْتَرًّا (٢٣٠) ؛ وَاحْفَظْ لِلهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ (٢٣١) مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْمًا مِنْ بَيْتِ مَالِكَ ، وَقِسْمًا مِنْ غَلاَّتِ صَوَافِى الإسْلاَمِ (٢٣٢) فِى كُلِّ بَلَدٍ ؛ فَإِنَّ لِلأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِى لِلأَدْنَى وَكُلٌّ قَدِ اسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ ، فَلاَيَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ(٢٣٣) فَإِنَّكَ لاَتُعْذَرُ بِتَضْيِيعِكَ التَّافِهَ لإحْكَامِكَ الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ (٢٣٤) ، فَلاَ تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ (٢٣٥)

---

(٢٢٢) أى يجلبونها من أماكن يعجز الناس عن الاجتماع والذهاب اليها لا ستحضارها .

(٢٢٣) أى أن هؤلاء الصناع والتجار سالمون لا يخشى منهم العصيان أو الاذى .

(٢٢٤) الحواشي : الأطراف .

(٢٢٥) الضيق : سوء المعاملة .

(٢٢٦) المبتاع : المشترى .

(٢٢٧) اقترف : ارتكب وأتى . والحكرة: الاحتكار.

(٢٢٨) البؤس : الفقر الشديد والزمنى : جمع زمين : وهو من به عهة .

(٢٢٩) القانع : المحتاج الذى يرضى بما يعطى ولا يسأل ولا يتعرض .

(٣٣٠) المعترّ: السائل أو المعترض.

(٣٣١) استخففك : طلب منك حفظه .

(٣٣٢) جمع صافية : وهى أرض الغنيمة .

(٣٣٣) البطر: الطغيان بالنعمة .

(٣٣٤) أى أنك لا عذر لك إذا ضيعت القليل بحجة اهتمامك بالكثر المهم .

(٣٣٥) لا تصرف اهتمامك عنهم .

وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ (٢٣٦) ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لاَ يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ ، مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ (٢٣٧) وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ ، فَفَرِّغْ لأُولَئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُعِ ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أمورهم (٢٣٨) .

ثُمَّ اعْمَلْ فِيهِمْ بِالإِعْذَارِ إِلَى اللهِ يَوْمَ تَلْقَاهُ (٢٣٩) ، فَإِنَّ هٰؤلاَءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى الإِنصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إلى الله فى تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ .

وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ (٢٤٠) وَذَوِى الرِّقَّةِ فى السِّنِّ (٢٤١) إلى مِمَّنْ لاَ حِيلَةَ لَهُ ، ولاَ يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ ، وَذٰلِكَ عَلَى الْوُلاَةِ ثَقِيلٌ ، والْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلُ ، وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقبةَ فَصبَرُوا أَنْفُسَهُمْ وَوَثِقُوا بِصِدْقِ موْعُودِ الله لَهُمْ .

وَاجْعَلْ لِذَوى الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْمًا تُفَرِّغُ لَهُمْ فيه شَخْصَكَ ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِسًا عَامًّا فَتَتَوَاضَعَ فِيهِ لِلهِ الَّذِى خَلَقَكَ ، وَتُقْعِدَ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وشُرَطِكَ ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ (٢٤٢) فَإِنى سَمِعْتُ رَسُولَ الله ، ــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ــ يَقُولُ فى غَيْرِ مَوْطِنٍ (٢٤٣) : **(لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ (٢٤٤) لاَ يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيها حَقُّهُ مِنَ الْقَوِىِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ)** .

ثُم احْتمِلِ الْخُرْقَ (٢٤٥) مِنْهُمْ وَالْعِىَّ (٢٤٦) وَنَحِّ عَنْهُمُ الضِّيقَ وَالأَنَفَ (٢٤٧)

---

(٣٣٦) لا تمل خدك تكبراً .

(٣٣٧) ممن يستضعفه الناس ويحتقرونه .

(٢٣٨) أى:تخير من رجالك ثقات صالحين واجعلهم يتفرعون لمعرفة أحوال هؤلاء الفقراء و يرفعونها إليك .

(٢٣٩). بما يعد عذراً لك عند الله .

(٢٤٠) الأيتام .

(٢٤١) المتقدمين فى السن .

(٢٤٢) غير متردد أو مضطرب أو خائف .

(٢٤٣) أى:فى أكثر من حديث .

(٢٤٤) أى:لن يطهر الله أمة ولن يبارك فيها .

(٢٤٥) الخرق : الجهل والحمق .

(٢٤٦) العى : العجز عن النطق .

(٢٤٧) الأنف : الاستكبار.

يَبْسُط اللهُ عَلَيْكَ بِذٰلِكَ أَكْنَافَ (٢٤٨) رَحْمَتِهِ ، وَ يُوجِبُ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ ، وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئًا (٢٤٩) ، وَامْنَعْ فِى إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ (٢٥٠) .

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَابُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا ؛ مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا (٢٥١) عَنْهُ كُتَّابُكَ ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ يَوْمَ وَرُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَحْرَجُ (٢٥٢) بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ ، وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ .

وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وبَيْنَ اللهِ أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ ، وَأَجْزَلَ (٢٥٣) تِلْكَ الأَقْسَامِ وإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لِلهِ ؛ إِذَا صَلُحَتْ فِيهَا النِّيَّةُ ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ .

وَلْيَكُنْ فِى خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ بِهِ دِينَكَ إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِى هِىَ لَهُ خَاصَّةً ، فَأَعْطِ اللهَ مِنْ بَدَنِكَ فِى لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللهِ مِنْ ذَلِكَ كَامِلاً غَيْرَ مَثْلُومٍ وَلاَ مَنْقُوصٍ ، بَالِغًا مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ .

وَإِذَا قُمْتَ فِى صَلاَتِكَ لِلنَّاسِ فَلاَ تَكُونَنَّ مُنَفِّرًا وَلاَ مُضَيِّعًا (٢٥٤) فَإِنَّ فِى النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ ، وَلَهُ الْحَاجَةُ ؛ وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ــ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ــ حِينَ وَجَّهَنِى إِلَى الْيَمَنِ : كَيْفَ أُصَلِّى بِهِمْ ؟ فَقَالَ : «صَلِّ بِهِمْ كَصَلاَةِ أَضْعَفِهِمْ ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا» .

وَأَمَّا بَعْدُ ، فَلاَ تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ ؛ فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلاَةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالأُمُورِ ، والاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عنهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبِيرُ ، وَ يَعْظُمُ الصَّغِيرُ ، وَ يَقْبُحُ الْحَسَنُ وَ يَحْسُنُ الْقَبِيحُ ،

---

(٢٤٨) أكناف : أطراف . جمع كنف .

(٢٤٩) أى:دون أن يكون متلبسا بمنّ .

(٢٥٠) أى:بتلطف وتقديم عذر حتى لا يكون فى هذا المنع إساءة الى شعور من منعت عنه .

(٢٥١) يعيا : يعجز .

(٢٥٢) تحرج : تضيق .

(٢٥٣) أجزل : أعظم .

(٢٥٤) أى : لاتنفر الناس من الصلاة با: طويل ، ولاتضيعها بالنقص فى أركانها أوالنيل من كمال هيئتها .

و يُشَابُ (٢٥٥) الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ ؛ وَإِنَّمَا الْوَالِى بَشَرٌ لاَيَعْرِفُ ماتَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الامُورِ، وَلَيْسَتْ عَلى الْحَقِّ سِمَاتٌ(٢٥٦) تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ ، وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفسُكَ بِالْبَذْلِ فى الْحَقِّ ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ ، أَوْفِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ ! أَوْمُبْتَلًى بِالْمَنْعِ فَمَا أَسرعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ (٢٥٧) ! مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مِمَّا لاَمَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلَمَة ، أَوْطَلَبِ إِنْصَاف فى مُعَامَلَةٍ .

ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِى خَاصَّةً وَبِطَانَةً ، فِيهِمُ اسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ ، وَقِلَّةُ إِنْصَاف فى مُعَامَلَة ، فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الأَحْوَالِ (٢٥٨) ، وَلاَتُقْطِعَنَّ لأَحَد مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَّتِكَ (٢٥٩) قطيعةً (٢٦٠) ، وَلاَيَطْمَعَنَّ مِنْكَ فى اعْتِقَادِ عُقْدة (٢٦١) تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاس فى شِرْب أَوْعَمَلٍ مُشْتَرَك ، يَحْمِلونَ مَؤُونَتَهُ على غَيْرِهِمْ ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ (٢٦٢) ذٰلِكَ لَهُمْ دُونَكَ ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .

وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَكُنْ فى ذٰلِكَ صَابِرًا مُحْتَسِبا ، وَاقِعًا ذٰلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ ؛ وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ ؛ فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذَلِكَ(٢٦٣) مَحْمُودَةٌ .

---

(٢٥٥) يشاب : يخلط و يتلبس .

(٢٥٦) علامات .

(٢٥٧) قوله « وإنما أنت ... » لماذا تحتجب عن الناس إذا كنت رجل حق وحلال ؟ وإذا كنت عكس ذلك يئس الناس منك وانصرفوا عنك وفى هذه الحال لامكان للاحتجاب أيضا . والخلاصة أن عليك الاتحتجب عن الناس فى أى حال .

(٢٥٨) أى اتخذ الإجرام الوقائى قبل وقوع الإحجاف والتعدى من هؤلاء وذلك بالقضاء على الأسباب المؤدية إليه .

(٢٥٩) الحامّة : الخاصة والقرابة .

(٢٦٠) القطيعة : المنحة من الأرض وهى مايسمى بالإقطاعية .

(٢٦١) اعتقاد عقدة : امتلاك ضيعة .

(٢٦٢) المهنأ : يقصد به هنا الانتفاع الذى يسعد .

(٢٦٣) المغبة : العاقبة .

وَإِنْ ظَـنَّـتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفًا فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ (٢٦٤) ، وَٱعْدِلْ عَنكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ(٢٦٥) ؛ فَإِنَّ فِى ذٰلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ (٢٦٦) ، وَرِفْقاً بِرَعِيَّتِكَ ؛ وَإِعْذَارًا تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ .

وَلاَ تَدْفَعَنَّ صُلْحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ ولله فيهِ رضًا ؛ فَإِنَّ فِى الصُّلْحِ دَعَةً (٢٦٧) لِجُنُودِكَ ، وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ ، وَأَمْنًا لِبِلادِكَ ، وَلٰكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ ؛ فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ (٢٦٨) فَخُذْ بِالْحَزْمِ ، وَٱتَّهِمْ فِى ذٰلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ .

وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عُقْدَةً ، أَوْأَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ ، وَٱرْعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمَانَةِ ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ (٢٦٩) ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ شَىْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعًا مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ ، وَتَشَتُّتِ آرَائِهِمْ ، مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ (٢٧٠) وَقَدْ لَزِمَ ذٰلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ ، لِمَا ٱسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ (٢٧١) ؛ فَلاَ تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ وَلاَ تَخِيسَنَّ (٢٧٢) بِعَهْدِكَ وَلاَ تَخْتِلَنَّ(٢٧٣) عَدُوَّكَ ؛ فَإِنَّهُ لاَيَجْتَرِىءُ عَلَى اللهِ إِلاَّ جَاهِلٌ شَقِىٌّ . وَقَدْ جَعَلَ اللهُ

---

(٢٦٤) أصحر لهم بعذرك : أبرزلهم بعذرك ووضحه لهم .

(٢٦٥) أى : سيكون فى هذا التوضيح إبعاد لسوء ظنهم بك .

(٢٦٦) أى : تعويد منك لنفسك على العدل .

(٢٦٧) راحة .

(٢٦٨) أى يستغل غفلتك فيغدر بك .

(٢٦٩) الجنة (بضم الجيم) . الوقاية : و يقصد حافظ على ما تعطى من عهود بروحك .

(٢٧٠) أى : أن الناس ــ مسلميهم ومشركيهم ــ مهما تفرقت أهواؤهم وآراؤهم يجمعون على لزوم احترام العهود والوفاء بها .

(٢٧١) قوله « وقد لزم ذلك .. » أى أن الدافع الى الوفاء بالعهود عند المشركين هو أنهم وجدوا أن عواقب الغدر مهلكة . أما المسلمون فيجب أن يكون الوفاء بالعهد مقصودا به وجه الله واستجابة لأمره . وما ذهبنا إليه أقرب إلى روح النص من تفسير الشيخ محمد عبده وهو « أى حال كونهم دون المسلمين فى الأخلاق والعقائد : هامش ص٣٤٦ . وكذلك من تفسير ابن أبى الحديد الذى يقول « وقد لزم المشركون مع شركهم الوفاء بالعهود ، وصار ذلك لهم شريعة و بينهم سنة فالإسلام أولى باللزوم والوفاء » .

(٢٧٢) خاس : خان ونقض .

(٢٧٣) الختل : الخداع .

عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمناً أَفْضَاهُ (٢٧٤) بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ وَحَرِيمًا يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ ، وَ يَسْتَفِيضُونَ (٢٧٥) إِلَى جِوَارِهِ فَلاَ إِدْغَالَ (٢٧٦) وَلاَ مُدَالَسَةَ (٢٧٧) وَلاَ خِدَاعَ فِيهِ .

وَلاَ تَعْقِدْ عَقْداً تُجَوِّزُ فِيهِ الْعِلَلَ ، وَلاَ تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ قَوْلٍ (٢٧٨) بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوْثِقَةِ ، وَلاَ يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللهِ إِلَى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ؛ فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ ، خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ ، وَأَنْ يُحِيطَ بِكَ مِنَ اللهِ فِيهِ طِلْبَةٌ ، فَلاَ تَسْتَقِيلَ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلاَ آخِرَتَكَ .

إِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَةٍ ، وَلاَ أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ ، وَلاَ أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ ، وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ ، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا .

وَاللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِىءٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلاَ تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ ؛ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَ يُوهِنُهُ بَلْ يُزِيلُهُ وَ يَنْقُلُهُ .

وَلاَ عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللهِ وَلاَ عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ ؛ لأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ (٢٧٩) ، وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَإٍ وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوسَيْفُكَ أَوْيَدُكَ بِالْعُقُوبَةِ (٢٨٠) ، فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ (٢٨١) فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً فَلاَ تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ (٢٨٢) .

وَإِيَّاكَ وَالإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا ، وَحُبَّ الإِطْرَاءِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ ، لِيَمْحَقَ (٢٨٣) مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ .

---

(٢٧٤) نشره .

(٢٧٥) يفزعون .

(٢٧٦) إفساد .

(٢٧٧) خيانة .

(٢٧٨) يقصد بالعلل ولحن القول : التأويلات البعيدة الخفية .

(٢٧٩) القود : القصاص . وقود البدن : أي النفس بالنفس .

(٢٨٠) أي إذا أردت تأديبا هينا فأدى ذلك ـــ دون أن تقصد ـــ إلى قتل من تؤدب .

(٢٨١) الوكزة : اللكمة .

(٢٨٢) « فلا تطمحن ... » أي لو وقع منك هذا القتل الخطأ فلا يدفعنك كبرياء السلطان إلى منع أولياء المقتول حقهم .

(٢٨٣) يمحق : يمحو .

وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أَوِالتَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ أَوْأَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الإِحْسَانَ، وَالتَّزَيدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ(٢٨٤) عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)(٢٨٥).

وَإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالأُمورِ قَبْلَ أَوانِهَا، أَوِالتَّسَاقُطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا أَوِاللَّجَاجَةَ(٢٨٦) فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ(٢٨٧) أَوِالْوَهْنَ(٢٨٨) عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ(٢٨٩). فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ، وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ.

وَإِيَّاكَ وَالاسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ(٢٩٠)، وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الأُمُورِ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ.

امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ(٢٩١)، وَسَوْرَةَ(٢٩٢) حَدِّكَ(٢٩٣)، وَسَطْوَةَ يَدِكَ، وَغَرْبَ(٢٩٤) لِسَانِكَ، وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذٰلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ(٢٩٥)، وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ، فَتَمْلِكَ الاخْتِيَارَ. وَلَنْ تَحْكُمَ ذٰلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ.

---

(٢٨٤) المقت: الكراهية والسخط.

(٢٨٥) الصف ٣.

(٢٨٦) الإصرار غير المقبول.

(٢٨٧) تنكرت: لم يعرف وجه الصواب فيها.

(٢٨٨) الضعف.

(٢٨٩) وضحت.

(٢٩٠) أسوة: سواء (وذلك فى الحقوق العامة).

(٢٩١) أى: املك نفسك عند الغضب.

(٢٩٢) حده.

(٢٩٣) بأسك وقوتك.

(٢٩٤) غرب السيف: حده.

(٢٩٥) البادرة: ما يبدر من اللسان عند الغضب.

وَالْواجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ ، أَوْسُنَّةٍ فَاضِلَةٍ ، أَوْأَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا ـــ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ـــ أَوْفَرِيضَةٍ فِى كِتَابِ اللهِ ، فَتَقْتَدِى بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا ، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِى اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِى عَهْدِى هٰذَا ، وَاسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسى عَلَيْكَ ، لِكَيْلاَ تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلى هَوَاهَا .

وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ ، أَنْ يُوَفِّقَنى وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ ، مِنَ الإِقَامَةِ عَلى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلى خَلْقِهِ(٢٩٦) ، مَعَ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِى الْعِبَادِ ، وَجَمِيلِ الأَثَرِ فِى الْبِلاَدِ ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ ، وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ ، وَأَنْ يَخْتِمَ لِى وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ والشهادة ، إِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ . وَالسَّلاَمُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ـــ صَلى اللهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ ـــ وَالسَّلاَمُ .

(٢٩٦) يقول الأمام محمد عبده : يريد من العذر الواضح : العدل ، فإنه عذر لك عند من قضيت عليه ، وعذر عند الله فيمن أجريت عليه عقوبة أوحرمته من منفعة .

الشريحة الثالثة

الحكم والتوقيعات

(١) كنْ فى الفتنةِ كابنِ اللّبون: لا ظهرٌ فيركب ولا ضرعٌ فيحلبَ[١]

• • •

(٢) إذا أقبلتِ الدنيا على أحدٍ أعارتهُ محاسنَ غيرِه، وإذا أدبرت عنه سلبتْه محاسنَ نفسِه[٢]

(٣) إذا كنت فى إدبار والموت فى إقبال فما أسرع الملتقى[٣]

• • •

(٤) كن سمْحا ولا تكن مبذرا، وكن مُقَدِّرا ولا تكن مُقتِّرا[٤]

• • •

---

(١) نهج البلاغة ٣٦٦
ابن اللبون: ابن الناقة: إذا استكمل سنتين.

(٢) السابق ٢٦٧.

(٣) السابق ٣٦٨.

(٤) المقدر: المقتصد. والمقتر: المضيق فى النفقة. يقول ابن أبى الحديد ٥/٣٠٨ «كل كلام جاء فى هذا فهو مأخوذ من قوله سبحانه: «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا» الاسراء ٢٩. ونحو قوله «إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا» الاسراء ٢٧.

(٥) سيئة تسوؤك خير عند الله من حسنة تعجبك .

● ● ●

(٦) الظَّفَر بالحزم ، والحزم بإجالة الرأى ، والرأى بتحصين الأسرار.

● ● ●

(٧) احذروا صولة الكريم إذا جاع ، واللئيم إذا شبع .

● ● ●

(٨) أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة[٥] .

● ● ●

(٩) الغنى فى الغربة وطن ، والفقر فى الوطن غربة .

● ● ●

(١٠) العفاف زينة الفقر ، والشكر زينة الغنى[٦] .

● ● ●

(١١) إذا تم العقل نقص الكلام .

● ● ●

(١٢) نَفَسُ المرء خطاه إلى أجله[٧] .

● ● ●

(١٣) عجبتُ لمن يَقْنَطُ ومعَهُ الاستغفار[٨] .

● ● ●

---

(٥) السابق ٣٧٢ .

(٦) السابق ٣٧٣ .

(٧) السابق ٣٧٤ : لأن كل نفس يتنفسه الإنسان يأخذ من الوقت ــ وإن كان قصيرا ــ ما يعتبر جزءا من عمر الإنسان ينتهى . وذكر ابن أبى الحديد أن هذه الحكمة منسوبة أيضا إلى ابن المعتز وإن رجح أنه أخذها عن الإمام على (انظر ٥/٣٥٤) .

(٨) نهج البلاغة ٣٧٦ . والقنوط : اليأس . والاستغفار : التوبة .

(١٤) الفقيهُ كلُّ الفقيه مَنْ لم يُقنِّط الناسَ من رحمة الله ، ولم يُؤْيسْهم من رَوْح الله ، ولم يُؤمِنْهم من مكرِ الله (٩)

● ● ●

(١٥) اعقِلُوا الخَبَرَ إذا سمعْتمُوه عَقْلَ رِعَاية ، لا عقلَ رِواية ؛ فإنّ رواةَ العِلم كثير ، ورُعاتُه قَليل (١٠) .

● ● ●

(١٦) الراضى بفعل قومٍ كالداخِل فيه معهم ، وعلى كلِّ داخلٍ فى باطلٍ إثمان : إثم العملِ به ، وإثمُ الرضا به (١١) .

● ● ●

(١٧) الطمعُ رقٌّ مُؤبَّد .

● ● ●

(١٨) ما اختَلفتْ دعوتان إلا كانتْ إحداهما ضلالة (١٢) .

● ● ●

(١٩) منْ لم ينجه الصبرُ أهلكه الجَزَع .

● ● ●

(٢٠) إن للقلوب شهوة وإقبالا وإدبارا ، فَأْتوها مِنْ قِبَل شهوتها وإقْبالها ، فإنَّ القلبَ إذا أكْره عَمِى (١٣) .

● ● ●

---

(٩) السابق نفس الصفحة . روح الله : رحمته .

(١٠) السابق ٣٧٧ : عقل رعاية : أى معرفة وفهم . وعقل رواية أى دون تعمق وتثبت .

(١١) السابق ٣٨٨ .

(١٢) نهج البلاغة : ٤١٠ ـ الغلبة : القهر . يظاهر : يعاون و يساند .

(١٣) نهج البلاغة : ١٨٩ .

(٢١) اتقُوا الله الذى إذا قلتُم سَمع ، وإنْ أضمرتُم عَلِم ،و بادروا الموتَ الذى إن هربتم منه أدرككم ، وإن أقمتم أخذكم و إن نسيتموه ذَكَرَكُم .

●●●

(٢٢) لا يُزهِّدنَّك فى المعروفِ من لايشْكَرُه لك ، فقد يشكُرُكَ عليه من لايسْتَمتِعُ بشىءٍ منه ، وقد يُدْرَكُ من شكرِ الشاكرِ أكثر مما أضاعَ الكافر ، واللهُ يحبُّ المحسنين (١٤) .

●●●

(٢٣) كَفَى بالقناعةِ مُلْكا ، وبحسْنِ الخلق نعيا (١٥) .

●●●

(٢٤) وقال لابنه الحسن « لا تدعُونَّ إلى مبارزةٍ ، فإن دُعيتَ إليها فأجِبْ ، فإن الداعِىَ باغٍ ، والباغِىَ مَصْروع (١٦) .

●●●

(٢٥) الحدَّةُ ضربٌ من الجنونِ لأن صاحبَها يندمُ ، فإنْ لم يندمْ فجنونه مُستحكمٌ (١٧) .

●●●

(٢٦) أحبب حبيبَك هَوْنا ما ، عسى أن يكونَ بغيضك يوما ما ، وأبغض بغيضَك هوْناً ما ، عسى أن يكون حبيبَك يوماً ما (١٨) .

●●●

(٢٧) ما أكثرَ العبرَ وأقلَّ الاعتبارَ !!

●●●

---

(١٤) نهج البلاغة : ٢٠٠ .
(١٥) نهج البلاغة : ٢٢٥ .
(١٦) نهج البلاغة : ٢٣٠ .
(١٧) نهج البلاغة : ٢٥٢ .
(١٨) نهج البلاغة : ٢٧٤ .

(٢٨) سئلَ عليه السلام : كيف يحاسبُ اللهُ الخلْقَ على كثرتهم ؟
فقال عليه السلام : كما يرزقهُـم على كثرتهم .
فقيل له : كيف يحاسبهم ولا يرونه ؟ .
فقال : كما يرزقهُـم ولا يروْنَه(١٩) .

●●●

(٢٩) وقيل له : بأيِّ شيء غلبتَ الأقْرانَ ؟
فقال عليه السلام : ما لقيتُ رجلاً إلا أعانني على نفسه(٢٠) .

●●●

(٣٠) أقلّ ما يلزمكم للهِ أنْ لا تستعينُوا بنعمِهِ على مَعاصيه(٢١) .

●●●

(٣١) العلمُ علمان : مطبوعٌ ومسموع ، ولا ينفعُ المسموعُ إذا لم يكنِ المطبوع(٢٢) .

●●●

(٣٢) للظالم من الرجالِ ثلاثُ علامات : يظلمُ من فوقَهُ بالمعصيةِ ، ومَنْ دونَه بالغلبَةِ ، و يظاهِر القومَ الظَّلَمة(٢٣) .

●●●

(٣٣) لا تجعلَنَّ أكثرَ شُغْلِك بأهلِك وولدِك ؛ فإنْ يكنْ أهلُك وولدُك أولياء الله فإنَّ الله لا يُضيع أولياءَهُ ، وإن يكونوا أعداء الله فما همُّك وشغْلُك بأعداء الله ؟

●●●

---

(١٩) نهج البلاغة : ٣٠٦ .
(٢٠) نهج البلاغة : ٣٢٤ .
(٢١) نهج البلاغة : ٣٣٦ .
(٢٢) نهج البلاغة : ٣٤٥ .
(٢٣) نهج البلاغة ٤١٠ : الغلبة : القهر . يظاهر : يعاون و يساند .

(٣٤) أكبرُ العيبِ أنْ تعيبَ ما فيكَ مثلُه .

● ● ●

(٣٥) يا أسرى الرغبةِ ، أقْصِرُوا ، فإنَّ المعرِّجَ على الدنْيا لا يروعُه منها إلا صريفُ أنيابِ الحَدَثانِ . أيها الناسُ تولَّوا عن أنفسِكُم تأديبَهَا ، واعدِلُوا بها عن ضراوة عاداتِها [٢٤] .

● ● ●

(٣٦) البخل جامع لمساوئ العيوب ، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء [٢٥] .

● ● ●

(٣٧) لا تقلْ ما لا تعلمْ ، بل لا تقلْ كلَّ ما تعلمْ ، فإنَّ اللهَ فرضَ على جوارِحك كلّها فرائضَ يحتجُّ بها عليكَ يومَ القيامة [٢٦] .

● ● ●

(٣٨) للمؤمن ثلاث ساعات : فساعةٌ يناجي فيها ربَّه ، وساعة يرم فيها معاشه وساعة يخلِّى فيها بين نفسِه ، وبين لذَّتِها فيما يحلُّ ويجمُل وليسَ للعاقِلَ أن يكونَ شاخصاً إلا في ثلاثٍ : مَرَمَّةٍ لمَعَاش ، أو خطوةٍ في معاد ، أو لذة في غيرِ محرم [٢٧] .

● ● ●

(٣٩) ضعْ فخرَك ، واحطُطْ كِبْرك ، واذكرْ قَبْرك .

● ● ●

---

(٢٤) السابق ٤١١ . أقصروا : كفوا . المعرج عليها : المائل إليها المعتمد عليها . يروعه : يفزعه . الصّريف : صوت الباب والأسنان عند الاصطكاك وصوت البكْرة عند الاستقاء ونحو ذلك . والحدثان والنوازل والنوب . وفي ابن أبي الحديد (٥/٦٤٥) الحدثان (بكسر الحاء) . وحدثان الشيء أوله وهو مصدر حدث يحدث حدوثا وحدثانا (راجع لسان العرب مادة حدث) والأول أبلغ وأدل على المقصود .

(٢٥) السابق ٤١٥ .

(٢٦) السابق ٤١٦ .

(٢٧) نهج البلاغة ٤١٧ : يرّم : يصلح . والرقة : الإصلاح .

(٤٠) منْ صارعَ الحقَّ صرعَه(٢٨).

●●●

(٤١) افعلُوا الخير، ولا تحقِرُوا منه شيئًا، فإنَّ صغيرَه كبير، وقليله كثير، ولا يقولَنَّ أحدُكم: إنّ أحدًا أوْلى بفعلِ الخير منى، فيكونَ واللهِ كذلك، إن للخيرِ والشر أهلاً فمها تركتموه منهما كفاكمُوُه أهْلُهُ(٢٩).

●●●

(٤٢) منْ أصلحَ سَريرتَهُ أصلح الله علانيتهُ، ومن عمل لِدينِهِ كفاهُ اللهُ أمرَ دنياه، ومن احسَنَ فيما بينهُ وبينَ الله، أحسَنَ اللهُ ما بينَهُ وبينَ الناس(٣٠).

●●●

(٤٣) الحلمُ غطاء ساتر، والعقلُ حُسامٌ قاطع، فاسترْ خَلَلَ خُلُقِكَ بحلْمِك، وقاتلْ هَواكَ بعقْلِك(٣١)

●●●

(٤٤) الناسُ أعداءُ ما جَهِلُوا(٣٢).

●●●

(٤٥) الزهد كلّه بين كلمتين مِنَ القرآن؛ قال الله سبحانه: «**لكيْلاَ تأسوا على مَا فَاتَكُمْ، ولاتَفْرحُوا بما آتَاكُمْ**».(٣٣)، ومن لم يأسَ على الماضى، ولم يفرحْ بالآتى، فقد أخَذَ الزهد بطرفيه(٣٤).

●●●

---

(٢٨) السابق ٤١٨.

(٢٩) السابق ٤٢٠. أى أن ما تركتموه من الخير يقوم أهله بفعله بدلكم، وما تركتموه من الشر يؤديه عنكم أهله، فلا تختاروا أن تكونوا للشر أهلاً، ولا أن يكون عنكم فى الخير بدلاء.

(٣٠) السابق ٤٢٠.

(٣١) السابق ٤٢١.

(٣٢) السابق ٤٢٢.

(٣٣) الحديد ٢٣.

(٣٤) نهج البلاغة ٤٢٢.

(٤٦) مَنْ كُرمتْ نفسهُ هانت عليه شَهْوتُه(٣٥) .

●●●

(٤٧) ما المجاهدُ الشهيدُ فى سبيلِ الله بأعظمَ أجراً ممن قدَرَ فعفَّ ، لكادَ العفيفُ أن يكونَ مَلَكاً من الملائكة(٣٦) .

●●●

(٤٨) أشدُّ الذنوبِ ما استخفَّ به صاحِبُه(٣٧) .

●●●

(٤٩) إذا مات الإنسانُ انقطعَ عَمله إلا من ثلاث : صدقةٍ جاريةٍ ، وعلم كان علَّمَهَ الناسَ فانتفعُوا به ، وولدٍ صالحٍ يدعو له .

●●●

(٥٠) الجهلُ بالفضائِل عِدْلُ الموتِ .

●●●

(٥١) من لم يقهرْ حَسَدَهُ كانَ جَسَدُه قبراً لنَفْسه . (٣٨)

●●●

(٥٢) لهبُ الشوقِ أخَفُّ حملاً مِنْ مقاساةِ الملالةِ .

●●●

(٥٣) أكثروا ذكرَ الموت ، و يومَ خروجِكم من قبورِكم ، و يومَ وقوفكم بين يدى الله ـ عزَّ وجل ـ يهنْ عليكم المصاب .

●●●

---

(٣٥) السابق ٤٢٤ .

(٣٦) السابق ٤٢٧ .

(٣٧) السابق ٤٢٨ .

(٣٨) شرح ابن أبى الحديد ٥/٩٠٥ .

(٥٤) ماشيء أحقُّ بطولِ سجنٍ من لسان (٣٩)

•••

(٥٥) ياحملةَ العلم ، أتحملونَه ! ، فإنما العلمُ لمنْ عَلِمَ ثم عَمِل ، ووافق عملُهُ عِلْمَه ، وسيكون أقوامٌ يحملونَ العلمَ ، لايجاوزُ تراقيهم ، تخالفُ سريرتُهم علانيتَهم ، ويخالفُ عملُهم علْمهم ، يقعدون حَلَقا ، فيباهى بعضُهم بعضاً ، حتى إنَّ الرجلَ ليغضبُ على جليسه أن يجلسَ إلى غيره ، أولئك لاتصعدُ أعمالُهم فى مجالِسهم تلك إلى الله سبحانه . (٤٠)

•••

(٥٦) لاتصحبُوا الأشرارَ فإنهم يمنُّونَ عليكم بالسلامة منكم (٤١)

•••

(٥٧) ينبغى لمن ولِىَ أمرَ قومٍ أن يبدأ بتقويم نفسِه قبلَ أن يشرعَ فى تقويم رعيتِهِ ، وإلا كان بمنزلة من رامَ استقامةَ ظلِّ العودِ قبل أن يستقيم ذلك العود (٤٢)

•••

(٥٨) ينبغِي للوالى أنْ يعملَ بخصالٍ ثلاث : تأخيرِ العقوبةِ منه فى سلطانِ الغضب ، والأناةِ فيما يرتئيه من رأىٍ ، وتعجيلِ مكافأةِ المحسن بالإحسان ؛ فإن فى تأخير العقوبة إمكانَ العفو، وفى تعجيلِ المكافأةِ بالإحسان طاعةَ الرعية ، وفى الأناةِ انفساحَ الرأى وحمدَ العاقبة ، ووضوحَ الصواب .(٤٣)

•••

(٥٩) أعداء الرجلِ قد يكونون أنفعَ منْ إخوانه ؛ لأنهم يُهدونَ إليه عيوبَه فيتجنبها ، ويخافُ شماتتَهم به فيضبُط نعمتَه ، و يتحرَّز من زوالِها بغايةِ طوقه .

•••

---

(٣٩) شرح ابن أبى الحديد ٥/٩٠٩ .

(٤٠) السابق ٩١١ .

(٤١) السابق ٩١٢ .

(٤٢) السابق ٩١٣ .

(٤٣) شرح ابن أبى الحديد ٥/٩١٣ .

(٦٠) انظرْ وجهَك كلَّ وقتٍ فى المرآة، فإن كانَ حسناً فاستقْبحْ أن تضيفَ إليه فعلاً قبيحا وتَشينَه به ، وإن كان قبيحاً فاستقبحْ أن تجمعَ بين قبحين . (٤٤)

• • •

(٦١) يا ابن آدم ، احذَر الموتَ فى هذه الدارِ قبل أن تصيرَ إلى دارٍ تتمنى الموتَ فيها فلا تجدُه . (٤٥) .

• • •

(٦٢) ثلاثةٌ يُرحمون : عاقلٌ يجرى عليه حُكمُ جاهلٍ ، وضعيفٌ فى يدِ ظالمٍ قوىًّ ، وكريمُ قومٍ احتاج إلى لئيم . (٤٦)

• • •

(٦٣) البخيلُ يَسخُو من عرضِه بمقدارِ ما يبخلُ به من مالِه ، والسخىُّ يبخلُ من عِرضِه بمقدارِ ما يسخُو به من ماله . (٤٧)

• • •

(٦٤) لا يرضى عنكَ الحاسدُ حتى يموتَ أحدُكما .

• • •

(٦٥) نظرَ إلى رجلٍ يَغْتَابُ آخرَ عند ابنِه الحسن ، فقال : يا بنى نَزِّهْ سمعَك عنه ؛ فإنه نظرَ إلى أخبثِ ما فى وعائِه فأفرغه فى وعائِك . (٤٨)

• • •

(٦٦) قَصمَ ظهرى رجلان : جاهلٌ متنسِّكٌ ، وعالمٌ متهتكٌ . (٤٩)

• • •

---

(٤٤) السابق ٩١٤ .

(٤٥) السابق ٩١٦ .

(٤٦) السابق ٩١٨ .

(٤٧) السابق ٩٢٠ .

(٤٨) السابق ٩٢٢ .

(٤٩) السابق ٩٢٣ .

(٦٧) إذا أردتَ أن تصادقَ رجلاً فانظرْ من عدوُّه. (٥٠)

• • •

(٦٨) بلوغَ أعلى المنازلِ بغير استحقاقٍ من أكبر أسبابِ الهَلَكَةِ. (٥١)

• • •

(٦٩) مِنْ صفةِ العاقِلِ ألايَتحدثَ بما يُستطاعُ تكذيبُه فيهِ. (٥٢)

• • •

(٧٠) إذا أيسرتَ فكلُّ الرجالِ رجالُك، وإذا أعسرتَ أنكرَكَ أهلُكَ.

• • •

(٧١) خيرُ الناسِ مَنْ لم تجرِّبْه. (٥٣)

• • •

(٧٢) من عرفَ نفسَه فقد عرفَ ربَّه.

• • •

(٧٣) من عجزَ عن معرفةِ نفسهِ فهو عن معرفةِ خالقهِ أعجز.

• • •

(٧٤) شيطانُ كلِّ إنسانٍ نفسُه.

• • •

(٧٥) إن لم تعلمْ من أينَ جئتَ لم تعلمْ إلى أينَ تذهبُ. (٥٤)

• • •

(٧٦) أولُ رأيِ العاقلِ آخر رأيِ الجاهلِ.

• • •

---

(٥٠) السابق ٩٢٥.

(٥١) السابق ٩٢٦.

(٥٢) السابق ٩٢٧.

(٥٣) السابق ٩٢٨.

(٥٤) السابق ٩٢٩.

(٧٧) الحرُّ عبدٌ ماطَمِعَ ، والعبدُ حرٌّ ماقَنَع . (٥٥)

• • •

(٧٨) الدنيا حمقاءُ لاتميلُ إلاّإلى أشباهِها .

• • •

(٧٩) ضعفُ العقلِ أمَانٌ من الغمّ . (٥٦)

• • •

(٨٠) لاينبغى للعاقلِ أن يمدحَ امرأةً حتى تموتَ ، ولاطعاما حتى يستمرئَهُ ، ولاصديقاً حتى يستقْرِضَه . وليس مِنْ حُسْنِ الجوارِ تركُ الأذى ، ولَكنَّ حسنَ الجوار الصبرُ على الأذى .

• • •

(٨١) أعجزُ الناسِ من قصَّرَ فى طلبِ الصديق ، وأعجزُ منه من وَجَدَهُ فضيَّعَهُ . (٥٧)

• • •

(٨٢) الشيءُ الذى لايحسُنُ أن يقالَ وإنْ كانَ حقًّا ، مدحُ الإنسان نَفْسَهُ .

• • •

(٨٣) الشيءُ الذى لايُستَغْنَى عنه بحالٍ من الأحوال التوفِيقُ .

• • •

(٨٤) سَتْرُ ماعاينتَ أحسنُ مِنْ إشاعةِ ماظننْتَ .

• • •

(٨٥) التكبرُ على المتكبرينَ هو التواضُع بعينه .

• • •

---

(٥٥) السابق ٩٣٠.

(٥٦) السابق ٩٣١.

(٥٧) السابق ٩٣٢.

(٨٦) إذا رفعتَ أحداً فوق قدرِه فتوقعْ منه أن يحّط منك بقدرِ ما رفعتَ منه . (٥٨)

• • •

(٨٧) الزكاةُ نقصٌ فى الصورةِ وزيادة فى المعنى . (٥٩)

• • •

(٨٨) الولدُ العاقُّ كالإصبع الزائدة ، إن تركتْ شانَتْ ، وإن قُطعَتْ آلمتْ .

• • •

(٨٩) التواضعُ نعمةٌ لا يفطِنُ لها الحاسِدُ . (٦٠)

• • •

(٩٠) ماضربَ اللهَ العبادَ بسوطٍ أوجعَ من الفقر . (٦١)

• • •

(٩١) لا ينبغى للعاقِلِ أن يكونَ إلا فى إحدى مَنزلتين : إما فى الغايةِ القصوى من مطالب الدنيا ، وإما فى الغايةِ القصوى من التركِ لها . (٦٢)

• • •

(٩٢) قبيحٌ بذى العقلِ أن يكونَ بهيمةً ، وقد أمْكنَهُ أنْ يكونَ إنساناً ، وقد أمكنهُ أن يكونَ مَلَكاً ، وأنْ يرضَى لنفسه بقنْيةٍ معارة وَحياة مستَرَدَّة ، وله أن يتخذَ قنيةً مخلَّدةً وحياةً مؤبَّدة . (٦٣)

• • •

---

(٥٨) السابق ٩٣٣ .

(٥٩) السابق ٩٣٤ .

(٦٠) السابق ٩٣٥ .

(٦١) السابق ٩٣٦ .

(٦٢) السابق ٩٣٨ .

(٦٣) شرح ابن أبى الحديد ٩٣٩ : (القنية : الكسبة . والفعل : قنى) .

(٩٣) الخير كله فى السيف ، وما قام هذا الدين إلا بالسيف ، أتعلمون ما معنى قوله تعالى

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ (٦٤)

هذا هو السيف . (٦٥)

●●●

(٩٤) اجعلْ سرَّك إلى واحد ومشورتَكَ إلى ألفٍ . (٦٦)

●●●

(٩٥) لتكن دارُك أولَ ما يبتاعُ وآخرَ ما يباع . (٦٧)

●●●

(٩٦) إن يوماً أسكرَ الكبار وشيَّبَ الصغارَ لشَدِيد . (٦٨)

●●●

(٩٧) العلمُ سلطان منْ وجدَه صالَ به ، ومن لم يجدْه صِيل عليه .

●●●

(٩٨) منْ كانت همتُه ما يدخلُ جوفَه كانت قيمتُه ما يخرجُ منه . (٦٩)

●●●

(٩٩) احترسْ من ذكر العلم عند منْ لا يرغبُ فيه ، ومنْ ذكرِ قديم الشرفِ عند مَنْ لا قديمَ له ، فإنَّ ذلك مما يُحقِدُهُمَا عليكَ . (٧٠)

●●●

---

(٦٤) الحديد ٢٥

(٦٥) ابن ابى الحديد ٩٤٠ .

(٦٦) السابق ٩٤٢ .

(٦٧) السابق ٩٤٣ .

(٦٨) السابق ٩٤٤ .

(٦٩) السابق ٩٤٨ .

(٧٠) السابق ٩٥٠ .

(١٠٠) إذا ظفرتُم فأكرِمُوا الغَلَبة ، وعليكم بالتغافل ؛ فإنهُ فعل الكرامِ ، وإياكُم والمنّ ؛ فإنهُ تهدِمةٌ للصنيعةِ ، منْبَهَةٌ للضغينة . (٧١)

● ● ●

(١٠١) الجاهلُ صغيرٌ وإنْ كانَ شَيخا ، والعالِمُ كبيرٌ وإن كانَ حَدَثاً . (٧٢)

● ● ●

(١٠٢) لما قتل عماربن ياسر اضطرب أهل الشام لما بلغهم من قولِ النبى ــ عليه السلام لعمار « **تقتلك الفئة الباغية** » ، فهدأهم معاوية بقوله : « إنما قتله من أخرجه » فلما بلغ عليا ذلك قال « فرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذن قاتل حمزة » .

● ● ●

(١٠٣) هذا يدِى ــ يعنى ولَده محمدبن الحنفية ــ وهذان عَيْناى ــ يعنى ــ حسناً وحُسَيْنا ــ ومازالَ الإنسانُ يذبُّ بيدِه عن عينَيْه . (قالها لمن قال له : إنكَ تعرِّض محمدا للقتل ، وتقذفَ به فى نحور الأعداء دون أخويه) . (٧٣)

● ● ●

(١٠٤) لا تلتبَسْ بالسلطانِ فى وقتِ اضطرابِ الأمور عليه ؛ فإن البحرَ لا يكادُ يسلمُ صاحبُه فى حالِ سكونه . فكيف يسلمُ مع اختلافِ رياحِه واضرابِ أمواجِه . (٧٤)

● ● ●

---

(٧١) السابق ٩٥١ .

(٧٢) السابق ٩٥٤ .

(٧٣) السابق ٩٥٨ .

(٧٤) السابق ٩٦٥ .

(١٠٥) وقّع إلى طلحة بن عبيد الله :
فى بيتِه يُؤتَى الحَكم .

• • •

(١٠٦) ووقّع فى كتاب سليمان الفارسى (وكان سأله : كيف يحاسبُ الناسُ يومَ القيامة) :
يحاسبون كما يُرزقون .

• • •

(١٠٧) ووَقّع فى كتاب الحصين بن المنذر إليه يذكر أن السيف قد أكثر فى ربيعة :
بقية السيفِ أنْمى عَدَدًا .

• • •

(١٠٨) ووقّع فى كتاب جاءه من الأشترِ النَّخْعى فيه بعض ما يكره :
منْ لك بأَخيكَ كلّه .

• • •

(١٠٩) ووقّع فى كتابِ صعصعةَ بن صوحان يسأله فى شئ :
قيمةُ كلِّ امرىءٍ ما يحْسن .

• • •

(١١٠) ووقّع فى كتاب جاءه من ابنِه الحسن : رأىُ الشيخ خيرٌ منْ مَشْهدِ الغَلامِ .

الشريحة الرابعة

الجدل والحوار

(١) على ودم عثمان (*)

قال معبدٌ الخُزاعىّ : لقيتُ عليّا بعدَ الجمل ، فقلتُ له : إنى سائلُك عن مسألةٍ كانت منك ومن عثمان ، فإن نجوتَ اليومَ نجوتَ غداً إن شاء الله . قال : سَلْ عما بدالك . قلتُ : أخبرنى أىّ منزلة وسعتْك إذ قُتل عثمان ولم تَنْصره ؟ قال إنّ عثمانَ كان إماماً وإنه نهىَ عن القِتال ، وقال : مَن سَلّ سيفَه فليس منّى ، فلو قاتلْنا دونه عَصَينا . قال : فأى منزلة وسعت عثمان إذ آستسلَم حتى قُتِل ؟ قال : المنزلةُ التى وسعت آبنَ آدم ، إذ قال لأخيه :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قلت : فهلا وسعتك هذه

(*) العقد الفريد ٤/٣٠٢.

(١) المائدة ٢٨.

المنزلةُ يومَ الجمل ؟ قال : إنا قاتلْنا يومَ الجمل مَن ظلَمنا ، قال الله :

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝ ﴾(٢)

فقاتلنا نحن مَن ظلَمنا وصَبر عثمانُ ، وذلك من عَزْم الأمور.

(٢) لماذا يقاتل (*) ؟ !

ومن حديث بكر بن حمّاد : إن عبدالله بن الكَوّاء سأل عليَّ بن ابى طالب يوم صِفّين ، فقال له : أَخْبِرْنى عن مَخْرجك هذا ، تَضربُ الناسَ بَعضَهم ببعض، أعهدٌ إليك عهدَهُ رسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أم رَأْى ٱرتأيتَه ؟ قال علىّ: اللهم إنىّ كنتُ أولَ من آمنَ به فلا أكون أولَ مَن كذبَ عليه ، لم يكن عندى فيه عَهْدٌ مِن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلّم ــ ولو كان عندى فيه عَهد مِن رسولِ الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ لما تركتُ أخاتيم وعدىّ (٣) على منابرها ؛ ولكنّ نبّينا ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ كان نبّى رحمة ، مَرِض أياماً وليالى ، فقدَّم أبابكر على الصلاة ، وهو يرانى و يَرى مكانى . فلما تُوفى رسولُ الله ــ صلّى الله عليه وسلم ــ رضيناه لأمر دُنيانا إذ رَضِيَه رسولُ الله لأمر ديننا . فسلّمتُ له (٤) و بايعتُ وسمعتُ وأطعتُ ، فكنتُ آخذُ إذا أعطانى ، وأغْزو إذا أغزانى ، وأقيم الحُدود بين يديه . ثم أتته مَنيّتُه ،

---

(٢) الشورى ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ .

(*) العقد الفريد ٤/٣٠٣.

(٣) أخوتيم : أبوبكر. أخوعدى : عمربن الخطاب .

(٤) أى سلمت له بالخلافة .

فرأى أنَّ عمرَ أطوقُ (٥) لهذا الأمر من غيره ، ووالله ما أراد به المُحاباة ، ولو أرادها لجعلها فى أحَد ولَدَيْه . فسلّمتُ له وبايعتُ وأطعتُ وسمعتُ ، فكنتُ آخذُ إذا أعطانى ، وأغزو إذا أغزانى ، وأقيم الحدودَ بين يديه . ثم أتته منيّتُه ، فرأى أنه من استخلف رجلاً فعمل بغير طاعة الله عَذّبه الله به فى قَبره ، فجعلها شُورى بين سّتةِ نفر من أصحاب رسول الله ـــ صلّى الله عليه وسلم ـــ وكنتُ أحدَهم ، فأخذ عبدُالرحمن (٦) مواثيقنا وعُهودنا على أن يَخْلع نفسه وَ ينظر لعامّةِ المُسلمين ، فبَسط يَده إلى عثمان فبايعه . اللهم إن قلتُ إنى لم أجد (٧) فى نفسى فقد كذبتُ ، ولكننى نظرتُ فى أمرى فوجدتُ طاعتى قد تقدّمت مَعْصيتى ، ووجدتُ الأمر الذى كان بيدى قد صار بيد غيرى . فسلّمت وبايعتُ وأطعتُ وسمعتُ ، فكنت آخذُ إذا أعْطانى ، وأغزو إذا أغزانى ، وأقيم الحدودَ بين يديه . ثم نَقِمَ الناسُ عليه أموراً فقَتلوه ، ثم بقيتُ اليومَ أنا ومُعاوية ، فأرى نفسى أحقَّ بها من مُعاوية ؛ لأنى مُهاجرىّ وهو أعرابىّ ، وأنا ابنُ عم رسول الله وصِهرُه ، وهو طليقٌ ابن طليق (٨) . قال له عبدُالله بن الكَوّاء : صدقتَ ، ولكنّ طلحةَ والزُّبير، أما كان لهما فى هذا الأمر مثلُ الذى لك ؟ قال : إن طلحةَ والزُّبيرَ بايعانى فى المدينة ونَكثا (٩) بَيعَتى بالعراق ، فقاتلتُهما على نَكْثِهما ، ولو نَكثا بيعة أبى بكر وعُمر لقاتلاهما على نَكْثِهما كما قاتلتُهما . قال : صدقتَ ، ورجع إليه .

(٥) طاق الرجل الأمر وأطاقه : قدر عليه ، وهو أطوق لهذا الأمر أى أقدر عليه .

(٦) هو عبدالرحمن بن عوف .

(٧) وجد : يجُد (بضم الجيم وكسرها) وجدا وجدة وموجدة ووجدانا : غضب .

(٨) الطليق : الأسير الذى أطلق عن إساره وخلّى سبيله ويجمع على طلقاء . وفى الحديث الشريف « الطلقاء من قريش والمعتقاء من ثقيف » والطلقاء هم الذين خلى النبى عنهم يوم فتح مكة وأطلقهم فلم يسترقهم (انظر لسان العرب وانظر سيرة ابن هشام ٤ / ١٢) .

(٩) نكث البيعة : نقضها .

(٣) قوله فى عثمان (*)

محمدُ بن حاطب قال : قال لى علىٌّ يومَ الجمل : انطلقْ إلى قومك فأبلغهم كُتبى وقَوْلى . فقلت : إن قَومى إذا أتيتُهم يقولون : ما قوْلُ صاحبك فى عُثمان ؟ فقال : أخبرهم أن قولى فى عثمان أحسنُ القول ، إن عثمان كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ ، ثم اتقَوْا وآمنوا ثم اتقَوْا وأحسنوا والله يحب المُحسنين . (١٠)

(٤) ثأرُ عثمان (*)

رجع علىٌّ إلى بيته ، فدخل عليه طلحةُ والزبير فى عدد من الصحابة فقالوا : يا علي إنّا قد اشترطنا إقامَة الحدود ، وإن هؤلاء القومَ قد اشتركُوا فى قتلِ هذا الرجل وأحلّوا بأنفسهم(١١) . فقال : يا إخوتاه إنّى لستُ أجهلُ ما تعلمون ، ولكن كيفَ أصنعُ بقوم يملكوننا ولا نملكُهم ؟ ها هم هؤلاءِ قد ثارتْ معهم عبدانكم وثابت(١٢) إليهم أعرابكم وهم خِلاطُكم(١٣) يسومونكم(١٤) ما شاؤوا ، فهل ترَون موضعاً لقدرة على شىء مما تريدون ؟ قالوا : لا . قال : فلا والله لا أرى إلاّ رأياً ترَونه أبداً إلاّ أن يشاء الله . إن هذا الأمر أمرُ جاهلية وإن لهؤلاء القوم مادة(١٥) ، وذلك أن الشيطانَ لم يَشْرع شريعةً قط فيبرحُ الأرض مَنْ أخذ بها أبداً . (١٦) إن الناسَ من هذا الأمر إن

(*) العقد الفريد ٤/ ٣٠٥ .

(١٠) يقول تعالى فى سورة المائدة ٩٣ : « ليسَ على الذين آمنُوا وعملوا الصالحات جناحٌ فيما طعِمُوا إذا ما اتَّقُوا وآمنُوا وعملوا الصالحاتِ ثم اتقوْا وآمنُوا ثم اتقوا وأحسنُوا واللهُ يحب المحسنين .

(*) الكامل لابن الأثير ٣/ ١٩٥ .

(١١) أى : استوجبوا العقوبة .

(١٢) ثاب : اجتمع .

(١٣) مخالطون بكم : متداخلون معكم .

(١٤) يسومونكم ما شاءوا : يفرضون عليكم ما يريدون . يقال : سامه خسفا : أولاه إياه وفرضه عليه .

(١٥) مادّة الشىء : ما يمده . و يقصد بالمادة هنا : الأعوان والأنصار والقوة .

(١٦) يقصد أن أى زمن لا يخلو ممن يستجيبون للشيطان ويتبعون سننه

حُرِّكَ على أمور : فرقةٌ ترى ما ترون ، وفرقةٌ ترى ما لاَ ترون ، وفرقةٌ لا ترى هذا ولا هذا ، حتى يهدأ الناس وتقعَ القلوب مواقعَها وتؤخذَ الحقوق ، فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثمَّ عودوا . واشتدّ على قريش وحال بينهم وبين الخروج على حالها ، وإنّما هيَّجهُ على ذلك هربُ بني أميّة وتفرّق القوم ، فبعضهم يقول : ما قال : عليّ ، وبعضُهم يقول : نَقْضي الذى علينا ولا نؤخرُه ، والله إن عليّاً لمستغنٍ برأيه(١٧) وليكونن أشدَّ على قريش من غيره .

فسمع ذلك فخطبهم وذكر فضلهم وحاجته إليهم ونظَره لهم وقيامَه دونهم وأنّهُ ليس له من سلطانهم . إلا ذاك(١٨) والأجرُ من الله عليه ، ونادى : برئت الذمةُ من عبد لا يرجعُ إلى مولاه . فتذامرتِ السبئية(١٩) والأعراب وقالوا : لنا غداً مثلها ولا نستطيع نحتجَ فيهم بشيء . وقال : أيّها الناسُ أخرِجوا عنكم الأعرابَ فليلحقوا بمياههم ، فأبت السبئيةُ وأطاعهم الأعراب . فدخل عليٌّ بيته ، ودخل عليه طلحةُ والزبير وعدةٌ من أصحاب النبيّ — صلّى الله عليه وسلّم — فقال : دونكم ثأركم فاقتلوه(٢٠) فقالوا : عشوا عن ذلك . فقال : هم والله بعد اليوم أعشى ! وقال :

ولَوْ أنَّ قومي طاوعتني سَراتُهُم أمرتُهُمُ أمراً يديخُ الأعاديا(٢٢)

وقال طلحة : دعْني آتِ البصرةَ فلا يفجأك إلاّ وأنا فى خيل وقال الزبير : دعني آتِ الكوفَة فلا يفجأك إلاّ وأنا فى خيل(٢٣) . فقال : حتي أنظر فى ذلك .

---

(١٧) منفرد مستبد به .

(١٨) أى : إلا رعايتهم والنظر فى أمورهم .

(١٩) أتباع عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء ، وكان من يهود صنعاء وتظاهر بالإسلام فى عهد عثمان (انظر أحمد عطية الله : القاموس الإسلامى ٣/ ٢٢٢) .

(٢٠) الثأر هو الذَّحل . و يأتى بمعنى قاتل الحميم . فيقال قتلت ثأرى أى قتلت قاتل حيمى ، و يقال للثائر أيضاً ثأر ، فكل واحد من الطالب والمطلوب ثأر صاحبه .
يقول على : هاهم أولاد الأعراب والسبيئة ومن مالأهم قد نهضوا وهم ثأركم فاقتلوهم إن استطعتم . يريد بذلك أن الثأر لعثمان — والحال كذلك — أمر مستحيل .

(٢١) عموا وجهلوا ولم يدركوا حقيقة الحال .

(٢٢) السَّراة : جمع سرى : وهو العظيم الشريف .

(٢٣) يطلب كل منهما الخروج والعودة بجند يعين على الشاغبين من الاعراب والسبئية ومن مالأهم .

(٥) بين علي وابن عباس (*)

قال ابنُ عباس: أتيتُ علياً بعد قتل عثمان عند عَوْدي من مكّة فوجدتُ المغيرةَ ابن شعبة مستخلياً به، فخرج من عنده، فقلت له: ما قال لك هذا؟ فقالَ: قال لي قبل مَرته هذه: إن لكَ حقّ الطاعةِ والنصيحة، وأنت بقيةُ الناس، وإن الرأيَ اليوم تُحرزُ[٢٤] به ما في غد، وإن الضّياع اليوم يضيّع به ما في غد، أقرِرْ معاويةَ وابنَ عامر وعمالَ عثمان على أعمالهم حتى تأتيكَ بيْعهتهم ويسكنَ الناسُ، ثمّ اعزلْ من شئتَ، فأبيتُ عليه ذلك وقلت: لا أداهنُ في ديني ولا أعطي الدنيّة[٢٥] في أمْري. قال: فإنْ كنتَ أبيتَ عليّ فانزع مَن شئتَ واترك معاوية، فإن في معاويةَ جرأة، وهو في أهل الشام يُستمعُ منه، ولك حُجّة في إثباتِه، كان عمر بن الخطّاب قد ولاّه الشام. فقلتُ: لا والله لا أستعملُ معاوية يومين! ثمّ انصرف من عندي وأنا أعرفُ فيه أنّه يودُّ أنّي مخطىء، ثم عاد إليّ الآن فقال: إنّي أشرتُ عليك أوّلَ مرّة بالذي أشرتُ وخالفتَني فيه، ثمّ رأيتُ بعدَ ذلك أن تصنعَ الذي رأيتَ فتعزلَهم وتستعينَ بمن تثقُ به، فقد كفى اللهُ وهم أهونُ شوكةً ممّا كان. قال ابن عبّاس: فقلتُ لعليّ: أمّا المرّة الأولى فقد نصحَك، وأمّا المرّة الثانية فقد غَشّك، قال: ولمَ نَصَحني؟ قلتُ: لأنّ معاويةَ وأصحابَه أهل دنيا فمتى تثبّتهم لا يبالُوا مَنْ وليَ هذا الأمر، ومتى تعزِلْهم يقولوا: أخذَ هذا الأمر بغير شورى وهو قتلَ صاحبَنا؛ ويؤلّبون عليك، فتنتقضُ[٢٦] عليك الشامُ وأهلُ العراق، مع أنّي لا آمنُ طلحةَ والزبيرَ أن يكرّا عليك، وأنا أشيرُ عليك أن تثبتَ معاوية، فإن بايع لك فَعَليّ أن أقلِعَه من منزله[٢٧]، وقال عليّ: والله لا أعطيه إلاّ السيفَ! ثمّ تمثّل:

---

(٥) الكامل لابن الأثير ٣/١٩٧.

(٢٤) تحرز: تحمى وتحصن. والحِرز: هو الموضع الحصين.

(٢٥) الدنية والدنيئة: النقيصة والأمر الخسيس.

(٢٦) تتألب وتتمرد.

(٢٧) أي أنا كفيل بخلعه وعزله.

وماميتةٌ إن متُّها غيرَ عاجزٍ   بعارٍ إذا ما غالتِ النفسَ غُولُها (٢٨)

قلت : ياأمير المؤمنين أنتَ رجلٌ شجاع لستَ صاحبَ رأى فى الحرب ، أما سمعتَ رسولَ الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ يقول : الحربُ خُدعة (٢٩) ؟ فقال : بلى . قلتُ : أمّا واللهِ لئن أطعْتني لأُصدرنَّهم بعد وِرْد (٣٠) ، ولأتركنّهم ينظرون فى دُبر(٣١) الأمور لايعرفون ما كان وجهها ، فى غير نقصان عليك ولا إثم لك . فقال : ياابن عباس لستُ من هناتِك ولا من هِنات معاوية فى شىء (٣٢) . قال ابن عباس : فقلتُ له أطعْني والْحق بما لك بيَنْبُع وأغْلِقْ بابك عليك ، فإن العربَ تجول جولة وتضطربُ ولا تجدُ غيرك ، فإنّكَ والله لئِن نهضتَ مع هؤلاء اليوم ليحمِّلنّك الناسُ دمَ عثمانَ غداً (٣٣) . فأبَى علىٌّ فقال : تشيرُ علىَّ وأرى فإذا عصيتك فأطعني . قال فقلت : أفعلُ ، إن أيسرَ مالَكَ عندى الطاعة . فقال له علىّ : تسير الى الشام فقد وليتكها . فقال ابنُ عباس : ماهذا برأى ، معاويةُ رجلٌ من بني أميّة وهو ابن عم عثمان وعاملهُ ولستُ آمنُ أن يضربَ عنقي بعثمان ، وإنَّ أدنىَ ماهو صانعٌ أن يحبِسَني فيتحكم علىَّ لقرابتي منك ، وإن كلَّ ماحُمِلَ عليك حُمِلَ علىّ(٣٤) ، ولكن أكتبْ إلى معاوية فَمَنِّه وعِدْه . فقال : لاوالله ، لاكان هذا أبداً !

وكان المغيرة يقول : نصحته فلمّا لم يقبل غَشَشْتُه . وخرج فلحق بمكّة .

---

(٢٨) غالها الغول : أدركها الموت .

(٢٩) أى : أنها تعتمد على الحيلة والدهاء .

(٣٠) كناية عن القدرة والدهاء و براعة التصرف . وفى هذا المعنى يقال كذلك « فلان يعرف موارد الأمور ومصادرها » و« فلان إذا أورد امراً أصدره » (انظر أساس البلاغة مادة صدر) .

(٣١) الدُّبْر والدُّبُر: الظهر. وقوله « ينظرون فى دبر.. » كناية عن حيرتهم وتخبطهم .

(٣٢) الهنات والهنوات الهنيات : خصال السوء .

(٣٣) كان ابن عباس بعيد النظر إذ نصح عليا بهجر المدينة التى كانت تموج بالشاغبين الى ينبع حتى لايتهم بممالأتهم على قتل عثمان .

(٣٤) أى : أننى متهم ــ لصلتى بك ــ بكل ما أنت به متهم ، ومن ذلك دم عثمان .

(٦) بين على وابنه الحسن (*)

أتاه ابنه الحسن فى الطريق فقال له: لقد أمرتُك فعصيتني فتُقتل غداً بمضيعةٍ لاناصرَلك. فقال له عليّ: إنّك لاتزال تَخِنُّ خنينَ الجارية (٣٥)، وما الذى أمرتني فعصيتك؟ قال: أمرتُك يومَ أحيطَ بعثمان أن تخرج من المدينة فيُقتلُ ولستَ بها، ثمّ أمرتُك يوم قُتلِ أن لاتبايعَ حتى تأتيك وفودُ العرب وبيعةُ أهل كلّ مصر فإنّهم لن يقطعوا أمراً دونك، فأبيتَ عليّ، وأمرتُك حين خَرجَتْ هذه المرأة(٣٦) وهذان الرجلان (٣٧) أن تجلسَ فى بيتك حتى يصطلحوا فإن كان الفسادُ كان على يد غيرك، فعصيتني فى ذلك كلّه.

فقال: أيْ بني! أما قولك: لو خرجتَ من المدينة حين أحيط بعثمان، فوالله لقد أحيط بنا كما أُحيطَ به، وأمّا قولك: لاتبايع حتى يبايع أهل الأمصار، فإن الأمرَ أمرُ أهل المدينة، وكرهنا أن يضيعَ هذا الأمر، ولقد مات رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — وماأرى أحداً أحقَّ بهذا الأمر مني، فبايعَ الناسُ أبابكر الصديقَ فبايعتُه، ثمّ إن أبابكر انتقل الى رحمةِ الله وماأرى أحداً أحقَّ بهذا الأمر مني، فبايع الناسُ عمرَ فبايعتُه، ثمّ إن عمرَ انتقلَ الى رحمةِ الله وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني فجعلَني سهماً من ستة أسهم (٣٨)، فبايع الناسُ عثمان فبايعتُه، ثمّ سارَ الناسُ الى عثمانَ فقتلوه وبايعوني طائعين غيرَ مُكرهين، فأنا مُقاتلُ من خالفني بمن أطاعني حتى يحكمَ الله، وهوخيرُ الحاكمينَ. وأمّا قولك أن أجلس فى بيتي حين خرج طلحة والزبير، فكيف لي بما قد لزمني أومن تريدني؟ أتريدني أن أكون كالضبع التي يحاط بها ويقال: ليست ههنا حتى يحل عرقوباها حتى تخرج! وإذا لم أنظر فيما يلزمني من هذا الأمر ويعنيني فمن ينظر فيه؟ فكفّ عنك يابنى.

(*) الكامل لابن الأثير/٣/٢٢٢.
(كان على حريصا على أن يمنع طلحة والزبير من الوصول إلى البصرة بالعراق فيردهما أويوقع بهما، ولكنه لم يدركهما فأقام بالزبذة فلحق به ابنه الحسن.

(٣٥) أصل الخنين: خروج الصوت من الأنف أما الحنين فخروج الصوت من الفم. والخنين: بكاء المرأة دون الانتحاب.

(٣٦) عائشة.

(٣٧) طلحة والزبير.

(٣٨) هم ستة الشورى: على، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبى وقاص، وعبدالرحمن بن عوف.

(٧) بين علي والزبير يوم الجمل (*)

لمّا تراءى الجمعان خرج الزبير على فرس عليه سلاح، فقيل لعليّ: هذا الزبير. فقال: أما إنّه أحرَى الرجلين إن ذُكِّر بالله تعالى أن يذكر.

وخرج طلحة فخرج إليهما عليّ حتى اختلفت أعناق دوابهم، فقال عليّ: لعمري قد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً إن كنتما أعددتما عند اللّه عذراً، فاتقيا الله ولا تكونوا ﴿ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾ (٣٩)

ألم أكن أخاكما في دينكما تحرِّمان دمي وأُحرِّمَ دمكما، فهل من حدث أحلّ لكما دمي؟ قال طلحة: ألبّتَ على عثمان. قال عليّ:

﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ (٤٠)

ياطلحة، تطلبُ بدم عثمان فلعن اللّه قَتَلةَ عثمان! ياطلحة، أجئتَ بعِرْس(٤١) رسول اللّه — صلى الله عليه وسلّم — تقاتل بها وخبأتَ عِرسَك في البيت! أما بايعتني؟ قال: بايعتُك والسيفُ على عنقي. فقال عليّ للزبير: يازبير ماأخرجَك؟ قال: أنتَ، ولاأراك لهذا الأمر أهلاً ولا أولى به منّا. فقال له عليّ: ألستُ له أهلاً بعدَ عثمان؟ قد كنّا نعدُّك من بني عبدالمطلب حتى بلغ ابنُك ابن السوء ففرّق بيننا. وذكّره أشياء، وقال له: تذكرُيوم مررتَ مع رسولِ الله — صلّى الله عليه وسلّم — في بني غنم فنظر إليّ فضحك وضحكتُ إليه فقلتَ له لايدع ابن أبي طالب زَهْوه(٤٢)، فقال لك رسولُ الله — صلّى الله عليه وسلّم —: ليس به زهو، لتقاتلنّه وأنتَ ظالم له. قال: اللهم نعم، ولو ذكرتُ ماسرتُ مسيري هذا، والله

(*) الكامل لابن الأثير ٣/٢٣٩.

(٣٩) النحل:٩٢.

(٤٠) النور:٢٥.

(٤١) العرس بكر العين: الزوجة والجمع أعراس. وعرس رسول الله عائشة رضىّ الله عنها.

(٤٢) الزهو: الكبر والفخر.

لاأقاتلك أبداً . فانصرفَ عليّ إلى أصحابه فقال : أمّا الزبيرُ فقد أعطى اللهَ عهداً أن لا يقاتلكُم . ورجع الزبيرُ إلى عائشة فقال لها : ما كنتُ في موطنٍ منذُ عقلتُ إلاّ وأنا أعرفُ فيه أمري غيرموطني هذا . قالتْ : فما تريد أن تصنعَ ؟ قالَ : أريدُ أن أدَعَهمْ وأذهبَ . قال له ابنه عبدالله ، جمعتَ بين هذين الفارين (٤٣) حتى إذا حدّد بعضهم لبعض(٤٤) أردتَ أن تتركهم وتذهب ، لكنّك خشيتَ راياتِ ابن أبي طالب وعلمتَ أنها تحملها فتيةٌ أنجادٌ(٤٥) وأن تحتها الموت الأحمر فجبنتَ . فأحفَظَه ذلك ، وقال : إنّي حلفتُ أن لا أقاتله . قال : كَفِّرْ عن يمينك وقاتِلْهُ . فأعتق غلامه ، مكحولاً ، وقيل سرجس ، فقال عبدالرحمن بن سليمان التميمي :

لم أرَ كاليومِ أخا إخوانِ أعجبَ مِنْ مُكَفِّرِ الأيمانِ

الأبيات . وقيل : إنّما عاد الزبيرعن القتال لما سمع أن عمّاربن ياسر مع عليّ ، فخاف أن يقتل عمّاراً ، وقد قال النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ : «يا عمّار تقتلك الفئةُ الباغية »(٤٦)

(٨) على والتحكيم والخوارج (*)

لمّا رأى عمرو أن أمر أهل العراق قد اشتدّ وخافَ الهلاك قال لمعاوية : هل لك في أمر أعرضُه عليك لايزيدُنا إلاّ اجتماعاً ولايزيدهم إلاّ فُرقة ؟ قال : نعم . قال : نرفعُ المصاحفَ ثمّ نقولُ لما فيها : هذا حكم بيننا وبينكم ، فإن أبَى بعضهم أن يقبلها وجدتَ فيهم من يقول : ينبغي لنا أن نقبل ، فتكون فُرقةٌ بينهم ، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتالَ عنّا إلى أجَل .

---

(٤٣) الجيشين .

(٤٤) واجه كل منها الآخر.

(٤٥) أنجاد : جمع نجد وهو السريع الملبي عند الحاجة .

(٤٦) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/٢٤٨ . وتاريخ الطبرى ٥ / ٣٨ .

(*) الكامل لابن الأثير ٣ / ٣١٦ (وكان ذلك سنة ٣٧ هـ)

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالُوا: هذا حكمُ كتاب الله ــ عزّ وجل ــ بيننا وبينكم، من لثغور الشام بعدَ أهلِه؟ من لثغور العراق بعد أهله؟ فلمّا رآها الناسُ قالوا: نُجيبُ إلى كتاب الله. فقال لهم عليّ: عبادَ الله امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوّكم فإن معاوية وعمَراً وابن أبي معيط وحبيباً وابن أبي سرح والضحاكَ ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعْرَفُ بهم منكم، قد صحبتهم أطفالاً ثمّ رجالاً فكانُوا شرَّ أطفالٍ وشرَّ رجال، ويحكم والله ما رفعوها إلاّ خديعةً ووهناً(٤٧) ومكيدةً. فقالوا له: لايسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله فنأبَى أن نقبله! فقال لهم عليّ: فإنّي إنّما أقاتلهم ليدينوا(٤٨) لحكم الكتاب فإنّهم قد عصَوا الله فيما أمرَهم ونسُوا عهده ونبذوا كتابه(٤٩). فقال له مِسْعَربن فَدَكي التميمي وزيدُ بن حُصين الطائي، في عصابةٍ من القراء الذين صاروا خوارجَ بعد ذلك: ياعلي أجبْ إلى كتاب الله ــ عزّ وجل ــ إذ دُعيتَ إليه وإلاّ دفعناك بُرمتك إلى القوم أو نفعل بك مافعلنا بابن عفّان! قال: فاحفظُوا عني نهيي ايّاكم واحفظُوا مقالَتكُم لي، فإن تطيعوني فقاتِلُوا وإن تعصُوني فاصنعُوا مابَدا لكم. قالوا: ابعثْ إلى الأشتر فليأتِك. فبعث عليٌّ يزيدَبن هانيء إلى الأشتر يستدعيه. فقال الأشتر: ليست هذه الساعة بالساعة التى ينبغي لك أن تزيلَني فيها عنْ موقفي، إنّني قد رجوتُ أن يفتَحَ اللهُ لي! فرجع يزيد فأخبره، وارتفعت الأصواتُ وارتفع الرهج(٥٠) من ناحية الأشتر، فقالوا: والله مانراك إلاّ أمرتَه أن يقاتِل! فقال عليٌّ: هل رأيتموني ساررْتُه؟ أليس كلّمتُه على رؤوسكم وأنتم تسمعون؟ قالوا: فابعثْ إليه فليأتِك وإلاّ والله اعتزلناك! فقال له: وَيلك يايزيد اقل له: أقبِلْ إليَّ فإن الفتنة قد وقَعتْ. فأبلغَه ذلك، فقال الأشتر: ألِرفع المصاحف؟ قال: نعم. قال: واللهِ لقد ظننتُ أنّها ستوقعُ اختلافاً وفُرقَة! إنّها مشورة ابن العاهر(٥١)! ألا ترى إلى الفتح؟ ألا ترى مايلقَوْن ألا ترى

---

(٤٧) الوهن: الضعف.

(٤٨) يخضعوا.

(٤٩) تركوا وهجروا.

(٥٠) الرَّهَج: الغبار. وارتفاعه كناية عن شدة القتال وضراوته.

(٥١) يقصد عمرو بن العاص.

ما صنعَ الله لنا ؟ لن ينبغي أن أدعَ هؤلاء ! وانصرفَ عنهم . فقال له يزيد : أتحبُّ أن تظفرَ وأميرُ المؤمنين يسلَّمُ إلى عدوّه أو يُقتل ؟ قال : لا والله ، سبحانَ الله ! فأعلمه بقولهم . فأقبل إليهم الأشتر وقال : يا أهل العراق ! يا أهل الذلّ والوهن ! أحينَ علوتم القومَ وظنُّوا أنّكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونَكم إلى ما فيها وهمْ واللهِ قد تركوا ما أمَر اللهُ به فيها وسنَّةَ من أُنزلتْ عليه ؟ فأمهلونى فُواقا (٥٢) فإنّي قد أحسستُ بالفتح . قالوا : لا . قال : أمهلوني عَدْوَ الفرس فإنيّ قد طمعتُ فى النصر . قالوا : إذن ندخُل معك فى خطيئتك . قال : فخبرونى عنكم متى كنتم محقين ؟ أحين تقاتلون وخياركم يُقتلون ؟ فأنتم الآن إذ أمسكتم عن القتال مبطلون أم أنتم الآن محقون ؟ فقتلاكم الذين لا تنكرون فضلهم وهم خير منكم فى النار . قالوا : دَعْنا منك يا أشتر، قاتلناهم لله وندعُ قتالَهم لله ! قال : خُدعتم فانخدعتُم وَدُعيتم إلى وضع الحرب (٥٣) فأجبتم ، يا أصحاب الجباه السود (٥٤) ! كنّا نظنّ صلاتكم زهادة فى الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله ، فلا أرى مرادَكم إلاّ الدنيا ، ألا قبحاً يا أشباه النِّيب الجَلاَّلة ! (٥٥) ما أنتم برائين بعدها عزّا أبداً فابعدوا كما بَعُدَ القوم الظالمون (٥٦) ! فسبوه وسبّهم وضربوا وجْهَ دابته بسياطهم وضربَ وجوهَ دوابهم بسوطِه فصاح به وبهم عليّ فكفوا . وقال الناس : قد قبلنا أن نجعل القرآنَ بيننا و بينهم حكَماً .

فجاء الأشعث بن قيس إلى عليّ فقال : أرى الناسَ قد رضُوا بما دَعَوْهم إليه من حكم القرآن فإن شئتَ أتيتُ معاوية فسألتهُ ما يريدُ . قال : ائته . فأتاه، فقال لمعاوية : لأيّ شيء رفعتُم هذه المصاحف ؟ قال : لنرجعَ نحنُ وأنتم إلى ما أمرَ الله به فى كتابه ، تبعثونَ رجلاً ترضُون به ونبعث نحن رجلاً نرضى به ، نأخذُ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدُوانه ثمّ نتّبعُ ما اتفقا عليه . قال له الأشعث : هذا الحقّ . فعاد إلى عليّ فأخبره ، فقال الناسُ : قد رضينا وقبلنا . فقال أهلُ الشام : قد رضينا عَمْراً .

---

(٥٢) الفَواق (بفتح الفاء وضمها) ما بين الحلبتين من وقت وهو ساعة أو بعض ساعة .

(٥٣) وضع الحرب : إنهاؤها .

(٥٤) وذلك من كثرة صلواتهم وطول التصاق جباههم بالأرض لطول سجودهم .

(٥٥) النيب : جمع ناب : وهى الناقة المسنة . والجلاّلة : آكلة النجاسات .

(٥٦) فى القرآن الكريم « وقيل بعدا للقوم الظالمين » هود ٤٤ « فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين » المؤمنون ٤١ .

وقال الأشعث وأولئك القومُ الذين صاروا خوارج : إنّا قد رضينا بأبي موسى الأشعرى . فقال عليّ : قد عصيتُموني فى أول الأمر فلا تعصونى الآن ، لا أرى أن أولي أبا موسى . فقال الأشعث ، وزيد بن حُصَين ، ومِسْعَر بن فَدكى : لا نرضى إلاّ به فإنّه قد حذّرنا ماوقعنا فيه (٥٧) . قال عليّ : فإنّه ليس بثقة ، قد فارقنى وخذّلَ الناس عني ثمّ هرب مني حتى آمنتُه بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك . قالوا : والله لانبالي أنت كنت أم ابن عباس ! لانريدُ إلاّ رجلاً هو مِنْك ومن معاوِيةَ سواء . قال عليّ : فإنّي أجعلُ الأشتر. قالوا : وهل سعَّر الأرض غير الأشتر (٥٨) ؟ فقال : قد أبيتم إلاّ أبا موسى ؟ قالوا : نعم . قال : فاصنَعُوا ما أردتم .

فبعثوا إليه وقد اعتزلَ القتال وهو بعُرْض (٥٩) ، فأتاه مولى له فقال : إن الناسَ قد اصطلحوا . فقال : الحمد لله . قال : قد جعلوك حكَماً . قال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون . وجاء أبوموسى حتى دخلَ العسكر، وجاء الأشترُ عليّاً فقال : ألزَّني (٦٠) بعمرو بن العاص فو الله لئن ملأتُ عيني (٦١) منه لأقتلنه . وجاء الأحنف بن قيس فقال : يا أمير المؤمنين إنّك قد رُميتَ بحجر الأرض (٦٢) وإنّي قد عجمت (٦٣) أبا موسى وحَلَبتُ أشطُره (٦٤) فوجدته كليل الشفرة قريب القعر (٦٥)، وإنّه

---

(٥٧) كان أبو موسى ــ وهو وال على الكوفة ــ ينهى الناس عن القتال بعد خروج عائشة وطلحة والزبير ولم يستجب لرسولى على إليه : ابنه الحسن وعمار بن ياسر فعزله على واشتد عليه فى كتاب بعث به إليه .
[انظر الطبرى ٤/٤٩٨ وأسد الغابة ٣/٣٦٨] .

(٥٨) سعّر الأرض : أشعل القتال وزاده حدة .

(٥٩) العرض : الناحية والجانب .

(٦٠) لزه أو ألزه بفلان أو إليه : اضطره وفرض عليه .

(٦١) رأيته .

(٦٢) يقال : رمى فلان بحجر الأرض إذا رمى بداهية من الرجال ، أى بداهية عظيمة تثبت ثبوت الحجر فى الأرض . والأحنف يقصد عمرو بن العاص .

(٦٣) عجمت : جربت واختبرت .

(٦٤) حلبت أشطره : عرفته تمام المعرفة .

(٦٥) كليل الشفرة : كناية عن الضعف . قريب القعر : كناية عن السذاجة . و يقال للداهية : بعيد القعر .

لا يصلح لهؤلاء القوم إلاّ رجلٌ يدنو منهم حتى يصير فى أكفّهم و يبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم (٦٦)، فإن أبيتَ أن تجعلنى حكماً فاجعلنى ثانياً أوثالثاً ؛ فإنّه لن يعقدَ عقدةً إلاّ حللتها ، ولا يحلُّ عقدة أعقدُها لك إلاّ عقدتُ أخرى أحكم منها .

فأبَى الناسُ إلاّ أبا موسى والرضا بالكتاب . فقال الأحنف : إن أبيتم إلاّ أبا موسى فأدفئوا ظهره بالرجال (٦٧) .

وحضر عمرو بن العاص عند علىّ ليكتبَ القضية بحضوره ، فكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماتقاضى عليه أمير المؤمنين . فقال عمرو : اكتب اسمه واسم أبيه ، هو أميرُكم وأمّا أميرُنا فلا . فقال الأحنف : لا تمحُ اسم إمارة المؤمنين فإنّي أخافُ إن محوتَها أن لا ترجع إليك أبداً ، لا تمحُها وإن قتلَ الناسُ بعضهم بعضاً . فأبَى ذلك علىّ مليّاً (٦٨) من النهار، ثمّ إنّ الأشعث بن قيس قال : امحُ هذا الاسم ، فمُحي ، فقال علىّ : الله أكبر! سنَّةٌ بسنّة (٦٩) . والله إنّي لكاتب رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ يوم الحُديبية فكتبتُ : محمد رسول الله . وقالوا : لستَ برسولِ الله ولكن اكتب اسمَك واسَم أبيك ، فأمرنى رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ بمحوْه ، فقلتُ : لاأستطيع . فقال أرنيه ، فأر يتُه ، فمحاه بيده (٧٠) وقال : إنّك ستُدْعَى إلى مثلِها فتجيبُ . فقال عمرو: سبحان الله ! أنشبَّه بالكفّار ونحن مؤمنون ! فقال علىّ : يا ابنَ النابغة ومتى لم تكن للفاسقين وليّاً وللمؤمنين عدوّاً ؟ فقال عمرو: والله لا يجمعُ بيني و بينك مجلسٌ بعد هذا اليوم أبداً . فقال على : إنّي لأرجُو أن يطهِّرَ اللهُ مجلسى منك ومن أشباهك . وكُتب الكتاب : هذا ماتقاضَى عليه علىُّ بن أبى طالب ومعاويةُ بن أبى سفيان ، قاضى علىٌّ على أهلِ الكوفة ومن معهم وقاضى معاويةُ على أهلِ الشام ومن معهم ، إننّا ننزلُ عند حُكْم الله وكتابِه وأن

(٦٦) أى:رجل قدير على المحاورة والمداورة والمناورة والتلاعب بأعدائه .

(٦٧) أى:اجعلوا معه من الرجال من يسانده و يذكّره و يقيه الزلل .

(٦٨) الملّى : الزمان الطويل ومنه قوله تعالى : « واهجرنى مليّاً » .

(٦٩) من معانى السنة : الطريقة والوجه والصورة . وكان الامام علىّ يقصد أن مايحدث الآن صورة لما حدث بالأمس .

(٧٠) انظر سيرة ابن هشام ٣/٢٢٩ .

لا يجمعَ بيننا غيرُه ، وأن كتابَ الله بيننا من فاتحتِه إلى خاتمتِهِ نحيي ما أحيا ونميتُ ما أمات ، فما وجد الحكَمان فى كتابِ الله . وهما أبوموسى عبدالله بن قيس ، وعمرو ابن العاص ، عملا به ، وما لم يجدّاه فى كتابِ الله فالسنّةُ العادلةُ الجامعة غير المفرِّقة .
وأخذ الحكمان من علىّ ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق أنّهما آمنان على أنفُسِهما وأهليهما والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه ، وعلى عبدِالله بن قيس وعمرو بن العاص عهدُ الله وميثاقه أن يحكُمَا بين هذه الأمةِ لا يَرُدَّاها فى حربٍ ولا فُرقة حتى يُعصيا . وأجل القضاء إلى رمضان ، وإن أحبّا أن يوخرا ذلك أخراه ، وإن مكان قضيتهما مكانُ عدل بين أهلِ الكوفةِ وأهل الشام (٧١) .

(٧١) كتب هذا الكتاب فى الثالث من صفر سنة ٣٧هـ .

تذييل

من الزائف الموضوع

(١) رسالة أبى بكر وعمر إلى
على بن أبى طالب (*)

قال أبو حيان : سمرنا عند القاضى أبى حامد لَيْلة ببغداد بدار ابن جيشان فى شارع الماديان ، فتصرف الحديث بنا كل مُتَصَرَّف ، وكان والله معِنًّا[١] مِزْيَلاً[٢] مِخلَطًا[٣] غزير الرواية ، لطيفَ الدراية له فى كل جوٍّ متنفَّس ، وفى كلِّ نارٍ مقتَبس ، فجرى حديثُ السقيفة ، وتنازعَ القومُ الخلافة ، فركبَ كلٌّ فنا ، وقال قولا ، وعرَّض بشىء ، فقال أبوحامد : هل فيكم من يحفظ رسالة أبى بكر إلى علىّ وجوابَ على له ، ومبايعته إياه عقيبَ[٤] تلك الرسالة ؟ فقال الجماعة : لا والله ؛ فقال : هى

(*) المقامات لأبى حيان التوحيدى ٢٥ــ وصبح الأعشى ١/٢٣٧ ونهاية الأرب للنويرى ٧/٢١٣ .

(١) المعنّ : حاضر البديهة الذى تعنّ له الأفكار والآراء .

(٢) المزيل : التقاء المميز التقدير .

(٣) المخلط : الواسع المعرفة .

(٤) أى : بعدها مباشرة .

واللهِ من دُرر الحقائق المصونَة ، ومخبآت الصناديق فى الخزائن المحوطة ، ومنذ حفظتُها ما رو يتها إلا للمهلبى فى وزارته ، فكتبها عنى فى خلوةٍ بيده ، وقال : لا أعرفُ فى الأرض رسالةً أعقلَ منها ولا أبين ، وإنها لتدل على علمٍ وحلم ، وفصاحة وفقاهة فى دين ، ودهاء وبعدِ عور ، وشدةِ غوص . فقال له واحد من القوم : أيها القاضى ، فلو أتممتَ المِنة علينا بروايتها سمعناها ورو يناها عنك ؟ فنحن أوعى لها من المهلبىِّ وأوجب ذماما عليك(٥) . فقال :

هذه الرسالة رواها عيسى بن دأب عن صالح بن كسيان عن هشام بن عروة ابن الزبير ، عن أبى عبيدة بن الجراح ، قال أبو عبيدة :

لما استقامت الخلافة لأبى بكر بين المهاجر ين والأنصار ، ولحظ بعين الهيبة والوقار ، بعد هَنةٍ(٦) كادَ الشيطان بها يُسر ، فدفع الله شرها ، وأدحض(٧) عُسرَها ، فركدَ كيدُها ، وتيسَر خيرُها ، وقصَمَ ظهرَ النفاق والفسق بين أهلِها بلغَ أبا بكر عن على تلكؤ(٨) وشِماس(٩) ، وتَهَمْهُمٌ(١٠) ونفاس(١١) ، فكرِهَ أن يتمادى الحالُ وتبدو العورة ، وتشتعلَ الجمرةُ وتنفرجَ ذات البين ، و يصير ذلك دُربة لجاهل مغرور ، أو عاقل ذى دهاء ، أو صاحب سلامة ضعيف القلب خَوَّار العنان(١٢) ، فدعانى فى خلوة فحضرتُه وعنده عمرُ وحده ، وكان عمر قبسًا له ، وظهيرًا معه ، يستضىء بناره ، و يستملى من لسانه ، فقال لى :

---

(٥) الذمام : الحرمة .

(٦) الهنة : خصلة الشر .

(٧) أدحض : أبطل .

(٨) تباطؤ .

(٩) نفور وعناد .

(١٠) التهمهم : طلب الشىء ، و يقصد هنا : طلب الخلافة .

(١١) منافسة .

(١٢) خوار العنان : جبان .

يا أبا عبيدة، ما أيمن ناصيتك، وأبين[13] الخيرَ بين عينيك، لقد كنتَ من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالمكان المحوط[14]، والمحل المغبوط[15]؛ ولقد قال فيك في يوم مشهود: «**أبوعبيدة أمين هذه الأمة**» وطالما أعزَّ الله الاسلامَ بك، وأصلح ثَلْمه[16] على يديك، ولم تزل للدين مُلتجا[17]، وللمؤمنين مرتجى، ولأهلك رُكنا، ولإخوانك ردءاً[18] قد أردُتك لأمرٍ ما بعدَه خَطر مَخُوف، وصلاحه من أعظم المعروف، ولئن لم يندمل جرحه بِسِبارك[19] ورفقك؛ ولم تُجبْ حيتُه برقيتك[20]، فقد وقَع اليَاس، وأعضل الباسُ[21] واحتيج بعدَك إلى ما هو أمرُّ من ذلك وأعلق، وأعسر منه وأغلق، والله أسأل تمامه بك، ونظامَه على يديك. فتأتَّ له يا أبا عبيدة وتلطف فيه، وانصح لله ولرسوله ولهذه العصابة غيرَ آل جُهدا[22]، ولا قال جِدًا[23]؛ والله كالئُك[24] وناصرك، وهاديك ومُبَصِّركَ، إن شاء الله. امض إلى علي واخفض جناحك له، وغُضّ من صوتك عنده، واعلم أنه سلالة أبي طالب، ومكانه ممن فقدناه بالأمس ــ صلى الله عليه وسلم ــ مكانُه، وقل له:

---

(١٣) أبين: أوضح وأظهر.

(١٤) المكان المحفوظ المرموق.

(١٥) الذي يغبطك عليه الآخرون و يتمنون أن يكونوا في مثله.

(١٦) الثَّلم: في السيف والحائط والإناء ونحوها، الانكسار. و يقصد به هنا ماتمر به من أزمات.

(١٧) ملتجا: ملجأ وحماية.

(١٨) الردء: العون.

(١٩) السبار: آلة يعرف بها مقدار الجرح. و يقال: سبر الجرح: أي عرف ماغوره.

(٢٠) الرقية: هي العُوذة التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات (انظر لسان العرب) و يقصد بها هنا صيغة معينة يقولها «الراقي» فيخرج بها الحية من حجرها و يقضى عليها.

(٢١) البأس: العذاب والشدة في الحرب بخاصة. وأعضل البأس: أي اشتد وصعب واستحال التغلب عليه.

(٢٢) أي: غير مقصر في بذل الجهد.

(٢٣) قلى الشيء: أبغضه وكرهه والجد: الاجتهاد.

(٢٤) راغبك وحافظك.

البحر مَغْرقةٌ ، والبر مَفرقة ، والجو أكلف(٢٥) . والليل أغدف(٢٦) ، والسماء جلواء(٢٧) ، والأرض صلعاء(٢٨) ، والصعود متعذر، والهبوط متعسر، والحق عطوف رؤوف ، والباطلُ نَسوف(٢٩) عصوف ، والعُجب مَقْدَحَةُ الشر(٣٠) ، والضِّغن رائد البوار(٣١) ، والتعريض شِجار الفتنة ، والقِحة(٣٢) مفتاح العداوة ، وهذا الشيطانُ متكىءٌ على شِماله ، باسط ليمينه ، نافخ حِضنيه(٣٣) لأهلِه ، ينتظرُ الشتاتَ والفرقة ، و يدب بين الأمةِ بالشحناء والعداوة ، عِناداً لله ولرسوله ولدينه ، يوسوسُ بالفجور، و يُدلى بالغرور، و يُمَنِّى أهلَ الشرور، و يوحى إلى أوليائه . زُخرفَ القولِ غروراً بالباطل ، دأبا له منذُ كان على عهدِ أبينا آدم . وعادة منه منذ أهانه اللهُ فى سالف الدهر(٣٤) . لا منجى منه إلا بعَضِّ الناجذ على الحق(٣٥) ، وغضِّ الطرْفِ عن الباطل ، ووطْء هامةِ عدوِّ الله والدين بالأشَدّ فالأشد ، والأحَدّ فالأحدّ ، وإسلامِ النفسِ للهِ فيما حاز رضاه وجانبَ سُخْطه ، ولابد من قولٍ ينفعُ إذ قد أضر السكوتُ وخيف غِبَّهُ(٣٦) ؛ ولقد أرشدَكَ من أفاء(٣٧) ضالَّتك ، وصافاكَ منْ أحيا مودته لك بعتابك ، وأراد لك الخيرَ مَنْ آثر البقَاء مَعك ، مَاهَذا الذى تسوَّل لك

---

(٢٥) الكلف : لون بين السواد والحمرة .

(٢٦) اغدف : مرخ سدوله أى مظلم .

(٢٧) صافية .

(٢٨) جرداء .

(٢٩) قاتل ومبيد .

(٣٠) الغرور دليل الشر والقائد إليه .

(٣١) الضغن والضغينة : الحقد . والبوار : الهلاك .

(٣٢) القحة . بكسر القاف وفتحها : قلة الحياء .

(٣٣) أى منتفخ مستعد لأن يعمل عمله فى الشر .

(٣٤) وذلك بطرده ولعنه وقول الله تعالى له : « ... فاخرج منها فإنك رجيم » الحجر ٣٤

(٣٥) الناجذ : آخر الأضراس . والعبارة كناية عن شدة التمسك بالحق .

(٣٦) غبه : عاقبته ونتيجته .

(٣٧) أفاء : أعاد .

نَفَسك و يَدْوَى(٣٨) به قلبُك ، و يلتوى عليه رأيك ، و يتخاوص(٣٩) دونه طرْفُك ، و يستشرى(٤٠) به ضَغنُك ، و يَتَرَدَّدُ معه نَفَسُك ، وتكثر لأجله صُعَداؤك(٤١) ، ولا يفيضُ به لسانُك ؟ أعُجْمَةٌ بعد إفصاح ؟ أَلَبْسٌ بعد إيضاح ؟ أدينٌ غيرُ دين الله ؟ أخُلُق غير خلق القرآن ؟ أهدىٌ غير هدى محمد ؟ — صلى الله عليه وسلم — ، أمثلى تُمشَى له الضَّراء و يُدَبُّ له الخَمَر(٤٢) ؟ أم مثلك يُغصُّ له الفضاء ، و يكسف فى عينه القمر(٤٣) ماهذه القعقعة(٤٤) بالشنان ماهذه الوعوعة باللسان(٤٥) ! إنكَ واللهِ لجدُّ عارِف باستجابتنا للهِ ولرسوله ، وخروجنا من أوطانِنا وأموالِنا وأولادِنا وأحبتِنا ، هجرة إلى الله ، ونصره لدينه فى زمان أنتَ فيه فى كِنِّ الصِّبا(٤٦) ، وخِدر الغَرَارَة(٤٧) ، وعنفوانِ الشبيبة(٤٨) غافِلٌ عما يُشيبُ و يُريب(٤٩) ، لاتعى مايُشاد و يُراد ، ولاتحصل مايُساق و يُقاد ، سوى ما أنت جار عليه من أخلاق الصبيانِ أمثالِك ، وسجايا الفِتيان أشكالك ، حتى بلغتَ إلى غايتك هذه التى إليها أجْرِيْت ، وعندها حُط رحلُك ، غير مجهولِ القدر ، ولا مجحودِ الفضل ، ونحن فى أثناء ذلك نعانى أحوالا تُزيلُ الرواسى ، ونقاسى أهوالاً تُشيب النواصى ، خائضين غِمارها ، راكبين

---

(٣٨) يدوى : من الدّوَى (بفتح الواو) وهو داء باطن فى الصدر .

(٣٩) فى لسان العرب : الإنسان يخاوص و يتخاوص فى نظره ، وخاوص الرجل وتخاوص : غض من بصره شيئا ، وهو فى كل ذلك يحدق النظر كأنه يقوم سهما .

(٤٠) يتزايد .

(٤١) الصعداء : النفس الممدود .

(٤٢) الضراء : الاستخفاء . والخمر : هو كل ماوراك واحتميت به .

(٤٣) يقصد كيف تخفى عليك الحقيقة وأنت تعلمها ؟

(٤٤) القعقعة : الصوت . والشنان : جمع شنّ وهو مزادة الماء الجافة القديمة . والمثل يضرب لمن لا يخاف ولا يخدع .

(٤٥) الوعوعة : من أصوات الكلاب و بنات آوى .

(٤٦) الكن والكنة : البيت والوقاء والستر .

(٤٧) الخدر : الستر . والهودج . والغِرّ والغرير هو ذو الغرارة أى السذاجة وعدم الخبرة .

(٤٨) عنفوان الشئ : أوله .

(٤٩) أى : عن الشدائد والنوازل التى تهز النفوس وتزلزلها .

تيـارها ، نتجـرع صابَـهـا (٥٠) ، وَنـشـرَج عِيـابها (٥١) ، ونُحكم أساسها ، ونبرم أمْراسـهـا (٥٢) ، والـعيـونَ تَحْدِجُ (٥٣) بالحسد ، والأنوف تعطس بالكبر ، والصدور تستَعِرُ بالـغيظ ، والأعناق تتطاول بالفخر ، والألسنةُ تُشحذ بالمكْر ، والأرضُ تميدُ بالخوف ؛ لا ننـتظرُ عند المساء صباحا ، ولا عندَ الصباح مساء ، ولا نَدفعُ فى نحرِ أمرٍ إلا بعد أن نَحْسُوَ الموتَ دونه (٥٤) ، ولا نبلغُ إلى شيء إلا بعدَ تجرع العذابِ قِبَلَه ، ولا نقوم بنادٍ الا بعد اليأسِ من الحياةِ عنده ؛ فادِينَ فى كل ذلك رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالأبِ والأم ، والخالِ والعمّ ، والمالِ والنشب (٥٥) ، وَالسَّبَد واللبَد (٥٦) ، والهِلّة والبِلّة (٥٧) ، بطيب أنفس ، وقرة أعين ، ورُحْب أعطان (٥٨) ، وثبات عزائم ، وصحة عقود ، وطلاقة أوجه ، وذلاقة ألسن (٥٩) ؛ هذا إلى خبيئاتِ أسرار ، ومكنونات أخبار ، كنت عنها غافلا ، ولولا سنُّك لم تكن عن شيء منها ناكلا (٦٠) ، كيف وفؤادك مَشهوم (٦١) ، وعودك معجوم (٦٢) ، وغيبك مخبور ، والخير منك كثير . والآن قد بلغ اللهُ بك ؛ وأرهصَ (٦٣) الخيرَ لك ، وجعل مرادك بين

---

(٥٠) الصاب : عصارة شجر مرّ .

(٥١) أشرج العيبة وشرجها : شدّ عراها . والعيبة وعاء من أدم . والعبارة كناية عن رتق الفتق ولم الشمل .

(٥٢) الأمراس : الحبال .

(٥٣) تحدق .

(٥٤) نحسو : نشرب ونتجرع . و يقصد بالعبارة أننا لا نحقق أمرا إلا بعد جهد وعذاب ومعاناة .

(٥٥) النشب : المال والعقار .

(٥٦) السبد : الوبر واللبد : الصوف المتلبد و يكنى بهما عن الإبل والغنم .

(٥٧) الهلة والبلة : كناية عن كل شيء .

(٥٨) الرحب : السعة والمعاطن والأعطان : مبارك الإبل ومرابض الغنم . واحدها : معطن وعطن . ورحب أعطان : كناية عن الغنى وسعة الثراء .

(٥٩) يقال : لسان ذلق : أى حاد .

(٦٠) ناكلا : ناكصا محجما .

(٦١) المشهوم : الذكى المتوقد .

(٦٢) يقصد مكتمل النضج .

(٦٣) أعده وهيأه .

يديك ؛ فاسمعْ ما أقولُ لك ، واقبلْ مايعودُ قبولُه عليك ، وعن علم أقولُ ماتسمع : فارتقب زمانك ، وقَلِّصْ أردانك ، ودع التجسس والتعسس لمن لا يظلع(٦٤) ، لك إذا خطا ، ولا يتزحزحُ عنك إذا عطا(٦٥) ؛ فالأمر غض ، وفى النفوس مض(٦٦) ، وأنت أديمُ هذه الأمة فلاتحلَّمْ لجاجا(٦٧) ، وسيفُها العضْب(٦٨) فلاتنْبُ(٦٩) اعوجاجا ، وماؤها العذب فلاتَحلُّ أجاجا(٧٠) . والله لقد سألت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن هذا الأمرِ لمنْ هو؟ فقال لى يا أبا بكر « **هو لمنْ يرغبُ عنه لا لمن يجاحش عليه(٧١) ، ولمن يتضاءل له لا لمن يشمخ إليه ، وهو لمن يقالُ له : هو لَك لا لمن يقول : هو لى** » .

ولقد شاورنى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى الصهر ، فذكر فتيانا من قريش ، فقلت له أين أنت من علىّ ؟ فقال : إنى لأكره لفاطمة مَيْعةَ شبابه(٧٢) ، وحداثةَ سنه . فقلت : متى كنفته يدُك(٧٣) ، ورعته عينُك ، حفَّت بها(٧٤) البركة ، وأُسْبِغَت عليها النعمة ، مع كلام كثير خطبت به رغبته فيك ، وما كنتُ عرفتُ منك فى ذلك حوجاء ولا لوجاء(٧٥) ، ولكنى قلتُ ماقلتُ وأنا أرى مكان غيرك ، وأجدُ ريحَ سواك ؛ وكنتُ لك إذذاك خيرا منك الآن لى . ولئن كان

---

(٦٤) الظلع : العرج .

(٦٥) عطا إلى الشىء : تطاول إليه .

(٦٦) المضى : الألم والحزن .

(٦٧) الأديم : الجلد ، والحلم بالتحريك دود يقع على الجلد فإذا دبغ كان موضع الأكل منه واهيا . واللجاج : التمادى فى الخصومة .

(٦٨) العضب : القوى القاطع .

(٦٩) نبا السيف : لم يعمل فى الضريبة .

(٧٠) لايحِلّ : لا تتحول واجّ الماء : صار أجاجا أى ملحا مرا .

(٧١) يجاحش عليه : يقاتل عليه و يلج فى طلبه .

(٧٢) ميعة الشباب : أوله .

(٧٣) حاطته وصانته .

(٧٤) أى : بعلى وفاطمة .

(٧٥) الحوجاء : الحاجة وكذلك اللوجاء ، و يقصد أبوبكر : ماعرفت لك شيئا يعتد به .

عَـرَّضَ بـك رسـولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى هذا الأمر، فقد كَنَّى عن غيرك ، وإن كان قال فيك فما سكت عن سواك ؛ وإن اختلجَ (٧٦) فى نفسك شـىء ، فالحكم مَرْضِىٌّ ، والـصـوابُ مـسـموع ، والحقُ مطاع . ولقد نُقِلَ رسول الله ــ صلى الله عليه وسـلـم ــ الى مـاعـنـد الله ، وهـوعن هذه العصابة راض ، وعليها حَدِبٌ (٧٧) ، يسرّهُ مـايَـسُـرَّهـا ، سوءهُ ماساءها ، و يكيدُه ما كادَها ، و يُرضيه ما أرضاها ، و يسخطهُ مـا أسخطَها . ألم تعلمْ أنه لم يدعْ أحداً من أصحابه وخلطائِه ، وأقار به وسُجرائه (٧٨) ، إلا أبـانـه بـفـضـيـلـة ، وخصَّه بمز ية . وأفردَهُ بحالة لوأصْفَقَت (٧٩) الأمةُ عليه لأجلها لـكـان عـنـده إيـالتهـا (٨٠) وكفالتَها ! أتظن أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ ترك الأمة سُـدى بَددا ، عباهلَ مباهل (٨١) ، طلاحى (٨٢) مفتونة بالباطل ، ملو ية عن الحق ، لازائـدَ (٨٣) ولارائـد ، ولاضـابَط ولاحائط ولا رابط ، ولاساقى ولا واقى ، ولاحادى ولاهـادى ؟ كلا ! والله ما اشتاقَ الى ربِّه ولاسأله المصيرَ الى رضوانه وقر به الابعد أن ضَـرَبَ المـدَى (٨٤) ، وأقـام الصُّوَى (٨٥) ، وأوضحَ الهدى ، وأمَّن المسالكَ والمهالك ، وحمـى المـطـارح والمبارك ، وسهل المشارع والمهايع (٨٦) والابعد أن شَدَخَ يافوخَ الشرك بإذنِ الله ، وشـرمَ و.ـ.ـة الـنـفـاق لـوجـهِ الله ، وجدعَ أنف فى دين الله ، وتفل فى عين الشياطين بعون الله ، وصدعَ بملء فيه و يدِه بأمر الله ؟

---

(٧٦) اختلج : تردد .

(٧٧) حدِب : عطوف رحيم .

(٧٨) السجراء : الأصدقاء .

(٧٩) أصفقت : أجمعت .

(٨٠) ولاية أمرها .

(٨١) متروكة هملا .

(٨٢) إبل أطلاح وطلاح وطلاحى : كالَّة مضعوفة مهزولة .

(٨٣) الذائد : الدافع الحامى .

(٨٤) أى بين الغاية .

(٨٥) الصوى : حجارة توضع فى الطر يق لتكون أعلاما . واحدها : صوة كقوة .

(٨٦) المهايع : جمع مهيع وهو الطر يق الواضح البيّن .

وبعد ، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى بقعةٍ واحدة ، ودارٍ جامعة ، ان استقادُوا[٨٧] لك ، وأشاروا بك ، فأنا واضعٌ يدى فى يدِك ، وصائرٌ إلى رأيهم فيك ، وإن تكن الأخرى فادخل فى صالح مادخل فيه المسلمون ، وكن العونَ على مصالحهم ، والفاتح لمغالِقِهم ، والمرشدَ لضالّهم ، والرادعَ لغاويهم ؛ فقد أمر الله بالتعاونِ على البر ، والتناصرِ على الحق . ودعنا نقضى هذه الحياةَ الدنيا بصدور بريئةٍ من الغلّ[٨٨] ، ونلقى اللهَ بقلوبٍ سليمةٍ من الضغْنْ ، وإنما الناسُ ثُمامة[٨٩] فارْفق بهم واحْنُ عليهم ولِن لهم ، ولا تسولْ لك نفسك فرقَتَهم واختلافَ كلمتهم ، ولا تُشْقِ نفسَك بنا خاصةً فيهم ، واتركْ ناجمَ الشر حَصيدا[٩٠] ، وطائرَ الحِقد واقعا ، وبابَ الفتنة مغلقا ، فلا قالَ ولا قيل ، ولا لومَ ولا تعنيف ، ولاعتابَ ولا تثريب[٩١] ، والله على ما أقول وكيل ، وبما نحن عليه بصير .

قال أبوعبيدة : فلما تهيأت للنهوض قال لى عمر : كن على البابُ هُنيهة فلى معك دَرٌّ[٩٢] من الكلام ؛ فوقفتُ وما أدرى ما كان بعدى ، إلا أنه لحقنى بوجه يَنْدَى تهللا وقال لى : قل لعلى :

الرقاد مَحْلَمَةٌ ، والهوى مَقْحَمَةٌ ، وما منا أحدٌ إلا له مقام معلوم ، وحقٌ مُشاعٌ أومقسوم ، ونبأ ظاهر أومكتوم .

وإن أكيسَ الكيسى[٩٣] من منحَ الشارد تألفا ، وقاربَ البعيد تلطفاً ، ووزنَ كل أمرٍ بميزانه ، ولم يخلِطْ خبرَه بعِيانه ، ولا قاسَ فِتْرَهُ بشبره[٩٤] ، ديناً كان أودنيا ،

---

(٨٧) استقادوا لك : أى خضعوا وانقادوا ورضوا بك عليهم خليفة .

(٨٨) الغل : الحقد .

(٨٩) الثمامة : واحدة الثمام : وهو نبت ضعيف يشبه به فى الضعف .

(٩٠) ناجم : ظاهر . حصيدا : محصودا .

(٩١) التثريب : التعيير والاستقصاء فى اللوم .

(٩٢) يريد : كلاما كثيرا .

(٩٣) الكيِّس : الحكيم العاقل . والجمع أكياس وكيْس .

(٩٤) الفتر : مابين طرف الإبهام والسبابة إذا فتحتها . فهو أقل من الشبر . و يقصد أن العاقل من عرف قدر الشىء ولم يضعه فى غير موضعه .

وضلالاً كان أوهدى . ولا خير فى علم مُعتَمل فى جهل ، ولا فى معرفة مشوبة بنكْرٍ(٩٥) :

وَلَسْنَا كَجِلْدَةِ رُفْغِ(٩٦) البَعِيْرِ   بَيْنَ العِجَا وَبَيْنَ الذَّنب

كل صالٍ فبناره يصلىَ (٩٧) ، وكل سيل فإلى قراره يجرى ، وما كانَ سكوتَ هذها العصابةِ إلى هذه الغاية لِعَيٍ وحَصَرٍ(٩٨) ، ولا كلامُها اليوم لِفرَق(٩٩) وحذَر. فقد جدعَ الله بمحمد (صلى الله عليه وسلم) أنفَ كل متكبر، وقصمَ به ظهرَ كلِّ جبار، وسلَّ لسانَ كل كذوب، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ما هذه الخُنْزُوَانَةُ(١٠٠) التى فى فَراشِ رأسك(١٠١) ! وما هذا الشجا(١٠٢) المعترض فى مدارج أنفاسك ما هذه القناة(١٠٣) التى تغشَّت ناظرك ؟ وما هذه الوَحَرَة(١٠٤) التى أكلتْ شر أسيفك(١٠٥) ! وما هذا الجَرْجَسْ والدكس(١٠٦) اللذان يدلان على ضيق الباع وخوَرِ الطباع ؟ وما هذا الذى لبستَ بسببه جلد النمر(١٠٧) ، واشتملت عليه بالشحناء والنكر؟ لَشَدَّ ما استسعيت لها(١٠٨) وسريتَ سُرى ابن أنقد(١٠٩) إليها ؟ إنَّ

---

(٩٥) النكر: المنكر.

(٩٦) الرفغ : باطن أصل الفخذ . والعجان : ما تلاجلدة الرفغ حتى أصل الذنب . والتشبيه بذلك يدل على الخسة وسفول المنزلة .

(٩٧) يعذب و يقاسى .

(٩٨) العىّ والحصر: العجز عن البيان والإفصاح .

(٩٩) الفرق : الخوف .

(١٠٠) الخنزوانة : الكبر والعجرفة .

(١٠١) فَراش الرأس : عظام رقاق تلى القحف .

(١٠٢) الشجا : ما يعترض فى الحلق من عظم ونحوه .

(١٠٣) القذى : ما يقع فى العيش والشراب .

(١٠٤) الوحرة : نوع سام من العظاء .

(١٠٥) الشراسيف : جمع شرسوف كعصفور : غضروف معلق بكل ضلع .

(١٠٦) من أنواع الهوام .

(١٠٧) لبس له جلد النمر مثل يضرب فى الحجور وإظهار العداوة الشديدة .

(١٠٨) أى سعيت إلى الخلافة .

(١٠٩) القنفذ .

الْعَوَانَ لا تُعَلَّمُ الْخِمْرَةَ(١١٠) ما أحوج الفرعاء(١١١) إلى فالية(١١٢)، وما أفقر الصلعاء الى حالية؛ ولقد قُبض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والأمر مقيدٌ مُخيَّسٌ، ليس لأحدٍ فيه ملمس، لم يُسَيِّرْ فيك قولاً، ولم يستنزل لك قرآنا، ولم يجزم في شأنك حكماً(١١٣). لسنا في كِسروية كسرى، ولا في قيصرية قيصر؟ تأمل لإخوان فارسَ وأبناء الأصفر(١١٤)! قد جعلهم الله جَزَراً(١١٥) لسيوفنا، ودَرِيئةً(١١٦) لرماحنا، ومرمى لطعاننا، وتبعا لسلطاننا، بل نحن في نور نبوة، وضياء رسالة، وثمرة حكمة، وأثَرَةِ رحمة، وعنوانِ نعمة، وظلِّ عصمة، بين أمةٍ مهدية بالحق والصدق، مأمونةٍ على الرتق والفتق، لها من الله قلب أبيّ، وساعدٍ قوى، ويدٍ ناصرة، وعين باصرة! أتظنُّ ظنا يا علىّ أن أبابكر وثب على هذا الأمر مفْتاتا على الأمة خادعا لها متسلطا عليها؟ أتراه امتلخ(١١٧) أحلامها(١١٨)، وأزاغ أبصارها، وحل عقودَها، وأحال عقولها(١١٩)، واستل من صدورها حميتها، ونكث رشاءَها(١٢٠)، وصبَّ مَاءَهَا، وأضلَّها عن هُدَاها، وساقها الى رَدَاها(١٢١)؟ أتراهُ جعلَ نهارَها ليلا، ووزنُها كيلا، ويَقَظَتَها رُقادا، وصلاحَها فَسَادا؟ إنْ كان هكذا إنَّ سِحرَه لَمبين، وإن كيدَه لمتين! كلا والله. بأى خيلٍ ورَجْلٍ، وبأىِّ سنان ونَصْل، وبأى مُنَّةٍ وقوة، وبأى مال وعُدة، وبأى أَيْدٍ وشدة، وبأى عشيرةٍ وأسرة،

---

(١١٠) العوان: من لها زوج والخمرة: كيفية وضع الخمار على الوّجه تحشما. وهو مثل معناه أن المجرب غير محتاج لمن يعلمه.

(١١١) الفرعاء: الطويلة الشعر.

(١١٢) من تفلى الرأس من القمل.

(١١٣) يقصد بكل العبارات السابقة أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ مات دون أن يحدد خليفته من بعده.

(١١٤) الروم.

(١١٥) جزرا: قطعا.

(١١٦) هدفا.

(١١٧) انتزع.

(١١٨) الأحلام: العقول.

(١١٩) أفسدها.

(١٢٠) الرشاء: الحبل الذى يعلق به الدلو للاستسقاء. والنكث هو النقض.

(١٢١) هلاكها.

وبأي قدرةٍ ومَكِنة ، وبأي تدرُّع وبَسْطة ؟ لقد أصبح بما وَسَمْتَهُ منيعَ الرقبة ، رفيعَ العتبة . لا والله ! سَلاَ عنها فَوَلَهَتْ له(١٢٢) ، وتطامن لها فالتفَّت به ، ومال عنها فالتْ إليه ، واسمترَّ دونها فاشتملت عليه ؛ حَبْوَةٌ حباه الله بها(١٢٣) ، وغايةٌ تلّفه الله إليها ، ونعمةٌ سربله جمالها وَ يَدٌ أوجَبَ الله عليه شكرها ، وأمةٌ نظرَ الله به إليها ، وطالما حلّقَتْ فوقه أيام النبي —صلى الله عليه وسلم— وهو لا يلتفتُ إليها ، ولا يترصدُ وقتها . والله أعلمُ بخلقه ، وأرأفُ بعباده ، يختارُ ما كان لهم الخِيَرة ، وإنكَ بحيثُ لا يجهل مَوْضِعك من بيتِ النبوة ، ومعدنِ الرسالة ، وكهف الحكمة ، ولا يجحدَ حقَّك فيما أتاك ربك من العلم ، ومنحَكَ من الفقه والدين ، هذا الى مزايا خُصِصْتَ بها ، وفضائل اشتملت عليها ؛ ولكنْ لك مَنْ يزاحمُك بمنكبٍ أضخمَ من منكبك . وقرْبَى أمَسُّ من قُربك ، وسنٌّ أعلى من سِنِّك ، وشيبةٌ أروع من شيبتك ، وسيادة معروفة فى الجاهلية والإسلام ، ومواقف ليس لك فيها جملٌ ولا ناقة ، ولا تذكرُ منها فى مقدمة ولا ساقة(١٢٤) ولا تضربُ فيها بذراع ولا إصبع ، ولا تُعدُّ منها ببازلٍ ولا هُبَع(١٢٥) إن أبابكر كان حبَّةَ قلبِ رسول لله —صلى الله عليه وسلم— ، وعِلاقَةَ نفسه ، وعيبة سِرِّه ومفزعَ رأيه ومشورته ، ومثوى حُزْنه ، وراحة باله ، ومَرمَق طرْفه وذلك بمحضر الصادرِ والوارد من المهاجرين والأنصار . شهرتهُ مغنيةٌ عن الدلالة عليه . ولعمرى إنك أقربَ منه إلى رسول الله —صلى الله عليه وسلم— قرابة ، ولكنه أقربُ منك قُرْبَة ، والقرابةُ لحمٌ ودم ، والقربةُ روحٌ ونفس ، وهذا فرْق عَرفَه المؤمنون ، ولذلك صاروا إليه أجمعون ، ومهما شككت فلا تشكَّ فى أن يدَ الله مع الجماعة ، ورضوانه لأهل الطاعة ، فادخلْ فيما هو خيرٌ لك اليومَ وأنفعُ لك غداً ، والفَظْ مِنْ فيك ما هو عالقٌ بلَهاتِك وانْفُثْ سخيمة(١٢٦) صدرك عن تُقَاتِك(١٢٧) فإن يكنْ فى الأمد طول ، وفى الأجل فسحةٌ ،

---

(١٢٢) أى : لم يتطلع إلى الخلافة فاشتاقت وتطلعت هى إليه .

(١٢٣) عطاء منحه الله إياه .

(١٢٤) الساقة : مؤخرة الجيش .

(١٢٥) البازل : الجمل القوى التام الخلق والهبع (بضم وفتح الباء) : الفصيل .

(١٢٦) السخيمة : الحقد .

(١٢٧) التقاة : التقوى .

فستأكله مرياً أوغير مرئ ، وستشرب به هنيئاً أوغير هنئ (١٢٨) ، حين لا رادَّ لقولك إلا من كان آيسا منك . ولا تابعَ لكَ إلا منْ كان طامعاً فيك ، يُمِضُّ إهابَك ، وَ يَعْرَكُ أديمُك (١٢٩) ، وَ يَـزْرى على (١٣٠) هَـدْيك ، هنالك تقرع السنَّ مِن ندم ، وتشربُ الماء ممزوجاً بِدَم ، وحينئذ تأسى (١٣١) على ما مضىَ من عمرك ، وانقضىَ مِنْ قُوتك وانقرضَ مِنْ دارج (١٣٢) قومك ، وتودُّ أن لو سُقيتَ بالكأسِ التى سَقَيتَهَا غيرك ، ورُدِدْتَ الى الحالِ التى كنتُ تكرهُها فى أمسك ، ولله فينا وفيكَ أمْرٌ هو بالغه ، وغيبٌ هو شاهده ، وعاقبةٌ هو المرجوُّ لسرائِها وضرائِها ، وهو الولى الحميد ، الغفور والودود .

قال أبو عبيدة : فمشيتُ الى علىٍّ متزملا (١٣٣) متباطئاً كانما أخطُو على أمِّ رأسى فرقاً (١٣٤) من الفتنة ، وإشفَاقاً على الأمة ، وحذراً من الفرقة ، حتى وصلت إليه فى خلاء فأبثثتُه بثى كله (١٣٥) ، و برئتُ إليه منه ، ودفعتُه له ، وَرَفَقْتُ به فلما سمعها ووعاها ، وسَرَتْ فى أوصاله حمياها (١٣٦) ، قال : حلت مُغْلَوِّطة (١٣٧) ، وولت مُخْرَوِّطة (١٣٨) ثم قال :

إحْـدَى لَيالِيكِ فَهِيسى هِيْسى لاتَنْعَمى الليْلَة بالتَّعْريسِ (١٣٩)

---

(١٢٨) الهنىء والمرىء بمعنى : و يقصد بالعبارات السابقة : أنك إن امتد بك العمر توليت أمر المسلمين بحلوه ومره .

(١٢٩) الإهاب والأديم : الجلد . وأمضه وعركه : أوجعه وآلمه .

(١٣٠) زرى وتزرى عليه : عابه .

(١٣١) تحزن .

(١٣٢) درج : انقرض .

(١٣٣) متدثرا .

(١٣٤) خوفا .

(١٣٥) البث : الحال والحزن . و بثه السر : كشف له عنه .

(١٣٦) الحميا : السورة والشدة والنشاط .

(١٣٧) مندفعة .

(١٣٨) مسرعة .

(١٣٩) أهيس : بفتح الهاء : السير مطلقا والتعريس نزول الركب فى آخر الليل للاستراحة . وهو مثل يضرب للرجل يأتى الأمر يحتاج فيه إلى الجد والاجتهاد .

يـا أبـا عبيدة ، أهذا كله فى أنفس القوم يستبطنونُه ويحسُون به و يَضْطغِنون(١٤٠) عليه ؟ فقلتُ : لاجوابَ عندى ، إنما جئتُك قاضيا حقّ الدِين ، وراتقا فتقَ المسلمين ، وساداً ثلمة الأمة ، يعلمُ الله ذلك من جلْجلانِ (١٤١) قلبى وقرارةِ نفسى .

فـقـال علي : والله مـا كـان قـعـودى فى كِـسْـر(١٤٢) هـذا البيت قصداً الخلاف ، ولا إنـكـاراً لمعروف ، ولا زرايةً على مسلم ، بل لما وَقَذَنى به (١٤٣) رسولُ الله ــ صلى الله عـلـيـه وسـلم ــ من فراقِه ، وأودعنى من الحزنِ لفقده . فإنّى لم أشْهدْ بعده مشهدا إلاّ جـدّدَ عـلـيّ حُـزنـا ، وذكرنى شَجنًا ، وإنَّ الشوقَ إلى اللحاق كافٍ عن الطمع فى غـيـره ، وقـد عكفتُ على عهدِ الله أنظُرُ فيه ، وأجمعُ ماتفرقَ منه ، رجاء ثواب مُعدٌّ لمن أخـلـص لله عـمـلـه ، وسـلّـم لعلمه ومشيئته أمرَه ، على أنى ماعلمتُ أن التظاهر عليّ واقـع ، ولـى عـن الحـقّ الـذى سيق إليّ دافع ، وإذ قد أفعم(١٤٤) الوادى بى ، وحُشِد الـنـادى عليّ ، فلا مرحبا بماساء أحداً من المسلمين ، وفى النفس كلامٌ لولاسابقُ عَقْدٍ وسـالـفُ عَـهْـد ، لـشَـفَـيْـتُ غـيظى بخِنْصرى(١٤٥) و بنْصرى(١٤٦) ، وخُضْتُ لجتَه بأخْمصُى(١٤٧) ومَفْرِقى(١٤٨) ، ولكننى مُلْجَمٌ(١٤٩) الى أن ألقى اللهَ ربى ، وعنده أحـتـسـبُ مـانزَل بى ، وإنى غادٍ إن شاء الله إلى جماعتِكم ومبايعٌ لصاحبكم ، وصابرٌ على مـاسـاءنـى وسـركـم ، لـيـقـضىَ الله أمرا كان مفعولا ، وكان اللهُ على كل شىء شَهيدا .

---

(١٤٠) الاضطغان : الاشتمال .

(١٤١) سويداء .

(١٤٢) كسر البيت : جانبه .

(١٤٣) وقذه : تركه عليلا .

(١٤٤) ملىء .

(١٤٥) الخنصر : إصبع اليد الصغرى .

(١٤٦) البنصر : الإصبع التالية لها .

(١٤٧) الأخْمَص : ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض .

(١٤٨) المفرق : وسط الرأس . و يعنى : لشفيت غيظى بيدى وتصديت للأمر بنفسى و بكل قولى .

(١٤٩) ملجم : ساكت .

قال أبوعبيدة : فعدتُ إلى أبى بكر وعمرَ فقصصتُ عليهما القولَ على غرّه (١٥٠) ، ولم أترك شيئاً من حُلوه ومُره ، و بكرتُ غُدوةً إلى المسجد ، فلما كان صباح يومئذ وافى عليٌّ فخرقَ الجماعةَ إلى أبى بكر و بايعه ، وقال خيراً ، ووصف جميلاً ، وجلس زَمِيْتاً (١٥١) واستأ للقيام ونهض فتبعه عمر إكراما له وإجلا لاالموضعه واستنباطا (١٥٢) لما فى نفسه . وقام أبوبكر إليه فأخذ بيده وقال :

إن عصابة أنت منهايا أبا الحسن لمعصومَة ، وإن أمةً أنت فيها لمرحومة ، ولقد أصبحت عز يزاً علينا ، كريماً لدينا ، تخاف الله إذا سَخِطْت ، وترجُوه إذا رضيت ؛ ولولا أنى شُدِهْت (١٥٣) لما اجبتُ إلى مادُعِيْتُ إليه ولكنى خِفتُ الفُرقة واستئثارَ الأنصار بالأمر على قريش ، وأعجلتُ عن حضورك ومشاورتك ، ولوكنت حاضراً لبايعتُك ، ولم أعدلْ بك ، ولقد حَّط اللهُ عن ظهرك ما أثقلَ كاهلى به ، وما أسعدَ من ينظرُ الله إليه بالكفاية ؛ وإنا اليك لمحتاجون ، و بفضلِك عالمون ، وإلى رأيك وهَدْيك فى جميع الأحوالِ راغبون ، وعلى حمايتك وَحَفِيْظتِك (١٥٤) مُعوَّلون .

ثم انصرف وتركه مع عمر ، فالتفت عليٌّ إلى عمر فقال :

يا أبا حفص ، والله ماقعدتُ عن صاحبك جَزَعا على ماصار اليه ، ولا أتيته فَرَقاً منه ، ولا أقولُ ما أقول تَعِلَّةً ، وإنى لأعرفُ مَسْمَى طَرْفى (١٥٥) ، وَمَخْطَى قَدمى (١٥٦) ، ومَنزَع قوسى ، وموقعَ سهمى ؛ ولكنى تخلفت إعذاراً إلى اللهِ وإلى من يعلم الأمر الذى جعله لى رسول الله وقد أزَمْتُ على فأسى (١٥٧) ثقة بربى فى الدنيا والآخرة واتيت فبايعتُ حفظا للدين وخوفا من انتشار أمر الله .

---

(١٥٠) على غره : أى على أصله كما سمعته . وأصل الغرّ : الكسر المثنى فى جلد أو ثوب . ويجمع الغرّ على غرور .

(١٥١) الزميت والمتزمت : الحليم الوقور الساكن .

(١٥٢) الاستنباط : الاستخراج أى حرصا من أبى بكر على أن يبوح عليٌّ بما فى نفسه .

(١٥٣) دهشت .

(١٥٤) حفيظتك : المحافظة عليك .

(١٥٥) أى المكان الذى يسمو إليه نظرى .

(١٥٦) مكان خطوى .

(١٥٧) الأزم : العض . والفأس : حديدة اللجام المعترضة فى فم الفرس . والمعنى وتماسكت ولم أظهر ما فى نفسى .

فقال له عمر: ياأبا الحسن ، كَفْكِف من غَرِبك (١٥٨) ، ونَهْنِه (١٥٩) من سِرْبك (١٦٠) ، ودعِ العصا بلحائِها (١٦١) ، والدلو برشائها ، فإنا من خلفها وورائها ، إن قدحْنا أورَيْنا (١٦٢) ، وإن قرحْنا أدمينا (١٦٣) ، وإن مَتَحْنا (١٦٤) أرْوينا ، وقد سمعتُ أمثالك التي ألغزْت (١٦٥) بها صادرةً عن صدرٍ أكله الجوى (١٦٦) ، وقلب جزوع ، ولوشئتَ لقلت على مقالتِك ما إنْ سمعتَه ندمت على ماقلت . زعمت . أنك قعدتَ في كِسْر بيتك لما وَقَذَك به فراقُ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أفراقُ رسول الله وَقَذَك وحدك ولم يَقِذْ سواك ؟ إن مصابه لأعزُّ وأعظمُ وأعمُّ من ذاك وإنّ من حقِّ مصابه أن لايُصدَع شملُ الجماعة بكلمة لاعصام لها (١٦٧) ، ولا يؤمَنُ كيدُ الشيطان في بقائها فإنك لترى الأعرابَ حول المدينة ، والله لوتداعَتْ علينا في مُصبَح يومٍ لم نلتق في مُمْساه . وزعمتَ أن الشوقَ إلى اللحاق به كاف عن الطمع في غيره ؟ فمن علامة الشوق إليه نُصرةُ دينه ، وموازرةُ المسلمين عليه ، ومعاونتُهم فيه . وزعمت أنك عكفتَ على عهدِ الله تجمعُ ماتفرق منه . فمن العكوفِ على عهدِ الله النصيحةُ لعباده ، والرأفةُ على خلقه ، وأن تبذلَ من نفسِك مايصلحُون به ، ويجتمعون عليه . وزعمتَ أن التظاهرَ عليك واقع ! أيُّ تظاهرٍ عليك ؟ وأي حقٍّ استُؤثِر به دونك ! لقد علمتَ وسمعتَ ماقال الأنصارُ بالأمسِ سراً وجهراً ، وماتَقَلَّبَتْ عليه بَطْنا وظهرا ، فهل ذكرتْك أوأشارتْ بك أوطلبَتْ رضاها من عندك ؟ وهؤلاء المهاجرون من الذى قال منهم أنك صاحبُ هذا الأمر ، أوأوما إليك بعينه ، أوهَمْهَمَ (١٦٨) بك في نفسه ، أتظنُّ

---

(١٥٨) الغرب : الحد .

(١٥٩) نهنه : كف وزجر .

(١٦٠) السرب : النفس .

(١٦١) لحاء الشجرة : قشرها .

(١٦٢) أخرجنا النار .

(١٦٣) جرحنا .

(١٦٤) المتح : نزع رشاء الدلو من البئر وكل هذه العبارة كناية عن القدرة الفائقة .

(١٦٥) أى عميت بها عما تريد .

(١٦٦) الجوى : النقمة الشديدة .

(١٦٧) عصام القربة وما شابهها : حبل تشد به . و يعنى كلمة لها عواقبها الوخيمة غير المحصورة .

(١٦٨) الهمهمة : الكلام الخفى .

أن الناسَ ضلوا من أجلك ، وعادوا كفاراً زُهداً فيك ؟ أو باعوا الله تعالى بهواهم بُغْضاً لك وتحاملاً عليك ؟ لا واللهِ ! ولقد جاءنى عُقيل بن ز ياد الخزرجى فى نفر من أصحابه ومعهم شُرحْبيل بن يعقوب الخزْرجى فى قومٍ من الأنصار فقالوا : إن عليا ينتظرُ الإمامة ، و يزعمُ أنه أولى بها من أبى بكر ، و ينكرُ على من يَعقِد الخلافة فأنكرتُ عليهم ، ورددتُ القولَ فى نحورهم حتى قالوا : إنه ينتظر الوحى و يتوكفُ (١٦٩) مناجاةَ الملك . فقلتُ ذاك أمرٌ طواه الله بعد محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أكان الأمرُ معقوداً بأنشُوطة (١٧٠) ، وأمشدوداً بأطراف لِيطَة (١٧١) ؟ كلا ؟ والله لاعجماء بحمد الله إلا أفصحت ، ولاشوكاء (١٧٢) إلا وقد تفتحتْ . ومن أعجبِ شأنِك قولُك : لولا سابقُ عقد وسالفُ عَهْدٍ لشفيتُ غيظى بخنصرى و بنصرى . وهل ترك الدينُ لأحدٍ أن يشفى غيظه بيده أولسانهِ ؟ تلك جاهليةٌ استأصَلَ اللهُ شأفَتَها (١٧٣) ، واقتلع جرثومَتَها ، ونوَّرَ ليلَها ، وغوَّرَ سيلَها ، وأبدل منها الروْح والريحان ، والهدىَ والبرهان . وزعمت أنك مُلْجَم ؛ فلعمرى إنَّ من اتقى الله وآثر رضاه . وطَلَبَ ماعنده ، أمسكَ لسانَه ، وأطبقَ فاه ، وَغلَّبَ عقلَه ودينَه على هواه ، وجعل سَعْيَه لما وراه . وأما قولَك : إنى لأعرفُ مَنْزَعَ قوسى ، فإذا عرفتَ منزعَ قوسِك ، عرفَ غيرُك مضربَ سيفِه ، ومطعنَ رُمحِه (١٧٤) وأما ماتزعمُهُ من الأمر الذى جعله رسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لك (١٧٥) فتخلَّفْتَ إعذارا إلى الله وإلى العارفَة به من المسلمين ! فلو عَرَفَةَ المسلمون لجنحُوا (١٧٦) إليه ، وأصفقُوا عليه (١٧٧) ، وما كان الله ليجمَعَهُمْ على العمى ، ولاليضربَهُمْ بالضلالِ بعد الهدى ، ولو كان

---

(١٦٩) يتوقع و ينتظر .

(١٧٠) الأنشوطة : عقدة تحل إذا جذب أحد طرفيها .

(١٧١) الليطة : قشرة القصبة التى تلزق بها .

(١٧٢) الشوكاء : النخلة أول طلوع شوكها وأى نبتة ذات شوك .

(١٧٣) شأفة الشيء وجرثومته أصله .

(١٧٤) العبارة كناية عن التفوق على علىّ فى العلم والقوة . .

(١٧٥) يعنى الإيصاء لعلىّ ــ تصريحا أو تلميحا ــ بالخلافة .

(١٧٦) اتجهوا .

(١٧٧) أجمعوا عليه .

لرسولِ الله فيك رأْىٌ وعليك عزمٌ ثم بعثه الله فرأى اجتماعَ أمته على أبى بكر لما سفَّه آراءهم ، ولاضللَّ أحلامهَم ، ولاآثرَكَ عليهم ، ولا أرضاك بسُخْطِهِمْ ، ولأمَرَكَ باتباعِهِمْ والدخولِ معهم فيما ارتضَوْه لدينهم .

فقال على : مهلا أبا حفص أرشدك الله ، خَفِّضْ عليك والله ما بذلْتُ مابذلْتُ وأنا أريدُ نَكْثَه ، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغى عنه حِوَلاً ، وإن أخسَر الناس صفقةً عند الله من استبطنَ النفاق ، واحتضن الشِقاق ؛ وفى الله خَلَفٌ عن كل فائت ، وعِوَضٌ من كلِّ ذاهب ، وسَلْوةٌ عن كل حادث وعليه التوكُّل فى جميع الحوادث ؛ ارجَع أبا حفص إلى مجلسك ناقعَ القلب مبرودَ الغليل ، فصيحَ اللسان ، فسيح اللَّبان(١٧٨) ، رحْبَ الصدر، متهللَ الوجه ، فليسَ وراءَ ما سمعتَه منى إلا مايشدُّ الأزْر(١٧٩) ، ويحط الوزر(١٨٠) ، و يضع الإصر(١٨١) ، ويجمع الألفْة ، و يرفعُ الكلْفة ، إن شاء الله . فانصرف عمر إلى مجلسه .

قال أبو عبيدة : فلم أسمع ، ولم أر كلاما ولا مجلسا ، كان أصعب عَلَيَّ من ذلك الكلام والمجلس .

* * *

قال أبو حيان فى كتابه البصائر : روى لنا هذا كله أبو حامد ثم أخرج لنا أصلَه فقابلناه به فما كان غادرَ منه إلا مالا بال له ، فأما ماروواه لنا أبو منصور الكاتب فإنه خالف فى أحرف فى حواشى الكتاب كل حرف بازاء نظيره الذى هو مبدل منه ، وقد كان أبو منصور بلغة العرب أبصر ، وفى غرائبها أنفذ ، وإنما قدمت رواية أبى حامد ؛ لأنه بشأن الشريعة أعلم ، ولأعاجيبها أحفظ ، وفيما أشكل منها أفقه .

---

(١٧٨) اللَّبان : الصدر .

(١٧٩) الأزر : الظهر ، والقوة .

(١٨٠) الوزر : الإثم والثقل .

(١٨١) الإصر : الذنب والثِّقَل .

(٢) كتاب ينسب لعثمان (*)

من عثمان إلى واليه فى مصر :

بسم الله الرحمن الرحيم :

أما بعد ، فإذا قدم عليك عبد الرحمن بن عديس فاجلده مائة جلدة ، واحلق رأسه ولحيته ، وأطل حبسه حتى يأتيك أمرى ،

وعمرو بن الحمق فافعل به مثل ذلك ، وسودان بن حمران مثل ذلك ، وعروة بن النباع الليثى مثل ذلك ... »

(٣) مما نسب لعلى بن أبى طالب
الخطبة الشقشقية (*)

أَمَا وَاللهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا(١) فُلاَنٌ(٢) وَإنهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّى مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَا ، يَنْحَدرُ عَنِّى السَّيْلُ(٣) وَلاَيَرْقَى إِلَىَّ الطَّيْرُ(٤) ،فَسَدَلتُ دُونَهَا ثَوْبًا(٥) ، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا(٦) وَطفِقْتُ أَرْتَئِى بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدٍ جَذَّاء(٧) أَوْ أَصْبرَ عَلى

(*) الطبرى ٤ / ٣٧٣
والأسماء المذكورة لزعماء المصريين .

(*) نهج البلاغة ٣٣

(١) يقصد تولى الخلافة تشبيها لها بالقميص .

(٢) أبو بكر الصديق .

(٣)ـ (٤) كناية عن السمو والرفعة وعلو المكانة .

(٥) كناية عن غضه نظره عنها .

(٦) الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضِّلَع الخلف وهو: كناية عن ميله وانصرافه عنها .

(٧) الجذّاء : المقطوعة .

طخْيَةٍ عَمْيَاء (٨) يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَ يشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَ يَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا (٩) أَحْجَى (١٠) فَصَبَرْتُ وَفِى الْعيْن قَذى (١١) ، وَفِى الْحَلْقِ شَجًا (١٢) أَرَى تُرَاثِى نَهْبًا ، حَتَّى مَضَى الأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ ، فَأَدْلى (١٣) بِهَا إِلَى فُلاَنٍ بَعْدَهُ (١٤) (ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الأَعْشَى) :

شَتَّانَ مَا يَوْمِى عَلَى كُورِهَا
وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِى جَابِرِ (١٥)

فَيَاعَجَبا ! ! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُهَا فِى حَيَاتِهِ (١٦) إِذ عَقَدَهَا لآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ (١٧) ، لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا (١٨) فَصَيَّرَهَا فِى حَوْزَةٍ خَشْنَاء يَغْلُظُ كَلْمُها (١٩) ، وَ يَخْشُنُ مَسُّهَا ، وَ يَكْثُرُ الْعِثَارُ فِيهَا ، والاعْتِذَارُ مِنْهَا ، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِب الصَّعْبَةِ (٢٠) إِنْ أَشْنَقَ لَهَا

---

(٨) الطخية ؛ الظلمة . و يقصد أنه كان بين حالين إما أن يقاتل دفاعا عن حقه فى الخلافة ولكنه لم يكن يملك مايمكنه من ذلك ، وإما أن يصبر على هذه الحال السيئة فآثر الأخرى .

(٩) هاتا : هذه .

(١٠) أحجى : ألزم وأجدر.

(١١) القذى : مايقع فى العين والشراب .

(١٢) الشجا : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه .
والعبارتان السابقتان كناية عن أن صبره كان على مضض وكراهية .

(١٣) أدلى : ألقى .

(١٤) هوعمر بن الخطاب .

(١٥) الكور: رحل الناقة . شتان : بعدما بينهما . ومعنى البيت : ما أبعد الفرق بين يومى بشقائه ومعاناته على رجل ناقتى و يوم حيان برفاهيته ونعيمه . واستشهد علىٌّ بهذا البيت لبيان الفرق بين يومه فى خلافته و يوم عمر فى حكمه .

(١٦) إشارة الى مانسبه بعضهم الى أبى بكر من أنه قال بعد البيعة « أقيلونى فلست بخيركم » .

(١٧) إذ أوصى بها لعمر على ملأ من المسلمين .

(١٨) تشطرا ضرعيها : أى اقتسما فوائد الخلافة ومنافعها .

(١٩) أى : جعل الخلافة من بعده خطيرة صعبة خشنة جرحها لايندمل .

(٢٠) الناقة الصعبة : الشرسة غير الذلول .

خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ(٢١)، فَمُنِيَ النَّاسُ(٢٢) — لَعَمْرُ اللهِ — بِخَبْطٍ(٢٣) وَشِمَاسٍ(٢٤) وَتَلَوُّنٍ(٢٥) وَاعْتِرَاضٍ(٢٦)؛ فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ الْمُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ، حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ، فَيَالَلهِ وَلِلشُّورَى!! مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هذهِ النَّظَائِرِ(٢٧)!! لكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا(٢٨) وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا؛ فَصَغَى رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ(٢٩) وَمَالَ الآخَرُ لِصِهْرِهِ(٣٠) مَعَ هَنٍ وَهَنٍ(٣١).

إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ(٣٢) الْقَوْمِ نَافِجًا حِضْنَيْهِ(٣٣) بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ(٣٤)، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضِمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ إِلَى أَنِ انْتَكَثَ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ(٣٦) وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ(٣٧) فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ(٣٨) إِلَيَّ يَنْثَالُونَ(٣٩) عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؛ حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الْغَنَمِ(٤٠).

---

(٢١) أي: إن شد راكبها زمامها خرم أنفها. وإن أسلس لها قيادها ألقت به إلى المهلكة.

(٢٢) أي: ابتلوا وأصيبوا.

(٢٣) الخبط: الضلال والسير على غير هدى.

(٢٤) الشماس: العناد والتصلب.

(٢٥) التلون: التغير.

(٢٦) الاعتراض: السير على غير خط مستقيم.

(٢٧) يقصد الخمسة الآخرين وهم: عثمان، وسعد، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف.

(٢٨) يقصد أنه سايرهم ولم يخالفهم: والإسفاف: ارتكاب أمر الدنيء. وهو: من أسف الطائر إذا اقترب من الأرض في طيرانه.

(٢٩) أي: استجاب أحدهم إلى ضغينته. وهو يقصد سعد بن أبي وقاص.

(٣٠) يقصد عبد الرحمن بن عوف فزوجته أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط كانت أختا لعثمان من أمه.

(٣١) يشير إلى أشياء أخرى يكره ذكرها.

(٣٢) عثمان بن عفان.

(٣٣) نافجا: رافعا. ونافجا حضنيه كناية عن التكبر أو امتلاء البطن بالطعام.

(٣٤) النثيل: الروث. والمعتلف: موضع العلف.

(٣٥) الخضم: الأكل مطلقا أو الأكل بأقصى الأضراس.

(٣٦) أي: أن عمله السيء أدى الى مصرعه.

(٣٧) البطنة: الأكل البطر والأشر والتخمة. وكبا الجواد سقط لوجهه.

(٣٨) عرف الضبع: الشعر الكثيف على عنقها، ويضرب به المثل والازدحام.

(٣٩) ينثالون: يتتابعون ويتزاحمون.

(٤٠) ربيضة الغنم: الجماعة الرابضة من الغنم.

فَلَمَّا نَهَضْتُ بالأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ ، وَمَرَقَتْ أُخْرَى ، وَقَسَطَ (٤١) آخَرُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلاَمَ اللهِ حَيْثُ يَقُولُ :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (٤٢)

بَلَى ! وَاللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا ، وَلكِنَّهُمْ حَلِيَتِ(٤٣) الدُّنْيَا فى أعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا(٤٤) .

أما وَالذى فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ (٤٥) لَوْلاَ حُضُورُ الْحَاضِرِ (٤٦) وَقِيَام الحُجَّةِ بِوُجُودِ الناصِرِ، وما أَخَذَ اللهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ لاَيُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ (٤٧) وَلاَ سَغَبِ (٤٨) مَظْلُومٍ ، لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا (٤٩) ، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا ، وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هذه ازْهَدَ عِنْدِى مِنْ عَفْطَةِ عنْزٍ (٥٠) .

قالوا : وقام إليه رجل من أهل السواد (٥١) عند بلوغه الى هذا الموضع من خطبته فناوله كتابا ، فأقبل ينظر فيه ، قال له ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ : يا أمير المؤمنين ، لو اطَّرَدَتْ خطبتك من حيث أفضيت ؟

---

(٤١) قسط : جار وظلم .

(٤٢) القصص الآية ٨٣ .

(٤٣) صارت كالمرأة إذا تزينت بحليها .

(٤٤) الزبرج : الزينة .

(٤٥) خلق الروح .

(٤٦) وجود من بايعه بالخلافة .

(٤٧) الكظة : ما يعترى الآكل من امتلاء البطن بالطعام والمراد بكظة الظالم : استئثاره بالحقوق .

(٤٨) السغب : شدة الجوع . والمراد بسغب المظلوم هنا : ضياع حقوقه .

(٤٩) كناية عن عدم الاهتمام وعدم الحرص على طلب الشىء .

(٥٠) عبطة العنز: ما تنثره من أنفها .

(٥١) العراق

فَقَالَ : هَيْهَات يَا بْنَ عَبَّاسٍ ، تِلْكَ شِقْشِقَةٌ (٥٢) هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ .

قال ابن عباس : فو الله ما أسفت على كلام قط كأسفى على هذا الكلام أن لا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد .

(٤) مما نسب لعلي بن أبي طالب
الفتنة وبنو أمية (*)

أَمَّا بَعْدُ أَيُّها النَّاسُ فإنِّى فقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ (٥٣) وَلمْ يكُنْ لِيَجْتَرِى عَليْها أَحَدٌ غَيْرِى بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهبُهَا (٥٤) وَاشْتَدَّ كَلَبُها (٥٥) .

فَاسْأَلونى قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونى ؛ فَوَ الَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ تَسْأَلُونى عَنْ شىء فِيمَا بَيْنَكُم وَبيْنَ السَّاعَةِ ، وَلاَ عَنْ فِئة تَهْدِى مِائة وَتُضِلُّ مِائةً إلاَّ أنبأتُكُمْ بِنَاعِقِهَا (٥٦) وَقَائِدِهَا ، وَسَائِقِهَا ، وَمُنَاخ رِكَابِهَا ، وَمَحَطِّ رِحَالِهَا ، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلاً ، وَمَنْ يَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً ، وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِى وَنَزَلَتْ بِكُمْ كَرَائِهُ الأُمُور (٥٧) وَحَوَازِبُ الْخُطُوب (٥٨) لأَطْرَقَ كَثِيرٌ مِنَ السائِلين وَفَشِلَ كَثِيرٌ مِنَ المسئولين ، وَذَلِكَ إذَا قَلَّصَتْ (٥٩) حَرْبُكم وَشَمَّرَتْ عَنْ سَاق (٦٠) ، وَضاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ ضِيقاً تَسْتَطِيلُونَ مَعَهُ أَيَّام الْبَلاَءِ عَلَيْكُمْ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ لِبَقِيَّةِ الأَبْرَارِ مِنْكُمْ .

---

(٥٢) الشقشقة : شئ كالرئة يخرجه البعير من فمه إذا هاج . والهدير : هو الصوت المصاحب لإخراجها .
* نهج البلاغة ١١٦

(٥٣) أى:فقأت عليها . وكان ذلك بعد أن هزم الخوارج فى النهروان .

(٥٤) الغيهب : الظلام . وماج غيهبها : ساد ظلامها .

(٥٥) الكلب : السعار .

(٥٦) ناعقها : الداعى إليها .

(٥٧) كرائه الأمور : شدائدها .

(٥٨) حوازب : جمع حازب وهو الأمر الشديد .

(٥٩) قلصت : تمادت واستمرت .

(٦٠) كناية عن شدة الحرب وهولها .

إنَّ الْفِتَنَ إذَا أَقْبَلَت شَبَّهَتْ وَإذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ (٦١) : يُنْكَرْنَ مُقْبِلاَت ، وَ يُعْرَفْنَ مُدْبِرَات ، يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّيَاح ، يُصِبْنَ بَلَداً ، وَيُخْطِئْنَ بَلداً .

أَلاَ إنَّ أَخْوفَ الْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أَمَيَّةَ ؛ فَإنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاء مُظلِمةٌ ؛ عَمَّتْ خُطَّتُهَا (٦٢) وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا (٦٣) ، وأَصَابَ الْبلاَءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيها وأَخطأَ الْبَلاَءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا (٦٤) .

وَأَيْمُ اللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أَمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَاب سُوءٍ بَعْدِي كَالنَّاب الضَّرُوس (٦٥) تَعْذِمُ (٦٦) بِفِيهَا ، وَتخبطُ بِيَدِهَا ، وَتَزْبِنُ (٦٧) بِرِجْلِهَا ، وَتَمْنَعُ دَرَّهَا (٦٨) ، لاَيَزَالُون بِكُمْ حَتَّى لايَتْرُكُوا منكم إلا نافعاً لهم أوغير ضائرٍ بهم ، ولا يزالُ بلاؤهم حتى لايكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصارِ العبدِ من ربّه ، والصاحِب من مَسْتصحِبه (٦٩) تردُ عليكم فتنتُهم شوهاء (٧٠) مخشِيَّة وقطعا جاهلية ليس فيها منارُ هدى ، ولاعَلَمٌ يُرى (٧١) ، نَحن أهلَ البيتِ منها بمنجاة ولسْنا فيها بدعاة، ثم يفَرجَها اللهُ عنكم كتفريجِ الأديم (٧٢) بمنْ يَسومهم خَسْفاً و يسوقُهم عُنْفا ، و يَسْقيهم بكأسٍ

---

(٦١) أي : الفتن إذا أقبلت دخل فيها من دخل اعتقادا ؛ أنه على الحق ، ولكن بعد انتهائها يكشف أنه كان على باطل . ولات حين مندم .

(٦٢) الخُطة : الأمر .

(٦٣) أي : أن بليتها خصت آل البيت ؛ لأن غيرهم انتزع حقوقهم .

(٦٤) أي : أن من أبصر باطل بني أمية وكشف عوراهم ، نزل به انتقامهم ، أما من تغافل عن ذلك فلا ينزل به بلاء ..

(٦٥) الناب : الناقة المسنة . الضروس : السيئة الخلق .

(٦٦) تعذم : تعض .

(٦٧) تزبن : تضرب .

(٦٨) لبنها .

(٦٩) أي : التابع من متبوعه ، أي انتصار الأذلاء .

(٧٠) قبيحة : ممسوخة .

(٧١) دليل يهتدى به .

(٧٢) أي يكشفها الله عنكم ككشف الجلد عن اللحم .

مُصَبَّرة (٧٣) لايعطيهم الا السيف ، ولا يُجْلِسُهم الا الخوف (٧٤) ، فعند ذلك تودُّ قريشٌ بالدنيا ومافيها ، لويَرَوْننى مَقَاماً واحدا ، ولوقَدْرَ جَزْرِ جَزُور (٧٥) لأَقْبل منهم ما أطلبُ اليومَ بعضَه فلا يُعْطونَنى (٧٦) .

(٧٣) الصبر: بكسر الصاد وضمها واحد الأصبار وهو: الحزف والكأس المصبرة : المملوءة تماما .

(٧٤) أى : ولا يشعرهم الا الخوف . وأحلس البعير : أى وضع عليه الحلس . وهو كساء يوضع فوق ظهر البعير .

(٧٥) أى : ولو لمدة قصيرة لا تتعدى مدة ذبح البعير .

(٧٦) أى : بعد أن يقضى على بنى أمية تود قريش أن يرونى — ولو للحظات — لأقبل منهم أكثر مما أطلب اليوم بعضه فلا يتحقق لى . ولكن سيكون ذلك بعد فوات الأوان .

القسم الثانى

وقفات ونظرات

الفصل الأول

ثقافة الخلفاء الراشدين



كـان الخلفاء الراشدون جميعا يعرفون القراءة والكتابة ، فقد نقل لنا التاريخ أنهم جميعا كانوا من كتاب النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ (١) وكانت ثقافتهم المشتركة هـى ثـقافة الفطرة ، والوعى بشئون البيئة ، وقواعد سياسة الناس ، ولكن أبرز مابرّز فيه أبـوبـكـر مـعـاصـر يـه هو علمه بالأنساب « فقد كان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها ، وبما كان فيها من خير وشر » (٢)

والـنـسـب الـذى كان يعلمه الصديق كان هو النسب المحيط بالمحامد والمثالب فى الـقبائل العربية كافة ، وهو أنفع مافى علم التاريخ حين يراد بعلمه الطموح إلى منزلة الحـمـد والـسـمـعـة الرفيعة ، والتنزه عن معارض الذم وقالة السوء ، ولذلك كان علم الصديق بأنساب العرب أجمعين (٣) .

وقد انتفع الإسلام بهذا الجانب المميز من ثقافة الصدّيق فى مجالين :

المجـال الأول : مجـال الدعوة الإسلامية فى العهد المكى ، فقد كان النبى ـــ صلى الله عـلـيه وسلم ـــ يصحب أبابكر وهو يعرض نفسه على القبائل فى مكة وماجاورها ، موِّظَفا علمه الواسع بتواريخ القبائل وأيامها وأنسابها .

يـقـول على بـن أبى طالب ـــ رضى الله عنه ـــ لما أمر رسول الله ـــ صلى الله عليه وسـلـم ـــ أن يـعـرض نـفـسـه على قبائل العرب ، خرج وأنا معه وأبوبكر ، فدفعنا إلى

(١) صبح الأعشى ٩٢/١ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢٥٨/١ .

(٣) العقاد : عبقرية الصديق ١٨٨ .

ـلس مـن مجـالس العرب ، فتقدم أبوبكر ، وكان نسّابة ، فسلم فردّوا عليه السلام ، فـقـال : ممن القوم ؟ قالوا : من ربيعة . فقال : أمن هامتها ؟ أم من لهازمها ؟ قالوا من هـامتهـا الـعـظـمى . قال : فأى هامتها العظمى أنتم ؟ قالوا ذهل الأكبر. قال : أفنكم عـوف الـذى يقال له : لاحُرَّ بوادى عوف ؟ قالوا : لا . قال : أفنكم بسطام ذواللواء ، ومـنتهى الأحـيـاء ؟ قـالوا : لا . قال : أفنكم جساس بن مرة ، حامى الذمار ، ومانع الجـار ؟ قـالـوا : لا . قال : أفنكم الحوْفَزان قاتل الملوك ، وسالبها أنفسها ؟ قالوا : لا . قـال : أفـنـكـم المزدلف صاحب العمامة الفردة ؟ قالوا : لا . قال أفأنتم أخوال الملوك من كندة ؟ قالوا : لا . قال : فلستم ذهلا الأكبر ، أنتم ذهل الأصغر(٤) .

وهـذا الجـزء مـن الـروايـة يـدل على سعة علمه بأنساب العرب . حتى وصفه ابن سلام الجمحى بأنه كان علاّمة قريش ، وأن جبير بن مطعم أخذ العلم عنه(٥) حتى صـار جـبير مـن أنسب قريش لقريش والعرب قاطبة ، وكان دائما يقول : إنما أخذت النسب من أبى بكر(٦) .

أمـا المجـال الـثـانـى : فـهـو أن أبـا بكر كان يمثل المصدر العلمى الذى يستمد منه حـسـان بـن ثـابـت المـادة الـتـاريخية فى هجاء قريش وفضْح عارها ومعايبها وعوارها : يـروى أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما هاجر من مكة إلى المدينة تناولته قريش بـالـهـجـاء فقال لعبد الله بن رواحة : ردّعنى ، فذهب فى قديمهم وأولهم ، فلم يصنعْ فى الهجاء شيئا ، فأمر كعب بن مالك ، فذكر الحرب بقوله :

نَصِلُ السيوفَ إذا قَصرْنَ بخطْونا ... قُدُماً ، ونُلْحقُها إذا لم تلْحقِ

فـلـم يـصـنـع فى الـهـجـاء شـيـئـا ، فدعا حسان بن ثابت ، فقال : اهجهم ، وائت أبا بكر يخبرك .. (٧)

(٤) الميدانى : مجمع الأمثال : ١/١٩ .

(٥) طبقات فحول الشعراء ٢١٧/١ .

(٦) السيوطى : تاريخ الخلفاء ٤٠ .

(٧) ابن سلام السابق نفس الصفحة وانظر كذلك الأغانى ٤/١٣٥٢ .

ويضاف إلى علمه بالأنساب استيعابه للقرآن كله ولفقه الدين كله، ودراية بما استوعب من معانيه عن فهم وعن سماع ممن نزل عليه القرآن الكريم — صلوات الله عليه — قرأ يوما :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ (٨)

فقال : إن الناس يضعون هذه الآية فى غير موضعها ، ألا وإنى سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : **إن القومَ إذا رأوا الظالم فلم يأخذُوا على يديه، والمنكرَ فلم يغيروه عمهم الله بعقابه** (٩) .

وسأل أصحابه يوما : ماتقولون فى هاتين الآيتين

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (١٠)

وقوله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١١)

قالوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم الخطيئة ، فقال لقد حملتموها على غير المحمل : استقاموا ، فلم يلبسوا إيمانهم بشرك (١٢) ..

وقد رأينا فى النصوص التى عرضناها من أدبه قوة عارضته فى جداله مع الذين عارضوه فى محاربته المرتدين ، وكيف رأى أن الزكاة هى حق الشهادتين ، وأن

---

(٨) المائدة : الآية ١٠٥ .

(٩) العقاد : عبقرية الصديق ١٨٧ .

(١٠) الأحقاف : الآية ١٣ .

(١١) الأنعام : الآية ٨٢ .

(١٢) العقاد السابق : نفس الصفحة .

التفريق بين الصلاة والزكاة ، وإسقاط هذا الركن الأخير من الإسلام يعد ردة كاملة تهدر دم صاحبها (١٣)

قال ابن كثير : كان الصديق ــ رضى الله عنه ــ أقرأ الصحابة ــ أى أعلمهم بالقرآن ــ لأنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ قدمه إماما للصلاة بالصحابة ، مع قوله « يؤم القومَ أقرؤهم لكتاب الله » (١٤) فأبوبكر كان أحد الصحابة الذين حفظوا القرآن كله (١٥)

وكان أعلم الصحابة بالسنة ، كلما رجع إليه الصحابة فى غير موضع يبرز عليهم بنقل سنن عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يحفظها هو ، و يستحضرها عند الحاجة إليها ، ليست عندهم ، وكيف لايكون كذلك ، وقد واظب على صحبة الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ من أول البعثة إلى الوفاة ؟ (١٦) .

ولكنه ــ على هذه الملازمة ــ لم يرو من الأحاديث النبوية إلا نيفا ومائة وأربعين حديثا ، لم يتجاوز ما أثبته البخارى ومسلم نحو سبعها . وقيل فى تعليل ذلك : أنه ــ رضى الله عنه ــ مات قبل تدوين الأحاديث .

و يرفض العقاد هذا التعليل ؛ لأن كثيرا ممن سمعوا الأحاديث النبوية ماتوا كذلك قبل الاشتغال بتدوينها ، و يرى أن التعليل السديد لذلك هو أن قلة كلامه أقلّت ماسمع الناس عنه فحرروه ونقلوه (١٧) فالصديق كان أحرص الناس على كلام يبدر من لسانه .. فكان قوله نزرا . ووصيته بالإقلال من المقال أسبق وصاياه إلى ولاته وعماله ، قال لخالد بن الوليد : « أَقِلَّ من الكلام ، فإنما لك ما وعى عنك » . وقال ليزيد بن أبى سفيان « إذا وعظتهم فأوجز ، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضا » وكان يقول « إن البلاء موكل بالمنطق » (١٨) .

---

(١٣) انظر حوار أبى بكر ٢ .

(١٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ٣٩ .

(١٥) السابق ٤١ .

(١٦) السابق : نفس الصفحة .

(١٧) عبقرية الصديق ١٨٥ .

(١٨) انظر السابق ١٨٤ ــ ١٨٥ . وانظر الميدانى : مجمع الأمثال ١/ ٢٠ .

و يعلل السيوطى قلة روايته عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « بقصر مدته ، وسرعة وفاته بعد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإلا فلو طالت مدته لكثر ذلك عنه جدا ، ولم يترك الناقلون عنه حديثا إلا نقلوه » (١٩) .

وليس ثمة مايمنع الأخذ بالتعليلين معا ، فقلة روايته عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ترجع إلى ماطبع عليه الصديق من قلة الكلام ، وقصر مدته بعد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهى قرابة عامين .

وقد يضاف إلى ذلك مانعرفه من تحرّج بعض الصحابة من إكثار الرواية عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ خشية الخطأ فى النقل ، و يعتبر عمر أشهر من عرف عنه هذا الاتجاه .

• • •

و يقال كذلك أن الصديق كان غاية فى علم تأو يل الرؤ يا ، وقد كان يعبر الرؤ يا فى زمن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقد قال محمد بن سير ين ــ وهو المقدم فى هذا العلم بالاتفاق ــ : « كان أبوبكر أعبر هذه الأمة بعد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما روى عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال « **أمرْت أن أؤوّل الرؤ يا ، وأن أعلمها أبابكر** » (٢٠) .

• • •

و ينقل لنا التار يخ عن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ أنه كان صاحب أر بعين أولية أوتر يد ، لم يسبقه إلى واحدة منها أحد فهو أول من عسّ فى عما بالمدينة ، وأول من حمل الدرة وأدّب بها ، وأول من مسح السواد ، ووضع الخراج ع الأرضين والجز ية على رءوس أهل الذمة ، وهو أول من مصّر الأمصار : الكوفة والبصرة ، والجز يرة ، والشام ، ومصر ، والموصل ، وهو أولُ من استقضى القضاة الأمصار ، وأول من دوّن الدواو ين ، وأول من حمل الطعام فى السفن من مصر ، وأ

---

(١٩) تار يخ الخلفاء ٣٩ .

(٢٠) السابق ٤٠ .

ـس احد دار الدفيق ، وأول من وسّع مسجد الرسول ــ عليه السلام ــ وأول من ألقى الحصى فى المسجد ، وأول من اتخذ بيت المال ، وأول من نهى عن بيع أمهات الأولاد ، وأول من جمع الناس فى صلاة الجنازة على أربع تكبيرات ، وكانوا قبل ذلك يكبرون أربعا وخمسا وستا . وأول من وضع العُشْرَ فى الإسلام ، وأول من جمع الناس على التراويح فى شهر رمضان ، وأول من وضع النحو ، وأول من أخذ زكاة الخيل ، وأول من جلد فى حد الخمر ثمانين ، وهو أول من قضى فى ميراث الأم ، وأعطاها ثلثى الباقى فى مسألتين : زوجة وأبوان ، أوزوج وأبوان ، وتسميان العمريتين ؛ لأنه أول من قضى فيهما ، وهو أول من ورّث العرب من الموالى ، وهو أول من جهر بالتسليم ، وهو أول من قنت النصف الأخير من رمضان ، وهو أول من عاقب على الهجاء .

ومن أولياته كذلك أنه هو الذى أخرج اليهود من الحجاز إلى الشام ، وأخرج أهل نجران إلى الكوفة ، وهو الذى أخَّر مقام إبراهيم إلى موضعه اليوم ، وكان ملصقا بالبيت(٢١) .

وكل هذه الأوليات ــ وغيرها كثير ــ تدل على تعدد جوانب الثقافة والتفتح ، وقدرة الاستيعاب ، وسعة الأفق ، وبراعة التصرف عند الخليفة الثانى ، فزيادة على دلالتها النفسية من جراءته ، وقوة شخصيته وحزمه إذ يرود طرقا لم يردْها من كان قبله ، ويسُنّ سننا لم يكن لسابقيه مثلها ، أقول ــ زيادة على هذه السمة ــ تبقى الدلالة الأقوى وهى أن عمر كان ذا « ثقافة موسوعية » فى عصره . ولو لم يكن له إلا هذه الأوليات لبقيت هذه الدلالة فى أقوى صورها ؛ لأن هذه العشرات من الأوليات تعكسها فى وضوح :

ففيها أوليات تتعلق بلغة العرب وضبطها وهى أولية وضع النحو .

وفيها أوليات عمرانية أوتعميرية كأولياته فى تمصير الأمصار ، وتوسيع مسـ الرسول .

---

(٢١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣/ ٢٨١ . وتاريخ الخلفاء للسيوطى ١٢٨ . وانظر كذلك سيرة عمر بن للطنطاوى ين ٣٢٨ ومابعدها .

وفيها اوليات تنظيمية تتعلق بسياسة الدولة واستقرارها فى مجال الحكم والقضاء والسياسة الاقتصادية كأولياته فى تدو ين الدواو ين ، واتخاذ بيت المال ، واستقضائه القضاة .

ومنها أوليات فقهية ، تدل على مرونته ، وسعة أفقه فى الاجتهاد ، كما نرى فى المسألتين العمريتين ، واجتهاده فى صلاة الجنازة ، وجمع الناس على التراو يح ... الخ .

• • •

و ينقل لنا التار يخ عشرات من أقوال الصحابة كلها تجمع على فضله وعلمه ، مثل قول ابن مسعود « لوأنّ علم عمر وضع فى كفّة ميزان ، ووضع علم الناس فى كفة ميزان لرجح علم عمر » ..

وقال غيره « لما مات عمر ذهب تسعة أعشار العلم » .

و يروى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : رأيت كأنى أتيت بقدح لبن فشربت منه ، وأَعْطَيْتُ فضلى عمر بن الخطاب . فقالوا : ما أوّلته يارسول الله ؟ قال : العلم (٢٢) .

أما دعوته إلى العلم وحثه عليه ، فقد حفلت بها كتب الأدب والتار يخ ، ومن توجيهاته الجامعة فى ذلك « كونوا أوعية الكتاب ، و ينابيع العلم » (٢٣) .

وكان يعتز بالعربية ، و يرى أن اللحن خطيئة توجب العقاب . و يروى فى ذلك أن الحصين بن الحرّ كتب كتابا إلى عمر ، فلحن فى حرف فيه ، فكتب إليه عمر : أن قنّعْ (أى اضرب) كاتبك سوطا (٢٤) .

وكان يحث على قرض الشعر وروايته (٢٥) .

---

(٢٢) أسد الغابة ٤/١٥٥ .

(٢٣) البيان والتبيين ٢/١٦١ . وانظر حكم عمر ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

(٢٤) البيان والتبيين ٢/١١٢ .

(٢٥) حكم عمر ٦ ، ٧ .

وكان له بصره بالشعر، وحسه النقدى الرفيع فى الحكم على الشعراء، وتناول شعرهم، مما سنعود إليه بالتفصيل إن شاء الله (٢٦) .

وكانت كتبه ووصاياه فى السياسة والحرب والقضاء دساتير تنم على عبقرية شاملة قلّ نظيرها على مدار التاريخ كله « على أن زبدة الثقافة كلها فى أقطاب الحكم وعظماء الأعمال إنما تتلخص فى شىء واحد هو الدراية بالناس، ونفاذ البصر فى شئون الدنيا، وصدق الخبرة بدخائل النفس البشرية، أوهو ما نسميه فى أيامنا هذه بالرأى السليم، والحكمة العملية، وهو مجال كان عمر بن الخطاب قليل النظراء فيه، وحفظت له كلمات فى معانيه يندر مثيلها بين كلمات الحكام، ولا يكثر مثيلها بين كلمات الحكماء .

فأى كلمة أدل على النفس البشرية من قوله « ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر، ولكنه الذى يعرف خير الشرين » . وأى نفاذ فى تركيب الطبائع أمضى من نفاذه إذ يقول « ماوجد أحد فى نفسه كبْرا إلا من مهانة يجدها فى نفسه » . أليس هذا بعينه هو مركّب النقص الذى يلهج به علم النفس الحديث ؟ (٢٧) .

• • •

وكان لعثمان ــ رضى الله عنه ــ كذلك أوليات سجلها له التاريخ : فهو أول من هاجر بأهله فى سبيل الله، وكان ذلك إلى الحبشة، وهو أول من جمع الناس على حرف واحد فى قراءة القرآن، وهو أول من أقطع القطائع، وأول من حمى الحمى، وأول من أمر بالأذان الأول فى الجمعة، وأول من رزق المؤذنين، وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة، وأول من فوّض إلى الناس إخراج زكاتهم، وأول من اتخذ صاحب شرطة، وأول من اتخذ المقصورة فى المسجد خوفا أن يصيبه ما أصاب عمر (٢٨)

---

(٢٦) انظر حوار عمر من ٤ إلى ١٦ .

(٢٧) العقاد : عبقرية عمر ٢٥٠ .

(٢٨) السيوطى : تاريخ الخلفاء ١٥٤ .

وأغلب هذه الأوليات اجتهادات فقهية لا تصدر إلا ممن كانت له أسانيده وزكائزه من العلم والفقه ؛ ولكن أعظم الانجازات العلمية الدينية التى قام بها هى جمع القرآن ، وكانت توجيهاته فى هذا المقام تدل على فقه واجتهاد سديدين .

يروى زيد بن ثابت قصة جمع القرآن فى عهد أبى بكر وجمعه فى عهد عثمان ، فيقول : « أرسل إلىّ أبوبكر مقتلَ أهلِ اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبوبكر : إن عمر أتانا فقال : إن القتل استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن . وإنى أرى أن تجمع القرآن ، قلت لعمر : كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ؟ قال عمر : هذا والله خير . فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر . قال زيد : قال أبوبكر : إنك رجل شاب عاقل لانتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لوكلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرونى به من جمع القرآن ... فتتبعت القرآن أجمعُهُ من العسب واللخاف (٢٩) وصدور الرجال ، .... فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر . حتى قدم حذيفة بن اليمان على عثمان ، وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فحدثه حذيفة عن اختلافهم فى القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين : أدركْ هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ، ثم نردها إليك . فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم . ففعلوا » .

---

(٢٩) العسب : جمع عسيب وهو جريدة النخل . واللخاف جمع لخفة وهى حجارة بيض رقاق كانوا يكتبون عليها إذا تعذر الورق .

حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة ومصحف أن يحرق (٣٠) .

وهكذا وفق الله عثمان — رضى الله عنه — وهداه على نور و بصيرة إلى جمع القرآن وحفظه وصيانته ، ليبقى أعظم عمل قام به فى تاريخه .

• • •

وأسلم عثمان فكان من أفقه المسلمين فى أحكام الدين ، وأحفظهم للقرآن والسنة ، روى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — مائة وخمسين حديثا ، وقال محمد ابن سيرين — وهو يتكلم عن الصحابة — « كان أعلمهم بالمناسك عثمان ، و بعده ابنُ عمر » .

وكان كاتبا يجيد الكتابة ، فاعتمد عليه النبى — عليه السلام — فى تدوين الوحى ، واعتمد عليه الصديق فى كتابة الوثائق المهمة ، ومنها الوثيقة التى عهد فيها بالأمر بعده لخليفته الفاروق (٣١) .

وكان قبل الخلافة من سفراء الإسلام فى أكثر من موقف ، ولعل أشهرها على الإطلاق اختيار النبى — صلى الله عليه وسلم — له ، و بعثه إياه قبل الحديبية للقاء أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت للحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت ، ومعظما لحرمته (٣٢) .

• • •

وختمت الخلافة الراشدة بعلى بن أبى طالب الذى لقى ربه شهيدا . وكانت حياته من طفولته سجلا حافلا بالمفاخر الزاهية : فهو أول الناس إسلاما ، وهاجر إلى المدينة ، وشهد بدرا ، وأحدا ، والخندق و بيعة الرضوان ، وجميع المشاهد مع رسول الله

(٣٠) انظر: ابن العربى : العواصم من القواصم ٦٦ — ٧٠ .

(٣١) العقاد : ذو النورين : عثمان بن عفان ٧٧ ، وانظر كتب أبى بكر ٣٠ .

(٣٢) ابن هشام ٢/٢٢٧ . والإصابة ٦/٣٩٢ . وإمتاع الأسماع ٢٨٩ .

ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلاتبوك ، فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلفه على أهله ، وله فى الجميع بلاء عظيم وأثر حسن ، وأعطاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اللواء فى مواطن كثيرة بيده : منها يوم بدر ، ولما قتل مصعب بن عمير فى أحد ، وكان اللواء بيده دفعه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى على ، وآخاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرتين : فإن رسول الله آخى بين المهاجرين ، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة ، وقال لعلى فى كل واحدة منها : أنت أخى فى الدنيا والآخرة(٣٣) ..

ولا عجب فى كل أولئك ، فقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعلم الناس به ، فهو الذى رباه على عينه ، إذ أخذه من أبيه وهو صغير فى سنة نزل فيها بقريش قحط شديد ، وأخذ حمزة جعفرا ، وأخذ العباس طالبا ، ليكفُوا أباهم مؤنتهم ، ويخففوا عنه ثقلهم ، وأخذ هو عقيلا لميله إليه ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اخترت من اختار الله لى عليكم عليّا (٣٤) .

و يوجز العقاد جوانب ثقافة على ـ كرم الله وجهه فى قوله : « .. تبقى له الهداية الأولى فى التوحيد الإسلامى والقضاء الإسلامى ، والفقه الإسلامى ، وعلم النحو العربى ، وفن الكتابه العربية مما يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الإسلامية كلها فى الصدر الأول من الإسلام » .

وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التى تسجل له فى ثقافة الأمم عامة ، كما تسجل له فى ثقافة الأمة الإسلامية على تباين العصور .

ففى كتاب نهج البلاغة فيض من آيات التوحيد والحكمة الإلهية تتسع به دراسة كل مشتغل بالعقائد وأصول التأليه ، وحكمة التوحيد » (٣٥)

أما القضاء والفقه فالمشهور عنه أنه كان أقْضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه والشريعة ، أولم يكن بينهم من هو أقضى منه وأفقه وأقدر على إخراج الأحكام من

(٣٣) أسد الغابة ٤/٩١ .

(٣٤) أبو الفرج الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ٢٦ .

(٣٥) عبقرية الإمام ١٤٢ .

القرآن والحديث والعُرْف المأثور ، وكان عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ يقول كلما استعظم مسألة من مسائل القضاء العويصة « قضية ولا أبا حسن لها » ؛ لأنه كان فى هذه المسائل يجاوز التفسير إلى التشريع كلما وجب الاجتهاد بالرأى الصائب والقياس الصحيح .

وفى أخباره مايدل على علمه بأدوات الفقه ، كعلمه بنصوصه وأحكامه ، ومن هذه الأدوات علم الحساب الذى كانت معرفته به أكبر من معرفة فقيه يتصرف فى معضلات المواريث ؛ لأنه كان سريع الفطنة إلى حيله التى كانت تعد فى ذلك الزمن ألغازا تكد فى حلها العقول(٣٦) .

و يروى عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قوله « **أنا مدينةُ العلم ، وعلىٌّ بابُها** » * .

و يقول عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ : « كنا نتحدث أنَّ أَقْضى أهل المدينة على بن أبى طالب » .

وقال سعيد بن المسيب : « ما كان أحد من الناس يقول : سلونى غير على بن أبى طالب » .

وسئل عطاء « أكان فى أصحاب محمد أعلم من علىّ ؟ قال لا : والله لا أعلمه » .

وقال ابن عباس « لقد اعطى علىٌّ تسعةَ أعشار العلم ، وايم الله ، لقد شاركهم فى الجزء العاشر » .

و يقولُ سعيد بن المسيب : « كان عمر يتعوذ من معضلة ليس لها أبوحسن » .

وقال ابن عباس : « إذا ثبت لنا الشيء عن على لم نعدلْ عنه إلى غيره » (٣٧) .

وكانت قدرته فى إنشاء الخطب والرسائل الطوال قدرة لا تبارى ، وقد بلغ حدا من قدرة الإقناع والتأثير والاستمالة لم يبلغه أحد .

• • •

(٣٦) الساعة ، ١٤٣ .
(٣٧) أسد الغابه ٤ / ٣٠٠ .
* حكم ابن الجوزى فى كتابه الموضوعات بوضع هذا الحديث وعارضه غيره .

وقد يكون للإعجاب المفرط بشخصية الإمام أوغيره من الخلفاء نصيب فى وصف علمه وفقهه حتى لتتضارب الأحكام فيمن هو أفقه الفقهاء وأعلمهم ؛ ولكن تشابه هذه الأحكام بالنسبة للخلفاء الأربعة لايلغى مضمونها ، بل يؤكد — على الأقل — الحد الأدنى منها ، وهو أن الخلفاء الأربعة — إن لم يكونوا أفقه الناس وأعلمهم — فهم على مدار التاريخ الإسلامى من أفقه الناس وأعلم الناس .

• • •

وثمة موضوع مهم يَرِدُ على الخاطر فى مقام الحديث عن أدب الخلفاء الراشدين وثقافتهم وهو حظهم من الشاعرية ، بعد أن سجل المؤرخون غير قليل من شعر يعزونه إليهم ، بل إن هناك ديوان شعر كاملا ينسب لعلى بن أبى طالب (٣٨) .

وبعض القدماء يرى أن الخلفاء الأربعة كانوا شعراء مجيدين ، ومن هؤلاء : الشعبى الذى يقول : « كان أبوبكر يقول : الشعر ، وكان عمر يقول : الشعر ، وكان عثمان يقول : الشعر ، وكان على أشعر الثلاثة » (٣٩) .

ويرى بعض المحدثين (٤٠) أن شاعرية على بن أبى طالب شاعرية أصيلة : « لأنها موروثة عن أبيه الذى اشتهر له شعر كثير ، ولاسيما فى مؤازرة النبى والدين القويم الذى جاء به » .

وهناك من ينكر هذه الشاعرية بإطلاق كما سنرى بعد قليل . وحتى نستطيع أن نخلص إلى حكم دقيق فى هذه المسألة علينا أن نفرق بين أمور ثلاثة هى :

١ — الشاعرية المطلقة ، وبتعبير آخر : شاعرية السليقة أوالشاعرية المطبوعة .

---

(٣٨) رجعت إلى الديوان المنسوب للإمام على . جمع وترتيب عبد العزيز الكرم وهو غير مشروح ويضم مئات من الأبيات ، ومن قصائده مطولات كالقصيدة الزينبية التى بلغت ستة وستين بيتا . ورجعت إلى طبعة حديثة للديوان بشرح عبد العزيز سيد الأهل وليس فيه من الشعر إلا مايمثل قرابة خمس ماورد فى الديوان الأول . وأغلبه مقطوعات قصيرة .
وانظر شعرا ينسب لعلى — رضى الله عنه — فى السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٧٦ ، ٢/٢٨٩ ، ٣/١٥١ . وانظر شعرا له كذلك فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ١٧١ . وانظر شعرا ينسب إلى كل من أبى بكر وعمر وعثمان وعلى فى العمدة لابن رشيق الجزء الأول ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ .

(٣٩) السيوطى : تاريخ الخلفاء ١٧١ .

(٤٠) عبد العزيز سيد الأهل فى تقديمه للإمام على ص ٥

٢ ـــ شاعرية المناسبات الملحة ، أوالشاعرية العابرة .

٣ ـــ التذوق الأدبى والحس النقدى .

وباستعراض مانسب إلى الخلفاء الراشدين لانستطيع أن ندعى أن واحدا منهم كان شاعرا بالسليقة على مستوى كعب بن زهير، أوحسان بن ثابت ، لا فى جاهلية ولا إسلام ، وإلا لكان الشعر وسيلة من وسائلهم لجذب القلوب وإصلاح النفوس فى أمة كان الشعر ديوانها ، ومثلها البيانى الأعلى .

لقد كان الخلفاء خطباء مفلقين ، وكانوا حكماء مهديين ، وكانوا أنقياء أذكياء ، ولكنهم لم يكونوا شعراء يطلق عليهم هذا الوصف ، فيقال : أبوبكر الشاعر ، أوعمر الشاعر . ولايضيرهم أوينقص من قدرهم ألايكونوا شعراء ، فقول الشعر ليس سمة تطلب فيمن يسوس أمور الناس ، ويحمى حدود الدولة ، ويحكم بالعدل والإحسان ، ولكن يسىء إلى الحق والحقيقة والخلفاء أن ننحلهم ماليس لهم ، وأن نخلع عليهم من الأوصاف مالم يكن فيهم .

والنبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قد حسم هذه المسألة حسما قاطعا ، فلم يقصد أحد الصحابة الأربعة للدفاع عن الإسلام بلسانه ، ولكنه كلف حسان بن ثابت بذلك حينما سلط الكفار ألسنتهم الحداد ينالون بها من الإسلام والنبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ .

ويقال : إن أحد المسلمين قال لعلى بن أبى طالب : اهجُ عنا القوم الذين قد هجونا . فقال على ـــ رضى الله عنه ـــ : إن أذن لى رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فعلت . فقال رجل يارسول الله : إيذن لعلىّ كى يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا . قال « ليس هناك » أو« ليس عنده ذلك » (٤١) .

وهذه شهادة من النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بأن عليا لم يكن من الشاعرية بحيث يستطيع أن يكون فارس هذا المجال ، ومايصدق على علىّ يصدق على المهاجرين جميعا بمافيهم أبوبكر وعمر وعثمان ، لأن النبى ـــ عليه السلام ـــ قال

---

(٤١) الأغانى ٤/١٣٥١ .

للأنصار بعد ذلك « مايمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ » فقال حسان بن ثابت : « أنا لها » وأخذ بطرف لسانه (٤٢) .

وعمر بن الخطاب نفسه قال لمتمم بن نويرة فى حواره الطويل معه « يامتمم ، لوكنت أقول الشعر لسرنى أن أقول فى زيد بن الخطاب مثل ماقلت فى أخيك .. » (٤٣) .

• • •

ومايُنسب من شعر لكل من أبى بكر وعمر وعثمان قليل فى كمّه ، وهى أبيات أومقطوعات قليلة جاءت فى كتب الأدب الجامعة مثل العمدة لابن رشيق . وهذه الأبيات إن صحت نسبتها إلى أصحابها — لا تمنحهم لقب الشاعرية ، وإلا لعُدّ شعراء العرب بالآلاف بل مئات الآلاف ، فقد قل من العرب من لم يقل فى المناسبات الملحة — البيت والبيتين أوالمقطوعة والمقطوعتين .

• • •

وبعض شعر الخلفاء — إن لم يكن أغلبه — ينسب إليهم وإلى غيرهم . فالبيتان التاليان — على سبيل التمثيل — يرويان لعمر بن الخطاب ، كما يرويان لشاعر آخر سمه : الأعور الشنّى :

هـوِّنْ عـلـيـك فـإنّ الأمـورَ بـكـفّ الإلـه مـقـاديـرُهـا
فـلـيـس بآتـيـكَ منهـيُّـهـا ولا قـاصرٌ عـنـك مـأمـورَهـا (٤٤)

• • •

أما الشعر الذى ينسب إلى على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فيقارب فى كمه مانقل لنا من شعر حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة ، وكعب بن زهير جميعا ، وهم الشعراء المشهود لهم بالشاعرية . ويلاحظ على هذا الشعر مايأتى .

---

(٤٢) السابق نفس الصفحة .

(٤٣) انظر حوار عمر ١٣ .

(٤٤) العمدة ١/ ٣٣ . وانظر بعد ذلك الأبيات التالية فى نفس المرجع وفى نفس الصفحة فهى تنسب إلى عمر ، كما تنسب إلى ورقة بن نوفل .

١ ــ أن كثيرا من الأبيات والمقطوعات ينسب إلى الإمام على ، و ينسب إلى غيره كأبياته فى فوائد الأسفار[٤٥] ، وأبياته اللامية التى مطلعها :

صن النفسَ واحملْها على مايزِينُها   تعشْ سالما والقولُ فيك جميلُ

فهذه الأبيات ينسبها الربيع بن سليمان إلى الإمام الشافعى أيضا[٤٦]

ومن الأبيات التى نسبت إليه وإلى غيره :

عجبا للزمان فى حالتيه   وبلاء وقعت منه إليه
رب يوم بكيت فيه فلما   صرت فى غيره بكيت عليه[٤٧]

٢ ــ وفى رواية هذا الشعر اضطراب شديد واختلاف ملحوظ من مصدر إلى آخر، مما يهز الثقة فى نسبته إلى على ــ رضى الله عنه ــ ولنجتزىء بمثال واحد : ينسب لعلى أنه رثى قتلى صفين بقوله :

جزى اللهُ خيرا عصبةً أسلميةً   حسانَ الوجوه صُرِّعُوا حولَ هاشِم
يزيدٌ وعبدُ الله منهم ومنقذٌ   وعروةُ وابنا مالكٍ فى الأكارِم[٤٨]

وجامع الديوان[٤٩] نقل البيتين عن الإصابة لابن حجر.

وفى مروج الذهب ترد أبيات الرثاء المنسوبة إلى على ــ رضى الله عنه ــ على النحو التالى :

جزى الله خيرا عصبة أسلمية   صباحَ الوجوه صرّعوا حول هاشم
يزيد وعبد الله بشر بن معبد   وسفيان وابنا هاشم ذى المكارم
وعروة لاينفد ثناه وذكره   إذا اخترطت يوما خفاف الصوارم

---

(٤٥) ديوان على (سيد الأهل) ٥٣ .

(٤٦) انظر السابق ١٠٣ .

(٤٧) السابق ١٦٣ .

(٤٨) السابق ١٢٥ .

(٤٩) عبد العزيز سيد الأهل .

وصدّر المسعودى هذه الأبيات بما يوحى بأنها بعض من كل فيقول : « ووقف على رضى الله عنه ــ عند مصرع المِرْقَال ، ومن صرع حوله من الأسلميين وغيرهم ، فدعالهم ، وترحم عليهم ، وقال من أبيات :

جزى الله خيرا(٥٠) ..

٣ ــ وفى بعض القصائد تتردد معان صوفية وفلسفية لم يعرفها المسلمون إلا بعد نشأة علوم الكلام والتصوف ، وظهور بصمات الفلسفات الهندية والفارسية واليونانية على الفكر العربى . كما نرى فى هذه الأبيات :

رأيتُ ربى بعين قلْبى	فقلتُ لاشكَّ أنتَ أنْتا
أنت الذى حُزْتَ كل أين	بحيثُ لاأينَ ثَمَّ أنتا
فليسَ للأُين منك أينٌ	فيعلمُ الأينُ أينَ أنتا
وليس للوهم فيك وهمٌ	فيعلم الوهم كيف أنتا
أحطتَ علما بكلِّ شىءٍ	فكلُّ شىءٍ أراه أنْتا
وفى فنائى فنا فنائى	وفى فَنائى وُجِدْت أنتا(٥١)

٤ ــ وبعض هذا الشعر يظهر الإمام عليا بمظهر الشعراء المداحين مما يتعارض مع طبيعته النفسية والخلقية من إباء وشمم وعزة نفس ، فينسب له قصيدة من واحد وعشرين بيتا فى مدح قبيلة الأزد يقول فى مطلعها :

الأزدُ سيفى على الأعداءِ كلِّهم	وسيفُ أحمدَ مَنْ دانتْ له العربُ
قومٌ إذا فاجأوا أبَلوا وأن غُلبوا	لايحْجمون ولايدرُون ما الهربُ
قومٌ لبوسَهم فى كل معتركٍ	بيضٌ رقاقٌ وداوديةٌ سلبُ
البيضَ تحتَ رءوس تحتها اليلبُ	وفى الأنامِل سمرُ الخطّ والقضبُ(٥٢)

---

(٥٠) مروج الذهب ٢/٣٩٣ .

(٥١) الديوان السابق ٣٥ ، وانظر مثل ذلك ١٢٧ ، ١٤١ .

(٥٢) ديوان على (الكرم) ٢٥ .

٥ ــ وأغلب هذا الشعر فيه ركة وضعف ، وسذاجة فى الفكر ، وتناقض فى المعانى ، وكسور فى الوزن ، وأخطاء فى النحو لا يمكن أن تكون من عمل النساخ . ولنقرأ بعض أبيات من أشهر قصيدة تنسب إليه وهى القصيدة الزينبية (٥٣) ، وقد طال النفس فيها بلغت ستة وستين بيتا :

فاقنعْ ففى بعض القناعة راحةٌ ... واليأسُ مما فات فهو المطْلَبُ
وإذا طمعتَ كُسيتَ ثوبَ مذلّةٍ ... فلقد كُسِى ثوبَ المذلة أشعبُ
واخش مناقشةَ الحسابِ فإنّه ... لابدَّ يُحصى ماجنيتَ و يكتبُ
فإذا أصابكَ فى زمانكَ شدةٌ ... وأصابكَ الخطبُ الكريهُ الأصعبُ
فادعُو لربك إنه أدنى لمن ... يَدْعوه من حبل الوريد وأقربُ

سقطات الوزن والنحو واضحة فى الأبيات السابقة ، ولكن دعك من هذا لنرى بعض المعانى التى تتعارض مع القيم الإسلامية والخلق الإنسانى . فهو مثلا يطلب من المسلم إذا رأى صديقه متعلقا به أن يعتبره عدوًّا له ، وأن يتجنبه جهد الطاقة :

وإذا الصديقُ رأيتَه متعلقاً ... فهوَ العدوُّ وحقُّه يُتَجنَّبُ

هذا فى الوقت الذى يطالب فيه المسلم « بمصادقة » عدوه ، والإقبال عليه وعدم أخذ الحيطة والحذر منه :

والقى عدوَّك بالتحية لا تكنْ ... منهُ زمانَك خائفا تَتَرقَّبُ

وهذا السقوط اللغوى والفكرى يتنزه عنه الإمام على ــ رضى الله عنه ــ وكل هذه الظواهر والأسباب جعلت أغلب المحدثين ينظرون إلى الشعر المنسوب إلى الإمام على بحيطة وحذر .

و يرى المستشرق نالينو أن الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب كله مختلق ، وأنه من صنع أهل الشيعة ؛ لأغراضهم الخاصة (٥٤) .

---

(٥٣) السابق ٣٢ .

(٥٤) تاريخ الآداب العربية ١١٦ .

ولكننا نرى أن رفض هذا الشعر كله كإجازته كله : إسراف وشطط فى الحكم ، فنه أبيات قليلة لانستبعد صدورها من الإمام على ، ومنها عدد من أراجيزه ، كأرجوزته وهو يعمل فى بناء مسجد النبى([٥٥]) ، وأرجوزته يوم خيبر([٥٦]) . وعلى هذا الرأى المرحوم العقاد فى كتابه عن على([٥٧]) .

• • •

والخلاصة أن الخلفاء الراشدين ــ وإن كانوا فرسان الكلمة النثرية ــ لم يبلغوا بهذا القليل جدا مما يصح نسبته إليهم من شعر درجة تدرجهم فى عداد الشعراء ، ولكنهم لم يحرموا ملكة كان لها قيمتها فى المضمار الفنى وهى ملكة التذوق الأدبى والحس النقدى ، كما سنرى فى الفصل التالى .

---

(٥٥) الديوان (سيد الأهل) ٥٧ .

(٥٦) السابق ٧٠ .

(٥٧) عبقرية الإمام ١٣٩ .

الفصل الثانى

الذوق الأدبى
والحس النقدى

تعددت وتضافرت الدواعى والعوامل التى جعلت من الخلفاء الراشدين أصحاب ثقافة واسعة ، وفصاحة عالية المستوى ، وذوق أدبى ونقدى رفيع ، أهمها — كما ذكرنا من قبل — الموهبة الفطرية ، ومعايشة البيان العُلْوى فى أسلوب القرآن الكريم وأسلوب الحديث النبوى الشريف .

وعرفنا أن الإسلام لم يعادِ الشعر لذاته ، بل كان تقييمه له تقييما موضوعيا ، فقد جاء والشعر هو أخطر الأسلحة القولية ، وأبلغها تأثيرا على مستوى الفرد والجماعة ، فحرم منه الإسلام ماتضمن إسفافا يتعارض مع القيم الإنسانية والخلقية ، وانتقى النبى — صلى الله عليه وسلم — أشعر أصحابه للذود عن الدعوة الوليدة ، واستشهد برفيع الشعر ، واستمع إلى الخنساء ، وكعب بن زهير ، وجاء فى الأثر أنه قال « إن من البيان لسحرا » وأنه قال « إن من الشعر لحكمة » [1] .

ولكن واحدا من الخلفاء الراشدين لم يكن شاعرا ، على الرغم من أن كتب الأدب لاتخلو من شعر ينسب إليهم ، وهذا الشعر — على فرض صدوره منهم — قليل لايجعل من صاحبه شاعرا ، أما القدر الكبير المنسوب إلى الإمام على فأغلبه منحول كما ذكرنا .

ولايسىء إلى الخلفاء ألا يكونوا شعراء ، على الرغم من قيمة الشعر وأهميته وقوة تأثيره :

---

(١) البخارى كتاب الأدب . وانظر إحياء علوم الدين ٩/ ١٥٦٩ .

١ ــ لأن معيار تقييمهم أولا وأخيرا هو مدى نجاحهم فى سياسة الأمة داخليا وخارجيا ، ومدى قدرتهم على مواجهة الأحداث ومغالبتها .

٢ ــ وقد كان لهم من الفصاحة فى مجال الكلمة المنطوقة . والكلمة المكتوبة مايخرطهم فى سلك أعاظم الفصحاء المطبوعين .

٣ ــ وأخيرا : إذا كانوا قد حرموا موهبة نظم الشعر فقد رزقوا موهبة أخرى لها بالشعر أقوى الروابط وأوثقها ، وأعنى بها موهبة تذوق الشعر ونقده وتقييمه اعتمادا على معايير معينة سنعرض لها بعد قليل .

وهذه القدرة الأخيرة تكشفت فى مظهرين أشرنا إليهما من قبل على سبيل الإجمال ، وهما :

١ ــ رواية الشعر والاستشهاد به فى مواضعه ومناسباته ، التى يكون هو أوفق مايقال فيها .

٢ ــ نقدهم للشعر والشعراء .

وسنتناول هذين المظهرين بشىء من التفصيل :

كثيرا ما يستشهد الخلفاء فى خطبهم وكتبهم وجدلهم بأبيات من الشعر(٢) وتأتى هذه الاستشهادات عفوية دون تكلف أوتصيد ، حتى يخيل إليك أنها جزء أصيل من السياق ، ولنجتزىء بمثال واحد هو تضمين أبى بكر كلامه أبياتا للشاعر طفيل الغنوى هى :

جزى اللهُ عنا جعفرا حينَ أزْلَقَتْ ... بنا نعلُنا فى الواطئين فَزَلَّتِ
أبوْا أن يَملّونا ، ولوْ أن أمَّنا ... تُلاقى الذى يلْقَون منا لملَّتِ
هم أسكنُونا فى ظلالِ بيوتِهم ... ظلالَ بيوت أدفأتْ وأظلَّتِ

فالشاعر يثنى على آل جعفر؛ لأنهم وسعوه وقومه بكرمهم وحسن أخلاقهم فى محنة صابتهم ، فوجدوا عندهم الأمنة والسلام ، ولم يملوا مقامهم على الرغم من طول هذا المقام .

(٢) انظر مثلا : حوار أبى بكر ٥ ، وحوار عمر ٤ ، وخطب عثمان ٤ ، وكتب على ٤ .

وما ميتةٌ إن متُّها غيرَ عاجزٍ بعارٍ إذا ما غالتِ النفسَ غُولُها (٢٨)

قلت : ياأمير المؤمنين أنتَ رجلٌ شجاع لستَ صاحبَ رأى فى الحرب ، أما سمعتَ رسولَ الله — صلّى الله عليه وسلّم — يقول : الحربُ خُدعة (٢٩) ؟ فقال : بلى . قلتُ : أمّا واللهِ لئن أطَعْتني لأُصدرنَّهم بعد وِرْد (٣٠) ، ولأتركنّهم ينظرون فى دُبر(٣١) الأمور لايعرفون ما كان وجهها ، فى غيرِ نقصان عليك ولا إثمٍ لك . فقال : يا ابن عباس لستُ من هناتِك ولا من هِنات معاوية فى شىء (٣٢) . قال ابن عباس : فقلتُ له أطِعْني والْحق بما لك بِيَنْبُع وأغْلِقْ بابك عليك ، فإن العربَ تجول جولة وتضطربُ ولاتجدُ غيرك ، فإنّكَ واللّه لئِن نهضتَ مع هؤلاء اليوم ليحمّلنّك الناسُ دمَ عثمانَ غداً (٣٣) . فأبَى عليٌّ فقال : تشيرُ عليَّ وأرى فإذا عصيتك فأطعني . قال فقلت : أفعلُ ، إن أيسرَ مالَكَ عندى الطاعة . فقال له علىّ : تسير الى الشام فقد وليتكها . فقال ابنُ عباس : ماهذا برأى ، معاويةُ رجلٌ من بني أميّة وهو ابن عم عثمان وعاملهُ ولستُ آمنُ أن يضربَ عنقي بعثمان ، وإنَّ أدنىَ ماهو صانعٌ أن يحبِسَني فيتحكم عليَّ لقرابتي منك ، وإن كلَّ ماحُمِلَ عليك حُمِلَ علىّ(٣٤) ، ولكن أكتبْ إلى معاوية فَنِّه وعِدْه . فقال : لاوالله ، لاكان هذا أبداً !

وكان المغيرة يقول : نصحته فلمّا لم يقبل غَشَشْتُه . وخرج فلحق بمكّة .

---

(٢٨) غالها الغول : أدركها الموت .

(٢٩) أى : أنها تعتمد على الحيلة والدهاء .

(٣٠) كناية عن القدرة والدهاء و براعة التصرف . وفى هذا المعنى يقال كذلك « فلان يعرف موارد الأمور ومصادرها » و« فلان إذا أورد امراً أصدره » (انظر أساس البلاغة مادة صدر) .

(٣١) الدُّبْر والدُّبُر: الظهر. وقوله « ينظرون فى دبر.. » كناية عن حيرتهم وتخبطهم .

(٣٢) الهنات والهنوات الهنيات : خصال السوء .

(٣٣) كان ابن عباس بعيد النظر إذ نصح عليا بهجر المدينة التى كانت تموج بالشاغبين الى ينبع حتى لايتهم بممالأتهم على قتل عثمان .

(٣٤) أى : أننى متهم — لصلتى بك — بكل ما أنت به متهم ، ومن ذلك دم عثمان .

(٦) بين على وابنه الحسن (*)

أتاه ابنه الحسن فى الطريق فقال له : لقد أمرتُك فعصيتني فتُقتل غداً بمضيعةٍ لاناصرَلك . فقال له عليّ : إنّك لاتزال تَخِنُّ خنينَ الجارية (٣٥)، وما الذى أمرتني فعصيتك ؟ قال : أمرتُك يومَ أحيطَ بعثمان أن تخرج من المدينة فيُقتلُ ولستَ بها ، ثمّ أمرتُك يوم قُتل أن لاتبايعَ حتى تأتيك وفودُ العرب و بيعةُ أهل كلّ مصر فإنّهم لن يقطعوا أمراً دونك ، فأبيتَ عليّ ، وأمرتُك حين خَرجَتْ هذه المرأة(٣٦) وهذان الرجلان (٣٧) أن تجلسَ فى بيتك حتى يصطلحوا فإن كان الفسادُ كان على يد غيرك ، فعصيتني فى ذلك كلّه .

فقال : أىْ بني ! أما قولك : لو خرجتَ من المدينة حين أحيط بعثمان ، فو الله لقد أحيط بنا كما أحيطَ به ، وأمّا قولك : لاتبايع حتى يبايع أهل الأمصار، فإن الأمرَ أمرُ أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيعَ هذا الأمر ، ولقد مات رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — وماأرى أحداً أحقَّ بهذا الأمر مني ، فبايعَ الناسُ أبابكر الصديقَ فبايعتُه ، ثمّ إن أبابكر انتقل الى رحمةِ الله وماأرى أحداً أحقَّ بهذا الأمر مني ، فبايع الناسُ عمرَ فبايعتُه ، ثمّ إن عمرَ انتقلَ الى رحمةِ الله وما أرى أحداً أحق بهذا الأمرِ مني فجعلَني سهماً من ستة أسهم (٣٨) ، فبايع الناسُ عثمان فبايعتُه ، ثمّ سارَ الناسُ الى عثمانَ فقتلوه و بايعوني طائعين غيرَ مُكرهين ، فأنا مُقاتلُ من خالفني بمن أطاعني حتى يحكمَ الله ، وهو خيرُ الحاكمينَ . وأمّا قولك أن أجلس فى بيتي حين خرج طلحة والزبير، فكيف لي بما قد لزمني أومن تريدني ؟ أتريدني أن أكون كالضبع التي يحاط بها و يقال : ليست ههنا حتى يحل عرقوباها حتى تخرج ! وإذا لم أنظر فيما يلزمني من هذا الأمر و يعنيني فمن ينظر فيه ؟ فكف عنك يا بنى .

(*) الكامل لابن الأثير/٣/٢٢٢ .
(كان على حريصا على أن يمنع طلحة والزبير من الوصول إلى البصرة بالعراق فيردهما أويوقع بهما ، ولكنه لم يدركهما فأقام بالزبذة فلحق به ابنه الحسن .

(٣٥) أصل الخنين : خروج الصوت من الأنف أما الحنين فخروج الصوت من الفم . والخنين : بكاء المرأة دون الانتحاب .

(٣٦) عائشة .

(٣٧) طلحة والزبير .

(٣٨) هم ستة الشورى : على ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبدالرحمن بن عوف .

٣ ــ والشعر الجيد قيمة بيانية عليا لا تموت ، فهو أخلد من المال والسلطان . يقول عمر عن زهير لبعض ولد هرم بن سنان : « إنه كان ليحسن فيكم القول » قالوا : « ونحن والله كنا لنحسنُ له العطاء » قال عمر : قد ذهب ما أعطيتموه ، و بقى ما أعطاكم » (٩)

٤ ــ وله آراء فى الشعراء ، ومكانهم فى ساحة الشعر ، وهى آراء معللة تعليلا واعيا ، يدل على بصر وعلم بالشاعر وشعره :

أ ــ فهو يرى أن امرأ القيس هو رائد الشعر العربى وأميره ؛ لأنه هو الذى أَنْبط لهم عين الشعر ، وأغزرها لهم ، و بين لهم الطريق ، و بصرهم بمعانيه ، وفتّن أنواعه وقصيده ، فاحتذى الشعراء على مثاله (١٠) .

ب ــ وزهير شاعر الشعراء ؛ لأنه لايعاظل بين الكلام ، ولايتبع حوشى الشعر ، ولايمدح الرجل إلا بما فيه (١١) .

و يرى الدكتور بدوى طبانة (١٢) أن كلمة عمر هذه هى أقدم النصوص التى وصلت إلينا ، من حيث اعتمادها على تفصيل أسباب اختيار الشعر ، وتفضيل الشاعر ، وعلى الرغم من قدمها فإنها تضع مقاييس صالحة يقاس بها الأدب ، فقد تناولت أهم أركان الشعر ، وهى أساليبه ومعانيه ، وظلت تلك المقاييس نواة للنقد الأدبى فى عصور الأدب العربى حتى عصرنا الحاضر ، وليس فى نقاد الأدب العربى من لم يحذّر من التوعر والتعقيد مثل بشر بن المعتمر من علماء القرن الثالث والجاحظ وغيرهما .

أما المبالغة فى الصفات فكثير من نقاد الأدب العربى يعيبونها مع اختلاف بيئاتهم وثقافاتهم .

---

(٩) انظر القصة كاملة فى حوار عمر ٧ .

(١٠) انظر حوار عمر ٥ .

(١١) انظر حوار عمر ٧ . ذكر أحمد بن يحيى أن المعاظلة مداخلة الشىء فى الشىء ، و يعترض عليه قدامة بن جعفر « لأن مداخلة بعض الكلام فيما يشبهه من بعض أوفيما كان من جنسه لاغبار عليه » و يرى قدامة أن المعاظلة هى : « دخول بعض فيما ليس من جنسه ، أوما هو غير لائق به ، ولايكون ذلك إلا فاحشُ الاستعارة » [قدامة بن جعفر : نقد الشعر ٢٠١] .

(١٢) دراسات فى نقد الأدب العربى ٧٤ .

وعلى هذا فإن كلمة عمر هى أول بارقة فى النقد الأدبى ، وأول أساس للنظر فى الأدب نظرة موضوعية .

• • •

فإذا ماتركنا تقييمه للشعراء إلى نظره للشعر ، كان علينا أن نفرق بين .

١ ــ نظرته للشعر نظرة تلقائية بدافع ذاتى .

٢ ــ نظرته إلى الشعر حَكَمًا مقصودا من الآخرين للفصل فى قضية يكون الشعر هو أساسها الأول .

وتفصيلا للنظرة الأولى كثيرا مانجد عمر ــ رضى الله عنه ــ يستثير من معه للوصول إلى حكم نقدى معين ، وغالبا مايبدأ الحوار بسؤال من معه عن قائل أبيات معينة ، أوسؤاله عن أشعر الناس أوماشابه ذلك ، و يتخذ من الإجابات المختلفة منطلقا لإبداء رأيه .

والحوار ــ فى هذا النطاق ــ يكون غالبا عن الشاعر : كحديثه مع فرات بن زيد الليثى عن أخيه الشاعر : قسامة بن زيد(١٣) وحواره مع بعض غطفان عن النابغة(١٤) . وحديثه مع ابن عباس ، ومع بنت لهرم بن سنان عن زهير بن أبى سلمى وشعره(١٥) . وحديثه مع رجل عن طرفة بن العبد(١٦) .

وقد يكون حواره ــ فى هذا النطاق أيضا ــ مع الشاعر نفسه ، كحواره مع سحيم عبد بنى الحسحاس ، وإعجابه ببعض شعره ، وتنبئه بأنه مقتول(١٧) ، وحواره مع الخنساء حول شعرها فى أخويها(١٨) . وحواره مع متمم بن نويره ، وإعجابه بشعره فى أخيه مالك ، حتى تمنى عمر أن لوكان شاعرا حتى يقول فى أخيه زيد : شعرا

---

(١٣) انظر حوار عمر ٤ .

(١٤) انظر حوار عمر ٦ .

(١٥) حوار عمر ٧ .

(١٦) حوار عمر ١٤ .

(١٧) حوار عمر ١١ .

(١٨) حوار عمر ١٢ .

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالُوا: هذا حكمُ كتاب الله ــ عزّ وجل ــ بيننا وبينكم، من لثغور الشام بعد أهلِه؟ من لثغور العراق بعد أهله؟ فلمّا رآها الناسُ قالوا: نُجيبُ إلى كتاب الله. فقال لهم عليّ: عبادَ الله امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوّكم فإن معاوية وعمراً وابن أبي معيط وحبيباً وابن أبي سرح والضحاكَ ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعْرَفُ بهم مِنكم، قد صحبتهم أطفالاً ثمّ رجالاً فكانُوا شرَّ أطفال وشرَّ رجال، ويحكم والله ما رفعوها إلاّ خديعةً ووهناً(٤٧) ومكيدةً. فقالوا له: لايسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله فنأبَى أن نقبله! فقال لهم عليّ: فإنّي إنّما أقاتلهم ليدينوا(٤٨) لحكم الكتاب فإنّهم قد عصَوا الله فيما أمرَهم ونسُوا عهده ونبذوا كتابه(٤٩). فقال له مِسْعَربن فَدَكي التيمي وزيدُبن حُصين الطائي، في عصابةٍ من القراء الذين صاروا خوارجَ بعد ذلك: ياعلي أجبْ إلى كتاب الله ــ عزَّ وجل ــ إذ دُعيتَ إليه وإلاّ دفعناك بُرمتك إلى القوم أو نفعل بك مافعلنا بابن عفّان! قال: فاحفظُوا عني نهيي ايّاكم واحفظُوا مقالَتكُم لي، فإن تطيعوني فقاتِلُوا وإن تعصُوني فاصنعُوا مابَدا لكم. قالوا: ابعثْ إلى الأشتر فليأتِك. فبعث عليٌّ يزيدَبن هانيء إلى الأشتر يستدعيه. فقال الأشتر: ليست هذه الساعة بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلَني فيها عنْ موقفي، إنّني قد رجوتُ أن يفتَحَ اللهُ لي! فرجع يزيد فأخبره، وارتفعت الأصواتُ وارتفع الرهج(٥٠) من ناحية الأشتر، فقالوا: والله مانراك إلاّ أمرتَه أن يقاتِل! فقال عليٌّ: هل رأيتموني سارَرْتُه؟ أليس كلَّمتُه على رؤوسكم وأنتم تسمعون؟ قالوا: فابعثْ إليه فليأتِك وإلاّ والله اعتزلناك! فقال له: وَيلك يايزيد اقل له: أقبلْ إليَّ فإن الفتنَة قد وقَعتْ. فأبلغَه ذلك، فقال الأشتر: ألِرفع المصاحف؟ قال: نعم. قال: واللهِ لقد ظننتُ أنّها ستوقِعُ اختلافاً وفُرقَة! إنّها مشورة ابن العاهر(٥١)! ألاترى إلى الفتح؟ ألاترى مايلقَوْن ألاترى

---

(٤٧) الوهن: الضعف.

(٤٨) يخضعوا.

(٤٩) تركوا وهجروا.

(٥٠) الرّهج: الغبار. وارتفاعه كناية عن شدة القتال وضراوته.

(٥١) يقصد عمرو بن العاص.

ما صنعَ الله لنا ؟ لن ينبغي أن أدعَ هؤلاء ! وانصرفْ عنهم . فقال له يزيد : أتحبُّ أن تظفرَ وأميرُ المؤمنين يسلَّمُ إلى عدوّه أو يُقتل ؟ قال : لا والله ، سبحانَ الله ! فأعلمه بقولهم . فأقبل إليهم الأشتر وقال : يا أهل العراق ! يا أهل الذلّ والوهن ! أحينَ علوتم القومَ وظنُّوا أنّكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونَكم إلى ما فيها وهمْ واللهِ قد تركوا ما أمَر اللهُ به فيها وسنَّةَ من أُنزلتْ عليه ؟ فأمهلوني فُواقا (٥٢) فإنّي قد أحسستُ بالفتح . قالوا : لا . قال : أمهلوني عَدْوَ الفرس فإنيّ قَد طمعتُ في النصر . قالوا : إذن نَدخُل معك في خطيئتك . قال : فخبروني عنكم متى كنتم محقين ؟ أحين تقاتلون وخيارُكم يُقتلون ؟ فأنتم الآن إذ أمسكتم عن القتال مبطلون أم أنتم الآن محقون ؟ فقتلاكم الذين لاتنكرون فضلهم وهم خير منكم في النار . قالوا : دَعْنا منك يا أشتر، قاتلناهم لله وندعُ قتالَهم لله ! قال : خُدعتم فانخدعتُم وَدُعيتم إلى وضع الحرب (٥٣) فأجبتم ، يا أصحاب الجباه السود (٥٤) ! كنّا نظنّ صلاتكم زهادة في الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله ، فلا أرى مرادَكُم إلاّ الدنيا ، ألاقبحاً يا أشباه النِّيب الجَلاَّلة ! (٥٥) ما أنتم برائين بعدها عزّاً أبداً فابعدوا كما بَعُدَ القوم الظالمون (٥٦) ! فسبوه وسبّهم وضربوا وجْهَ دابته بسياطهم وضربَ وجوهَ دوابهم بسوطِه فصاح به وبهم عليّ فكفوا . وقال الناس : قد قبلنا أن نجعل القرآنَ بيننا وبينهم حكَماً .

فجاء الأشعث بن قيس إلى عليّ فقال : أرى الناسَ قد رضُوا بما دَعَوْهم إليه من حكم القرآن فإن شئتَ أتيتُ معاوية فسألتهُ ما يريدُ . قال : ائته . فأتاه ، فقال لمعاوية :لأيّ شيء رفعتُم هذه المصاحف ؟ قال : لنرجعَ نحنُ وأنتم إلى ما أمرَ الله به في كتابه ، تبعثونَ رجلاً ترضُون به ونبعث نحن رجلاً نرضى به ، نأخذُ عليهما أن يعملا بما في كتابِ الله لايعدُوانه ثمّ نتَّبعُ ما اتفقا عليه . قال له الأشعث : هذا الحقّ . فعاد إلى عليّ فأخبره ، فقال الناسُ : قد رضينا وقبلنا . فقال أهلُ الشام : قد رضينا عَمْراً .

---

(٥٢) الفُواق (بفتح الفاء وضمها) ما بين الحلبتين من وقت وهو ساعة أو بعض ساعة .

(٥٣) وضع الحرب : إنهاؤها .

(٥٤) وذلك من كثرة صلواتهم وطول التصاق جباههم بالأرض لطول سجودهم .

(٥٥) النيب : جمع ناب : وهي الناقة المسنة . والجلاَّلة : آكلة النجاسات .

(٥٦) في القرآن الكريم « وقيل بعدا للقوم الظالمين » هود ٤٤ « فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين » المؤمنون ٤١ .

بالحكم ، فاستعان ــ كعهد المسلمين به فى كل مشكل من المشاكل التى تحزبهم ــ بالخبراء ، والتمس التأييد من الشعراء الذين عركوا فن الشعر ، وخبروه ، فكان رأيهم هو الرأى الذى استقر فى نفسه ، وإلا فما كان لعمر أن يُهدِّد النجاشى بقطع لسانه ، أو أن يغيب الحطيئة فى ظلمات السجون لتلك الكلمة الموجزة التى قالها حسان .

• • •

وقد ذكرنا من قبل أن عمر بن الخطاب كان صاحب القدح المعلى فى هذا المجال ، وندر أن نعثر لأبى بكر أو لعثمان على أحكام نقدية من هذا اللون . ولكن يأتى على ــ رضى الله عنه ــ فى هذا المجال فى المقام الثانى بعد عمر ، و يقول العقاد : إن نقد على للشعراء كان نقد عليم بصير ، يعرف اختلاف مذاهب القول ، واختلاف وجوه المقابلة ، والتفضيل على حسب المذاهب ، ومن بصره بوجوه المقابلة بينهم ، أنه سئل : من أشعر الشعراء ؟ . قال « إن القوم لم يَجْرُوا فى حلقة تُعْرفُ الغايةُ عند قصبتها ، فإن كان ولابدَّ فالملك الضليل » (٢٦)

و يرى العقاد أن هذا أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب المدارس والأغراض الشعرية بين العرب ، فلا تكون المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ، ولا يكون التعميم بالتفضيل إلا على التغليب » (٢٧) .

• • •

وخلاصة مانراه فى هذا الموضوع :

١ ــ أن بلاغة الخلفاء تتمثل بصفة أساسية فى خطبهم ومادار فى فلكها من كتب وحكم ومواعظ .

٢ ــ أن مانسب إليهم من شعر ــ على فرض صحته ــ لا يرتفع إلى مستوى الجودة ولا يدخلهم فى عداد الشعراء .

---

(٢٦) عبقرية الإمام ١٣٩ .

(٢٧) السابق : نفس الصفحة .

٣ ــ أنهم كانوا أصحاب ذوق فى التعامل مع شعر الآخرين تمثلا وإنشادا واستنشادا وأحكاما .

٤ ــ أن عمر بن الخطاب كان أغزرهم وأكثرهم إحاطة فى ميدان التذوق والأحكام النقدية .

٥ ــ أن نقدهم فى عمومه يتسم بما يأتى :

أ ــ الارتباط بالدين والقيم الخلقية ، واستحسان الشعر أورفضه بناء على هذا الأساس .

ب ــ كثير من الأحكام النقدية كان يصدر بلا تعليل وتبرير .. اعتمادا على الذوق الذاتى الخاص . وقليل منها الذى كان معللا تعليلا موضوعيا ، وأقل القليل ما كان معللا تعليلا فنيا جماليا .

د ــ كان أغلب هذه الأحكام موجزا بعيدا عن التفصيل والإسهاب ، ولا عجب فى ذلك ، فقد عاش الخلفاء فى عصر كان الإيجاز فيه دليل الفصاحة الراقية فى الأداء ، وإن كان لهم من الخطب والكتب ماجنح للإطناب والتفصيل .

وكان من المنظور ــ كما يقول الدكتور بدوى طانة ــ(٢٨) أن تتسع دائرة النظرة الموضوعية فى مجال النقد بتأثير الإسلام والقرآن ، وكلاهما يحث على البحث والتفكير ، و يشجع الاستدلال العقلى على صحة الرأى ، وسلامة العقيدة ، ولكن يبدو أن انصراف المسلمين إلى الفتح والجهاد ــ فإذا خَلَوْا فإلى العبادة والنسك ــ هو الذى صرفهم عن إنعام النظر فى الأدب ، وإعمال العقل فى استخلاص عناصر الحكم ، والتفكير فى الأسس الفنية التى يسمو بها العمل الأدبى ، اللهم إلا تطبيق تلك الروح الدينية والخلقية .

---

(٢٨) بدوى طبانة : المرجع السابق ٧٣ .

لا يجمعَ بينناغيرُه ، وأن كتابَ الله بيننا من فاتحتِه إلى خاتمتِهِ نحيي ما أحيا ونميتُ ما أمات ، فما وجد الحكَمان فى كتابِ الله . وهما أبوموسى عبدالله بن قيس ، وعمرو ابن العاص ، عملا به ، ومالم يجدَاه فى كتابِ الله فالسنّةُ العادلةُ الجامعة غير المفرقّة . وأخذ الحكمان من علىّ ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق أنّهما آمنان على أنفُسِهما وأهليهما والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه ، وعلى عبدِالله بن قيس وعمرو بن العاص عهدُ الله وميثاقه أن يحكُمَا بين هذه الأمةِ لا يَرُدَّهما فى حربِ ولا فُرقة حتى يُعصيا . وأجل القضاء إلى رمضان ، وإن أحبّا أن يوخرا ذلك أخراه ، وإن مكان قضيتهما مكانُ عدل بين أهلِ الكوفةِ وأهل الشام (٧١) .

(٧١) كتب هذا الكتاب فى الثالث من صفر سنة ٣٧هـ .

تذييل

من الزائف الموضوع

تقاس إنسانية الأدب ــ أى أدب ــ بمقدار ارتباطه بقضايا الإنسان ــ فردا وجماعة ــ فى ماضيه وحاضره ومستقبله ، فى تجاربه وآلامه ، فى آماله وتطلعاته ، فى أحاسيسه وشعوره ، فى فكره ونبضات حياته ، بحيث لايكون هذا الأدب مخنوق المضمون فى « الواقع الخاص المتحجر » ، بل يكون « الإنسان » بالمفهوم الشمولى العام هو المحور الرئيسى لهذا الأدب .

وأدب الخلفاء الراشدين الذى تمثل فى الخطب والكتب والعهود والحكم والأمثال والتوقيعات والجدل والحوار ... هذا الأدب كان فى كل مضامينه إنسانيا بالمفهوم الذى ذكرناه .

كان إنسانيا فى نظره إلى الإنسان خارج حدود الجزيرة العربية .. أى فى المجتمع الإنسانى العام .

وكان إنسانيا فى تعامله مع إنسان المجتمع الإسلامى .

وكان إنسانيا فى معايشته للإنسان الفرد فى قضاياه الخاصة . على هذه المحاور الثلاثة دار أدب الخلفاء الراشدين ، وهو الأدب الذى ترددت فى بطانته تعاليم الإسلام ومبادئه ، وتلبست به روح القرآن والسنة ، فلم يبعد عن هذين المأصلين ، بل ظلاَّ لَهُ منهلا عذبا ، غنيا معطاء ، لا بضن ولاينفد .

وكان الاعتبار الإنسانى فى هذا الأدب مقدما على اعتبارات الكسوب المادية فى سياسة الحرب والغزو ، وهى السياسة التى لا تقيم عادة وزنا لمثل هذه الاعتبارات . فكانت الوصايا الموجهة إلى قادة الجيوش الإسلامية تتصدرها مثل العبارات الآتية :

واللهِ من دُرر الحقائق المصونَة ، ومخبآت الصناديق فى الخزائن المحوطة ، ومنذ حفظتُها ما رو يتها إلا للمهلبى فى وزارته ، فكتبها عنى فى خلوةٍ بيده ، وقال : لا أعرفُ فى الأرض رسالةً أعقلَ منها ولا أبين ، وإنها لتدل على علمٍ وحلم ، وفصاحة وفقاهة فى دين ، ودهاء و بعدِ عور ، وشدةِ غوص . فقال له واحد من القوم : أيها القاضى ، فلو أتممتَ المِنة علينا بروايتها سمعناها ورو يناها عنك ؟ فنحن أوعى لها من المهلبيِّ وأوجب ذماما عليك(٥) . فقال :

هذه الرسالة رواها عيسى بن دأب عن صالح بن كسيان عن هشام بن عروة ابن الزبير ، عن أبى عبيدة بن الجراح ، قال أبو عبيدة :

لما استقامت الخلافة لأبى بكر بين المهاجرين والأنصار ، ولحظ بعين الهيبة والوقار ، بعد هَنةٍ(٦) كادَ الشيطان بها يُسر ، فدفع الله شرها ، وأدحض(٧) عُسرَها ، فركدَ كيدُها ، وتيسّر خيرُها ، وقصَمَ ظهرَ النفاقِ والفسقِ بين أهلِها بلغَ أبا بكر عن على تلكؤ(٨) وشِماس(٩) ، وتَهَمْهُمٌ(١٠) ونِفاس(١١) ، فكرِهَ أن يتمادى الحالُ وتبدو العورة ، وتشتعلَ الجمرةُ وتنفرجَ ذات البين ، و يصير ذلك دُربة لجاهل مغرور ، أو عاقل ذى دهاء ، أو صاحب سلامة ضعيف القلب خَوَّار العنان(١٢) ، فدعانى فى خلوة فحضرتُه وعنده عمرُ وحده ، وكان عمر قبسًا له ، وظهيرًا معه ، يستضىء بناره ، و يستملى من لسانه ، فقال لى :

---

(٥) الذمام : الحرمة .

(٦) الهنة : خصلة الشر .

(٧) أدحض : أبطل .

(٨) تباطؤ .

(٩) نفور وعناد .

(١٠) التهمهم : طلب الشىء ، و يقصد هنا : طلب الخلافة .

(١١) منافسة .

(١٢) خوار العنان : جبان .

يـا أبـا عـبـيـدة ، مـا أيمن ناصيتك ، وأبين(١٣) الخيرَ بين عينيك ، لقد كنتَ من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالمكان المحوط(١٤) ، والمحل المغبوط(١٥) ؛ ولقد قـال فـيـك فى يـوم مـشـهـود : « **أبوعبيدة أمين هذه الأمة** » وطالما أعزَّ الله الاسلامَ بـك ، وأصـلـح ثَلْمه(١٦) على يديك ، ولم تزل للدين مُلتجا(١٧) ، وللمؤمنين مرتجى ، ولأهـلـك رُكنا ، ولإخوانِك ردءاً(١٨) قد أردْتك لأمرٍ ما بعدَه خَطر مَخُوف ، وصلاحه مـن أعـظـم المـعـروف ، ولئن لم يـنـدمـل جرحه بِسِبارِك(١٩) ورفقك ؛ ولم تُجِبْ حيتُه بـرقيتك(٢٠) ، فقد وقَعَ اليَاس ، وأعضل الباسُ(٢١) واحتيج بعدَك إلى ما هو أمرُ من ذلك وأعلق ، وأعسر منه وأغلق ، والله أسأل تمامه بك ، ونظامَه على يديك . فتأتَّ له يـا أبـا عـبـيـدة وتـلـطـف فـيه ، وانصح لله ولرسوله ولهذه العصابة غير آل جُهدا(٢٢) ، ولا قـال جـدًا(٢٣) ؛ والله كـالئُك(٢٤) وناصرك ، وهاديك ومُبَصِّرك ، إن شاء الله . امـض إلى عـلـى واخـفـض جـنـاحـك له ، وغُضَّ من صوتك عنده ، واعلم أنه سلالة أبى طالب ، ومكانه ممن فقدناه بالأمس ــ صلى الله عليه وسلم ــ مكانُه ، وقل له :

---

(١٣) أبين : أوضح وأظهر.

(١٤) المكان المحفوظ المرموق .

(١٥) الذى يغبطك عليه الآخرون و يتمنون أن يكونوا فى مثله .

(١٦) الثّلم : فى السيف والحائط والإناء ونحوها ، الانكسار. و يقصد به هنا ما مَرّ به من أزمات .

(١٧) ملتجا : ملجأ وحماية .

(١٨) الردء : العون .

(١٩) السبار : آلة يعرف بها مقدار الجرح . و يقال : سبر الجرح : أى عرف ماغوره .

(٢٠) الرقية : هى العُوذة التى يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات (انظر لسان العرب) و يقصد بها هنا صيغة معينة يقولها « الراقى » فيخرج بها الحية من حجرها و يقضى عليها .

(٢١) البأس : العذاب والشدة فى الحرب بخاصة . وأعضل البأس : أى اشتد وصعب واستحال التغلب عليه .

(٢٢) أى : غير مقصر فى بذل الجهد .

(٢٣) قلى الشىء : أبغضه وكرهه والجد : الاجتهاد .

(٢٤) راغبك وحافظك .

وكل هذه الحقوق التى نراها فى عهود الخلفاء لأهل البلاد المفتوحة ، أوالتى نص عليها الخلفاء فى كتبهم لعمالهم وولاتهم فى هذه البلاد إنما تعتمد على أصول من القرآن والسنّة ، كقوله تعالى :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ (٨)

وقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم « **من ظَلَمَ معاهداً ، أوكلّفهُ فوقَ طاقتِه ، فأنا خَصْمه يومَ القيامة** »

وقوله أيضا : « **استَوْصُوا بالقبطِ خيراً ، فإنَّ لهم ذمةً ورحِما** »(٩) .

ولم يتخذ الإسلام من هذه النصوص مواعظ أخلاقية ، بل أوامر تشريعية ، وأقام إلى جانبها جميع النصوص التشريعية اللازمة لضمان تنفيذها ، وهذا مالم تصل إليه نصوص « الإعلان العالمى لحقوق الإنسان » ولانصوص الميثاق الدولى الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للإنسان ، بل ظلت هذه النصوص الدولية فى مرتبة التوصيات الأدبية التى لاضَامِنَ لها من الضمانات التشريعية ، لاعلى المستوى الدولى ، ولاعلى المستوى القومى(١٠) .

ليس هذا فحسب ، بل هناك الجانب العملى التطبُيقى ، فالمسألة فى المنظور الإسلامى ليست مسألة خطب تقال ، وعهود ووصايا تكتب ، ومبادىء تسجل ، ولكنها ربط النظر بالعمل ، والمقول بالمفعول ، ومن ثم كان المبدأ لاقيمة له فى ذاته إلا إذا تجسد فى عمل ، وهذا هوالسر فى ربط القرآن بين الإيمان والعمل الصالح فى عشرات من الآيات(١١)

• • •

(٨) المائدة : الآية ٨ .

(٩) انظر كتب عمر ٤٣ .

(١٠) حول الشريعة الإسلامية ١٦٣ .

(١١) مثل ٢٥ ، ٨٢ من البقرة ، ٥٧ من آل عمران ، ٩ من سورة يونس .

وهذا الأدب فى مجموعه يحدد ــ فى وضوح ــ طبيعة العلائق بين الرعية والهيئة الحاكمة التى تشمل الخليفة والوالى والقاضى وقائد الحرب ، وكل من كان مسئولا عن تسيير أمر من أمور الدولة ، أومصلحة من مصالحها . ويحكم هذه العلائق عدد من المبادىء الإنسانية أهمها القدوة الحسنة . فعلى المسئول ــ أيا كان منصبه ــ أن يكون قدوة حسنة لمرءوسيه بخاصة ، وللناس بعامة . وقد كان للمسلمين فى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أسوة حسنة ، وكان هو المثل الأعلى للمسلمين فى القول والعمل ، وقد نعى الله ــ سبحانه وتعالى ــ على الذين لايلزمون أنفسهم بما يأمرون به الآخرين ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٢)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ (١٣)

ولقيمة هذا المبدأ نجد الخلفاء يلحون على تأكيده فى خطبهم وعهودهم ، و يطالبون الرعية بالاقتداء بهم واتباعهم فيما حسن من الأعمال ، وزجرهم ومنعهم إن خرجوا عن الجادة .

يقول أبوبكر ــ رضى الله عنه ــ « فإن أحسنتُ فأعينونى ، وإن أسأتُ فقوِّمونى » (١٤) .

و يقول فى خطبة أخرى « وإنما أنا متبع ، ولست بمبتدع ، فإن استقمت فتابعونى ، وإن زغت فقومونى » (١٥)

---

(١٢) البقرة : الآية ٤٤ .

(١٣) الصف : الآيتان ٢ ، ٣ .

(١٤) خطب أبى بكر ١ .

(١٥) خطب أبى بكر ٢ . وانظر خطب عثمان ٣ .

وهذا الحرص على الأفضلية فى القول والعمل هو الذى حدا بعمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ إلى القول فى إحدى خطبه(١٦) « أيها الناس : إنى وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم ، وأشدكم استضلاعا بما ينوب فى مهم أموركم ماتوليت ذلك منكم » .

ومن توقيعاته لعمرو بن العاص : « كُنْ لرعيتكِ كما تحبُّ أن يكونَ لك أميرُك » (١٧) .

و يقول عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ مخاطبا رعيته . « أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال » (١٨) .

وقد رسم الإمام على ــ رضى الله عنه ــ للأشتر النخعى ماتقضيه هذه القدوة من خصائص نفسية وخلقيه ، ومن أعمال صادقة ، وذلك فى عهده الطو يل إليه (١٩) ، وفيه يقول : « ... فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح ، فاملك هواك ، وشح بنفسك عما لايحلّ لك ، فإن الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحبت أوكرهت .

وأشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم واللطف بهم ، ولاتكونن عليهم ضاريا ، فإنهم صنفان : إما أخ لك فى الدين ، وإما نظير لك فى الخَلْق ، يفرط منهم الزلل ، وتعرض لهم العلل ، و يؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ؛ فإنك فوقهم ، و والى الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك ، وقد استكفاك أمرهم ، وابتلاك بهم ...

• • •

---

(١٦) خطب عمر ٩ .

(١٧) حكم عمر ١ .

(١٨) حكم عثمان ٢ .

(١٩) كتب على ٩ .

ومن إنسانية هذا الأدب مانراه من انشغاله بما يمكن أن نسميه « بالمشكلات الفردية » ومعايشتها والعمل على حلها ، فالانشغال بعظائم الأمور لايلزم منه بالضرورة الانصراف عن صفارها ، وهل معظم النار إلا من مستصغر الشرر؟ (٢٠) .

ومن مشكلات النفس البشرية : شراهة الطموحات ، والتطلع للمناصب العليا ، والإسراف فى كل ذلك ، وتتجسم هذه المشاعر ، و يفدح خطرها إذا ما أطلت برأسها فى ميادين الوغى ، حيث يكون كل شيء بحساب ، والغلطة الواحدة تكلف الكثير والكثير .

كان المثنى بن حارثة قائدا له اسمه ومجده فى جبهة العراق ، و يعترض القائد المسلم مشكلةٌ اسمها « مذعور بن عدىّ » ــ مسلم حديث العهد بالإسلام ــ يقاتل فى صف المثنى هو وقومه ، ولكنه يرى أنه جدير بمنصب « القائد العام » ، ويحس المثنى بتطلع الرجل ، فيرسل إلى أبى بكر يعلمه بأمر الرجل الذى « ينازعه ويخالفه » . و يكتب الرجل إلى أبى بكر ، يطلب منه أن ينصّبه « قائدا عاما » ، و يضمن كتابه حيثيات هذا الطلب : فهو من بنى عِجْل « أحلاس الخيل ، وفرسان الصباح ..» ومعه رجال من عشيرته « الرجل منهم خير من مائة رجل » .. أما مذعور « فله علم بالبلد ، وجرأة على الحرب ، و بصر بالأرض » .

مشكلة قد تبدو فى ظاهرها هينة ، ولكنها فى الواقع والحقيقة قد تؤدى إلى فاجعة الخلاف الدامى والقتال الطاحن بين فئتين من المسلمين . و يعالجها أبوبكر فى تؤدة وهوادة ولباقة ، فيطيب خاطر الرجل ، و يصرفه وقومه إلى الانضواء تحت راية خالد ابن الوليد ... نموذج من القيادة لا تدفع ولا تنازع . يقول أبوبكر فى رسالته لمذعور:

« ... وأنت كما وصفتَ به نفسك . وعشيرتُك نعم العشيرة ، وقد رأيتُ أن تنضم إلى خالد بن الوليد فتكون معه ....» (٢١) .

● ● ●

---

(٢٠) فى القرآن الكريم نماذج طيبة جدا من هذه الاهتمامات بالقضايا الفردية التى تتخذ منطلقا لتقرير أحكام اجتماعية وإنسانية عامة ، مثال ذلك ماجاء فى سورة المجادلة ، فنشهد السماء تتدخلّ فى شأن يومى لأسرة صغيرة فقيرة مغمورة لتقرر حكم الله فى قضيتها ، وقد سمع ــ سبحانه ــ للمرأة وهى تحاور رسو الله فيها . وكانت هذه القضية الفردية سببا لتزول حكم الله فى الظهار [انظر المرحوم سيد قطب : فى ظلال القرآن ٦/٣٥٠٣ ومابعدها] .

(٢١) انظر كتب أبى بكر ١٨ ، ١٩ . وانظر كذلك كتب عمر ١٣ وقد بعث لسعد بن أبى وقاص كتابا فى مسألة مغنم يخص جنديا من جنود المسلمين

ومن المبادىء القيمة كذلك الأخذ بالظاهر فى القضاء والحكم على الناس . وفى بناء العلاقات الاجتماعية ، وقد كان أبوبكر فى عهده للقادة الذين وجههم لقتال المرتدين يطلب منهم ألا يحاربوا قبيلة مرتدة إذا سمعوا فيها الأذان للصلاة ، وإلا فليدعوا القبيلة بداعية الإسلام ، فإن أجابوهم أمسكوا عنهم ، وإلا فالحرب . وليس على المسلمين أن يبحثوا فى حقيقة إسلامهم ، وما انطوت عليه قلوبهم (٢٢) .

و يقول فى وصيته لخالد ، وهو يسيره لقتال العدو : « ... واقبل من الناس علانيتهم ، وكِلْهم إلى الله فى سر يرتهم » (٢٣) .

ومن أقوال عمر لرعيته : « ... فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم ، والله أعلم بالسرائر ، فإنه من أظهر شيئا ، وزعم أن سر يرته حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا علانيته حسنة ظننا به حسنا » (٢٤) .

و يلاحظ أن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ كان له بالنظر إلى الظاهر والباطن ثلاثة مذاهب :

ففى الولاية كان يتحرى البواطن ، ويمعن فى تحر يكها ، ولا يكتفى من الناس بالظواهر .

وفى القضاء وماشابه القضاء كان يكتفى بالظواهر حتى تنقضها البينة القاطعة .

وكان له فى الأخلاق الاجتماعية مذهب ثالث يشبه مذهبه فى القضاء ، فكان يكره أن يكشف المرء من أخيه مايستره عنه ، و ينهى أن تظن بكلمة شراً ، وأنت تجد لها فى الخير محملا .

وهذه فى الظاهر نقائض ، وفى الحقيقة واجبات متعددة كل منها فى موضع لازم .

---

(٢٢) انظر كتب أبى بكر ١ ، ٢ .

(٢٣) خطب أبى بكر ١٥ .

(٢٤) خطب عمر ١٢ .

فالعلم بخبايا الحكومة واجب على كل ولى مسئول ، لاتنصلح الأحوال بغيره ، وفى الغفلة عنه مضرة محققة لجميع الناس(٢٥) .

والأخذ بالبينة دون الظاهر فى شئون القضاء واجب لامحيص عنه لضمان السلامة ومنع الجور ، وهو فى أحد طرفيه لايخلو من الحذر الشديد من الطبيعة البشرية ، إذفيه خشية من غواية الهوى أن تنطلق فى الحكم بغير برهان .

وفى الأخلاق الاجتماعية ، لايؤمن التقاطع بين الأصدقاء إذا جرت العلاقة بينهم على التجسس والخدعة ، ولا رعاية للمودة مالم تكن رعاية للحرمات ، ومنها الأسرار .

والتفرقة بين الواجبات المختلفة هى دليل البصيرة فى عرفان كل واجب منها ، وأنها تصدر عن رأى أصيل ، ولا تصدر عن تسخير العرف ، وإملاء التقليد والمحاكاة(٢٦) .

وعلى أساس هذا التفريق يعيش الناس فى أمنة من تسلط قانون قد يدّعى شارعه العلم بالنوايا الخفية ، والسرائر المضمرة . إنما المعيار الغالب هو مايظهر من الناس أقوالا وأفعالا ، ولعل هذا هو السر فى أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قَبِل إسلام المنافقين ، وهو يعلم أنه إسلام فى الظاهر ، وأنه ادعاء يخفى فى الباطن من الكفران والحقد والبغضاء الكثير والكثير .

بل إنه سمح لهم بالانخراط فى الجيش الإسلامى على علمه بحقيقتهم ، ونواياهم الكامنة بعد أن أطلعه الله عليها . وقد يكون فى قبول إسلام هؤلاء شىء من التضحية بمصلحة الدولة ، واحتمال صدور الغدر منهم فى أى لحظة ، ولكن تحكيم المعيار العام ، وهو الأخذ بالظاهر دون التنقيب عن النوايا فى أعماق القلوب والضمائر أضمن بقاء وصلاحا ونفعا للدين والأمة على المدى البعيد ، وإلاما استقرت العقيدة ، ولأصبح الشك هو ركيزة الحكم على الناس ، ولانفتح الباب على وسعه لأصحاب الهوى من الحكام للإيقاع بمن يدّعون أنهم من « ذوى السرائر المريضة » أورفع من يدعون أنهم من « أصحاب النوايا الحسنة » .

---

(٢٥) كان عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يبث عيونه فى الأمصار كى يتحسسوا أخبار الولاة ، و يعرفوا حقيقة مسلكهم فى الرعية و يستمعوا لشكاوى الناس . وقد قام الصحابى الجليل محمد بن مسلمه بأدوار جليلة فى هذا المجال .

(٢٦) العقاد : عبقرية عمر ١٥١ .

واعتمادا على قاعدة الأخذ بالظاهر من أمور الناس ، كان من أبشع الأعمال وأخسّها التحسس والتجسس لكشف عيوب الناس ، وفضح نقائصهم ، يقول الإمام على — رضى الله عنه — فى عهده للأشتر النخعي : « ... وليكنْ أبعدَ رعيتك منك ، وأشنأهم عندك ، أطلبَهم لمعايبِ الناس ، فإن فى الناس عيوبا الوالى أحقُّ مَنْ سترها ، فلا تكشفن عما غاب عنك منها ، فإنما عليك تطهيرُ ما ظهرَ لك ، والله يحكم عما غاب عنك . فاستر العورة ما استطعت ، يستر الله منك ما تحب سترَهُ عن رعيتك .. » (٢٧)

• • •

و يتردد فى تضاعيف هذا الأدب معيار إنسانى مهم جدا وهو معيار التفضيل بين الناس على أساس العمل الصالح ، فالإنسان فى الإسلام لايقيَّمُ على أساس من الحسب أوالنسب ، أوالمال أوالجنس ، ولا فضل — فى الإسلام — لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وقد أعلن الرسول — صلى الله عليه وسلم — هذا المبدأ أمام الناس جميعا فى فتح مكة حين خطبهم قائلا :

« يامعشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوةَ الجاهلية ، وتعظمَها بالآباء ، الناسُ من آدم ، وآدمُ من تراب » ثم تلا هذه الآية

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (٢٨)

---

(٢٧) كتب على ٩ .

(٢٨) الحجرات : الآية ١٣ . السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٢ .

لذلك لم يحل شرف فاطمة المخزومية ونسبها وحسبها دون إقامة الحد عليها بقطع يدها . وروى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه خطب المسلمين قائلا « ... **فإنما أهلكَ الذين من قبلِكُمْ أنهم كانوا إذا سرقَ فيهم الشريفُ تركوه ، وإذا سرقَ فيهم الضعيفُ أقامُوا عليه الحد ، والذى نفسى محمد بيده لوأن فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقتْ لقطعتُ يدها** » (٢٩)

فلا عجب ـ إذن ـ أن يكون الأمر بتقوى الله هو القاسم المشترك فى خطب الخلفاء الراشدين وكتبهم . يقول أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ : « ... وإياكم والعمل بالمعاصى ، فإن العمل بالمعاصى كفر للنعم ، وقلما كفر قوم بما أنعم الله عليهم ثم لم يفزعوا إلى التوبة ، إلا سُلبوا عزهم ، وسلط الله عليهم عدوهم ... » (٣٠)

وتظهر قيمة هذه السمة وذاك المسلك الصالح فى مواقع المخاصمة والنزال والصراع بصفة خاصة « ... لأن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب » (٣١) .

وفى كتاب عمر إلى سعد بن أبى وقاص (٣٢) تكثيف لفكرة جوهرية تكاد تكون أساس الحياة الإسلامية فى السلم والحرب ، وهى أن تقوى الله ، والعمل الصالح هما مفتاح النصر ، وضمان الغلبة ، و يرى فى المقابل أن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . وهل ذنوب الجيش إلا الخيانة والغدر والغل ، والتقاعس عن القتال ، والفرار من الميدان ؟ إنها جيش .. بل جيوش من الأعداء الخفية ، أشد ضراوة من كل عدو وعدة وعدد ، إنها « العدو المعايش » الذى لايبعد عن النفس ، بل هو لصيق بها ، متغلغل فيها ، إنها عدو خفى مخادع ؛ لأن الآثم قد يأتى الذنب تحت اسم لايتفق مع واقعه وحقيقته ، فالسرقة والغلول حق أواستحقاق ، والخيانة والغدر قدرة و براعة ودهاء ، والتقاعس عن الجهاد حرص على السلام ، وصيانة للنفس ، وحقن للدماء .

---

(٢٩) البخارى ومسلم : كتاب الحدود .

(٣٠) كتب أبى بكر ٦ .

(٣١) كتب عمر ٨ .

(٣٢) الكتاب السابق . وانظر كذلك كتاب عمر إلى أبى عبيدة رقم ٣١ .

و يرى عمر أن المسلمين ينتصرون لأنهم « جماعة المتقين الهداة » يواجهون « جماعة المذنبين العصاة » على الرغم من قوتهم المادية الهائلة فى العدة والعدد . والتقوى بمفهومها الشامل هى الطاقة النفسية والروحية الهائلة التى تتكسر أمامها كل القوى المادية .

وفى كتاب عمر تطالعنا قضية منطقية واقعية وخلاصتها : إذا تساوى المسلمون وعدوهم فى المعصية انتصر الأعداء ، وانهزم المسلمون ؛ لأن المسلمين بالمعصية يفقدون « رصيدهم الهائل » من التقوى والهدى ، و يكونون كالأعداء فى هذه السمة الهابطة ، و يبقى للأعداء بعد هذا « الفقد المشترك » عنصر التفوق المادى ، وهو هذه المرة فى صف الأعداء فيكون لهم النصر والغلبة .

منطق سديد لايستعصى على فهم أحد ، وهو منطق واقعى ؛ لأن له مايؤيده من واقع التاريخ الذى استشهد به عمر فى كتابه : فقد سلّط الله المجوس عبدة النار على بنى إسرائيل ــ وهم أهل دين وكتاب ــ وذلك حينما عَصَوا الله ، وعملوا بمساخطه (٣٣) .

والعمل يجب أن يقصد به وجه الله ــ سبحانه وتعالى ــ وقيمة العمل تكون بالنية المصاحبة له ، أى بالدافع أو الباعث الذى دفع صاحبه إليه . وقد سئل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن الرجل يقاتل شجاعة ، و يقاتل حمية ، و يقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : من قاتلَ لتكونَ كلمةُ الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله » (٣٤) .

و يروى أن مالا وصل إلى أبى بكر من البحرين فساوى فيه بين الناس ، فغضبت الأنصار ، وقالوا له : فضِّلنا . فقال : أبوبكر : صدقتم ، إن أردتم أن أفضلكم ، صارما عملتموه للدنيا وإن صبرتم كان ذلك لله عزّوجل ، فقالوا : والله ماعملنا إلا لله تعالى . وانصرفوا (٣٥) .

• • •

---

(٣٣) انظر : جابر قميحة : المدخل إلى القيم الإسلامية ١٣٧ .

(٣٤) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، وانظر كتابنا السابق ٧٨ .

(٣٥) انظر كتب أبى بكر ٥ .

و يرتبط بالمعيار السابق مبدأ اختيار القيادات والعمال وموظفى الدولة والقائمين بالمهام العظمى ولوكانت مؤقتة ، فهذا الاختيار يجب ألا يحكمه الهوى أوالقرابة ، أوالاستحسان العاطفى ، بل يجب أن يقوم على أسس موضوعية تتعلق بطبيعة الشخص الذى سيضطلع بالمهمة أوالمهام من خبرة ودراية وأمانة و براعة فى التخطيط والتدبير والتنفيذ .

يقول عمر ــ رضى الله عنه ــ فى كتابه لسعد بن أبى وقاص « ... وانْتَقِ للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك ، وتخير لهم سوابقَ الخيل ، فإن لَقوا عَدُوًّا كان أول ماتلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، ولا تخصّ بها أحدا بهوى فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيْت به أهل خاصتك ... » (٣٦)

و يقول على فى كتابه للأشتر النخعى :

« ... فولِّ من جنودك أنصحهم فى نفسك لله ولرسوله ، ولإمامك ، وأنقاهم جيبا ، وأفضلهم حلما .. » (٣٧) .

وعن القُضاة يقول له :

« ... ثم اخترْ للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممّن لا تضيق به الأمور ، ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتمادى فى الزلّة ... » (٣٨) .

ومن هذا القبيل أن يُعترف لأهل الفضل والمعرفة بمكانه ومنزلته : كل فى مجاله الذى يفوق فيه غيره ، وهو مايسمى فى وقتنا الحاضر بالتخصص ، أوالتخصص الدقيق .

يقول عمر ــ رضى الله عنه ــ : « أيها الناس : من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبى بن كعب . ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت ز يد بن ثابت ، ومن

---

(٣٦) كتب عمر ٨ .

(٣٧) كتب على ٩ .

(٣٨) المرجع السابق .

أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى ، فإن الله جعلنى له خازنا وقاسما ... » (٣٩) .

• • •

وألفت نظر القارىء إلى أن ماقدمته إنما يمثل بعض القيم الإنسانية فى هذا الأدب المعطاء . ومابقى أغزر مما قدم ، وإنما اجتزأنا بالقليل عن الكثير ، بل أقل القليل عن الكثير الغزير . فكل خطبة أوكتاب أوعهد يمثل جزءا من دستور الدولة فى الحكم أوالقضاء ، أوالحرب أوالاقتصاد . وقد أفاض العقاد — رحمه الله — فى تفصيل هذه الدساتير فى كل عبقرياته ، وخاصة « عبقرية عمر » (٤٠) .

ولكن يبقى عهد على — رضى الله عنه — للأشتر النخعى هو أهم الكتب فى عهد الخلفاء الراشدين . وترجع هذه الأهمية إلى مايأتى :

١ — أنه أطول الكتب التى كتبت فى عهد الخلفاء الراشدين ، كما يعدُّ من أطول الكتب والعهود التى كتبت فى تاريخ العربية ، وكان هذا الطول سببا فى شك بعض الكتاب والنقاد فى نسبته إلى الإمام على . وإن كنا نرى أن هذا الشك لاموجب له : فالإمام على صدر منه القصير والطويل من الخطب والوصايا والكتب ، وكذلك الخلفاء الراشدون ، وإن لم يصدر منهم مايقارب أويماثل هذا الكتاب فى الطول .

٢ — إن هذا العهد — زيادة على مافيه — من جمال أدبى ، وفنون بلاغية رائعة — يعتبر أوفى العهود وأجمعها — فى تاريخ الخلفاء الراشدين ، وربما فى تاريخ العربية لقواعد الحكم ، وسياسة الناس فى شتى المجالات ، ومايجب أن يكون عليه الحاكم حتى يحقق الاستقرار والطمأنينة والعدل ، ولعلى لا أكون غاليا إذا قلت أن هذا الكتاب بمفرده يصلح أن يكون دستورا شاملا للأمة فى الحرب والسلم والاقتصاد والقضاء ... الخ . والعجيب أن فيه من النظم والحقوق والواجبات غير قليل مما تحرص الدساتير الحديثة على إبرازه والنص عليه .

---

(٣٩) خطب عمر ١٥ .

(٤٠) وأهم فصولها « عمر والحكومة الإسلامية » ١٢٧ — ١٦٣ .

وسنحاول أن نستخلص مافى هذا العهد من قواعد ومبادىء وقيم ، حتى نتبين مدى صدق ماذهبنا إليه :

(١) مفتاح النصر فى تقوى الله ــ سبحانه وتعالى ــ واتباع ماأمر به ، وهجر مانهى عنه .

(٢) النفس بطبعها أمارة بالسوء ، فيجب كسرها عند الشهوات والجمحات .

(٣) العمل الصالح هو أحسن الذخائر ، وأحبها للحاكم المثالى ، وهذا يقتضى الضن بالنفس عن أن تقع فى حرام .

(٤) إشعار القلب الرحمة للرعية والمحبة لهم ، واللطف بهم .

(٥) العمل على إرضاء الله ، فالإنسان لاقدرة له على مواجهة نقمته ، ولاغناء له عن عفوه .

(٦) التحكم فى النفس ، وعدم الإسراع إلى الغضب .

(٧) تحصين النفس من العُجْب والخيلاء والغرور ، وذلك بالنظر إلى عظمة الله ، وعظمة ملكه وقدرته .

(٨) إنصاف الناس من النفس والأهل ، فظلم الحاكم مهلكة ومضيعة له ، وداعية لغضب الله ونقمته .

(٩) اتباع الوسطية العادلة بلا إسراف ولا تقصير .

(١٠) الحرص على إرضاء عامة الناس بالحق ، وعدم إغضابهم بإرضاء الخاصة ومجاملتهم ، فعامة الناس هم عماد الدين ، وجماع المسلمين ، ودرع العقيدة ، وليس كذلك الخاصة .

(وهذا يعنى بالأسلوب الحديث : أن على الحاكم الاعتماد على قوة الشعب ، لاقوة الطبقة ، حتى يكون بقاؤه فى الحكم مستندا إلى التأييد الشعبى) .

(١١) الستر على الناس ، وعدم فضح عيوبهم ، أوالتشهير بهم ، وتجنب من يتحسسون عيوب الناس و يطلبونها .

(١٢) تطهير النفس من عقد الحقد والعداوة والبغضاء والنقمة .

(١٣) التغابى عن كل ماليس واضحا مقطوعا به من الأمور، فمن الظلم صدور حكم بلابينة .

(١٤) تجنب أنماط معينة من الناس ، وعدم الاستماع لهم لفسادهم ، ومن هؤلاء :

أ ـــ الساعى الغشاش ، وإن تشبه بالناصحين .

ب ـــ البخيل « فإنه يعدل بك عن الفضل ، و يعدك الفقر .

جـ ـــ الجبان « فإنه يضعفك عن الأمور» .

د ـــ الحر يص الذى « يز ين لك الشَّره بالجور» .

هـ ـــ الوز ير الذى كان للأشرار من قبل وز يرا ، وشركهم فى الآثام .

(١٥) بطانة الحاكم يجب أن تكون ممن لم يعاون ظالما على ظلمه ، ولا آثما على إثمه . وأفضلهم هو أصرحهم بالحق ، ولو كان مرّا .

وكذلك من أهل الصدق والورع . وفى كل الحالات على الحاكم ألا يقبل منهم إطراء ، وإسرافا فى المدح بأن ينسبوا إليه ماليس فيه .

(١٦) التفر يق بين المحسن والمسىء ، والزام كل منهما ما ألزم نفسه ، فالمسىء قد ألزم نفسه استحقاق العقاب ، والمحسن قد ألزمها استحقاق الكرامة .

(١٧) حسن الظن بالرعية ، وعدم تكليفها بما لا تطيق ، واستكراههم على ماليس لهم به قِبَل .

(١٨) اتباع كل سنة حسنة يصلح بها أمر الناس ، ويُجمع عليها الأئمة ، وتجنب البدع الضارة التى تسىء إلى مثل هذه السنن .

(١٩) الإكثار من مدارسة العلماء ، ومناقشة الحكماء فى تثبيت ماصلح عليه أمر البلاد ، وإقامة ما استقام به الناس من قبل .

(٢٠) المجتمع يقوم على التكامل الطبقى ، وتعاون هذه الطبقات تعاونا صادقا . وأهم هذه الطبقات :

الجنود ، وكتاب العامة والخاصة ، والقضاة ، والعمال ، وأهل الذمة ، والتجار والصناع . ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة . ولكل حقوق ، وعليه واجبات .

(٢١) لا تنتفى المسئولية عن الحاكم إلا ببذل غاية مايستطيع لصالح الرعية ، مع توطين نفسه على لزوم الحق ، والصبر عليه ، فيما خف أوثقل .

(٢٢) رءوس الجنود يجب أن يكونوا أنصح الناس لله وللرسول والإمام ، وأطهر الناس قلبا وسريرة ، وأفضلهم حلما ، وأكثرهم رأفة بالضعفاء ، وشدة على الأقوياء .

(٢٣) على الوالى تفقد أمور الجند ، وأمور رءوسهم بروح الأب وعاطفته . وأفضل القادة من واسى جنوده ، وأفاض عليهم من كرمه ، واهتم بمن خلفوه وراءهم من النساء والأطفال .

(٢٤) فى الثناء على أصحاب البلاء من الجنود والقادة ، وذكر بلائهم وثباتهم وفضلهم تكريم لهم ، على ألايكون فى ذلك إسراف أوغبن بإضافة بلاء امرىء إلى غيره .

(٢٥) القرآن والسنة هما مرجع المسائل والأمور ، وخاصة ماأشكل على الحاكم منها

(٢٦) يختار للقضاء أفاضل الرعية ممن يعرفون الحق ، و يتأنون فى الشبهات ، و يصبرون على تكشف الأمور ، ولايعرفون الغضب والضيق بالخصوم ، ولا يستميلهم إغراء أوإطراء ، ولم يعرف عنهم طمع أوزلل .

(٢٧) على الحاكم أن يتابع أحكام القضاء ، ليرى نصيبها من الحق والعدل ، وعليه أن يبذل للقضاة مايزيل علتهم ، وتقل معه حاجتهم للناس ، وأن يجعل لهم من المنزلة عنده مالا يطمع فيهم غيرهم من خاصته .

(٢٨) اختيار العمال وموظفى الدولة يجب ألايقوم على المحاباة والأثرة ، بل يجب أن يعتمد على أساسين موضوعيين هما :

أ ـ التجربة والخبرة .

ب ـ السبق فى الإسلام ، وحسن السيرة والعمل .

(٢٩) من مقضيات حسن سير العمل :

أ ـــ إسباغ الأرزاق على العمال حتى يتقنوا عملهم ، ولايمدوا أيديهم إلى مال الدولة ، وحتى تقوم عليهم الحجة إن خالفوا الأمر ، وثلموا الأمانة .

ب ـــ تفقد أعمالهم ، و بث العيون من أهل الصدق والوفاء والأمانة عليهم .

جـ ـــ اليقظة والحيطة الدائمة فى مراقبة الأعوان ، وإنزال العقوبة ـــ فى شدة ـــ بمن يخالف منهم

(٣٠) يمثل الخراج موردا مهما من موارد الدولة ، ومن ثم كان على الحاكم أن يتفقد أمره بمايصلح أهله ، فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولاصلاح لمن سواهم إلابهم ؛ لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله .

(٣١) عمارة الأرض وإصلاحها بالزرع والبناء وماشابه ذلك أبلغ فى نظر الحاكم القدير من أستجلاب الخراج ؛ لأن ذلك لايدرك إلا بالعمارة « ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد ، وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلاقليلا »

(٣٢) على الحاكم أن يخفف الخراج عن الرعية إذا ماأصيبت الأرض بآفة تأتى على الزرع ، أونقص فى الماء ، أوغرق أفسدها « فإنما يُؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبر» .

(٣٣) وعن كتّاب الدولة :

أ ـــ يتولى أمرهم خيرهم وأقدرهم .

ب ـــ يختص أتقى الكتاب ، وأحسنهم خلقا ، وأكثرهم أمانة بكتابة أخطر الرسائل ، وأحملها بالأسرار .

جـ ـــ على الكاتب أن يعرض على الحاكم كتب عماله إليه ، و يصدّر كتبه إليهم بصورة صائبة وافية ، و يكون قديرا على مافيه الصالح ، وحل مافيه الضرر .

د ـــ لايختار الوالى كتّابه تأسيسا على الهوى والظن ، ولكن تأسيسا على مايتصفون به من أمانة وخبرة .

(٣٤) وعن التجار وأهل الصناعات :

أ ــ على الوالى أن يستوصى بهم خيرا ، و يوصى بهم خيرا .

ب ــ ضرورة تفقد أمورهم ، ومتابعة أحوالهم فى كل جوانب البلاد ، وعقاب الجشعين والمحتكرين والمطففين منهم .

(٣٥) وعن الطبقة السفلى من الذين لاحيلة لهم من المساكين والمحتاجين ، وأهل البؤس والزمنى :

أ ــ يرصد لهم نصيب من بيت المال ، وقسم من أرض الغنائم .

ب ــ يكون للقاصى من الحق مثل ماللدانى .

جـ ــ الاهتمام بأمرهم ، وعدم الانشغال عنهم ، أو التكبر عليهم

د ــ تخصيص جماعة من أهل الثقة والخشية والتواضع للتعرف على أخبار هؤلاء ، ورفعها للوالى .

هـ ــ تعهد الأيتام والعجزة ذوى السنّ ممّن لاحيلة لهم ، ولا ينصب للمسألة نفسه

(٣٦) يخصص الحاكم لذوى الحاجات والشكاوى من الناس وقتادوريا معينا ، يفرغ لهم فيه شخصه ، ويجلس لهم فيه مجلسا ينصفهم فيه ممن ظلمهم .

وعليه أن يتحمل من الرعية فى مجلسه هذا ماقد يبدو من بعضهم من حماقة وجهالة وطيش .

(٣٧) من الأمور مايجب على الحاكم أن يباشرها بنفسه ، دون إسنادها إلى من تحت يده من الكتاب والنقباء ، وأهمها نوعان هما :

أ ــ الأمور التى يعجز العمال عن حلها .

ب ــ الأمور العاجلة ، وخصوصا تلك التى تضيق صدور الأعوان بمعاشرتها .

(٣٨) على الحاكم أن يقصد بكل عمله وجه الله ، وأن يقيم فرائضه على أكمل وجه وأوفاه ، فإذا صلى بالناس لاينفرهم من الصلاة بإطالتها ، فإن فى الناس من به

العلة ، وله الحاجة ، وقد قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : **« صلِّ بهم كصلاةِ أضعفِهم ، وكنْ بالمؤمنين رحيما »** .

(٣٩) على الحاكم ألا يحتجب عن الرعية ، وإذا احتجب فلا يطيلن احتجابه « فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق ، وقلة علم بالأمور ، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه ، فيصغر عندهم الكبير ، و يعظم الصغير ، و يقبح الحسن ، ويحسن القبيح ، و يشاب الحق بالباطل . »

(٤٠) فى خاصة الوالى و بطانته استئثار وتطاول ، وقلة إنصاف فى معاملة ، ومن مصلحة الرعية أن يحسم الوالي هذه النزعة باتخاذ الإجراءات الواقية قبل وقوع الإجحاف والتعدى من هؤلاء ، وذلك بالقضاء على الأسباب المؤدية إليه .

وعليه ألا يقطع أحدا منهم من الأرض مايضر بمن يليها من الناس فى شرب أوعمل مشترك .

(٤١) الحق لايعرف المجاملة ، ولايعترف باستثناء الأقارب والخواص . لذلك يجب أن يلتزم به الجميع .

(٤٢) مصارحة الرعية أمر واجب ، وخصوصا بالنسبة لما يسوء فيه ظن الرعية من تصرفات الحاكم .

(٤٣) يقبل الصلح من العدو ، إذا لم يكن على حساب الحق ، وكان فيه مصلحة للمسلمين ؛ وفى كل الحالات لايغنى قبول الصلح عن الحذر واتخاذ الحيطة .

(٤٤) الأمانة والوفاء بالعهود ، وتجنب الخيانة والغدر هى الأخلاقيات والقيم التى يجب أن يأخذ المسلمون أنفسهم بها ، فيما يعقد بينهم و بين أعدائهم من عهود واتفاقات .

(٤٥) ومن المبادئ التى يجب أن تحكم المعاهدات والعقود :

أ — حسن النية

ب — تجنب التأو يلات البعيدة الخفية .

جـ — لافسْخ إلا بداعية قو ية من الحق .

(٤٦) حقن الدماء ، وعدم سفكها بالباطل واجب دينى وإنسانى « فإنه ليس هناك شيء أدعى لنقمة ، ولا أعظم لتبعة ، ولا أحرى بزوال نعمة ، وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها » .

(٤٧) على الحاكم أن ينزه نفسه عن الآفات والأمراض النفسية والخلقية وأهمها :

أ ــ الإعجاب بالنفس ، والثقة بما يعجب منها ، وحب الإطراء ، وإسراف الآخرين فى المدح .

ب ــ المن على الرعية بما يقدمه إليهم من أياد وإحسان

جـ ــ وعدهم وإخلاف الوعد . فالخلف يوجب المقت عند الله والناس .

د ــ العجلة بالأمور قبل أوانها ، أو التساقط فيها عند إمكانها ، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت ، أو الوهن عنها إذا استوضحت .

هـ ــ الاستئثار ــ دون الناس ــ بما يتساوى فيه الناس ، أو ما يجب أن يتساووا فيه .

و التغابى عما هو واضح غير خاف من الأمور .

(٤٨) من أهم ما يجب أن يتصف به الحاكم : قدرته على أن يملك نفسه عند الغضب ، فلا يؤذى الآخرين بيده أو لسانه ، وإذا كان لابد من فرض العقاب ، فلا يكونن ذلك إلا بعد أن يسكن الغضب ، وتهدأ الفورة .

(٤٩) وأخيرا على الحاكم أن يتذكر محاسن السابقين ، فيعمل بما سنّوه من سنن طيبة ، و يقتدى بما قدموه من أعمال صالحة .

• • •

وعودا على بدء أذكّر القارىء بأن هذا الكتاب يمثل دستورا كاملا فى سياسة الأمة على أقوم سبيل ، وأكرم نهج :

١ ــ فهو يرسم الصورة النفسية والخلقية للحاكم كما يجب أن تكون ، ويحدد الشرائط التى يجب أن تتوفر فيه حتى يستطيع أن يضطلع بمهامه .

٢ ــ وهو يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، والأسس التى تقوم عليها من رحمة وحب وعدل وإنصاف .

٣ــ ويحدد طبقات الرعية ، أوما يسمى فى الاستعمال السياسى « بقوى الشعب » ، ويحدد ــ فى دقة عجيبة ــ حقوق كل طبقة ، أوكل قوة قِبل الحاكم .

٤ ــ و يبرز الأسس والقواعد التى تحكم اختيار موظفى الدولة ، وهى أسس موضوعية بعيدا عن الهوى والأغراض الذاتية ، والمصالح الشخصية .

٥ ــ و يعطى اهتماما خاصا لأمر ين رئيسين :

الأول : موارد الدولة وأهمها الخراج ، والثانى : تعمير الأرض .

٦ــ ويحدد كيفية اتصال الرعية بالحاكم لتسيير أمورها وإنصافها من ظالميها ، وجعل لذلك وسيلتين ، أوقناتين :

الأولى : عمال الدولة من قضاة ، وجامعى الخراج وغيرهم الثانية : اللقاء المباشر بين الحاكم والرعية بتخصيص وقت معين محدد لهذا الغرض .

٧ــ و يرسم بعد ذلك طبيعة العلاقات الخارجية مع الأعداء وأهل الذمة . وهى علاقات تقوم على أسس إنسانية من أمانة ووفاء وحسن نية ، و بعد عن الغدر والخيانة .

• • •

وتأتى الحكم والمواعظ نتيجة طبيعية لخبرة الحياة ، وطوابع الدين ، ونقاء النفس ، وكل منها تمثل قيمة عليا فى أدب النفس أوالحرب أوالعلاقات الاجتماعية والإنسانية .

ومن أشيرها وأطيرها مقولة أبى بكر « احرص على الموت توهب لك الحياة » (٤١) فالحرص على الموت قد يحقق السلامة ؛ لأنه يعنى شجاعة فائقة ترعب الأعداء ، وتمزق صفوفهم ، فلايصمدون لهذا « الحر يص على الموت » . ومن ناحية أخرى يكون الحرص على الموت يعنى الحرص على الخلود ؛ لأن من يتقدم الصفوف غير

(٤١) حكم أبى بكر ٩ .

مـبـال ولاهـيّـاب ، إنمـا يجود فى سبيل عقيدته بأغلى ماعنده وهو النفس ، والحياة هنا لا تـعـنـى أيـام عـمـر وسـنـيّه ، ولكنها تعنى طيب الذكر ، وخلود السيرة ، وحياة العز والنعيم فى رحاب الله .

• • •

ولينظر الـقـارئ بـعـض حـكـم عمر ، ولتكن الحكم الثمانية الأولى ، إنها تُهدى الإنسانية « صورة العالم الموسوعى » بكل القيم العلمية والإنسانية التى يجب أن يكون عـليـهـا ، من فقه وسكينة وحلم وتواضع ، ومعايشة القرآن والعمل به ، وتعلم العربية ، وروايـة الأشـعـار ، وبهـذه الحـكـم والمـواعظ يضع عمر أيدينا على النموذج المثالى للعالم بجانبيه : العلمى والخلقى .

و ينهـار الجـانـبان تماما إذا ما أذل العالم نفسه ، وأراق ماء وجهه ، ونافق وداهن ، إن التجرد من القيمة الخلقية يهز — إلى أبعد حد — من القيمة العلمية ، وهذا ماعناه عمر بقوله « مَنْ رقَّ وجهُه رقَّ عِلْمه » (٤٢) .

وكـانـت حـكـم الإمـام على هـى أغـزر هـذه الحـكـم ، وأكثرها إحاطة بالنفس الإنـسـانـيـة « فـهـى طـراز ، لايـفـوقـه طـراز فى حكـمـة الـسـلـوك على أسلوب الأمثال السائرة » (٤٣) .

ففى الوسطية العادلة التى هى قوام النفس السوية يقول « كنْ سمْحا ، ولا تكنْ مبذرا ، وكنْ مقدّراً ، ولا تكنْ مقتّرا » (٤٤)

وفى مـقـام تـقـييم الدعوات ، ومايـنشأ عنها ولها من صراعات يقول : « وماأختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما ضلالة » (٤٥) .

---

(٤٢) حكم عمر ٢٠ .

(٤٣) العقاد : عبقرية الإمام ١٤٨ .

(٤٤) حكم على ٤ .

(٤٥) حكم على ١٨ .

وفى مجال شجاعة النفس ، وجناية البغى على صاحبه يقول لابنه الحسن : « لا تدعُوَنَّ إلى مبارزة ، وإنْ دعيت إليها فأجبْ ، فإن الداعى باغ ، والباغى مصروع » (٤٦)

وفى ألوان العلم وتقييمه يقول : « العلمُ علمان : مطبوعٌ ومسموع ، ولاينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع » (٤٧)

وعن طبيعة النفس البشرية يقول : « شيطان كل إنسان نفسه » (٤٨) .

• • •

وكل هذه القيم التى تدفق بها أدب الخلفاء الراشدين جعلته بحق خليقا بما وصفناه به فى استهلال هذا الفصل من أنه « أدب إنسانى » بكل مافى هذه الكلمة من معنى ، و بكل ما تصدق عليه من مفاهيم .

---

(٤٦) حكم على ٢٤ .

(٤٧) حكم على ٣١ .

(٤٨) حكم على ٧٤ .

الفصل الرابع

العاطفة.. والخيال

لكى يتم تصورنا وتقييمنا لأدب الخلفاء الراشدين لابدّ أن نبرز مافيه من قيم شعورية وتصويرية وتعبيرية ، أوبتعبير آخر. نتبين ألوان العاطفة فيه ، واتجاهه فى التصوير ، وسماته فى الأداء التعبيرى بالكلمة والجملة .

والعاطفة هى : روح العمل الأدبى ، أوهى التى تجعل العمل أدبا ، فهى بانفعالاتها المختلفة من حب وكراهية وتفاؤل وتشاؤم وغضب ورضا .. الخ تجعل للعمل قيمة وتأثيرا على مشاعر المتلقى ، فهى بالنسبة للعمل الأدبى كالعصارة الحية بالنسبة للشجرة .. خَافيةٌ عن الأنظار ولكن لا حياة للشجرة بدونها ، فبدونها تتقصف الجذور ، ويجف الساق ، وتذبل الأوراق وتسقط الأزهار أوالثمار مخنوقة بلا حياة .

« ومعيار القيمة فى العاطفة هو : صدقها ، أى : قدرتها على أن تجعل العمل الفنى يشق طريقه وسط زحمة الموجودات ، ليبرز بدلالة ، و يلوح برسالة ، والصدق هنا ليس هو الصدق العلمى ، ولا الصدق الأخلاقى ؛ لكنه الصدق الذى ينم على أن العمل الأدبى يخبر بشىء يتوافق مع الحياة ، ومع المحصلات الوجدانية ، دون أن يكون له أى أثر من شأنه أن يؤدى إلى النفور والشذوذ ، إنه الصدق الفنى الذى ينبع من منطق العمل الأدبى أومن موضوعيته بكل أبعادها وتفصيلاتها » (١)

ومن مقتضيات هذا الصدق البعد عن التزييف والإسراف والشطط بحيث تكون انعكاسا أمينا لمشاعر الأديب وأعماقه الخافية . كما يجب أن تتسم بالعظمة والجلال

---

(١) د . أحمد كمال زكى : النقد الأدبى الحديث ٥١ .

والسمو، فالعواطف الخسيسة لا تنتج عملا يدخل فى نطاق الأدب الخالد . ويجب أيضا أن تكون « منضبطة » غير منفلتة ، وإلا كانت كصرخات الثكلى . قد تؤثر فى النفس ولكن إلى حين .

وانضباط العاطفة لايتحقق إلا بتلاحمها مع عنصر الفكر، فهى تخفف من حدته وجفافه ، وهو بدوره يحول بينها و بين التسيب والانفلات ويجعل لها « معنى » وقيمة . .

• • •

والعاطفة ترتبط دائما بالمناسبة التى تثيرها ، والموقف الذى يستجيشها ، لذلك تعددت انفعالات الخلفاء الراشدين تبعا للمواقف والمناسبات : فنجد انفعال أبى بكر بالغضب المتسعر فى مواقف ثلاثة :

الأول حينما طلب منه بعض المسلمين ألا يحارب المرتدين بل يصانعهم بعد أن رمتهم العرب عن قوس واحدة

والثانى : حين طلب منه بعض المسلمين إلغاء بعث أسامة أوعلى الأقل إرجاءه .

والثالث : حين طلب بعضهم ــ مادام مصرا على إنفاذ البعث ــ أن يستبدل بأسامة قائدا أسنّ وأخبر .

و يتكثف هذا الغضب فى عبارات قو ية صاعقة :

—والله لومنعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه ، ولولم أجدْ أحدا أقاتلهم به لقاتلتهم وحدى . . » (٢) .

—والذى نفس أبى بكر بيده لو ظَنَنْتُ أن السباع تخطفنى لأنفذت بعث أسامة (٣) .

(٢) حوار أبى بكر ٢ .

(٣) حوار أبى بكر ٣ .

ـــ ثكلتك أمك وعدمتك يابن الخطاب استعمله رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وتأمرني أن أنزعه ؟ ! ! (٤) .

• • •

وفي عام الرمادة يسيطر الحزن على عمر، و يبكي ليل نهار على ما أصاب المسلمين من مجاعة ضارية ، حتى صنع الدمع على خديه خطين أسودين ، ولكن نفسه التي مزقها الحزن لم يهتز إيمانها بالله فكان « حزن الحاكم المؤمن » أقوى الأدلة على الشعور بالمسئولية والإحساس القوى بآلام الناس ، ينعكس ذلك في مناجاته لربّه « .. اللهم أنت الراعي ، لاتهمل الضالة ، ولاتدع الكسيرة بمضيعة ، اللهم قد ضرع الصغير، ورقّ الكبير، وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى .. » (٥) .

وإذا كان الشعور بالمسئولية قد غمر نفس عمر بالأسى الشديد فرقا وإشفاقا على الرعية ، فإن هذا الشعور قد ولّد انفعالا آخر هو الانفعال الإيجابي بالغضب الحاد على بعض عماله بالأمصار؛ لأنهم في حسبانه قصروا في إمداد المسلمين في جزيرة العرب بالمؤن والطعام ، فكتابه إلى عمرو بن العاص (٦) يدل في وضوح على هذا الانفعال الحاد حتى أنه يخاطبه « بالعاصي ابن العاصي » ثم يثنّي بهذا الاستفهام الاستنكاري القارع « أفتراني هالكا ومن قِبَلي ، وتعيش أنت ومن قبلك ؟ » ثم يختمه بهذا النداء الذي يحمل من التقريع أكثر مما يحمل من الأسى ، و يأتي التكرار اللفظي مؤكدا ما يختلج في نفس عمر من غضب وثورة « فياغوثاه .. ياغوثاه .. ياغوثاه »

• • •

والرابطة الفنية والنفسية بين العاطفة والكلمة المعبرة عنها تتلخص في « التناسب » بمعنى أن تكون الكلمة تجسيدا دقيقا للعاطفة من الناحيتين النوعية والدّرجية ، و يقتضي ذلك أن تكون الكلمة مناسبة للعاطفة من ناحية الرقة أو الجزالة والبنية والجرس .. الخ فالألفاظ الجزلة القوية ذات الرنين النحاسي الصّاخّ هي

---

(٤) حوار أبي بكر ٤ .

(٥) خطب عمر ١٩ .

(٦) كتب عمر ١ .

أنسب الألفاظ للتعبير عن عاطفة الغضب والثورة ، والألفاظ الرقيقة السَّلِسَة ذات الموسيقى الوترية هي أنسب الألفاظ للتعبير عن الحب والرضا . وهذه مسألة أكثر البلاغيون الكلام فيها ، وسنعود إليها مرة أخرى عندما نعرض للأداء التعبيرى .

• • •

والخيال عنصر مهم من عناصر الأدب فهو الوسيلة المثلى لإبراز العاطفة (٧) وهو يعنى فى بساطة وضع الأشياء فى علاقات جديدة : كالورد والخد ، والبحر والكريم ، والأسد والشجاع (٨) .

والخيال يشد المتلقى ليشارك الأديب عاطفته ، ولا يحقق الأسلوب الحقيقى هذا الغرض ؛ لأنه ينقل الفكرة مجردة ليعيها العقل ، ولكنها لاتهز الوجدان . وليس معنى ذلك أن أشد ألوان الخيال أسْراً وتأثيرا هو أبعدها تحليقا ، فقد يكون الخيال قريبا ومع ذلك يكون شديد الأسر قوى التأثير . وفى قيمة الخيال يقول الإمام عبدالقاهر الجرجانى :

... وإن من الكلام ماهو كما هو شريفٌ فى جوهره كالذهب الإبريز الذى تختلف عليه الصور ، وتتعاقبُ عليه الصناعات ، وجُلّ المعوَّلِ فى شرفه على ذاته ، وإن كان التصوير قد يزيد فى قيمته ، و يرفع فى قدره .

ومنه ماهو كالمصنوعاتِ العجيبة من مواد غير شريفة ، فلها ــ مادامَت الصورة محفوظة عليها لم تنتقض ، وأثر الصنعة باقيا معها لم يبطل ــ قيمة تغلو ، ومنزلة تعلو ، وللرغبة إليها انصباب ، وللنفوس بها إعجاب ، حتى إذا خانت الأيام فيها أصحابها ، وضامَتِ الحادثاتُ أربابها ، وفجعتْهم فيها بما يسلبُ حسنَها المكتسب بالصنعة ، وجمالها المستفاد من طريق العرض ، فلم يبق إلا المادة العارية من التصوير ، والطينة الخالية من التشكيل ، سقطت قيمتها ، وانحطت رتبتها ، وعادت الرغبات التى كانت فيها زهدا ، وأوسعتها عيون ــ كانت تطمح إليها ــ إعراضا دونها وصَدًّا (٩) .

---

(٧) أحمد كمال زكى : المرجع السابق ٥٣ .

(٨) الحوفى : بلاغة الإمام على ١٩٠ .

(٩) أسرار البلاغة ١٩ .

وكأنى بالإمام عبد القاهر يضع أيدينا على قاعدة فنيه عظمى لايستقيم العمل الفنى إلابها وهى « تكامل العناصر الجمالية فى النص » فالجوهر — وليكن هو الفكرة أوالمعنى — يزيد التصويرُ فى قيمته ويرفع من قدره ، وهذا يعنى أنه إذا فقد عنصر « الخيال » وجاء مجردا فقد رواءَ الجذاب ، ونقص قدره وقيمته .

ومن الأعمال الفنية مايعوض الخيال الرائع فيها عن ضعف الفكرة أوسطحية المعنى ، ويستطيع الناقد أن يعرف قيمة عنصر الخيال فى مثل هذه الحال الأخيرة بإسقاطه عن الأسلوب ، ورده إلى الحقيقة ، هنا لايبقى إلا « المادة العارية من التصوير ، والطينة الخالية من التشكيل »

• • •

وقد رأى القارىء غير قليل من ألوان الخيال فيما عرضناه من أدب الخلفاء الراشدين وأهم مايتسم به خيالهم :

١ — أنه خيال لايحلق فى آفاق مترامية ، ولكنه يظل قريبا من الواقع ، مرتبطا به بحبل متين ، كما نرى فى هذا التشبيه العمرى : « وإنما أنا ومالكم كوالى اليتيم إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف .. » (١٠)

فالتشبيه هنا يكاد يعانق الواقع ، ويدب على أرضه ، حتى ليكاد الأسلوب أن يكون أسلوبا حقيقيا لامجازيا .

٢ — وهو خيال جزئى أوبيانى يعتمد على التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز ، ونـدر أن تجد فيه صورة كلية مركبة . ولاعجب فى ذلك فقد كان هذا هو نوع الخيال الذى ساد فى عصور العربية المتقدمة .

٣ — وهو متأثر إلى أبعد مدى بالصور القرآنية وصور الأحاديث النبوية الشريفة . ومن ذلك التشبيه التمثيلى التالى (١١)

« ... ولا تكونوا مثل قوم كانوا فى سفينة فأقبل أحدهم على موضعه يخرقه ، فنظر إليه أصحابه فنعوه ، فقال هو موضعى ولى أن أحكم فيه ، فإن أخذوا على يده سلم وسلموا ، وإن تركوه هلك وهلكوا معه ، وهذا مثل ضربته لكم رحمنا الله وإياكم » .

---

(١٠) خطب عمر ٧ .

(١١) خطب عمر ١٨ .

وهو متأثر إلى أبعد حد بصورة « المسئولية الاجتماعية » التى جسدها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الحديث التالى :

« مثل القائم فى حدودِ الله والواقع فيها كمثل قوم استهمُوا على سفينة ، فصارَ بَعضُهم أعلاها ، وبعضُهم أسفَلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم ، فقالوا : لوأنّا خرقْنا فى نصيبنا خَرْقا ، ولم نُؤذِ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادُوا هلكوا جميعا ، وإنْ أخذوا على أيديهم نجَوْا ، ونَجْوا جميعا »(١٢)

ومن خطبة لعثمان(١٣)

« ألا إن الدنيا خضرة ، قد شهيت للناس .. »

وفى حديث للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

« إن الدنيا حلوةٌ خضِرةَ ... »

• • •

٤ ــ وهو خيال متأثر بالبيئة فى صورها ومشاهدها ومعاشها . يقول عمر فى كتابه لأبى موسى الأشعرى :

« وإياكَ أن تَزيغَ فتزيغَ عمَّالُك ، فيكونَ مثلك عندالله مثل البهيمةِ نظرتْ إلى خضرةٍ من الأرضِ فرتعَتْ فيها تبتغى بذلك السِمَن ، وإنما حتفها فى سمنها »(١٤) .

ومن بصمات البيئة كذلك مانراه فى الصورة التالية(١٥) « .. ومن أبطأ عن الهجرة أبطا عنه العطاء ، فلا يلومنّ إلا مناخَ راحلتِه » .

وهى كناية جميلة عن التثاقل والتباطؤعن الخير والحق والعمل الصالح .

• • •

(١٢) البخارى : كتاب الشركة . باب هل يقرع فى القسمة والاستهام .

(١٣) خطب عثمان ٣ .

(١٤) كتب عمر ٢١ .

(١٥) خطب عمر ١٥ .

٥ ـــ ومن الظواهر اللافتة فى خيالهم جنوحهم كثيرا إلى تجسيد المعنويات وتشخيصها ، فيبرزون المعنوى فى صورة مجسدة مُحسَّة ، ويخلعون أحيانا على الجوامد مظاهر بشرية .

ومن ذلك فى أدب عمر ماقاله فى وصف الليل والنهار من أنهما « .. يبليان كلَّ جديد ، و يقربان كلَّ بعيد ، و يأتيان بكلِّ موعود » (١٦) .

وقول عثمان فى كتابه لمعاوية (١٧) : « إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، فلم يبق إلا أن تثب »

ووصف على أصحابه بأنهم يسعون إلى الجهاد « متسربلين سرابيل الموت » (١٨) .

• • •

٦ ـــ وأخيرا نراه خيالا متنوعا يأخذ من كل الألوان البيانية بطرف .

فمنه التشبيه كقول علىّ (١٩) « وإنما دنياكم كفىء الظل أوزاد الراكب .. » .

ومنه التشبيه البليغ كقول عمر (٢٠) : « كونوا أوعية الكتاب و ينابيع العلم » .

ومنه التمثيلى كمثال السفينة الذى سقناه فى حديث عمر ـــ رضى الله عنه ـــ .

ومنه الضمنى كما نرى فى إحدى خطب عثمان (٢١) .

ومنه الأساليب الاستعارية ، كالذى نراه فى قول أبى بكر: « وسترون بعدى مُلْكا عضوضا ، ومَلِكا عَنُودا ، وملكا شعاعا » (٢٢) .

---

(١٦) كتب عمر ٣٢ .

(١٧) كتب عثمان ٥ .

(١٨) كتب على ٤ .

(١٩) خطب على ٣ .

(٢٠) حكم عمر ٢ .

(٢١) خطب عثمان ٤ . والتشبيه الضمنى فى الأبيات التى ساقها عثمان ـــ رضى الله عنه ـــ لطفيل الغنوى .

(٢٢) خطب أبى بكر ٤ .

وتكثر الاستعارات التمثيلية فى أدب الإمام علىّ ؛ لأنه كان أكثر الخلفاء توظيفا للأمثال العربية . ومن ذلك قوله :

« ... فدع عنك من مالت به الرميّة » (٢٣) .

ولكن الكناية هى أكثر الألوان استعمالا . ومن أجملها وأرقاها قول أبى بكر :

« ولا تقاتل بمجروح فإنّ بعضَه ليسَ منه » (٢٤) وهى كناية بارعة عن العجز المطلق ؛ لأن الجريح لايكون إنسانا كامل القوة ، متماسك النفس بعد أن عجز عضوه الجريح فأعجزه .. ، ولوقوتل بالجريح لكان تكليفا له بمالا يطيق ، وربما أصبح عبئا على قومه ، وهو الذى قصد ليكون معينا .

ومن ذلك قول عمر(٢٥) : « ... ولست أدع أحداً يظلم أحدا ، ولا يعتدى عليه ، حتى أدعَ خدَّه بالأرضِ ، وأضعَ قدمى على الخدّ الآخر حتى يذعن للحق »

وهى كناية عن شدة القهر والإذلال من عمر لمن يظلم الناس و يعتدى عليهم .

وكتب إلى سعد بن أبى وقاص(٢٦) وقد استكثر على جندى يدعى « زهرة » ماغنمه بنفسه فى القتال « تعمد إلى مثل زهرة ... تكسرُ قرْنه ، وتفسدُ قلْبَهَ »

وهى كناية عن إحزانه وكبته .

ومن كنايات عثمان — رضى الله عنه —

« ... والله لأفْرِشَنّكُم عِرْضى ، ولأبْذُلَنّ لكم صَبْرى .. » وهى كناية عن حسن المعاملة ، وتقبل الأذى » (٢٧)

ومن كنايات على — رضى الله عنه — (٢٨) .

---

(٢٣) كتب على ٤ .

(٢٤) خطب أبى بكر ١٥ .

(٢٥) خطب عمر ٧ .

(٢٦) كتب عمر ١٣ .

(٢٧) كتب عثمان ٨ .

(٢٨) كتب على ٥ .

« .. يابني عبد المطلب : لا ألفينكم تخوضون دماءَ المسلمين خوْضا »

وهي كناية عن الإسراف في القتل .

ومن كناياته أيضا وهو يخاطب أصحابه(٢٩) :

« .. ومن فاز بكم فاز بالسهم الأَخْيَب .. »

وكان الإمام علي — رضي الله عنه — أكثر الخلفاء توظيفا للصور البيانية ، وبعضها لا يخلو من طابع الصنعة الذكية والثقافة الواعية .. ولكنه في مجموعه لا يخرج على ما اتسم به خيال الخلفاء من السمات التي حددناها آنفا وهي .

القرب والالتصاق بالواقع ، وأنه خيال جزئي متأثر بالقرآن الكريم والسنة النبوية ومعالم البيئة ، وهو متنوع أخذ من كل الألوان البيانية ، وأنه أحيانا يجنح نحو التجسيد والتشخيص ..

• • •

الفكر الإنساني ، والعاطفة الصادقة السامية الجليلة ، والخيال الذي يسرف في الإبعاد والتحليق ، كل هذه العناصر العقلية والفنية انتقلت إلى ا[illegible]ال بعد أن لبست لبوسها من الألفاظ والعبارات ، وهذا ما تراه في الفصل التالي .

---

(٢٩) خطب علي ٦ .

الفصل الخامس

الأسلوب والنَّسق التعبيري

يكاد النهج العام للخطبة عند الخلفاء الراشدين يكون واحدا : فهى تُستهل بحمد الله والصلاة والسلام على نبيه ، مع بعض الأدعية أحيانا ، ومقدمة موجزة لتهيئة النفوس والأذهان ، ثم يأتى موضوع الخطبة بعد ذلك ، وهو صلبها والجزء الرئيسى فيها ، و به يحرص الخطيب على إقناع الناس بمضمون الخطبة واستمالتهم إليه .

ثم تأتى الخاتمة ، وهى آخر أجزاء الخطبة ، وتكون خلاصة لها ، أولبعض عناصرها ، أواستخلاصا لنتيجة يحرص الخطيب على ترسيها فى قلوب الناس وعقولهم ، وكثير من خطب الخلفاء تختم بالأدعية ، أوبالتذكير بالآخرة .

• • •

وتجرى الرسائل على نفس النهج ، وإن اختلف استهلالها اختلافا ضئيلا عن استهلال الخطبة : فهى تبدأ غالبا بالبسملة ، وقد يليها حمد الله والصلاة على نبيه ، ولكن يذكر فى استهلالها دائما اسم المرسل ثم اسم المرسل إليه . كما أنها تختلف عن الخطبة من نواح ثلاث :

الأولى : أن الخطبة هى بنت البديهة والارتجال .. وهى بنت ساعتها أولحظتها بلا إعداد أوتهيؤ ، أما الرسالة فيسبقها التأنى ، وتتطلب إعمال العقل ، وقد تقتضى المراجعة والمعاودة .

الثانية : وهى نتيجة للسمة الأولى : أن عنصر الفكر فى الرسالة أغلب منه فى الخطبة .

أما الثالثة : فهى أن الرسائل والعهود المكتوبة أدل وأصدق فى التقييم الفكرى والفنى من الخطب ؛ لأن الخطب نقلت مشافهة ، وتناقلتها الأفواه إلى أن سجلت بعد عشرات من السنين ، أما الرسائل والعهود فهى أبقى وأثبت على الزمان ؛ لأنها وثائق مسجلة مكتوبة ، ومن ثم كثرت الروايات وتضاربت فى نقل الخطب ، وندر أن نجد مثل ذلك فى الرسائل . كما أن فَقْدَ جزء من الرسالة أمر بعيد الاحتمال ، وإن كان فقد الرسالة كلها أمر محتمل . أما الخطبة فعرضة للنسيان الكلى أو الجزئى ، وهذا هو السر فى عثورنا على بعض الخطب ذات سطور معدودة ، وعلى نفس الخطب وقد امتد النفَس فيها حتى صارت عشرات من السطور ، ولا تعليل لذلك إلا اختلاف طرق الرواية ، واختلاف الرواة حفظا ودراية .

• • •

وأول مايَبْدَهُ القارىء فى أدب الخلفاء الراشدين أنه مرعى خصيب للآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والشعر العربى والأمثال العربية .

وتأتى الآيات أو أجزاء منها على سبيل التضمين كجزء متلاحم مع بقية الجمل فى الخطبة أو الرسالة كقول أبى بكر(١) « فتلك مساكنهم خاوية ، وهم فى ظلمات القبور»

﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾ ﴾ (٢)

وقوله فى وصيته لكل من : عمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة(٣) : « ... اتق الله فى السر والعلانية ، فإنه

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (٤)

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ ﴾ (٥)

فإن تقوى الله خير ماتواصى به عباد الله »

---

(١) خطب أبى بكر ٣ .
(٢) سورة مريم الآية : ٩٨
(٣) خطب أبى بكر ٨ .
(٤) سورة الطلاق الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٥) سورة الطلاق الآية : ٥ .

و يعد أبو بكر من أكثر الخلفاء ، أو أكثر الخلفاء استشهادا بالقرآن الكريم وتضمينا لآياته ، وتأثرا بكلماته وتعبيراته .

و يقول عمر في إحدى خطبه(٦) : « .. وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (٧)

بين ذوي الرأي منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر .. »

و يقول عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ « ألا وإن(٨) الدنيا طويت على الغرور ،

﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٩)

اعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ، ولا تغفلوا ، فإنه لايغفل عنكم .. » .

ومن كلام الإمام علي ــ رضي الله عنه(١٠) ــ « ... ولا تُقنطوا شرَّ هذه الأمة من رحمة الله ،

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١١)

وأكثر من ذلك الاستشهاد بالآيات القرآنية . مع النص على أنها قرآن . ومن ذلك ماكتب به عمر ــ رضي الله عنه ــ إلى عمرو بن العاص(١٢) « .. واعلم ياعمرو أن الله يراك ، و يرى عملك ، فإنه قال ــ تبارك وتعالى ــ :

﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ (١٣)

يريد أن يقتدى به ، وإن معك أهل ذمة وعهد .. »

---

(٦) خطب عمر ٣ .
(٧) الشورى الآية : ٣٨
(٨) خطب عثمان ٢ .
(٩) لقمان الآية : ٣٣ .
(١٠) خطب علي ٩ .
(١١) يوسف الآية : ٨٧ .
(١٢) كتب عمر ٤٣ .
(١٣) الفرقان الآية : ٧٤ .

و يلاحظ أن كتب عثمان ــ رضى الله عنه ــ فى الأيام الأخيرة من حياته ، وهى الكتب التى بعث بها مستنجدا بأهل الموسم كانت حافلة بعدد كبير جدا من الآيات القرآنية(١٤) ، وهذا أمر طبعى ؛ لأن عثمان كان محصورا مكروبا ، مهددا بالقتل فى أى لحظة ، بعد أن أحاط به الشاغبون ورجال الفتنة ، ومنعوه الماء والطعام ، والإكثار من سَوْق الآيات القرآنية ، يهدف إلى استثارة الحس الدينى فى الناس للقدوم إلى المدينة كى ينقذوه .

• • •

وغير تضمين الآيات القرآنية والاستشهاد بها فى شتى المواقف ، نرى للكلمة القرآنية مكانها فى أسلوب الخلفاء الراشدين ، مثل مانرى فى كلام أبى بكر لعمر ساعة احتضاره « ياعمر إن الله لايقبل نافلة حتى تؤدى فريضة ، ألم تر ياعمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق ، وثقله عليهم ، وحق لميزان لايوضع فيه غدا إلا حق أن يكون ثقيلا . ألم تر ياعمر أنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل ، وخفته عليهم ، وحق لميزان لايوضع فيه غدا إلا باطل أن يكون خفيفا »(١٥) .

فالنافلة والفريضة والموازين وثقلها وخفتها وغيرها كلمات قرآنيه تطل من خلال هذه العبارة كما هو واضح .

و يتردد الفكر القرآنى ، والألفاظ القرآنية كذلك فى أدب عمر بن الخطاب كما نرى فى العبارة التالية من أحد كتبه لأبى عبيدة بن الجراح « ..ولربما خذل الله الجموع الكثيرة ، فوهنت ، وفلت ، وفشلت ، ولم تغن عنهم فئتهم شيئا ، ولربما نصر الله العصابة القليل عددها على الكثير عددها من أعداء الله ، فأنزل الله عليكم نصره ، وعلى المشركين من أعداء الله بأسه ورجزه .. »(١٦) .

---

(١٤) انظر كتب عثمان ١٩ ، وهو أطول كتبه ، وقد استغرقت الآيات أكثر من نصفه

(١٥) حوار أبى بكر ٨ .

(١٦) كتب عمر ٣٤ .

وتتضح صحة ماذهبنا إليه آنفا حين نطالع الآيات الآتية :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ (١٧)

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ (١٨)

﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (١٩)

• • •

وضمن الخلفاء الراشدون أدبهم بعض الأحاديث النبوية ، وإن لم يكن ذلك بكثرة تضمينهم الآيات القرآنية :

ففي كتاب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص (٢٠) وإن معك أهل ذمة وعهد ، وأوصى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالقبط فقال : « **استَوْصُوا بالقبطِ خيرا ، فإن لهم ذمةً ورحماً** » ، ورحمهم أن أم إسماعيل منهم . وقد قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ « **من ظلم معاهدا أو كلّفه فوقَ طاقته ، فأنا خَصْمُه يوم القيامة** » . احذر ياعمرو أن يكون رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لك خصما .. »

وكان عثمان ــ رضى الله عنه ــ إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ، فقيل له : تذكُرُ الجنةَ والنارَ ولا تبكي ، وتبكي من هذا ؟ قال : إن رسولَ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « **القبر أولُ منازِلِ الآخرة ، فإنْ نجا منهُ فما بعدَه أيسر منه ، وإن لم ينجُ منه فما بعدَه أشدُّ منه** » . وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « **ما رأيتُ منظراً إلا والقبرُ أفظعُ منه ..** » (٢١) .

---

(١٧) سورة التوبة الآية : ٢٥ .

(١٨) البقرة الآية : ٢٤٩ .

(١٩) البقرة الآية : ٥٩ .

(٢٠) كتب عمر ٤٣ .

(٢١) حوار عثمان ١ .

و يضمّنُ على بن أبى طالب إحدى خطبه حديث النبى ــ عليه السلام ــ فى الغزو. يقول علىّ مخاطبا أصحابه : « ... وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ماغزى قومٌ قطُّ فى عقرِ دارهم إلا ذَلّوا ، فتواكلتم ، وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولى ... » (٢٢)

وقد رأينا من قبل أن الخلفاء الراشدين ــ على الرغم من أنهم لم يكونوا شعراء ــ كان لهم بصر بالشعر: يحفظونه و يتذوقونه ، و يروونه ، و ينقدونه ، و يستجيدون منه نماذجه العليا ، و يضمنونه خطبهم ورسائلهم ، على اختلاف حظهم فى هذا المجال . وكان عمر ــ رضى الله عنه ــ أكثرهم حفظا للشعر، ورواية له ، وحكما عليه .

وقد استشهد أبو بكر بشعر لطفيل الغنوى فى جدل بينه و بين الأنصار(٢٣) .

كما استشهد عمر بشعر كثير من الشعراء ، وخصوصا الجاهليين منهم ، وكان ينقد شعرهم نقد الخبير البصير(٢٤) .

وفى إحدى خطب عثمان فى المدينة بعد أن شهرّ به بعضهم ؛ لأنه بنى دارا جديدة ينشد عثمان بيتين من الشعر، يخاطب بهما من اعتقد أنهم يحسدونه ، ويحقدون عليه :

توقّدْ بنارٍ أينا كنتَ واشتعلْ ... فَلستَ ترى مما تعالجُ شافيا
تشطُّ فيقضِى الأمرَ دونك أهلُهُ ... وشيكا ولا تُدْعى إذا كنتَ نائيا(٢٥)

و يرد الشعر كثيرا فى خطب الإمام على ورسائله ، وخصوصا إذا ما احتد شعوره ، وتوهجت عاطفته . واستشهاده يكون بالبيت والبيتين ، ولكنه كثيرا مايضمّن كلامه الشطر المفرد من البيت على غير سنّة الخلفاء الثلاثة قبله . ومن ذلك مانراه فى واحد من كتبه لمعاوية :

---

(٢٢) خطب على ٥ .

(٢٣) انظر حوار أبى بكر ٥ .

(٢٤) انظر حوار عمر من ٤ إلى ١٩ .

(٢٥) خطب عثمان ٤ .

« وزعمت أنى لكل الخلفاء حسدتُ ، وعلى كلهم بغيتُ ، فإن يكنْ ذلك كذلك ، فليس الجناية عليك ، فيكون العذر إليك :

وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها

... وما كنت لأعتذر من أنى كنت أنقمُ عليه أحداثا ، فإن كان الذنب إليه إرشادى ، وهدايتى له ، فرب ملومٍ لاذنب له :

وقد يستفيدُ الظنةَ المتنصِّحُ

... وذكرت أنه ليس لى ولأصحابى عندك إلا السيف ، فلقد أضحكتَ بعد استعبار ، متى ألفيت بنى عبد المطلب عن الأعداء ناكلين ، و بالسيف مخوفين :

لبِّثْ قليلا يلحق الهيجا حَمَلْ (٢٦)

• • •

واستعان الخلفاء فى خطبهم ورسائلهم — و بخاصة على بن أبى طالب — بالحكم والأمثال لتأكيد المفاهيم والأفكار التى يحرصون على إقناع الناس بها ، وشدهم واستمالتهم إليهم (٢٧) .

ومن ذلك قول عثمان (٢٨) « .. بلغنى عنكم أنكم تقولون : لنفعلن به ولنفعلنّ . فبمن تفعلون ؟ لله آباؤكم !! أبنقد البقاع أم بفقْع القاع ؟ (٢٩) .

وكان على بن أبى طالب — رضى الله عنه — هو أكثر الخلفاء الراشدين استشهادا بالأمثال العربية القديمة ، كما كان أكثرهم فى حكمه الجوامع المركزة . يقول علىّ فى كتابه إلى معاوية (٣٠) :

---

(٢٦) كتب على ٤ .

(٢٧) ذيّل الميدانى الجزء الثانى من كتابه « مجمع الأمثال » بباب فى جوامع كلم النبى — صلى الله عليه وسلم — وحكم الخلفاء الراشدين . وانظر حوار عثمان ١٥ حيث ورد فيه المثلان المشهوران « بلغ الحزام الطبيين ، وخلّف السيل الزبى » . وانظر مجمع الأمثال ١/ ٩٦ .

(٢٨) خطب عثمان ٢٩٤ .

(٢٩) الفقع : نبات ضعيف . وفى المثل : فلان أذلُّ من فقع القاع .

(٣٠) كتب على ٤ .

« ... وما أنت والفاضل والمفضول ، والسائس والمسوس ؟ وماللطلقاء وأبناء الطلقاء والتميز بين المهاجرين ألأولين ، وترتيب درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم ؟ هيهات ، لقد حَنّ قِدْحٌ ليس منها ، وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها[٣١]

• • •

كل ذلك نراه فى أسلوب الخلفاء الراشدين : بصمات القرآن الكريم ، و بصمات الحديث الشريف ، وآثار من الشعر والأمثال العربية ، على خلاف فى قدر الاستشهاد عند كل خليفة من الخلفاء .

وربما كان أبوبكر ، وعثمان بن عفان ـــ رضى الله عنهما ـــ وخصوصا فى أيامهما الأخيرة ـــ هما أكثر الخلفاء تضمينا لآيات القرآن الكريم واستشهادا به .

وكان عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ هو أكثر الخلفاء تناولا للشعر ، وله فى مجاله المحاورات التى تدل على ذوق رفيع ، و بصيرة أدبية بارعة .

بينما يزيد الإمام على ـــ كرم الله وجهه ـــ فى كثرة استخدام الأمثال العربية ، والإشارات التاريخية ، مما يقل وروده عند الخلفاء الثلاثة السابقين .

• • •

وتثور فى المباحث البلاغية عند تقييم الأساليب بمسألة التفضيل بين الإيجاز والإطناب ، فهناك من يرى أن البلاغة إيجاز ، وأن خير الكلام ماقل ودل ، وأن الزيادة فى الحد نقصان[٣٢] .

وهناك من يفضل الإطناب على الإيجاز بدعوى أن المنطق « إنما هو بيان ، والبيان لايكون إلا بالإشباع ، والشفاء لايكون إلا بالإقناع ، وأفضل الكلام أبينه ، وأبينه أشد إحاطة بالمعانى ، ولا يحاط إحاطة تامة إلا بالاستقصاء[٣٣] .

---

(٣١) خنّ : صوَّت . والقِدْح : السهم : وهو مثل يضرب لمن يفتخر بقوم ليس منهم .

(٣٢) انظر: كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ١٧٣ .

(٣٣) السابق ١٩٠ .

والواقع أن المفاضلة بين الإيجاز والإطناب بهذا الإطلاق فى غير محلها ؛ لأنها تلغى فى الموازنة عنصرا مهما جدا هو عنصر « المقام أو المجال أو المناسبة » ، ونحن نرى فى هذه المسألة مايراه أبوهلال العسكرى من أن الإيجاز والإطناب يُحتاج إليهما فى جميع الكلام ، وكل نوع منه ، ولكل واحد منهما موضع ، فالحاجة إلى الإيجاز فى موضعه كالحاجة إلى الإطناب فى مكانه ، فمن أزال التدبير فى ذلك عن جهته ، واستعمل الإطناب فى موضع الإيجاز ، واستعمل الإيجاز فى موضع الإطناب أخطأ . (٣٤)

• • •

وأدب الخلفاء الراشدين يجمع بين الإيجاز والإطناب تبعا لمقتضيات المقام ــ كما سنرى بعد قليل ــ فقد روى عنهم من الخطب والرسائل مالا يتعدى السطرين والثلاثة (٣٥) .

ولكن روى عنهم كذلك الخطب والرسائل الطوال ، وكان على ــ رضى الله عنه ــ هو صاحب القدح المعلى فى طوال الخطب والرسائل ، مثل الخطبة الغراء (٣٦) ، والخطبة الزهراء (٣٧) ، ومثل عهده للأشتر النخعى (٣٨) ، وهو أطول العهود التى كتبت فى عهد الخلفاء الراشدين .

وفى الكتب والخطب المسهبة تبدو ظاهرة الترادف أو التكرار المعنوى ، والالحاح على الفكرة الواحدة بأساليب متعددة ، وذلك لتأكيد الفكرة وإقناع الآخرين واستمالتهم إليها .

يقول أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ :

---

(٣٤) السابق : نفس الصفحة .

(٣٥) مثل خطب أبى بكر ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٦ . وكتب أبى بكر ٣ ، ٨ ، ١٣ . وخطب عمر ٢ ، ٦ . وكتب عمر : ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٢٠ . وخطب عثمان : ١ ، ٦ . وكتب عثمان ٤ ، ٦ ، ٧ ، ١١ .

(٣٦) خطب على ٧ .

(٣٧) خطب على ٨ .

(٣٨) كتب على ٩ .

« أيها الناس نحن المهاجرين أول الناس إسلاما ، وأكرمهم أحسابا ، وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوها ، وأكثرهم ولادة فى العرب ، وأمسهم رحما برسول الله . أسلمنا قبلكم ، وقدمنا فى القرآن عليكم فقال تبارك وتعالى

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ (٣٩)

فنحن المهاجرون ، وأنتم الأنصار: إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفىء ، وأنصارنا على العدو ، أما ماذكرتم فيكم من خير ، فأنتم له أهل ، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعا ، فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، فمنا الأمراء ، ومنكم الوزراء . . » (٤٠) .

كان ذلك يوم السقيفة ، وقد ألقى المهاجرون بكل ثقلهم لإقناع الجميع بأحقيتهم بالخلافة بعد موت الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتكلم الحباب بن المنذر الأنصارى وغيره من الأنصار يبرزون الدور الخطير الذى لعبه الأنصار فى حماية الدين الجديد والذود عنه ، وكانت الخطابة هى سلاح الإقناع والتأثير فى المجلس ، والإيجاز هنا لايناسب المقام ؛ لأنه ليس مقام إصدار حكم يسلم به الجميع ، ولكنه مقام قضية تحتاج إلى شرح وتفصيل وأسانيد ، والبلاغة ــ كما يقولون ــ هى مراعاة مقتضى الحال .

ويتضح لنا قيمة هذا الفارق إذا مانظرنا إلى كتاب أبى بكر إلى عياض بن غنم (٤١) ونصه :

« سِرْ حتى تأتى المصيخ ، فابْدَأْ بها ، ثم ادخل العراق من أعلاها ، وعارِقْ حتى تلقَى خالدا ، وأْذَنَا لمن شاء بالرجوع ، ولا تستفتحا بمتكاره » .

---

(٣٩) التوبة الآية : ١٠٠ .

(٤٠) حوار أبى بكر ١ .

(٤١) كتب أبى بكر ١١ .

فالإيجاز هنا هو جوهر البلاغة ؛ لأن المقام مقام « أمر عسكرى » بشأن مهمة محددة ، وهو أمر صادر من القائد الأعلى إلى أحد مرءوسيه من قواد الجيوش أوقواد الفرق ، وهو أمر لامجال فيه لإعمال الرأى والجدل .

ومن هذا القبيل هذه الرسالة ، وإن شئت فقلْ هذه الإشارة العسكرية التى يطلب فيها عمر من عماله مايمكن أن نسميه فى عصرنا الحاضر « التعبئة العامة » ، بعد أن استعد الفرس لضرب المسلمين ، وملكوا عليهم « يزدجرْد » . ونص الكتاب « لا تدعوا أحدا له سلاح أوفرس أونجدة أورأى إلا انتخبتموه ، ثم وجهتموه إلىّ ، والعجل العجل » (٤٢) .

• • •

وقد أشرنا إلى أن على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ كان أطول الخلفاء نفسا ، وأكثرهم إسهابا فى خطبه ورسائله ، وهو يتميز فى مطولاته ــ من خطب ورسائل ــ بمايمكن أن نسميه « بإطناب التعليل » ، أو« إطناب الحيثية » فهو يسوق الحكم ، أويوجه الأمر ، و يليه تعليله أوتبريره ، بحيث يأتى الحكم « مصحوبا بحيثيته » كما فى وصيته للحسن والحسين ، ومنها القطوف التالية :

« ... الله الله فى جيرانكم ؛ فإنهم وصيةُ نبيكم ..

واللهَ اللهَ فى الصلاة فإنها عمودُ دينكم ..

والله الله فى بيتِ ربكم ، لاتُخْلوه مابقيتم ، فإنه إن تُركَ لم تُناظروا ... » (٤٣) .

وتبدو هذه السمة أشد وضوحا فى عهد علىّ للأشتر النخعى (٤٤) :

« أنصف الله ، وأنصف الناس من نفسك ... فإنك إلا تفعل تظلم ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ..

(٤٢) كتب عمر ٣ .

(٤٣) كتب على ٥ .

(٤٤) كتب على ٩ .

« ... وليكن أحب الأمور إليك أوسطها فى الحق ، وأعمها فى العدل ، وأجمعها لرضا الرعية ، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة ، وإن سخط الخاصة يُغتفر مع رضا العامة ..

« ... ولاتعجلن إلى تصديق ساع ، فإن الساعى غاشّ ، وإن تشبه بالناصحين .

ولا تدخلنّ فى مشورتك بخيلا ... ولاجبانا .. ولاحريصا .. فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله .. »

• • •

ومن هذه النماذج يتبين لنا أن الخلفاء الراشدين استعملوا الإيجاز فى موقع الإيجاز ، وأطنبوا حيث لايفى بالغرض إلا الاطناب والتفصيل ، وهذه هى البلاغة الحقيقية التى تراعى مقتضى الحال .

• • •

وفى إطار الخطبة والرسالة راوح الخلفاء بين الجمل القصيرة والجمل الطويلة ، ونـدر أن ينفرد أثر من آثارهم بنوع واحد من هذه الجمل ، وإن غلبت الجمل الطويلة على أدب عمر ، بينما يؤثر الإمام على قصار الجمل على طوالها ، غير أنهم جميعا ــ كما أشرت ــ راوحوا بين النوعين من الجمل .

والجمل الطويلة أكثر استيعابا للأفكار ، وإن كانت الجمل القصيرة ــ وخصوصا إذا كانت متوازنة أومسجوعة ــ أكثر تأثيرا فى النفس بجرسها وإيمانها . كما نرى فى عبارات الإمام على التالية ، وهى تتوالى كأنها قبسات منغومة تهز النفس وتملأ الوجدان :

« أين من سعى واجتهد ، وجمع وعدّد ، و بنى وشيّد ، وزخرف ونجدّ ، و بالقليل لم يقنع ، و بالكثير لم يمتَّعْ ؟ أين من قاد الجنود ؟ ونشر البنود ؟ أضحوا رفاتا ، تحت الثرى أمواتا .. » (٤٥) .

• • •

---

(٤٥) خطب على ٢ .

والصيغ الخبرية هى الغالبة على أسلوب الخلفاء الراشدين ، ولكن الصيغ الإنشائية لها مكانها المرموق أيضا فى هذا الأسلوب . وتستخدم هذه الصيغ الأخيرة — غالبا — عند توهج العاطفة وتدفق الوجدان وخصوصا عند الغضب .

كما أن المزاوجة بين النوعين من الصيغ يمنح الأسلوب تلوينا لايشعر القارىء معه بسأم وملالة ، والصيغ الإنشائية أقوى من الصيغ الخبرية تجديدا لنشاط السامعين ، وأشد تنبيها ، وأكثر إيقاظا ، وأدعى إلى مطالبتهم بالمشاركة فى القول وفى الحكم ، وهى فى الوقت نفسه أدق فى تصوير مشاعر الخطيب وأفكاره ؛ لأن أفكاره ، ومشاعره المتنوعة فى حاجة إلى أساليب متغايرة تفصح عنها(٤٦) .

ومن الأساليب الإنشائية فى أدب الخلفاء الراشدين :

١ — الأمر : كقول أبى بكر : « اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم .. » (٤٧) .

وقول عمر : « فعليكم بتقوى الله فى سركم وعلانيتكم ، وحرماتكم وأعراضكم ، وأعطوا الحق من أنفسكم » (٤٨)

وقول عثمان « اعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا .. » (٤٩)

وقول على لمحمد بن أبى بكر : « .. فاحذروا نارا قعرها بعيد ، وحرها شديد ، وعذابها جديد .. وإن استطعتم أن يشتد خوفكم من الله ، وأن يحسن ظنكم به فاجمعوا بينهما » (٥٠)

٢ — النهى : كقول أبى بكر : « .. فلا تغلل ، ولا تمثل ، ولا تغدر ، ولاتجبن ، ولا تقتلوا وليدا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولاتحرقوا نخلا ... » (٥١) ..

---

(٤٦) انظر الحوفى : بلاغة الإمام على ٢٥٩ .

(٤٧) خطب أبى بكر ٣ .

(٤٨) خطب عمر ١٠ .

(٤٩) خطب عثمان ٥ .

(٥٠) كتب على ٣ .

(٥١) كتب أبى بكر ١٧ .

وقول عمر وهو يبين لعماله حقوق الرعية عليهم : « ولا تضربوهم فتذلوهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم .. » (٥٢)

وقول عثمان : « فلا تدعوا شيئا أحببتموه لايعصى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئا كرهتموه لايعصى الله فيه إلا استعفيتم منه » (٥٣) .

وقول على : « .. ألا لايَرْجُوَنَّ أحدُكم إلا ربَّه ، ولا يخافن إلا ذنبه ، ولا يستحى أحدكم — إذا لم يعلم — أن يتعلم .. » (٥٤)

٣ — الاستفهام : كما فى قول أبى بكر : « أين الوُضَّاء الحسنةُ وجوههم ، المعجبون بشبابهم ؟ أين الذين بنوا المدائن ، وحصنوها بالحوائط ، وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ (٥٥) .

وقول عمر : « .. أين الطُرّاء المهاجرون عن موعود الله ؟ أين عباد الله الصالحون ؟ » (٥٦)

وقول عثمان : « .. مالى ولفيئكم وأخذ مالكم ؟ ألست من أكثر قريش مالا ؟ وأظهرهم من الله نعمة ؟ ألم أكن على ذلك قبل الإسلام و بعده ؟ (٥٧)

وقول على : « أين من سعى واجتهد ؟ وجمع وعدّد ؟ .. » (٥٨)

٤ — النداء : كقول أبى بكر : « يا ابنَ أمِّ عكرمة ، لا أرينّك ، ولا ترانى على حالها .. » (٥٩) .

وقول عمر : « أيها الناس : اتقوا الله فى أنفسكم .. » (٦٠)

---

(٥٢) خطب عمر ٧ .

(٥٣) كتب عثمان ٨ .

(٥٤) خطب على ٩ .

(٥٥) خطب أبى بكر ٣ .

(٥٦) خطب عمر ٢ .

(٥٧) خطب عثمان ٤ .

(٥٨) خطب على ٢ .

(٥٩) كتب أبى بكر ٧ .

(٦٠) خطب عمر ٢٠ .

وقول عثمان : « أيها الناس : إن أول كل مركب صعب .. » (٦١)

وقول على « ... ثم اعلم يامالك أنى قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور.. » (٦٢)

٥ ــ القسم : كقول أبى بكر فى رسالته لخالد بن سعيد : « أقِمْ مكانك فلعمرى إنك مقدام محجام .. » (٦٣)

وحينما سأل عمرو بن العاص عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ : « يا أمير المؤمنين : أرأيت إن بعثت عاملا من عمالك فأدب رجلا من رعيتك فضرب به أكنت تقصُّه منه ؟ قال عمر: نعم ، والذى نفس عمر بيده لأقصنّه منه ، فقد رأيت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقصُّ من نفسه » (٦٤)

وقول عثمان : « ... وإنى والله ماحملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ... » (٦٥)

وقول على ــ رضى الله عنه ــ : « ... وورّيتم ــ والله ــ صدرى غيظا ، وجرعتمونى الموت أنفاسا » (٦٦) .

٦ ــ التمنى : كقول أبى بكر: « ... فأما الثلاث التى فعلتهن ، ووددت أنى تركتهن : فوددتُ أنى لم أكشف بيت فاطمة عن شىء وإن كانوا أغلقوه على الحرب ، ووددت أنى لم أكن حرقت الفجاءة السلمى ... ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة قد رميتُ الأمرَ فى عنق أحد الرجلين فكان أحدهما أميرا ، وكنت له وزيرا » (٦٧)

---

(٦١) خطب عثمان ١ .

(٦٢) كتب على ٩ .

(٦٣) كتب أبى بكر ١٣ .

(٦٤) خطب عمر ١٣ .

(٦٥) خطب عثمان ٨ .

(٦٦) خطب على ٥ .

(٦٧) حوار أبى بكر ٦ .

وقول عمر: « أيها الناس: إنى لَوَددتُ أن أنجوَ كفافا، لالى، ولاعلىّ، وإنى لأرجو إن عُمّرتُ فيكم يسيرا أوكثيرا أن أعملَ بالحق فيكم إن شاء الله .. » (٦٨)

وقول عثمان: « لهفى على بقائى فيكم بعد أصحابى، وحياتى فيكم بعد أترابى، ياليتنى تقدمت قبل هذا، لكنى لاأحبُّ خلافَ ماأحبَّهُ الله لى ـ عزوجلّ ـ .. » (٦٩).

وقول على: « ... وددتُ أن اللهَ أخرجنى من بينِ أظهركم » (٧٠).

• • •

والملاحظ أن الصيغ الإنشائية توجد فى الخطب أكثر من غيرها؛ وذلك لأن الإنشاء أقدر من الخبر على الإثارة والتأثير.. والخطابة فن يهدف أساسا إلى التأثير فى الجماهير واستمالتهم لفكرة معينة أوشخص معين.

و يلاحظ كذلك أن الإمام على ـ رضى الله عنه ـ كان أكثر الخلفاء الراشدين استعمالا للصيغ الإنشائية، و بخاصة فى خطبه. وأغلب هذه الخطب كان يرتبط بأحداث دامية فجرت مشاعر الإمام على ـ رضى الله عنه ـ وألهبت وجدانه فكان الأسلوب الإنشائى هو أنسب الأساليب للتعبير عن هذه الطاقة الوجدانية الهائلة.

• • •

وأسلوب الخلفاء الراشدين أسلوب مرسل لايشعر سامعه أوقارئه بوطأة تصنّع أوتكلف، ولكنه لم يخل من بعض السجع الذى ترصعت به أواخر الجمل فى بعض الخطب والرسائل « والسجع لاينتقد لذاته، وإلا كان نظم الشعر أولى بالانتقاد، وإنما يعاب السجع إذا اضطر الأديب إلى التضحية بالمعنى، و بالتعبير السليم. فى سبيل الأسجاع الملفقة، والفواصل المغتصبة » (٧١).

---

(٦٨) خطب عمر ٢.

(٦٩) خطب عثمان ٤.

(٧٠) خطب على ٥.

(٧١) العقاد: يوميات ٢/٣٥٩.

ومما يدل على أن السجع غير مذموم لذاته مانراه فى بعض سور القرآن الكريم — و بخاصة قصار السور— من سجعات آسرة ، تنساب موسيقاها فى حنايا النفس فتهز أوتار القلوب .

كما أن بعض الأحاديث النبو ية صيغت بأسلوب مسجوع رفيع ، لا أثر فيه للتكلف والتصنع كقوله — صلى الله عليه وسلم — : « **افشُوا السلام ، وأطعِمُوا الطعامَ ، وصِلُوا الأرحام ، وصَلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام** » ولكن ذلك قليل فى أحاديثه — صلى الله عليه وسلم — فالغالب على أسلو به الترسل والإيجاز مع اتساع المعنى ، وإحكام الأسلوب فى غير تعقيد ولا تكلف ، ومع إبانة المعنى ، واستغراق أجزائه (٧٢)

ومن السجع القليل فى أدب أبى بكر ، من وصيته ليز يد بن أبى سفيان « ... فاسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار ، وتنكشف عندك الأستار ... وجالس أهل الصدق والوفاء ، واصدق اللقاء ... واجتنب الغلول ، فإنه يقرب الفقر ، و يدفع النصر .. » (٧٣)

و يقول عمر — رضى الله عنه — فى إحدى خطبه : « وقد يقاتل أقوام لاير يدون غير الأجر ، وآخرون لاير يدون غير الذكر ، وإن الله — عزوجل — رضى منكم باليسير ، وأثابكم على اليسير الكثير » (٧٤)

و يقول عثمان — رضى الله عنه — : « أما بعد فإنى قد حُمِّلْتُ ، وقد قبِلْتُ ، ألا وإنى متبعٌ ، ولستُ بمبتدع » (٧٥)

و يقول على بن أبى طالب — رضى الله عنه — : « ألا إن الأبرار عترتى ، وأطايب أرومتى ، أحلم الناس صغارا ، وأعلم الناس كبارا ، ألا وإنا — أهل البيت — من

(٧٢) انظر : الرافعى : إعجاز القرآن والبلاغة النبو ية ٣٣٢ .

(٧٣) خطب أبى بكر ١٨ .

(٧٤) خطب عمر ٢٣ .

(٧٥) خطب عثمان ٣ .

عِلْمِ اللهِ عِلْمُنَا ، وبحكم الله حُكْمنا ، ومن قولِ صادقٍ سَمْعُنا ؛ فإن تتبعُوا آثارَنا تهتدوا ببصائرنا ، معنا رايةُ الحقِّ ، من يتبعها لحق ، ومن تأخَّر عنها غرق . . » (٧٦)

و يشيع السجع كذلك فى كتب الإمام على ، فلا يكاد كتاب يخلو من السجع ، وكذلك حكمه ومواعظه الموجزة ، وهى من جوامع الكلم ، كقوله : ضعْ فخرك ، واحطُطْ كِبْرَك ، واذكرْ قبرَك (٧٧) .

وأسلوب الإمام على أحفل بالسجع من أسلوب الخلفاء الثلاثة ، ولكن سجعه يعدّ قليلا بالنسبة لأدبه الغزير ، فأغلبه يمضى مترسلا متدفقا .

وزيادة على السجع يحفل أسلوب الإمام على بالازدواج والتوازن(٧٨) . ومثال ذلك مانراه فى العبارات التالية

وهى من كتاب الإمام على — رضى الله عنه — إلى معاوية :

« ... وزعمتَ أن أفضلَ الناس فى الإسلام فلانٌ وفلان ، فذكرتَ أمرا إن تمَّ اعتزلَكَ كلَّه ، وإن نقصَ لم يلحقْك ثَلْمُه ، وما أنتَ والفاضلُ والمفضول ، والسائسُ والمسوس ، وما للطلقاء وأبناء الطلقاء ، والتمييزِ بين المهاجرين الأولين ، وترتيبِ درجاتِهم ، وتعريفِ طبقاتِهم ... » (٧٩)

• • •

ومن ظواهر البديع فى أسلوب الخلفاء الراشدين : التضاد والصور المتقابلة . ويهدف التقابل بصفة أساسية إلى إبراز المعنى وتوضيحه ، فوضع النقيض إلى نقيضه يزيدهما كليهما وضوحا وجلاء ، على حد قول القائل : و بضدها تتميز الأشياء .

---

(٧٦) خطب على ١ .

(٧٧) حكم على ٣٩ .

(٧٨) الازدواج : أن تكون كلمات أواخر الجمل على وزن واحد ، والتوازن أو الموازنة تساوى الجملتين أوالجمل فى عدد الكلمات .

(٧٩) كتب على ٤ .

ومن التقابل فى أدب أبى بكر « ... الضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله .. » (٨٠)

و يقول عمر ــ رضى الله عنه ــ : « ... وإنى أجد هذا المال لم يصلحه إلا خلال ثلاث : أن يؤخذ فى الحق ، و يعطى فى الحق ، ويمنع من الباطل ، وإنما أنا ومالكم كوالى اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف » (٨١) .

و يقول عثمان ــ رضى الله عنه ــ فى أحد كتبه لعماله : « ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين فيما عليهم ، فتعطوهم مالهم ، وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة ، فتعطوهم الذى لهم ، وتأخذوهم بالذى عليهم ... » (٨٢)

ومن كتاب على إلى معاوية « ... ومنا النبى ومنكم المكذب ، ومنا أسدُ الله ، ومنكم أسدُ الأحلاف ، ومنا سيدا شباب أهل الجنة ، ومنكم صبيةُ النار ، ومنَّا خَيرُ نساء العالمين ، ومنكم حمالة الحطب ، فى كثير مما لنا وعليكم .. » (٨٣) .

• • •

ومن السمات المهمة فى هذا الأدب مانراه من التناسب الدقيق بين « الكلمة المعبرة » ، ونوع الإحساس وقدره ، بحيث تكتسب الكلمة رقتها أوجزالتها وطبيعة جرسها من طبيعة الشعور الذى يسيطر على صاحبها ، وذلك لايكون عند المطبوعين تعملا وتصنعا ، بل يأتى عفو الخاطر .

ولننظر إلى نموذجين من كتب أبى بكر يوضحان هذه السمة التعبيرية :

خالف خالد بن سعيد عن أمر أبى بكر ، وتوغل فى بلاد الروم بعد أن خدعوه فمزق الروم جيشه ، وهرب خالد إلى ذى مروة ، وهى قرية بوادى القرى ، فجاء كتاب أبى بكر ونصه :

---

(٨٠) خطب أبى بكر ١ .

(٨١) خطب عمر ٧ .

(٨٢) كتب عثمان ٩ .

(٨٣) كتب على ٤ .

« أقِمْ مكانَك ، فلعمرى إنَّكَ مِقْدامٌ محجامٌ ، نجَّاء من الغمراتِ ، لاتخوضُها إلى حق ، ولا تصبرُ عليه » (٨٤)

لقد تسعر غضب أبى بكر من مخالفة خالد بن سعيد لأمره ، ومما زاد غضبه تسعرا أنه هو الذى اختار خالدا لقيادة هذا الجيش ، وأصر على هذا الاختيار ، غير مصيخ لرأى كل من على وعمر — رضى الله عنهما — وقد عارضا أبا بكر فى اختياره خالدا .

وكلمات الكتاب تنم على ثورة نفسية حادة : فهو يستعمل صيغ المبالغة التى تبرز أقصى مايمكن تصوره من الوصف : « مِقْدام . مِحْجام . نجّاء » . والكتاب بهذا الإيجاز الحاد يعتبر حكم إدانة و« تحديد إقامة » لقائد لايعرف إلا الهرب ... قائد مجرد من الصفة القيادية الجوهرية ، وهى : الثبات وحسن تقدير الأمور .

وقد يؤيد فهمنا هذا أن الكتاب — كما ورد فى كتب التاريخ — خال من الاستهلال والختام ، وهى أمور درجت عليها كتب الخلفاء الراشدين ، وكتب العصر .

ولنقرأ كتابا آخر يشيع فيه الرضا وروح السعادة ، بعد أن حقق خالد بن الوليد ماحقق من انتصارات باهرة فى اليمامة :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله أبى بكر خليفة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى خالد بن الوليد ، ومن معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد : فالحمد لله الذى أنجز وعده ، ونصر دينه ، وأعز وليه ، وأذل عدوه ، وغلب الأحزاب فردا ، فإن الله الذى لا إله إلا هو وعد الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم (٨٥) ...

فالأسلوب هنا يمضى هينا لينا ، تشيع فيه روح الرضا والسلام والهدوء والطمأنينة ، وهذه الروح منحت الأسلوب سعة وتفصيلا ، و يأتى التعبير عن حقيقة النصر بأساليب متعددة « أنجز وعده ... أعز وليه .. أذل عدوه .. غلب الأحزاب

---

(٨٤) كتب أبى بكر ١٣ .

(٨٥) كتب أبى بكر ٢٤ .

فردا ... » لأنها حقيقة يُعتز بها ، و يتلذذ الكاتب والقارىء باستيعابها واسْعادتها ، حتى تظل دائما متصلة بالفكر وتيار الشعور.

وفى آخر الكتب التى يستنجد فيها عثمان بمعاو ية .

« أما بعد : فإنى فى قوم قد طال فيهم مُقامى ، واستعجلوا القَدَرَ فىَّ ... فيا غَوْثاه ياغوثاه ، ولا أميرَ عليكم دونى ، فالعجلَ العجلَ يامعاو ية ، وأدركْ ثم أدركْ ، وما أراك تدرك » (٨٦) .

فهذه الكلمات تصور حالة مكروب منكوب ، بينه و بين الموت قاب قوسين أوأدنى . والقلق الشديد ، والخوف من الخطر الحال يشيع فى هذه الكلمات الموجزة التى تعمد صاحبها الإيجاز؛ ليوحى بأنه ليس ثمة فسحة من الوقت تتسع لشرح الحال .

و يأتى التكرار اللفظى ، وغلبة الصيغ الإنشائية لتز يد هذا الإيحاء قوة وتأثيرا ، ولتكشف عن هذا الشعور القلق المفزوع .

وقد تبدو جملة « ولا أمير لكم دونى » اعتراضا على سياق متسق منسجم الأجزاء ، وقد يعجل القارىء و يرى أن حذفها أنسب لبلاغة الأسلوب وانسجام السياق ، وتتابع الجمل الملهوفة « ... فياغوثاه ياغوثاه ، فالعجل العجل .. »

وقد يكون هذا صحيحا فى ظاهره ، ولكن بقاء الجملة فى وضعها أدل على قلق الشعور ، واضطراب الخواطر ، وتمزق الإحساس من أمير يرى مصرعه فى كل لحظة على يد قوم تسعرت فى قلوبهم النقمة ، ولا يرضون إلا بالبغى والفتنة وسفك الدماء .

• • •

(٨٦) كتب عثمان ١٧ . وقد يعترض على هذا الحكم معترض بمقولة أن عثمان وهويعانى مايعانى من الحصار بعث بكتابين مسهبين يستنجد فيهما بأهل موسم الحج فكيف يتفق هذا الإسهاب مع حالة القلق والفزع والشعور الحاد بالخطر ، وكل أولئك يقتضي الإيجاز حيث لاسعة من وقت كما أن الإيجاز فيه إيحاء للقارىء أوالسامع بحرج موقف المرسل . وتقول إن مخاطبة الأفراد غير مخاطبة الجماهير ، فالفرد يحتفظ بالكتاب يقرأه و يعاود قراءته ، والإيجاز هنا يجزىء عن الإطناب . أما الجماهير فجذبها يحتاج لكثير الكلام ، وهم لايجتمعون على قارىء الكتاب مرة واحدة ، بل يتوالون عليه تباعا ، ومن ثم يسقط عن آذانهم الكثير مما يقرأ .. ولايكادون يعون مما قيل ــ على طوله ــ الا القليل .

وأخيرا كان أسلوب الخلفاء الراشدين سهلا واضحا ، بعيدا عن التقعر والحوشى من الكلمات . وكان العقاد على حق حين أنكر أن ينسب لعلى بن أبى طالب قوله لكاتبه حتى يظهر علمه بالغريب :

« ألصِقْ روانِفَكَ بالجَبوب ، وخذِ المِزْ بَرَ بشناتِرِكَ ، واجعلْ حَنْدَوَرَتَيْك إلى قَيْهلى ، حتى لا أَلْقى نَغْيَةً إلا أودعْتَها مِجماطةَ جُلجلانك » .

أى : ألصق مقعدك بالأرض ، وخذ القلم بما بين أصابعك ، واجعل عينيك إلى وجهى ، حتى لا ألفظ لفظة إلا وعيتها فى سواد قلبك .

ينكر العقاد نسبة مثل هذا الكلام إلى على بن أبى طالب ؛ لأن الولع بإظهار العلم بالغريب بدعة لم تعرف فى صدر الإسلام ، ولم يلتفت الناس إلى ادعائها إلا بعد استعجام العرب ، وندرة العارفين (٨٧)

• • •

كانت هذه هى الطوابع العامة للأسلوب ونسق التعبير عند الخلفاء الأربعة — رضى الله عنهم — ، ولكن ثمة ملامح فارقة فى أسلوب على بن أبى طالب ، وقد أشرنا فى تضاعيف هذا الفصل ، و بعض الفصول السابقة إلى بعضها ، ونوجز أهمها فيما يأتى :

١ — من ناحية الكم : هو أكثر الخلفاء الأربعة فى خطبه ورسائله وحكمه ، حتى أن أدبه يكاد يقارب أدب الخلفاء الثلاثة مجتمعين . وهذا مما شكك فى نسبة كثير من هذا الأدب للإمام على — كرم الله وجهه — .

٢ — وهو أطول نفسا فى خطبه ورسائله ، وهو فى طويلاته يفصل الفكرة و يلح عليها بالعديد من الأساليب بحيث يستنزف من أساليب العربية ، والمكْنات المنطقية ، وأحداث التاريخ ما يؤكد الفكرة ويحميها ، ولا يجعل سبيلا لهزها والشك فيها ، ومنطقه — على عمقه — واضح قوى التأثير : لما قتل عمار بن ياسر ، ارتفعت أصوات فى معسكر معاوية تردد قول النبى لعمار : **« يا عمار تقتلك الفئة الباغية »** ... وكادت الثقة

---

(٨٧) العقاد : عبقرية الإمام ١٤١ .

فى معاوية تهتز بعد أن صرع عمار على يد رجل من رجاله . فهب معاوية قائلا « إنما قتله من أخرجه » ، أى أن الذى تسبب فى خروجه للقتال — هو على — يحمل وزر قتله . مغالطة لفظية يدحضها على — رضى الله عنه — بمنطق مركز هادىء فيقول : « إذن فرسول الله — صلى الله عليه وسلم — هو قاتل حمزة » .

٣ — وفى أسلوب على — و بخاصة الرسائل — نسمع لأول مرة صوت الصنعة ، ونرى بصماتها ، ولكن صوتها يتمازج مع صوت الطبع ، و بصماتها تتلبس ببصماته فى توفيق عجيب لايهتدى إلى مثله إلا الأفذاذ من البلغاء ، ونرى لأول مرة غير قليل من التنميق التعبيرى المقصود ، ولكن دون تكلف .

و يقول العقاد : « ليس الإمام على أول من كتب الرسائل ، وألقى العظات ، وأطال الخطب على المنابر فى الأمة الإسلامية ، ولكنه — ولا ريب — أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب ، وأول من أضفى عليها صبغة الإنشاء الذى يقتدى به فى الأساليب ؛ لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلغين ، لاصياغة منشئين ، و يقصدون إلى أداء ما أرادوه ، ولا يقصدون إلى فن الأداء ، وصناعة التعبير ، ولكن الإمام عليا تعلم الكتابة صغيرا ، ودرس الكلام البليغ ، من روايات الألسن ، وتدوين الأوراق ، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى إلى طور التفنن والتجويد . فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع هو أول أساليب الإنشاء الفنى فى اللغة العربية (٨٨)

(٨٨) عبقرية الإمام ١٤٥ .

الفصل السادس

الرجـال والأحـداث

لو لم نقرأ تاريخ هذا العصر : عصر الخلفاء الراشدين الذى امتد قرابة ثلاثين سنة ، ختمت ختاما داميا باستشهاد أمير المؤمنين على ـــ رضى الله عنه ـــ لكفتنا قراءة أدبهم مؤنة تصور كامل ، أوشبه كامل لطبيعة الأحداث والوقائع ، وطبيعة الناس ، والعلائق الاجتماعية والتيارات السياسية والمذهبية السائدة .

لقد أبان هذا الأدب عن كثير من الأنماط البشرية المختلفة ، وطرح لنا أعماقها ، فإذا هى ظاهرة للعيان ، وكان ماقيل وماكتب من خطب ورسائل ، ومادار من جدل وحوار وسائل متكاملة لإبراز ملامح هذه الشخصيات وأعماقها :

نرى أبا بكر رجلا من « أهل العزيمة » ، يهدف إلى إحقاق الحق غير عابىء بما هو كائن ، ولابما سيكون : فالضعيف عنده قوى حتى يأخذ حقه ، والقوى فى نظره ضعيف حتى يأخذ الحق منه . (١) .

وليس هذا من قبيل اندفاع من لايقدر العواقب ، ولكنه من قبيل إقدام من يؤمن بأنه يستند إلى قدرة عليا هى قوة الحق ، التى لا تتراجع إلا لتثب ، ولاتهدأ إلا لتغلب وتغنم .

وهو رجل متبع لامبتدع ، والاتباع هنا لايعنى « ذوبان الشخصية أو تحللها » ولكنه يعنى حركة إيجابية ناشطة لتحقيق « الأهداف العليا » بعزيمة لا تذل ولاتهون ، ومن هنا كان منطقه « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله ـــ صلى الله عليه

(١) انظر خطب أبى بكر ١ .

وسلم ــ لقاتلتهم عليه ، ولولم أجد ما أقاتلهم به لقاتلتهم وحدى ، حتى يحكم الله بينى وبينهم ، وهو خير الحاكمين ... والله .. لأجاهدنهم ما استمسك السيف فى يدى ..» (٢)

ومنطق العزيمة الحاسمة ينعكس مرة أخرى فى الجدل الذى دار حول بعث أسامة « والذى نفس أبى بكر بيده لوظننت السباع تخطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمَرَ به رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولولم يبق فى القرى غيرى لأنفذْتُه » (٣) .

ويرفض أن يستبدل بأسامة قائدا أسنَّ منه ، وكان رده على من طلب ذلك « لوخطفتنى الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ » (٤)

ولكن هذه « العزيمة الحادة » كان يحكمها ويهيمن عليها « طابع روحانى مكين » يرى الزهادة فى الحياة ويهرجها خير سبيل للتقرب إلى الله . يقول الصديق ــ رضى الله عنه ــ لعبدالرحمن ابنه : « ... ورأيتم الدنيا مقبلة ، ولن تقبل ــ وهى مقبلة ــ حتى تتخذوا ستور الحرير ، ونضائد الديباج ، وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذربى ، كما يألم أحدكم الاضطجاع على شوك السعْدان . والله لأن يتقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يخوض فى غمرة الدنيا .. » (٥)

وكانت آخر كلماته لعائشة ، وهو على فراش الموت « ... إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارا ولا درهما ، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم ، ولبسنا من خشن ثيابهم ، وليس عندنا من فىء المسلمين إلا هذا العبد وهذا البعير ، وهذه القطيفة ، فإذا متُّ فابعثى بالجميع إلى عمر .. » (٦)

• • •

---

(٢) حوار أبى بكر ٢ .

(٣) حوار أبى بكر ٣ .

(٤) حوار أبى بكر ٤ .

(٥) حوار أبى بكر ٦ .

ومن خلال النصوص نرى عمر – رضى الله عنه – عبقرية فذة من عبقريات الإدارة على مستوى عصره ، وعسى ألا أكون مسرفا إذا قلت : وعلى مستوى عصرنا الذى نعيشه .

ولايختلف اثنان فى أن المال هو عصب الحياة ، وأساس التقدم والازدهار ، وقد كثر كلام علماء الاقتصاد على اختلاف مذاهبهم فى موارد الدولة ومصارفها ، وموازين الانضباط الاقتصادى ، ولكن القارىء لايجد أوعى من كلمة عمر فى هذا المجال » ... وإنى أجدُ هذا المال لم يصلحْه إلاخلالٌ ثلاث : أن يُؤْخذ فى الحق ، و يُعطى فى الحق » (٧)

والذى يقرأ كتبه إلى قواده فى ميدان الحرب يعجب لهذا الرجل البدوى كيف تأتى له أن يخطط هذا التخطيط الذى لايعد مثاليا فى عصره فحسب ، بل قد يعد نموذجيا فى عصرنا أيضا (٨)

لقد كان عمر يرسم لقواده الخطوط العريضة والقواعد العامة ، ثم يترك لهم بعد ذلك حرية التصرف فى نطاق ماوضعه من رءوس المسائل وأسس التدابير ، فهم « الحاضرون وهو الغائب » على حد قوله . وهذا التحديد العمرى العام الذى يقابله حرية التصرف المقيدة هو مايسمى فى علم الإدارة الحديثة « مركزية التخطيط لامركزية التنفيذ » .

ولم يكن التخطيط العمرى خبط عشواء ، بل كان مبنيا على علم شامل بما أقدمت عليه جيوشه من أرض ، وبمن أقدمت عليه جيوشه من أعداء ، وعلم نافذ بطبيعة أصحابه ، ومدى مايتمتعون به من قدرات ومكنات ، وهو دائما حريص على أن يعرف مايجهل ، حتى يبنى أحكامه وأوامره وتوجيهاته على أسس متينة ركينة .

كتب إلى سعد بن أبى وقاس « أين بلغك جمعهم ؟ ومن رأسُهم الذى يلى مصادمَتكم ؟ فإنه قد منعنى من بعض ماأردتُ الكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه ،

---

(٧) خطب عمر ٧ .

(٨) ارجع مثلا إلى كتابه رقم ٨ إلى سعد بن أبى وقاص ، والكتاب بما فيه من مبادىء وتوجيهات حربية وإنسانية يعتبر دستورا مثاليا من دساتير الحرب .

والذى استقر عليه أمر عدوكم ، فصف لنا منازل المسلمين ، والبلد الذى بينكم و بين المدائن صفة كأنى أنظر إليها ، واجعلنى من أمركم على الجلية .. » (٩)

و بناء على هذه المعايشة العقلية والنفسية للأرض والجيوش والناس توفرت لعمر — رضى الله عنه — رؤ ية بصيرة ملهمة فى كل الأحوال ، وكانت كتبه بشأن أرض العراق . والبلاد المفتوحة ، وما رآه من إبقاء الأرض بأيدى أصحابها ، وضرب الخراج عليها خير دليل على الحنكة و بعد النظر .

كانت وجهة النظر المقابلة — ويمثلها عدد كبير من المسلمين على رأسهم عبدالرحمن بن عوف أن تقسم الأرض على الفاتحين ؛ « لأن الأرض والعلوج مما أفاء الله عليهم »

وكان وجهة نظر عمر أكثر منطقية و واقعية ، وأوفق لصالح المسلمين على المدى الطو يل ، وأرعى وأكفل لحقوق الأجيال القادمة . يقول عمر : « والله لايفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيْل ، بل عسى أن يكون كلاً على المسلمين ، فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها ، وأرض الشام بعلوجها ، فمايُسدّ به الثغور ؟ ومايكون للذر ية والأرامل بهذا البلد و بغيره من أهل العراق والشام ؟ .. وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها ، وأن أضع عليهم فيها الخراج ، وفى رقابهم الجز ية يؤدونها فيكون فيئا للمسلمين ، للمقاتلة والذر ية ، ولمن يأتى بعدهم .. » (١٠)

فعبقر ية عمر — كما التقطنا بعض خطوطها من كلماته — كانت عبقر ية أصيلة وشاملة ، وخاصة فى مجال السياسة والحكم ، وقد صدق فيه قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : **« قد كان يكونُ فى الأممِ قبلكُمْ محدَّثُون ، فإنْ يكنْ فى أمَّتى منهم أحدٌ ، فإن عمر بن الخطابِ منهم »** (١١)

• • •

---

(٩) كتب عمر ٩ .

(١٠) حوار عمر ٢٣ .

(١١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة .

أمـا عثمان ـــ رضى الله عنه ـــ فصفوة مايمكن أن يقال عنه : أن الظروف القهارة كـانـت أقوى من سماحته وطيبته ، فعاش سنى حكمه مأساة قلق وحيرة وعذاب « فى أصعـب خـلافـة تـولاهـا خـليفة قط فى صدر الإسلام » [١٢] ، ألم تكن خلافة بدأت بـدم ، وانتهـت بـدم ؟ قـتـل عـمـر ، وهبَّ عـبـيدالله بن عمر كالوحش الكاسر فقتل الهـرمـزان وابـنـة لـه ، وقـتل جفينة النصرانى اعتقادا منه أن الرجلين اشتركا فى تدبير جـريمـة قـتل أبيه [١٣] وانتهت خلافته باستشهاده بعد حصار دام أكثر من أربعين يوما ذاق فيها الجوع والعطش .

كـان الـرجـل ـــ رضـى الله عـنـه ـــ سليم العقيدة ولاشك ، وكان حييا سمحا ، مـؤمـنـا بـالله ورسـولـه ، صـادقـا وصـديـقـا ، آخـذا من الدنيا بمتاعها الحلال ، وكان ـــ رضى الله عنه ـــ غنيا واسع الرزق ، فرأى فى هذا التمتع أخذا بمباح لايناقض التدين الـصـحـيـح . وقد صوّرَ ذلك فى إحدى خطبه متسائلا « ألست من أكثر قريش مالا ، وأظهرهم من الله نعمة !؟ ألم أكن على ذلك قبل الإسلام و بعده !؟ . . » [١٤]

وربمـا كان من الجنايات غير المقصودة عليه ، والتى زادت ثورة الناس أوبعضهم ، أن الـنـاس كـانـوا لايـزالـون أسرى تصور « النموذج العمرى » فى الزهادة والتقشف ، ومشاركة الناس مشكلاتهم ، وتضييقه على نفسه وأقاربه وأولاده ، ولكن عثمان كان مـن المـوسعين على نـفـسه وأقاربه فى الحلال ، وكان هذا المأخذ من المآخذ الأساسية الـتـى سـجـلـهـا عليه المتمردون ، ولم ينفع عثمان دفاعه عن نفسه بقوله « وقالوا : إنى أحـب أهـل بـيـتـى فأعطيهم ، فأما حبى فإنه لم يَملْ معهم على جوْر، بل أحمل الحقوق عـليهـم ، وأمـا إعـطـاؤهـم فـإنى أعطيهم من مالى ، ولاأستحل أموال المسلمين لنفسى ولالأحد من الناس . . . » [١٥]

---

(١٢) العقاد : ذو النورين ١٥٣ .

(١٣) انظر أسد لغابة ٣/٥٢٧ .
وراجع تفاصيل هذه القضية فى كتاب عبد المتعال الصعيدى « القضايا الكبرى فى الإسلام » ١١٩ ـــ ١٢٧ .

(١٤) خطب عثمان ٤ .

(١٥) خطب عثمان ٨ .

ولكن هذا الحلال بدا فى أنظار كثيرين عملا يخالف شريعة الإسلام ، ومن ثم بدت دعوة صحابى جليل كأبى ذر وكأنها تمثل جوهر الدين ، و بدا مسلك عثمان وكأنه تمرد على هذا الجوهر أوإغفال له ، ورأى السبئية أن الفرصة مواتية لضرب ضربتهم ، وأصبح كل ناقم على أمر من أمور الدين أوالدولة يرى فى قتل عثمان شفاء لمرضه ، وحلا لمشكلته .

• • •

ونخرج من قراءتنا لنصوص أدب عثمان وأدب على ـــ رضى الله عنهما ـــ بتصور صادق بأن مواقف علىّ كلها لم تقيم تقييمها الصحيح ، وأنه ظُلم ظلما فادحا فى تقدير كثيرين لهذه المواقف . وكان وراء عثمان الطيب السمح النقى ـــ ممن خبثت نواياهم ـــ من يوحى إليه بأن عليا ـــ إن لم يكن حريصا على الخلافة ـــ فهو على الأقل حريص على تخريبها .. وأنه حريص على ألا يستقر لعثمان وضع ، أويهدأ له حال .

فعلىٌّ ـــ فى تصورهم ـــ وراء كل الإشاعات والتذمرات والتجمعات ، وهو يحقد على عثمان ، ويحسده مكانه ونعمته [16] وأصبحت حركاته وسكناته تفسر على أنها نوع من التآمر على عثمان وحكومته ، وأصبح اجتماعه ببعض الناس وحديثه معهم ، ولوفى أمور لا تمس عثمان ، أمرا يثير ثائرة عثمان و يغضبه . يقول عثمان بعد موقف من هذه المواقف : « مالى ولكم يا ابن عباس ؟ ما أغْرَاكُم بى ، وأولعكم بتعقب أمرى ... لا والله لكنه الحسد والبغى وتثوير الشر .. » [17]

وكان الوشاة ينقلون إلى عثمان ـــ كذبا وزورا ـــ ما يملأ نفسه بالحفيظة على علىّ ، حتى أنه ليهرع إلى العباس ذات يوم ليقول له فى أسى « استعذرك من ابن أخيك على ، سبَّنى ، وشهَّر أمرى ، وقطع رحمى ، وطعَن فى دينى ، وإنى أعوذُ بالله منكم يابنى عبدالمطلب .. » [18]

---

(١٦) انظر خطب عثمان ٤ .

(١٧) انظر السابق .

(١٨) حوار عثمان ٦ .

و بلغ الغضب بعثمان الكريم السمح مبلغا جعله ينهال على عليّ بقضيب فى يده ، وعلى لايرد يده إلى أن قضى عثمان حاجته (١٩).

وأحيانا كانت حفيظة عثمان تسكن ، وتخف حدة التوتر ، ولكن العوامل الشاحنة كانت لها الغلبة فى أغلب الأحوال . وكان عليّ يحس بأن خط الرجعة ضعيف واه ، بل هو مقطوع . يقول على لابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ « فوالله لوظهرتْ له قلوبنا ، و بدت له سرائرنا ، حتى رآها بعينه ، كما يسمع الخبر عنه بأذنه ، مازال متجرما منتقما . . » (٢٠) .

ثم كان على فى موقف لايحسد عليه بعد زحف المتمردين على المدينة وحصارهم لعثمان فى بيته . فأزمة الثقة جعلت عثمان يغلق أذنه وقلبه عن عليّ ، وإن استنجد به مرات عديدة ، والأحداث تمضى هرولة ، وتزدادُ الحال سوءا ، وعلى يبذل أقصى مايمكن بذله حتى يمنعَ عثمان و يتقى شر هؤلاء الناس ، ولكنه لم يكن محمودا على أية حال ، فلا هو محمود إن قعد فى بيته ، ولا هو محمود إن سعى وتكلم (٢١)

ولكن الأحداث ــ كما قلت ــ كانت أقوى من الجميع ، والقوى الخفية التى كانت تدفع هذه الأحداث كانت أقوى وأضرى بكثير من القوى الظاهرة .

• • •

ومهما اختلف المؤرخون فى « توزيع » الأدوار التى قام بها كل فرد فى خلق النكبة العثمانية ، فإنهم لايكادون يختلفون فى أن أهم من تولى كِبْرها اثنان :

الأول : هو الأشتر النخعي : مالك بن الحارث بن عبد يغوث .

والثاني : هو مروان بن الحكم .

والرجلان يكادان يقفان على طرفى نقيض لافى المعسكر الذى انضوى كل منهما تحت لوائه ، ولكن فى ملامح النفس وطبيعتها .

---

(١٩) حوار عثمان ٧ .

(٢٠) حوار عثمان ٨ .

(٢١) انظر حوار عثمان ١٥ .

كان الأشتر شجاعا رئيسا فى قومه ، ومجاهدا له ماضيه الباهر و بطولا ته الفائقة فى اليرموك ، وقد ذهبت عينه فيها ، وكان كريما عالما فصيحا (٢٢) .

وعاش الرجل فى الكوفة يجهر بمايراه من نقد للولاة وسياسة الدولة ، فشكاه لعثمان واليها سعيد بن العاص . فنفاه عثمان وجماعة معه إلى الشام ، فشكاهم معاوية ، فردهم عثمان إلى الكوفة ، فشكاهم سعيد من جديد ، فنفاهم عثمان إلى حمص ، وكتب عثمان كتابا إلى الأشتر يقول فيه « إنكم لتُتم تألُون الإسلامَ وأهلَه شرًّا » (٢٣) .

ولم يكن الرجل شجاعا فحسب ، بل كان عملاقا ذاقوة جثمانية خارقة ، قال عبدالله بن الزبير: لاقيت الاشتر النخعى يوم الجمل ، فما ضربته ضربة حتى ضربنى ستا أوسبعا ، ثم أخذ برجلى فألقانى فى الخندق ، وقال : والله لولا قرابتك من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما اجتمع منك عضو إلى عضو أبدا . . » (٢٤) .

هذه الطاقة الخارقة — للأسف الأسيف — لم تستغل لصالح الإسلام فى عهد عثمان ، وربما لو ولّى هذا الرجل فى عهد عثمان ولاية أوقيادة جيش لاستغرق ذلك طاقته لصالح الإسلام والمسلمين . ولكن الرجل نُفى أكثر من مرة ، فانطلق كالنمر الجريح يسعى وراء ثأر لايقعد مثله عن مثله ، وانطلق الرجل لايلوى على شىء ، ولا يرضى بشىء دون دم عثمان . ولايستبعد أن يكون هو الذى اخترع الكتاب الذى قيل إن عثمان بعث به إلى واليه فى مصر يطلب فيه قتل محمد بن أبى بكر وآخرين .

وكان صوته فى المدينة وأيام الحصار هو أرفع الأصوات ، وكانت شخصيته هى أقوى الشخصيات التى لايخالف الثوار عن أمرها .

أرسل إليه عثمان وسأله : مايريد الناس منى ؟

قال الأشتر : واحدة من ثلاث ليس عنها بدٌّ .

قال عثمان : ماهى ؟

---

(٢٢) انظر الأعلام للزركلى ٥/ ٢٥٩ والقاموس الإسلامى ١/ ١١٤ والوفيات ٧/ ١٩٥ .

(٢٣) كتب عثمان ٧ .

(٢٤) الوفيات السابق : نفس الصفحة .

قال الأشتر: يخيرونك بين أن تخلع لهم أمرهم ، فتقول : هذا أمركم فقلدوه مَنْ شئتم ، وإما أن تقتص من نفسك ، فإن أبيت فالقوم قاتلوك » (٢٥) .

• • •

أما الثانى فهو مروان بن الحكم : مغامر مندفع ، فيه خشونة وفظاظة وخفة وطيش وشجاعة تصل إلى حد التهور الذى لايبالى بالنتائج ، منهوم بالسلطان حريص عليه ، ذاته هى محور تفكيره ، وجموده وقصر نظره أمران ملحوظان فى كل أفعاله وأقواله .

وكل هذه السمات جعلته ينجح نجاحا باهرا فى أمرين : هما :

١ ــ تحصنه ضدّ حب الناس ، وشحنه قلوبهم بكراهيته

٢ ــ غشه لعثمان ، وخلْقه ستارا صفيقا من الشك بين عثمان والرعية .

لقد كان خشنا فظا مع الناس ، يعاملهم باحتقار واستعلاء ، مظهرا أنه فى كل ذلك يصدر عن حبه لعثمان ، وحرصه عليه ، وكل ذلك زاد الأمور توترا ، وزاد الناس نقمة .

خطب عثمان الناس ذات يوم فقاطعه مروان مهددا متوعدا صارخا فى الناس « إن شئتم حكمنا والله مابيننا و بينكم بالسيف » (٢٦) .

والغريب أنه يلوح بمثل هذا التهديد لعلى ، فى حضرة عثمان : « أما والله : لايرام ماوراءنا ، حتى تتواصل سيوفنا ، وتقطع أرحامنا » (٢٧) .

وحينا اجتمع الناس إلى عثمان فى داره يسألونه الحسنى وكثير منهم غاضب ناقم . فى هذا الوقت الذى يحتاج إلى الذكاء و براعة المناورة وحسن التصرف ، يركب مروان رأسه ، و يلوح بسيفه للناس مهددا متوعدا « ماشأنكم ؟! قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب؟ شاهت الوجوه. ألامَنْ أريد؟ جئتم تريدون أن تنزعوا

---

(٢٥) حوار عثمان ١٢ .

(٢٦) خطب عثمان ٥ .

(٢٧) حوار عثمان ٩ .

ملكنا من أيدينا ! ! ؟ ؟ اخرجوا عنا ... ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما فى أيدينا » (٢٨) .

فالمسألة من وجهة نظره مسألة ملك لاخلافة ، وسلطان يُعَضُّ عليه بالنواجذ ، وكل من طلب حقا أورفع صوته بكلمه فهو مزاحم على الملك ، باغ يسعى إلى نزع السلطان .

ثم كانت نصائحه لعثمان أسوأ النصائح ، وألعنها ، وأقدرها على جرّ الخراب ، فبعد خطبة التوبة التى ألقاها عثمان فى الناس ، و بعد أن بدأت خيوط الرضا تتسلل إلى قلوبهم يعز على مروان أن يمضى الأمر هكذا فى هدوء دون أن يستخدم حقه فى التحدى الأحمق والاستعلاء المشين ، فيقول لعثمان « بأبى أنت وأمى ، والله لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع ، فكنت أول من رضى بها ، وأعان عليها ، ولكنك قلت ماقلت ، وقد بلغ الحزامُ الطُّبْيَيْن ، وخلّف السيلُ الزبى ، وحين أعطى الخطةَ الذليلةَ الذليلُ ، والله لإقامة على خطيئة يُستغفرُ منها أجملُ من توبةٍ يخوَّفُ عليها ، وأنت إن شئت تقرَّبْت بالتوبة ولم تقر بالخطيئة » (٢٩) .

وهو منطق أقل مايقال عنه أنه يتعارض مع الإسلام ، و يصطدم بأبسط قواعده ، فالمسلم لا تأخذه العزة بالإثم ، والاعتراف بالحق فضيلة ، والإقرار بالخطأ والإقلاع عنه من خصال الإيمان والنفس السوية .

و بلغت به الحماقة وسوء الأدب أن يسب نائلة بنت الفرافصة زوج عثمان فى حضرة عثمان نفسه (٣٠) .

• • •

(٢٨) حوار عثمان ١٦ .

(٢٩) حوار عثمان ١٦ .

(٣٠) انظر حوار عثمان ١٥ .

ومن خلال الحوار والأدب الذى عرضناه تبرز ثلاث شخصيات عاشت تخلص الود والنصح لعثمان إلى أن لقى ربه شهيدا وهم :

١ ــ على بن أبى طالب .

٢ ــ عبد الله بن عباس .

٣ ــ نائلة بنت الفرافصة

ونائلة هى زوج عثمان كما ذكرنا ، تزوجها وهو فى شيخوخة العمر ، وعلى الرغم من فارق السن فقد عاشت معه سنوات المحنة تحبه ، وتحرص عليه ، وتمحضه النصح الخالص .

دخل علىّ على عثمان فى بوادر محنته وقال له :

« أما رضِيتَ من مروان ، ولا رضى منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقْلك ، مثل جمل الظعينة يقادُ حيث يسارُبه ؟ والله ما مروان بذى رأى فى دينه ولا نفسه ، وايم الله إنى لأراه يوردُك ، ولا يصدُرك ، وما أنا عائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك ، أذهبْتَ شرفك ، وغُلبتَ على رأيك »

فلما خرج علىٌّ دخلت عليه امرأته نائلة بنت الفرافصة فقالت : « قد سمعت قول على ، وليس يعاودك ، وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء ..

قال فما أصنع ؟

قالت : تتقى الله وتتبع سنةَ صاحبيك ، فإنك متى أطعت مروان قتلك ، ومروان ليس له عند الناس قدرٌ ولا هيبةٌ ولا محبة ، وإنما تركك الناس لمكانه ، فأرسلْ إلى علىّ فاستصلحه ، فإن له قرابة ، وهو لا يُعْصَى .. » (٣١) .

ورأت مصرع زوجها أمام عينيها ، وأرادت أن تفديه بنفسها ، فألقت بجسدها عليه تحميه ، فقطعت سيوف الغادرين أصابع يدها ، و بعدها خرجت تستغيث ، وخرجت إلى المسجد ، وخطبت الناس ، ثم أرسلت إلى معاوية فى الشام تحكى له ، ما حدث ، و يقال إنها أرسلت إليه قميص عثمان مضرجا بالدم ، و بعض أصابعها

---

(٣١) حوار عثمان ١٥

التى قطعت . وحاول معاوية أن يخطبها لنفسه بعد الفتنة فأبت ، وخلعت أسنانها : وقالت إنى رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب ، وأخاف أن يبلى حزنى على عثمان ، فيطلع منى رجل على ما اطلع عليه عثمان . [٣٢] .

• • •

وكان عبد الله بن عباس ــ بعلمه وتقواه وصلاحه ــ هو حمامةُ السلام ووسيطُ الخير بين على وعثمان ــ رضى الله عنهما ــ لقد كان هو مفْزَع عثمان حينما تتوتر الأمور وتتعقد المسائل ، فكان هو الساعى بين عثمان وعلى بالخير . وبخلق المسلم العظيم نراه فيما نقرأ من نصوص ــ لايدخر وسعا فى سبيل تقديم النصح لعثمان ، ومحاولة التغلب على العاصفة ، ولكن الأحداث ــ كما قلت ــ كانت فى تتابعها أقوى من الجميع ، فتغلبت عوامل التفريق والتخريب على عوامل التجميع والبقاء .

• • •

ولنعد إلى قطبى الفتنة اللذين يرجع إليهما الفضل فى تسعيرها : الأشتر النخعى ، ومروان بن الحكم . كلمة التاريخ فيهما تؤيد ما استخلصناه من ملامح الرجلين ، وما ذهبنا إليه من أن العهد العثمانى لوأفاد من الأشتر ، ومن مواهبه فى القتال والتصدى لتغير مجرى التاريخ فى كثير أوفى بعض من ملامحه ، أوــ على الأقل ــ ماتردت الأحوال إلى ترَدّت إليه . لقد كان رجلا لايعرف حد الوسط فى عواطفه ومنازعه ، نقمة وكراهية ، أوحبا واعتزازا ، كره عثمان ورجاله من الولاة والعمال ، وأسرف فى كراهيته ، وواصل سيره إلى ثأره ، وحقق ما أراد ، ثم كان الذراع اليمنى لعلى بعد مصرع عثمان ، ووقف بجانبه فى إخلاص وقوة وشجاعة .

مافات عثمان إذن لم يفتْ عليا ، فشغل هذه الطاقة الضخمة بمهمات الأمور وأخطرها : كان الأشتر على رأس من بايع عليا ، وكان وراء انتصار على وأصحابه يوم الجمل ، وكاد يحقق النصر النهائى فى صفين وهو على ميمنة جيش على .

---

(٣٢) انظر الأغانى ١٧ ــ ٦١٥٠ ــ ٦١٥٦ . وأعلام الزركلى ٧/٣٤٣ وانظر كذلك حوار عثمان ١٦ .

ورفع أصحاب معاوية المصاحف ، وقالوا : نحتكم إلى كتاب الله ، واستجاب أصحاب على للنداء على الرغم من معارضته لوقف القتال ؛ لأن معاوية وأصحابه على حد قول على « ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن » ولكنهم أصروا على وقف القتال . فى هذا الوقت كان الأشتر قاب قوسين أوأدنى من النصر الحاسم ، وعزّ على الرجل أن يفلت منه نصر بدأ يلمسه بأطراف أصابعه .

وأصرّ أهل العراق على أن يوقف الأشتر القتال ، وقال الرجل « أمهلونى فُواقاً فإنى أحسست بالفتح » قالوا : لا . قال « فأمهلونى عَدْو فرس فإنى قد طمعت فى النصر » قالوا « إذن ندخل معك فى خطيئتك » (٣٣) .

وأوقف الأشتر القتال ، ولو أمهلوه ساعة أوبعض ساعة لحقق النصر الكبير .

وفى القلزم مات الرجل مسموما قبل أن يدخل الفسطاط أميرا على مصر سنة ٣٧ هـ ، وحزن عليه علىّ حزنا شديدا وقال « رحم الله مالكا فقد كان لى كما كنت لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ » (٣٤) .

● ● ●

ولا كذلك مروان بن الحكم ، فلم يكن على خط واحد واضح شأن الأشتر ، وليس له من حصائل النصر مايرفع اسمه فى التاريخ ، بل كان صوته أعلى من حقيقته ، وأصرخَ من واقعه : فى يوم الدار بارز رجلا من بنى ليث يدعى البياع ، فضربه مروان ، وضرب هو مروان على رقبته فأثبته ، وسقط مضرجا بدمه ، وكاد الناس يجهزون عليه لولا فاطمة أم إبراهيم بن عدى (٣٥) .

وحارب عليا فى وقعة الجمل ، فانهزم ومن معه هزيمة نكراء . وفى صفين قاتل مع معاوية ، ثم ترك معاوية وبايع عليا ، ثم استرضى معاوية بعد مقتل على ، فولاه المدينة (٤٢ ــ ٤٩ هـ) ، ولكن عبدالله بن الزبير طرده منها ، وخرج إلى الشام ، ثم عاد إلى المدينة ، وحدثت فيها فتن كان من أنصارها ..

---

(٣٣) انظر حوار على ٨ .

(٣٤) انظر الزركلى : الأعلام ٥/ ٢٥٩ . ودائرة المعارف الإسلامية ٣/ ٤١٠ ــ ٤١٤ .

(٣٥) انظر حوار على ١٦ .

سجلّ حياة خطه البيانى متعرج ، فيه حدة ومغامرة ومقامرة ، ولكن ليس فيه موقف واحد يدعو إلى الإعجاب . بل على العكس : كانت كل مواقفه جناية على الغير والنفس ، وستبقى جنايته الكبرى هى ماجره على عثمان ــ رضى الله عنه ــ بتصرفاته الحادة الغالطة التى ستبقى على مدار التاريخ ــ خطيئة كبرى أدت إلى استشهاد الرجل السمح الطيب ذى النورين عثمان بن عفان .. يرحمه الله .

• • •

لقد نطق أدب الخلفاء الراشدين بالكثير، وألقى أضواء قوية جدا أبانت عن طبيعة الأحداث والمواقف ، وطبيعة الشخصيات والعلاقات الاجتماعية والسياسية ، فى السلم والاستقرار، فى الحرب والمحن والغمرات ، وهذه القدرة الكاشفة فى هذا الأدب تحتاج لبحث طويل مستقل ، ولعل ماقدمناه ــ وهو قُلٌّ قِيلَ من كُثْر يمكن أن يقال : ــ يعطينا تصورا عن طبيعة هذه القدرة الكاشفة ومداها وأبعادها .

الفصل السابع

الزائف والموضوع

هذا العطاء الضخم من أدب الخلفاء الراشدين : خطبا وكتبا ومواعظ وحكما ، وحوارا وجدلا لم يسلم من موضوع مدخول نُحل على بعض الخلفاء ظلما وعدوانا ، وهم منه براء(١)

ولعل أطير هذه المنحولات الموضوعات رسالة أبى بكر وعمر إلى علىّ عن طريق أبى عبيدة ، وما دار بين الأربعة من حوار فى شأن الخلافة . والرسالة طويلة جدا ، زعم أبوحيان التوحيدى (٣١٢ــ ٣٦٠هـ) أنه سمعها من القاضى أبى حامد المروروزى رواية عن عيسى بن دأب عن صالح بن كيسان عن هشام بن عروة ، عن أبيه عروة بن الزبير ، عن أبى عبيدة بن الجراح .

وقد أورد النويرى الرسالة فى كتابه « نهاية الأرب » ولم يقطع فى صحة نسبتها برأى ، فكان على الحياد ، لم يُبْد تصديقا ولا تكذيبا لها ، وأوكل السرّ فى حقيقتها إلى الله تعالى(٢) .

و يكاد الإجماع ــ فى القديم والحديث ــ ينعقد على أن الرسالة موضوعة . فمن أنكرها : ابن أبى الحديد فى « شرح نهج البلاغة » ، والذهبى فى « ميزان الاعتدال » وابن حجر فى « لسان الميزان » . ومن المحدثين زكى مبارك وأحمد الحوفى والسندو بى

---

(١) المدخول على أبى بكر وعمر يكاد ينحصر فى الرسالة الموجهة إلى على عن طريق أبى عبيدة . وكذلك يكاد المدسوس على عثمان ينحصر فى الرسالة الموجهة إلى عامله فى مصر . بينما نجد أن المنحول على علىّ أكثر بكثير مما مثلنا به ، بل إن هناك من ينكر تماما نسبة كتاب « نهج البلاغة » إلى على ــ رضى الله عنه ــ .

(٢) نهاية الأرب ٧/٢١٣ .

الذى يرى أن أسلوبها الكتابى ، ومنهجها الخطابى ، ومازخرت به من المذاهب البلاغية وأنواع المجازات ، وصنوف الاستعارات البديعية .. لايتفق مع المعروف من رسائلهم وخطبهم ، وليست فى إجمالها وتفصيلها من جنس كلامهم . ومما رَابَهُ فى صحة نسبتها إليهم تلك العبارات الواردة فيها ، والتى لا تتناسب مع آدابهم العالية ، وأخلاقهم السامية ، ومع ماهو مشهور عنهم ، ومشهود به لهم من حسن الصحبة ، وجميل المؤاخاة ، وخالص الود فيما بينهم فى السراء والضراء(٣) .

والغريب أن الدكتور زكى مبارك يلتقى مع السندو بى فى إنكار نسبة هذه الرسالة إلى أبى بكر وعمر ، ولكنه يحاول أن يثبت اختراعها بدليل مناقض لدليل السندو بى ، فإذا كان السندو بى يرى أن أسلوب الرسالة يختلف تماما عن أسلوب الصحابة ، يرى زكى مبارك أن التوحيدى اخترع حديث السقيفة ، وأنطق الصحابة بكلام مسجوع ؛ لأنه كان يعرف لغتهم كذلك ، ومن دقة محاكاته أنه حرص على التسامح فى التزام السجع فى بعض الفقرات ؛ ليوافق المنهج الذى عرف فى نظم القرآن والحديث وخطب الصحابة والخلفاء الراشدين(٤) .

فاختلاف أسلوب الرسالة عن أسلوب الصحابة دليل على وضعها كما يرى السندو بى .

وتوافق أسلوب الرسالة وأسلوب الصحابة بعد تز ييفه تز ييفا متقنا دليل على وضعها كما يرى زكى مبارك .

• • •

ولعل أكثر المحدثين حماسة وإيمانا بوضع الرسالة وما ارتبط بها من حوار: المرحوم أحمد الحوفى ، وهو يرى أن واضعها واحد من اثنين : أبوحامد المرورزى ، أوأبوحيان التوحيدى ، واستدل على وضعها بأدلة مفصلة نوجزها فيما يلى :

---

(٣) حسن السندو بى فى تعليقه على الرسالة فى كتاب « المقابسات » لأبى حيان التوحيدى ص٤٠ .

(٤) انظر: مبارك : النثر الفنى ٦٣/١ .

١ ــ فى الرسالة عقيدة شيعية غالية لم تكن قد نشأت ، ولا عُرفت حينما بويع أبوبكر بالخلافة ، ففيها تصريح بأن عليا ينتظر الوحى ، و يتوقع أن يهبط عليه جبريل .

٢ ــ وفيها تهجم على الإمام على وتجريح ، ولم يكن أبوبكر أوعمر ليطلق لسانه بمثل هذا ، ولم يكن على ليطيق أن يسمع مثله .

٣ ــ فى أول الرسالة كلام من أبى بكر لأبى عبيدة ينبىء عن قلق المرسل على رسوله ، وخديعته بالثناء ، وتعليق النجاح كله بوساطته ومهارته .

ولم يكن الأمر كذلك ، لأن أبا عبيدة ــ فيما تزعم الرواية ــ كان رسولا مقيدا بتبليغ رسالة إلى على من أبى بكر وعمر ، ولم يكن رسولا طلقا حرّا ، يعتمد على مهارته فى إصلاح ذات البين .

٤ ــ وليس بمعقول أن يرويها هؤلاء فردا عن فرد ، ثم تظل الرسالة مجهولة نحو أربعة قرون ، لم يعلم بها أحد ، إلى أن بلغت أبا حامد المرورزى ، فرواها للوزير المهلبى ، ثم رواها لجلسائه .

ولو أن أبا حامد كان معاصرا لأبى عبيدة لجاز أن يعلم بالرسالة وحده ، ولكن بينه و بين أبى عبيدة أربعة رواة ، فكيف توافق كل منهم على أن يرويها لشخص واحد لايتعداه ؟ وكيف بقيت الرسالة فى طوايا الزمن هذا العمر الطويل ، وهى مجهولة غير متعالمة ؟ مع أن المؤرخين قد دونوا كل مادار بين المهاجرين والأنصار يوم السقيفة ، وفصلوا القول تفصيلا بين أبى بكر وعلى .

٥ ــ أسلوب الرسالة يغاير تمام المغايرة أسلوب الزمن الذى قيلت فيه : فهى كثيرة الأسجاع فى جمل قصار متوازنة ، ولقد يتوالى سجعها و يطرد ، وهى إلى هذا متخمة بألفاظ يبدو فيها التكلف وتعمد الإغراب .

وإذا لاحظنا أنها رسالة شفهية لامكتوبة ، ثم لاحظنا أن السجع القصير الفقرات المتوازن كان كثيرا ازددنا شكا فى أسلوبها ، ورجحنا أنها من إنشاء القرن الرابع .

٦ ــ فى الرسالة تفرقة بين بعض المفردات المترادفة على غير أساس لغوى كتفريق عمر بين القربة والقرابة ، فالقربة روح ونفس ، والقرابة دم ولحم ، مع أن الكلمتين بمعنى واحد .

٧ — فى أسلوب الرسالة خيال كثير ليس من سمات النثر فى ذلك العصر (٥)

ونستطيع أن تضيف إلى ماذكره الدكتور الحوفى من أدلة على اختراع هذه الرسالة مايأتى :

١ — يمنّ أبو بكر على علىّ بن أبى طالب بأنه كان وراء رضاء الرسول — صلى الله عليه وسلم — به بعْلا لابنته فاطمة ، وأنه لولاه لرفض الرسول عليا وذلك — على ماينسبه أبوبكر للرسول « لميعة شبابه ، وحداثة سنه » ، وهذا لايعقل لأن الرسول — صلى الله عليه وسلم — حث الشباب على الزواج فى سنّ مبكرة ، فقد روى عنه أن قال « يامعشر الشباب : من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

٢ — وفى الرسالة مايقطع بأنها أنشئت فى وقت متأخر ، يدل على ذلك ماقيل على لسان عمر مخاطبا عليا « لسنا فى كسرو ية كسرى ، ولا فى قيصر ية قيصر ، تأمل لإخوان فارس ، وأبناء الأصفر ، قد جعلهم الله جزرا (قطعا) لسيوفنا . ودر يئة (هدفا) لرماحنا ، ومرمى لطعاننا ، وتبعا لسلطاننا . . » .

وذلك لم يحدث فى عهد النبى — عليه السلام — بل إن كل ذلك لم يتحقق فى عهد أبى بكر ، إنما كان ذلك فى عهد عمر ، بعد انكسار الفرس فى القادسية ، وانكسار الروم فى اليرموك .

٣ — ومثل هذا الكلام لايقال : إلا لمن يُرْمِضُه و يمُضه . وكأن عليا عدو من أعداء الإسلام يغيظه أن ينتصر المسلمون على الفرس والروم .

٤ — يفخر أبو بكر على علىّ بأنهم عاشوا يفدون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « بالأب والأم والخال والعم والمال والنشب . . » .

وكأنه لايعلم أن عليا هو الذى عرض نفسه للموت بالنوم مكان الرسول ليلة الهجرة ، وأن بطولا ته فى بدر وأحد وخيبر وغيرها فاقت كل البطولات .

٥ — وفى الرسالة غير قليل من الاضطرابات والتناقضات الفكر ية والموضوعية :

---

(٥) انظر الحوفى : أبوحيان التوحيدى من ص٢١٢ إلى ص٢١٩ .

فأبو بكر يطلب من أبى عبيدة أن يوقّر عليا ويجلّه ، فيقول له : « .. امض إلى على ، واخفض جناحك له ، وغُض من صوتك عنده ، واعلم أنه سلالة أبى طالب ، ومكانه ممن فقدناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم — مكانُه .. » .

وأكثر من ذلك نرى أبا بكر يقر لعلى فى الرسالة بأنه كان أحق منه بالخلافة ، يقول له : « ... ولو كنتَ حاضراً لبايعتك ، ولم أعدلْ بك .. » .

وذلك يتناقض مع ما وصف به أبوبكر عليا — فى الرسالة نفسها — وإظهاره بمظهر المتآمر الحقود ، و يسأله « أدين غير دين الله ؟ أخلق غير خلق القرآن ؟ أهدى غير هدى محمد ؟ » .

و يصفه بأنه « جارٍ على أخلاق الصبيان ، وسجايا الفتيان » و يصوره بصورة الحريص على الشر والفتنة ، وفى نهاية حديثه يطلب منه أن يترك « ناجم الشر حصيدا ، وطائر الحقد واقعا ، و باب الفتنة مغلقا ... »

وأسلوب الخلفاء الراشدين ، وأخلاق أصحاب محمد تجلّ عن مثل هذه التناقضات فى خصائص الفكر ، وخصائص النفس والخلق .

● ● ●

أما الكتاب المنسوب إلى عثمان فأمره أعجب ، والأدلة على وضعه ونحله كثيرة :

١ — فالكتاب على قصره ورد فى كتب التاريخ بعدة روايات أهمها ثلاث :

الأولى : تذكر أن عثمان يطلب من عامله على مصر فى الرسالة أن يجلد من ذكرهم ، ويحلق رءوسهم (٦) .

الثانية : نصها « إذا أتاك محمد بن أبى بكر الصديق وفلان وفلان فاقتلهم ، وأبطل كتابهم ، وقرّ على عملك حتى يأتيك رأيى .

الرواية الثالثة : تذهب إلى أن عثمان يأمر عامله بقتل هؤلاء الثوار وقطعهم وصلبهم (٧)

---

(٦) انظر التذييل ٢ . والطبرى ٤/٣٧٣ .

(٧) انظر ابن العربى : العواصم من القواصم ١٢٧ .

ولاشك أن تعدد الروايات بالنسبة لكتاب من سطرين أوثلاثة تؤكد شكنا فيه بل رفضنا له .

٢ ــ واعجب مثلى لأمر الغلام الذى قيل إنه كان يحمل كتاب عثمان إلى عامله عبدالله بن أبى السرح ، فقد قيل إنه « غلام إبل الصدقة » ، وإبل الصدقة ــ كما يقول المرحوم محب الدين الخطيب(٨) ــ ألوف كثيرة لها مئات من الرعاة ، وإن صح أنه من رعاة إبل الصدقة ، فهؤلاء لكثرتهم وتبدلهم دائما بغيرهم لايكاد يعرفهم رؤساؤهم ، فضلا عن أن يعرفهم أمير المؤمنين ، وكبار عماله وأعوانه ، ومع افتراض أنه من راعاة إبل الصدقة فما أيسر أن يستأجره هؤلاء البغاة لغرض من أغراضهم .

وقد ثبت أن الأشتر وحكيم بن جبلة قد تخلفا فى المدينة عند رحيل الثوار عنها مظهرين اقتناعهم بأجوبة عثمان وحججه .

و ينتهى محب الدين الخطيب إلى أنه فى مدة تخلف الأشتر وحكيم بن جبلة بالمدينة تم تدبير الكتاب وحامله للتذرع بهما فى تجديد الفتنة ورد الثوار(٩) .

٣ــ ولم يكن هذا أول كتاب أوآخر كتاب يزور فى عهد عثمان ، فقد أصبح تزوير الكتب وسيلة من وسائل السبئية وأعداء عثمان لخلعه وإحداث الفتنة .

وممن كان له أثر شديد فى وضع الكتب على ألسنة أمهات المؤمنين محمد بن حذيفة ، وكان يتيما فى حجر عثمان بن عفان ، فلما شب سأل عثمان أن يوليه ، ولكن عثمان رفض ؛ لأنه غير جدير بالولاية ، فطلب منه الخروج ليطلب مايقوته ، فقال له : اذهب حيث شئت ، وجهزه من عنده ، وحمله وأعطاه ، فلما وقع فى مصر تغير عليه ، ودعا إلى خلع عثمان ــ رضى الله عنه ــ وأسعر البلاد ، وحرّض على عثمان بكل شىء يقدر عليه ، فكان يكتب الكتب على لسان أزواج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ و يأخذ الرواحل فيضمرها ، ويجعل رجالا على ظهور البيوت ، ووجوههم إلى وجه الشمس ، لتلوح وجوههم تلويح المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر ، ثم يرسلوا رسلا يخبرون بهم الناس ليلقوهم ، وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا : ليس عندنا خبر ، الخبر فى الكتب . فيجىء رسول أولئك الذين دس ، فيذكر

---

(٨) فى تعليقاته على الكتاب السابق ص ١٠٩ .

(٩) السابق نفس الصفحة .

مكانهم ، فيتلقاهم ابن أبى حذيفة ، والناس يقولون : نتلقى رسل أزواج رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ، فإذا لقوهم قالوا لهم : ما الخبر؟ قالوا : لا خبر عندنا عليكم بالمسجد ليقرأ عليكم كتاب أزواج النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فيجتمع الناس فى المسجد اجتماعا ليس فيه تقصير . ثم يقوم القارىء بالكتاب فيقول : إنا نشكو إلى الله وإليكم ماعمل فى الإسلام ، وما صنع فى الإسلام . فيقوم أولئك الشيوخ من نواحى المسجد بالبكاء ، ثم ينزل عن المنبر ، و يتفرق الناس بما قرىء عليهم (١٠)

٤ ـــ وتزو ير الكتب على ألسنة الخلفاء والأئمة والنقش على أختامهم لم يكن شيئا مجهولا فى التاريخ ، ولا هو مما انفرد به أعداء عثمان فى خلافته ، فقد زوروا هم وغيرهم على أمهات المؤمنين عامة ، وعلى عائشة منهن خاصة ، وزوروا على عمر بن الخطاب ، ونقشوا على خاتمه ، واختلسوا به مالا من بيت مال المسلمين .

و يروى أن مروان بن الحكم قال لعائشة ـــ رضى الله عنها ـــ : هذا عملك ، كتبت إلى الناس تأمر ينهم بالخروج على عثمان ؟ ! ! فقالت : والذى آمن به المؤمنون ، وكفر به الكافرون ، ما كتبت إليهم بسواد فى بياض حتى جلست فى مجلسى هذا (١١)

٥ ـــ والمعروف أن رجال الفتنة بعد أن عاهدهم عثمان على الحق والعدل وحسن السيرة بدءوا ينصرفون إلى بلادهم التى جاءوا منها ، والمعروف أنهم ساروا إلى بلادهم من طرق مختلفة : إلى مصر ، وإلى الكوفة وإلى البصرة . . و بعد أن قطعوا مراحل ذات عدد ، عاد المصر يون بحجة هذا الكتاب المزعوم ، وعاد أهل الكوفة وأهل البصرة كذلك .

وقد كشف سر المؤامرة على بن أبى طالب ، فسأل أهل مصر : ماردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟ قالوا : أخذنا مع بر يد كتابا بقتلنا . وأتاهم طلحة ، فقال البصر يون مثل ذلك ، وأتاهم الز بير فقال الكوفيون مثل ذلك ، وقال الكوفيون والبصر يون : نحن ننصر إخواننا ، ونمنعهم جميعا . كأنما كانوا على ميعاد .

فقال لهم علىّ : كيف علمتم يا أهل الكوفة ، و يا أهل البصرة بما لقى أهل مصر ، وقد سرتم مراحل ، ثم طو يتم نحونا ؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة ! !

(١٠) صادق عرجون : عثمان بن عفان ١٣٢ .

(١١) السابق ١٣١ .

قالوا : فضعوه كيف شئتم ، لاحاجة لنا فى هذا الرجل ، ليعتزلْنا (١٢)

٦ ـ وهناك معيار مهم جدا يجب أن يكون موضع اعتبارنا ، وهو خلق عثمان ذى النورين ، فالرجل لم يكن من طبيعته الغدر أو الكذب ، والرجل كان مسالما يكره سفك الدماء . حتى أن رجال الفتنة لما حرقوا أبواب داره ، وهمَّ أصحابهُ بالقتال والدفاع عنه ، قال « لايحرّكنَّ رجلٌ منكم يده ، فوالله لوكنتُ أقصاكم لتخطّوكم حتى يقتلونى ، ولوكنتُ أدناكم ، ماجاوَزُونى إلى غيرى ، وإنى لصابرٌ كما عَهد إلىّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصرعَنَّ مصرعى الذى كتبَ اللهُ ـ عزوجلّ ـ » (١٣) .

فمسألة الكتاب هذه ـ كما يقول صادق عرجون (١٤) لاتخرج عن احد فرضين لاثالث لهما : الفرض الأول ألايكون هناك بريد بكتاب قط ، وإنما هى أكذوبة افتروها لينفذوا بها إلى مايبتغون ، فافتعلوا ذلك الكتاب بالمدينة ، وتصايحوا به فى طرقاتها اعتمادا على اندفاع العامة نحو الإشاعات . وقد يعضد هذا الفرض قول على بن أبى طالب لما التقى بهم بعد رجوعهم : هذا أمر أبرم بالمدينة .

والفرض الثانى : أنه كان هناك كتاب مع بريد ، وفيه من العظائم مازعموه ، ولكن هذا الكتاب لم يكتبه أحد غير الثائرين ، فهم الذين ائتمروا ، فنقشوا على خاتم عثمان ، وهم الذين سرقوا جملا من إبل الصدقة ، وهم الذين أغروا غلاما لعثمان أو لمروان ، وهم الذين أبردوا بهذا الكتاب مع الغلام الأسود فى طريق محمد بن أبى بكر وأصحابه ، ليقطعوا عليه طريقه بوقوع الكتاب فى يده قبل أن يصل إلى مصر فيثور مع الثائرين .

• • •

ولنترك عثمان ـ رضى الله عنه ـ إلى على ـ كرم الله وجهه ـ لنلقى نظرة إلى الكتاب المنسوب إليه وهو « نهج البلاغة » والمعروف أنه الكتاب الذى جمع فيه الشريف الرضى (٣٥٩ ـ ٤٠٦) ماوصفه بأنه أبلغ ما أثر عن أمير المؤمنين على

(١٢) السابق ١٢٨ .

(١٣) الطبرى ٤/ ٣٨٠ .

(١٤) عثمان بن عفان ١٣٠ .

ـــ رضى الله عنه ـــ من خطب وكتب ورسائل وحكم ومواعظ ، وذهب بعضهم إلى أن الذى جمعه هو أخوه الشريف المرتضى (٣٥٥ ـــ ٤٣٦ هـ) ، ولكن الرأى الأول هو الأشهر والأرجح .

ولم يذكر الشريف الرضى من مصادره إلا النزر اليسير مثل البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الجمل للواقدى ، وكتاب « المقامات لأبى جعفر الإسكافى » ، وكتاب المغازى لسعيد بن يحيى الأموى ، وتاريخ الطبرى ، والمقتضب للمبرد .

ثم إنه قد يشير إلى الأعلام دون مؤلفاتهم ، فقد ذكر أنه نقل من خط « هشام بن الكلبى » كما ذكر فى أثناء كتابه « أباعبيد القاسم بن سلام » (١٥)

و يستوى فى نظرنا أن يكون الذى قام بجمع نهج البلاغة الشريف الرضى أوالشريف المرتضى ، فذلك لايمثل مشكلة بالنسبة لبحثنا ، فالنتيجة واحدة فى الحالين ، وهى أن جهد من قام بهذا العمل ينحصر فى جمعه وتصنيفه وتنظيم أبوابه .

ولكن المشكلة تطل برأسها حين نرى آراء متضاربة فى مدى صحة صدور هذا الأدب الغزير أوبعضه من الإمام على ، وقد شغلت هذه المشكلة النقدة والمؤرخين ومؤرخى الأدب ، ولم يقطع فيها برأى حاسم حتى الآن .

وقد عرض الحوفى ـــ رحمه الله ـــ الآراء المختلفة فى مدى صحة نسبة نهج البلاغة للإمام على ، وتكاد تنحصر فى ثلاثة آراء :

فالرأى الأول يرى أن النهج كله من كلام الإمام على ، فلا دخيل فيه ولا مزيد . ومن أصحاب هذا الرأى ابن أبى الحديد ، فقد دافع عن رأيه فى مواضع عدة من شرحه ، منها قوله : « ... وأنت إذا تأملت نهج البلاغة ، وجدته كله ماء واحدا ونفسا واحدا ، وأسلوبا واحدا كالجسم البسيط الذى ليس بعض من أبعاضه مخالفا لباقى الأبعاض فى الماهية ، وكالقرآن العزيز أوله كأوسطه ، وأوسطه كآخره ..

ولو كان بعض نهج البلاغة منحولا ، و بعضه صحيحا لم يكن ذلك كذلك .

وأما الرأى الثانى : فهو نقيض الأول ، إذينفى النهج كله عن الإمام ، و يذهب إلى أنه من نتاج الشريف الرضى أوأخيه الشريف المرتضى ، أوهومن عمل غيرهما ، ثم تولى الشريف الرضى تسجيله .

---

(١٥) انظر تقديم نهج البلاغة للبنا وعاشور ٥ ، ٧

ويمثل هذا الاتجاه اثنان من القدماء : أحدهما ابن خلكان والثانى الإمام الذهبى صاحب « ميزان الاعتدال فى نقد الرجال » .

وإن كان رأى ابن خلكان يميل إلى مايشبه التوقف فى الحكم محيلا علم ذلك إلى الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ .

أما الإمام الذهبى فكان أشد حسما وقطعا وتطرفا فهو يقول فى ترجمته للشريف المرتضى « انه المتكلم الرافضى المعتزلى ، صاحب التصانيف ، ونقيب العلوية المتوفى سنة ٤٣٦ هـ .

وهو المتهم بوضع نهج البلاغة ، وله مشاركة قوية فى العلوم . ومن طالع كتابه « نهج البلاغة » جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين ، ففيه السب الصراح لأبى بكر وعمر ـــ رضى الله عنهما ـــ ، وفيه التناقض والأشياء الركيكة ، والعبارات التى يجزم ببطلانها و ببطلان أكثر الكتاب من يعرف أخلاق القرشيين الصحابة ونفوس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين »

و يأتى بعد ذلك الرأى الوسط الذى يعتمد على التمحيص التفصيلى لكل مافى النهج نصًا ، فيقبل نسبة بعض مافيه إلى الإمام على ، و يرفض نسبة بعضه اعتمادا على أسباب فنية وموضوعية وأخلاقية .

ومن القدماء الذين يعتنقون هذا الرأى : أبوالعلاء المعرى . ومن المحدثين زكى مبارك وأحمد أمين ، ومحمد مهدى البصير . وعلى هذا الرأى الوسط الأخير أحمد الحوفى(١٦)

وقد أوردنا نصين(١٧) من النصوص التى أنكر نسبتها إلى الإمام على ، و يلتقى على إنكارها أصحاب الرأى الثانى ، وأصحاب الرأى الثالث ، أى أصحاب الرأى الذى يرفض نسبة نهج البلاغة إلى الإمام على ، و يرون أنه مدسوس عليه ، وأصحاب الرأى الذين يذهبون إلى أن المدسوس على الإمام على هو بعض ما فى النهج لا كلّه .

---

(١٦) انظر الحوفى : بلاغة الإمام على ٥٧ ـــ ١٢٩ .

(١٧) التذييل ٣ ، ٤ .

فأولى المنكرتين « الخطبة الشقشقية ؛ لأن فيها سبا مقذعا لأبى بكر وعمر وعثمان ، وليس من المعقول أن يصدر من الإمام على مثل هذا الإقذاع فى حق أصحابه ، وهو صاحب الدين المتين الراسخ ، والخلق العظيم ، وهو الأريحى السمح العف الوفى ذو الوفاء والنجدة والإيثار والتقوى .

وقد كان ــ كرم الله وجهه ــ أثيرا عند أبى بكر وعمر مدة خلافتهما ، كما كان مقربا إلى عثمان فى الفترة الأولى من خلافته ، وكان هو المستشار الأمين لهم جميعا ، و بخاصة عمر بن الخطاب .

وله أحاديث كثيرة تدل على اعتزازه بالخلفاء الثلاثة ،وتقديره لهم . ومن ذلك :

أ ــ قوله فى كتابه الذى كتبه مع قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى حين ولاه مصر ووجهه إليها : « ... ثم إن المسلمين استخلفوا ــ بعد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أميرين صالحين عملا بالكتاب والسنة ، وأحسنا السيرة ... » .

ب ــ و يفضّل مسلك عثمان فى مواجهة أعدائه على مسلكه هو ، فيقول « ... فقاتلنا نحن ، وصبر عثمان ، وذلك من عزم الأمور .. » (١٨) .

جـ ــ ووصف عمر بأنه مبارك فى قوله لما قتل الناس عثمان ، وطلبوا منه أن يبسط يده ليبايعوه .. « لا تعجلوا فإن عمر كان رجلا مباركا ، وقد أوصى بالشورى ، فأمهلوا يجتمع الناس و يتشاورون .. » .

وقد يؤيد هذا الحب وذاك الاعتزاز أنه كرم الله وجهه سمى ثلاثة من أبنائه بأسماء أبى بكر وعمر وعثمان ، وذلك من نسائه اللاتى تزوج بهن بعد السيدة فاطمة ــ رضى الله عنها ــ (١٩) .

كل أولئك يمثل أدلة وقرائن تقطع باستحالة صدور الخطبة الشقشقية عن الإمام على ، وخصوصا أنه لم يكن هناك داعية من مصلحة اجتماعية أوسياسية أودينية تدفعه إلى مثل هذا القول .

• • •

---

(١٨) انظر العقد الفريد ٤/٣٠٢ ، وحوار على رقم ١ .

(١٩) انظر الحوفى : بلاغة الإمام على ١٠٩ ــ ١١٤ .

ومن أشهر ماقيل فى الإمام على ــ رضى الله عنه ــ أنه أحبه قوم فكفروا فى حبه ، وأبغضه قوم فكفروا فى بغضه ، وكان الإفراط فى الحب ــ كالإفراط فى البغض ــ جناية على الإمام على ، بل جناية على الحقيقة نفسها ، والذين أحبوه ، وأعجبوا به ، وأفرطوا فى حبه والإعجاب به نسبوا إليه من القدرات الخارقة ماليس فى بشر ، ومن هؤلاء السبئية : أتباع عبدالله بن سبأ الذى قال لعلى ــ كرم الله وجهه ــ : أنت أنت . فنفاه إلى المدائن ... وهو أول من أظهر القول بالنص بإمامة على ــ رضى الله عنه ــ ومنه انشعبت أصناف الغلاة .

وزعم أن عليا حىّ لم يمت ، ففيه الجزء الإلهى ، ولا يجوز أن يُستولى عليه ، وهو الذى يجىء فى السحاب ، والرعد صوته ، والبرق تبسمه ، وأنه سينزل إلى الأرض بعد ذلك فيملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جورا (٢٠) .

هذا وإن كنا نرى أن عند السبئية باعثا خفيا أقوى من كل باعث ، وهو الحرص على إفساد العقيدة الإسلامية وتخريبها ، بعد أن أخفق اليهود إخفاقا ذريعا فى مواجهة الإسلام والمسلمين بالسيف .

و ينسب الغلاة كذلك لعلى ــ رضى الله عنه ــ القدرة الخارقة فى علم الغيب « فرووا له من المعجزات ، والعلم بالمغيبات الشىء الكثير ، وقالوا إنه كان يعلم كل شىء سيكون » (٢١) ورووا أنه أخبر بقتل الحسين ، وأخبر بكربلاء ، وأخبر بالحجاج ، وأخبر بالخوارج ومصيرهم ، و بنى أمية وملكهم ، وأخبر ببنى بو يه وأيام دولتهم ، وأخبر عبدالله بن عباس بانتقال الأمر إلى أولاده (٢٢) .

وقد نسبوا كذلك إلى على ــ كرم الله وجهه ــ كتابا فى « الجفر » يذكر فيه الحوادث التى تحدث إلى انقراض العالم (٢٣) ، و يقال إن الجفر تفسير روحى

---

(٢٠) الشهرستانى : الملل والنحل ١/١٧٤ .

(٢١) أحمد أمين : فجر الإسلام ٢٧٠ .

(٢٢) السابق : نفس الصفحة .

(٢٣) أصل معنى الجفر ــ كما جاء فى لسان العرب ــ أنه ولد الشاء إذا عظم واستكرش ، وقد تكون العلاقة بين المعنى الأصلى والإطلاق الاصطلاحى أن مثل هذا الكتاب يكتب على جلد الشاء أو العنز.

و باطنى للقرآن ينسب لعلى بن أبى طالب ، و يقال إن هذا التفسير انتقل من على إلى جعفر الصادق (ت ١٢٢ هـ) (٢٤) .

وأيا كان الخلاف فى تفسير علم الجفر فإن كل التفسيرات والتعريفات تلتقى فى خط رئيسى واحد ، وهو أنه علم لايعتمد على أساس موضوعى أوعقلى ، ولكن جوهره استطلاع الغيوب ، والإنباء بها ، والاعتماد على طاقات خافية غير معروفة للناس .

و يقول العقاد : وأما كتاب الجفر أوعلم الجفر فالقول الفصل فيه أقرب من القول الفصل فى جميع مانحلوه وأضافوا إليه ، فمثل على فى تقواه وفضله لايشتغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعينه ، وليس هو مما يليق بورعه ولا ذكائه ، وقد نهى ، وشدد النهى عن تعلم النجوم ، واستطلاع الغيب بأمثال هذه العلوم .. ومن المحقق أن النبوءات التى جاءت فى نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف ، وفتنة الزنج ، وغارات التتار ، ومـا إليها هى من مدخول الكلام عليه ، ومما أضافه النساخ إلى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أوطويل (٢٥) .

وقد حسم القرآن الكريم هذه القضية حسما قاطعا ببيان أن الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ هو المختص بعلم الغيب ، وذلك فى آيات متعددة منها :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (٢٦)

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (٢٧)

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ (٢٨)

---

(٢٤) دائرة المعارف الإسلامية ١٢/ ١٦٩ ، وانظر مقدمة ابن خلدون : الصفحات ٢٩٧ ومابعدها .

(٢٥) عبقرية الإمام ١٤٠ .

(٢٦) الأنعام ٥٩ .

(٢٧) النمل ٦٥ .

(٢٨) آل عمران ١٧٩ .

﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٢٩)

• • •

و بعد كل أولئك يتضح لنا أن على بن أبى طالب ــ كرم الله وجهه ــ برىء كل البراءة مما ينسب إليه من الخطب التى تتضمن التعبير عن قدرته فى علم الغيوب الخفية ، ومن أشهرها الخطبة التى سقناها فى تذييل النصوص (٣٠) والتى يقول فيها :

« .. فاسألونى قبل أن تفقدونى ، فو الذى نفسى بيده لا تسألونى عن شىء فيما بينكم و بين الساعة ، ولا عن فئة تهدى مائة ، وتضلّ مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ، ومُناخ ركابها ، ومحط رحالها ، ومن يُقتل من أهلها قتلا ، ومن يموت منهم موتا .. » .

و واضح أن هذا ليس من قبيل علم الغيب الكلى الذى يخبر عن رءوس الوقائع . وجواهر الأمور، ولكنه من علم الغيب التفصيلى الذى لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وذلك لا يكون إلا الله سبحانه وتعالى ، فهو وحده الذى

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ (٣١) .

والحمد لله رب العالمين

---

(٢٩) يونس ٢٠ .

(٣٠) التذييل ٤ .

(٣١) غافر ١٩ .

المـــراجــــع

(١) القرآن الكريم

(٢) صحيح البخارى : أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى . دار الشعب . القاهرة (د.ت)

(٣) صحيح مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى دار الشعب القاهرة ١٣٧٢هـ

(٤) أبو حيان التوحيدى د. أحمد الحوفى ط ٢ . مكتبة نهضة مصر . القاهرة

(٥) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالى دار الشعب . القاهرة (د.ت)

(٦) الأخبار الموفقيات : الزبير بن بكار: تحقيق د. سامى العانى . بغداد ١٩٧٢

(٧) أساس البلاغة : الزمخشرى : أبوالقاسم محمود بن عمر. دار الكتب . القاهرة ١٩٧٢

(٨) أسد الغابة فى معرفة الصحابة : عزالدين بن الأثير. دار الشعب . القاهرة (د.ت)

(٩) أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجانى دار المنار القاهرة ١٣٧٢هـ

(١٠) أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة : رفيق العظم مطبعة هندية بالموسكى بمصر ١٩٢١ ط ٤

(١١) الإصابة فى تمييز الصحابة : ابن حجر: أحمد بن على العسقلانى تحقيق طه محمد الزينى مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة ١٩٧٦

(١٢) إعجاز القرآن : أبو بكر الباقلانى . مصطفى البابى الحلبى . مصر ط ١ . ١٩٧٨

(١٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : مصطفى صادق الرافعى ط ٤ . مطبعة القاهرة ١٩٤٥

(١٤) الأعلام : خير الدين الزركلى دار العلم للملايين . بيروت ١٩٧٩

(١٥) الأغانى : الأصفهانى : أبو الفرج على بن الحسين تحقيق وشرح إبراهيم الإبيارى . دار الشعب . القاهرة

(١٦) الإمامة والسياسة : ابن قتيبة : أبو محمد عبدالله بن مسلم . الحلبى . القاهرة ١٩٦٣

(١٧) إمتاع الأسماع : المقريزى : تقى الدين : أحمد بن على . تحقيق الشيخ محمود شاكر مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤١

(١٨) البخلاء : الجاحظ : أبوعثمان عمرو بن بحر . دمشق ط ٢/١٩٦٣

(١٩) بلاغة الإمام على د . أحمد الحوفى . نهضة مصر . القاهرة ١٩٧٧

(٢٠) البيان والتبيين . الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر دار الكتب العلمية . بيروت

(٢١) تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية : كارلو نالينو دار المعارف . القاهرة ط٢/ ١٩٧٠

(٢٢) تاريخ الخلفاء : السيوطى : الحافظ جلال الدين . دار الفكر بيروت (د . ت)

(٢٣) تاريخ الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) : الطبرى : محمد بن جرير : تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم دارالمعارف . القاهرة د . ت

(٢٤) تجديد ذكرى أبى العلاء : طه حسين ط ٧ دار المعارف . القاهرة ١٩٦٨ .

(٢٥) تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى : أنيس المقدسى ط ٥ . دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٤ .

(٢٦) تلبيس إبليس : ابن الجوزى : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن : إدارة الطباعة المنيرية . القاهرة (د . ت)

(٢٧) جمهرة خطب العرب : أحمد زكى صفوت ط ٢ مصطفى الحلبى ١٩٦٢

(٢٨) جمهرة رسائل العرب : أحمد زكى صفوت ط ٢ مصطفى الحلبى . القاهرة ١٩٣٧

(٢٩) حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان فى الإسلام
[ندوات علمية] دار الكتاب اللبنانى . بيروت ١٩٧٣

(٣٠) الخراج : أبو يوسف : يعقوب بن إبراهيم . دار الاعتصام القاهرة ١٩٨١

(٣١) الخطابة العربية فى عصرها الذهبى : إحسان النص . دار المعارف القاهرة ١٩٦٣

(٣٢) الخلافة الراشدة والبطولة الخالدة فى حروب الردة : أربع مخطوطات مجتمعة من (الاكتفا فى مغازى المصطفى والثلاثة الخلفا) لأبى الربيع سليمان بن موسى الكلاعى الأندلسى : تحقيق د . أحمد غنيم ط ١ / ١٩٧٩

(٣٣) دائرة المعارف الإسلامية جماعة من المستشرقين . دار الشعب القاهرة (د . ت)

(٣٤) دراسات فى نقد الأدب العربى من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث د . بدوى طبانة . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ط ٢ / ١٩٥٤

(٣٥) دلائل الإعجاز فى علم المعانى : عبد القاهر الجرجانى دار المنار . القاهرة ١٣٧٢ هـ

(٣٦) ديوان الإمام على : منسوب للإمام على بن أبى طالب : جمع وترتيب : عبد العزيز الكرم المكتبه الشعبية . بيروت (د . ت)

(٣٧) ذو النورين عثمان بن عفان : عباس العقاد . دار الهلال . القاهرة ١٩٥٤

(٣٨) زهر الآداب وثمر الألباب : الحصرى القيروانى : أبو إسحق إبراهيم بن على . تحقيق وضبط د . زكى مبارك

(٣٩) سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون : ابن نباته المصرى : جمال الدين محمد بن محمد . مطبعة صبيح ط ١ (د . ت)

(٤٠) سيرة عمر بن الخطاب : ابن الجوزى : أبوالفرج عبدالرحمن بن على . المطبعة المصرية بالأزهر١٣٣١ .

(٤١) سيرة عمر بن الخطاب : على وناجى الطنطاوى . المكتبة العربية دمشق١٣٥٥

(٤٢) السيرة النبوية . ابن هشام : أبو محمد عبد الملك . المكتبة التوفيقية . القاهرة(د . ت)

(٤٣) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب : أبو الفلاح عبدالحى بن العماد الحنبلى دار الآفاق الجديدة . بيروت(د . ت)

(٤٤) شرح نهج البلاغة : عبدالحميد بن أبى الحديد . تحقيق الشيخ حسن تميم مكتبة الحياة . بيروت١٩٦٣

(٤٥) الشعر الإسلامى فى ظلال النبوة والخلافة الراشدة : د . عبدالسلام عبدالحفيظ .مطبعة قاصد خير . القاهرة(د . ت)

(٤٦) الشعر والشعراء : ابن قتيبة : أبومحمد عبدالله بن مسلم . تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر . ط ١٩٧٧/٣

(٤٧) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا : القلقشندى : أبوالعباس أحمد بن على المؤسسة المصرية العامة . القاهرة١٩٦٣

(٤٨) الصديق أبو بكر د . محمد حسين هيكل ط ٢ . مطبعة مصر ١٣٦٢ . القاهرة .

(٤٩) طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحى : قرأه وشرحه محمود محمد شاكر . مطبعة المدنى . القاهرة١٩٧٤

(٥٠) الطبقات الكبرى : محمد بن سعد : دار صادر بيروت١٩٥٧

(٥١) عبقرية الإمام : عباس العقاد دار المعارف القاهرة١٩٦٢

(٥٢) عبقرية الصديق : عباس العقاد دار الهلال . القاهرة ١٩٥٥

(٥٣) عبقرية عمر: عباس العقاد دار الهلال . القاهرة ١٩٦٨

(٥٤) عثمان بن عفان د . محمد حسين هيكل ط ٣ دار المعارف . القاهرة ١٩٧٣

(٥٥) عثمان بن عفان : صادق إبراهيم عرجون مطبعة الاستقامة القاهرة ط ١٩٤٧/١

(٥٦) العصر الإسلامي د . شوقي ضيف . دار المعارف . القاهرة ط ٧ . القاهرة ١٩٧٦

(٥٧) العقد الفريد ابن عبدربه الأندلسي : أبوعمر احمد بن محمد . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٠

(٥٨) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده : أبوعلى الحسن بن رشيق القيروانى الأزدى . تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد دارالجيل بيروت ط ١٩٧٢/٤

(٥٩) العواصم من القواصم فى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أبو بكر محمد بن عبدالله بن محمد العربى المعافرى . تحقيق محب الدين الخطيب . المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٧١

(٦٠) فتوح البلدان : الإمام أبوالحسن البلاذرى : راجعه وعلق عليه : رضوان محمد رضوان . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان ١٩٧٨

(٦١) فتوح الشام : الواقدى : أبو عبدالله محمد بن عمر . مصطفى الحلبى القاهرة ١٩٦٦

(٦٢) فتوح الشام : محمد بن عبد الله الأزدى : تحقيق عبدالمنعم عبدالله عامر مؤسسة سجل العرب . القاهرة ١٩٧٠ .

(٦٣) فجر الإسلام : أحمد أمين / مكتبة النهضة المصرية القاهرة ط ١٩٥٥/٧

(٦٤) الفن ومذاهبه فى النثر العربى د . شوقى ضيف . دار المعارف . القاهرة ط ١٩٨٠/٩

(٦٥) فى الأدب الجاهلى : د . طه حسين.دار المعارف . القاهرة ط ١٩٥٢/٢

(٦٦) فى ظلال القرآن : سيد قطب . دار الشروق بالقاهرة/١٩٧٨

(٦٧) القاموس الإسلامى : أحمد عطية الله . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٧٠

(٦٨) القضايا الكبرى فى الإسلام : عبدالمتعال الصعيدى . مكتبة درب الجماميز القاهرة(د . ت)

(٦٩) الكامل فى التاريخ : عز الدين بن الأثير . دار صادر بيروت ١٩٧٩

(٧٠) الكامل فى اللغة والأدب للمبرد : أبى العباس محمد بن يزيد . مطبعة الاستقامة . القاهرة ١٩٥١

(٧١) كتاب الصناعتين : أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكرى دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٥٢

(٧٢) لسان العرب : ابن منظور المصرى دار المعارف القاهرة (د . ت)

(٧٣) مجمع الأمثال : الميدانى : أبوالفضل أحمد بن محمد . القاهرة ١٣٥٢ هـ

(٧٤) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى . الحافظ نورالدين على بن أبى بكر الهيثمى ط ٣/ سنة ١٩٨٢ . دار الكتاب العربى بيروت .

(٧٥) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة : د/محمد حميدالله . دار الإرشاد . بيروت ط ٣/ ١٩٦٩

(٧٦) المحاسن والأضداد: الجاحظ : أبوعثمان عمرو بن بحر. طبعة ليدن ١٨٩٨م

(٧٧) المدخل إلى القيم الإسلامية : د/ جابر قميحة : دار الكتاب المصرى اللبنانى القاهرة ١٩٨٤

(٧٨) مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد . التجارية بالقاهرة ط ٣/ ١٩٥٨

(٧٩) المفضليات : المفضل بن محمد بن يعلى الضبى تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون . دار المعارف القاهرة ط ٦/ ١٩٧٩

(٨٠) المقابسات : أبو حيان التوحيدى . تحقيق وشرح حسن السندوبى التجارية بالقاهرة ط ١/ ١٩٢٩

(٨١) مقاتل الطالبين : أبو الفرج الأصفهانى . شرح وتحقيق السيد أحمد صقر . عيسى الحلبى : القاهرة ١٩٤٩ .

(٨٢) مقدمة ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد بن خلدون . دار الشعب بالقاهرة (د. ت)

(٨٣) الملل والنحل : الشهرستانى : أبوالفتح محمد بن عبدالكريم بن أبى بكر تحقيق : عبدالعزيز الوكيل . عيسى الحلبى . القاهرة ١٩٦٨

(٨٤) من الشعر المنسوب إلى الإمام على . جمعه وشرحه عبدالعزيز سيد الأهل . بيروت ١٩٨١

(٨٥) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . المعروف بالخطط المقريزية : المقريزى : تقى الدين أبوالعباس أحمد بن على مكتبة المثنى ببغداد (د. ت)

(٨٦) الموشح : المرزبانى : أبوعبيد الله محمد بن عمران تحقيق/ على محمد البجاوى . دار نهضه مصر . القاهرة ١٩٦٥

النثر الفنى فى القرن الرابع د . زكى مبارك . التجارية . القاهرة . د. ت

(٨٨) النقد الأدبى الحديث : أصوله ومناهجه د . أحمد كمال زكى الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٢

(٨٩) نقد الشعر : قدامة بن جعفر بن زياد . تحقيق كمال مصطفى/ مكتبة الخانجى . مصر ١٩٦٣

(٩٠) نهاية الأرب فى فنون الأدب : النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب . دار الكتب المصرية ١٩٥٤

(٩١) نهج البلاغة : وهو ما اختاره الشريف الرضى من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب . دار الشعب القاهرة (د. ت)

(٩٢) يوميات : عباس العقاد ج ٢ دار المعارف القاهرة ط ٢/ ١٩٦٩

فهرس الموضوعات

الشريحة الثانية :

الشريحة الثالثة :

الشريحة الرابعة :

الشريحة الأولى :

الشريحة الثانية :

الشريحة الثالثة :

الشريحة الرابعة :

رقم الايداع
١٩٨٥/١٧٤٠

طبعت بالمطبعة الفنية القاهرة ت ٩١١٨٦٢